

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق – سورية



Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS. P. O. Box : 4363. SYRIA


إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية
ISHBILIYAH
(SEVILLA)
Studies, Publication & Distribution
DAMASCUS. P. O. Box
SYRIA

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول : د. شاكر الفحام   رئيس التحرير : ناظم كلاس

العددان الثالث عشر والرابع عشر ـ محرم ١٤٠٤ هـ/تشرين اول (أكتوبر) ١٩٨٣

المراسلات :

جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السوريه
لجنة كتابة تاريخ العرب ـ مجلة دراسات تاريخية

ثمن العدد

سورية	٦٠٠	ق.س.	تونس	١٫٠٠	دينار تونسي
لبنان	٨٠٠	ق.س.	المغرب	١٤٫٠٠	دينار مغربي
الكويت	٧٠٠	ف.ك.	قطر	٩٫٠٠	ريال قطري
البحرين	١٫٠٠	دينار بحراني	السعودية	٨٫٥٠	سعودي
ليبيا	١٫٣٠٠	دينار ليبي			

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية او مايعادلها

للافراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية او مايعادلها

تضاف اليها اجورالبريد الجوي او العادي حسب
رغبة **المشترك**

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة
في السنوات السابقة بالقيمة نفسها

في هذا العدد

الصفحة

تنـويه

- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية
- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن راي كاتبها

تقـــديم

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، وقد اخذت على عاتقها مهمـة الإعداد لكتابة هذا التاريخ في موسوعة كاملة تكون المرجع الشامل في تاريخ الامـة العربية ، وهيأت مشروعا متكاملا لهذا الفـرض ، وبرنامجا تنفيذيا ، واصدرت مجلة « دراسات تاريخية » لتكون منبرا للاراء والافكـار والدراسات التي تلتـزم المنهجية التي اتفق على اتباعها في كتابة تاريخ امتنا ، ان هذه اللجنة لتعترف بقصور خطاها التنفيذية عما خططت له حين تصدت للقيام بهذه المهمة . ولكنها تود ان تؤكد انها تجاوزت مرحلة البدايات على صعوبتها وانها ، مع اطلالة العام الجامعي الجديد ، ستدفع بعجلة العمل الى الامام لتبدأ تباشير العطاء الذي نرجو أن يكون ثرا ومتناسبا مع ما نتطلع اليه .

وهذهاللجنـة، ليقينها بان مهمة كتابة تاريخ العرب مهمة تتجاوز حدود القطر الواحد وتفوق قدراته ، وانه لابد لها ، كي تتم على الوجه الأمثل ، من تعاون جميع الخبرات الاختصاصية على امتداد الوطن العربي ، رأت توسيع اتصالاتها بالاخـوة الزملاء المختصين في جامعات الوطن العربي ومؤسساته ، ومـد الجسور بينهـا وبينهم ليكونوا عضدها والمعبرين عن فكرها بين زملائهم ، فرشحت بعضهم ليكونوا « اعضاء مراسلين » يسهمون معها في اخراج هذا المشروع الجليل الى حيز الواقع ، بعد ن ظل ردحا طويلا حلما يراود الاذهان وخططا ومشاريع لم تعرف الى التنفيذ سبيـلا .

وطبيعي ان اللجنة ، حين اقدمت على هذه الخطوة ، لم تكن تقصد ان تقصر المساهمة على الزملاء المرشحين فحسب ، بل ان يكونوا همزة وصل لابد منها لدفع مسيرة العمل الى الامام . وهي ترحب كل الترحيب بكل من يرغب المشاركة ، وضم جهده الى جهدها .

ان مهمة كتابة التاريخ العربي مهمة قومية طال انتظارنا لها ، ولم يعد هناك من مبرر للاستمرار في اسلوب الجهود الفردية وغير المبرمجة في معالجتنا لهذا الجانب او ذاك من جوانب تاريخ امتنا ، ولا بد مـن ان تتكاتف كل الايدي المخلصـة لبلوغ الهدف النبيل الذي نسعى اليـه .

فكرة المغرب العربي
من خلال الوثائق الدبلوماسية

د . عبدالهادي التازي

مدير المعهد الجامعي للبحث العلمي
الرباط

اذا كان المغرب قد حافظ بجدية وفعالية على صلاته ببلاد المشرق عبر التاريخ، فان حفاظه على علاقاته بايالات المغرب الكبير ظل حقيقة قائمة ثابتة . ولم يكن مرد ذلك راجعا فقط الى الايمان بوحدة الواقع الجغرافي والسلالي واللغوي ، ولكن المغرب ما انفك يعتبر هذه الوحدة قدرا ومصيرا ، يجب أن تتضافر الجهود من أجل الاستجابة لها والاقتناع بضرورتها ، وهو حكم كان وليد تجارب قرون خوال بلغت فيها بلاد المغرب الكبير قمة عزها وأوج عظمتها عندما كانت موحدة قبل أن يتناثر عقدها وتتبدد كلمتها .

سوف لا أتحدث هنا عن الآثار التي خلفتها تلك النوازع والطموحات التي استهدفت بناءنا واستقرارنا نحن ابناء الشمال الافريقي ، كما وسوف لا أستعرض هنا تلك الايادي الخفية التي كانت تحرك هذا الفريق على ذاك او ذاك على هذا .. ولكني سأقصد الى ابراز بعض المحاولات التي بذلها المغرب من أجل تجسيد هذه الوحدة وجعلها حقيقة ملموسة ، ايمانا منه بأنها الطريق الذي لابديل له اذا كان القادة يهتمون حقيقة بقضايا الازدهار والتقدم في بلادهم ..

ولابد من الاشارة منذ البداية الى أننا نتحدث عن فترة محددة هي الفترة التي تبتدىء من اواسط القرن الحادي عشر الهجري/اواسط القرن السابعشر الميلادي، بل عن بعض الجوانب فقط من هذه الفترة ، واذا كنت صادقا مع وثائقي فانني امام مجرد اشارات ومضات ولكنها اشارات وومضات دالة عميقة تعطي البرهان بالوسيلة الواضحة على ان بلاد المغرب كانت ما تزال تحسن الظن بفكرة المغرب العربي ..

ولكي أجعل نفسي معكم في الجو الذي نتحدث عنه ، اذكر **اولا :** ان ايالات الشمال الافريقي ، باستثناء المغرب الاقصى ، لم تلبث ان وجدت نفسها وجها لوجه أمام العثمانيين الذين أصبحوا بالفعل سادة الموقف لفترة تتجاوز ثلاثة قرون ونيف ..

ثانيا : اذكر أن العثمانيين ظهروا على المسرح الدولي واختفوا منه ، وهم يحملون معهم الشعور المرير بسبب أنهم لم يتمكنوا من تحقيق كل ما كانوا يتوقون اليه في هذه المنطقـة . . !

ثالثا : انهم ، اي العثمانيين ، كونوا لهم خصوما شرسين في أوروبا كانوا ينظرون الى القسطنطينية نظرة حذر ويقظة . . وكانوا يبحثون ، بأي ثمن ، عن الحليف الـذي يساعدهم على تطويق الخطر العثماني .

رابعا : ومع أن جهاد العثمانيين كان يتجه نحو الممالك المسيحية جميعها . . فقد شاهدناهم ـ ومع ذلك ـ يعقدون اتفاقيات واوفاقا مع بعض تلك الدول لمضايقة دول مسيحية اخـرى . . .

خامسا واخيرا : ان العثمانيين اتـراك ، أي انهم ليسوا عربا . . . والايالات المغربية تعتز بالعروبة بل وتعتبر نفسها عربية . . . ومن ثمت قرانا عن الحملات التي كانت تشن بين الفينة والاخرى ضد النفوذ العثماني سواء منها الحمـلات المسلحـة او الدبلوماسية ، وقد كان من أبرز أولئك الذين حملوا على الاتراك ، المواطن الامازيغي السفير ابو القاسم الزياني الذي لم يترك فرصة دون رفع عقيرته بالشكوى من تجني بعض الاتراك على الايالات التي يحكمونها ، وقد سخر ذات يوم عندما سمع انهم (أي الاتراك) كانوا اذا استحسنوا من شخص ما عملا من الاعمال واكتشفوا ان القائـم بـه عربي . قالوا : « ما الطفه لولا انه عربي » ! وهي حملة من الزياني لهـا دلالتها التـي لا تخفى ، فقد نشأ الزياني في احضان الاسرة المغربية التي عرفت أوج أيامها في عهد المرابطين والموحدين ، عندما ازدهر قلم الانشاء العربي في دواوينهم وفي ممارساتهـم الداخلية والخارجية ، لانهم وجدوا فيه ، أي الحرف العربي ، علاوة على قدأسـته ، وجدوا فيه الوسيلة الفعالة لالتفاف البلاد على كلمة واحدة ، سواء في الاندلس أو في بـلاد المغـرب .



لقد قرانا في الرسالة التي بعثها أول ملوك الدولة العلوية الى الجزائر بتاريـخ ١٠٦٤هـ / ١٦٥٤ م ، قرانا شجبه للمد التركي في تونس وتلمسـان ، وانتقاده صنيـع السعديين قبله الذين لم يسعوا لتصفية تلك الامصار من وجود « الاعجام » على حـد تعبيـره . . !

كانت الرسالة من انشاء الشيخ التاجموعتي والقاضي رضوان ، ونصها محفوظ بالمكتبة المغربية . . .

هذا هو الوضع على ما رأينا . . . ولا بد اننا نتصور بعدهذا حراجة موقف المغرب على الصعيد العالمي ، سيما ونحن نعلم ان له التزامات سابقة مع المجموعة الدولية قبل ان توجد الدولة العثمانية .

ودعونا نستخلص الصورة لهذه الاقطار المغربية التي ظلت على ما اشرنا حريصة على تحقيق فكرة الوحدة في ظل عروبة شاملة .

ان القيام باحصاء دقيق لهدف السفارات الاجنبية التي تواردت على المغرب الاقصى في صدر دولة العلويين كان هو نفس الهدف الذي كان للبعثات الدبلوماسية التي وردت على المغرب أواخر العهد السعدي السابق :

كل الدول التي شعرت بمتابعة او مطاردة من القسطنطينية العظمى قصدت المغرب املا في أن تجد منه حليفا ضد تركيا ، سيما وقد كان المغرب من الجهات التي برهنت على صلابة عودها وقوة شكيمتها ازاء المد العثماني .

وجدنا في المغرب سفارات من دولة فارس التي تجاور تركيا ، ومن امبراطورية النمسا أيضا ، ووجدنا سفارات من هولندا ومن اسبانيا . . . كل يريد أن يصور الخطر الذي يكمن في الوجود التركي ، وكل يريد ان يبرر ضربهم والالقاء بهم في البحر !!

وبودي لو كان لنا متسع من الوقت لكي نستعرض جميع التقارير التي رفعها السفراء المعتمدون في المغرب الى حكوماتهم ، سواء فيهم من كان يتمتع بصلات خاصة بالبلاط أو من كانت له دالة على بعض رجال الدولة أو من كان منهم محترفا يباشر مهامه بموضوعية . . . ولكن لابد ان أذكر مع هذا ان في هذه التقارير ما كان يهتم بنوع الاغراء الذي كان يقدم للمغرب حتى يقوم بحركته الفاصلة ضد الاتراك في الايالات المجاورة . وأذكر — على سبيل المثال — من بين هذه الاغراءات تمكين المغرب من منطقة شاسعة تصل حدود طرابلس . . . ولكن تلك التقارير كانت تضطر أصحابها الاجانب للتعقيب قائلين :

« اننا مهما بذلنا من عروض للمغرب فسيظل عطفه على الايالات العثمانية هو نفسه بالرغم مما يلحقه من مضايقات من الاتراك ، اننا عندما نتحدث الى المغرب بما يبيت له طرف الاتراك لا يتردد في القول بانه باستطاعته ان يقف امام كل تحرك يستهدف النيل منه ،ولكنه لا يستطيع ان يمضي حلفا ضد اخوانه في الدين » . . .

في استطاعة كل واحد ان يقرأ في تقارير من هذا النوع تلاحم الاسرة المغربية وعملها في باب المحافظة على المبادىء الاساسية للتعامل .

دعونا نتتبع قليلا سفارة السير انطوني شيرلي A. Sherly الى الديار المغربية اوائل القرن السابع عشر ... لقد كان الامر يتعلق ـ كما نعرف ـ بتحرك دولي ، في البداية من الشاه عباس الكبير في أعقاب ما كان يبلغه عن المراسلات المغربية التي كانت تهنىء الباب العالي بانتصاراته ضد الصفويين ... ذلك التحرك الذي لم يلبث أن تعزز ايضا بتكليف انطوني شيرلي من طرف رودولف الثاني امبراطور المانيا ، ثم بمهمة البابا كليمان الثاني لدى ملك المغرب ، واخيرا بالفكرة الجريئة التي كانت تراود فيليب الثاني ملك اسبانيا لكسر الحلف العثماني الفرنسي المبرم عام١٥٤٣ بين سليمان القانوني وبين فرانسوا الاول ... نحن أمام رسالة حررت في مدينة مراكش بتاريخ ١٦ دجنبر ١٦٠٥ من طرف كوي Coy الوزير الهولندي المعتمد في العاصمة المغربية .

ان مهمة شيرلي تتركز على اقناع المغرب بمناهضة الاتراك وطردهم عن الشمال الافريقي ... وقد استنتج السفير الهولندي من هذا أن الطلب لابد أن يجاب **بالرفض من طرف العاهل المغربي الذي اعتاد على ان لا يحالف أحدا من المسيحيين ضد المسلمين .. اللهم اذا كان الامر يتعلق بدفاع عن كيانه ... ومع ذلك فقد كان يهدد ولا ينفذ !!**

وهذه الرسالة من الدبلوماسي الفرنسي الدكتور ارنول دوليسل A. de Lisle الذي كان طبيبا للاسرة الملكية قال : انه علم بواسطة الاميرة المغربية لالة صفية اخت السلطان أبي فارس ، أن شيرلي Sherly ورد من طرف اسبانيا لتأليب العاهل المغربي ضد تركيا على امتداد الساحل الافريقي ، من جبل طارق الى تونس ، وان ملك اسبانيا سيعد العاهل المغربي بمساعدته على هذه الحركة على ان يتم الاتفاق بعدالنصر النهائي على توزيع الشمال الافريقي بين ملك المغرب وملك اسبانيا ، فيصبح الساحل لملك اسبانيا والداخل كله لملك المغرب حتى تونس .

ويضيف التقرير الفرنسي بأن اسبانيا منذ ان ارتبط الاتراك باتفاقيتهم مع فرنسا أخذت تخطط لهذا المشروع وانها ، من اجل تحقيقه ، عدلت عن وعدها بمناصرة ملك البرتغال في وقعة وادي المخازن ، وان هذا المخطط لم يمت بوفاة السلطان المولى عبد الملك وجلوس اخيه احمد المنصور على العرش بل انها ، أي اسبانيا ، ما انفكت تستغل حوادث الحدود الشرقية مع الاتراك في الجزائر لتجعل العاهل المغربي

اكثر اقتناعا بقبول الحلف المذكور ، بيد ان ملك المغرب (يقول التقرير الفرنسي) ظل يتملص من اتفاق من هـذا النـوع ... ان المغرب غيـر متحمس للتحالف مـع المسيحيين ضد الاتراك ولو انه بالمرصاد لهؤلاء عندما تحدثهـم نفسهم بالتعدي علـى التراب المغربي ، وقد كان مما يشجع اسبانيا (يقول التقرير الفرنسي) على مفاتحة المغرب حول هذا المخطط اقناعه بالكره الذي يكنه ايضا سهل الجزائر وتونس للاتراك وميل السكان في المنطقة المذكورة لتكوين وحدة ضد الاتراك الذين ظلوا يعتبرون بعيدين عن المنطقة .

ويضيف التقرير الفرنسي ان نجاح مثـل هـذاالمشروع من شأنه ان يلحق ضربة قاسية بمصالح فرنسا بقدر ما هو في صالح اسبانيا سواء ايام الحرب وأيـام السلام ، ويختم التقرير بذكر انطباعات المبعوث الفرنسي على هـذا النحو : « انـه ، حسـب التجربة التي يتوفر عليها طيلة المدة التي قضاها بالمغرب لا يعتقد ان المسؤولين المغاربة يخدعون ابدا بعروض اسبانيا التي تظل العدو المشترك لكلا الفريقين » .

وقد ورد هذا التقرير في مجموعة (دوكاستري) المعروفة تحت عنوان (مصادر لم تنشر من تاريخ المغرب) (القسم السعدي الفرنسـي) السلسلة الاولى ، المجلـد الثاني ص ٣٣٠ ، وكذلك في (القسم السعدي الهولندي) السلسلة الاولـى ، المجلـد الاول ، ص ١٠٨ ، التعليق رقم ٢ ...

وان المرء ليشعر بالغبطة العارمة وهو يسمع في تلك الايـام عن الصلات المنتظمة التي كانت للجزائر مثلا بالمغرب ...

ولننتقل بعد هذا الى نوع اخر من الوثائق الدبلوماسية التي يزخر بها الارشيف الاوروبي ، وبخاصة الفرنسي والاسباني والتركي ...

لقد كانت تركيا على ما نعرف مرتبطة مع فرنسا باتفاقيات واحلاف كان اقدمها ما عقد بين السلطان سليمان القانوني وفرانسوا الاول سنة ١٥٤٣ ...

الاتفاقية كما اشرت تهدف ضرب مصالحاسبانيا ... لا لهدف الا انها تتخالفمع فرنسا حول قضايا تتصل بوراثة العرش ...

ولا بد ان تسير الولايات التابعة للباب العالي مع خط أهداف تلكالاتفاقيات .. وحيث أن المغرب ظل الصخرة التي تحطمت عليها مطامع الاتراك في الامتداد ، فقد كان على فرنسا ان تحاول بشتى الوسائل الدبلوماسية الحصول من المغرب على اتفـاق يشبه ما عقدته مع الباب العالي في شان مضايقة اسبانيا ...

وهنا ألفت النظر مرة اخرى الى ملف زاخر حافل بما كان يجري على ساحة المغرب الكبير من اصطدامات واحتكاكات ومواجهات لم تكن في الاصل من صنع محلي داخلي ، بقدر ما كانت من صنع أجنبي خارجي ، اي ان هناك ادمغة بعيدة عن المنطقة من حيث المسافة ومن حيث المعتقد ، ومن حيث الهدف ، تلك الادمغة هي التي تدبر ، وعلى الاخوة ان يقاتلوا لتنفيذ ما دبر . !!

نحن نعيش ايام المفاوضات الجارية بين السلطان المولى اسماعيل وبين الملك لويس الرابع عشر ، من اجل الوصول الى اتفاق . . . لكن المغرب قبل ان يقبل السير قدما في التوقيع على معاهدة من هذا القبيل ، كان يريد ان يعرف فوائد الاتفاق وعوائده منه قبل كل شيء ، ان مضايقة اسبانيا لاجل المضايقة فقط امر لايهم ، سيما وقضية وراثة العرش لاتتصل به ولا بتقاليده ، ولكنه مع ذلك يقبل ان يجلس للمناقشة على اساس . . . وقد كان السؤال الذي وضعه المغرب على مفاوضيه الفرنسيين هو : ماذا كانت فرنسا جاهزة لمساعدة المغرب على استرجاع مدينة سبتة ؟ لقد كان السلطان المولى اسماعيل قد حرر المعمورة وطنجة والعرائش واصيلا . . . ولكنه امام سبتة التي تحتاج الى عون واي عون !!

ان سبتة تشكل كما هو معلوم شبه جزيرة . . . ولذلك فان السيطرة عليها انما تتم لمن يتوفر على أسطول قوي ، ومن ثم كان القائد داود بن عائشة ، قائد الجيش المرابطي قد اشترط على الذين استنجدوا بالمغرب من الاندلس ان يوافوه بأساطيل ابن عباد لتحيط بسبتة قبل أن ينزلها هو من البر . . .

ومن ثم ايضا وجدنا السلطان المولى اسماعيل يستخدم في فترة من الزمن ورقته الدبلوماسية مع انجلترا عندما احتلت جبل طارق ، على نحو ما سيفعله السلطان المولى سليمان بمناسبة ظهور نابليون على الساحة الدولية . . .

لقد ظهر أن الملك لويس الرابع عشر كان يريد الحصول على توقيع اتفاقية بدون مقابل ،! ومن هنا شاهدنا تشنجا في العلاقات بين البلدين : فرنسا والمغرب . . . لم يلبث ان استحال الى توتر . . ومن العادي أن يقع بين الدول ذلك التشنج او التوتر عندما لا تصل الى اتفاق فيما بينها . . . ولكن الشيء الغريب أن يتحول القلق الدبلوماسي الى المواجهة المسلحة ، بل ان الاغرب من كل ذلك ان تكون هذه المواجهة على حدودنا ومع اشقائنا في الجزائر ، وان الاكثر غرابة من كل هذا ان نجد اثارا تدل على أن الحلف التركي الفرنسي كان يقوم بواجبه بكل نشاط في الناحية الشرقية من المغرب !

ومن ثم ففي استطاعتنا ان نستقصي حوادث الحدود بين المغرب والجزائر ونضبط تواريخها وايامها ، وننتقل في الوقت ذاته الى ايام التشنج والتوتر بين المغرب وفرنسا لنشهد الظاهرة الغريبة والمصادفة التي لا تخطىء عن الارتباط بين المساومات هنا والتشنجات هناك !!

ولا بد ان نشير بصفة خاصة لصورة من تلك المواجهات المؤسفة التي عرفتها سنة ١١٠٣ هـ/١٦٩٢ م قبل ثلاثة قرون ، حيث نجد خطابات مكتوبة موجهة من الاتراك الى لويس الرابع عشر تشكو من اتفاق مزعوم بين المغرب وتونس لتصفية الوجود التركي بافريقيا !! ونجد في الوقت ذاته خطابات تهديد للمملكة المغربية من الباب العالي الذي يتساءل عن السبب في عدم تحرير بقية الثغور المغربية والانشغال بوجود الاتراك في افريقيا !! الامر الذي لم يتردد السلطان المولى اسماعيل في الجواب عنه مخاطبا العثمانيين بما مفاده : **وماذا منعكم انتم من تحرير وهران الى الان مع انها في متناول اليد ، وعوض تخليصها تسمحون لانفسكم باذابة الاعراب هناك ...** ومرة اخرى نجد الاتراك يرفعون الشكوى للباب العالي بأمر « حلف » جديد موجه ضد وجودهم بافريقيا ، وهذا الحلف المزعوم هذه المرة يضم علاوة على المغرب كلا من طرابلس وتونس ... وقد جاء هذا الوهم من كون المغرب كان يتوسط في كثير من الاحيان بين الايالتين المتجاورتين ، تونس وطرابلس ، لاصلاح ذات البين فيما بينهما !

قد نتساءل عن مدى الصلة بين المغرب وبين تونس وطرابلس حتى يقوم المغرب بمعالجة مشاكلهما ... وهو سؤال موضوع حقيقة ، وفيه نجد بدورنا جوابنا عن الشعور الذي يخامر المغرب الاقصى بالاحتفاظ بالمغرب الكبير عربي القلب واللسان ... وانه ــ أي المغرب ــ بالرغم من تقديره للعثمانيين كمقاتلين مناضلين ، الا انه لم يخف استنكاره لشعورهم المعادي في بعض الاحيان على ما يقال ...

وان من المهم ان نشير لرسالة اسماعيلية الى لويس الرابع عشر بتاريخ ١٤ جمادى الاولى ١١٢٢ هـ ٢٢ يوليه ١٧٠٩ م ، يعرض المغرب فيها على فرنسا المساعدة العسكرية له ولحليفته تركيا ضد النمسا ... وقد جاء في هذه الرسالة قول العاهل المغربي : « انه بالرغم من نظرة تركيا للعرب ... وخوفها من وحدة كلمتهم .. فاننا على أتم الاستعداد للوقوف الى جانب فرنسا مادامت تعمل يدا واحدة مع تركيا ... » وقد جاء في الرسالة على الخصوص : **« ان الاتراك يحنقون على العرب حنقا زائدا وذلك لكثرة عدد العرب ... انهم لو اجتمعوا وغادروا الصحراء لامكنهم** ان يستنزفوا اكبر نهر في الدنيا ، علاوة على انهم يخافون اشد الخوف من أن يقوم العرب استقبالا بدور يأتي على ممالك تركيا وهو الشعور الذي يفيده عدم الاعتراف للعرب اطلاقا بما

يقدمونه للعثمانيين من مساعدات كان عليهم أن يعترفوا بها ويشيدوا بها ولا ينسوها. . ومع ذلك تقول الرسالة الاسماعيلية الى لويس الرابع عشر ـ فاننا نعلن عن استعدادنا لتقديم المساعدة والعون اليكم لطرد النمسا من اسبانيا وذلك بسبب واحد : انكم توادون الاتراك وتحبونهم . . . **وان حبنا نحن للاتراك نابع من كونهم حراس الحرمين الشريفين وبيت المقدس . . . »**

ولا ينسينا اهتمام المغرب باخوته الاتراك،التعرض للمشكل القانوني الذي وضعه الفصل العاشر من المعاهدة المغربية النمساوية . . . أن هذا الفصل ينص على انه اذا وقعت الحرب بين الملة النصرانية وبين الملة الاسلامية فان العلاقات بين الطرفين المغربي والنمساوي لا تتأثر بهذه الحرب بل تبقى المحبة والمودة بين الجانبين . اذا ما قارنا هذا الفصل بما ورد في نص الشعار الذي رفعه المغرب آنذاك : **« نسالم من يسالم تركيا ونحارب من يحاربها »** واذا قارناه بما ورد في خطاب العاهل المغربي لملك فرنسا ، فسنجد أن هناك تناقضا بين هاته المواد . . .

والواقع ان المغرب ظل يتجاهل ، بكل بساطة ، سائر البنود التي تحد من اتصالاته باخوته في الدين مهما كانت النتائج . . . ومن الامانة للتاريخ ان نحضر حوارا بين العاهل المغربي واحد وزرائه ممن كانوا لا يرون جدوى في اغداق المساعدات على العثمانيين ، لقد سأل العاهل وزيره عما يقوله الناس حول مساعدته المادية للاتراك ، فأجابه الوزير بصراحة زائدة : انهم يقولون : لو صرفت هذه الاموال في **الجهاد بالمغرب لكان أولى . . .** ولكن العاهل المغربي اقنع وزيره بأن الامر يتعلق بالتخفيف عن الاخوة من الضربات الموجعة التي تتوالى عليهم من أعداء الاسلام ـ على حد تعبيره .

وحتى نعرف ان وقوف المغرب الى جانب فرنسا لم يكن موقفا عشوائيا . . يجب أن نرحل الى الارشيف الفرنسي لنجد من جهة اخرى رسالة احتجاج قوية اللهجة تصدر عن المغرب الى فرنسا بصدد الاعتداء الذي **وقع على تونس من طرف الجيش الفرنسي . . .**

ويتعلق الامر بالقلق الشديد الذي عم المغرب وهو يسمع عن قصف المدفعية الفرنسية لسوسة . . . بعد أن امتنع الباشا علي باي عن ارضاء المطالب الفرنسية الملحة . وهكذا نجد رسالة **تحمل تاريخ ٦ ذي القعدة** ١١٨٤ هـ/٣ مارس ١٧٧٠ م موجهة من العاهل الى لويس الخامس عشر . . . وقعها عنه الوزيران المعروفان : احمد المهدي الغزال ، وعبد الهادي السلاوي . . .

لقد أعطى السلطان سيدي محمد بن عبد الله مهلة أربعة شهور لكي تعيد فرنسا النظر في سياستها ازاء تونس والا فانه مضطر لاشهار الحرب عليها ..! الامر الذي جعل فرنسا تجيب عن الاحتجاج معتذرة وموضحة الاسباب التي دفعت بها لقصف المدينة . وتم الاتصال عندئذ بالقنصل الفرنسي بالمغرب الذي عبر عن الرغبة في ان تعود المياه الى مجاريها .

وان مما يدخل في اطار الثقة المتبادلة بين أطراف المغرب : التزكية التونسية التي اعتمدها المغرب فيما يتعلق بتبرئة ساحة جمهورية (دوبروفنيك) مما الصق بها من عبث سفنها التجارية بالحجاج المغاربة وانزالهم بمالطة عوض تطوان وسلا ! تلك الشهادة التي أنشأها العدل التونسي السيد أحمد بوستة ، وزكاها شيخ المغاربة بتونس الحاج عبد السلام مقنين ... ونحن نعلم أن هذه الحادثة هي التي سببت ضرب الحصار من طرف المغرب في البحر المتوسط على سفن سائر الدول الاوربية ما دامت لم تساعد على كشف هوية السفينة المعتدية ... فعلا تبين امر المغاربة الذين عادوا يحكون عن أيامهم التعسة في « مالطة لا فراش و لاغطا » ... مصداق المثل المغربي المشهور الذي يقول : الله يديه لمالطة لا فراش ولا غطا !

فماذا عن الاحتلال الاسباني الذي تجدد لوهران ؟ لقد كتب السلطان محمود الاول الى العاهل المغربي يطلب اليه الاستمرار في مساعدته للعثمانيين من اجل تخليص الثغر ... وكانت فرصة اغتنمها السلطان سيدي محمد بن عبد الله لعقد اتفاق سري يهدف الى العمل يدا واحدة لتطهير السواحل المغربية من الاحتلال الاسباني « من وهران الى سبتة » على ما تذكره الرواية الاوربية .

وهنا نفتح ملفا من الملفات الحزينة التي تكشف عن جوانب اخرى من المعوقات الخارجية التي كانت تقف دون الخطوات نحو الوحدة بعد أن سمعنا عن المعلومات السابقة ...

ويتعلق الامر بالتناور الذي كانت تقوم به اسبانيا ايضا للتأثير على بعض الدايات ... ان اسبانيا ـ كما قلنا ـ كانت تبسط نفوذها على بعض الثغور الجزائرية على نحو ماكان عليه الامر بالنسبة للمغرب ، وفي كل مرة كانت اسبانيا تشعر بعزم صادق من احدى الجهتين لمد يده ليد الجهة الاخرى ، تعمد الى هذه الجهة أو تلك لتمني وتغري ، وهنا كنا نشهد الكوارث ... ولابد من العودة الى الوثائق الاسبانية لنقرأ مئات الدلائل على ضروب الكيد والغدر التي كانت توجه في الخفاء ضد التقارب بين أقطار المغرب ولكسر كل تضامن يهدف لتصفية الاحتلال الاسباني على سواحل بلاد المغرب ...

هل نحن بحاجة للتذكير بما حصل والعاهل المغربي يحاصر العرائش . . ويجهز جيشه نحو شمال المغرب . . . كلنا يعلم ان هذا الوقت بالذات هو الذي اختير للمناوشات التركية على الحدود الشرقية . . ! بل ان كلنا يعلم ان الامر لم يكن مجرد (صدفة) ولكنه كان وليد (وصفة) استعمارية ! وبهذه المناسبة ارجو أن تسمحوا لي أن الفت النظر الى ان المؤرخين الذين يكتفون بالحديث عن « اصطدام هذا الجانب بذاك او تحرش ذاك بهذا » او يتحدثون عن فشل هذه التجربة بوجود فلان او فلتان كانوا ، في نظرنا ، مؤرخين قاصرين سطحيين . . . ان عليهم ان يبحثوا عن أسباب الفشل ليس فقط فيما تتناقله مؤلفاتنا المتداولة العادية ، ولكن فيما يوجد على الاقل بأرشيفات استانبول وفرنسا واسبانيا . . . ومن المؤسف حقا ان نظل في هذه الحلقة المفرغة بالرغم من ظهور المصادر الدفينة والوثائق المعاصرة . . .

وما بالنا نروح بعيدا . . . دون ان نقف قليلا مع السلطان سيدي محمد بن عبد الله اثناء حصاره لمدينة مليلية في أعقاب الاتفاق الذي تم بينه وبين محمد باشا .

فلقد تحدثت المصادر المغربية عن فك الحصار بصفة مفاجئة . . . واخذت تتساءل عن الاسباب التي كان علينا أن نجدها في المصادر الاسبانية وفي المصادر الانجليزية . . . بل — وهذا شيء مطرف — أن نكتشفها في كتب النوازل الفقهية الذي قد تعتبر بعيدة عن المصادر التاريخية . .

لقد كان الامر يتعلق بخذلان من طرف الداي، الذي لم يكتف بالتراجع فيما ابرمت يداه سنة ١١٨٨ هـ/١٧٧٤ م ولكنه انزل جام غضبه على الجزائريين الذين تطوعوا للجهاد مع العاهل المغربي من عرب المغرب الاوسط ، فاستباح دماءهم وروع اولياءهم وطوفهم في الازقة على حد تعبير الاستفتاء الذي هز رجال الفقه والدين بالمغرب والمشرق من الذين راوا في النازلة اهانة جارحة ، ولابد ان ترجعوا الى نصوص هذه الفتاوى التي تظل وثائق تاريخية الى جانب انها مراجع هامة على مستوى الفقه العالي ، وهكذا فان (معاداة) الاتراك لكل انواع التقارب العربي عملت مع طول الايام على تغذية الشعور بأن هناك فريقين من الناس فريق الاعراب وفريق الاتراك ، وان هذا الفريق غير ذلك الفريق . . ! وكلنا على علم مما ورد في تقارير السفراء المغاربة واكدته المصادر الاسبانية ، من ان تركيا كانت تميز بين أسراها المحتجزين بالدول الاوروبية ، فاذا كانوا من أصل تركي افتدتهم ، واذا كانوا من أصل عربي امتنعت من ذلك . . . وهذا ما قرانا في مذكرات السفير ابن عثمان سواء عندما كان في قرطاجة أو كان في

نابولي ، حيث افتدى برسم المغرب ، سواء لما كان هنا أو هناك ، مئات الاسرى من أصل عربي(١) ...!!

وهكذا يستطيع المؤرخ المنصف ان يدرك انه اذا ما كانت بعض ثغورنا قد تأخر تحريرها او تعطل أو تعثر ، فان جانبا مهما من التبعة تقع على كاهل « الذين » يهمهم ان يصيخوا باسماعهم الى مخططات « بعيدة عن الساحة المغربية » ، وان الذين يتجاهلون الجوانب المضيئة في تاريخ التعاون بين الايالات كانوا هم الاخرين يتحركون من منطلقات غير موثقة وربما مغرضة ، وكيف نفسر اطباق المصادر التركية ذاتها ، وعلى رأسها المؤرخ التركي والنائب البرلماني عزيز سميح في كتابه (كتاب الاتراك في شمال افريقيا) الذي فيه ، في المجلد الثاني منه (ص ٤٥) بالحرف الواحد : « لقد كان الغرض من حصار السلطان المولى يزيد لسبتة هو مضايقة اسبانيا حتى تخضع لضغط الجزائر ... وكيف نفسر تهافت عرب الجزائر على ساحات القتال الى جانب اخوانهم المغاربة لتخليص البلاد من نير الاحتلال الصليبي .

ثم كيف نفسر التصريح الملكي الذي وزعه الدبلوماسي المغربي السيد محمد القادري على أعضاء السلك الاجنبي بتاريخ ٥ رمضان ١١٩٢ هـ ـ ٧ شتنبر ١٧٧٨م ، والذي يعطي ، حسب الفصل الخامس منه ، الحماية الكافية للمراكب الجهادية الجزائرية التي ترسو بالساحل المغربي ، والذي يزودها بكل ما يدفع عنها غيلة المطاردين والمتتبعين من الاسبان او من غيرهم ، انها وثائق تحمل أسماء معروفة .. وتواريخ محددة ...

واخيرا كيف نفسر الانذار الذي وجهه المغرب الى الدول الاوروبية التي كانت تهدد الجزائر وتعتزم اقتحام ترابها أواخر ١١٩٩ هـ /١٧٨٥ م(٢) « فالذي قبل منهم كلامنا ورجع ولم يدخل الجزائر وغيرها من مراسيهم فنحن معهم على الصلح والمهادنة كما كنا ، والذي اراد منهم دخول الجزائر ومراسيهم ولم يتمثل ما أمرناه به فنحن معه على المحاربة » على حد تعبير التصريح الملكي الذي يحتفظ به أرشيف فيينا ...

وقد كان التقارب بين المغرب والجزائر محل تتبع واهتمام زائدين من الباب العالي لانه كان يرى في تلك الوحدة نذيرا على وجوده بالشمال الافريقي ، ولذلك

---

١ ـ الاكسير في فكاك الاسير ، منشورات معهد البحث العلمي ١٩٦٥ ـ البدر السافر ، (مخطوط) بالمكتبة الملكية تحت رقم ١٣١٥ .

٢ ـ يتأكد هذا في رسالة بعث بها العاهل الى القنصل الاسباني منويل سلمون بتاريخ ٤ ذي القعدة ١١٩٩ ـ ٨ شتنبر ١٧٨٥ (وثائق مدريد) المحفوظة في تطوان .

1199

كافة القونصوات الذين بثغر طنجة السلام على من اتبع الهدى اما
بعد نامركم ان تعلموا اجناسكم بان اهل الجزاير ان يعملوا مع جنس
الاصبنيول الصلح الذي امرهم به السلطان العثماني نصره الله صلحا تاما حتى ي
امرهم ويحلي بركات الله وان لم يعملوا ما امرهم به فها انا نوجه عشرة
براكيط انشا الله من براكيطنا الجهادية لباب مرسة الجزاير
ونمنع جميع اجناس النصارى من الدخول للجزاير وكذلك الاصبنيول
يوجهون عشرة من براكيطكم ثم يتكلمون مع اهل الجزاير ان انا
كلامي مع اجناس النصارى الذين يريدون الدخول للجزاير غيرة
من مراسي الجزاير والذي قبل منهم كلامنا ورجع ولم يدخل الجزاير
وغيرها من مراسيهم نحن معهم على الصلح والمهادنة كما كنا والذي اراد
منهم دخول الجزاير ومراسيهم ولم يمتثل ما امرناه به نحن معه على
المحاربة

2
1199

نسخة من الانذار الذي توجه به الملك محمد الثالث
الى السلك الدبلوماسي بطنجة بتاريخ 2 ذي القعدة 1199

فانه بالرغم مما يصل الباب من المغرب من شكاوى متتابعة بسوء تصرف الاتراك هناك، كان يتغاضى عن معالجة الاحوال خوفا من تحقيق الهدف ... بل انه أي (الباب العالي) كان يشجع الوشايات التي تقصد لضرب كل تلاحم بين الايالة نفسها والايالات العربية المجاورة سيما وهو يسمع عن الوفود المتوالية الى المغرب .

واظن انه من المفيد لتصوير الموضوع أن نستعرض هنا تقريرا سريا رفعه السفير التركي اسماعيل افندي سنة ١١٩٩/١٧٨٥ بعد مهمة له لدى الملك محمد الثالث ، حيث ورد يشكر العاهل على المساعدة القيمة التي قدمها للحكومة التركية في أعقاب صلحها مع اسبانيا وطلبها من واليها بالجزائر أن « يتفاهم مع اسبانيا » ، لقد جاء في تقرير السفير العثماني لحكومته حسبما وقفت عليه في ارشيف رئاسة الحكومة في اسطانبول ، هذه الافكار التي نلخصها فيما يلي :

لقد حضرت مع العاهل المغربي صلاة الجمعة بمسجد السنة ، حيث دعى في الخطبة للسلطان عبد الحميد . وتعليقا على موضوع خطبة الجمعة ذكر الخطيب بما يتم من ظلم من قبل الاتراك ، وبعد حوار بين العاهل والسفير خلع عليه الملك رداءه .. تقرير طويل يخلص فيه الى القول : بأن الذي يظهر لي أنه – أي ملك المغرب – يكن للدولة العلية الحب وانه مستعد لتقديم جميع ما في خزائنه من مال للقضية الاسلامية .. **الا أني فهمت من المولى محمد أنه عاتب على الباب العالي ضعفه أمام الظلم الذي يقع على العرب والفقراء والعلماء والاشراف في الجزائر** مما قد يؤدي الى انهيار مملكة السلطان عبد الحميد ، على حد التقرير الدبلوماسي .. وانه على السلطان أن يسمح بتنصيب باشوات من أصل جزائري يختارهم الشعب الجزائري دون تدخل العسكر الاجنبي على نحو ما في تونس وطرابلس .. وفي أثناء اقامتي – يقول السفير اسماعيل أفندي – ورد وفد على المغرب من **أعراب الجزائر** يحكون ما يلقونه من **عنت ومظالم يمجها العقل ويرفضها الشرع ..**

واذا ما عرفنا ما يتمتع به سيدي محمد من سمعة لدى اشراف الحجاز وحكام مصر واليمن ، أدركنا مدى ما ينتظر السلطان عبد الحميد من ضرورة الحذر واليقظة .. »

ويظهر ان التقرير السري ترك اثره في الباب العالي الذي لم يعد له منذ الان حساب ضد اسبانيا حيث وجدناه يبرم معها معاهدة صلح في أعقاب انتصارها ضد الاسطول الانجليزي في ميورقة ، كما وجدناه يوجه بأوامره الى واليه بالجزائر محمد عثمان باشا ، لكي يسلك نفس الطريق مع الاسبان تمهيدا لانفراج تستفيد منه

التقرير السري الذي رفعه اسماعيل أفندي ، سفير السلطان عبد الحميد الى الملك سيدي محمد بن عبد الله عاهل المغرب. وفي هذا التقرير يلفت السفير نظر الدولة العثمانية الى السمعة الطيبة التي يتمتع بها سلطان المغرب في سائر الاقطار الافريقية بل وفي الحجاز واليمن ... ويذكر السفير ان العاهل المغربي يبذل قصارى جهده للابقاء على عروبة المنطقة وابعاد النفوذ التركي عنها ...

إسطانبول في أعقاب المد الروسي الذي اخذ (حسب المادة الثانية عشر من اتفاقية مع السلطان عبد الحميد) يتجه نحو الولايات العثمانية في الحوض المتوسط الامر الذي كانت تركيا تعض عليه بنان الندم ..

وهكذا ايضا فالى جانب التقارير الاوربية التي تحدثت عن « خميرة » الوحدة ، وجدنا التقارير التركية بدورها لم تخف شعورها بما يسود من آراء ازاء هذه الوحدة .. ولنترك اوربا وآسيا لننتقل الى أمريكا الشمالية ، الى الولايات المتحدة بالذات التي نراها ، وقد تأزم الوضع فيما بينها وبين ايالة طرابلس وايالة تونس، تقدم بعد مصادقة الكونغرس على الاتفاقية المغربية الامريكية ــ تقدم على ارسال خطاب باسم الرئيس جورج واشنطن الى الملك محمد الثالث بتاريخ ٢٣ يونيه ١٧٨٧ تطلب اليه ان يقوم بمساعيه الحميدة لدى الايالتين من أجل بناء علاقات افضل بين امريكا وتونس وطرابلس . ان هذه الرسالة بما تبعها من أجوبة ملكية مغربية تعبر عن كثير من الحقائق التاريخية ... فهي من ناحية تعكس الروح الطيبة السائدة بين بقية اقطار المغرب العربي كما تدل على أن فكرة الوحدة في طريقها الى التحقيق ، وهي الحقيقة التي تؤكدها المبادرة الامريكية التي بعثت لايالة الجزائر بالمستر جوهن لامب John Lamb وان من ابرز ما يجسد هذه الحقيقة تعاون العاهل المغربي مع حاكم طرابلس وتونس على الحد من تحرك الاسطول الروسي في المنطقة وخاصة منعه من الاقتراب من بوغاز جبل طارق في محاولة للتخفيف عن الباب العالي من ضربات الروس ... وهذا يكون أيضا عنصرا واضحا من باب بناء المغرب العربي .

بل هناك بادرة تدل في مضمونها على الحاجة التي أخذت تشعر بها الايالة الجزائرية ، ويتعلق الامر بطلب تقدم به داي الجزائر الى السلطان المولى سليمان يطلب اليه ان يبعث بوفادة مغربية لاصلاح ذات البين بين داي الجزائر وبين طائفة دينية ، لقد كان النزاع في الواقع بين عرب تلمسان وبين تركيا على نحو ما نراه اليوم في قبرص بين الاتراك واليونان .. !

وقد ظهرت في الافق سحابة خطيرة في سماء العلاقات المغربية الامريكية كادت ان تؤدي ــ ان لم تكن قد ادت فعلا ــ الى اشهار الحرب من طرف المغرب على الولايات المتحدة الامريكية سنة ١٢١٨ / ١٨٠٣ ، وقد يظهر انه من باب المبالغة والتهويل القول بأن السلطان المولى سليمان يعلن الحرب على الرئيس الامريكي طوماس جيفرسن !

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم
من عبد الله [illegible] أيده الله آمين

[illegible]
[illegible] الصلح [illegible]
[illegible] على السعادة [illegible] التامة [illegible]
[illegible]
[illegible] 1202

يعتبر جورج واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية ، وهو : توماس جفرسون [illegible] الى الملك
محمد الثالث يطلب إليه أن يبذل مساعيه الحميدة بين طرابلس وأمريكا ، وهذا جواب
الملك المغربي على رسالة الرئيس الأمريكي ، وهو بتاريخ 15 ذي القعدة 1202 هـ / 17[illegible]
1788 م) يعده بالتدخل [illegible] السلام ...

— 64 —

ولكن الواقع هو ذاك على ما نقراه في المصادر المغربية والليبية والوثائق الامريكية على السواء ... وليس المهم هذا ولكن المهم ان نعرف عن اسباب هذا التوتر الذي لم يكن غير استجابة المغرب لطلب الوفد الليبي الذي ورد يطلب امداد طرابلس بما تحتاج اليه من مواد ، ولم يكن غير مساعدة طرابلس وهي تحاصر السفينة الامريكية فيلادلفيا ! اعتبر الجانب الامريكي ذلك خرقا للبند الثاني من الاتفاقية الثنائية وهو ينص على عدم تقديم المساعدة من جانب احد الطرفين لعدو الطرف الآخر ... ولم تتصور امريكا كيف يستطيع مركب مغربي يحمل اسم (مبروكة) بقيادة الرائس ابراهيم لوباريس ان يحجز مركبا امريكيا يحمل اسم Celia

وكما وجدنا المغرب لا يعجز عن تقديم التفسير عندما احتجت النمسا بالامس على مساعدة فرنسا حليفة تركيا ، كذلك وجدناه اليوم يعتمد على تفسير الفصل السادس من المعاهدة المغربية الامريكية بأن مفهوم « المور Maures » بالنسبة الى المغرب شامل لجميع الاسرة الاسلامية سواء كانت في المغرب أم في المشرق !!

وهكذا وبعد مفاوضات صعبة بين وزير الخارجية المغربية محمد السلاوي وبين المبعوث الامريكي سيمبسون توصل الطرفان الى تسوية بالافراج عن السفن المحتجزة لكل من المغرب وامريكا .

ومما نسجله على هامش استيلاء الاسطول المغربي على قطعة من الاسطول الامريكي ... ان وفدا من تونس برئاسة الشيخ ابراهيم الرياحي كان يوجد في حضرة العاهل اثناء وصول البشريات بحجز المركب الامريكي فانشاه قصيدة ميمية طويلة يهنىء العاهل فيها ، وكان مما ورد فيها قوله :

دلائل فضل الله فينا تترجم	وان غفلت عنها طوائف نوم
ومن اكرم النعما ولاية من له	علينا وفينا حكمة وتحكم !

وهكذا وجدنا أن هذه الفترة عرفت يقظة جماعية ... في سائر الايالات بضرورة التئام الصف وكان مما عكس هذا الشعور ارسال وفادة من المغرب الى الجزائر كانت برئاسة الامير مولاي ابراهيم لتقديم المواساة في اعقاب مداهمة الاسطول الانجليزي للساحل الجزائري ...

وبالرغم من الامر العثماني الذي صدر لولاية الجزائر في تاريخ ١٥ ربيع الاول ١٢٤٥/١٤ شتنبر ١٨٢٩ بعدم مساندة المغرب الواقف ضد بحرية النمسا ، بحجة

ان هذه الاخيرة في حالة سلم مع تركيا ، فان المغرب مع ذلك **اعلن الجهاد الشامل** عندما تمكنت فرنسا من انتزاع الحكم من الاتراك في الجزائر ، الامر الذي أعقبته الكوارث والاهوال بالنسبة للمغرب الذي اصيب في أسطوله: وكان اسطورة البحار ... المغرب الذي تعرض لحروب مع فرنسا قصمت ظهره فاستهدفت لتألب القوى الاستعمارية عليه من كل حد بوصوب على ما نعلم .



تلكم ومضات عن تجارب **حول فكرة وحدة المغرب الكبير** من خلال الوثائق الدبلوماسية وعن معوقاتها الحقيقية التي كانت كما راينا تحمل هويات أجنبية عن الساحة المغربية ، فمرة اسبانية ومرة ثانية فرنسية ومرة ثالثة جهة أخرى ... كانت جميعها تستهدف كما راينا أن تبقى بلاد المغرب مفتتة مجزاة منهوكة القوى ، في حين كانت فيه هذه الايالات تسعى جاهدة للتواصل فيما بينها بشتى الطرق والوسائل على ما راينا سلفا من تنقل الوفود عبر الشمال الافريقي لاحياء آصرة الود والاخوة فيما بينها ...

وساقف عند هذا الحد تاركا الفرصة لاجترار تلك الاحداث ربما كان في ذلك ما يساعدنا على ان نكون اكثر وعيا واكثر استفادة من التاريخ !

لقد مرت فكرة المغرب الكبير بفترات تعثر لم تكن الايالات مسؤولة عنها بحال . ومن حسن الحظ أن نسجل أن نسبة فترات اللقاء كانت أوفر وأكثر ... وأن شعور المسؤولين بوحدة مصيرهم كان يهيمن على كل شعور ، وهكذا فقد ظلت هذه البلاد جميعها تنشد اليوم الذي تصبح فيه وحدة متراصة ضد الاطماع الخارجية ولصالح ازدهار المنطقة .

خالد بن يزيد بن معاوية
واهتماماته العلمية

د. محمد عبد القادر خريسات

الجامعة الاردنية

حياتـه ونشأتـه :

هو ابو هاشم(١) ، خالد بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان . ولم تشر المصادر الى تاريخ ولادته ولكن يبدو انها كانت بين سنة ٤١ – ٤٥ هـ(٢) . واختلفت المصادر في تاريخ وفاته ، فقد ذكر البلاذري(٣) والسيوطي(٤) انها كانت في ايام عبد الملك بن مروان ولم يحددا سنة الوفـاة .

وذكره ابن الوردي (٥) في وفيات سنة ٨٢هـ ، وذكر العسقلاني(٦) انه توفي مع روح بن زنباع في عام واحد ثـم اضاف قائلا : وبلغني بوجـه آخر ان روحا مات سنة ٨٤ هـ ، وقال بذلك الذهبي(٧) وابن كثير (٨) على حد بعض رواياتهم .

وذكر الذهبي(٩) في رواية اخرى انها كانت سنة ٨٥ هـ ، ووافقه على ذلك ابن العماد الحنبلي(١٠) ، واسماعيل باشا البغدادي(١١) واليافعي(١٢) .

وذكر ابو حنيفة الدينوري(١٣) انها كانت سنة ٨٦ هـ . وذكر سنة ٩٠ هـ كلّ من ابن عساكر(١٤) ، والذهبي(١٥) ، والعسقلاني(١٦) ، وابن كثير(١٧) ، وابـن العمـاد الحنبلي(١٨) .

وبالنظر الى هذه التواريخ يمكن ملاحظة ما يلي :

أولا : ان وفاة خالد قبل سنة ٨٦ هـ ، مستبعدة لمـا يذكره ابو حنيفـة الدينوري(١٩) ، انه لما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة سنة ٨٦ هـ ، أخذ البيعة لابنه الوليد ، واذن لبني امية فدخلوا عليه ومنهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية ، فقال لهما : يا بني يزيد اتحبا ان اقيلكما بيعة الوليد ، قالا : لا معاذ الله يا اميـر المؤمنين ، قال لو قلتما غير ذلك لامرت بقتلكما على حالتي هذه .

ثانيا : ان وفاته كانت في خلافة الوليد بن عبد الملك ، لان الوليد هو الـذي صلى عليه ، وسار في جنازته .

ثالثا : نظرا لاجتماع كل من ابن عساكر والذهبي والعسقلاني وابن كثير وابن العماد الحنبلي على أن وفاته كانت سنة ٩٠ هـ ، فتكون هي أقرب السنوات الى وفاتـه(٢٠) .

اما زوجاته فقد تزوج من كل من آمنة بنت سعيد بن العاص ، ورملة بنت الزبير وقد كانت هذه معروفة بالجزالة والعقل والفضل ، وعائشة بنت عبد الملك(٢١) وابنة عبد الله بن جعفر ، وقال مصعب الزبيري ومن الناس من ينكر هذا الزواج(٢٢). واما أولاده(٢٣) فهم سعيد ، ابو سفيان ، عتبه ، حرب ، يزيد ، عبد الله .

ووصفته المصادر بالشجاعة والجراة ، فقد تهدده عبد الملك بن مروان مـرة بالسطو والحرمان فقال له : اتهددني ويد الله فوقك مانعة ، وعطاؤه دونك مبذول . هذا وقد قال له عبد الملك يوما : « ما اجراك علي ياخالد » (٢٤).

وبسرعة البديهة ، وحضور الجواب ، دخل على عبد الملك يوما فقال له ، ما لي أراك كالغضبان ؟ قال لست بغضبان ولكني محجوج . قال ومن حجك وبيانك بيانك ولسانك لسانك(٢٥) .

وبالجود فقد جاءه رجل فقال له : اني قد قلت فيك بيتين ولست انشدهما الا بحكمي فقال له قلْ ، فقالَ :

سألت الندى والجود حران انتما   فقالا بلى عبـدان بيـن عبيـد

فقلت ومـن مولاكمـا فتطـاولا   علـي وقالا خالـد بـن يـزيـد

فقال له فكم فقال مائة الف درهم فامر له بها(٢٦) .

والتواضع ، فقد قال عن نفسه لست عالما ولا جاهلا ، بل جامع كتب(٢٧) . كما وصفته بطول الصمت . قال له مولى له ارى الناس يخوضون فيما أنت أعلم به منهم وانت ساكت فقال ويحك اني عنيت بطلب الاحاديث والعلم وصححت ذلك فأخاف أن نشرت ذلك أن يحفظوه(٢٨) .

بنو امية والعلوم :

اهتم بنو امية بالعلم منذ العصر الجاهلي ، فقد اشارت المصادر الى ان حرب ابن امية اول من كتب العربية ، وابو سفيان كان من المعلمين في مكة حيث تعلم الكتابة، ومعه ابو قيس بن عبد مناف بن زهرة ــ على يد بشر بن عبد الملك العبادي فعلما اهل مكة(٢٩) . ولما جاء الاسلام كان ستة من بني امية ، من اصل سبعة عشر قرشيا ، يكتبون ، منهم ثلاثة من آل حرب : ابو سفيان ، ويزيد بن ابي سفيان ، ومعاوية(٣٠) . وقد تولى معاوية الكتابة للنبي « ص » خاصة فيما يتعلق بالقبائل العربية(٣١) ، كما كان واخوه يزيد من خطباء قريش(٣٢) .

ولما تسلم معاوية الخلافة اهتم بالعلم والمجالس العلمية ، ففي دمشق قرب اليه اصحاب العلم ، يستمع منهم الى اخبار الامم السابقة ومآثرها . وفي خارج دمشق كان يتابع اخبار أهم هذه المجالس ، واهمها مجلس القلادة في المدينة ، وكان يضم افاضل قريش وعلمائها(٣٣) .

وقد اشار ابن عباس الى اهتمام بني حرب بالعلم فقال : اذا ذهبت بنو حرب ذهب علماء الناس(٣٤) . ويذكر يوسف العش(٣٥) ان معاوية الاول اول من اوجد مكتبة « بيت الحكمة » واحتفظ بها خالد بن يزيد فيما بعد واغناها بمجموعة الحديث وكتب الكيمياء والطب والفلسفة . ولا غرابة في ذلك فقد ذكر حاجي خليفة(٣٦) انه جمع لخالد بن يزيد ما يزيد على ثلاثة الاف كتاب مؤلفة في علم الكيمياء .

وهذا الاهتمام العلمي اقتضى الاتصال بالثقافات التي كانت سائدة في بلاد الشام قبل الفتح الاسلامي . وبذلك كان معاوية بن ابي سفيان من الرواد الاوائل الذين قاموا بالاتصال بهذه الثقافات ، واتخاذهم موقفا اكثر انفتاحا ، مما مهد فيما بعد الى النهضة الشاملة التي اعطت ثمارها في العصر العباسي . وقد ساعد على هذا الانفتاح ان العرب ومنذ العصر الجاهلي لم يكونوا بعزلة عن الامم الاخرى ، بل كانت لهم اهتماماتهم ومعارفهم العلمية ، وان كان ذلك على نطاق ضيق ، وتمثلت بالطب والنجوم وعلم الانواء وغيرها من المعارف .

والعامل الثاني الذي ساعد على الاتصال والانفتاح ان الحياة العلمية في الشام قبل الفتح الاسلامي كانت مزدهرة والمدارس منتشرة في جميع انحاء سورية .

فقد كان في انطاكية مدرستان احداهما للعلوم الدينية والثانية للعلوم الفلسفية(٣٧)، وفي فلسطين مدرسة قيسارية التي تأسست سنة ٢٣٠ م ، (٣٨) وفي بيروت كانت

كلية فقهية رومانية قد ظهرت في القرن الثالث الميلادي(٣٩) ، وكذلك مدرسة دمشق التي بلغت شأوا عظيما ابان الفتح العربي(٤٠) ، ومدرسة حران ، ومدرسة نصيبين. وخارج سورية كان هناك مكتبة طور سيناء التي انشاها الامبراطور يوستنيانوس سنة ٥٤١ ، وقد عثر في هذه المكتبة على نفائس اثرية عظيمة القيمة ، من مخطوطات نادرة الوجود عربية ، يونانية ، قبطية حبشية ، سريانية ، وفرمانات تركية(٤١) . ومكتبة الاسكندرية والتي كانت اضخم مكتبة في العالم القديم جعلت من الاسكندرية كعبة يؤمها العلماء(٤٢) ، وكذلك مدرسة جنديسابور في فارس .

ويذكر (الدو ميلي) أن سوريةكانت موطن حضارة رفيعة ، ولما غزتها الحضارة الاغريقية لم تصبح هلينية الا في مظهرها السطحي وبقي الشعب آراميا في صميمه ... ولغته شديدة القرابة الى اللغة العربية(٤٣) . ولم يقابل المسلمون هذه المدارس والثقافات بالاعراض عنها ، أو اغلاقها ، بل ابقوا عليها ، واقبلوا على الدراسة فيها ، مما مكنها من متابعة اداء رسالتها العلمية . لقد احتك المسلمون بالثقافات الفارسية واليونانية واليهودية والنصرانية والوثنية والرومانية ، وتفاعلوا معها ، خاصة السريانية منها ، وكانت هذه على صلة كبيرة بالثقافة اليونانية .

لقد رافق حركة الفتوحات حركة علمية موازية ، فقد كتب يزيد بن ابي سفيان الى عمر بن الخطاب أن يعينه ببعض الصحابة لتعليم أهل الشام ، فخرج معاذ بن جبل وابو الدرداء وعبادة بن الصامت(٤٤) . وقد بلغ عدد الطلاب في حلقة ابي الدرداء ما ينيف على الف وستماية طالب(٤٥) وفي حلقة ابن عامر اربعماية عريف(٤٦) . ومن المعلمين زمن عبد الملك بن مروان هشام بن اسماعيل بن هشام بن المغيرة المخزومي ، وكان هذا بدمشق ، والوليد بن عبد الرحمن الحرشي وكان بفلسطين(٤٧)، وابو ادريس الخولاني وكان يسمى بعالم الشام(٤٨) .

ويستدل على اقبال المسلمين على التعليم مما ذكره ابن عساكر(٤٨) في ان المسلمين ارسلوا ابناءهم الى الكتاتيب التي كانت قائمة آنذاك ، وكان يديرها المعلمون النصارى .

لقد أراد معاوية من ولي عهده أن يجمع بين الثقافة العربية الاسلاميةوالثقافات الاجنبية فاتخذ دغفل بن حنظلة السدوسي مؤدبا ليزيد ، وكان هذا عالما باللغة والانساب والنجوم(٤٩) . وكلف يزيد بن معاوية ، عمر بن نعيم العنسي للاشراف على تربية أولاده خالد وعبد الرحمن ومعاوية(٥٠) . ولاجل الاحاطة بالثقافات الاجنبية فقد ذكر (لامانس) أن معاوية اتخذ لولده مربيا نصرانيا ، وكلف يزيد كاهنا

مسيحيا لتثقيف ولده خالد(٥١) ، بل كان الراهب مريانوس هو الذي علم خالد بن يزيد علم الصنعة (الكيمياء) ، ووصفه خالد بأنه احذق خلق الله بها وبما فيها(٥٢) . والاستعانة بالمثقفين من اهل البلاد الاصليين امر طبيعي في الاتصال والتفاعل الحضاري ، فالشعوب التي كانت في بلاد الشام ومصر والعراق وفارس كانت على درجة حضارية ارقى مما كان عليه العرب وقت الفتوحات ، فلا بد والحالة هذه من الاستعانة بهم خاصة في صدر الاسلام .

لقد بدأت الاستعانة بأهل البلاد في المجالات العلمية منذ الفتح الاسلامي ، فقد ارسل سعد بن ابي وقاص (جفينة) ، وكان من نصارى الحيرة ، كي يعلم الكتاب في المدينة(٥٣) . وطلب عمر بن الخطاب من يزيد بن ابي سفيان ومعاوية أن يبعث له روميا كي يقيم الحساب والفرائض(٥٤) . كما قسم عمر نفسه سبي قيسارية على يتامى الانصار وجعل بعضهم في الكتاب والاعمال للمسلمين(٥٥) .

وفي العهد الاموي استمرت الدولة بالاستعانة بأهل البلاد الاصليين ، فقد كان سرجون الرومي على ديوان الشام(٥٦) ، وقنان بن متى من كتاب يزيد بن معاوية وابنه معاوية(٥٧) . ويحيى الدمشقي كان نديما ليزيد بن معاوية ، وقد الف هذا عدة كتب في العقيدة المسيحية والدفاع عنها ، ومحاورة بن مسلم ونصراني في الوهية المسيح ، ومحاورة في حرية الارادة . وكانت بعض مناقشاته تحدث في مجلس الخليفة(٥٨) ، وابو يوحنا الدمشقي كان من المقربين لعبد الملك(٥٩) ويناس بن خمايا من الرها كتب لعبد العزيز بن مروان(٦٠) .

وقرب معاوية اليه الاطباء ، ومنهم ابن آثال ، وكان طبيبا متقدما من الاطباء المتميزين بدمشق ، نصراني المذهب ، خبيرا بالادوية المركبة وخواصها وما فيها من سموم قواتل ، ولما اغتاله خالد بن مهاجر المخزومي قال معاوية : لا جزاك الله من زائر خيرا ، قتلت طبيبي فقال خالد : قتلت المامور وبقي الامر(٦١) ، وابو الحكم الدمشقي ، وكان نصرانيا ، عالما بأنواع العلاج ، ورافق بعض قوافل الحجاج(٦٢) ويتاذوق وكان فاضلا في دولة بني أمية(٦٣) .

واستعان عبد الملك بابن أبجر وكان طبيبا ماهرا ، درس في الاسكندرية وانطاكية والرها واسلم على يد عمر بن عبد العزيز(٦٤) ، وماسرجويه كان يهودي المذهب ، سرياني الاصل تولى تفسير كتاب أهرن بن اعين القس الى العربية(٦٥) .

ومما تقدم يمكن القول أن بني امية قد ابدوا اهتماما بثقافات اهل البلاد الاصليين ، فوضعوا بذلك اللبنات الاولى في الاستفادة من هذه الحضارات ، خاصة في مجال العلوم .

اهتمامات خالد بن يزيد العلمية :

في هذه الاجواء العلمية ظهر خالد بن يزيد بن معاوية فابدى اهتماما بالمكتبات واقتناء الكتب والترجمة والعلوم .

لقد كان ابعاده عن الخلافة دافعا قويا للاهتمام بالنواحي العلمية ، فقد مات معاوية الثاني دون أن يعين خلفا له فانفرط عقد بني سفيان ، ولم يبق على الولاء لهم سوى حسان بن مالك البحدلي الذي كان على جند الاردن . والظاهر أن اهل الاردن انفسهم لم يكونوا راضين بالبيعة لخالد ولعبد الله ابني يزيد(٦٦) ، كما أن حسان نفسه قد غير موقفه من خالد بعد عودة مروان بن الحكم من مصر سنة ٦٥ ومال الى صف مروان وأعلن ولاية العهد لعبد الملك ثم لعبد العزيز ابني مروان(٦٧) وبذلك انتهت آمال خالد في طلب الخلافة . وقد عبر عن ذلك زفر بن الحارث : بقوله:

أبعد سعيد يوم قام بخطبة تزال بها عنك الخلافة تجذل

وسعيد هذا هو سعيد بن مالك بن بحدل(٦٨) .

والظاهر أن هذه البيعة قد افسدت العلاقات بين مروان وخالد ، فيذكر صاحب كتاب المحن(٦٩) أن مروان اتى لخالد قبل ذهابه لمصر وقال له اعرني سلاحا ان كان عندك . قال فأعاره سلاحا وخرج الى مصر فقاتل اهل مصر وسبى اناسا فافتدوا منه ثم قدم الى الشام فقال له خالد بن يزيد :

« رد علي سلاحي فأبى عليه فالح فقال له مروان وكان فاحشا يا ابن كذا » .

ويؤكد فساد العلاقة أيضا أقوال واشعار خالد بن يزيد فقد قال يوما : « ... أما اني ارى ثاري في مروان صباح مساء ولو اشاء ان اديله لادلته »(٧٠) ودخل يوما على مروان وكان قد جفاه فقال :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت تعرف(٧١)

وقال ايضا :

فلو بقيت خلائف آل حرب ولم يلبسهم الدهر المنونا

لاصبح ماء أهل الارض عذبا واصبح لحم دنياهم سمينا(٧٢)

ويبدو أن خالدا لم يتوقف عن المطالبة بحقه بالخلافة ، فقد مالأ أهل اليمن خلافا لمروان بن الحكم وقصدا لتوهين ملكهم وتفريق جماعة أهل الشام عنهم حتى كثر المتسبون من قضاعة الى حمير(٧٣) وعزا البعض مصاهرته الى اشراف قريش لغايات سياسية ، فقد قال أحد الشعراء لعبد الملك :

عليك أمير المؤمنين بخالد ففي خالد عما تريد صدود

اذا ما نظرنا في مناكح خالد عرفنا الذي ينوي وأين يريد(٧٤)

وربما كان هذا الطموح هو السبب الذي أدى الى استمرار فتور العلاقة بينه وبين عبد الملك ، فقد قطع عبد الملك ما كان يجريه على آل سفيان وجاءه عمرو بن عتبة فأعطاه ما يستحق وقال له : انما يستحق عطيتي من استعطاها ، فأما من ظن انه يستغني بنفسه فسنكله اليها . يعرض بخالد(٧٥) .

ولكن هذه العلاقة تحسنت بعد أن عينه عبد الملك على حمص وهناك بنى مسجدا وقصرا وأفنى عمره منفردا فيه ودفن بالقرب من قصره(٧٦) .

وكان عبد الملك يكثر من استشارة خالد بن يزيد ، فعند قيام ثورة ابن الاشعث هال ذلك عبد الملك فبعث الى خالد وأطلعه الخبر ورأى ما به من الجزع فقال يا أمير المؤمنين . أن كان هذا الحدث من قبل سجستان فلا تخفه ، وان كان من قبل خراسان تخوفه(٧٧) .

واستشاره أيضا عندما كتب عبد الملك في صدر الطوامير « قل هو الله أحد » مع ذكر النبي (ص) والتاريخ ، واحتجت الروم وهددوا بالكتابة على نقودهم امور يكرهها المسلمون ، فأشار عليه بضرب الدنانير الاسلامية ومنع تصدير الطوامير الى الروم (٧٨) .

أما علاقته مع الحجاج بن يوسف الثقفي ، فلم تكن حسنة ، بل وصلت الى حد الاستهزاء والاستهانة بالحجاج مما اضطر الحجاج الى القول لخالد : « ولقد ضربت بسيفي هذا أكثر من مائة ألف كلهم يشهدوا انك واباك من أهل النار ثم لم أجد لذلك عندك أجرا ولا شكرا » .

لقد كان بعده عن السياسة دافعا له للاهتمام بالعلوم ، فقد تلقى خالد بن يزيد ثقافة عربية اسلامية تمثلت بالقرآن الكريم وتفسيره والحديث النبوي وروايته والفقه

والتشريع واللغة والادب والتاريخ وغيرها ، كما تلقى ثقافة البلاد الاصلية وشملت العلوم التي كانت رائجة في عصره كالطب والفلك والكيمياء .

لقد انحصرت اهتمامات خالد العلمية في مجال هاتين الثقافتين، فقد تفرغ خالد لطلب الحديث وقراءة الكتب ،(٨٠) وقال هو عن ذلك : كنت رجلا معنيا بالحديث (٨١). وقد روى خالد عن كل من يزيد بن معاوية(٨٢) ودحية بن خليفة ابن فروة الكلبي(٨٣) ، وعكرمة مولى ابن عباس(٨٤) .

وروى عنه الزهري ورجاء بن حيوه وعلي بن رباح وعبيد الله بن العباس وقيل العباس بن عبيد الله بن العباس ، وعبد الله مولى ابن جبير ، وخالد بن عبد الله وابو الاعيس الخولاني(٨٥) .

هذا وقد اخرج الامام احمد عنه أن أبا امامة الباهلي سأل عن ايمن كلمة سمعها من رسول الله(ص) فقال سمعته يقول : « الا كلكم يدخل الجنة الا من شرد على الله عز وجل شراد البعير على أهله » (٨٦) . كما اخرج البيهقي والخطيب البغدادي ، والعسكري ، والحافظ ابن عساكر عدة أحاديث(٨٧) . وقد طبعته الثقافة الدينية هذه بطابعها الخاص فقد كان يصوم الاعياد كلها والجمعة والسبت والاحد(٨٨)، كما وصفته المصادر بالورع والفضل وشاركه بهذه الصفات من اخوانه عبد الرحمن ومعاوية وعبد الله (٨٩) .

واملت عليه هذه الثقافة بعض التأملات الفلسفية . فقد سئل مرة ما أقرب الاشياء ؟ قال الاجل . قيل فما ارجى شيء ؟ قال العمل . قيل فما أوحش شيء ؟قال الميت . قيل فما انس شيء ؟ قال الصاحب المواتي . وقال ايضا اذا كان الرجل لجوجا معجبا برأيه فقد تمت خسارته(٩٠) .

ولما التقى بمريانوس دارت اسئلته حول اصل الخليقة ، امن اصل واحد هي ؟ أمن أشياء شتى ؟ فان ذلك من شيء واحد واصل واحد وجوهر واحد منه وبه لا يدخل عليه داخل ولا غريب منه ولا ينتقص منه شيء(٩١) وقد اعتبره البيروني أول فلاسفة الاسلام(٩٢)، كما اشار خالد نفسه الى اطلاعه على كتب الفلسفة بقوله : لقد عكفت على درس كتب الفلسفة، وقرات الاوضاع السالفة وطالعت الكثير من تآليفهم، ووعيت الاعداد من رسائلهم(٩٣) .

ولما كان المحدثون هم رواد المدرسة التاريخية حيث اهتموا بدراسة المغازي ورواية اخبار رسول الله (ص) ، فلا بد والحالة هذه أن يهتم خالد بالتاريخ وروايته . فقد

حدث عن زرعة بن عمرو وعمر بن شعيب وتبيع ، وتبيع أخذ عن كعب ودحيةبن خليفة الكلبي ولم يلقه(٩٤) . وروى عنه شعيب بن حرب ، ومخرمة بن بكير ، وأبو صفوان ، وعمر بن شبة ، وسعيد الكلبي ، ومحمد بن كعب القرظي وعبد الله بن شداد وعامر الشعبي والمدائني (٩٥) . وذكر صاحب الفهرست أن المدائني الف كتابا بعنوان قصيدة خالد بن يزيد في الاحداث والملوك(٩٦) .

وفي المجال الادبي كان خالد بن يزيد خطيبا ، شاعرا ، فصيحا ، جيد الراي ، حذقا ، وله أشعار متعددة الاغراض منها شعره في الصنعة (الكيمياء) (٩٧) .

واهتم خالد بالصنعة (الكيمياء) ويذكر غالب مولى خالد بن يزيد أنه كان مغرما بهذا العلم قبل ان يلقى مريانوس ، حتى أنه كان لا يؤثر عليها شيئا ، ولا يفتر عن السؤال عنها وعمن يرجو أن يجد عنده علما ومعرفة(٩٨) . وقد ساعده فيما بعد مريانوس واصطفن . وقد وصف خالد مريانوس « بانه كان تقيا واحذق خلق الله بهذه الصنعة فمنه تعلم وقال فيه شعرا »(٩٩) .

أما اصطفن فربما يعود لقائه به عندما ذهب الى مصر حيث التقى به . وكان هذا أيضا من المهتمين بعلم الصنعة حتى انه صنف كتابا فيها.ولم يذكرابن النديم اسم هذا الكتاب(١٠٠) .

وساعده أيضا وجود بعض التراجمة الذين أخذوا ينقلون من اللغات اليونانية والسريانية والقبطية الى اللغة العربية . والواقع ان حركة الترجمة قد بدات منذ صدر الاسلام وحتى في فترة ما قبل الاسلام . فقبل الاسلام اشتهر من التراجمة زيد بن حماد بن محروق ، وقد حذق الكتابة العربية والفارسيةوعدي بن زيد وعمرو بن عدي ولقيط بن يعمر الايادي(١٠١) كما عرف العرب شيئا من النقل عن التوراة والانجيل ، فأمية بن ابي الصلت كان ياتي في شعره على أشياء لا تعرفها العرب لانه قرا كتب الله عز وجل(١٠٢) .

واستدعت عملية الانفتاح على الثقافات الاخرى تشجيع حركة الترجمة . وقد أعتمد العرب في البداية على اهل البلاد الاصليين . ومن أوائل التراجمة في صدر الاسلام عبود ترجمان رستم وكان هذا من أهل الحيرة(١٠٣) . ولما خطب عمر بن الخطاب بالجابية كان عنده جاثليق يترجم له(١٠٤) . وهذا لم يمنع العرب المسلمين من تعلم لغات الامم الاخرى ، فزيد بن ثابت كان يكتب العربية والعبرانية(١٠٥) ، والمغيرة بن شعبة حذق بعض الفارسية(١٠٦)، وعبد الله بن عمرو بن العاص قرا بالسريانية(١٠٧).

لقد كانت حركة الترجمة من اليونانيــة الى السريانيــة مزدهــرة قبــل الفتــح الاسلامي، واشتهر من التراجمة سرجيوس الراسعيني، (٥٣٦م)وهو طبيب وفيلسوف برع في الترجمة من اليونانية الى السريانية في مجال الطب والفلسفة والفلك واللاهوت، ويوحنا الدمشقي(ت. قبل ٧٤٢م) وقد وضع مقالةفي المجادلة بين نصراني ومسلم ساق فيها البراهين التي دلت على معرفته الوثيقة بالقرآن الكريم والعقيدة الاسلامية(١٠٨)، وساويرس سيبوخت(٦٦٧م) من نصيبين باعمال الفرات،ترجم وشرح كتاب التحاليل لارسطاليس وصنف رسائل الفلك والجغرافيا ، وكذلك تلميذة اثناسيوس ، وأيــوب الرهاوي (ت ٧٠٨ م) ، والاسقف جورجيس (٧٢٤ م) ترجم وشرح كتاب الاورجانوس لارسطاليس(١٠٩)، وهيبا الملقب بالترجمان وتلميذه بروبايريوس من اتباع المدرسة الفارسية في الرها ، وابي القشعرى الذي كان ذا نفــوذ عند كسرى الثاني (٥٩٠ ــ ٦٢٨ م) (١١٠) ».

ومن التراجمة ايضا سلوانوس القردي ، وحنيناتشو الجاثليق ، وشمعون الراهــب(١١١) ، ويذكر اوليري(١١٢) انه من المؤكد أن العلوم الطبية قد وصلت الــى العرب عن طريق الترجمات السريانية ، ثم عن طريق الترجمات اليونانيــة ، رأســا في مجال الفلك والرياضيات . ويضيف أن السريانية كانت هي اللغة السائدة في بلاد الشام وظلت لغة الترجمة من اليونانية الى العربية. . .وكان لمدينة حران نصيبفي نقل العلوم من اليونانية الى العربية ».

وبعد الفتح الاسلامي واستقرار الدولة استمر أصحــاب الثقافــات اليونانيــة والفارسية والسريانية وغيرهم منهمكين في الفلسفة والطب وانواع العلوم الاخرى التي كان العرب الى ذلك الحين على غير دراية تامة بها . لقد كان في سورية وبلاد فــارس معاهد ومؤسسات وأديرة اشتغل اصحابها بدراسة علوم القدماء وتفهمها وتفسيرهــا وتدريسها ونقلها الى الاخلاف بشكل منظم . ونتيجة اهتمام العرب وشغفهم بالعلــوم بدات بواكير الترجمة مبكرة وقبل الخلافة الاموية (١١٣) .

ولما جاء الامويون التفتوا الى الكتب العلمية اليونانية ليامروا بنقلها الى السريانية والعربية تدفعهم الى ذلك الرغبة في العلم ومن أجل العلم(١١٤) .

لقد قرب معاويــة اليــه المترجــم يعقــوب الرهــاوي السريانــي ١٩ ــ ٨٩ هـ ٦٤٠ ــ ٧٠٨م وقد ترجم بعض كتب الالهيات من اليونانية ، كما يؤثر عنه انــه افتى رجال الدين النصارى بتعليم أولاد المسلمين التعليم الراقي . وهذه الفتوى من غــير شك تدل على اقبال بعض المسلمين على دراسة الفلسفة عليهم ، وتردد النصارى في تعليمهــم (١١٥) ».

ويذكر كرد علي(١١٦) أن معاوية كان أول من ترجم له كتب الفلاسفة والنجوم والكيمياء والطب والحروب والآلات والصناعات من اللسان اليوناني والقبطي والسرياني، كما أنه أول من جمعت له الكتب وجعلها في خزانة والارجح انها كانت في دمشق . ويستدل على اهتمام معاوية بالكتب ما ذكره صاحب الذخائر والتحف(١١٧) من أن معاوية وملك الصين تبادلا الرسائل والهدايا وكان من ضمن هدية ملك الصين كتاب من سرائر علومهم ، صار بعد ذلك الى خالد بن يزيد وكان يعمل فيه الاعمال العظيمة من الصنعة وغيرها .

اما خالد فقد أمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونان في مصر وامرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربية،وبذلك اعتبره ابن النديم أول نقل في الاسلام وأن خالدا أول من ترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء(١١٨) .

ويذكر Holmyard (١١٩) ان خالدا أول من نادى وطلب بأن تحل اللغة العربية في كتابة الوثائق بدواوين الدولة بدلا من اللغات الاخرى، كما بدأ بحركة الترجمة العلمية ، ولتحقيق ذلك جمع حوله عددا من العلماء ، فكان الرجل الذي أعطى لبيت الحكمة طابعها الخاص الذي تطور واتضح في عهد المأمون(١٢٠) .

ولم تقتصر حركة الترجمة على خالد بن يزيد فحسب ، فقد امر عمر بن عبد العزيز بترجمة كتاب أهرن بن اعين في الطب ، فنقله ماسرجويه من السريانية الى العربية(١٢١) .

ومما تقدم يمكن القول أن حركة الترجمة لم تكن فردية كما يقول Watt ١٢٢) ، بل كانت حركة عامة لكنها كانت محدودة . والسبب في ذلك قلة الذين يتقنون اللغات « فالترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم ، على خصائص معانيه ، وحقائق مذهبه ، ودقائق اختصاراته وخفيات حدوده . . . ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول اليها ، حتى يكون فيها سواء وغاية»(١٢٣).

ومع محدودية هذه الحركة الا انها فتحت الاعين على المعارف والعلوم ، فاطلع المسلمون على مواد فكرية لم تكن معروفة من قبل الا بشكل اولي وغير علمي ، فأدخلتهم حركة الترجمة عالم العلم والمعرفة على اختلاف أنواعها،وبالتالي تمكن العرب من التحلي بالتفكير العلمي والطرق العلمية التي ساعدتهم فيما بعد على بناء انظمتهم الفكرية (١٢٤) .

لقد ألم خالد بالثقافة العربية الاسلامية والثقافات التي عاصرته ورافـق ذلـك اهتمام بالكتب العلمية ، فبدأ بترجمة الكتب الكيميائية في مصر . وبذلك يكون القرن الاول الهجري هو بداية الاتصال مع ثقافات أهل البلاد التي كانت سائدة قبل الفتـح الاسلامي ، لا كما يظن الكثيرون من انه منتصف القرن الثاني الهجري أو منقلب القرن الثاني الى الثالث ، وبعد تأسيس بيت الحكمة الذي أسسه الخليفة المأمون(١٢٥) .

كما ان الاهتمام بالعلوم اليونانية خاصة في الفلك والطب والرياضيات لم يكـن مفاجئا كما توهم Ruska ، (١٢٦) بل هي حركة طبيعية نمت ببطء منذ صدر الاسلام ونضجت في العصــر العباســي .

واول اهتمامات خالد بن يزيد العلمية الكيمياء ، أو ما كان يطلـق عليـه اسـم « الصنعة » (١٢٧) . فقد أحضر جماعة من فلاسفة اليونان وأمرهم بنقل الكتب فـي الصنعة . ومن الاسماء التي اعتمد عليها اصطفن ومارينوس . ويذكر Luclerc (١٢٨) أن خالدا قد نقل من مصدر لاتيني عنوانه « نشأة الكيمياء » تأليف مارينـوس الذي تتلمذ على أذفر ،ويظن Luclerc أن أذفر هذا هو ابن أبجر العربي والذي قال عنه ابـن أبي أصيبعة انه تولى التدريس في مدرسة الاسكندرية قبل الفتح الاسلامي .

واسم اصطفن كما ذكرت معروف عند ابن النديم ، وكذلك مريانوس حيـث ذكر له صاحب كشف الظنون (١٢٩) رسالة بعنوان مقالتا مريانس الراهب لخالد بن يزيـد في الكيمياء . وذكره أيضا ابن خلكان(١٣٠) في ترجمة خالد ، ويذكر (١٣١) Holmyard أن مريانوس لم يكن العالم الاول الذي اتصل به خالد ، بل انه أحاط نفسه بعددمن ذوي الاختصاص والخبرة بالصنعة .

والدافع الاساسي لتعلم الصنعة هو ما عبر عنه خالد في الديوان حيث يقـول : « فاني لم أزل بحمد الله مذ سمت همتي وعلقت مهجتي بالفهم أطلـب الصنعة لعلمي بما فيها من الكرامة والرفعة اذ هي أشرف الصناعات كلها ، . . . صناعـة تمنـع مـن الهموم والتعب وذل المكتسب والمخاطرات في المطلب وبذل الوجه » (١٣٢) . ولم يكن خالد هو الذي قصد الدافع المادي من الكيمياء ، فقد كتب أحد الاميركيين في عام ١٩٢٨ « أن خير الطرق الآن وأسرعها لجلب المال هي الكيمياء ، فان المستقبل لها وهي تغـزو كل شيء الآن » (١٣٣) . وقد ألف خالد في الصنعة الكتب التالية :

ثلاث رسائل تضمنت احداهن ما جرى له مع مريانوس ، وصـورة تعلمـه منـه والرموز التي أشار اليها وله فيها أشعار جيدة (١٣٤) . قال ابن النديم (١٣٥) رأيـت

منه خمسمائة ورقة، ورأيت من كتبه الحرارات ، الصحيفة الكبير، الصحيفة الصغير، وصيته الى ابنه في الصنعة. وذكرها حاجي خليفة(١٣٦) في عدد أبيات فردوس الحكمة الفان وثلاثمائة وخمسة عشر بيتا ، أولها الحمد لله الواحد الفرد الذي له العز والمجد.
وقال عنه الجلدكي (١٣٧) (ت ٧٤٣ هـ) هو كتاب نفيس وان طلبة زمانه لايفهمونه الا باللفظ أما معانيه فهم بعيدون عن ادراكها ومن أخذ بظاهره فقد وقع في الضلال والخسران.
وله كذلك كتاب السر البديع في الرمز المنيع (١٣٨) ، والرحمة في الكيمياء (١٣٩) ومقالتا مريانوس الراهب (١٤٠) .

وقد تمكنت من الاطلاع على وصية خالد لابنه في تعلم الصنعة وديوان خالد القسم النثري واغلب الظن أن هذه المقدمة هي من ضمن الرسائل التي أشار اليها ابن خلكان .

أما المنظومة الشعرية التي أشار اليها ابن النديم ، فهي كتاب الفردوس الذي ذكره كل من حاجي خليفة والجلدكي والبغدادي . وفي هذا الديوان قصائد يحتمل نسبتها الى خالد وقصائد أخرى قد مزجت بها عندما جمعت في ديوان مستقل . يؤيد ذلك أن الذي قام بعملية الجمع قد استقى القصائد من مصادر شفهية وأخرى مدونة . وهذا ما يذكره جامع الديوان حيث يقول : « انه دون ما أطمأن له القلب والعقل وقام عليه البرهان » . وواقع الامر يختلف عن ذلك كثيرا حيث ذكرت اسماء سنة وفاتها بعد خالد بن يزيد بمدة طويلة (١٤١) .

ويذكر ابن عساكر (١٤٢) من اهتماماته العلمية ، تحلية ماء البحر ، فقد كان عند عبد الملك بن مروان ، فذكروا الماء فقال خالد : منه من ماء السماء ومنه مايستقيه الغيم من البحر فيعذبه البرق والرعد فأما ما يكون من البحر فلا يكون له نبات وأما النبات فما كان من ماء السماء وقال ان اشئت اعذبت ماء البحر . . . فأمر بقلال من ماء ووصف كيف يصنع حتى يعذب .

واهتم خالد بالطب وترجمت له الكتب(١٤٣) ووصفه (صاعد)(١٤٤) بانه كان بصيرا بالطب ، وابن خلكان(١٤٥) انه كان أعلم قريش بفنون العلم وله كلام في صنعة الكيمياء والطب وكان بصيرا بهذين العلمين متقنا لهما . ولما ادعى الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشقي النبوة زمن عبد الملك بن مروان قتله عبد الملك سنة ٧٩ ، فدخل عليه خالد وقال له : لو حضرتك ما أمرتك بقتله . قال ولما قال كان به المذهب فلو جوعته ذهب ذلك عنه (١٤٦). والاهتمام الطبي يقتضيه معرفة بالكيمياء ، وذلك نظرا للصلة الوثيقة بينهما خاصة في تركيب الادوية(١٤٧) .

واهتم كذلك بالفلك وترجمت له كتب النجوم(١٤٨). ويظهر العمل الفلكي بشكل واضح في رسالته الى ابنه في تعلم الصنعة ، وفي الديوان . وقال صاعد(١٤٩) أيضـا : وكانت له معرفة باحكام الكواكب وتأثيرها في عالم الكون والفساد وحسب مذاهب العرب في أحكام النجوم . ولكن لم يصل الينا من الكتب الطبية والفلكية التي ترجمت شيئا .

ويذكر ابن السبندي (وقد توفي في القرن الخامس الهجري) أن الوزير ابا القاسم علي بن احمد الجرجاني طلب أن يعمل فهرست لخزانة الكتب بالقاهرة ويرم ما أخلـق من جلودها وانفذ القاضي ابا عبد الله القضاعي وابـن خلف الوراق ليتوليا ذلك . . . وحضرت لاشاهد بصناعتي(١٥٠) فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلك خاصة ستة آلاف وخمسماية جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس وعليها مكتوب حملت هذه الكرة من الامير خالد بن يزيد بن معاوية وتأملنا ما نص زمانها فكان الف ومائتين وخمسـين سنـة (١٥١) .

هذه هي اهتمامات خالد بن يزيد العلمية والتي حصرت في الحديـث والتاريـخ والشعر والطب والفلسفة والكيمياء والفلك . وقد شكك العديد في اهتمامات خالد وحتى في شخصه حيث عده البعض كما سنرى اسطورة .

واول من وضع بوادر الشك ابن النديم (١٥٢) حيث قال :« . . . ويقال والله أعلم أنه صح له عمل في الصنعة » وتابعه ابن الاثير(١٥٣) حيث قال : « انه أصـاب عمـل الكيمياء ولايصح ذلك لاحد » ثم سار على نهجهم ابن خلدون(١٥٤) حيث قال : « وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ومن المعلوم البين أن خالدا من الجيل العربي والبداوة اليه أقرب فهو بعيد عن العلـوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنحى مبنية على معرفة طبائع المركبات وأمزجتها ، وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم اللهم الا ان يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه باسمه ممكن » .

وتابع هؤلاء من المحدثين عمر فروخ(١٥٥) وعبد الصاحب الدجيلي(١٥٦).

ومن الاوروبيين Ruska (١٥٧) حيث قال : . . وحسب المراجع العربية فـان خالد بن يزيد هو أول من بحث في مجال الكيمياء . . . ولكن على كل حال يجب على المرء أن يعتقد الى مدى يمكن الثقة بعناوين الكتب العربية .

والدوميلي(١٥٨) : قال : رفع بعض المؤرخين ثم بعض الكتاب المحدثين مـن بعدهم من ذكر خالد بن يزيد ، ولم يقتصر كما زعموا على تشجيع علماء اليونان وحثهم على ترجمة الكتب المؤلفة بلغتهم الى العربية بل كان هو نفسه أيضـا عالما اصيـلا علـى الاخص بعلم الصنعة (الكيمياء القديمة) . . . وليس ذلك الا أسطورة محضة .

ويمكن الرد على هؤلاء بما يلي :

أولا : لقد رد ابن النديم (١٥٩) على نفسه ووضع الاثبات باهتمامات خالد الكيميائية عندما قال « ورأيت من كتبه ....»

ثانيا : وصف الزبير بن بكار (١٦٠) خالدا بالعلم وقول الشعر ، وابن النديم (١٦١) يقول عن الزبير بن بكار : كان شاعرا صدوقا نبيل الراي .

ويكفي للرد على ابن الاثير وابن خلدون باقوال محمد بن اسحق والزبير بن بكار ومصعب الزبيري ، والجاحظ وابو حنيفة الدينوري ، وابن قتيبة والطبري وابن النديم وصاعد وابن عساكر (١٦٢) ، وهم من القرب الى خالد بمكان ، ثم رواية حاجي خليفة اقرب الى الصحة ، لكونه من الرجال الموثوق بصحة رواياتهم ، فقد كان يتحقق بثقة في كل ما يورده في مصنعه المذكور (١٦٣) . هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان عدم فهم ابن خلدون لرموز الكيمياء السبب في اتهام خالد بن يزيد سيما ان هذه الرموز تظهر لغير الملم بها كانها الغاز يتعذر فهمها على من لم يعان اصطلاحاتهم (١٦٤) .

وبالنسبة لروسكا Ruska فقد رد عليه هولميارد (١٦٥) حيث قال : ان ملوك وافراد قبيلة خالد قد شغفوا بهذا العلم نفسه .. وحتى في الظروف التي اشار اليها روسكا Ruska فلا تزال كتب واشعار لخالد في مكتبات الهند ومصر وأوروبا ، لم تمحص ولم تحقق بعد .

ورد على روسكا أيضا ستابلتون (١٦٦) Stapiton حيث قال : ان الكتابات العربية القديمة لا تخلو من بعض قصص الخرافة والتهويل الا ان المحقق الدقيق يخرج منها بآراء ومعرفة علمية أصيلة .

أما الدوميلي : فقد رد عليه هولميارد (١٦٧) بقوله : والظاهر أن الدوميلي لم يمعن في مراجعة الكتب العربية وعلى الاخص كتب التراجم والتاريخ ، بل وحتى ما كتب عن خالد على قلة ما كتب عنه في المراجع القديمة ، وليس خالد بأسطورة كما أوضحت تلك المصادر أو كما جاء في كتب بعض المستشرقين ممن حقق التراث العربي ومحصه ، ودلل على عدم دقة الدوميلي بانه اخطأ في سنة وفاة خالد حيث ذكر انها في سنة ٦٤هـ ـ ٦٨٣ م وهذا ما يخالف كتب التراجم والتاريخ .

وبعد هذا العرض لحياة خالد بن يزيد واهتماماته العلمية يمكن اعتباره من الرواد المسلمين الاوائل الذين خاضوا مضمار العلم ، لقد أحب خالد العلم ووصفه بالمرتبة الثانية بعد النبوة (١٦٨) . قد قيل له كيف أصبت هذا العلم ؟ ، فقال : وافقت الرجال على اهوائهم ودخلت معهم في آرائهم حتى بذلوا لي ماعندهم وافضوا الي بذات انفسهم (١٦٩) .

المراجع والحواشي

(1) انظر : ابن قتيبة ، ابي محمد عبد الله بنمسلم : عيون الاخبار ، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية سنة١٩٢٥ ، ج١ ، ص ١٩٩ .البلاذري، احمد بن يحيى: فتوح البلدان، تحرضوان محمدرضوان، بيروت ١٩٧٨ ، ص ٢٤١ – ٢٤٢ . العسكري ،ابي هلال : الاوائل ، تح محمد السيد الوكيل ، مطبعة دار اهل طنجة/المغرب ١٩٦٦ ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦ ، السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر ، تاريخ الخلفاء ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٢١٨ . العسقلاني ، شهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي ، تهذيب التهذيب ، دائرة المعارف النظامية ، الهند ، حيدر آباد الدكن ١٣٢٥ج٣ ، ص ١٢٨ – ١٢٩ . ابن كثير ، عماد الدين ابي الفداء اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، السعادة مصر (د . ت .) ج٨ ، ص ٢٣٦ وكني ايضا بابي يزيد ، انظر : ابن عبد ربه ، احمدبن محمد : العقد الفريد ، تح محمد سعيد العريان، المطبعة التجارية الكبرى ، ١٩٤٠ ،ج٧ ، ص ١١٥ .

(٢) اشارت المصادر الى ان ولادة ابيه يزيد بن معاوية كانت اما سنة خمس وعشرين اوست وعشرين (السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٥) وان وفاته كانت سنة ٦٤ هـ ، ووفاة اخيه معاوية الثاني كانت سنة ٦٤ هـ . وكان عمره يوم وفاته مابين ٢٠ – ٢٥ سنة ، فعليه تكون ولادة معاوية مابين ٣٩ – ٤٤ . ولما كان خالد الابن الثاني فيمكن الاستدلال بان ولادته كانت مابين ٤١ – ٤٥ هـ . وقد ذكرت المصادر ان خالدا كان يوم جيرون،غلاما سكن الناس وتكلم كلاما اوجز فيه لم يسمع مثله.والغلام عند العرب هو الطار الشارب . وان وصف خالد بانه صبي فربما يعود ذلك الى قصره فقد ذكر البلاذري (انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ، ص٦٩) ان خالد ابن يزيد كان قصيرا ، حتى انه لما خطب رملة بنت الزبير ، استقصروه ، فبلغه ذلك فجمع قوما قصارا ومشى معهم ، ولبس القلنسوة فرضيت به .

انظر : الكلبي ، هشام بن محمد : جمهرة النسب ، نسخة مصورة عن نسخة المتحف البريطاني، بحوزة د. عبد العزيز الدوري ،ج١ ، ص ٢٩.الدينوري ، ابو حنيفة : الاخبار الطوال ، تح عبد المنعم عامر ، القاهرة ، ط ١ ،٩٦٠ ، ص ٢٠٧،المسعودي ، ابي الحسن علي بن الحسين بن علي : مروج الذهب ومعادن الجوهر . تح محمد محي الدين عبد الحميد ، السعادة ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٤٨، ج٣ ، ص ٨٢ ، البلاذري ، احمد بن يحيى : انساب الاشراف ، مكتبة المثنى ، بغداد ، عن طبعة القدس ١٩٣٨ ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٩ . الطبري، محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف مصر ، ط ٢ ، ١٩٦٩ ، ج٥ ، ص ٥٣٣ . الذهبي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد: دول الاسلام ، ط ٢ ، دائرة المعارف الهند ـ الدكن ، ١٩٦٤ ، ج١ ، ص ٣٠ . النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب : نهاية الارب في فنون الادب ، تح محمد رفعت ، فتح الله ، الهيئة المصرية ، ١٩٧٥ ، ج ٢ ، ص ٨٥ – ٨٧ . واللسان مادة « غلم » .

(٣) انساب الاشراف ، ج٤ ، ص ٦٩ .

(٤) تاريخ الخلفاء ص ٢٢٢ .

(٥) تاريخ ، المطبعة الوهبية مصر ، ١٢٨٥ ، ج١، ص١٧٩ ، وانظر الطائي ، د.فاضل احمد ، اعلام العرب في الكيمياء ، دار الرشيد للنشر بغداد١٩٨١ ، ص ٢٥ .

(٦) تهذيب التهذيب ، ج٣ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(٧) شمس الدين ، محمد بن احمد بن عثمان : سير اعلام النبلاء ، تح مأمون الصاغري ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠١/١٩٨١ ، ج٤ ، ص ٣٠٣ ، واعتمدت كذلك على طبعة دار المعارف المصرية (١٩٥٧) .

(٨) البداية والنهاية ، ج٩ ، ص ٣٠ .

(٩) سير اعلام النبلاء (بيروت) ، ج٤ ، ص ٣٠٣.

(١٠) أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، مكتبة القدسي ١٣٥٠ هـ ، ج١ ، ص ٩٦ .

(١١) هدية العارفين ، ط ٣ بالاوفست عن نسخةاستنبول ٩٥٥ ج١ ، ص ٣٤٣ . وانظر : اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ ، وكرد علي ، محمد :الاسلام والحضارة العربية . القاهرة ،لجنة التاليف والنشر ، ط ٣ ، ١٩٦٨ ، ج١ ، ص ١٧٣ .

(١٢) ابو محمد عبد الله بن اسعد علي بن سليمان،مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ/١٩٧٠ م ، ج١ ، ص ١٧٦ .

(١٣) الاخبار الطوال ص ٣٢٥ .

(١٤) تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١٢٠ .

(١٥) العبر في خبر من غبر ، تح صلاح الدين منجد ،الكويت ، ١٩٦٠ ، ج١ ، ص ١٠٥ ، سير اعلام النبلاء (بيروت ، ج٤ ، ص ٢٨٣) .

(١٦) تهذيب التهذيب ، ج ٣ ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(١٧) البداية والنهاية ، ج٩ ، ص ٨٠ .

(١٨) شذرات الذهب ، ج١ ، ص ٩٩ .

(١٩) الاخبار الطوال ، ص ٣٢٥ .

(٢٠) قارن اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ .

(٢١) انظر : البغدادي ، محمد بن حبيب ، المحبر ،ذخائر التراث العربي ، بيروت (ل . ت) ، ص ٦٩ ، ٤٤٥ ، البلاذري ، انساب ، ج٤ ، ق٢،ص ٢ ، ٧٠ .

(٢٢) الاصفهاني ، الاغاني (الهيئة المصرية) ، ج١٧،ص ٢٤٧ .

(٢٣) ابن حزم ، ابي محمد علي بن احمد بن سعيد ،جمهرة انساب العرب ، دار المعارف ، مصر ، ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م ، ص ١١٢ .

(٢٤) الحموي ، ياقوت : معجم الادباء ، سلسلة الموسوعات العربية ، مطبعة دار المامون ، مصر (ل.ت) ج١١ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ ، وانظر العسكري ابي هلال الحسن بن عبد الله : كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر، تح محمد علي البجاوي وزميله،ط١ ، الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٢٥) البلاذري ، احمد بن يحيى : انساب الاشراف،القسم الثالث ((العباس وولده)) ، تح د . عبد العزيز الدوري ، جمعية المستشرقين الالمانية،بيروت ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م ، ص ٧٤ . تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١١٦ ـ ١١٧ .

(٢٦) الاغاني (بولاق) ، ج١٦ ، ص ٨٨ ، معجم الادباء ، ج١١ ، ص ٣٧ .

(٢٧) تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١١٧ ، معجم الادباء ، ج١١ ، ص ٣٧ ، وانظر الزرو ، خليل داود: الحياة العلمية في الشام في القرنين الاول والثاني للهجرة ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٨٣ نقلا عن ابن عبد البر، ابو عمر يوسف،جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، المدينة المنورة (ل . ت) ج١ ، ص ١٣٢ .

(٢٨) انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٥ .

(٢٩) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص٤٥٧ . ابن رستة ، ابي علي احمد بن عمر ،الاعلاق النفسية ليدن ١٨٩١ ، ص ٢١٦ ،ابيض ، ملكة :التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة خلال القرن الاول للهجرة بالاستناد الى مخطوط ، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠٨ ، نقلا عن ابن عساكر مخطوط ، ج٨ ، ق ٧٨ ، ترجمة صخر بن حرب . المحبرص ٢١٧ ، الطبري ، تاريخ ج٣ ، ص ٥٩٧ ، القلقشندي ، ابي العباس احمد بن علي : صبح الاعشى في صناعة الانشا نسخة مصورة ، المطبعة الاميرية (د . ت) ج٣ ، ص ١٠ .

(٣٠) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٥٧ .

(٣١) كتاني ، عبد الحي : التراتيب الادارية ،المطبعة الوطنية ، الرباط ١٣٤٦ هـ ، ج٢ ، ص ١٢١ ، نقلا عن شرح المواهب ، ج٣ ، ص ٣١٩.

(٣٢) انساب الاشراف ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٣١ .

(٣٣) السدوسي ، مؤرج بن عمر . حذف من نسب قريش . تح د . صلاح الدين منجد دار العروبة ، مصر ١٩٦٠ ، ص ٤٢ ، وانظر ابيض ص ٩٢ نقلا عن ابن عساكر ، ج١٩ ، ق ٣٠٩ ، ترجمة رجل غساني رواية الشعبي .

(٣٤) ابيض ص ١٥٩ ، نقلا عن ابن عساكر ، ج١٨، ق ١٨٥ ، ترجمة يزيد بن معاوية .

(٣٥) Youssef Eche : Les Bibliotheques Arabes publiques et Semi-publiqnes en Mesopotapmie, en Syrie et en Egypt au Moyen-Age, Damas, Institut Français, 1967, XXXVI, P. 117.

وانظر : ابيض ، ص ١٠٦ .

ويذكر كرد علي ، خطط الشام ، دمشق١٣٤٨ هـ/١٩٢٨ م : ان اول خزانة في الاسلام انشئت في دمشق ، انشاها حكيم آل مروان خالد ابن يزيد الاموي المتوفى سنة ٨٥ هـ ، ولم يصل الينا من اخبارها شيء ولا شك انها كانت تحوي بعض العلوم التي نقلها من القبطية واليونانية والسريانية في الكيمياء والطب والنجوم وغيرها، ج٦ ص ١١٩ .

(٣٦) كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ـ مكتبة المثنى بغداد (د . ت .) ج٢ ، ص ١٥٣٣ .

(٣٧) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٣ نقلا عن سويريوس توما ، تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية، مطرانية بيروت ١٩٥٣ ، ج١ ، ص ١٥٨ .

(٣٨) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٣ ، نقلا عن تاريخ الكنيسة السريانية الانطاكية ، ج١ ، ص ١٤٨.

(٣٩) ن.م ، ص ١٤ ، نقلا عن ن.م ، ج١ ، ص ١٥٧.

(٤٠) اوليري ، دي لاسي : علوم اليونان وسبل انتقالها الى العرب ، ترجمة د . وهيب كامل مراجعة زكي علي ، النهضة المصرية ، ١٩٦٢ ، ص١٩١ .

(٤١) مجلة الهلال ، عدد ٦ السنة ٣٦ ، ١٣٤٦ هـ/ ١٩٢٨ م ، ص ٧٢٨ وما بعدها .

(٤٢) اوليري ، علوم اليونان ، ص ٢٤ .

(٤٣) العلم ، واثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة د. عبد الحليم النجار ، و د . محمد يوسف موسى، دار العلم ١٩٦٢ ، ص ١٢١ .

(٤٤) زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٧ نقلا عن الذهبي، شمس الدين ، محمد : تاريخ الاسلام ، مطبعة السعادة ، مصر ، عن مكتبة القدسي ١٣٨٣ هـ. ج٢ ، ص ١١٨ ، وانظر ابيض ص ٨٦ ، نقلا عن ابن عساكر ، ج٨ ، ق ٢٦٦ . ترجمة عبادة بن الصامت .

(٤٥) ابن عساكر ، ابي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ، تاريخ دمشق تح صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٤ ج١ ص ٣١٥ ، وانظر زرو ، الحياة العلمية ص ١٩ ، نقلا عن ابن الجزري ، غاية النهاية في طبقات القراء ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣٢ ، ج١ ، ص ٦٠٦ .

(٤٦) زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٠ ، نقلا عن ابن الجزري ، النشر في القراءات العشر مطبعة مصطفى محمد (د . ت) ، ج٢ ، ص ٢٦٤ .

(٤٧) ابن عساكر ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٥٠ ، وانظر زرو ، الحياة العلمية ، ص ٢٠ .

(٤٨) الذهبي ، تاريخ ، ج٣ ، ص ٢١٦ ، وانظر زرو، الحياة العلمية ، ص ٢٨ .

(٤٩) البلاذري ، انساب ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ٣ ، وانظر العقد الفريد ، ج٢ ، ص ٢٤٣ ، وان عساكر ، ج٦ ، ق ٣٥ ، ترجمة غفل بـن حنظلة السدوسي . وج٣ ، ق ١١١ ترجمة اياس بن معاوية ، أبيض ص ٨٥ .

(٥٠) ابيض،ص١٠٣،نقلا عن ابن عساكر،ج ١٠ ، ق٤٠٦ ، ترجمة عبد الرحمن بن يزيد ، ج١٣ ، ق ١٣٤ ، ترجمة عمر بن نعيم .

(٥١) الخربوطلي ، علي حسني ، العراق في العهـد الاموي ، نقلا عن :

Lammans. S.J. Etudes sur le régne du Calife Omayyade Moawiya 1 er

Leipzig 1908، p. 309.

(٥٢) وصية خالد بن المجموع رقم ١٣٦٧ ، المجمع العلمي العراقي،وقد أخطأ الاستاذ ابراهيم خورشيد الـذي فهرس رقاق المخطوطات حيث اسماه ديوان خالد بن يزيد بن معاوية ، ص ٧٧ .

(٥٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، نسخة مصورة عن نسخة استانبول بحوزة الدكتور عبد العزيـز الدوري ، ص ٦٤٧ .

(٥٤) ن . م ، ص ٥٨٥ .

(٥٥) ابن جعفر ، قدامة ، الخراج وصناعة الكتابة . شرح وتعليق د. محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨١ ، ص ٣٠٢ .

(٥٦) ابن خياط ، خليفة ، تاريخ . تح اكرم ضياء العمري ، النجف ١٩٦٧ ، ج١ ص ٢١٨ ، ابـن النديم ، محمد الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت (د . ت) ٣٣٩ ، الاوائل ٢٠٣ .

(٥٧) الفهرست ١٧٧ .

(٥٨) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٢٢ ، نقلا عـن بروكلمان ، كارل ، تاريخ الادب العربي ، المعارف مصر ١٩٥٩ ، ج١ ص ٢٥٦ .

(٥٩) زرو ، الحياة العلمية ، ص ١٢٣ ، نقلا عن رستم اسد : كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، مطبعة دار الفنون ، بيروت ، د . ت ، ج٢ ،ص ٦٩ .

(٦٠) الجهشياري ، ابي عبد الله محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب ، تح . مصطفى السقا وزملائه، ط١ ، الحلبي ، القاهرة ١٣٥٧ هـ/١٩٣٨ م ، ص ٣٤ .

(٦١) ابن ابي اصيبعة،موفق الدين ابن العباس احمد بن القاسم . عيون الانباء في طبقات الاطباء ، شرح وتحقيق نزار ضياء ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ١٧١ وانظر جمهرة النسب ، ج١ ، ص ٦٠ ، الاوائـل ص ١٨٨ .

(٦٢) ابن ابي أصيبعة ، ص ١٧١ ، الاوائل ، ص ١٨٨ .

(٦٣) ابن ابي اصيبعة،ص١٧٩،البداية والنهاية،ج٩ ، ص ٨٠ .

(٦٤) انظر : ابن ابي اصيبعة، ص١٧٥، ابن جلجل، ابي داود سليمان بن حسان : طبقات الاطباء والحكماء تح فؤاد سيد المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية ١٩٥٥ ، ص ٥٩ ، ابن العبري ، غريغوريوس الملطي : تاريخ مختصر الدول ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١١١ – ١١٢ .

(٦٥) ابن جلجل ، ص ٥٩ وما بعدها ، ابن العبري، ص ١١٢ وانظر عن استعانة هشام بن عبد الملك : قدامة ، الخراج ، ص ٣٠٨ – ٣٠٩ .

(٦٦) انظر مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٩٢ ، الطبري، تاريخ ج٥ ، ص ٥٢١ – ٥٣٧ ، ابن زرعة ، عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري : تاريخ ، تح د . شكر الله نعمة الله القوجاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية دمشق ، ١٩٨٠ ، ج١ ، ص ١٩١ ، العقد الفريد ج٥ ، ص ١٣٤ ، البداية والنهاية ، ج٨ ، ص ٢٤٠ .

(٦٧) مروج الذهب ، ج٣ ، ص ٩٥ .

(٦٨) انساب الاشراف ، ج٥ ، ص ٣٠٦ ، الطبري ، تاريخ ، ج٥ ، ص ١٤٢ .

(٦٩) ابو العرب ، محمد بن احمد بن تميم التميمي(ت ٣٣٣ هـ) تح د . يحيى وهيب الجبوري ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ/١٩٨٣ . وانظر ابن قتيبة ، ابي محمد عبد الله بن مسلم ، تاريخ الخلفاء (الامامة والسياسة)المنسوب اليه ، تح طه محمد الزيني ، الحلبي ، القاهرة ١٩٦٧ ، ج٢ ، ص ١٠٢ ، قال له ياابن الربوخ وهي التي يغشى عليها عند الجماع .

(٧٠) ياقوت ، معجم الادباء ، ج١١ ، ص ٣٨ .

(٧١) انساب الاشراف ، ج٥ ، ص ٣٠٦ .

(٧٢) العقد الفريد ، ج٦ ، ص ١٥٧ ، وانظر نقده لرأي مروان بن الحكم ، وانظر ايضا تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١٢٠ .

(٧٣) أبو البقاء ، هبة الله ، المناقب المزيدية في الملوك الاسدية . نسخة مصورة عن نسخة المتحف البريطاني ، مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الاردنية ، رقم ٣٠١ ، لوحة ١٠٢ .

(٧٤) المبرد ، ابن العباس ، الكامل في اللغة والادب والنحو والتصريف تح احمد محمد شاكر ، الحلبي، مصر ١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م ، ج١ ، ص ٣٠١ ، المناقب المزيدية لوحة ٢٣ .

(٧٥) ابن بكار ، الزبير : الاخبار الموفقيات تح ، سامي مكي العاني، مطبعة العاني بغداد١٩٧٢، ص٤٦٨، عيون الاخبار ، ٢ج ، ص ١٣٠ ، وانظر عن العلاقة بينهما الزبيري ، ابي عبد الله المصعب بن عبد الله : نسب قريش ، تح ، بروفنسال ، ط ٢ ، دار المعارف مصر ، ١٩٧٦ ، ص ١٣٠ ، الاغاني ، ج١٧ ، ص ٣٢٤ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩(الهيئة) المبرد ، الكامل ، ج١ /٢٨٩ – ٢٩١ ، مرآة الجنان ، ص ١٧٧ .

(٧٦) ديوان خالد بن يزيد ، المكتبة الظاهرية ، دمشق ، ٧٦١٤ لوحة 11 وانظر انساب الاشراف ، ج٤ ، ق ٢ ، ص ١٩ .

(٧٧) الطبري ، تاريخ ، ج٦ ، ص ٣٨٩ ، ٤٢١ .

(٧٨) عيون الاخبار ، ج١ ، ص ١٩٩ ، المعارف٣٥٤ ، البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، الاوائل ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ، السيوطي ، تاريخ،ص ٢١٨ ، المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي ، اغاثة الامة بكشف الغمة نشرة محمد مصطفى زيادة وزميله ، ط٢ ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٥٣ .

(٧٩) عن علاقته مع الحجاج ، انظر : المبرد ، ج١ ، ص ٣٠٣ — ٣٠٤ ، العقد الفريد ج٧ ص ١١٤ — ١١٥، الاغاني (الهيئة) ج١٧ ، ص ٣٤٤ ، انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٦٧ ، البداية والنهاية ج٩ ص ٨٠ .

(٨٠) انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٧١ ، الاغاني ، ج١٧ ، ص ٣٤٥ ، (الهيئة) العقد الفريد ج٢ ، ص ٩٤ ، مرآة الجنان ، ص ١٧٧ .

(٨١) التميمي ، ابي محمد عبد الرحمن بن ابي حاتم محمد بن ادريس . الجرح والتعديل ، دائرة المعارف حيدر آباد الدكن . مجلد ١ قسم ٢ ، ص ٣٥٧، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٨٢) سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(٨٣) المتري ، جمال الدين . تحفة الاشراف لمعرفة الاطراف مع النكت الظراف على الاطراف ، تعليقات الحافظ ابن حجر العسقلاني تصحيح عبد الصمد شرف الدين ، وزارة المعارف ، حيدر اباد ، بمباي ١٢٨٩ هـ/١٩٦٩ م ، ج٣ ، ص ١٣١ ، الحاكم النيسابوري ، ابو عبد الله محمد بن عبدالله المستدرك على الصحيحين في الحديث الرياض ، مكتبة ومطابع النصر (ل.ت) ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٣ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ — ١٢٩ . معجم الادباء ج ١١ ، ص ٣٦ .

(٨٤) صحيح البخاري ، دار احياء التراث العربي (ل.ت) ، ج ٣ ، ص ٦١ وقد اسند عكرمة عن ابن عمرو وابن عباس وابي سعيد وابي هريرة والحسين بن علي وعائشة وآخرين . انظر ابن الجوزي صفة الصفوة ، دار المعارف ، بيروت ، لبنان ١٣٩٩ هـ /١٩٧٩ م ، ط٣ ، ج٢ ، ص ١٠٤.

(٨٥) انظر : صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٧٩ — ٨٣، الجرح والتعديل ، م ١ ، ق ٢ ، ص ٣٥٧ ، تحفة الاشراف ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، المستدرك ج ٣ ، ص ١٣١ ، تهذيب التهذيب ، ج ٣ ، ص ١٢٨ — ١٢٩ ، ابن زرعة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٥٦ . معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ ، سير اعلام النبلاء، ج ٤ ، ص ٣٨٢ — ٣٨٣ .

(٨٦) مسند الامام احمد بن حنبل ، ص ٢٥٨ ، نسخة مصورة عن طبعة بولاق ، تهذيب ابن عساكر، ج٥، ص ١١٧ .

(٨٧) تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٦ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ .

(٨٨) سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ ، معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٦ — ٣٧ ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٨٠ .

(٨٩) الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٣ ، المعارف ، ٣٥٢ ، ابن زرعة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٥٨ ، سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٣٨٢ ، البداية والنهاية ، ج ٩ ، ص ٨٠ .

(٩٠) معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٩ .

(٩١) ديوان خالد ، لوحة ٥ ، وانظر تهذيب ابن‌عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٧ ، ١٢٠ ، زوو ، الحياة العلمية ، ص ١٨٠ .

(٩٢) الزركلي ، خير الدين : الاعلام ، الطبعة ٣ (د.ت) ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

(٩٣) ديوان خالد ، لوحة ١ .

(٩٤) انظر : الواقدي ، محمد بن عمر : المغازي ، تح مارسدن جونس ، جامعة اكسفورد ، ج ٢ ، ص ٧١٥، أنساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٥٢٤ ، القسم الثالث ص ٨٥ — ٨٦ ، سير أعلام النبلاء (دار المعارف) ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

(٩٥) انظر الواقدي ، المغازي ، ج ٢ ، ص ٧١٥ ، أنساب الاشراف ، ج ١ ، ص ٥٤٢ ، الاغاني ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، ج ١٧ ، ص ٣٤٤ ، سير أعلام النبلاء (دار المعارف) ج ٢ ، ص ٣٩٦ .

(٩٦) الفهرست ، ص ١٥١ .

(٩٧) أنساب الاشراف ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٦٦ وما بعدها ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٣ المعارف ، ص ٣٥٢ ، الجاحظ ، أبو عثمان بن عمرو بن بحر ، البيان والتبيين تح عبد السلام هارون ، ط ٤، بيروت (د.ت) ، ج ١ ، ص ٣٢٨ ، الاغاني ج ١٧ ، ص ٣٥ ، الاوائل ، ص ٢٠٥ ، تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١٢٠ ، معجم الادباء ، ج١١ ، ص ٣٥ وما بعدها ، ابن القفطي ، محمد بن علي بن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ١١٩ العراقي ، ابي القاسم ، محمد بن احمد ، العلم المكتسب في زراعة الذهب، باريس ١٩٢٣ ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٩٨) ديوان خالد لوحة (٢) .

(٩٩) الوصية ، ص ٧٧ .

(١٠٠) الفهرست ، ٣٤٠ ، ٣٩٨ .

(١٠١) انظر : الاغاني (الهيئة) ج ٢ ، ص ٩٨ ، المناقب المزيدية ، لوحة ١٢١ — ١٢٢ ، الاسكافي ، محمد بن عبد الله ، لطف التدبير ، تح أحمد عبد الباقي دار الكتب العلمية ، بيروت ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م ، ص ١١٠ آل علي ، نور الدين ، التعريب وأثره في الثقافتين العربية والفارسية مع ترجمة كتاب المعربات الرشيدية ، دار الثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٥٨ .

(١٠٢) المعارف ، ص ٦٠ ، ابن سعيد الاندلسي ، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، تح د . نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى ، عمان ، ١٩٨٢، ج ٢ ، ص ٥١٣ .

(١٠٣) ابن الاثير الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ (دار الكتاب العربي بيروت) .

(١٠٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق عبد الله بن عمران — عبد الله بن قيس ، مصورات مجمع اللغة العربية ، دمشق ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٨٧ .

(١٠٥) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٤٥٩ .

(١٠٦) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ، ص ٨٨ .

(١٠٧) انظر : ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ١ ، ص ١٨٩ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ، ص ٤٧٧ ، ابن عساكر ، عبد الله بن عمران ، عبد الله بن قيس . ترجمة عبد الله بن عمرو بن العاص ، ص ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٦٢ ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٤٤٧ .

(١٠٨) أوليري ، علوم اليونان ، ص ١١١ ، ١٩٢ ــ ١٩٣ ، التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ، لكبار المستشرقين ترجمها عن الالمانية والايطالية عبد الرحمن بدوي ، الكويت وبيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٥٤ .

(١٠٩) الدوميلي ، ص ١٢٢ ــ ١٢٣ ، التراث اليوناني ، ص ٥٥ .

(١١٠) التراث اليوناني ، ص ٥٤ .

(١١١) التراث اليوناني ، ص ٥٥ ، وانظر اوليري ، علوم اليونان ، ص ٦٨ ــ ٦٩ .

(١١٢) علوم اليونان ، ص ٣ ، ١١١ .

(١١٣) كوينتش باول . حركة الترجمة الى العربية ومن العربية وأهميتها في تاريخ الفكر ، مجلة آفاق عربية ، بغداد السنة السابعة كانون الثاني ١٩٨١ ، ص ٢٨ ــ ٢٩ .

(١١٤) سزكين ، فؤاد ، محاضرات في تاريخ العلوم ، الرياض ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ص ١٣ ، وقارن : فروخ عمر . تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ١١١ ، وما بعدها .

(١١٥) أبيض ، ص ٩٤ ، نقلا عن أمين احمد : فجر الاسلام ، النهضة المصرية ط ٧ ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٣٢ ، وانظر ابن عساكر ، ج ٢ ، ق ٥٥ ، ترجمة ادهم بن محرز ، ج ٣ ، ق ١١١ ، ترجمة أياس ابن معاوية ، واوليري ، علوم اليونان ، ١٩٢ ــ ١٩٣ .

(١١٦) الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ١٧٢ .

(١١٧) ابن الزبير القاضي رشيد ، (ت في القرن الخامس للهجرة) تح محمد حميد الله ، سلسلة التراث العربي ، الكويت ١٩٥٩ ، ص ١٠ .

(١١٨) الفهرست ، ٣٣٨ ، ٤٩٧ ، وانظر عبد الرحمن ، حكمت نجيب ، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، الموصل ١٩٧٧ ، ص ٢٤٣ و :

Hell, Joseph. The Arab civilization, cambridge 1926 Translated from Germany by Kuda Bukush Lon don, 1952, p. 60.

(١١٩) E.J. Holmyard; Alchemy, Pelican Book Isted 1957 P. 61 - 64.

وانظر اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٣٣ .

(١٢٠) انظر ، ابيض ، ص ٦٣ ، نقلا عن :
Youssef Eche p. 11-12.

(١٢١) انظر : صاعد ، ابي القاسم صاعد بن احمد الاندلسي ، طبقات الامم ، نشره الاب لويس شيخو ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ، ١٩١٢ ، ص ٤٨ ، ابن جلجل ، ص ٥٩ — ٦٠ ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٧٠ ، الدوميلي ص ١٣٥ .

(١٢٢) Montogemry, Islamic Survey I. Edinburgh 1964, P. 41.
وانظر دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٦ ، كرد علي ، ج ١ ، ص ١٧٣ .

(١٢٣) الجاحظ ، أبي عثمان بن بحر : الحيوان ، تح عبد السلام هارون ، الحلبي ، القاهرة ، ط ١ ، ١٣٥٦ هـ/١٩٣٨م ، ج٧ ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(١٢٤) باول ، حركة الترجمة ، ص ٣٠ .

(١٢٥) انظر : الدوميلي ، ص ٢٦٠ ، سيزكين ، ص١٠٣ ، نقلا عن :

(١٢٦) Julius, Arabische Alchemisten chalid Ibn Iazid Ibn Muawiya, Heidelberg, 1942, P. 5-6.

(١٢٧) الخوارزي ، ابي عبد الله محمد بن احمد بن يوسف : مفاتيح العلوم دار الكتب العلمية ، بيروت (د. ت.) يقول الكيمياء ، كلمة عربية مشتقة من كمى يكمي اذا ستر وخفي ويقال كمن الشهادةيكميها اذا كتمها ، انظر : ص ١٤٦ .

(١٢٨) Histoire de la Medecine Arabe 1.p. 62.
وانظر حاشية ابن جلجل ، ص ٦٠ ، وابن ابي اصيبعة ، ص ١٧١ .

(١٢٩) حاجي خليفة ، ج ٢ ، ص ١٧٨٤ .

(١٣٠) وفيات الاعيان ، ج ١ ، ص ١٦٨ ، وانظر ديوان خالد ص ٢ — ٣ .

(١٣١) وانظر اعلام العرب والكيمياء ، ص ٢٨ — ٢٩ . Alchemy p. 61-64.

(١٣٢) ديوان خالد ، ص ١ — ٢ .

(١٣٣) مجلة الهلال ، العدد الرابع ، السنة ٣٦ ، ١٩٢٨ ، ص ٤٨٤ .

(١٣٤) انظر : معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٥ — ٣٦ .

(١٣٥) الفهرست ، ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(١٣٦) كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٥٣٣ ، أول الديوان في المكتبة الظاهرية : الحمد لله بحمد نحمده وبتوفيقه نعبده الذي من علينا .

(١٣٧) غاية السرور في شرح ديوان الشذور (مخطوط واشنطن) لوحة ٢٥٥ ، وانظر مجلة معهد المخطوطات العربية / الكويت ، م ٢٦ ، ج ٢ ، ١٩٨٢ ، ٥٥٥ . دراسة تحليلية في ديوان خالد بن يزيد في الكيمياء ، فاضل خليل ابراهيم .

(١٣٨) معجم الادباء ، ج ١١ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ ، وورد عند البغدادي ، اسماعيل باشا : هدية العارفين ، نسخة مصورة بالاوفست عن نسخة استانبول ١٩٥٥ ، ج ١ ، ص ٣٤٣ ، « السر البديع في رمز المنيع في علم الكاف » .

وانظر اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ .

(١٣٩) يذكر د . فاضل احمد الطائي ، اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ : أغلب الظن ان كتاب الرحمة لجابر بن حيان ، وقد أورده مصادر عديدة .

(١٤٠) انظر هدية العارفين ، ج١ ، ص ٣٤٣ ، اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٢٥ .

(١٤١) فاضل خليل ، مجلة معهد المخطوطات ، ص ٥٥٥ نقلا عن مخطوطة بيروت ، لوحة ١ ، هذا وقد قام السيد فاضل خليل ابراهيم من جامعة الموصل في احصاء نسخ الديوان ، وهي :

- مكتبة المتحف العراقي رقم ٢١٢٣ بعنوان ديوان خالد بن يزيد في الصنعة ومنها نسخة دار الكتب المصرية .
- منظومة في الكيمياء ، المكتبة الوطنية باريس ، رقم ٦٢٨١ .
- المكتبة الشرقية ـ بيروت ، رقم ٢٥٥ بعنوان « فردوس الحكمة » .
- المكتبة الظاهرية ، دمشق ، رقم ٧٦١٤ بعنوان : « هذا كتاب ديوان خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان وما جرى بينه وبين الراهب مريانوس من الاسئلة » .
- مكتبة اصافيا ، حيدر آباد الدكن ـ الهند ، بعنوان « المنتخب من ديوان خالد » .
- خزانة د. حسين علي محفوظ . الكاظمية ، بغداد رقم ٢٥١ بعنوان « المختار من فردوس الحكمة / ديوان خالد » .
- مكتبة كوبرولو ، استانبول تركيا رقم ٩٢٤ بعنوان « ديوان النجوم » .
- مكتبة لاله لي . استانبول ، تركيا ، رقم ١٦١٣ ، بعنوان «اختيارات خالد الحكيم في الحكمة» .
- مكتبة بغدادلي وهبي ، استانبول تركيا ، رقم ٢٢٥٤ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة جار الله ولي الدين استانبول تركيا ، رقم ١٦٤١ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة أصغر مهداوي طهران / ايران ، رقم ٣٣٩ بعنوان « القصيدة في الكيمياء » .
- مكتبة الولاية (٢١) رامبور ـ الهند رقم ١٦ ، بعنوان « كيمياء » .
- دار الكتب المصرية ـ القاهرة ، مجموع من رقم ٢١٦ ـ ٢١٧ مقصورة في الصنعة الالهية . وانظر اشعار خالد في المكتسب لزراعة الذهب .

(١٤٢) تهذيب ابن عساكر ، ج٥ ، ص ١١٩ وانظر ابيض ، ص ١٠٦ .

(١٤٣) التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(١٤٤) طبقات الامم ، ص ٤٨ .

(١٤٥) وفيات الاعيان ، ج٢ ، ص٢ ترجمة رقم ٢٠١ .

(١٤٦) ززو ، الحياة العلمية ، ص ١٣٠ ، نقلا عن الذهبي ، تاريخ الاسلام ج ٣ ، ص ١٤٨ .

(١٤٧) انظر الديوان ، ص ١٠ — ١١ .

(١٤٨) انظر : البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٢٨ ، انساب الاشراف ، ج٤ ، ق٢ ص ٥٠ ، التراتيب الادارية ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ ، نقلا عن السيوطي في « أوائله » .

(١٤٩) طبقات الامم ، ص ٦٠ .

(١٥٠) كان من اهل المعرفة والعلم والخبرة بعمل الاصطرلاب والحركات .

(١٥١) مختصر الزوزني بالمنتخبات الملتقطات ، من كتاب أخبار الحكماء للقفطي ، المثنى بغداد والخانجي مصر عن نسخة ليبزغ ١٩٠٣ ، ص ٤٤٠ .

(١٥٢) الفهرست ، ص ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(١٥٣) الكامل في التاريخ (دار صادر) ، ج ٤ ، ص١٢٥ .

(١٥٤) المقدمة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، (د . ت) ، ص ٥٠٥ .

(١٥٥) تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٤٢ .

(١٥٦) اعلام العرب في العلوم والفنون ، النجف ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(١٥٧) Arabische P. 29-30, 50-51.

(١٥٨) العلم وأثره ، ص ٩٩ ، ٥٥٤ .

(١٥٩) الفهرست ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(١٦٠) تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص ١١٧ .

(١٦١) الفهرست ، ص ١٦٠ .

(١٦٢) انظر : الفهرست ، ص ٤٩٧ ، الاغاني ، ج١٧ ، ص ٣٤١ ، نسب قريش ، ص ١٢٩ البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، الاخبار الطوال ، ص ٣٠٦ ، المعارف ، ص ٣٥٢ ، الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٨٣ . طبقات الامم ، ص ٤٨ ، ٦٠ ، تهذيب ابن عساكر ، ج ٥ ، ص١١٧ وما بعدها .

(١٦٣) دراسات في تاريخ العلوم عند العرب،ص٤٤٢.

(١٦٤) المقدمة ، ص ٥٠٤ ، وانظر عن الرموز ايضا : الديوان لوحة ١ ، ٥ ، زراعة الذهب ، ص ٤٨ وما بعدها .

(١٦٥) Alchemy, p. 61-64. وانظر اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٣٤ ، ومجلة معهد المخطوطات ص ٥٥٧ ، عن راي هوليارد في اشعار خالد في كتابه Makers of Chemistry, p. 44

(١٦٦) اعلام العرب في الكيمياء ، ص ٣٢ .

(١٦٧) ن.م ، ص ٢٦ . Holmyard, p. 61-64

(١٦٨) الوصية ، ص ٧٧ .

(١٦٩) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ، ص ٢٨٣ ، وانظرديوان خالد ، لوحة (٢) .



الدَّعْـــوَةُ العَبَّـــاسِيَّةُ

دراسة في الهوية من خلال المصادر الجديدة والآراء المتضاربة

د . نبيه عاقل

جامعة دمشق

احتدم نقاش طويل ، بين الباحثين المحدثين ، ومن خلال دراسات علمية جادة ، كان بينها رسائل قدمت لنيل درجة الدكتوراه من جامعات كبرى(١) حول موضوع هوية الثورة العباسية ، التي ادت الى سقوط خلافة بني امية ، وقيام خلافة بني العباس . وكان ما قاله (دانييل دينيت) في رسالته عن (مروان بن محمد) من ان: نقطة الجدل في اطروحته هي ان سقوط الامويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان ، بل نتيجة ثورة في سورية(٢) ، المؤشر الاول الى موقف مخالف للمواقف التقليدية من الدعوة العباسية . فقد كان التفسير التقليدي ، وهو الغالب ، ان الدعوة العباسية التي انتهت بفوز عسكري لمؤيدي ودعاة بني العباس ، هي ثورة انقلابية نقلت السلطان في الدولة من اسرة عربية قرشية مسلمة الى اسرة اخرى لها نفس المواصفات ، وانها تحقيق لمسعى آل البيت الطويل للوصول الى ارثهم أو حقهم في الخلافة باعتبارهم اقرب الناس نسبا الى الرسول ، الامر الذي كانوا يتنازعونه مع آل علي بن أبي طالب (الشيعة) الذين سبقوا سواهم من القرشيين في المطالبة بهذا الحق .

والى جانب هذا التفسير التقليدي كان هناك ، قبل اشارة (دينيت) ، ما يمكن تسميته بالتفسير (العنصري) أو (القومي) الذي يمثله مستشرقون رواد ، من امثال (فان فلوتن) و (فلهاوزن) وسواهما ، الذين رأوا في الدعوة العباسية وانتصارها ثورة قومية ايرانية توجهت ضد الظلم الاجتماعي والاقتصادي ، والاضطهاد السياسي ، الذي كانت تعاني منه فئة الموالي التي كانت غالبيتها من الفرس ، والتي تمثل الجمهور الاعظم من رعايا الدولة الاسلامية . وقد رأى المستشرق فان فلوتن ، الذي تأثر بالافكار القومية التي كانت تسود اوربا في القرن التاسع عشر ان الازمة التي شهدتها الدولة الاسلامية في نهاية الحكم الاموي ، والتي انتهت بفوز بني العباس ، ازمة صراع على السلطة بين الاقلية العربية الحاكمة في الدولة ، والغالبية غير العربية من الرعايا غير العرب ، وعلل انحياز اهل خراسان الى الدعوة العباسية وتأييدهم لها بأسباب من بينها(٣) :

١ ـ كره الجماهير الفارسية لحكامها العرب .

٢ ـ ميل غالبية الموالي الى آل البيت ومساندتهم للثورات الشيعية .

٣ ـ الاخطاء التي ارتكبها الحكام العرب وجورهم في معاملة رعاياهم من غير العرب ، مما ادى الى انبعاث الروح القومية الايرانية التي غدت المظلة التي يستظل بها المحرومون من أبناء الشعب الايراني والذين شغلتهم فكرة المهدي المنتظر . Messiah

وجاء فلهاوزن بعد ذلك فايد آراء فان فلوتن وانطلق منها في عرض ارائه التي ضمنها كتابه (الدولة العربية وسقوطها) (Das Arabisch Reichund Seinsturz)

وعلى الرغم من أن فالهاوزن كان أول من تنبه الى دور عرب خراسان في الثورة العباسية ، الا انه عزا تحركهم الى دوافع عصبية فحسب ، تتمثل في النزاعات القبلية التي تعود جذورها الى ما قبل الاسلام ، وسها عن الظروف الجديدة التي نجمت بعد استقرار القبائل الفاتحة في الامصار المفتوحة وارتباط مصالحها بأوضاع العصر الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يكن الحاح جماعة التفسير العنصري او القومي على دور العناصر الفارسية فحسب ، بل شمل هذا التفسير عناصر قومية اخرى ، كعنصر الترك الذين كانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر والذين لعبوا دورا بارزا في انجاح الثورة العباسية ضد الامويين ، حتى ان بعضهم اعتبر أبا مسلم الخراساني من أصل تركي،وانه استطاع في وقت قصير أن يكسب الى صفه اتراك بلاد ما وراء النهر(٤) .

وجاء بعد هؤلاء الباحثين باحثون جدد ، لعل أولهم واشهرهم هو المستشرق البريطاني المعروف هاملتون جب ، ومن بعده برنارد لويس ، اللذان نبها الى دور فعال للعرب في الثورة العباسية .

وكانت اشارة جب المشهورة في كتابه « الفتوح العربية في آسية الوسطى » والتي يقول فيها ان الروايات التي تظهر حماس الايرانيين لابي مسلم الخراساني صحيحة فقط في الفترة التي تلت نجاحه ، اذ ليس هناك اي دليل في رواياتنا التاريخية الموثوقة على حركة جماهير ايرانية كما يصورها بعض المؤرخين(٥) ، تقول : كانت اشارة جب هذه اول تنبيه يصدر عن باحث جاد الى اهمية دور العرب الفعال في الثورة العباسية . وفي العديد من البحوث والكتب ، اشار المستشرق جب الى اهمية دور العرب اليمانية في نجاح الدعوة ، واكد على عدم عنصرية الثورة ، ونفى

وجود حركة جماهيرية ايرانية يرأسها ابو مسلم الخراساني تهدف الى اقامة حكم تكون الكلمة فيه للعنصر الفارسي . وجاء برنارد لويس بعد جب ليؤكد دور العرب القاطنين في خراسان في نجاح ثورة بني العباس(٦). وكانت اشارات هذين المستشرقين على بساطتها وعدم عمقها ، مؤشرا لاتجاه جديد في دراسة هذا الموضوع .

وقد ساعد على نماء هذا الاتجاه والانحراف عن الخط التقليدي أو القومي اللذين اشرنا اليهما ، توفر مصادر مخطوطة لم يتح للباحثين السابقين ان يستخدموها ومن بين هذه المصادر مخطوطة « أخبار العباس وولده(٧) » وهي لمؤلف مجهول يرى الدكتور عبد العزيز الدوري الذي ساهم في نشرها وكتب مقدمة لها ، بانه من مؤرخي اواسط القرن الثالث الهجري ، وانه قد يكون محمد بن صالح بن مهران المعروف بابن النطاح المتوفى عام ٢٥٢هـ/٨٦٨م(٨). ويذكر الدكتور الدوري في مقدمته ان مؤلف الكتاب « اعطى صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها وكشف عن جذور الغلو فيها مما لا يناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم ، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الى الوثيقة السرية منها الى كتاب للجمهور »(٩) . واهمية هذا المؤلف انه انفرد بمعلومات عن بداية الدعوة (حتى سنة ١٠٠ هـ) وبعض احداثها واسرارها مما لا نجده عند سواه من جهة ، ولربما كان استقاه من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة ورؤسائها والدعاة البارزين فيها . وعند الدوري ان ما جاء في الكتاب من اخبار عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم تعتمد على هذه المصادر وعلى اناس متصلين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي ، وبعض افراد الاسرة العباسية نفسها مثل عيسى بن عبد الله « عيسى بن موسى » وابراهيم بن المهدي والرشيد نفسه(١٠). وتكمن أهمية المعلومات الواردة في هذا المصدر الجديد في اننا نتعرف من خلالها على الاساليب التي تبنتها الدعوة لجذب رؤساء العشائر العربية في خراسان والعرب المستقرين في واحات مرو وقراها(١١) .

أما المصدر الثاني الذي جاءت فيه معلومات لم تكن معروفة للباحثين السابقين ، فهو كتاب « تاريخ الخلفاء » لمؤلف مجهول من القرن الحادي عشر ، وقد نشرت مصورة عن هذا المخطوط الوحيد وقدم لها بطرس غريازنيويج ، الاستاذ في معهد الاستشراق في موسكو ، وذلك في موسكو سنة ١٩٦٧ . ويذكر ناشر المصورة في ملخص بالانكليزية ملحق بها ان المادة الموجودة بالكتاب تعتمد في اصولها على مصادر سابقة ثلاثة هي : تجارب الامم لابن مسكويه ، واكتاب المعارف لابن قتيبة ، ومخطوطة تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول التي كان الدكتور الدوري قد عثر عليها عام ١٩٥٧ (ونشرها عام ١٩٧١ كما أشرنا في الهامش ٧) . ويذكر كاتب

الملخص هذا ان التشابه بين ما جاء في « تاريخ الخلفاء » ومخطوطة « اخبار العباس وولده » كبير جدا ولا سيما في احداث الدعوة وظروف وصـول الخلفـاء العباسيين الى السلطة ، حتى أن مؤلف تاريخ الخلفاء يبدو وكأنه نقل نقلا حرفيا عن صاحب كتاب « أخبار العباس وولده(١٢) » .

وقد قمت شخصيا ببعض المقارنات بين الكتابين فوجدت ان هذا الزعـم صحيح وان المرء يميل الى الاعتقاد بنتيجة ذلك ان مؤلف « تاريخ الخلفاء » كان في كثير من المواضع يلخص المعلومات الواردة في كتاب « اخبار العباس وولده » وفـي مواضع اخرى ينقلها نقلا حرفيا .

ونأتي الى المصدر الثالث الذي فات استعماله اصحاب الرأيين الاولين وهـو الجزء الذي يعني بانسـاب واخبار « العباس بن عبد المطلب وولده » من انسـاب الاشراف للبلاذري ، والذي نشره مؤخرا الدكتور عبد العزيز الدوري(١٣) . وفي هـذا الجزء من الانساب ومن خلال الحديث عن شخصيات عباسية ، من امثال محمد بن علي بن عبد الله بن العباس واولاده كابراهيم وعبد الله وبعض الشخصيات التـي شاركت في الثورة العباسية والدعوة لها كقحطبة وابي سلمة والسفياني وسواهم(١٤) يذكر البلاذري اخبارا لا تتوافر عند سواه من أصحاب المصادر المتداولة ، كما ينقل عن رواة ثقاة من امثال المدائني وعمر بن شبه والهيثم بن عدي وسواهم ، فهو بهـذا يكمل ما في مصادرنا من نواقص في الروايات لم تتوافر لهم .

والمصدر الجديد الرابع ألذي لم يقع للباحثين الاولين في موضوع الدعـوة العباسية هو كتاب الفتوح لابن اعثم الكوفي الذي نشر في حيدر أباد عام ١٩٧٥ . وابن الاعثم مؤرخ عربي عاش في القرن الثالث الهجري وتوفي في العام ٣١٤ هـ/٩٢٦ م ، وكتابه « الفتوح » لم يكن معروفا للباحثين ولم يفد منه الا باحثون محدثون علـى الرغم من اهمية المادة العلمية المتوافرة فيه . ويعتمد ابن الاعثم في ذكر اخبـاره اسلوب الاسناد الجمعي كاليعقوبي فيذكر في مقدمة كتابه اسماء الرواة الذيـن اخذ عنهم اخباره . وتنبع اهميته من انه عاش في فترة مبكرة وانه كان من المصادر التي اعتمدها من تلاه من المؤرخين . وطبيعي انه بعد ان انتهى من ذكر الاحـداث التي انتهت بسقوط خلافة بني امية لم يعد كتابه كتابا في الفتوح ، بل غدا من كتب التاريخ العام ، واستخدم اسانيد جديدة لاخباره واعتمد رواة مـن امثال المدائنـي والبلاذري والهيثم بن عدي ، مما يجعل القارىء يشعر وكأن هذا الجزء من الكتاب كتاب جديد لا علاقة له بالقسم الاول الذي كان طابع الفتح واخباره هـو الغالـب عليه ، حتى انه يعتبر ظهور المسودة في خراسان وزوال بني أمية بداية مرحلة جديدة

في التاريخ الاسلامي ، انتهى فيها عهد غلبت عليه الفتوح ، وبدأ عهد طبعته السياسة بطابعها ، وابن الاعثم علوي متشيع يعتبر الثورة العباسية من صنع اناس كانوا يعملون لصالح آل البيت وينقم على بني العباس استلابهم لهذه الثورة ، فيظهر السنوات الاولى من حكمهم وكانها فترة مجازر هدفت للثار من الامويين لال البيت عموما . والمدائني غير دقيق في نقل اخبار هذه الفترة فهو انتقائي في سرده للروايات يسقط ما يريد ويحتفظ بما يناسب ميوله . وايا كان فان في كتابه من المعلومات ما يزيد في زاد الباحث ومعلوماته ، ولكن لابد من الحذر في استعمال هذه المعلومات والتدقيق بما يؤخذ عنه من اخبار .

ويوصلنا ذلك الى الحديث عن كتاب تاريخ الموصل للازدي (المتوفى سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥ م) ، والذي طبع مؤخرا في القاهرة عام ١٩٦٧ والذي يعتبر من البواكير الاولى في التآليف التي نسميها « بالتواريخ المحلية » . ومعلوم ان هذا النوع من التواريخ ظهر متأخرا عن سواه من انواع التأليف التاريخي ، وغدا بعد ذلك من الميادين الشائعة التي طرقها المؤرخون المتأخرون (الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وابن عساكر في تاريخ دمشق ، وابن تغري بردى في النجوم الزاهرة وسواها) وميزة هذا النوع من التواريخ انه يولي البلد الذي يتحدث عنه اهتماما خاصا من خلال اهتمامه باحداث التاريخ العام . والازدي في « تاريخ الموصل » قصد أن يضع سجلا يبحث في طبقات المحدثين الذين اشتهروا ، وكانوا من اهل الموصل او زاروها او اقاموا فيها (على نمط ابن عساكر في تاريخ دمشق) وقد فقد الجزء الاول من الكتاب ، وبقي الجزء الثاني الذي يبدأ باحداث العام ١٠١ هـ / ٧٢٠ م . وفي هذا الجزء نجد المؤلف يحرص على ذكر الاحداث التي كان لمدينة الموصل اثر هام فيها .

ورغم ان الكتاب من كتب « التاريخ المحلي » فان مؤلفه حرص على الا يفوته ذكر الاحداث الجسام التي حدثت خارج الموصل ، ولا سيما في منطقة الجزيرة وسواها من اقاليم الدولة الاسلامية . وقد اعتمد الازدي في جمع معلوماته وسردها طريقة المحدثين ، فاعطى لكل رواية سندها . وكان بين رواته ثقاة من امثال : المدائني وابي معشر ، والهيثم بن عدي وسواهم . وعلى الرغم من ان الازدي يظهر في كتابه ميلا للعلويين الا أن صفة العدالة والضبط تظل غالبة على الكتاب حتى انه يقول في مقدمة بحثه انه « لم يعدل عن الصدق » . ومن تفحص المادة الموجودة في الجزء الذي نشر مؤخرا ، والذي يبدأ بالعام ١٠١ هـ كما اسلفنا ، نجد ان المؤلف قدم لنا معلومات هامة عن الفترة المتاخرة من حياة الدولة الاموية التي كانت خلالها دعوة بني العباس ناشطة . وتوضح الاخبار الواردة عند هذا المؤلف ان العنصر

العربي لعب دورا نشيطا في تأييد الثورة العباسية وانه ساهم مساهمة فعالة في القوة العباسية الضاربة التي حققت النصر لهذه الثورة . كما انا نقرأ عنده ما يظهر الدور الذي لعبته الكتل القبلية العربية وشيوخها في دعم الثورة وايصالها الى جسم الصراع مع الامويين لصالحها ، ويشير الى دور العرب اليمانية ومن كان منهم بين طبقة النقباء في سلم الدعاة العباسيين ، ويؤكد اعتماد الثورة على العنصر اليماني ومعرفة حقه ، هذا فضلا عن الدور الذي كان للموصل في احداث هذه الفترة ، وذكر اسماء اشرافها الذين قتلوا في تلك الاحداث(١٥) . وقد نقل عن الازدي بعض المؤرخين المتاخرين ولا سيما ابن الاثير ، دون ذكر اسمه ، وقد كشفنا ذلك بعد ان قيض لمخطوطة تاريخ الموصل ان ترى النور .

هذا وهناك مصادر اخرى اقل اهمية من هذه التي ذكرنا ولكنها مازالت تنتظر يد المحقق الامين ، ولعل اهمها مخطوطة كتاب الفتن لنعيم بن حماد المروزي الخزاعي (ت ٢٢٨ هـ/٨٤٣ م) والتي عاش صاحبها زمن المأمون والمعتصم ، ولكنها اقل اهمية من سابقاتها على ما يبدو ، لان صاحبها كان يهتم بجمع الاحاديث التي يزعم ان رسول الله كان قد تنبأ بها بفتن ستحدث(١٦) .

ان توافر هذه المخطوطات للباحثين ، وحتى قبل ان تحقق وتنشر ، كان نقطة البدء في الانعطاف الذي رأينا تباشيره عند جب ولويس والدوري ، وسواهم من الباحثين المحدثين ، الذين لبوا دعوة دانييل دينيت الى اعادة النظر في موقف الباحثين الاول ، من امثال فلهاوزن وفان فلوتن وسواهما ، وضرورة النظر بعين الاعتبار الى الدور الذي لعبه المقاتلة الخراسانية العرب وقبائل الازد وربيعة في ايصال الثورة العباسية الى النصر .

وجاء بعد ذلك باحثون عرب من بينهم محمد عبد الحي شعبان الذي ذكر في اطروحة دكتوراه قدمها لجامعة هارفرد الامريكية بعنوان : « الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية » ان هدف الثورة العباسية كان « دمج كل المسلمين العرب وغير العرب في الامبراطورية في مجتمع اسلامي واحد لكل فرد من ابنائه حقوق متساوية »(١٧) . وعلى الرغم مما في هذا الافتراض من مقولة قد تكون مقبولة في الظاهر الا أن ما حدث بعد وصول العباسيين الى السلطة ، يثبت ان ذلك لم يتحقق ابدا ، كما سنرى فيما بعد . وجاء بعد شعبان الدكتور فاروق عمر ليعلن « اننا يجب أن نبحث عن أسباب للثورة العباسية في ظواهر أخرى غير ظواهر الصراع بين الفرس والعرب، أو التمييز الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسته السلطة الاموية تجاه الموالي، فقد اهمل المؤرخون المحدثون سياسة الامويين الادارية والمالية في خراسان ، وردود

الفعل لدى اهل خراسان من عرب وعجم تجاه هذه السياسة »(١٨) . وفي موضع آخر يؤكد الدكتور عمر بأن « ظروف خراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين والسلطة المركزية الاموية في دمشق ، اثرت في ايجاد الجو المناسب للثورة دون شك »(١٩) ، وينبه بعد ذلك الى انه يجب عدم اهمال دور المقاتلة من العرب الذين كانوا يتذمرون بسبب سياسة التجمير (التجميد) ، ولان الوالي الاموي كان يسلبهم فيئهم وغذاءهم في بعض الاحيان ، هذا فضلا عن النزاع المستمر بين شيوخ القبائل العربية في خراسان بسبب طموحهم للحصول على ولاية خراسان وما ادى اليه ذلك من اشمئزاز هذه القبائل ، وشعورها بأن لها في الثورة العباسية املا بحياة اكثر استقرارا ورفاهية(٢٠) كما انه يركز على دور العرب الفعال في نجاح الثورة العباسية ، هذا الامر الذي اهمله الباحثون السابقون .

بعد هذا العرض السريع للاراء المختلفة حول هوية الثورة العباسية والعوامل التي ساهمت في صنعها وانجاحها ، والدور الذي لعبه ظهور مصادر جديدة في تغيير مواقف الباحثين ، نقول ان هذا النقاش بين الباحثين والالحاح على موضوع هوية هذه الثورة ومدى عروبتها أو عجمتها قد انتهى لصالح الفريق القائل باصالة هذه الثورة من حيث كونها عباسية في قيادتها ، اسلامية في شعاراتها ومبادئها . واستقر راي العديد منهم على انها قامت على أكتاف عرب خراسان باعتبارهم عصب القوة الضاربة للجيش الخراساني . هذا بالاضافة الى عروبة الخلفاء العباسيين وانتسابهم الى العباس ابن ابي طالب عم الرسول ، وعروبة بلاطهم بما كان يضمه في مطلع دولتهم ، وأهلهم وصحابتهم وقادتهم وولاتهم ، وكلهم عرب اقحاح وشيوخ قبائل عربية تألفتهم السلطة لتأتلف قبائلهم من ورائهم ، حتى أن بعض الخلفاء العباسيين الاوائل لعب لعبة العصبية القبلية ، اذ تذكر المصادر ان الخليفة المنصور كان يحرص على ضرب القبائل العربية الكبرى بعضها بالبعض الآخر لتنكسر شوكتها ، ولكيلا تكون في دولته مراكز قوى تنازعه السلطان . ومن هذا القبيل كان عمله الدائب منذ تسلمه الخلافة لكسر الحلف بين الازد وربيعة، وقد نجح في ذلك(٢١) . اما كتلة الموالي فلم تكن ذات هوية عرقية معينة، بل كان ولاؤها للخليفة والدولة ، وهذا ما جعل مؤلفا مثل الجاحظ يميز بين (الموالي و (العجم) من جهة ، وبين (العرب) و (العجم) من جهة أخرى . فولاء (الموالي) كان خالصا للدولة ، لا لجنس معين وهذا يعني كما يقول الدكتور فاروق عمر ، « أن التنظيم السياسي للدولة الاسلامية لم يتحول الى تنظيم فارسي يسيطر عليه الفرس ، بل تحول تدريجا من عربي الى أممي ، أي أن الانسان الاساس الذي استندت عليه الدولة الجديدة لم يعد يستند على الاصل الواحد للارستقراطية العربية الحاكمة ، كما كان في عهد الامويين ، بل العقيدة المشتركة : الاسلام »(٢٢).

ومعلوم ان الثورة العباسية التي اسقطت حكم بني أمية ونقلت مركز الثقل السياسي من الشام الى العراق لم تلق ترحيبا من جميع افراد الجماعة الاسلامية أو مواطني دولة الاسلام . ففي حين كان البعض يدعو لها ويقوم بأمرها وينتظر على يديها الخير العميم، كان آخرون يرونفي قيامها سقوط العرب وغلبة العجم وعودة الامر ملكا عضوضا كسرويا(٢٣) .

واذا اضفنا الى ذلك ان الوعي العربي كان قد دخل دور التعبير عن ذاته قبل ذلك بكثير ، اي منذ عهد الراشدين والامويين ، وان حركة الردة التي استطاع أبو بكر الصديق ان يقمعها بحزمه واخلاصه وايمانه الذي لايتزعزع بوجوب استمرار الدولة المسلمة الموحدة الاولى التي اقام الرسول دعائمها في المدينة ، ان هذه الحركة انتهت بتوحيد جميع عرب الجزيرة ورص صفوفهم في ظل راية واحدة استطاعت ان تعلو خفاقة فوق امبراطورية مترامية الاطراف ، عربية اللسان والرسالة والعطاء الحضاري .

وبهذا يمكننا أن نعتبر أن حركة الفتح كانت التعبير الحي عن الطاقات الهائلة التي ولدتها الوحدة العربية الاولى ، واجتماع كلمة العرب تحت قيادة موحدة ، استطاعت أن تنشر السيادة العربية وان توسع رقعة الارض العربية ، لاسيما بعد ان اكمل الامويون هذه المهمة القومية بفرض عملية التعريب على مختلف اصقاع الدولة ومؤسساتها الادارية والحضارية المختلفة ، وجاءت الان الدولة العباسية لتوقفهذا المد العربي ولتلغي التمييز بين العرب وغير العرب في دولة اممية تزداد فيها اهمية العنصر العباسي وتتمازج فيها الدماء العربية بدماء غير عربية ، ولا يستثنى من ذلك الخلفاء العباسيون انفسهم الذين غدت غالبيتهم من أبناء (أمهات ولد) .

وقد تعارف المؤرخون على اعتبار دولة الامويين دولة عربية ، ووصف عصرهم بانه العصر العربي الامثل ، وهذا الجاحظ يقول : دولة بني العباس اعجمية خراسانية ودولة بني مروان أموية عربية ، ويثني المسعودي على قول الجاحظ هذا فيعتبر انه « باستخدام العباسيين للموالي سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها »(٢٤) ، ولكننا نرى أن تبلور الوعي العربي وتعاظم اهتمام اصحابه به كان بعد العصر الاموي حين تعرض العرب لازمات كان أولها تضاؤل دورهم في الحياة السياسية للدولة وتدهور سلطانهم واستيلاء افراد وشعوب غير عربية على مقاليد الامور وتربعها مكان الصدارة في السياسةوالمجتمع.ووضح كيد هذه الشعوب الغريبة في الحركات الانفصالية والثورات المسلحة التي قامت بها ضد الدولة العربية في ظل الاسرة الحاكمة الجديدة ، وفي الحركتين الفكريتين الهدامتين : الشعوبية والزندقة .

ورغم انه لايدخل في نطاق هذا البحث الحديث عن هذه الثورات والحركات الفكرية ، الا انه لابد لنا أن نذكر انه كان لها دور كبير في بلورة فكرة عربية وشخصية عربية تعي ذاتها وتشعر بحدة الهجمة المقصودة التي تتعرض لها بهدف ابادتها والاجهاز على كل منجزاتها . ويتضح هذا الذي نزعم بصورة اكمل اذا ما تذكرنا التلازم والصلة الوثيقة بين الحركة الشعوبية والزندقة من جهة ، وبين هاتين الحركتين والثورات العرقية المسلحة والحركات الانفصالية التي ظهرت في الاقاليم الاعجمية من جهة اخرى . فالشعوبية التي هدفت الى ضرب الكيان العربي والانتقاص من كل ما كان للعرب من مزايا ومفاخر بما في ذلك انتماء الرسول الى الجنس العربي ، والزندقة التي رمت من زاوية أخرى الى تهديم القاعدة التي يستند اليها السلطان العربي وهي الاسلام ، للترادف بين العروبة والاسلام في نظر الشعوب المختلفة التي دخلت في ظل الحكم العربي واعتنقت الاسلام ، كانتا السهم المسموم الذي وجه الى الصدر العربي منذ بدايات الحكم العباسي . وما لبثت أن بدأت حركات مريبة ، كالراوندية والخرمية وحركة المقنع الخراساني ، وسواها ، تطل براسها لتعمل في الجسد العربي نخرا وتخريبا . ورغم وعي السلطة العباسية لخطورة هذه الادواء ، ومحاولتها خنقها في مهدها ، الا انها لكثرتها ولعظم ما احتاجته من جهد ومال ورجال ، خلفت آثارا اقلها انفصال اقاليم عديدة عن الدولة العربية بتدبير فئات غير عربية تحكم باسم الخليفة العباسي ولا تعطيه من مظاهر السلطان الا الخطبة والسكة والطراز ، وكثيرا ما كانت تحجبها عنه . وقد وضح هذا الصراع اكثر ما وضح في العراق ، قلب الدولة العباسية والذي كان منذ القديم ساحة صراع سياسي وثقافي واجتماعي بين السامية والآرية ، وغدا الآن مسرحا لصراع مماثل بين العروبة والعجمة ، لبروز العرب كقوة بديلة على مسرح السياسة الدولية .

وليس من شك في أن الثورة العباسية بما عبات من قوى عرقية وبما استقطبت من نقمات كامنة ، وما أفسحته لها من مجالات للعمل ، كانت المسؤولة مسؤولية غير مباشرة عن هذا الخلل في ميزان القوى والذي مال لصالح العناصر غير العربية . على ان هذا لا يعني أن المسؤولية بكاملها تقع على كاهل هذه الثورة ، لان انفلات هذه القوى العرقية الناقمة من اسر اغلالها السابقة ، وبما كان يعتمل في قلبها من احقاد ، كان اقوى من أن تقدر السلطة العباسية على ضبطه واعادته الى خضوعه القديم . وقد يكون من الجائز أن نضيف ان السلطة العباسية لم تقدر في هذه المرحلة المبكرة من تسنمها المسؤولية السياسية الاخطار التي ستترتب على الاستعانة بهذه القوى . وهكذا فقد كان هذا الصراع العرقي اقوى واعمق اثرا من مجرد ظاهرة تبدل أسرة حاكمة بأسرة حاكمة سواها . انه بركان حبيس اتيح له ان يتفجر في لحظة ضعف فطغى ودمر ، ولم يكن من السهل الوقوف في وجهة .

وهنا لابد لنا ان نشير الى أن هذا الصراع المرير بين العرب وغير العرب لم يكن شرا كله ، اذ انه ساعد على بلورة فكرة « أمة عربية » متميزة عن بقية شعوب الدولة الاسلامية ، وعمق وعيها لذاتها وخصوصيتها ، وسار بها شوطا طويلا تلازم فيه الوعي القومي بالاطار العقائدي للانسان العربي . وقد استمر هذا الصراع في تعميق الوعي القومي على مر العصور ، وانتقل الوعي العربي من صعيد طبقة محدودة الى صعيد شعبي ضم قطاعات واسعة ترص صفوفها على الدوام وتوجه جهدها في سبيل التحرر والانعتاق .

وكان أول مظاهر هذا الوعي التاكيد على اللغة العربية ، واحلالها محل الصدارة في المجتمع والدولة والفكر ، ورغم كل الاعاصير التي ضربت العرب كعنصر قائد في الدولة الاسلامية ، فقد استطاعت العربية أن تصمد وان تحفظ وجها عربيا للدولة ، رغم عجمة العديد من القائمين عليها . وطبيعي ، في دراسة كهذه ، الا نسرف في شرح ابعاد واثار هذه الظاهرة ، ولكن لابد من التنويه بان كل من حمل راية معارضة العروبة ، نطق بلسان عربي واختبأ وراء ستار مزور مما تنزل في القرآن العربي . وفي هذا ما يكفي .

وقد يكون مهما في هذه المرحلة من بحثنا ان نتساءل عن الاسباب التي تكمن وراء هذا التحول الذي طرأ على حال العرب في ظل دولة بني العباس ، التي بدأت حياتها وهي تلوح عاليا بهويتها العربية معتزة بها ، وبالدعم العربي الذي أوصلها الى سحق بني أمية والتربع على كرسي السلطان ، بما قدمه لها يمانية خراسان وربيعتها ومضريتها من قوة ضاربة قاتلت تحت الراية السوداء ، وما اخذ يشعر به هؤلاء العرب بعد امد غير طويل من قيام الدولة من غربة في دولتهم وجأرهم بالشكوى مما آلت اليه حالهم ؟ وفي هذا التساؤل الذي نطرح يكمن التناقض بين انصار الراي القديم الذي يقول بعجمة الثورة وانصار الراي الجديد الذي يقول بعروبتها . ويستطيع اصحاب الراي القائل بعجمة الثورة ان يستغلوا الاخبار التي نجدها في مصادرنا حول تذمر العرب وثوراتهم منذ الدور العباسي الاول كدليل على صحة نظريتهم . وفساد راي القائلين بان العرب عموما ، وعرب المشرق خصوصا ، هم الذين اوصلوا الثورة الى نهايتها السعيدة ، ومن أجل الفصل في هذا الموضوع لا بد لنا من ان نتذكر الامور التالية :

اولا : ان القول بعروبة الثورة لا ينفي الدور الكبير الذي لعبته بقية العناصر غير العربية للوصول بها الى النصر وتسلم مقاليد السلطة . ويكفي ان نستعرض القوائم التي يقدمها لنا صاحب اخبار الدولة العباسية(٢٥) ، باسماء النقباء ونظراء

النقباء والدعاة حتى يتبين لنا ان القائمين على الثورة كانوا عربا وغير عرب وان الذي يربط بينهم هو العمل المشترك لاسقاط بني امية وايصال بني العباس الى الحكم ، وان الرابطة العرقية لم يكن لها دور في تسميتهم ، وانه كان لهم في ذلك مصلحةمشتركة

ثانيا : كانت خراسان معقل الثورة ومستقر رجالاتها ، ويحار المرء في سبب هذا الاختيار . ويبدو ان هذه الحيرة قد وقرت في نفس بعض كبار رجالات الدعوة الاول من امثال سالم بن بجير (سالم الاعمى) الذي دار بينه وبين محمد بن علي الحوار التالي:

« ولما اجمع محمد بن علي على توجيه ابي عكرمة الى خراسان قال له سالم : ليس لنا أن نستبدّ بأمر دونك ولا نسبقك ونحن نأتم بك ، وقد احببت أن أستأذنك في شيء قد كنا رأيناه فخالفنا فيه بكَير اذ نحن بالكوفة ، قال : فهاته وما احب أن تخالفوا بكيرا فانه يحب آل محمد ، وهو ذو رأي . قال : كنا نظرنا في امرنا هذا فرايناك قد حللت بين اهل الشام ، ورأينا لاهل الشام دولة وجماعة ونجدة فيهم ظاهرة ، فرأينا ان نبث دعوتك فيهم ، وندعو منهم من طمعنا في اجابته ، فكره ذلك بكير وخالفنا فيه . قال محمد : أصاب بكير واخطأتم أبى الله ان يأتي بالشمس من المغرب ، وأحب ان يأتي بها من المشرق ، وان أهل الشام أعوان الظالمين وآفة هذا الدين ، وشيعة الملاعين ، وقد ابتعثوا بنصرة بني أمية ، واغرى أكثر اهل العراق بمشايعة بني أبي طالب ، وقد خصنا الله بأهل خراسان ، فهم أنصارنا واعواننا وذخائرنا ، وقد حلت عليهم من الله رحمة قد غشيتهم ، ويوشك ان تتبعهم ريح الحياة فتعز ذليلهم ، وتقوى ضعيفهم ، وتقتل من قاتلهم ، حتى يعز دين الله ويظهر الحق واهله ، يقول الله عز وجل : (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها) فكأنكم بالاودية قد سالت برجال خراسان أشد في طاعتنا من زبر الحديد ، أسماؤهم الكنى ، وانسابهم القرى ، يقدمهم النصر ويحوطهم العز ، من غير اهل خراسان ، فانه ليس لكم بغيرها دعوة ولا من غير اهلها مجيب »(٢٦) .

ويتضح من هذا الحوار ان سالم بن بجير الذي كان من كبار رجالات محمد بن علي وموضع ثقته استغرب موقف بكير بن ماهان من أهل دمشق ومحاولته ابعادهم من الدعوة ، على الرغم من ان بكيرا كان من موالي بني مسلية ، وكان يسكن بالاردن من الشام ، وكان من أهل الديوان قبل ان يغزو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت(٢٧) . ومع ان سالما لا يطلب من محمد بن علي ان يشق بجميع اهل الشام وان يطلعهم على أسرار الدعوة ، وان يقتصر في ذلك على الثقاة منهم الذين يطمع في اجابتهم ، ولكن محمدا يرفض وينعت أهل الشام بنعوت قاسية ، ويؤكد ان الله قد خصهم (اي بني العباس) باهل خراسان ، وان رحمة الله ستعز ذليلهم وتقوي ضعيفهم ، وكان في ذلك اشارة الى فئة خاصة من أهل خراسان هي

فئة الاذلاء والضعفاء التي كانت عصب الجماعة المؤيدة للحركة العباسية . كما انه لا يمكن ان يفهم من وصف محمد بن علي للرجال الخراسانيين المؤيدين لبني العباس بأن « اسماءهم الكنى » بانهم كانوا من العرب فقط ، لان زعماء الدعوة من العباسيين كانوا يكنون الموالي من رجالاتهم ، وهذا بكير بن ماهان الذي كان يكنى « بأبي هاشم » وخالد بن عثمان مولى خزاعة الذي كان يكنى بابي اسحق ، وابو مسلم الخراساني ، وسواهم كثير . اما قوله بان « انسابهم القرى » فدليل واضح على تخليهم عن النسب بالعصبية ، واستعاضتهم عن ذلك بالولاء للجماعة المدنية المتمثلة بالقرية التي يقطنونها . وعندنا ان هذا التخلي عن العصبية القبلية وتحويل الولاء الى الحركة السياسية الجديدة كان نتيجة قهر اجتماعي واقتصادي كبيرين ، عاشه في تلك المنطقة عرب وغير عرب ، جعل الشعور العصبي يتضاءل أمام الآمال المعقودة على نجاح الثورة والوصول الى الفردوس الارضي المنشود ، كما انه دليل على انصهار عرب خراسان المؤيدين لدعوة بني العباس بسواهم من سكان هذا الاقليم من اخلاط الامم اللذين كانوا يؤيدون هذه الدعوة ، الامر الذي ادى الى انتساب الناس الى القرى التي يسكنون لا الى الدماء التي تجري في عروقهم .

ثالثا : ويقودنا ما قلناه في الفقرة السابقة الى الاعتراف بانه لا يمكن لباحث في موضوع نجاح ثورة بني العباس وسقوط حكم بني امية ان ينكر اثر العوامل الاجتماعية والاقتصادية في نجاح هؤلاء وسقوط اولئك ، كما انه لابد ان نلاحظ ان الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المتردية لم تكن حال فئة الموالي فحسب في الايام الاخيرة لحكم بني امية ، بل كانت كذلك حال الكثيرين غيرهم من العرب أيضا . واذا ما استبعدنا بعض الفئات الارستقراطية العربية القديمة او تلك التي نشأت وترعرعت زمن الحكم الاموي ، وفئة الدهاقين من رجال الاقطاع الفارسي القديم والتي استمر نفوذها في ظل بني امية ، لوجدنا ان النقمة الاقتصادية والاجتماعية التي سادت بين الكثيرين آنذاك ، والتي ضمت العديد من رعايا الدولة ، عربا وغير عرب ، كانت من أهم عوامل نجاح هذه الثورة التي علق عليها الناقمون آمالا عراضا في عدالة لم يحصلوا عليها في ظل البيت الاموي . وحين فشل الحكم الجديد في تحقيق هذه العدالة ، ولا سيما لهذه الفئة المحرومة من العرب التي كانت عصب الثورة ، رفعت رايات العصيان مجددا ، لا سيما وان عوامل جديدة أخرى ، سنشير اليها في حينها ، جعلت الشكوى تتعاظم فعاد الذين ثاروا بالامس لرفع الظلم ، ليثوروا مجددا للغرض نفسه(٢٨) . فقد تبين لهؤلاء ان ما كان يدعيه العباسيون من انهم ثاروا « لاظهار العدل ، وانكار الجور ودفع الظلم عن الضعفاء واخذ الحق من الاقوياء » ما هو الا ضلال لا يماثله الا ما كان يفعله أبو مسلم الخراساني حين كان يحرر الاسرى من الجيش الاموي ويعاملهم معاملة حسنة ويعيدهم الى معسكر نصر بن سيار ليحدثوا اخوانهم بما لقوا على يدي ابي مسلم وجماعته (٢٩) .

على ان الانحراف الذي حدث في دولة بني العباس لم يكن دونامبرر ، ويستطيع الباحث في أحوال الدولة في طور نشوئها واستقرار امرها ان يستخرج العوامل التي حرفت الدولة عن مسار الثورة التي اوصلتها للحكم ، واوجدت الوحشة بينهـا وبين بعض رعاياها من العرب الذين كانوا عضـداً قويا أمدها بالدماء والمهـج التي حققت النصر على خصومها الامويين . فلا بد اولا من أن نذكر ان القضيـة الاقتصاديـة والاجتماعية لسكان خراسان كانت ماثلة في ذهن الرواد الاوائل للحركة العباسية . وليس ادل على هذا من قول محمد بن علي في وصف اهل خراسان الذين اعتمدهم عصب ثورته : « وما يزالون يدالون ويمتهنون ويظلمون ويكظمون ويتمنون الفرج ويؤملون »(٣٠) . فهؤلاء الذين كانوا على هذا الحال والذين انضمـوا للثـورة بأمـل الخلاص لم يتحقق لهم الحلم الموعود . اذ ما كادت الدولة تستوي على اقدامها ، حتى وضح لهم انها ليست الفردوس الذي حلموا به وظنوا انهـم سيتظللون أفيـاءه اذا ما كتب النصر لبني العباس . ومعروف ان التركيب الاجتماعي للدولة الاسلامية في عهدها الجديد ، وبعد ان ارتفع نير السيطرة العربية عن رقاب رعاياها ، غـدا تركيبا لا تجانس فيه تتقسمه المطامع الفئوية والعرقية لتعمل يد التخريب في جسد الدولة ووحدتها السياسية والاجتماعية ، هذه الوحدة التي كانت مظهرا واضحا من مظاهر الحكم زمن بني امية ، ولا سيما خلال فترات القوة ايام معاوية وعبد الملك وهشام وسواهم . وقد ادت هذه الظاهرة الجديدة الى توزع اهواء رعايا الدولة من غير العرب ، وانعدام التجانس بينهم ، واستعدادهم للاستجابة لكل صرخة او حركة اعتقدوا ان فيها تنفيسا عن كربهم او املا بنجاتهم ، حتى وصل الامر ببعضهم الى الارتداد الى الماضي المجوسي ، ومحاولة احياء ما كان الاسلام قد اقتلعه من جذوره من ارث ماضيهم وموروث كفرهم . ولسنا نرى في هذه الردة موقفا دينيا او قوميا فحسب كما يحلو للبعض ان يفسره ، ولكننا نرى فيه أيضا تعبيرا عن نقمة اجتماعيـة واقتصادية كانت تعتلج بقوة وشراهة في نفوس هؤلاء المرتدين ، لاسيما وان السلطة العباسية لم تكن وفية لمبادىء المساواة والعدالة التي اطلقتها حين كانت تخطب ود المحرومين وتعد بعدالة لم تتحقق على يد الامويين . وخير مثال على هذا الذي ندعيـه، تفحص واع لبعض اخبار الثورات التي قامت على السلطة العباسية منذ ايامها الاولى، ومنها ثورة السودان في المدينة زمن ابي جعفر المنصور والتي تقدم مثلا واضحا على ما أصاب المحرومين من خيبة امل في الحكم الجديد جعلهم يحملون السلاح في وجهه(٣١).

واذا حاولنا تتبع جميع الحركات التي قامت في العصر العباسي الاول واعتبرت في عرف العديد من المؤرخين بانها حركات عرقية معادية للعرب ، ودرسنا تفاصيل احداثها لوجدنا فيها ، الى جانب العوامل العرقية والقومية ، روائح نقمة اقتصادية واجتماعية عملت على جذب اعداد كبيرة اليها . وقد جرت عادة المؤرخين الذين

يجنحون الى التفسير العنصري ان يجعلوا نقطة البدء في هذا النوع من التحركات مقتل ابي مسلم الخراساني ، ويتحدثون عن حركة سنباذ ، الذي خرج بخراسان بعد مقتل ابي مسلم سنة ١٣٧ هـ مباشرة للطلب بدمه . ان حركة سنباذ الذي تزعم المصادر انه كان مجوسيا ومن اتباع ابي مسلم والتي انتشرت في نيسابور وقومس والري ، تطرح العديد من القضايا والتساؤلات التي لا نجد في مصادرنا اجابات عليها ولا مجال لبحثها هنا .

وتتوضح هذه الصورة بابعادها الاقتصادية والاجتماعية تارة ، والعرقية تارة اخرى عند استعراضنا للحركات المماثلة التي حدثت في هذا الدور ، كحركةالراوندية الذين خرجوا زمن ابي جعفر المنصور ، وكانوا من أهل خراسان ، وعلى راي ابي مسلم صاحب دعوة بني هاشم . ولكنهم وبعد مقتل ابي مسلم جهروا بقولهمبتناسخ الارواح ، وزعموا ان روح ادم حلت في عثمان بن نهيك .

على ان هذا الموقف من جانب ابي جعفر سرعان ما تبدل . ولا سيما حين ادرك ان ما يقولون بالسنتهم ما هو الا تزييف لما في نفوسهم من نقمة على الاسلام ، مصدر عزة العرب ومرتكز سيادتهم فحاولوا ان يأخذوا بظاهره لينسفوا جوهره ، ولكن اللعبة مالبثت ان انكشفت لابي جعفر ، وكان ما كان من قتلهم وافنائهم .

على ان حركة الراوندية تظل رمزا بما حملته من مظاهر ثلاثة توافرت فيما سبقها وما سيتلوها من حركات :

١ ــ هويتها الخراسانية .

٢ ــ حقدها الدفين على العرب .

٣ ــ حربها على الاسلام ومحاولة تشويه مبادئه وتزييفها من الداخل .

وهنا لابد لنا ان نلاحظ ، ان خراسان لم تكن في هذه الفترة من تاريخها خالصة لبني العباس ، بل كان لشيعة علي بن ابي طالب فيها دعاة ورجال يكيدون لبني العباس ويحاولون استمالة الناس لهم . وقد زاد هذا الصراع العباسي الشيعي من ضعف الموقف العربي فيها ، كما زاد من الفوضى العقائدية الاسلامية ، في بقعة لم يكن ولاؤها في الاساس خالصا للاسلام .

واذا استعرضنا اهم الازمات التي كانت تواجهها الدولة في هذه المرحلة من تاريخها ، فيما كان يعرف باسم بلاد ماوراء النهر ، لوجدنا انه لم يكن يمر يوم دونما

انتفاضة في اقليم من الاقاليم او مدينة من المدن ، أو دونما ثورة يحركها زعيم محلي، وحتى ان القادة والولاة الذين كانت ترسلهم الدولة ليمثلوها في تلك الاصقاع كانوا ، وبعد مرور فترة قصيرة على تسلمهم السلطة ، يرفعون رايات العصيان وتغريهم الاطماع الشخصية على اعلان الانفصال عن جسد الدولة .

وكان هم الدولة اليومي هو وضع حد لهذه الحركات والثورات والانتفاضات ، الامر الذي جعلها تنزف نزيفا دائما ، وما تكاد تسد خرقا حتى تواجه بخرق أدهى وامر . اذا اضفنا الى كل ذلك ان الغالبية العظمى من سكان تلك الاصقاع لم يكونوا قد أسلموا بعد ، أو ان الكثير ممن أسلم منهم كان ايمانه اما ضعيفا او مشوها لاختلاطه بالعقائد المحلية القديمة ، لوجدنا ان الارض كانت مهيأة لهذا النوع من المشاكل التي شغلت الدولة على الدوام ، وقد زاد هذا الوضع حدة السيرة السيئة للعديد ممن وسدت اليهم القيادات والولايات في تلك الاصقاع ، كما ان أطماعهم بما تفيض به تلك البلاد من خيرات وتسخيرهم لطاقاتهم وسلطانهم لجني أكبر ما يمكن من كسب ، كانت كلها عوامل في جعل هذه المنطقة منطقة تفجر دائم ، ومخزن حقد لاينضب على الذين كانت تدار الدولة باسمهم، الا وهم الخلفاء العباسيون .

ان أهم ما يلاحظه المتتبع لاحداث هذه الفترة من فترات تاريخنا ، هو هذا الفارق الكبير بين الاهداف التي اعلنتها ثورة بني العباس على اسلافهم من بني أمية ، وبين التطبيق العملي لهذه الاهداف في السياسة اليومية ، وفي الاطار العام لسياسة الدولة .

فقد سار العباسيون بعد ان غدوا اصحاب السلطان شوطا أبعد في التنكرلشعارات ثورتهم اذ انهم وجدوا أن اعتمادهم في اثبات حقهم على وصية أبي هاشم يجعلهم يظهرون وكأن المبرر الوحيد لوجودهم هو ارتباطهم بآل علي ، وان حقهم في ولاية أمور المسلمين مرتبط بقرابتهم لابناء علي فقط ، وهذا ما لايقيم لهم دولة ، ويجعل آل علي ، وهم احياء يرزقون ، أحق بارثهم عن أبيهم .

كما ان ارث الكيسانية يفضح ارتباطهم بحركات الغلو والتطرف والسرية ، وهم يودون كسب ود الفقهاء وعامة الناس ، ويودون بناء دولة تقوم على أساس من حق عمومتهم لرسول الله من جهة وثورتهم على « أهل الجور » اي الامويين ، وما يستتبع ذلك من عدالة ومنع للظلم وارساء لقواعد الشرعية والسنة النبوية ؛ من جهة اخرى . وهكذا غدا الاساس الديني لدعوى الحق العباسي في الحكم هو ان العباس عم الرسول (ص) وانه وريثه بعد ان انتقل الى جوار ربه . وسار العباسيون في عملية التحويل هذه بخطى وئيدة استمرت منذ عهد أبي هاشم الى محمد العباسي ، وحتى خلافة المنصور .

واذا تركنا هذا المظهر الاول من مظاهر مخالفة العباسيين للاهداف المعلنة لثورتهم من حيث علاقتهم بآل البيت من العلويين ، وانتقلنا الى أمر آخر من الامور المعلنة في خطة الثورة العباسية وأهدافها ، وهو الاعتماد على العنصر العربي ، والذي يتجلى في قول أبي مسلم الخراساني :

« أمرني الامام ان انزل في أهل اليمن ، واتألف ربيعة ، ولا أدع تصيبي من صالحي مضر ، وأحذر أكثرهم من اتباع بني امية ، وأجمع الي العجم »(٣٢) . وقوله « قد امرنا الامام باختصاص اليمن » (٣٣) . هذا فضلا عن النقاش الطويل الذي اسلفنا الاشارة اليه حول هوية الثورة العباسية ، والذي جنح فيه الباحثون المحدثون الى القول بأن جهد الدعاة العباسيين في خراسان كان موجها بصورة رئيسية للعرب : مقاتلتهم ومستقريهم . « فقد كان هناك دعاة عباسيون في قرى مرو حيث استقر العرب وفي كل مدينة فيها حامية عربية ، لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان ، ومن أجل الوصول الى السلطة يجب أولا كسبهم الى الدعوة العباسية » (٣٤) و « ان سند أبي مسلم الرئيسي جاء من العرب المستقرين في مرو وضواحيها الذين أدركوا بأن لا مفر من الثورة من أجل تغيير جذري لا في خراسان وحدها ، بل في كل الامبراطورية » كما يقول عبد الحي شعبان(٣٥) . وكان جهد هؤلاء الباحثين منصبا على تغيير التفسير العنصري الذي قال به فان فلوتن وسواه ، الذي يرى في هذه الثورة ثورة عنصرية ايرانية ضد السيادة العربية في الدولة، ومحاولة منهم لابراز دور عرب المشرق في هذه الثورة . وسأترك الجانب الاجتماعي والاقتصادي من نظريتهم الى فقرة لاحقة ، لانطلق من هذا المنظور القومي العربي للعناصر التي قامت بالثورة ، واناقشه في ضوء الاحداث السياسية التي طبعت هذا الدور العباسي الاول بطابعها .

ان الباحث المدقق في الاحداث السياسية لهذا الدور يلاحظ قيام العديد من الثورات ذات الهوية العربية ، بقيادتها ورجالاتها ومضمونها . وكأن الذين قاموا بهذه الثورات ، على كثرتها وخطورتها في فترة زمنية قصيرة ، كانوا يرون في حكم بني العباس حكما لم يف بوعوده للعنصر العربي الذي كان عماد ثورتهم ، ففي الفترة الاولى من حكم هذه الاسرة ، كان طبيعيا ان تثور الشام رغم القهر والقمع الشديدين اللذين تعرضت لهما ، ولكن الامر تجاوز ذلك بعد فترة قصيرة ليغدوا شعورا عاما ينتظم جميع القبائل القيسية التي شعرت ان الحكم العباسي يحابي اليمانية على حساب القيسية ، لتحل محلها ثورات يمانية على الرغم مما بين اليمانية والثورة العباسية من حلف اكدته جميع مصادرنا . ورغم انه لايدخل في نطاق هذه الدراسة

التي تأخذ بالتعميم لا بالجزئيات ذكر تفاصيل هذه الثورات ، فلا اقل من أن نذكر أن اهمال شأن العرب في الدولة غدا من السمات المميزة للعمل السياسي الى الحد الذي دعا قيسا ويمنا الى الثورة على السلطة العباسية في كل مرة تسنح فيها الفرصة وتتعاظم الشكوى . فكانت ثورة نصر بن شبث العقيلي عام ١٩٨ هـ ، والتي بررها بقوله انه لايكره بني العباس وانه لا يقاتلهم الا لانهم انحرفوا عن العرب واعتمدوا على الاعاجم . وكذلك الحال بالنسبة للثورة التي قامت في حوران والبثنية زمن عبد الله بن علي وثورة أبي الورد والسفياني في حمص وتدمر وحلب وشمال الشام ، وثورة الجزيرة برئاسة اسحق بن مسلم العقيلي ، وثورات دمشق التي استمرت حتى خلافة المتوكل عام ٢٤٠ هـ ، وثورات لبنان وحمص التي لعب فيها البيزنطيون دورا محرضا ودامت حتى خلافة المتوكل ، وثورات فلسطين والاردن التي توجتها حركة المبرقع اليماني عام ٢٢٦ هـ والتي انضم اليه فيها ما يزيد على المئة ألف رجل واستمرت حتى خلافة المعتصم .

ان استقراء أسباب وأحداث هذه الثورات يوضح أنها بدات منذ الايام الاولى لانتقال السلطة لبني العباس ، وان أسبابها المباشرة كانت مخالفة السلطة العباسية الجديدة لما اعلنته من مبادىء ويتجلى هذا الذي ندعيه فيما نقراه في كتاب العيون والحدائق عن ثورة شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم الخراساني سنة ١٣٣ هـ . يقول صاحب العيون والحدائق : « وفيها (أي في العام ١٣٣ هـ) خرج شريك بن شيخ المهري على أبي مسلم ببخارى ، وقال : ما على هذا بايعنا آل محمد ، على أن تسفك الدماء ، ويعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه أكثر من ثلاثين الفا . . . وخرج جماعة على أبي مسلم فقتلهم بعد حروب كثيرة » (٣٦) . وقد أهمل بعض الباحثين المحدثين أمر هذه الثورات العربية في الدور العباسي الاول وظنوا انها لم تقم الا في بلاد الشام ، وانها كانت تعبيرا عن نقمة أهل الشام على العباسيين بسبب حرمانهم من المكاسب التي كانت لهم في عهد الخلافة الاموية ، ولابتعاد مركز الخلافة عن دمشق . ولكن تتبع الاحداث واستقصاء ما في مصادرنا من أخبار يظهر أن هذه الثورات كانت لاتقتصر على الشام فحسب بل تقوم في اغلب اصقاع الدولة الاسلامية . فهذه ثورة الامير احمد بن محمد العمري ، المعروف بالاحمر العين ، ببلاد اليمن (٣٧) ، وهذه ثورات واضطرابات الحجاز واليمامة التي قام بها بنو سليم من قيس عيلان وبنو هلال وبنو مرة وفزارة وغطفان ، وسواهم من القبائل العربية التي شغلت الخلافة العباسية ردحا طويلا من الزمن خلال حكم الواثق ، وبعد أقل من قرن على تسلم بني العباس السلطة ، وكانت كلها تعبيرا عن النقمة العربية على التوجه الفارسي للدولة وانحسار سلطان العرب عنها . وهذا هو نصر بن شبث سيد بني عقيل ورافع راية العروبة مع الامين يقولها

مجلجة لرسول المأمون اليه حين جاءه يطلب اليه أن يقلع عن ثورته بعد مقتل الامين ويضع السلاح الذي شهره في وجه الدولة لما رآه من تنكرها للعنصر العربي وميلها الى الفرس : « فصاح (أي نصر) بالخيل صيحة فجالت ، ثم قال : ويلي عليه (اي على المأمون) ، هو لم يقو على اربعمائة ضفدع تحت جناحه (يعني الزط) يقوى على حلبة العرب » (٣٨) .

ولم تكن مصر أقل تحسسا لهذه الوحشة التي قامت بين خلفاء الدور العباسي الاول وأصولهم العربية ، فقامت فيها ثورات عربية كان أكبرها واكثرها خطرا ثورة عبيد الله بن السري بن الحكم زمن المأمون ، مما اضطر هذا الخليفة لان يعهد بقمعها لامهر قوادة عبد الله بن طاهر ، وكافأه على نجاحه في القضاء عليها بتوليته مصر (٣٩) . وهكذا فان العنصر العربي الذي كان عماد الثورة العباسية على ما تذكر المصادر الاولية والدراسات الحديثة ، وجد نفسه يتراجع الى المحل الثاني في الدولة ، الامر الذي دعاه الى اشهار السيف في أكثر من مناسبة محاولا رد الامور الى نصابها ، واحتلال المكانة التي لم تعط له منذ اليوم الاول لوصول العباسيين للسلطة . ولن يطول الامر بالعنصر العربي حتى يبعد نهائيا عن المسرح السياسي وتدال دولته ما قام للعباسيين أمر . وسيحل محله كما هو معروف، ومنذ خلافة المعتصم، العنصر التركي، ثم سواه من شعوب غير عربية كالديلم والسلاجقة وسواهم .

وعندي أن هذا الذي آل اليه حال العرب في دولة بني العباس كانت له بوادره وما يدل عليه منذ الايام الاولى للثورة ، وقبل أن تحقق نصرها على بني أمية . فرغم انضمام بعض عرب المشرق اليها واندفاعهم في نصرتها ، فقد شعروا ، ومنذ ولاية نصر بن سيار على خراسان ، وقيام أبي سلمة الخلال بالامر لبني عباس في مرو ، ان دورهم لن يكون الا ضئيلا وثانويا . « فاضطرب أمر العرب بخراسان ، وتعصبوا وتحذروا واقتتلوا وهم متحيرون » ، كما يقول صاحب كتاب « أخبار العباس وولده » وهكذا ، فالريبة قديمة والشك قائم في نفوس العرب منذ تلك الفترة المبكرة ، وجاءت تصرفات وافعال من وسدت اليهم الامور من آل العباس ، لتؤكد هذا الشك ، فكانت الثورات العربية للاسباب التي أوضحنا ، وعلى النحو الذي أسلفنا ، حتى بلغ الامر ببعضهم الى اعلان الاستقلال بما تحت ايديهم من أرض وجباية الخراج وتعيين الوزراء ، كما كان الحال في ثورة نصر بن شبث سيد بني عقيل التي سبقت الاشارة اليها(٤٠) .

واذا ما انتقلنا الى الميدان العقائدي ، فقد اعلنت الثورة العباسية في أكثر من مناسبة وعلى لسان اكثر من زعيم من زعمائها ، منذ الفترة السرية وحتى آلت اليها

السلطة خالصة لا ينازعها فيها من منازع ، ان الثورة انما قامت لتقاتل « قوما حرفوا كتاب الله وبدلوا دينه ، وتولوا عن أمره»(٤١) ، كما انها عازمة أصدق العزم « على اتباع كتاب الله وسنة نبيه » . وندد زعماؤها « بأهل الجور » (اي الامويين)الذين فشلوا في تطبيق مبادىء العدالة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهكذا فقد تبرأ العباسيون من كل العناصر وخاصة المتطرفة منها التي ساندتهم في ثورتهم(٤٢) .

ولكن هذا الادعاء لم يدم طويلا ، وجاءت الاحداث في هذا الدور لتثبت ان الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، لم يكن الامر المطبق دائما ، ولاسيما حين آلت الخلافة الى المأمون الذي نستطيع ان نعتبر فترة حكمه بداية مرحلة جديدة في تاريخ الفكر الاسلامي اتسمت بسمات ظاهرها الحرية الفكرية ، ولكنها كانت حصيلة مخاض فكري طويل ، وثمرة طيبة حينا ، وخبيثة حينا آخر ، من ثمار التلاقح الفكري بين الامم المختلفة التي عاشت على ارض الدولة الاسلامية وحملت معها ارثها الفكري وما تحصل لها من سالف حضاراتها ودياناتها ، كما حملت أحقادها القديمة ورغبتها في الانتقام من هذا الدين الذي أعز العرب وأشاد لهم دولة وحضارة ورثت دولهم وحضاراتهم .

ولست اريد وانا اضع خاتمة لهذا البحث ان ادخل في تفاصيل الفوارق الاجتماعية والاقتصادية التي كان يعاني منها المجتمع العباسي في هذا الدور الاول وما تلاه من أدوار ، وأثر هذا كله في توجيه احداث هذه الفترة ، وجهة غدت فيها حركة العيارين والشطار في القرن التالي حركة لها وجه اجتماعي واقتصادي ، فكانت الاغارة على الاسواق ونهب أموال الاغنياء ، من السادة والتجار ، تبرر وتحمد لان بعض هذه الاموال المنهوبة كان يعطي للفقراء والمحرومين ، ولهذا موضع آخر ، أرجو أن يتاح الى تناوله في بحث قادم ، ولكني اود ان اذكر بأن طبيعة الظرف الذي ادى الى ولادة الدولة العباسية وتنوع الشعارات التي حملتها والتي قصدت من ورائها كسب كل المتذمرين من الحكم الاموي الى جانبها ، أدت كلها الى ان ينضم الى صفوفها خليط عجيب من المؤيدين فيهم الغلاة والمعتدلون ، المسلمون وغير المسلمين ، العرب وغير العرب . وقد ادى هذا كله الى نجاح الثورة ووصول بني العباس الى الحكم ، ولكنه كان في نفس الوقت المنبت الوخيم الذي رتعت فيه عوامل الفساد والتفسخ التي نجم عنها هذا التناقض الكبير بين

ما رفعته الثورة من شعارات ، وما آل اليه الامر بعد أن انتهت السلطة الى البيت العباسي .

ولنا في تنوع مواقف المؤرخين العرب المسلمين من هذه الدولة ، وتقسمهم بين مادح مستفيض في المدح ، وقادح مغرق في القدح ، خير دليل على عدم وحدة الموقف وتباين الآراء وفق الاهواء والمصالح التي كان يمثلها هؤلاء المؤرخون .

وتظل الدعوة قائمة الى الباحثين في هذه الحقبة من تاريخنا لان لا يكتفوا بالظاهر ، والا يعتمدوا على المروي والمدون فحسب ، وأن يستشفوا ما وراء هذه الاحداث من دلالات ومؤشرات ، وهذا هو ما نبغيه في دعوتنا لكتابة التاريخ العربي بأسلوب يلتزم المنهجية العلمية ، ويضع الحادث الفرد في مكانه الصحيح من المنظومة التاريخية .



الحواشـي :

(۱) انظر من بين هذه الدراسات المطروحة : Demett, D.C., Marwan Ibn Muhammad ph. d., thesis, Harvard university, 1929.

Sha ban, M.A., The social and political back-ground of the Abbassid revolution, ph. d. thesis, Harvard, 1960.

Omar, F., The Abbasid Califate, ph. d. thesis, London university, 1967.

2 — See, Demett. op. cit., p. 276.

3 — Van Vloten, Recherche sur la domination Arabe, ed. Amsterdam, 1894, pp. 35FF.

(٤) انظر ، فامبري ، تاريخ بخارى ، ص ۱۲۰ فما بعد .

5 — Gibb, H.A.R., The Arab conquests in central Asia, London, 1925p.94.

6 — E. I. 2. Art, Abbassids.

(٧) حقق هذه المخطوطة ونشرها الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي بعنوان « اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده » دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت ۱۹۷۱ .

(٨) المصدر السابق ، ص ١٥ — ١٦ .

(٩) المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١٠) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(١١) عمر (فاروق) بحوث في التاريخ العباسي ، ط. بيروت ۱۹۷۷ ، ص ١٤ .

(١٢) انظر ، مصورة ، تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، نشر موسكو ١٩٦٧ ، الملخص باللغة الانكليزية ص ٥٣.

(١٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، القسم الثالث ، العباس بن عبد المطلب وولده ، تحقيق عبد العزيز الدوري ، بيروت ۱۹۷۸ .

(١٤) انظر المصدر السابق ، فهرست المحتويات ، ص ۳۸۰ وما بعدها .

(١٥) انظر ، الازدي ، تاريخ الموصل ، ط. القاهرة١٩٦٧ ، الصفحات المتعلقة باحداث الأعوام ۱۳۱ — ۱۳۳ هـ .

(١٦) حول هذه المخطوطة ، انظر ، فاروق عمر ، بحوث في التاريخ العباسي ، ص ١٩ — ٢١ .

(١٧) نقلا عن المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٤٠ – ٤١ .

(١٩) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩٨ .

(٢٠) المصدر السابق ، ص ٩٨ – ٩٩ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٩٩ .

(٢٢) انظر ، فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ص ٢٨١ .

(٢٣) انظر مثلا ما ينقله فاروق عمر عن صاحب كتاب« النبذة » الذي يعتبر بان الدولة العباسية « دولة مباركة ردت الامور الى قرارها واسندت القضايا والاحكام الى خيارها » وقارنه برأي ابن الطقطقي صاحب « الفخري » الذي يعتبرها « دولة خداع ودهاء وغدر » او ابن عذاري وابن حزم الذين ينعيان سقوط دولة بني امية العربية ودواوينها وغلبة عجم خراسان . انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٨–٢٧٩ .

(٢٤) انظر ، الجاحظ ، البيان والتبيين ج٣ ، ص ٣٦٦ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ط . باريس ١٨٧٣ ، ج٧ ، ص ٢٩١ – ٢٩٢ .

(٢٥) اخبار العباس وولده ، ص ٢١٦ وما بعدها .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٠٥ – ٢٠٦

(٢٧) المصدر السابق ، ص ١٩١ .

(٢٨) من اجل تفاصيل اوفى حول هذا الموضوع ، انظر كتابنا ، خلافة بني امية ، ط . دمشق ١٩٧٢ ، ص ٣٧٣ – ٣٨٦ .

(٢٩) اخبار العباس وولده ، ص ٢٩٢ .

(٣٠) اخبار العباس وولده ، ص ٢٠٧ .

(٣١) من أجل اخبار هذه الثورة انظر ، الطبري ، ط . ابو الفضل ابراهيم ، ج٧ ، ص ٦٠٩ وما بعدها .

(٣٢) اخبار العباس وولده ، ص ٢٨٥ .

(٣٣) المصدر السابق نفس الصفحة .

(٣٤) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٩٨ .

(٣٥) انظر ، المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٣٦) العيون والحدائق ، ج٣ ، ط . المثنى ، بغداد ، ص ٢١١ .

(٣٧) انظر النجوم الزاهرة ، ج٢ ، ص ٢٠٣ ، وانظر ايضا الطبري والبلاذري .

(٣٨) الطبري ، ج٨ ، ص ٥٩٩ .

(٣٩) انظر اخبار هذه الثورة في ، الطبري ، ج٨ ،ص ٦٠٩ وما بعدها .

(٤٠) انظر ، ابن اعثم الكوفي ، كتاب الفتوح ، ج٨ ،ط . حيدر اباد ، ١٩٧٥ ، ص ٢١٢ – ٢١٣ .

(٤١) فتوح ابن اعثم الكوفي ، ج٨ ، ص ١٧١ .

(٤٢) فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ،ص ١١٧.



الطّاعونُ وَالجَفافُ وَأثَرُهُما على البيئةِ
في جنوبِ الشّامِ (الأُردن وفلسطين)
في العصرِ المملوكي

د. يوسف درويش غوانمه

جامعة اليرموك

الطاعون مرض وبائي معد ينتقل الى الانسان عن طريق الحيوانات القارضة كالجرذان ، ويصيب الغدد الليمفاوية ، وخاصة غدد الفخذ وتحت الابط والاذن ، فتتضخم وعنها تنتقل الميكروبات الى الدم ، فيصاب المريض بالم شديد ويتقيأ دما لمدة ثلاثة ايام دون انقطاع . وفي العادة فان هذه الاورام التي تصيب الجسد يوجد بها مادة سوداء في حجم حبة العدس ، فاذا تقيحت نجا المريض ، وان بقيت صلبة فمعنى هذا هلاك المصاب في اليوم الخامس من الاصابة . واحيانا يصاب الجسم بالبثور والدمامل السوداء وتنتشر في اماكن متعددة منه . ونعت الطاعون في المصادر العربية « بالوباء » و « الفناء العظيم » ، اما المصادر الاوربية فنعتته بالموت الاسود (Black death) . ويصف ابو المحاسن أعراضه فيقول : « كان يخرج خلف اذن الانسان بثرة فيخر صريعا ، ثم صار يخرج للانسان كبة فيموت ايضا سريعا ، ثم خرجت بالناس خيارة فقتلت خلقا كثيرا ، ثم صار الآدمي يبصق دما ويموت من وقته »(١) . والطاعون سريع الانتشار شديد الفتك حتى بالحيوانات على اختلاف انواعها(٢) .

وذكرت المصادر ان بلاد الشام اصابها في سنة ١٨ هـ (٦٣٩ م) ما عرف « بطاعون عمواس »(٣) ، وكان عاما ببلاد الشام والعراق ومات في البصرة بسببه عدد كبير من الناس(٤) . وصاحب طاعون عمواس قحط وجفاف ، واكثره كان ببلاد الحجاز(٥) ، فأصابت الناس مجاعة شديدة ولزبة وجدوب وقحوط أدى الى فناء العديدين وهو ما سمي « بعام الرمادة »(٦) .

ثم أصاب فلسطين في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) طاعون وصف « بأنه طاعون جارف ربما اتى على جميع اهل البيت فخربت أرضهم وتعطلت(٧) ، فلم تجد الارض من يملكها او يستغلها ، فتحولت ضياع كثيرة الى الدولة وأصبحت « ضياعا للخلافة » (٨) ، فأوكل بها من يزرعها ويعتني بها .

اما اشد انواع الطاعون فتكا واوسعه انشارا فذاك الذي انتشر في العصر المملوكي ، ووصفته المصادر العربية « بالفناء الكبير ، أو الطاعون الاعظم »(٩) ، وشمل كل انحاء العالم . وكان ابتداؤه في حلب سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ، ومنها انتشر الى جميع بلاد الشام ، فأصاب الاردن وفلسطين ، وعم كل مدينة وقرية . وعن طريق السفن التجارية انتقل الى بلاد الفرنج (اوروبا) فأصاب قبرص ، والاندلس ، وايطاليا وفرنسا والمانيا ، والدول الاسكندنافية وروسيا ، وبريطانيا(١٠) .

واستمر الطاعون يفتك بمنطقة الاردن وفلسطين منذ منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) . وكان أشده ذاك الذي ابتدأ سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) ، فأصاب اولااواسط آسيا والصين ثم الهند ، وانتقل غربا بواسطة المسافرين الى بلاد الاناضول والعراق . وفي مستهل جمادي الاولى ٧٤٨ هـ (٩ آب (اغسطس) ١٣٤٧ م) ظهر بحلب(١١) ، فعم جميع بلاد الشام ثم انتقل الى مصر ، ومنها الى أوروبا نقله التجار الجنويون الى ايطاليا(١٢) . ويصف أبو المحاسن هذا الطاعون فيقول : « افنى بلاد صفد والقدس والكرك ونابلس والسواحل وعربان البوادي ، حتى أنه لم يبق ببلد جنين غير عجوز واحدة خرجت منها فارة ، وكذلك وقع بالرملة وغيرها وصارت الخانات ملآنة بجيف الموتى »(١٣) . أما ابن بطوطة فذكر أن الطاعون أصاب عجلون وبيت المقدس(١٤)، وان غزة فنيت بسببه ، واكد ذلك كل من المقريزي وابي المحاسن ، فذكر أن غزة فقدت اثنين وعشرين ألفا من سكانها(١٥) .

وعقب الطاعون اصيبت بلاد الشام سنة ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) « بوباء ومرض كثير » ، فأصاب غزة والقدس ودمشق ، وادى الى هلاك خمسة آلاف شخص في شهر واحد في مدينة دمشق لوحدها(١٦) . ثم عاد الطاعون للمنطقة في السنوات ٧٦٤ هـ (١٣٦٢ م) ، ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) ، ٧٩٥ هـ (١٣٩٢ م) فأصاب شمال الاردن والاغوار وغزة وادى الى هلاك اعداد كبيرة من سكانها(١٧) . ولكن سرعان ما عاد الطاعون والوباء والحميات الى البلاد في السنوات ٧٩٦ هـ (١٣٩٣ م) ، ٧٩٧ هـ (١٣٩٤م) ، ٨٠٠هـ (١٣٩٧م) ، ٨١٩هـ (١٤١٦م) ، ٨٢٦هـ (١٤٢٣م) ، فأهلك العديد من سكان الاردن وفلسطين(١٨) وقدر ابن الصيرفي عدد من مات في بلاد الشام في سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) بستة وثلاثين الفا(١٩) .

وفي سنة ٨٣٣ هـ (١٤٢٩ م) تفشى الوباء في الاردن وفلسطين ، واشتد تأثيره في غزة والرملة والقدس وصفد ، فمات بسببه خلائق لا يحصى عددهم (٢٠) . ووصف المقريزي هذا الوباء بأنه يشبه النزلات، اذ كان ينحدر من الدماغ الى الصدر ، فيموت

الانسان في أقل من ساعة بغير تقدم مرض ، وكان أكثره في الاطفال والشباب(٢١) . ثم عاد الوباء للاردن وفلسطين في سنة ٨٤١ (١٤٣٧ م) فمات الكثيرون ، وكان أشده في غزة والرملة ومنطقة الاغوار .(٢٢) وباعتقادي ، ان هذا الوباء الذي تقدم وصفه ، هو نوع من أنواع الحميات القوية التي كانت تفتك بالناس بهذه السرعة وبهذا الشكل الخطير . واستمر الطاعون يفتك بالاردن وفلسطين في السنوات ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ م)، ٨٨١ هـ (١٤٧٦ م) ، ٨٩٧ هـ (١٤٩١ م) ، وافنى العديد من السكان(٢٣) .

أما الجفاف الذي أصاب الاردن وفلسطين في العصر المملوكي فكان مزامنا في أكثر الاحيان لوباء الطاعون ، ففي سنة ٧٩٧ هـ (١٣٩٤ م) أصاب البلاد جفاف فانحبست الامطار ، وجفت الآبار وانعدمت الزراعة ، وهلكت المواشي ، فنزح الناس عن بلادهم ، وتعطلت حركة التجارة الداخلية في المدن وتسبب ذلك في كساد اقتصادي كبير ، والى موت العديدين جوعا(٢٤) .

ثم ان بلاد الشام عامة أصيبت في سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) « بالقحط العظيم »، فجفت الآبار وانخفض منسوب مياه الانهار حتى انها لم تكن قادرة على ادارة الارحية المعدة لطحن الحبوب ، فاغلقت لذلك أرحية عديدة(٢٥) . وجفت الينابيع في أنحاء متفرقة من البلاد ، وادى الجفاف الى هلاك الناس وانعدام الزراعة واتلاف المحاصيل الزراعية وقلة مياه الشرب(٢٦) ، فارتفعت الاسعار واضطر الناس الى أكل الشعير لعدم وجود القمح . وباع الناس أغلى ما لديهم بأبخس الاسعار لشراء الطعام ، وفي هذا القحط قال الشاعر :

سنين القحط قد دارت علينا — وعمت للكبير مع الصغير
وبعنا الفرش والبسط الغوالي — ونمنا بالثياب على الحصير
لقينا من اذاها ما لقينا — وزاحمنا الحمير على الشعير (٢٧)

ونتيجة لهذا القحط قل الخبز في الاسواق ، وصار الناس يتزاحمون على الافران صفوفا خلف بعضهم من المطلع الى المغيب ، وهو عجين أسود « وكثير من الناس ما يحصل له خبز ، وبقي الرجل يقف نصف يوم حتى يحصل له خبز »(٢٨) . وقد ارتفعت اسعار اللحوم وانعدمت الفواكه والخضراوات من قلة الماء ، وكان الناس في شدة عظيمة(٢٩) .

ثم أن القحط أصاب الاردن وفلسطين سنة ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) « فأجدبت أراضي بلاد حوران والكرك والقدس والرملة وغزة لعدم نزول المطر في أوانه ونزح كثير من سكان هذه البلاد عن أوطانهم وقلت المياه عندهم »(٣٠) . وذكر المقريزي في

سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥ م) ان جنوب الشام أصيب بقحط وجفاف ادى الى ارتفاع الاسعار في بلاد غزة والرملة والقدس ونابلس والساحل ودمشق وحوران وحماه(٣١) .

ومن الملاحظ ان سنين القحط والجدب كانت متزامنة مع سني الطاعون والاوبئة فأثر ذلك في بيئة جنوب الشام فقلت المواد الغذائية واصيب الناس بالمجاعة والعطش والفناء الكبير . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل تعرضت البلاد في تلك السنوات انعجاف لزحف الجراد القادم عبر الصحراء ، فأثر في البيئة الزراعية والنباتية وزاد من عناء المواطنين وبؤسهم . ففي سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ظهر بالشام جراد عظيم لم يسمع بمثله وامتد من مكة الى الشام ، وكان أكثره بحوران ومنطقة الاردن حتى أكل الاشجار والاخشاب وأبواب الدور ، « وكان من شانه بعجلون أنه امتلأت منه المدينة وغلقت الاسواق وطبقت أبواب الدكاكين والطاقات وسدت الابواب وحضروا لصلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع وترأس على الخطيب على المنبر حتى شغله عن الخطبة ، وانتنت (المدينة) لكثرة ما قتل منه »(٣٢) .

من خلال سردنا للاحداث السابقة نلاحظ أن منطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) أصابها الفناء العظيم (الطاعون) ثم الوباء والقحط عدة مرات منذ أوائل القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) ، وحتى أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) فما تأثير ذلك في البيئة الاردنية الفلسطينية ؟؟

وصفت المصادر منطقة الاردن بالخصوبة والمناخ المنعش، فشمالها كان من أحسن المناطق الصحية في العالم(٣٣) . وغطت غابات السرو والسنديان والبلوط معظم مرتفعات عجلون ومؤاب والشراه ، وانتشرت الينابيع في الاودية العديدة شمالها وجنوبها . اما سهولها فاشتهرت بالخصوبة ووفرة الغلات في كل من عجلون والبلقاء والشوبك والكرك(٣٤) ، وكثر القمح في عمان والصلت فوصفت « بمعدن الحبوب » . اما غابات الزيتون فانتشرت في عجلون ومؤاب ووادي موسى والشراه ، وكانت كروم العنب في كل مكان من الاردن . وذكرت المصادر أن جبال مؤاب اشتهرت بأشجار اللوز والرمان والتين(٣٥)، واودية الكرك والصلت وحسبان بفواكهها المفضلة من المشمش والرمان(٣٦) وأشجار الجوز ، حتى ان سيلا اجتاح أودية الكرك سنة ٧٨٧ هـ (١٣٨٥ م) فأخذ في طريقه اثني عشر الف شجرة جوز(٣٧) . ووجد في الاغوار زراعة الارز وقصب السكر والموز والنيل والنخيل(٣٨) ، وانفردت مدينة بيسان بنبات السامان الذي يصنع منه الحصر السامانية(٣٩) . ووجد النخيل في ايلة (العقبة) ومدينة زغر في الغور الصافي جنوب البحر الميت(٤٠) . اما المراعي فقد انتشرت في الجبال والسهول والاغوار والبادية وكثرت فيها الاغنام والابقار والابل (٤١).

أما منطقة فلسطين فقد وصفها الجغرافيون بالخصب ووفرة الانتاج ، فاشتهرت المناطق الجبلية في الجليل ونابلس والقدس والخليل بالاشجار المختلفة كالسرو والسنديان والخروب والسماق ، والزيتون والكرمة والتين والجميز ، والتفاح والخوخ واللوز والجوز والرمان والمشمش(٤٢). أما السهول الساحلية فاشتهرت بقصب السكر والبرتقال والسفرجل والحبوب كالقمح والشعير والسمسم والذرة والخضراوات بأنواعها(٤٣) . وهكذا فاننا نرى أن منطقة جنوب الشام (الاردن وفلسطين) في العصر الاسلامي كانت من أخصب المناطق واجملها ، وأفرة الغلات ذات مناخ منعش وطبيعة جميلة وكثافة سكانية عالية .

ولكن الطاعون والوباء ثم القحط والجفاف تركت آثارها بارزة في البيئة الاردنية الفلسطينية . فالطاعون أصاب البلاد منذ القرن الاول للهجرة (السابع الميلادي) ثم تتابع في فترات أخرى لاحقة . فالطاعون الذي أصاب البلاد في عهد الرشيد أثر على الديموغرافية في الاردن وفلسطين ، وفنيت عائلات بأكملها ، وتعطلت الزراعة وفلاحة الارض ، مما دعا الدولة الى تأجير هذه الاراضي لفلاحين جدد ، بل ان قسما من هذه الاراضي أصبح ملكا للخليفة(٤٤) .

اما الطاعون والوباء الذي أصاب البلاد في منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) فكان تأثيره كبيرا في ديموغرافيتها فمات العديدون من سكان الاردن وفلسطين ، وفقدت البلاد ثلثي سكانها(٤٥) . فابن بطوطة ذكر أن عجلون والقدس وغزة كان معظمها خاليا من كثرة من مات فيها من الطاعون(٤٦) . اما جنين والرملة واللد والكرك والاغوار فبعضها فقد كل السكان ، لذا تأثرت الزراعة ولم تجد الارض من يزرعها ، فكانوا يجدون الفلاحين أمواتا خلف محاريثهم ، وبعضهم مات وبيده البذار(٤٧) . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل أصاب الطاعون الطيور كالنعام والغربان والحيوانات كالابقار والابل والاغنام وأهلك اعدادا كبيرة منها(٤٨) . وامتد الى الحيوانات البرية ، فوجدت الاسود والحمر الوحشية والذئاب والخنازير والارانب مطعونة في منطقة الاغوار(٤٩) . فالطاعون والوباء (الحميات) أثر في ديموغرافية البلاد في العصر المملوكي واستمر وجوده في المنطقة منذ أواسط القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) حتى أواخر القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ، وادي الى نقص كبير في عدد السلكان . فتوقف النمو السكاني تماما في فترة من الفترات ، فالاطفال الذين يولدون كانوا يموتون بعد يوم أو يومين(٥٠) . وحدث مثل ذلك في أوروبا فقد توقفت الخصوبة والنمو الديموغرافي تماما بسبب طاعون القرن الرابع عشر الميلادي(٥١) . وافنى هذا الطاعون ثلث سكان أوروبا ، ففقدت كل من جنوا وفينيسيا

سنتين ألفا من سكانها(٥٢) ، أما فلورنسا ولندن ففقدت كـل مدينة منهمـا مئـة ألف نسمـة ، وفقدت بيـزا سبعـة أعشـار سكانهـا . أما سكـان قبرص فقد هلكـوا جميعا ، وفقدت المانيا مليونا وربعا من سكانها ، وفرنسا ثلاثة أرباع سكانها وايطاليـا نصف السكان(٥٣) . وهذا النقص الهائل في عدد السكان كان تأثيره كبيراً في الثـروة الزراعية والاقتصادية والحيوانية ، فانخفضت بل وقلت مواردهـا ومردودهـا علـى البـلاد .

وقد تأثر نظام الملكية في الشام جميعها نتيجة للطاعون بسبب هلاك العديد مـن الملاكين والمزارعين ، فانحلت الاقطاعات بموت أصحابها ، وانتقلت ملكيـة الاراضـي الى ملاكين جديد(٥٤) . وظهرت طبقة جديدة من العامة كالخياطين والاساكفة ملكـت الاقطاعات(٥٥) ، ولم يسمح لها في السابق امتلاك مثل هذه الاملاك ـ لان الاقطاعـات المملوكية كانت في معظمها عسكرية من حق الامراء والاجناد فقط ـ بـل ان معظمهـم ملك البيوت والاموال لموت أصحابها ولعدم وجود من يرثها او يطالب فيها(٥٦) . ولقلة الفلاحين العاملين في الارض حدت الدولة من حرية الفلاحين ومنعـت انتقالهـم مـن ارض الى أخرى الا بعد مرور ثـلاث سنوات ، وان فعـل وترك الارض أعيـد اليهـا بالقوة(٥٧) . ونرى أن الامر حدث في نفس الوقت في انجلترا ، فبعدما أصيبت البـلاد بالطاعـون قرر البرلمان بقانون العمال عودة الاقنان وعمـال الحـرف الـى أجورهـم القديمة وحرم عليهم الانتقال من جهة الى أخرى(٥٨) .

وكان من نتيجة الطاعون كذلك ان تأثرت الثروة النباتية فلـم تجد البسـاتين والكروم من يعتني بها لموت اصحابها ودوابهم ، فخربت وجفت اشجارها ، وادى ذلك الى نقص في الثروة الشجرية والنباتية . ثم أن القحط والجفاف الذي واكب الطاعـون والوباء في العصر المملوكي أثر على البيئة في الاردن وفلسطين ، فهلكت الحيوانات وجفت الزروع والاشجار وخربت البلاد لجفاف المياه من الينابيع ونقص منسوبها في الانهـار ، أضف الى ذلك ما سببه الجراد الكثيف الذي دهم البلاد في تلك الفترة الحرجـة مـن تاريخها وادى ذلك الى غلاء في الاسعار فهجر السكان والفلاحـون قراهم(٥٩) . اذن حدث تغير في الكثافة السكانية في بلاد الشام ، وهجرة داخلية ، مما ادى الى تغييرات في التجمعات السكانية آنذاك . وهكذا فقد كان للعوامل الطبيعية السابقة مـن قحـط وجفاف وأوبئة وطاعون وجراد آثار مباشرة في عدم النمو السكاني . فالنمـو السكاني هو الام للتقدم الزراعي الذي هو متطلب طبيعي للتقدم التجاري والصناعي ، والنمـو السكاني يحتاج الى البيئة النقية المناسبة ، والى الامن والاستقرار الذي كان مفقودا في فترات لاحقة من العصر المملوكي الثاني . فغزوات التتار بقيادة تيمورلنك ، والتطاحن

المملوكي على السلطة وثورات النواب والمماليك ثم حرب المماليك مع العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ، ثم الاجتياح العثماني للبلاد ومهاجمة العشير للمراكز الحضرية بعد ان انحل حبل الامن والاستقرار ، وضعف السلطة المركزية ، لكل ما سبق خربت القرى وهجرها سكانها ، فلم يأت القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادي الا وعدد كبير من القرى خال من السكان ، حتى ان السجلات العثمانية نعتت العديد منها بـ (خراب وخالي) (٦٠) .

وكان للطاعون والوباء والقحوط آثار سلبية في المجتمع الشامي بشكل عام ، فانتشر الفساد والفسق والفجور ، وتعاطى الناس الفواحش ، فابن صصرى يقول في سنوات القحط العظيم الذي أصاب الشام : « وقد رأينا في هذا الزمان من المنكرات ما لم نكن نراه ، وسمعنا فيه ما لا اسمعناه ، وابصرنا عجائب ، وشاهدنا غرائب ، فلهذا الحال قلت الارزاق ، وكسدت بضائع الاسواق ، وقل نزول الغيث ، وتعطلت اسباب الناس ، وقست قلوب الملوك ، وتجبر الغني على الصعلوك ، فهاكت الرعية وعظمت البلية »(٦١) . وبسبب القحط والغلاء ظهرت طبقة طفيلية استغلت حاجة الناس ، فاحتكرت الاصناف وتلاعبت في اقوات المواطنين ، وفرضت الاسعار التي تريدها ، مما دعا العامة الى الثورة على هؤلاء المحتكرين ، فحطمت قصورهم ، واستولت على اهراءاتهم وما بها من مغلات واطعمة(٦٢) . وعلى نقيض ذلك حدث في فترة انتشار الطاعون والاوبئة والموت الكثير ، فنجد ان الاسعار انحطت ، وبيعت السلع بأبخس الاسعار لعدم وجود من يشتريها ، وانحطت قيمة الذهب والفضة .

ومن الآثار السلبية للطاعون على المجتمع الشامي بشكل عام . قلة الصناع والعمال ، وارتفاع الاجور ، مما اضطر الدولة الى استخدام القوة لمنع مثل ذلك وارغام العمال على القبول بأجور معقولة(٦٣) . وحدث نفس الشيء في الدول الاوروبية أثناء الطاعون الكبير ، لكن دولها تغلبت على هذه المعضلة وما قد يترتب عليها من نتائج ثورية قد تؤدي الى تغييرات هامة في مجتمعاتها ، فسنوا القوانين التي حرمت على سائر عمال الحرف تقاضي الاجور الباهظة(٦٤) .

كما ان التجارة تأثرت لعدم وجود السلع ومن يحملها او ينقلها ، وانعكس ذلك على البلاد ، لا بل على الدولة عامة ، فقلت مواردها المالية مما دفع السلطان للاستدانة من تجار الكارم لتجريد الحملات لمحاربة الثائرين على الدولة(٦٥) .

ومن النتائج ايضا ظهور حركات التمرد والعصيان بعد ان انحل حبل الامن في الدولة المملوكية بشكل عام لموت أكثر جيشها في الطاعون والوباء ، وخصوصا في

دولة المماليك الثانية(٦٦) . ولقلة مواردها الاقتصادية والمالية لم تتمكن من شراء مماليك جدد تزود بهم قواتها العسكرية ، مما دفع بعض الامراء للثورة على السلطة المركزية ومحاولة الاستقلال في نياباتهم وخصوصا في بلاد الشام(٦٧) . ومما لا شك فيه ان ذلك كان سببا من أسباب ضعف الدولة المملوكية وعدم استطاعتها الصمود والوقوف أمام العثمانيين في أوائل القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

ونتج عن ذلك أيضا تغييرات اجتماعية خطيرة ، فظهرت طبقة جديدة امتلكت الاراضي والاموال وكانت في السابق محرومة من هذا الامتياز ، فنرى أصحاب الحرف العامة يمتلكون الاقطاعات علما أن هذه الاقطاعات كانت حكرا على الامراء والاجناد مقابل تقديمهم خدمات عسكرية للدولة . وكان للكساد الاقتصادي والقحط والمجاعة والموت بأعداد كبيرة مردوده الاجتماعي ، فأثر في السلوك والقيم والاخلاق العامة ، وهجرت قرى عديدة وأصبحت خربة خالية من السكان . وحدثت ردة لدى المواطنين في الشام ، فأصابهم اليأس فعمدوا الى الفسق والفجور والملذات هروبا من واقعهم المرير ونهايتهم السريعة . بينما عمد آخرون للجوء الى الله بسبب الضائقة التي كانوا يعانون منها ، فهرعوا الى المساجد ودور العبادة يطلبون الرحمة من الله ، وحدث نفس الشيء في أوروبا . وقد شاهد ابن بطوطة لوحة معبرة عن التوبة والرجوع الى الخالق أثناء مروره بدمشق سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فقال : ان الدمشقيين « باتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع ثم صلوا الصبح ، وخرجوا جميعا على أقدامهم ، وبأيديهم المصاحف والامراء حفاة . وخرج جميع أهل البلد ذكورا واناثا ، صغارا وكبارا ، وخرج اليهود بتوراتهم ، والنصارى بأنجيلهم ، ومعهم النساء والولدان ، وجميعهم باكون متضرعون الى الله بكتبه وأنبيائه(٦٨) ، أن يزيل عنهم هذا الوباء ويحميهم منه ، وكذا فعل الناس في الكرك والقدس ونذروا النذور لهذه الغاية »(٦٩) .

وتسبب الطاعون في موت أعداد كبيرة من علماء وفقهاء البلاد ، فابن بطوطة مر بالقدس أثناء انتشار الطاعون في الاردن وفلسطين سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فقال : « ووجدت من كنت أعهده من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى ، فلم يبق منهم الا القليل »(٧٠) . وحدث مثل ذلك في غزة التي فقدت ثلاثة ارباع علمائها وفقهائها وشهودها العدول(٧١) ، وانسحب ذلك على بقية البلاد الشامية والمصرية ، ولاشك أن موت العديد من علماء وفقهاء البلاد كان له تأثيره على الحياة العلمية وتطورها .

خاتمة :

وفي نهاية هذه الدراسة نشير الى ما يلي :

١ ـ اصيبت المنطقة بالطاعون منذ عام ٦٣٩ م وهو ما عرف بطاعون عمواس وصاحبه جفاف وقحط ومجاعة . ثم طاعون القرن الثامن الميلادي في عهد هارون الرشيد ومن نتائجه انحلال الملكيات وعدم وجود من يمتلك الارض ويستغلها .

٢ ـ ثم عاد الطاعون والوباء للمنطقة والذي سمي بالطاعون الاعظم أو الموت الاسود منذ سنة ١٣٤٧ م ، وعم كل مدينة وقرية ، وكان هذا عاما في العالم ، ولكنه بقي في منطقتنا مدة اكبر اذ استمر من اواسط القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن الخامس عشر اي (١٥٠ سنة) .

٣ ـ صاحب الطاعون في مرات عديدة جفاف وقحط ومجاعات وفي أحيان كثيرة انتشر الجراد الذي فتك بالثروة والغطاء النباتي في البلاد .

٤ ـ لم تكن الدولة سلبية ازاء ذلك ، فمنذ العصر الايوبي انتشرت البيمارستانات (المستشفيات) في جميع انحاء بلاد الشام وذكرت المصادر ان سبب ذلك هو الاوبئة التي فتكت بالناس ، فوصل عدد المستشفيات الى (٣٠) مستشفى ، معظمها كان يدرس الطب ، لذا فقد كثر الاطباء ولدينا كتب تراجم لمئات منهم ، بل وجد في معظم القلاع اطباء للمحافظة على سلامة الجنود والسكان المجاورين .

٥ ـ اذا كان الطاعون الذي أصاب اوروبا أدى الى تغييرات اجتماعية كبيرة بل كان مقدمة للثورة الصناعية وانحلال نظام الاقطاع فما هي التغييرات التي أصابت المنطقة عامة وهل كانت بنفس الدرجة التي حدثت في أوروبا ؟؟.

٦ ـ الانقلابات او التغييرات التي حدثت في المجتمعات الاوروبية لم تكن مفاجئة بل انها ادت الى تغييرات اساسية بطيئة نستطيع ان ندرجها في مجملها في قائمة الانقلابات ، فهل حدث ذلك في منطقتنا ؟؟.

٧ ـ البحوث الاوروبية رتبت على طاعون القرن الرابع عشر ، معظم الحركات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فهل نستطيع ان نرتب على الطاعون في بلاد الشام تغييرات اقتصادية واجتماعية وسياسية ؟؟.

٨ ـ المصادر التي لدينا تذكر ان قرى منطقة الكرك في نهاية الدولة المملوكية كانت ٤٠٠ قرية وفي منطقة البلقاء حول عمان ٣٠٠ قرية وفي شمال الاردن وحوران ١٢٠٠ قرية ما عدا منطقةالاغوار وان معظم المدن كانت عامرة مزدهرة بالسكان كالكرك والشوبك وعمان والعقبة وعجلون واربد وحبراص والسلط وغيرها .

٩ ـ هناك تساؤل كبير لماذا هذه الخرائب المنتشرة في جنوب البلاد وشمالها والتي تبلغ المئات ولماذا خربت وأين سكانها ؟؟ ثم لماذا أصبحت البتراء والشوبك وعمان ومأدبا وجرش وعجلون وحبراص وبيت راس وجدرا وفحل وقويلبه وام الجمال خرائب قليلة السكان ، فعند وصول الرحالة الاوربيين الى المنطقة في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ذكروا بل وصفوا قلة السكان في كل هذه المراكز الحضارية القديمة .

١٠ ـ اذن لابد من وجود سبب لكل هذا التغيير في الديموغرافية السكانية ليس سببه الانسان وحده بل لابد من وجود عوامل طبيعية قاهرة كانت فوق قدرة الانسان فلم يتمكن من السيطرة عليهاوادت الى تدمير وخراب كل هذه المدن والقرى ، اذا أخذنا بعين الاعتبار أن كل هذه المدن والقرى كانت عامرة في العصر الايوبي والمملوكي .

١١ ـ وهنا اطرح سؤالا الى الباحثين والمهتمين بتاريخ المنطقة ، هل تعتقدون ان هناك دورة مناخية ؟ فقد ذكر البعض أن الاردن مثلا كانت في فترة ما أكثر رطوبة واكثر أمطارا وغطاؤها النباتي كان كثيفا .

١٢ ـ وأخيرا اتوجه الى الباحثين بأن يأخذوا هذه النقطة بعين الاعتبار ، وان يبحثوا جديافي اسباب هذه التغييرات في منطقتنا وهذا الاضمحلال السكاني الذي ادى الى خراب البلاد وذلك من خلال تحليل العظام التي تعود لهذه الفترة واعطائنا سببا علميا لهذا الوباء الذي لم يتمكن الانسان من السيطرة عليه ، وكذلك سببا علميا لهذه الجدوب والقحوط والمجاعات التي فتكت فيالمنطقة فيالعصر الوسيط . وباعتقادي أن في هذا جواب قاطع لكل الادعاءات التي تعلل سبب هذا الاضمحلال بالحكم العربي الاسلامي في المنطقة ، فنحن في العصور الوسطى بلغنا أوج التقدم الحضاري والعلمي والمصادر التاريخية تثبت ذلك .

الحواشي :

(١) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص١٩٨ .

(٢) ابو المحاسن ، نفس المصدر ، ص ١٩٨ .

Nohl, The Black death, London, 1924, P. 18.

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمدابو الفضل ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ م ، ج ٤، ص ٦٣ .

عمواس : بلدة في فلسطين قرب القدس وعلى بعد ستة اميال من الرملة ، بدأ طاعون عمواس منها زمن الخليفة عمر بن الخطاب . (لي سترانج ،ص٤٢٦). وقد دمرتها اسرائيل حاليا واجلت سكانها عنها وجعلت منها منتزها عاما . (الباحث) .

(٤) الطبري ، المصدر السابق ، ج٤ ص ٦٣.

(٥) الطبري ، المصدر نفسه ، ص ٩٦ .

(٦) يقول الطبري : « اصابت الناس سنة بالمدينة وما حولها ، فكانت تسفي اذا ريحت ترابا كالرماد فسمي ذلك العام عام الرمادة ».(ج٤،ص ٩٨).

(٧) البلاذري ، فتوح البلدان ، مراجعة رضوان محمد رضوان ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٦٣ .

(٨) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٩) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، تحقيق علي المنتصر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ١ ص ١١٤ .

(١٠) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٧ .

ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،ج ١٠،ص١٩٨.

Nohl, op. cit. P. 18.

(١١) المقريزي ، السلوك ، ج ٢ ص ٧٧٥ .

ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،ج١٠ ،ص١٩٨.

(١٢) Nohl, op. cit. P. 18.

(١٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،ج١٠ ص ١٩٧ .

(١٤) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج٢ ص ٧٤٩ .

(١٥) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ص ٧٧٥.

ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج١٠ ص ١٩٨ .

(١٦) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، تحقيق عدنان درويش ، دمشق ١٩٧٧ م ،ج٣،ص ٢٤٤ .

(١٧) ابن قاضي شهبة ، نفس المصدر ، ج٣ص ٨١،٨٢،١٢٥،٤٦٧،٤٦٨.

(١٨) ابن قاضي شهبة ، المصدر نفسه،ص٥١٣ ، ٥٧٨، ٦٥٨، ٦٥٩، ٦٦٢،٢٦٢.
القريزي ، السلوك ، ج٤ ق٢ ص ٦٣٩.

(١٩) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج ٢، ص ٣٦٩ .

(٢٠) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٣٦ .
ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١٤ ص ٢٣٨، ٢٤٨ .

(٢١) المقريزي السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص ٨٢٤ .
يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ص ١١٨ .

(٢٢) المقريزي ، السلوك ، ج٤ ق٢ص١٠٢٩ ، ١٠٣١، ١٠٣٤ .

(٢٣) الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ٢ص ٢٨٦ ، ٣١٨ ، ٣٦١ .
يوسف غوانمة، تاريخ نيابةبيت القدس،ص١١٩.

(٢٤) ابن صصرى ، الدرة المضيئة في الدولةالظاهرية تحقيق وليم بريز ، كاليفورنيا ، ص ١٦٤ .

(٢٥) ابن صصرى المصدر نفسه ، ص ٢٠٠ ، ٢٠١ ،
ابن قاضي شهبة ، المصدر السابق ، ج٣ ص٦٤٨ .

(٢٦) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٢٧) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٢ .

(٢٨) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٢٩) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٧ .

(٣٠) المقريزي ، السلوك ، ج٤ق٢ ص ٦٠٩ .

(٣١) المقريزي ، المصدر نفسه ، ص ٧١١ .

(٣٢) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج١ ص ٤٥٧ .

(٣٣) Smith، The historical geography of the Holy Land, p. 535.

(٣٤) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٨٦ .
ابو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ ، ٢٤٥ .

(٣٥) الادريسي ، نزهة المشتاق ، القسم الخاص ببلاد الشام ، ص ٥ .

(٣٦) المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص ١٧٨ ، ١٧٩. ابو الفداء ، تقويم البلدان ، ص ٢٤٧ ، القرماني ، اخبار الدول واثار الاول ، ص ٢٥٩ .

(٣٧) ابن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ١٩٧٧ ، ج٣ ص ١٥٧ .

(٣٨) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٦٩ ، المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٩٢ ، الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣ ، ٤ .

(٣٩) الادريسي ، ص ٤ .

(٤٠) المقدسي ، ص ١٧٩ . Fulcher of Chartres, P. 146.

(٤١) ابن صصرى ، المصدر السابق ، ص ١٥٧ .

(٤٢) الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٩ ،
الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ج٢ ص ٥٩ .

(٤٣) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٣٥ ، الادريسي ، نزهة المشتاق ، ص ١١ ، ابن بطوطة ، ج١ ص ٣٥ .

يوسف غوانمة ، تاريخ نيابة بيت المقدس ، ص٨٠ ، لي سترانج ، ص ٩٧ - ٩٩ ، ٢٥٧ ، ٢٨٦

Benveni sti, The Crusades in the Holy Land, P. 217.

(٤٤) البلاذري ، المصدر السابق ، ص ١٦٣ .

(٤٥) يوسف غوانمة ، المرجع السابق ، ص ١١٩ .

(٤٦) ابن بطوطة ، ج٢ ، ص ٧٥٠ .

(٤٧) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ص ١٩٨ .

(٤٨) Nohl, op. cit. p. 18.

(٤٩) المقريزي ، السلوك ، ج٢ ص ٧٨٤ ، ابو المحاسن ، المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، وانظر ابن اياس ، ط الشعب ، ص ١٦٤ .

(٥٠) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٩ . Nohl, op. cit. p. 40

Lopez, The Commercial revolution in the middle ages, p. 29.

Kedar, Merchants in Crisis, p. 165.

Kedar, op. cit, p. 5, 19

(٥٢) Nohl, op. cit. p. 38, 40.

(٥٣)

(٥٤) ابن الصيرفي ، نزهة النفوس والابدان ، ج٢ ص٣٣٠ .

(٥٥) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج ١٤ ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٥٦) ابو المحاسن ، نفس المصدر ، ج١٠ ، ص ٢٠٨ .

(٥٧) السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، ص ٣٤، فهو يقول : « وقد جرت العادة بان من نزح من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهرا ويلزم بشد الفلاحة » .

(٥٨) محمد مصطفى زيادة ، دراسات في التاريخ الاقتصادي الاجتماعي ، بحث في التاريخ والآثار ، القاهرة ، ١٩٦٢م ، ص ١٦١ .

(٥٩) ابن صصرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ ، ٢٠٢
المقريزي ، السلوك ، ج٤ ق٢ ص ٦٠٩ ، ٧١١.

(٦٠) Utteroth & Abdal Fatah, Historical Geography of Palestine. p. 26.

(٦١) ابن صصرى ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٦٢) ابن صصرى ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

(٦٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ص ٢١٠.

(٦٤) محمد مصطفى زيادة ، المرجع السابق ، ص١٦١.

(٦٥) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ص٢٧١.
الكارم والكارمية ، هم التجار الذين كانوا يتاجرون بسلع الهند والصين ووجدوا في مدن دمشق والقاهرة والاسكندرية .

(٦٦) ابو المحاسن ، المصدر نفسه ، ج١٤ ص ٣٠٤.

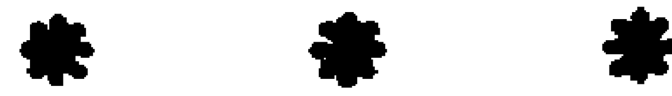
(٦٧) Kedar, op. cit. p. 14.

(٦٨) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج١ ص ١١٤ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ص ٧٥٠ .

(٧٠) ابن بطوطة ، الرحلة ، ج٢ ص ٧٥٠ .

(٧١) المصدر نفسه .



دور أسرة آل الحنش

والمهام التي أوكلت إليها في ريف دمشق الشام

٧٩٠ هـ/١٣٨٨م ـ ٩٧٦هـ/١٥٦٨م

« دراسة وثائقية »

د. محمد عدنان البخيت

الجامعة الاردنية

تدور هذه الدراسة حول دور اسرة آل الحنش السنية المذهب القيسية الولاء، كقوة محلية في منطقة البقاع وذلك خلال عهد المماليك البرجية، بالاضافة الى تقصي موقف هذه الاسرة من الاحتلال العثماني لبلاد الشام .

وتركز هذه الدراسة على توضيح الامور التالية :

١ ـ موقف اسرة آل الحنش تجاه حركة العصيان التي قادها منطاش في بلاد الشام ضد السلطان برقوق .

٢ ـ موقفها تجاه القوى المحلية الاخرى في نيابة دمشق الشام .

٣ ـ المهام الادارية والضرائبية التي اوكلت اليها في العهدين المملوكي والعثماني.

٤ ـ الصورة التي تقدمها لنا الدفاتر العثمانية عن توزع السكان في القرى التي كانت توكل لاسرة آل الحنش . وكميات الضرائب التي كانت تجبى من سكان تلك القرى .

٥ ـ مدى اسهام هذه الاسرة في وجوه الوقف الخيري .

من المعروف لدى الباحثين ان المماليك كانوا قد اعادوا تقسيم بلاد الشام، بهدف تنظيمها اداريا، الى عدد من النيابات أو الممالك كان من ابرزها نيابة دمشق الشام التي كانت مؤلفة، بالاضافة الى حاضرة المدينة وبرها، من أربع صفقات :

١ ـ الساحلية والجبلية .

٢ ـ القبليـة .

٣ ـ الشماليـة .

٤ ـ الشرقيـة .

والجدير بالذكر أن الصفقة الواحدة كانت مكونة من عدد من الاعمال . وتوضح لنا المصادر المملوكية أن الصفقة الشمالية من نيابة دمشق الشام كانت تضم في العهد المملوكي ، البقاع (بعمليه) ، وعمل بعلبك وعمل بيروت وعمل صيدا(١) .

كما وتبين لنا أن البقاع كان في حينه مقسما الى عملين :

١ ـ البقاع البعلبكي « وليس له مقر ولاية » .

٢ ـ البقاع العزيزي « ومقر الولاية به كرك نوح عليه السلام » .

والملاحظ أن عملي البقاع كانا يجمعان « لوال واحد جليل مفرد بذاته » وذلك على الاقل الى حين زمن القلقشندي . وكان يليهما « مقدم حلقة وتارة جندي »(٢) .

ففي البقاع وحول مدينة بعلبك ظهرت أسرة آل الحنش(٣) لتلعب دورا بارزا في تاريخ كلٍ من بعلبك والبقاع معا . وذلك منذ أواخر القرن الثامن الهجري / القرن الرابع عشر الميلادي ، الى أواخر القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي .

وارتبط هذا الدور بالصراع على السلطة ما بين عناصر المماليك البحرية ، الذين أفل نجم سعدهم ، وما بين المماليك الشراكسة أو البرجية كما تسميهم المصادر . ففي أواخر سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧ م نشبت حركة عصيان كبيرة ضد السلطان الملك الظاهر أبي سعيد سيف الدين برقوق بن أنص العثماني اليلبغاوي (٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ـ ٨٠١ هـ / ١٣٩٩ م) ، بقيادة كل من نائب ملطية تمربغا الافضلي الاشرفي المعروف باسم منطاش(٤) ونائب حلب يلبغا الناصري(٥) . انضم اليهما عدد من النواب والولاة ؛ كان من بينهم نائب بعلبك الامير كمشبغا المنجكي ، الذي ترك بعلبك بدون حاكم ، بعد أن سلب الكثير من موجوداتها ، لينضم الى حركة العصيان هذه .

نجحت هذه الحركة سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م في اعادة تنصيب السلطان صلاح الدين الصالح حاجي الثاني سلطانا ولمدة عام واحد، بعدان عزلت السلطان برقوق وأودعته السجن في قلعة الكرك(٦) . اما بعلبك التي تركت بدون حاكم كما ذكرنا، فقد بادر علاء الدين بن الحنش « شيخ العشير » وتولى نيابتها(٧) . الا ان انهزام السلطان برقوق في معركة خان لاجين يوم السبت في ١٩ شهر ربيع الاخر ٧٩١ هـ / ١٧ أيار ١٣٨٩ م كانت ضربة موجهة لعلاء الدين بن الحنش الذي تمكن ، كما يظهر ، من ان يحافظ على حياته بعد ان خسر منزلته نتيجة لهزيمة السلطان برقوق وسجنه في قلعة الكرك .

تمكن السلطان برقوق بفضل مساندة اهالي الكرك واجنادها له ، من الفرار من سجن قلعة الكرك ، باتجاه دمشق في يوم الاربعاء عاشر شهر رمضان سنة ٧٩١ هـ / ١٢ أيلول ١٣٨٩م . وعندما علم علاء الدين بن الحنش بذلك بادر الى معاضدة السلطان برقوق ضد مناوئيه ، مما ترك أطيب الاثر لدى برقوق ، ففرح به برقوق ، وخلع عليه ، وكما يبدو فانه أوكل الى علاء الدين امر نيابة بعلبك والبقاع(٨) . ومن الذين عاضدوا ايضا السلطان الظاهر برقوق في معركته لاسترداد سلطنته ، آل بحتر وهم امراء الغرب بجوار بيروت، بينما كان تركمان كسروان بزعامة اولاد الاعمى من الموالين لمنطاش . فعندما توجه امراء الغرب الى القاهرة بعد انتصار السلطان الظاهر برقوق على مناوئيه دون ان يتمكن من القضاء عليهم وسفره الى القاهرة ، قام أولاد الاعمى بمهاجمة قرى امراء الغرب ونهبوها واحرقوها . فكلف السلطان برقوق علاء الدين بن الحنش بتاديب عشائر كسروان التركمانية . فهب لتلبية طلبه ونهب عددا من قرى كسروان وقتل احد زعماء التركمان وهو علي بن الاعمى مع جماعة من اتباعه . وبعد مدة تمكن من القبض على أخيه عمر بن الاعمى ثم افرج عنه(١٠) فيما بعد .

وعندما اقدم السلطان برقوق على محاصرة دمشق وحرق حي القبيبات فيها وقطع الماء عن المدينة استغل منطاش تصرفه هذا فأخذ نسخا من فتوى العلماء ضده ، ويضيف المقريزي الى ذلك قوله « وزيد فيها : واستعان بالكفار على قتال المسلمين »، وضمن توقيع العلماء على هذه الفتاوى بما في ذلك توقيع عبد الرحمن بن خلدون بحضور الخليفة المتوكل(١١) . وتلى ذلك خروج الخليفة والسلطان الصالح صلاح الدين حاجي الثاني ومنطاش من القاهرة لمحاربة السلطان برقوق وكان المصاف في ١٤ محرم سنة٧٩٢ هـ / ٢ كانون الثاني ١٣٩٠ م ، في معركة شقحب جنوبي دمشق ، التي انتصر فيها برقوق وتمكن من أسر الخليفة والسلطان حاجي(١٢) ، الا ان منطاش كان قد افلت من السلطان برقوق وتحصن في دمشق . اما السلطان حاجي فقد خلع نفسه عن السلطة، وتمت البيعة مجددا لبرقوق ليعود بعد ذلك الى القاهرة تاركا وراءه منطاش يعيث في بلاد الشام(١٣) .

اما علاء الدين بن الحنش فقد « عصى في قلعة بعلبك هو وجماعته واحرقوا المدينة ونهبوا وسبوا حريمها وفعلوا كل قبيح وجرد اليهم منطاش عسكر مع محمد شاه بن بيدمر » فحاصر مدينة بعلبك ، الا أن مدة الحصار طالت وخربت عساكر منطاش بلاد البقاع ، واستعصى الامر لدرجة ان منطاش نفسه كان يركب الى بعلبك ويتفقد أسوارها(١٤) الى أن تم اسقاطها .

وعندما وصل خبر انتصار منطاش على علاء الدين بن الحنش الى دمشق يوم الثلاثاء ١١ ربيع الاخر ٧٩٢ هـ / ٨ كانون أول ١٣٩١ م فرح الناس وزفت البشائر ، « لانه (علاء الدين) كان قد أساء الى أهل دمشق وقطع عنهم المياه ونهبوا عشيره دمشق في أيام السلطان وهو على قبة يلبغا »(١٥) .

وبعد ذلك بأسبوع ، في يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الاخر / ١٦ كانون الاول ، وصل الى دمشق علاء الدين بن الحنش ومعه مائة وعشرون من أعوانه حيث وسطوا جميعا وعلقوا من حائط جامع يلبغا الى جسر الزلابية بدمشق بحضور اهالي المدينة(١٦) . ان هذه النهاية المحزنة لعلاء الدين بن الحنش لم تلغ دور الاسرة في البقاء على ولائها لبرقوق ضد منطاش الذي كان قد هرب من دمشق الى ريف حلب ليعود بغتة الى دمشق في مستهل شهر رجب سنة ٧٩٣هـ حزيران سنة ١٣٩١م ، بينما كان نائبها خارجها يطارد منطاش . ولقد تعرضت مدينة دمشق هذه المرة للنهب على يد ما يسمى بالمناطشة وتحولت الى ساحة للاقتتال ووصف خطيب الجامع الاموي ما حل بمدينته « بالنازلة العظيمة » . ويضيف ابن صصرى الى ذلك قوله « وهلك الفقير وانكشف حال الغني ولا بيع ولا شرى والناس منتظرين رحمة الله تعالى »(١٧) . فما كان من علاء الدين بن الحنش الثاني ونائب قلعة بعلبك الا ان هبا نجدة لنائب مدينة دمشق. أما ردة الفعل من جانب منطاش فتمثلت بارسال قوات ضدهم من ضمنها عشائر يمنية بقيادة ابن هلال الدولة ، فانكسرت القيسية بقيادة ابن الحنش الذي هرب مع نائب قلعة بعلبك وكان مقدار ما قتل من الفلاحين نحو الف شخص واسر مائتان من جماعة ابن الحنش القيسية مع ثمانية من أجناد بعلبك . ولقد أوكل امر القيسية من الاسرى لليمانية « فعروهم من ثيابهم وسيوفهم ودارت اليمنية حولهم بالسيوف كل من يلحق واحد يضربه يقتله وهو عريان لم يرق لهم عليهم قلب قبحهم الله تعالى ، ما انحسهم وما أجهلهم وما أقل دينهم » . ويروي ابن صصرى على لسان من يثق به أن القيسية ماجاءت الا لنهب دمشق كما فعلت في السابق « ففعل الله تعالى بهم ما فعل »(١٨) .

بالرغم من كل هذه النكبات فان علاء الدين ابن الحنش الثاني استمر في تأييده لنائب الشام . بل نراه يفد عليه في دمشق مع نائب طرابلس الشام اقبغا الصغير

ويشاركون في محاربة المناطشة(١٩) . بل زيادة في ولائه للوالي نراه ينضم الى قوات الوالي في محاربة الامير نعير(٢٠) وعربه الذين كانوا ينزلون على قرية عذراء ضمير(٢١) ويتعرضون للناس فركب نائب الشام عليهم يوم الخميس ٢٧ شعبان سنة ٧٩٣ هـ / ٣٠ تموز سنة ١٣٩١ م ، الا ان نعير انتصر على عساكر الشام وقتل نحوالف ومائتين وستين شخصا من بينهم ابن الحنش نفسه (٢٢) ويقول ابن صصرى عن ذلك : « ورجعت الترك مكسورين وراحت العرب منصورين ومن أعظم العظائم أن تفوز العرب من الترك بالغنائم »(٢٣) . ويصف صالح بن يحيى علاء الدين بن الحنش هذا بقوله « وكان ذا سطوة وتجبر وكان قبله قد قتل منطاش والده واخيه مسكوهما من بعلبك وكان علاء الدين المذكور قد اعطاه السلطان برقوق امرية طبلخانة »(٢٤) .

والذي يبدو من خلال ما ذكرناه آنفا عن الحملة التأديبية التي قادها علاء الدين بن الحنش ضد تركمان كسروان انتصارا للامراء البحتريين ، أن آل الحنش كانوا يهبون لنجدة البحتريين كلما تعرضوا للمضايقة على يد أي من القوى المحلية . ويفهم من اشارة يوردها صالح بن يحيى ان كبير بيت آل الحنش المعروف باسم علاء الدين علي، ربما يكون حفيدا أو قريبا لعلاء الدين الذي قتل في حادثة نعير ، قام بقطع راس امير حاج بن الحمراء من قرية صغبين بالبقاع ، وارسل براسه الى نائب الشام الذي ارسله بدوره الى أمير البيت البحتري ، متولي بيروت ، عز الدين صدقه (ت ٨٤٩ هـ / ١٤٤٥ م) . فمن المعروف ان ابناء الحمراء وهم سنة ، من قرية صغبين قد بدأوا بالنزوح الى بيروت واخذوا يزاحمون آل بحتر على اقطاعاتهم في جهات بيروت . كما وانه قد سبق ذلك ايضا ان فاجأ امير حاج هذا عز الدين صدقة في بيروت وهاجم المدينة ولم يتمكن عز الدين من اللحاق به أو التخص منه الى أن تدخل آل الحنش وخلصوه منه(٢٥) . ويلخص اسطفان الدويهي هذه العلاقة في وصفه لعز الدين صدقه بقوله : « وكان بينه وبين الامراء أولاد الحمرة الذين نزلوا من البقاع واخذوا السكنة ببيروت دشمنة (عداوة) غير قليلة من باب الحسد في الحكم »(٢٦) .

وعلى الاغلب فان منزلة آل الحنش بدأت تقوى على حساب الاسرة البحترية فمثلا تجد أن احد امراء آل الحنش المعروف باسم الامير عساف كان نائبا لبيروت وصيدا « وتلك المعاملة » ، وهذه المناطق كانت توكل عادة لآل بحتر . واتصف بقسوته على « المناحيس ببلاده » مما اكسبه محبة الناس لذا عندما وجد مقتولا سنة ٩٠١ هـ / ١٤٩٦ م في احد احياء مدينة دمشق ، ربما بتدبير من نائب دمشق نفسه ، تأسف الناس عليه هناك(٢٧) . الا انه يفهم من النصوص المتفرقة التي فيما بعد تذكر هذه الاسرة ، ان نائب دمشق أخذ بسياسة تقليص نفوذ اسرة آل الحنش ، واعادتها من جديد الى

مستوى « المقدمية » ضمن اطار البقاع وتولى أمور الاسرة بعد مقتل عساف الامير شهاب الدين أحمد بن الحنش (ت ١٤٩٨ م) . وبرز من بعده على مسرح الاحداث ناصر الدين محمد الذي كانت علاقته مع نواب الشام متقلبة ، ومما زاد الطين بلة ان التنافس بدأ يستشري بين أبناء البيت الحنشي . ففي أواخر شعبان سنة ٩٠٤ هـ / ١١ نيسان ١٤٩٩م قبض نائب الشام جان بلاط على عدد من مقدمي ريف نيابة دمشق الشام ، كان من بينهم ناصر الدين المذكور « وطلب من كل واحد من المقدمين وجماعته وبلاده مائة الف دينار (٢٨) » . وبناء على توسط القاضي الشافعي لدى النائب تم اطلاق سراح ناصر الدين على أن يدفع للنائب الف دينار . ويظهر لنا أن النائب اثناء احتجازه لناصر الدين كان قد عين أخاه الامير حسن ، مقدما على البقاع مما أثار غضب ناصر الدين ودفع به الى قيادة حركة عصيان ضد نائب دمشق ، وذلك في مطلع شهر رمضان من ذلك العام . تمكن ناصر الدين من منع أخيه من الوصول الى « المقدمية » ، بل ترددت الاخبار بأنه كاد مع جماعته وعشيره يهاجم مدينة دمشق ذاتها ، فكان ذلك سببا في اثارة غضب النائب عليه(٢٩) . فبادر النائب بدوره الى قيادة قوات عسكرية من دمشق وخرج بها من أجل تأديب ناصر الدين ، فنهب عسكره البقاع وحرق بيت ناصر الدين في قرية قب الياس(٣٠) بالبقاع . ومن هناك توجه نائب دمشق الى بيروت حيث صادر من التجار الافرنج الموجودين فيها ، عددا من الاحجار الكريمة وقطعا من الجوخ ، وختم على بضائعهم بعد أن قيمها بأضعاف أثمانها في سبيل تحصيل ما هو أكثر من العشر الذي يجمع عادة على البضائع . ومن بيروت قصد صيدا حيث طلب من قاضيها أن يضبط له جهات ابن الحنش فيها ثم عاد من هناك الى قرية زنتون(٣١) بالبقاع ، ومنها توجه الى دمشق التي وصلها على حين غفلة في ١٤ رمضان سنة ٩٠٤ هـ / ٢٥ نيسان ١٤٩٩ م ، دون أن يتمكن من القاء القبض على ناصر الدين الهارب من وجهه(٣٢) .

وعلى الارجح أن المماليك ادركوا عدم جدوى استخدام العنف ضد ناصر الدين فنهجوا اسلوب التقرب اليه ، لاسيما بعد عزل جان بلاط ونقل والي حلب قصروه ليتولى نيابة دمشق سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م . فكان من أولى خطواته التي اتخذها في هذا الخصوص أن امر بصلب ابن عم ناصر الدين الذي كان قد سعى على الاخير ، وكان السبب في نهب بلاد ابن الحنش « وهتك حريمها وحريق قراها وقتل خلق كثير فلما صلب عاد ابن عمه (ناصر الدين) المذكور اليها(٣٣) . » وقوي عنصر الثقة بين ناصر الدين وبين نائب دمشق بحيث أنه تعاون في ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م مع قوات النائب في كبس العربان بالقرب من بحيرة الهيجانية « وقتلوا منهم خلقا ونهبوا منهم شيئا كثيرا: نساء وأولاد وجمالا وغنما وغير ذلك ورجعوا الى دمشق(٣٤) » . والظاهر ان هذه

الخطوة جاءت كتأديب للعرب (من المفارجة وبني لام) الذين هاجموا اطـراف دمشـق « ونهبوا مغلا كثيرا وخربت بلدان كثيرة(٣٥) . » دلالة على الانسجام الذي اتسمت بـه علاقات ناصر الدين مع المسؤولين في دمشق نلاحظ انه في نفس العام يخرج مع كبار المسؤولين من أرباب الوظائف لاستقبال النائب الجديد المعروف باسم قانصوه نائـب البرج الذي كان معزولا بمكة المكرمة ، الا انه صفح عنه ، وعين لنيابة الشام . وقـدم قانصوه الى الشام عن الطريق الغزاوي برفقة قافلة الحج الشريف(٣٦) .

ومن الجدير بالذكر أن هذه العلاقة الودية مع المسؤولين في دمشق عادت وانتكست لاسباب لاتذكرها المصادر المتوفرة لدينا . وجل ما توردة أن نائب دمشـق قانصـوه ، خرج من صباح يوم الاربعاء ثاني ذي القعـدة سنـة ٩٠٩ هـ / ١٨ نيسـان ١٥٠٤ م ، بعسكره وبالسلاح وقصد البقاع . فلما علم ناصر الدين بذلك هرب من وجه النائـب الذي قام بحرق بيت ناصر الدين بقرية مشغرا بالبقاع وكالعادة « خربت بلاد كثيـرة من الظلم(٣٧) » . وقبل عودته الى دمشق اوكل قانصوه أمر البقاع لدواداره المعروف باسم جانبك الفرنجي ، فما كان من ناصر الدين الا أن هاجم جانبك وقتله وقتل معـه « جماعة من شيوخ البلاد(٣٨) » .

ومن ضمن الزعامات المحلية التي حاربها ناصر الدين ، عبد الستار بن بشارة في قريـة شيحين(٣٩) . الا أن النجاح لم يحالف جيشه المؤلف من خمسة آلاف مقاتل بل خسر نحو مائتين منهم هذا بالاضافة الى ما عاناه جيشه من الوحـل بسبب هطـول الامطـار(٤٠) . ازاء ذلك وجد النائب أن الامر لا يحتمل المماطلة فجهز حملة شارك فيها مشاة من حارات دمشق ، دفع لكل فرد منهم « معلوما » مقداره خمسـون درهمـا . ونظرا للسقم والمرض اللذين كان يعاني منهما النائب في ذلك الوقت ، فقد اوكل امـر قيادة هذه الحملة الى أحد مماليكه . ولقد خرجت القوة باتجاه البقاع ليلة الاثنين ١٣ صفر سنة ٩١٠ هـ / ٢٧ تموز ١٥٠٤ م ، الا أنها عادت بدون طائل عندما علمت بوفـاة النائـب(٤١) .

ان وفاة النائب قانصوه المحمدي كانت نهاية فصل من العلاقات السيئة ما بـين ناصر الدين والمسؤولين المماليك . بل ان ابن طولون يذكر بأن ناصر الدين كـان قـد أرسل مشاة لمستلم دمشق الجديد ، قلج ، ودار المستلم بهم حول دمشق ينادي بالامان وبأن لا يحمل احد السلاح(٤٢) زيادة على ذلك عندما تعرض نائب بيروت سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م ، والذي كما يبدو كان من آل بحتر ، لصابون تعود ملكيته لناصر الدين بـن

الحنش،وقام بطرحه على أسواق دمشق، خرج نائب دمشق،اركماس، الى سطح المزة، ربما كمظاهرة ، من أجل نصرة ناصر الدين بن الحنش ضد عدوه نائب بيروت . ويذكر ابن طولون في مفاكهة الخلان بأن النائب وصل الى البقاع حيث لحق به الحاجب الجديد جان بردي الغزالي وعادا معا الى دمشق مرورا بقبة يلبغا اليحياوي جنوبي دمشق(٤٣). وربما منذ هذه الرحلة أصبح جان بردي يقدر دور ناصر الدين بن الحنش كزعيم محلي وصاحب منزلة متنفذة في منطقة البقاع .

في ١٧ محرم سنة ٩١٢ هـ / ٩ حزيران ١٥٠٦ م خرج سيباي ، نائب دمشق الجديد ، على رأس قوة عسكرية الى بلاد البقاع من أجل القبض على ناصر الدين . الا أن الفشل كان مصير حركته (٤٤) تلك ، مثله في ذلك مثل سلفه . نتيجة لتكرار فشل جميع المحاولات العسكرية في القضاء على ناصر الدين ، نجد أن النائب يقبل مبدا الوساطة . ففي صفر من العام ذاته « دخل الامراء بين النائب وبين مقدم البقاع ناصر الدين بن الحنش في الصلح على مال معين للنائب عليه مع عدم حضوره عليه(٤٥) » ولقد أتت تلك المصالحة اكلها فلم يعد ناصر الدين يدخل في حركات عصيان او سوء تفاهم مع السلطنة المملوكية ، واستعاد منزلته السابقة بحيث يذكر سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م على انه نائب صيدا بالاضافة الى مقدمية البقاع(٤٦) . ونجد أنه عندما دخل الى دمشق صباح يوم الخميس ١٦ ذي الحجة سنة ٩١٧ هـ / ٦ آذار ١٥١٢ م « ... تلقاه المباشرون الى الصالحية وأتى الى النائب وهو يسير بالميدان الاخضر فسلم عليه طائعا مذعنا ثم آتيا الى دار السعادة فخلع النائب عليه وعلى جماعته(٤٧) » . نجح ناصر الدين في أن يحافظ على هذه المنزلة المتميزة لدى المماليك ، فنجده سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م من ضمن كبار الشخصيات المحلية التي كانت في استقبال السلطان المملوكي الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري عند مروره بدمشق في طريقه الى حلب لمواجهة العثمانيين . وقدم للسلطان الغوري « تقدمة أخرى كثيرة من المال قيل الف دينار ومن الخيل ومن الغنم ومن الجمال ومن البقر ومن الاوز ومن الدجاج ومن الزيت ومن العسل ومن الارز ومن الدبس وغير ذلك(٤٨) » .

بالرغم من الانتصار الذي أحرزه العثمانيون في ٢٤ آب ١٥١٦ م فان ناصر الدين لم يحول ولاءه عن المماليك بسرعة الى السادة الجدد بل اشترط مقابل استمرار تعاونه مع جان بردي الغزالي ، الذي أصبح يدير شؤون المماليك المنهزمين ، ان يولى نيابة حمص وأن يقوم الغزالي بقطع راس احد خصوم ناصر الدين المعروف باسم المقدم علاء الدين بن العماد المقدسي الشهير بابن العلاق . ولقد وافق الغزالي على جميع هذه المطالب ، لا سيما ان ناصر الدين كان يتصرف في هذه المرحلة الانتقالية من مركز قوة

خاصة وأنه كان صهرا لامير عرب بلاد الشام ابن جانباي البدوي ، الذي يصفه ابن طولون بـ « امير الشام(٤٩) » . الا أن انسحاب المماليك الى مصر ارغم ناصر الدين على تحويل ولائه الى العثمانيين .

ويذكر ابن طولون انه مر يوم الاحد ثاني شهر رمضان سنة ٩٢٢ هـ / ٢٩ ايلول ١٥١٦ م على مخيم السلطان سليم ، فرأى ناصر الدين « فاذا به قد البسه باشاوات الخنكار خلعة واعطوه سنجقا وزادوا على التقدمة اقطاع الامرية الكبرى بالشام واقطاع نوى واقطاع ذخيرة ابن السلطان والزموه باحضار العرب فالتزم بذلك . وان سخاء العثمانيين نحوه لم يقف عند هذا الحد فبالاضافة الى مسؤوليته عن البقاع وما والاها، ولي كلا من صيدا وبيروت(٥٠) » .

بعد الانتصار الذي احرزه السلطان سليم الاول على المماليك في مصر ، فان عددا من المماليك كان قد هرب والتجأ الى الزعامات المحلية في بلاد الشام . ولقد بعث السلطان سليم برسائل الى عدد من زعماء القوى المحلية في بلاد الشام ، كابن طربية(٥١) في مرج ابن عامروكذلك الى ابن الحنش يخبرهما عن انتصاراته . كما ويطلب منهما حفظ الطرق والبلاد والقاء القبض على المماليك الهاربين والانجاز عليهم . ويتوفر في مكتبة طوب قبو باسطنبول ملخص رسالة بعث بها ناصر الدين بن الحنش بتاريخ ٢٨ صفر سنة ٩٢٣ هـ / ٢٢ آذار ١٥١٧ م الى السلطان يهنئه فيها بالانتصار على الجراكسة الظلمة ، ويعلمه أنه تتبع الفارين منهم . ولكنه ينفي في هذه الرسالة ما قد ينسب اليه من التسبب في الحوادث التي وقعت في كل من البترون وصفد . ويؤكد للسلطان انه تعاون مع كل من نائبي الشام وصفد . والجدير بالذكر ان اخبارا وصلت الى صفد تفيد أن العثمانيين كانوا قد وهنوا أمام المماليك ، فقام عدد من « الفسق » يفتشون عن « الروم » (العثمانيين) لقتلهم فثارت الفتنة مما بين الطرفين(٥٢) . ويعود وينفي التهم التي الصقت به من قبل شخص يذكره باسم موسى التركماني ، فحواها ان ناصر الدين بن الحنش كان سيهجم على طرابلس الشام . والظاهر أن حوادث الشغب كانت قد امتدت الى كل من الظنية والبترون ، فيبادر ناصر الدين في رسالته للسلطان الى نفي اية علاقة له بها(٥٣) . كل هذه التهم التي ربما وصلت الى مسامع السلطان هي التي دفعت به الى عدم الاكتفاء بمخاطبة السلطان فقط ، بل نراه زيادة في الحيطة ، أو من باب مداراة الامور ، يبعث برسالة الى الوزير العثماني يونس باشا(٥٤) ، الذي كان برفقة السلطان سليم بمصر ، خلاصتها أن الضغينة والحسد والاغراض الانانية تتحكم بأهالي بلاد الشام الذين تحتدم العدواة بينهم ، وهم يرمون بعضهم البعض بأقذع الالفاظ ، وهكذا كان حالهم منذ زمن الجراكسة مما كان سببا في خراب البلاد. وبالرغم

من زجرهم للتوقف عن ذلك الا انهم بعد انتصار السلطان سليم على المماليك لم يرتدعوا، بل أبقوا على عادة الدس ضد بعضهم البعض لدى نائب الشام(٥٥) العثماني ، مما تسبب في حصول بعض حوادث القتل . والذي كان يخشاه ناصر الدين ، كما جاء في رسالته ، هو تفشي الفتنة التي ستؤدي حما الى اغلاق الطرق وخراب الولاية . وبما ان وضع ناصر الدين رسمي وقانوني فانه التمس في رسالته ، من الوزير يونس باشا ان يوصل الى المسامع الشريفة طلبه في اصدار مرسوم يمنع بموجبه الاصغاء الى أهل السوء، ما دام جميع أهالي البلاد في طاعة السلطان . وينهي رسالته تلك بذكره لاحد حجاب دمشق في العهد المملوكي واسمه سنطباي(٥٦). يعلم الوزير عنه بأنه مسكين وبائس(٥٧) ونظرا للمودة القديمة التي تربط بين سنطباي وناصر الدين فقد التجأ سنطباي هو وحريمه اليه ، فأرسل ناصر الدين بسنطباي بالامان الى والي دمشق شهاب الدين احمد بن يخشى أوغلو الذي قام بسجن سنطباي حتى يشاور به السلطان(٥٨) .

ويستفاد من الاشارات المتفرقة ومن التهم التي يحاول ناصر الدين نفيها عن نفسه انه أوى عددا من المماليك الهاربين ، فيشير مثلا ابن طولون الى أحد الامراء المماليك المعروف باسم الامير قرقماش ، أمير أربعين الذي هرب بعد معركة مرج دابق ، والتجأ لدى الامير ناصر الدين بن الحنش ، ويذكر انه توفي في قرية جب جنين سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م (٥٩) . لم يكتف ناصر الدين بن الحنش بهاتين الرسالتين ، بل نراه يبعث برسالة ثالثة عى الأغلب للسلطان سليم نفسه ويعود ليذكر فيها أصحاب الحسد والبغض وانه بريء الساحة مما ينسب اليه ، ويطلب في هذه الرسالة الكشف عن حاله واحواله. والذي يهمنا هنا ماذكره من وقوع فتنة ما بين أهالي بيروت وبين حاكمها . ولكي يثبت عدم علاقته بتلك الفتنة فانه يلتمس من السلطان أن يسأل صدقه من خلال أحد أقطاب الصوفية المقيمين في بيروت والمعروف باسم الشيخ محمد بن عراق(٦٠) (ت ٩٣٣ هـ / ١٥٢٦ م) . كما ويذكر للسلطان بأن نائب طرابلس يلقي القبض على بعض الناس ويعذبهم من اجل أن يطعنوا به وهو الخادم المطيع وان تم الكشف عن الحقيقة فان في ذلك احسان اليه(٦١) .

على ما يظهر ، فان جميع تلك الذرائع التي أبداها ناصر الدين لم تكف لازالة الشكوك لدى السلطان سليم من تأرجح ولاء ناصر الدين بن الحنش ، لذا نراه بعد عودته الى دمشق في ١٩ رمضان سنة ٩٢٣ هـ / ٦ تشرين أول ١٥١٧ م ، يولي محمد بن قرقماس النيابة على بيروت وصيدا وتقدمة البقاع وما والاها ، ويسترد ما اعطاه لناصر الدين من الاقطاعات، كاقطاع الامرية الكبرى واقطاع نوى وذخيرة ابن السلطان.

زيادة على ذلك، خرج السلطان بنفسه الى البقاع للقبض على ناصر الدين وعلى من لديه من الجراكسة الهاربين . فلما علم ناصر الدين بذلك هرب من وجه السلطان الى عرب الجولان(٦٢) .

وضمن محفوظات مكتبة طوب قبو توجد رسالة بلغة عربية ركيكة موجهة من ناصر الدين بن الحنش الى السلطان سليم بعد طرده من البقاع وتسليمها لمحمد بن قرقماس ، يذكر فيها : انه بعد الانعام على الامير محمد بن قرقماس « ببلاد المملوك،أن جان بردي الغزالي كان قد توجه لتسليم تلك البلاد لمحمد بن قرقماس وانه وصل بعساكره الى صيدا ، ويذكر للسلطان أنه مداوم وجماعته على الخدمة ، كما يضيف الى ذلك انه تلقى مراسيم شريفة من السلطان نفسه صادرة من منزلة قطية « يتضمن اطابة خاطر المملوك باستمراره على جاري عادته في بلاده وعليه أمان الله تعالى وأمان رسوله ، والامان الشريف وان المملوك يضمن البلاد والطرق » ويذكر أنه جاءه مثل ذلك بعد وصول المقام الشريف الى دمشق وانه يستمر على عادته « من تعمير البلاد وتطمين الرعايا وتمشية السبل والطرقات والوقوف في الخدمة الشريفة » وأنه أرسل ولده الى المقام الشريف وعاد مجبور الخاطر ومعه مرسوم « باستمرار المملوك في بلاده على عادته واطابة خاطره بكل ممكن » . ويعود ويؤكد أنه منذ وصول السلطان الى دمشق وانه مواظب على الطاعة واداء الواجب ويعود ويذكر انه ليس من الشيم السلطانية الاصغاء الى كلام المفسدين ذوي الاغراض الفاسدة والاراء الكاسدة » . ويذكر ان جان بردى الغزالي كان قد ارسل له وهو في بلاد التيم بأن يخرج من البلاد « وعدم حدوث خلل فيها وتطمين اهلها ، امتثل المملوك المرسوم المشار اليه وقابله بمزين السمع والطاعة والمملكة مملكة المقام الشريف والمملوك مملوك الابواب الشريفة وعبدها ، وابن سر نعمتها » . ويذكر انه جهز جماعة لخدمة جان بردي الغزالي ليتوجهوا معه لتسليمه صيدا وناحيتها عامرة آهلة . والذي كان يخشاه ناصر الدين ، بعد ان يغادر السلطان سليم البلاد ، هو أن « يحدث في المملكة خلل من ساير أهل الفساد وربما ينسب للمملوك ، والمملوك يخشى من زيادة تغير الخواطر الشريفة عليه وان لم ترض الخواطر الشريفة على المملوك والا يتوجه المملوك الى البرية ويصير من جملة العربان بها فان المملوك ما يمكنه أن يتوجه الى عند أمير من الامراء يكون في خدمته ولايرى على نفسه ان يتوجه الى مملكة غير مملكة المقام الشريف « ويطلب من السلطان مرسوما شريفا » الى ملك الامراء المشار اليه بالوصية على جماعة المملوك وعلى فدادينه المشدودة في البقاع والساحل(٦٣) .

بعد مغادرة السلطان سليم لدمشق ، أوكل أمورها الى الامير المملوكي جان بردى الغزالي الذي التقى في قتال مع ناصر الدين بن الحنش يوم الجمعة سادس ربيع الآخر سنة ٩٢٤ هـ / ٢٧ نيسان ١٥١٨ م وكانت الوقعة بأرض جوسية من اعمال بعلبك

حيث أسر ابن الحنش وقطع رأسه وجهزه للسلطان . أما بقية انصار ناصر الدين فقد فروا(٦٤) . ولقد أوكل أمر بلاد البقاع « وماانضاف اليها » للامير سنان الرومي ويذكر ابن طولون أن جان بردي الغزالي كان قد خرج الى بيروت « ليأخذ سلب افرنج خرجوا من البحر وقتلهم أهلها ويتفقد ابراج ذلك الثغر في السلاح» الا أنه عاد الى دمشق فجأة خامس عشر ذي القعدة سنة ٩٢٦ هـ / ٢٨ تشرين أول سنة ١٥٢٠ م عندما جاءه أولاق (مرسال) بخبر وفاة السلطان سليم . وأثناء عودته مر بالبقاع وعزل سنان الرومي ، وولاها للمقدم أحمد بن الحنش(٦٥) . وبذلك أعاد الاعتبار مرة اخرى لاسرة آل الحنش . وعلى الارجح أنه أقدم على تلك الخطوة ليستفيد من نفوذ آل الحنش في البقاع ، استجلابا لخاطرهم وحشدا لهم ضد العثمانيين . ولقد شارك ابن الحنش في جيش الغزالي عند خروجه لحصار حلب . ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان اول من قتل من العسكر العثماني المحاصر بحلب كان بنشاب من عسكر ابن الحنش(٦٦) . ومنذ ذلك الوقت نلاحظ ان المصادر لم تعد لذكر ابن الحنش ، وعلى الاغلب انه بعد القضاء على الغزالي ، اما ان احمد بن الحنش كان من بين القتلى أو أنه هرب من وجه السلطة وتوارى عن الانظار .

وتجدر الاشارة هنا الى ما يذكره اسطفان الدويهي من أن قسما من سكان بلاد البقاع قد انتقلت واستوطنت في قرى فتقا وسواحل علما وفيطرون وفقيع وعرمون والجديدة (٦٧) . ويبدو أن قسما من أسرة الحنش قد هاجر واستقر في قرية فتقا واصبحوا أمراءها ، ودخلوا في مؤامرة مع مقدم زوق مكايل المعروف باسم ميخائيل لقتل منصور بن عساف(٦٨) ، وعندما ساروا اليه في غزير بهذه النية كان قد كشف خطتهم فاستضافهم وتخلص منهم وهم يتناولون الطعام كضيوف عليه وكان ذلك في سنة ٩٤٨ هـ / ١٥٤١ م (٦٩) .

وتذكر المصادر العثمانية شخصا مهما من آل الحنش يعرف باسم محمد ابن الحنش ، وقد أدرج اسمه في نظام التيمار وأعطى خمس حاصلات قرية رقادة نيابة كرك نوح ، كما وخصص له بالاضافة الى ذلك مزرعتي : تل ابن حسين ومزرعة دير الاماسي في نفس الناحية(٧٠) . بل ما هو اهم من ذلك انه كان ملتزما للخاص السلطاني في كل من ناحيتي كرك ونوح والشوف حوالي سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م . وتذكر المصادر كذلك أنه ذهب الى دمشق ومعه من ثلاثة الى اربعة آلاف قطعة ذهب من أجل تسليمها للخزينة، الا انه قتل هناك ، وأخذ مرافقوه ما لديه من مبالغ ، وطلب السلطان في حكم شريف من دفتر دار الشام باسترداد المبلغ بدون نقص(٧١) .

وباختفاء محمد ابن الحنش فسح المجال في منطقة البقاع لبروز اسرة بدوية سنية اخرى هي اسرة الفريخ لتملأ الفراغ الناجم عن اختفاء اسـرة آل الحنش . والجديـر بالذكر ان اسرة تحمل اسم اسرة آل الحنش تذكر في القرن الثامن عشر في حمص(٧٢) ، ولا نعرف ان كانت هذه الاسرة الموجودة في حمص من سلالة اسرة آل الحنش في البقاع ام لا .

نلاحظ من خلال هذا الاستعراض التاريخي ان هذه الاسرة قد انيطت بها مهـام ادارية ، كالولاية على البقاع وصيدا وبيروت وبعلبك وحماه . كما انها التزمت الضرائب في منطقة البقاع خاصة في ناحية كرك نوح . وعند العودة الى دفاتر الطابو العثمانيـة نجد انها تقدم لنا صورة شبه مفصلة عن توزيع السكان وتعدادهم في تلـك الناحيـة ، وتبين كميات الضرائب وانواعها المحصلة من اهالي القرى .

نرفق بهذه الدراسة كشفا مفصلا بها من اجل فهم ادق لدور هذه الاسرة ضمـن الاطار البشري . ونأمل من خلال هذه الشريحة اعطاء فكرة عن انواع الضرائب والرسوم المجموعـة على اساس الاقجة وهي وحدة النقد العثماني المسكوكة من الفضة . .



اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ – ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٢ – ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ – ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ – ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ص ١٠ – ١٤ ، ص ٢٤٠ – ٢٥٣
١	ابلـح	خانة مجرد امام	٢٠ ١ —	١٦ ٢	مسلم) ١٦١ ١٢) نصارى) ٥٠ خانه) ١ مجرد	٧ ٤٥ نصارى — —	(٣٦ ٤ ٢+٩) نصارى (— —
٢	ارحاب	خانة مجرد امام	٨ — —	١٧ — ١	٩ ٦ ١	١١ ٢ —	١٣ — —
٣	ارميث	خانة مجرد امام	٤٠ ١ ١	٨٠ ١٢ —	٥٢ ٣٨ ١	٧٢ ٢ ١	٤٤ ٢١ —
٤	اشرفية	خانة مجرد امام	٨ — —	مذكورة بدون سكان	١٦ ٤ ١		
٥	بجاجة	خانة مجرد امام	٤ + نصارى ٧ — + ١ — —	٣ — —	٩ ٩ ٥ —		

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ – ١١٩	ط.د ٢٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٢ – ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١١٥ – ٢١٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ – ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ص ١٠ – ١٤ ، ص ٢٤٠ – ٢٥٣
٦	بحوشية	خانة	٤	–	٤		٥
		مجرد	٢	–	٢		٢
		امام	–	–	–		–
٧	براق البصل	خانة	١٣	١٦	١٨	١١	٩ لكن مجموع
		مجرد	–	٢	٦	١	٤ الاسماء ١٢
		امام	١	١	١	–	– فقط
٨	بشوات	خانة	– ١٦ نصارى	٤٤	٣١	١٠	٨
		مجرد	– + ٣	٥	١١	–	٢
		امام	– –	–	–	–	–
٩	بوديـة	خانة	٢٨	٤٧	٤٥	٥٤	٤٠
		مجرد	٥	–	٥	١	١٥
		امام	١	–	١	–	–
١٠	بيت سابه (شامة ؟)	خانة	٨	١٨ (جاءت خطأ ٨	١٩	١٩	
		مجرد	٢	٤ ومجموع	٤	١	
		امام	١	الاسماء ٢٢)	١	–	
١١	بيت نايل (مايـل)	خانة	٢٢	٤٩	٢٨	٢٧	٢٦
		مجرد	٤	–	١٢	٣	١٣
		امام	١ + ٢ أعمى	–	١	–	١

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ – ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ – ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١١٥ – ٢٤٥	ط.د ٥٤٢ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ – ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ص ١٠ – ١٤ ، ص ٢٤٠ – ٢٥٣
١٢	تربـل	خانة	٢١	٥٦	٣٥	٥٢	٥٠
		مجرد	٧	–	٨	٣ + ٣ معاق	١٥
		امام	١	١	١	–	–
١٣	تمنين التحتا	خانة	٩٤	١١٣	١٢٦	٣٢	٢٤
		مجرد	١٠	–	٣٦	–	٨
		امام	٢	–	٢	–	–
١٤	تمنين الفوقا	خانة	٤٨	٧٠	٦٣	٥٩	٤٤
		مجرد	١	–	١١	–	١٥
		امام	١	–	١	–	–
١٥	تيحا	خانة	١٨	٥١	٣٦	٣٩	٣٥
		مجرد	٦	–	٢	٧	١١
		امام	١	–	١	–	–
١٦	حارسا (أ)	خانة	غير مذكورة	غير مذكورة	١٤٤		
		مجرد			١١		
		امام			١		
١٧	حدث الفستق	خانة	٩٩	٢٥٢ (٨٧خانة محلة يمن) ١٦٥خانةقيس	١٧٩	١٥٤	١٢٠
		مجرد	١٩	١٩ (١٩مجردقيس)	٣٥	٥	٤٠
		امام	١		٢	١	–

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ – ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ – ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ – ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ – ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ/١٥٩٦م) ص ١٠ – ١٤ ، ص ٢٤٠ – ٢٥٣
١٨	حشمش دشمش	خانة	١١	٤٣	٢٩	٣٠	
		مجرد	٢	—	٨	١٠	
		امام	١	—	١	—	
١٩	دارية	خانة	٦٨	٨٥	غير مذكورة	١٢٨	١٠٥
		مجرد	١٢	٣٠		٢	٢٠
		امام	٢	—		—	—
٢٠	دلهمية	خانة	١١	٢٥	٢١	١٥	١٠
		مجرد	٣	٢	١٠	—	٥
		امام	١	١	١	—	—
٢١	دير الاحمر	خانة	١٦	٨ ١٦ نصارى (سجل	٦ ٢٣ نصارى	٨ ٢١ نصارى	٨ ١٢ نصارى
		مجرد	١	-- عدد النصارى	١ + ٤	-- --	-- ٤
		امام	—	١٧ بينمـا	—	-- --	-- --
				-- مجموع الاسماء ٢٤)			
٢٢	دير زتون	خانة	١٨	٣٤	٢٣	٢٥	٢٦ نفرا
		مجرد	١٠	—	١١	١	—
		امام	١	١	١	—	—

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ — ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ — ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ — ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ — ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) ص ١٠ — ١٤ ، ص ٢٤٠ — ٢٥٣
٢٣	دير الغزال	خانة	١٣	١٥	١٤	٢٣	١٦
		مجرد	—	٦	٩	—	٧
		امام	١	١	١	—	—
٢٤	رقادة (رقادية ؟)	خانة	١١	٢٦	١٩	٢٠	١٥
		مجرد	٢	—	٦	—	٥
		امام	١	—	١	—	—
٢٥	زحلة	خانة	٩٧	١٢١	١٣٠	٨٧	٦١
		مجرد	٩	١٢	٤	٣	٢٠
		امام					
٢٦	شمصطار	خانة	لم يذكر اسماء السكان ولا عددهم	٥٥	٤٢	٥٠	٣٥
		مجرد		١٠	٢٣	—	١٥
		امام		—	١	—	—
٢٧	ظلبة الغربية (ظليبة الغربية)	خانة	٢٣	٥٨	٣٣	٣٦	٤٢
		مجرد	٣	—	١٦	١٦	٩٠
		امام	١	١	١	—	١

(لكن المجموع سجل على النحو التالي خطأ) (خانة مجرد امام ٢٤ ١٠ ١)

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ — ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ — ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ — ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ — ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) ص ١٠ — ١٤ ، ص ٢٤٠ — ٢٥٣
٢٨	عيناثا	خانة مجرد امام	٨ (٤٣) نصارى — ٣) ١	٢٠ ٦٧ — — ١ —	٢٢ ٦٢)) نصارى ٥ + ٢١) — —	١٨ ٦٢ — ٧٣ نفرا نصارى —	١٨+ ٥٦))نصارى ١٥)
٢٩	عين توسانة (قوسساية)	خانة مجرد امام	٢٢ ٢ ١	٢٩ ٢ —	٢٨ ٨ ١	١٥ ١٠ —	٢٥ — —
٣٠	فرزل	خانة مجرد امام	٢٠٤ ٢١١٨ نصارى ١٣ + ٢ ٢ + ١ سيد + ١ اعمى	٢٩٣ ٦،٣٤٩ نصارى ٤٣ +٨) ٣ — لكن المجموع ٣٥٦ نفرا	٢٩٤ ٢٦٢)) نصرى ٦٢ +٥٣) ٢	٣٦٣ ٣٢٥ ٤٧ +٣٠ —	٣٤٣ ٣٩٥ لكن ٦٥ +٥٠ المجموع دون على — — اساس ٢٩٢ خانة
٣١	قصربنا (قصريفا ؟)	خانة مجرد امام	١٤ ٦ ١	٦٥ — + ١٦ ١	٥٠ ١٦ ١	٦٠ — —	٤٦ لكن مجموع ١٥ الاسماء ٦٠ — نفرا .

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م) ص ٨٢ — ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٣ — ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ — ٢٤٥	ط.د ٥٤٣ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ — ٥٦٢	ط.د ١٧٧ (ح ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) ص ١٠ — ١٤ ، ص ٢٤٠ — ٢٥٣
٣٢	قوسابة (قوسانة)	خانة مجرد امام	٨٣ ١٩ ١	١٧٦ ١٧ —	٩٦ ٦٤ ١	١٥٢ — —	١١٩ ٣٦ —
٣٣	نفس كرك نـوح	خانة مجرد امام	١٢١ ٤٥ + ٢ خطيب + ٢ نعمى ٢	٥٩٠ — —	لكن مجموع الاسماء ٤١٢ ٣٠٠ ٤٤ ٧٢ ٥ + ٤٤ شريف	٥٢٠ ٧٥ ١	٣٦٨ ٨٥ ٥
٣٤	كفردان	خانة مجرد امام	١٩ ٦ ١	٢٢ ٣ —	٢٧ ٥ ١	١٨ ٢ —	١٤ ٦ —
٣٥	كفر دبش	خانة مجرد امام	١١ — ١	٤٥ — —	٢٤ ٨ ١	٣٦ ٤ —	٣٠ ١٠ —
٣٦	كفر زبد	خانة مجرد امام	٢٠ ٤ ١	٥١ ٤ ١	٣٧ ١٠ ١	٥٤ ١ —	٣٤ لكن المجموع ٣ ٣٨ نفرا —

تابع اسماء قرى ناحية كرك نوح واحصاءات سكانها بموجب دفاتر الطابو التالية

	اسم القرية		ط.د ٤٣٠ (ح ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م) ص ٨٢ — ١١٩	ط.د ٣٨٣ (ح ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م) ص ١١٢ — ١٧٧	ط.د ٤٠١ (ح ٩٥٠هـ / ١٥٤٣م) ص ٢١٥ — ٢٤٥	ط.د ٥٤٢ (ح ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) ص ٥٣٤ — ٥٦٢	ط.د ٩٧٧ (ح ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م) ص ١٠ — ١٤ ، ص ٢٤٠ — ٢٥٣
٣٧	كوسته	خانة	غير مذكورة	٦	—	٧	٥
		مجرد		١	—	—	٢
		امام		—	—	—	—
٣٨	لونة	خانة	٩ (٣٦	١٠ ٢٤ نصارى	٣٣ ٨٠)	٨ ٢٠ نصارى	٥ ١٤)
		مجرد	— +١٤) نصارى	— —	٥ +٥)نصارى	— —	٣+٦) نصارى
		امام	١ —	١ —	— —	— —	—
٣٩	معصرين ؟ معوان ؟	خانة	١٥	٣٨	١٤	١٣	٩
		مجرد	٤	—	٦	—	٤
		امام	١	—	١	١	١
	المجموع	خانة	١٢٢٩+٣٢٠ نصارى	٣٦٤٧+٤٦٦ نصارى	٢٠٧٢+٤٧٧ نصارى	٢٢٤٣+٤٠٤ نصارى	١٧٥٧+٤١٩٣ نصارى
		مجرد	١٩٩ ٣٣	١٧٤ ٨	٣٤١ ٨	١٨٦ ٣٠	٤٥٣ ٧٥
		امام	٣١	١٤	٣٦	٤	٨
		سيد	٣ +٥ اعمى				
		شريف			٤٤ شريف	٢ مصاق	

نلاحظ عند استقراء الارقام الواردة في هذه الدفاتر ما يلي :

١ ــ الزيادة المضطردة والملحوظة في عدد السكان المسلمين على مستوى الاسر (الخانات) . وجاءت هذه الزيادة ، على الارجح نتيجة للاستقرار الذي وفره العثمانيون للبلاد في مطلع عهدهم بها ، ثم نلاحظ أن هذه الزيادة تأخذ بالهبوط في نهاية القرن السادس عشر . وهاتان الملاحظتان تتوافقان مع ما لوحظ في بقية النواحي التابعة لواء دمشق الشام في القرن السادس عشر ولم يستطع الباحثون الى الان ، اعطاء تفسير مقنع لظاهرة النقصان هذه . وهناك تخمينات لتفسير هذه الظاهرة كانتشار الامراض والاوبئة أو موجات الجراد والكوارث الطبيعية . ولكن عند دراسة الشواهد التاريخية المتوافرة في المصادر التاريخية لانجد أن المنطقة كانت قد تعرضت لمثل تلك النكبات بشكل مكثف يدعو الى حدوث هذا الهبوط في مجموع السكان. وهناك احتمال آخر ، ان مجموع عدد السكان ، في حقيقة الامر لم يهبط بهذا الشكل ، بل ان الادارة العثمانية والقائمين على امر الاحصاءات لم يعودوا دقيقين في اجراء احصاءاتهم السكانية .

٢ ــ نلاحظ ان عدد المجردين المسلمين كان يتأرجح ما بين الزيادة والنقصان ، ثم يعود الى الارتفاع في نهاية القرن السادس عشر ، وربما كان مرد ذلك الى حالة عدم الاستقرار وانتشار الاضطرابات الداخلية التي شهدتها بلاد الشام في أواخر القرن السادس عشر .

٣ ــ فيما يتعلق بالسكان المسيحيين ، نلاحظ الزيادة المضطردة بأعدادهم ولا نلاحظ هبوطا بارزا كالذي لاحظناه في احصاءات السكان المسلمين . وربما اهتم رجل الاحصاء العثماني بالتدقيق بأعداد المسيحيين لاغراض جمع الجزية .

٤ ــ اذا ما نظرنا الى مجموعة الائمة والخطباء نجد أن عددهم قليل بالنسبة لمجموع عدد السكان من المسلمين . ولعل مرد ذلك أن نسبة مهمة من سكان كرك نوح كانوا من الشيعة ، هذا مع أن الدفاتر العثمانية المعروفة بالطابو لم تشر الى ذلك ، وكما هو معروف فان الدولة العثمانية من الناحية الرسمية لم تعترف بالطوائف الشيعية واعتبرت الجميع سنة . واذا صحت هذه الملاحظة فانها لم تكن تعفي رجال الدين من الشيعة من الضرائب على غرار رجال الدين السنة الذين كانوا يعفون من العوارض الديوانية ومن التكاليف العرفية . ويجدر بنا هنا أن نلفت النظر الى اشارة

احد الدفاتر لثلاثة من السادة واشارة دفتر آخر الى اربعة واربعين من الاشراف . وكما هو معروف فان كلا من السادة والاشراف كانوا يعفون من العوارض الديوانية والتكاليف العرفية . كما ان وجودهم بهذا العدد البارز يلفت النظر الى وجود عنصر شيعي بارز في المنطقة .

٦ ـ أبرزت هذه الدفاتر ، التقاليد الادارية العثمانية في تدوين واحصاء اعداد المعاقين والمرضى والعميان وأهل العاهات من السكان ، بهدف اعفائهم من الضرائب .

٧ ـ يلاحظ وجود تجمعات سكانية كبيرة في كل من القرى التالية : حدث الفستق ، دارية ، الفرزل ، زحلة ، نفس كرك نوح وتمنين التحتا .

٨ ـ من الامور اللافتة للنظر أن دفتر رقم ٣٨٣ (ح ٩٣٧ هـ / ١٥٣٠ م)عند تعداده لسكان قرية حدث الفستق ، قد قسم السكان على أساس يمنية وقيسية ، وان كلا منهما كان له محلته الخاصة به .

٩ ـ نلاحظ أن مجموع السكان كانوا من العاملين في الزراعة ولا تشير الدفاتر الى وجود عناصر بدوية أو تركمانية في تلك الناحية .

١٠ ـ يلاحظ عدم التطابق ما بين الاسماء المدونة وما بين المجاميع المرفقة في آخر قائمة الاسماء . وهذا أمر معروف لدى الباحثين والدارسين الذين توفروا على دراسة دفاتر الطابو العثمانية .

ان تناول الباحثين لموضوع الاوقاف في بلاد الشام جاء لماما ومقتضبا ، ففي الوقت الذي نجد بعض الدراسات الجادة عن الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر(٧٣)، لا نجد ما يوازيها في الكتابات التاريخية التي عالجت بلاد الشام . لقد قامت بعض المحاولات من أجل نشر بعض الوقفيات المتعلقة في بلاد الشام(٧٤) ، الا أن كميات الاوراق الوقفية المتوافرة تستدعي من الباحثين دراستها على ضوء السجلات والدفاتر العثمانية . واننا اذ نقدم نص وقفية الامير محمد بن ناصر الدين بن الحنش على مقام النبي نوح في كرك نوح من بلاد البقاع ، نجد ان دفتر طابو ٥٤٣ ، يقدم كغيره من الدفاتر مادة تاريخية ثرة عن الاوقاف، الذرية منها والخيرية . ومما يستلفت النظر هنا كثرة أوقاف العمارة في قرى ناحية كرك نوح ومزارعها التي شيدها السلطان سليمان القانوني في مدينة دمشق الشام . فيورد لنا هذا الدفتر اسماء القرى التالية في ناحية كرك نوح على انها من أوقاف هذه العمارة : أرعيث ، بيت شامة ، تمنين الفوقا ، دلهمية، فرزل

قصربنا ، وقوساية . اما أوقاف معلم السلطان سليم الثاني ووالي الشام ، فيما بعد ، لالا مصطفى باشا صاحب الخيرات والعمائر العديدة فقد شملت أوقافه في بلاد الشام عددا كبيرا من القرى والمزارع والبساتين والدكاكين والطواحين . فمن أوقافه في ناحية كرك نوح ، قسم من قرية اشرفية وعدد من المزارع واذا ما دققنا في وقفية لالا مصطفى باشا فاننا نجد تطابقا كبيرا بين ما تورده الدفاتر وما تذكره وقفيته المنشورة(٧٥) . ومن جملة الاوقاف الخيرية ، واردات قرية حشمش المخصصة كوقف لجامع السلطان الملك الاشرف سيف الدين برسباي ، وما يرد من قرية دارية الذي كان ينفق على برج القنطاري بطرابلس الشام ، كما نلاحظ أن نصف ما يتحصل من قرية كفردان كان يخصص للانفاق على البرج في بيروت ، واذا ما أجلنا النظر في الجدول المرفق فاننا نتبين بالاضافة الى ذلك أوقافا على المدارس والمساجد وعلى فكاك الاسرى . كما نجد ذكرا للوقف الذري ومنها قرية بيت نايل اذ كانت بكاملها وقفا ذريا محبسة من قبل محمد منجك .

ومن ناحية ثانية نجد ذكرا لاسماء القرى والمزارع التي كانت تجبى كجزء من خاص العاملين في دفتردارية دمشق الشام ، كقرية كفردان ، وقرية تربل التي كانت مقطعة لمراد بن علي دفتر دار الخزانة العامرة ببلاد الشام ، ويلاحظ ادماج زعيم أسرة آل الحنش ، محمد بن ناصر الدين ، في نظام التيمار فخصص له ربع قرية رقادة مع قسم من حاصلات مزرعة وقسم من مزرعة ثانية تابعة للقرية المذكورة .

أما أنواع الضرائب التي كانت تجبى والمبينة في الجدول المرفق فان ضيق المجال لا يفسح لنا أن نستطرد في تحليلها ووصفها ، ونكتفي منها بالاشارة الى الدراسات الحديثة التي تمت مؤخرا وتناولت هذا الموضوع(٧٨) .



ناحية كرك نوح بموجب طابو دفتر رقم ٥٤٢
مطلع عهد السلطان سليم الثاني

(الضرائب مقدرة بالاقجة - وحدة النقد العثماني المعروفة من الفضة)

ملاحظات	المجموع	...	...	الوقف: المتصرف	الوقف: جهة الوقف	...	الحاصلات	...	...	...	...	السكان: خانة	السكان: مجرد	السكان: ...	السكان: إمام	القرية

رقم	القرية	السكان: خانة	ذكور	خطيب	امام	عدد	[illegible]	[illegible]	[illegible]	جزية	الحاصل: حنطة	شعير	[illegible]	[illegible]	طاحون	مصبنة	[illegible]	رسم	[illegible]	[illegible]	حق	[illegible]	[illegible]	مزرعة/بستان/قطع ارض م/د/ف	الوقف: حصة وقف	العشر	ملك	مسجد	[illegible]	الملاحظات
١٦	[illegible]	[illegible]	[illegible]					٩٠٠							[illegible]													[illegible]	[illegible]	[illegible]
٢٧	[illegible]	١٣		١				١٠							[illegible]	١١				٩٥	٦		[illegible]						[illegible]	
٢٨	[illegible]	١						٩								١١				١١			٥						٩٠٦٤	
٢٩	[illegible]					٣		٧٥								٤١				١٨٠			[illegible]						[illegible]	
٣٠	[illegible]	٥٩	٧٧		١						[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]	٥			١					[illegible]	٨١٩٨	[illegible]
٣١	[illegible]	١٨	١			[illegible]	[illegible]	٥	[illegible]		[illegible]	[illegible]				٤١				١	٢٦		١٤	[illegible]	[illegible]	١٠٠			٤٩٠٠	[illegible]
٣٢	[illegible]	٢٦	٤				[illegible]				[illegible]	[illegible]	٩			٢٢				١٥٠			٩	[illegible]					٧٨٤٩	
٣٣	[illegible]	٥٤	١				[illegible]	٥٠			[illegible]	[illegible]	١٩٠			١٤	١٥			٦٠			٥٨	[illegible]	[illegible]	١٠	[illegible]		[illegible]	[illegible]
٣٤	[illegible]	٩					[illegible]				[illegible]	[illegible]	١٠٠							٥٠	١٠٠		١						٦٧٧٠	
٣٥	[illegible]	[illegible]					[illegible]	[illegible]							[illegible]	٤٥				٥٠٠			١٠٠						٧٦٦٤	

الملاحق

١ ــ ترجمة رسالة ابن الحنش الىالسدة السعيدة ٢٨ صفر ٩٢٣ هـ/٢٢ آذار ١٥١٧

٢ ــ ترجمة ملخصات رسائل من ابن الحنش الى السلطان سليم وليونس باشا، والى خير بك .

٣ ــ رسالة ناصر الدين ابن الحنش رقم ١٠٧٣٤ الى السلطان سليم .

٤ ــ وقفية الامير محمد بن ناصر الدين المعروف بالحنش .

٥ ــ ترجمة الحكم السلطاني الشريف ، ١٧ صفر سنة ١١/٩٧٨ تموز ١٥٧١ .

وثيقة رقم ٦٣٤١ المحفوظة بمكتبة طوب قبو ، باسطنبول

ترجمة مكتوب ابن حنش الوارد الى السدة السعيدة

بعد تقبيل الارض عند حضور الصدقات الشريفة ، بورود المراسيم الشريفة لعبدكم ، والمتضمنة ما من به الله تعالى من النصر على الجراكسة الظلمة ومن تملك السلطان لتخت يوسف عليه السلام وتتضمن هذه المراسيم الشريفة الذكر بأن عددا من اصحاب السيوف الجراكسة قد هربوا الى هذه الجهات ، ولما يعرف عنا وعن رجالنا من اليقظة فان المطلوب ملاحقة هؤلاء الظلمة والقاء القبض عليهم وقتلهم .

وانه بعد ان تسلم المراسيم الشريفة قراها على مسامع الجميع وعلى رؤوس الاشهاد ويشهد الله ورسوله انه قد زاد سروره وسجد شاكرا لله على نعمته التي اسداها للاسلام والمسلمين كما انه كتب الى سائر الجهات والمواضع التي يعتمد عليها من أجل القاء القبض على (السيوف) الهاربين ، وأوعز الى كافة الاطراف انه اذا قبض على أحدهم أن يقتل حالا . كما يذكر انه لا يوجد بطرفه اي خلاف وانه يعمل حسب ما هو وارد في المراسيم الشريفة حيث انه واحد من خدم الآستانة ومعترف بفضله وصدقه واخلاصه . ومنذ ان توجه الركاب الشريفة الى مصر المحروسة عم البلاد الامن واثبت اجتهاده في احسن الطرق كما انه خدم نائب الشام ولم يتوان في خدمة العساكر المنصورة مهما كان (مستوى) من حضر منها ولو كان عبدا أسود لقام على خدمته واكمل ما يريد ويبغي . وهذا ديدنه في كافة اطراف البلاد . كما انه يقسم

انه منذ أن تحرك الركاب الشريف في البلاد الشامية وبعد المغادرة منها الى القاهرة المحروسة فان أحداً من العساكر المنصورة لم يفقد ولا درهما واحداً ولله الحمد والمنة. كما يريد أن يبلغ المسامع الشريفة انه عندما غادرت متوجهة الى القاهرة بحرز اللـه وسلامته وقع في صفد فتنة وقتال بسبب اعتقال شخص من اهالي صفد وكان الخلاف بين أهالي صفد ونائبها . وانه (ابن حنش) حالما اطلع على هذا الامر يشهد الله انـه جمع رجاله فورا وأرسل الى نائب صفد : انه اذا اراد التوجه الى الشام فهو علـى استعداد لمساعدته للذهاب الى الشام واذا اراد التوجه الى مصر فهو على استعـداد لاخذه الى مصر ولكن نائب صفد أرسل شاكرا هذا العرض ويصر عى البقاء في صفد ، مقررا تخويف الاهالي بالسلطة الشريفة وبالسطوة. وبقي الوضع على هذا المنوال ثلاثة أيام لم ينزلوا من القلعة وبعدها جمع الاعيان (ابن حنش) وشرح لهم طبيعة الحال على صورة جلية واضحة ولكن والي صفد لم يقبل التفاوض . وبعد ذلك أرسل (ابـن حنش) رسالة تهديد الى اهالي واعيان صفد وحذرهم من قوة وسطوه الدولة وسلطانها فتفرقوا في جميع انحاء البلاد بعدما خافوا من الانتقام خاصـة بعدها علمـوا بالنصـر والاستيلاء على العرش الشريف (مصر) . وتوزعوا على سائر الاراضي ومن هؤلاء جماعة يدعون جماعة ابن حامد شيخ الاسلام وشخص مشهور باسم ابن دوادار وهو قاضي صفد وقد حضر الى ولاية خادمكم المطيع هذا . وعندما عرف نائب صفد ذلك ارسل اليهم رسالة يستدعيهم للخدمة لديه وقد استدعاهم ابن حنش اليه وطيب خاطرهم وضمن لهم الوصول الى كل الخير مع الصدقات الشريفة وقد اعلم سابقا بهذا صاحب الصدقات الشريفة واسع الحلم (السلطان) . وقد اعتـذروا بشدة وابـدوا ندمهـم وأسفهم حتى انهم طلبوا أن يسجنوا جزاء لهم على وقوعهم في خطيئة الجهل والخوف من نائب صفد وقد عرضت سابقا هذه القصة على المسامع الشريفة مع طلب الرحمة مـن الصدقات الشريفة . وقد صدر مرسوم شريف بالامان لهم .

ومن القضايا التي يريد أن يعرضها على المسامع الشريفة ايضا انه يوجد بطرابلس من اهالي طرابلس قاضي حنفي كما يوجد نائب طرابلس في زمن الجراكسـة دواداري وخزينة داري (صاحب الخزينة) وقد حضـروا لطرف ابن حنش واعلنـوا ولاءهـم واخلاصهم . ومن أجل زيادة التأكيد والابرام على طاعتهم فانهم مستعدون للذهاب والتمسح بالاعتاب السنية والدخول في الطاعة الشريفة . وقد افادوا انهم بينما كانـوا يرافقون مجموعة من حريم طرابلس بغية تأمينهن بمكان أمين مرورا بقرية اسمها البترون وكان في هذه القرية مجموعة من الاكراد وقد باتوا تلك الليلة في هذه القرية وفي الليلة الثانية كان يوجد شخص اسمه موسى التركماني وكان عدوا لهؤلاء الاكراد وقد ذهب الـى نائب طرابلس وأعلمه أن قاضي طرابلس والدوادار وبعض رجال ابن الحنش قد حضروا

ومرادهم الهجوم على طرابلس وعندما سمع نائب طرابلس هذا الامر توجه فورا الى البترون وحاصر من فيها من الاكراد وقتلهم جميعا وبلغ عدد القتلى سبعين نفرا بمافيهم القاضي وقد جرى كل ذلك بسبب اغراض موسى التركماني هذا . وقد حاول الدوادار الهرب والذهاب الى مكان اسمه ظنية ولكن الخيالة تتبعته وقبض عليه وقتل فورا . كما ذكر (أي موسى التركماني) أن ابن حنش هو الذي جهز هؤلاء وأرسلهم الى هناك .

ان ابن حنش خادمكم المطيع يشهد الله ورسوله ويقسم على القرآن المجيد انه لم يرسل أي فرد من جماعته لا مع هؤلاء ولا مع غيرهم الى أي مكان كان وانه لم يغادر مكانه ولم يركب حصانه وانه لم يذهب الى أي مكان كان بغير حاجة ماسة . وخوفا من كلام المفسدين فانه يتوجه الى الصدقات الشريفة ويسالها ان ترسل استفسارا عنه عما اذا كان قد ركب للحرب أم لا ، منذ أن توجه الركاب الشريف : ان ابن حنش خادمكم المطيع قائم على خدمة نائب الشام وكان قد أرسل خبرا مع القاصد (رجل نقل الاخبار والرسائل) في تاريخ سابق ، وقد جهز الهجانة القادمين في الخدمة الشريفة وهو حاليا يهيء قاصده لتهنئة الصدقات الشريفة لما منه الله تعالى على المسلمين ، وان خادمكم المطيع هو خادم صدقاتكم الشريفة ويدعو الله بدوام أيامكم وعزكم وليكن دعاؤه مقبولا ولينصر الله الصدقات الشريفة ويجعل الظفر دوما في ركابها على كل من عاداها . فليقبل الله هذا الدعاء من خادمكم المطيع ومن داعي مخلص ، آمين بمحمد وآله وصحبه أجمعين .

الثامن والعشرين من شهر صفر / ثلاث وعشرين وتسعماية

(٢٢ آذار ، ١٥١٧ م)



١ ــ وفي مكتوب ثان من ابن حنش مؤرخ بالعاشر من ربيع الاول (٢ نيسان ١٥١٧ م) وحسب ما ورد بشكل مفصل فانه يذكر وجود الضغينة والبغض من بعض أصحاب الحسد ضده ويطلب الكشف عن أحواله ويشير الى انه قد وقعت فتنة بين أصحاب الرتب والحكام ولكن يوجد شخص لايشك بأنه من أولياء الله الصالحين ولا يوجد أي شبهة بولايته وهو الشيخ ابن عراقي ومعروف عنه انه لا يقول أي شيء غير الصدق ويطلب السؤال عنه (عن ابن حنش) .

كما انه علم ان نائب طرابلس قد قام بتعذيب وقتل بعض من قبض عليهم حتى يدلوا بما يريده هو عن خادمكم المطيع (ابن حنش) والله وحده عليم بأحواله وهومتأكد انكم سوف تحسنون اليه بالكشف عن الحقيقة .

٢ ـ وقد ورد في مكتوب آخر من ابن حنش المذكور لحضرة يونس باشا ومؤرخ بالثامن والعشرين من شهر صفر (٢٢ آذار ١٥١٧)،بعد أن فصل بكتابه هذا تقريرا عن جملة أحواله ذكر في الحواشي انه من الامور المهمة التي يجب أن تصل الى المسامع الشريفة هو ان العداء والمشاحنات الشخصية والعداوات كثيرة ولذا تجدهم يتكلمون عن بعضهم البعض الكلام السيء مما يؤدي الى ايقاع الناس ببعضهم البعض بعداوات ومشاحنات .

وان هذه الظاهرة كانت موجودة لديهم من زمن الجراكسة ومنذ ذلك الزمان وهم يتعرضون الى كافة انواع الزجر ولكنهم لم يرتدعوا وفي الوقت الحاضر وبعد الاستيلاء على العرش الشريف (عرش مصر) فانهم يأتون الى نائب الشام ويتحدثون اليه بأحاديث الفتنة مما أدى الى اراقة الدماء والقتل وان خادمكم المطيع (ابن حنش) يخاف أن تزداد الفتنة وتمتد وتغلق طرق الولاية وتصبح الولاية خرابا .

ان اهل هذه الولاية هم رعايا المقام الشريف وحيث ان مقر خادمكم هو قانوني ورسمي وبهذا الخصوص ارجو ان يصل الى المسامع الشريفة ضرورة ارسال مرسوم شريف يمنع المغرضين عن تماديهم في الفتنة ويمنع اعتقال اي شخص الا لجريمة ارتكبها حيث أن جميع أهالي بلاد الشام هم في أكمل الطاعة والولاء ولا يوجد بينهم اي خارج أو متمرد وسيسجل هذا الثواب في الكتاب المحفوظ وفي هذا الباب الاجر العظيم والخير الكثير .

كما يرجو (ابن حنش) أن يصل الى المسامع الشريفة ايضا انه يوجد شخص باسم سنطباي كان حاجبا سابقا في الشام في زمن الجراكسة وكان يوجد بينه وبين ابن حنش مودة سابقة منذ زمن بعيد وقد التجأ وحريمه واهل بيته الى خادمكم المطيع (ابن حنش) واعلن طاعته وولاءه . ويتضرع خادمكم المطيع (ابن حنش) بالاحسان اليه بالامان الشريف وانه يقبل الاعتاب السنية وانه يريد أن يدخل في سلك الخدم الشريف . واذا غادر المذكور بيت ابن حنش فانه لو كان ابنه فلن يكون له عقابا سوى قطع راسه . وهو شرقي مسكين وقد التجأ الى حريم خادمكم المطيع (ابن حنش) وقد اتخذه ابن حنش وسيلة للوصول الى الصدقات الشريفة وان ابن حنش هو مملوك الصدقات الكريمة والمراحم الشريفة وانه واقف على قدم الطاعة .

٣ ـ كما أن المكتوب الذي بعثه ابن حنش المذكور الى خير بك هو نفس المكتوب الذي بعثه الى حضرة الباشا بلا زيادة ولا نقصان .

كتاب ناصر الدين ابن الحنش الى السلطان سليم الاول

مأخوذة عن وثيقة رقم ١٠٧٨٤ المحفوظة بمكتبة طوب قبو ، باسطنبول

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الملكي المظفري القضائي

يقبل الارض وينهي ان الموجب عرضها على المسامع الكريمة . . . بالله تعالى انه ليس بخاف عن العلوم الكريمة ما انعمت به الصدقات الشريفة الخندكارية ضاعف الله شرفها على الامير محمد بن قرقماس ببلاد المملوك ، وتوجه الركاب الكريم . . . الكافلي ملك الامراء جان بردى الغزالي ومن صحبته من العساكر المنصورة الى بلاد صيدا . ولم يعلم المملوك سبب ذلك ، والذي . . . .انه ما كان هذه المدة مقيم في بلاده الا بالمراسيم الشريف . . . . الشريف وما وقع من المملوك تقصير في خدمة المقام الشريف ولا جماعته . . . . .

ولما حل الركاب الكريم بمنزلة قطية عائدا من القاهرة برزت المراسيم الشريفة والمراسيم الكريمة على يد أحد الخاصكية بالخدمة الشريفة يتضمن اطابة خاطر المملوك واستمراره على جاري عادته في بلاده وعليه أمان الله تعالى وأمان رسوله ، والامان الشريف وان المملوك يضمن البلاد والطرق ، قابل المملوك المراسيم الشريفة والكريمة بمزيد السمع والطاعة وتضاعفت أدعيته بدوام الايام الشريفة والكريمة ولما حل الركاب الشريف بدمشق المحروسة ورد على المملوك امثلة كريمة من الصدقات ومن المقر الاشرف محمد باشا ومن المرحوم حليمي شلبي بمعنى ذلك ، وفي مثال المشار اليه على لسان المقام الشريف عز نصره يخبر المملوك في ثلاث وجوه : اما ان المملوك يحضر نفسه الى الاعتاب الشريفة بعد ايقاع حلف شريف ، او يجهز أحد . . .خدمة الابواب الشريفة أو يستمر على جاري عادته ويدعو للمقام الشريف ويستمر على ما كان . . . من تعمير البلاد وتطمين الرعايا وتمشية السبل والطرقات والوقوف في الخدمة الشريفة . وهذه الثلاث وجوه متساوية الاطراف عند المقام الشريف . هذه عبارة المثال الحليمي للمشار اليه فلما قرأ المملوك المثال الكريم المشار اليه جهز ولده الى خدمة

الابواب الشريفة وعاد مجبور الخاطر وورد على يده مرسوم شريف باستمرار المملوك في بلاده على عادته واطابة خاطره ، بكل ممكن ، فتضاعفت أدعية المملوك في الصحايف الشريفة . هذا والمملوك من حين حلول الركاب الشريف من المملكة الرومية ... والى يوم تاريخه لم يقع من المملوك تقصير في حق احد من مماليك المقام الشريف ولا في مهم من المهمات ... ولم يحدث من المملوك ما يغير الخواطر الشريفة وما علم المملوك له ذنب سوى اخلاصه في الطاعة الشريفة ووقوفه على اثبت قدم والمملوك يحاشي ... الشريفة السلطانية من نقض كلامها الشريف بغير سبب يقتضي ذلك فان كلام الملوك ملوك الكلام . وما شهر فيه عن المقام الشريف ولا عن ابائه واجداده سقى الله عهدهم صبوب الرحمة والرضوان. والصدقات الكريمة لاتصغي لكلام المفسدين ذوي الاغراض الفاسدة والآراء الكاسدة .... والمملوك ما قصد ذلك الا ليزيد ما .. على الصدقات الشريفة والكريمة ان شاء الله تعالى . ولما حل ركاب الكافلي جان بردى الغزالي بوادي التيم جهز للمملوك مثال كريم يتضمن طلوع المملوك من البلاد وعدم حدوث خلل فيها وتطمين أهلها ، امتثل المملوك المرسوم المشار اليه وقابله بمزيد السمع والطاعة والمملكة مملكة المقام الشريف والمملوك مملوك الابواب الشريفة وعبدها ، وابن سر نعمتها ، وجهز المملوك جماعته الى خدمة المشار اليه ليتوجهوا صحبة ركابه الكريم الى مدينة صيدا ويسلموه الناحية المذكورة ، عامرة آهلة امتثالا للمراسيم الشريفة ، هذا والمملوك مستمر على الاخلاص في الطاعة الشريفة وهو مقيم على العهد والميثاق وباق عليهما واينما كان وحيث سار هو مملوك الابواب الشريفة ، وسؤال المملوك من الصدقات الكريمة التي ما خاب سائلها ولا رد أملها (؟) استعطاف الخواطر الشريفة على المملوك بكل طريق ممكن وان انعمت الصدقات الشريفة على المملوك فيكون قد توجه الركاب الشريف، فان المملوك يخشى أن بعد توجهه في حرز الامن والسلام يحدث في المملكة خلل من ساير أهل الفساد . وربما ينسب للمملوك والمملوك يخشى ... من زيادة تغير الخواطر الشريفة عليه وان لم ترض الخواطر الشريفة على المملوك والا يتوجه المملوك الى البرية ويصير من جملة العربان بها ، فان المملوك ما يمكنه ان يتوجه الى عند أمير من الامراء يكون في خدمته ولايرى على نفسه ان يتوجه الى مملكة غير مملكة المقام الشريف فان المملوك ما ينسا الاحسان والانعامات الشريفة وهو ولد حلال . ان شاء الله تعالى سؤال المملوك من الصدقات الكريمة تجديد العناية الكريمة في عمل مصلحة المملوك في شيء يكون خلاصة وخلاص الصدقات الكريمة من الله تعالى ، فان المملوك ليس هو معتمد الا على الله تعالى ثم على المراحم الكريمة ولاتخلي الصدقات الكريمة مملوكا ابوابها العالية الولد أمام (اقام ؟) على من حسن نظرها الكريم فانه مملوكها وفي خدمتها وان انعمت الصدقات الكريمة على المملوك كتابة مرسوم شريف الى ملك الامراء المشار اليه بالوصية على جماعة المملوك وعلى فدادينه المشدودة في البقاع والساحل فيكون ذلك اسعافا

للملوك وعمارة بيته فان المملوك ما يسد جميع الامور الا بما يتحصل من المغل والمملوك وما يملكه للصدقات الشريفة ومهما حسن في الآراء الكريمة واقتضته ففيه اليمن والبركة والمملوك ليس هو معتمد الا على الله تعالى ثم الصدقات الكريمة سائلا استمراره على الخواطر الكريمة ليفوز .... واخرا والمملوك واقف على قدم الطاعة لما يرد عليه من المراسيم الكريمة المطاعة . انهى المملوك ذلك (على الهامش : ان شاء الله تعالى ، الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم) .



لقد سعيت على مدار عدد من السنين في البحث من أجل الاطلاع على النسخة الأصلية لـ « وقفية الامير محمد بن الامير ناصر الدين المعروف بالحنش » لكني لم اوفق في العثور عليها ، لان النصوص الاصلية لمجموعة وقفيات دمشق مجهولة المكان وغير متوفرة للباحثين ، ويخشى أن تكون قد فقدت .

والنص الذي اقدمه هنا مأخوذ عن النص الاصلي ، وموجود في المجلد الثاني لمجموعة أوقاف دمشق المحفوظ في مديرية اوقاف مدينة دمشق ، ويقع ما بين الصفحة ١٩٦ — ٢٠٠ من المجلد .

والدعوة التي اتوجه بها هنا الى المعنيين بالدراسات الاقتصادية والاوقاف ان يصار الى تشكيل هيئة علمية لحصر وقفيات بلاد الشام ومن ثم فهرستها والتعريف بهـا والعمـل علـى نشرهـا .

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفية الامير محمد ابن الامير ناصر الدين المعروف بالحنش

(٩٥٠ هـ / ١٥٤٣ م)

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »(٧٩) « ولا يضيع أجر المحسنين »(٨٠) وعلى الله وعلى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

حضر لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام وارث علوم الانبياء والمرسلين مفيد الطالبين حجة الحق على الخلق أجمعين ، المحفوف بعناية الملك المعين ، أبو المناقب شمس الدين محمد(٨١) ابن مفتي المسلمين ملك الفقهاء والمحدثين ، المرحوم طاهر قاضي قضاة الاسلام وينبوع الفضل والعلوم ، وهو بمجلس حكمه العزيز بدمشق الشام أدام الله تعالى اجلاله ونفذ أحكامه وختم بالصالحات اعماله بحق محمد وآله حضر مفخر الامراء ذو القدر والاحترام جامع المجد والكرم والسيف والقلم الامير الجليل محمد بن المرحوم الامير الجليل ناصر الدين المعروف بالحنش ادام الله تعالى مجده ورحم اباه وجده الامير على البقاع مع كرك نوح النبي عليه السلام ونواحيهما. واحضر معه مفخر السادة الاجلاء العالم المحقق المدقق المحدث فرع الشجرة الطاهرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية النبوية وغصن الدوحة التهامية المصطفوية ذو الحسب الزاهي الزاهر والنسب الباهي الباهر النسابة في الديار البعلية وامير السادة الاشراف الحسينية قدوة علماء السادة الشافعية ودرتهم الباهجة المضية مولانا وسيدنا مفخر السادة الاجلاء الاشراف الكرام السيد علوان(٨٢) ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين مولانا السيد علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين جامع الشرف والتقوى والدين مولانا السيد حسين اعزه الله تعالى وزاد شرفه عظما ونجحه في الدارين قصده ورحم أباه وجده . وهو النقيب على السادة الاشراف الكرام والمتولي والناظر على أوقاف حضرت النبي نوح (٨٣) على نبينا وعليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة واتم السلام . واشهد على نفسه لمولانا وسيدنا الحاكم المشار اليه انه وقف وحبس وأبد واخرج عن ملكه جميع وقفه هذا على الشروط الاتي ذكرها فيه من غير زيادة ولا نقصان ولاتعدي بوجه ولا بسبب من ساير الاوجه وسائر الاسباب الشرعية :

وذلك جميع الطاحون المعروفة بالمخطبية تابع البقاع حجرين الراكبة على نهـر الغزير ومنه دورانها التي حدها قبلة الطريق وشرقا النهر وتمامه الباب ، وغربا النهر وتمامه أرض داخله في الوقف سيأتي ذكرها وشمالا النهر ومن ذلك جميع الطاحـون المعروف بالجامعية تابع كرك حجر واحد الراكب على نهر البردون(٨٤) ومنه دورانها الكائنة فوق الجسر بالقرب منه حدها من القبلة النهر وشرقا الطريق وفيه الباب وغربا النهر وشمالا كذلك . ومن ذلك جميع القطعة الارض الكائنة لصيق طاحون المخطبيـة وينتهي حدها الى الجسر وشهرتها في مكانها تغني عن التحديد . ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة في المبدية تابع بر الياس حدها من القبلة أراضي الصاوة ؟ العـادة ؟ وشرقا اراضي بلوطيا وغربا تل الصرحون وشمالا أراضي تربل(٨٥) ومن ذلك جميـع القطعة الارض المعروفة بالبرقية تابع البقاع ولها أوصاف وشهرة في مكانها تغني عـن الوصف والتحديد . ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة بحقل التوت من أرض قرية علين التي حدها قبلة أرض البحصاص وشرقا أرض الممالك وغربا الطريـق وشمالا أرض محمد عبد الله . ومن ذلك جميع القطعة الارض ، المعروفة بالحمـرا من أراضـي (١٩٦ أ) كفر عنا تابع الفرزن(٨٦) الكاينة قرب الجسر حدهـا من القبلـة الطريق وشرقا كذلك وغربا النهر المنيع ، وشمالا الارض سليخ . ومـن ذلك جميـع القطعة الارض تابع رعيث(٨٧) المعروفـة بالوقـف التي حدها مـن القبلة ساقيـة حشمش(٨٨) وشرقا الطريق يدور مع الساقية وغربا أرض الكفيرات وشمالا كذلك . ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة بعين حميدة تابع كرك التي حدها من القبلـة ارض الحقل وشرقا كروم دار لاباس وغربا أراضي عرجموش وشمالا ملك عبد الله . ومن ذلك جميع القطعةالارض المعروفة بالحفوف تابع الكـرك التي حدهـا من القبلـة الطريق وشرقا جسر مسعود وغربا البستان وشمالا الطريق .

ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروفة بالرجم تابع كرك التي حدها من القبلـة حقل الروض وشرقا البستا نوغربا الطريق وشمالا في يد اربابه .

ومن ذلك جميع القطعة الارض المعروف بالبرانية تابع كرك التي حدها من القبلة أرض وقف جامع السيد وشرقا ملك محمد وغربا كذلك وشمالا حقل سليخ بيد اربابه .

ومن ذلك جميع البستان التوت تابع كرك الذي حده من القبلة ملك الحاج أيوب وشرقا البستان وغربا ملك السيد وشمالا النهر .

ومن ذلك جميع البستان المعروف بالطحان تابع كرك وشهرته في مكانه تغني عـن الوصـف والتحديـد :

ومن ذلك جميع نصف البستان الكاين قرب الحمام المشتمل على اشجار توت وجوز وغير ذلك الذي حده من القبلة الطريق السالك وشرقا بستان السيد وغربا البيادر وشمالا ملك الشيخ عبد العال .

ومن ذلك جميع كامل البستان المعروف بالشمعة تابع كرك الذي حده من القبلة البستان بيد اربابه وشرقا الفريجة (الفرنجية ؟) وغربا الطريق وشمالا بيد اربابه .

ومن ذلك جميع نصف البستان تابع كرك المشتمل على اشجار توت وجوز وغير ذلك حده من القبلة الطريق وشرقا بستان الحاج أيوب وغربا بيد الجاموس وشمالا البستان بيد أربابه . يجمع حقوقها كلها طرقها ومرافقها من كل حق هود داخل فيها وخارج عنها وقفا مؤبدا ومحرما وايقافا ثابتا ومحيا سرمديا لايباع اصل ذلك و لايوهب و لايناقل ولا يتلف ولا يخرج الى ملك احد كل ما مر به زمان أكده وكلما أتى عليه حين واوان اطده وسدده فهو محرم بحرمات الله تعالى مدفوع عنه بقوة الله تعالى يبتغي فيه مرضات الله تعالى لايحل لاحد يؤمن بالله واليوم الاخر ويعلم انه لربه الكريم صابر ينقص هذا الوقف ولا يغيره ولا يزيده عن وجهه وشروط الاتي ذكرها لا بوجه ولا بسبب .

على مبتدأ أن يكون جميع غلال ذلك على عمارة المشهد الذي فيه النبي نوح المشار اليه صلى الله عليه وسلم . وعلى عمارة أوقافه وعلى خدامه المقيمين به ، وللمتولي والناظر .

وسلم جميع ذلك لمولانا وسيدنا السيد علوان المشار اليه فاعترف بالتسليم تسليم مثله شرعا . ثم شرط له التولية والنظر على وقفه هذا له ، ثم من بعده لاولاده وأولاد أولاده، ولاعقابه وانساله أبدا ما داموا ودايما ما بقوا الارشد منهم . وفوض لهم التصرف في في ذلك وعلى انه لاتوجه وظيفة ولا خدمة الا لمن يرضاه المتولي منهم ، وعلى أن وقفه هذا لا يؤجر لمتقلب ولا لسفيه ولا لذوي شوكة ولا يؤجر الا سنة بسنة شرطا شرعيا.
وقبل ذلك منه مولانا السيد علوان المشار اليه القبول الشرعي وفوض له التصرف في ذلك وان يكون في ذلك متابعا لما شرطه المرحوم المغفور لـه تنكز(٨٩) أمير امراء بدمشق الشام سابقا في وقفه رحمه الله تعالى المبرز من يد مولانا السيد علوان المزبور في المجلس فتأمله الحاكم المشار اليه ثم أمر بنقله حرف بحرف بهذا الكتاب وهو مضمونه .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحابته اجمعين .

حضر لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين مفيد الطالبين حجة الله على الخلق اجمعين وارث علوم الانبياء والمرسلين قاضي القضاة علاء الدين مفتي المسلمين أوحد العالمين صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين أبا الحسن علي بن سيدنا ومولانا قاضي القضاة مفتي المسلمين مفيد الطالبين أوحد العلماء والمدرسين ولي أمير المؤمنين المرحوم ابي بكر محمد القاضي بمدينة دمشق الشام وأعمالها أدام الله تعالى تأييده حضرة أمير الامراء الكرام وكبير الكبرا الفخام ذو القدر والاحترام صاحب الخيرات والمبرات رافع الكرب والمضرات أبو الفقراء والمساكين قائد جيوش المسلمين المحفوف بعناية الملك المعين أمين مولانا وسيدنا سيف الدين تنكز بن عبد الله الحسامي كافل ولاية دمشق الشام ايد الله ايامه وختم بالصالحات أعماله بحق محمد وآله . وأحضر معه مفخر العلماء والمدرسين قدوة الفقهاء والمحدثين السيد الجليل الشريف الحسيب النسيب فرع الشجرة الطاهرة الزكية وطراز العصابة الهاشمية النبوية وغصن الدوحة التهامية المصطفوية ذا الحسب الزاهي الزاهر والنسب الباهي الباهر مولانا وسيدنا السيد حسين بن المرحوم السيد الجليل شيخ الاسلام والمسلمين وصدر المدرسين السيد موسى بن المرحوم السيد الجليل الشريف شيخ الشيوخ والمحدثين السيد علي الحسيني زاد الله تعالى شرفه عظما وهو الامير على السادة الاشراف، ونقده وحكم بصحته وأوقعه على وجه مولانا شيخ الاسلام والمسلمين تقي الدين ابو بكر ابن الشيخ محمد المتولي على وقف جامع المرحوم تنكز الواقف المشار اليه بالالتماس الشرعي من مولانا السيد حسين المتولي المشار اليه اعلاه ، مؤرخ أواسط شهر المحرم الحرام سنة اثنين وستين وسبعماية ومتصل بشهادة الشيخ حسن ابن الشيخ محمد وبشهادة الشيخ عمر بن الحاج عبد الله جميع ما تسبب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين عبد الله محمد قاضي القضا بدمشق من الاتصال والحكم والايقاع وسائر ما نسب من الاتصال اليه لمولانا شيخ الاسلام قاضي القضاة صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين ابي العباس أحمد بن المرحوم شيخ الاسلام شمس الدين محمد القاضي بدمشق الاتصالَ الشرعي بالتماس شرعي من مفخر السادة الاشراف الكرام السيد الشريف علاء الدين علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين السيد حسين المشار اليه أعلاه مؤرخ في أواخر شهر شعبان سنة تسعين وسبعماية ومتصل بشهادة الشيخ علي بن الشيخ أحمد المالكي وبشهادة الشيخ ابراهيم ابن الشيخ عبد الله جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا قاضي القضاة صدر المدرسين ولي أمير المؤمنين أبي العباس أحمد بن المرحوم شيخ الاسلام شمس الدين محمد القاضي بدمشق من الاتصال والتنفيذ والحكم والابقاء ، وساير ما نسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام قدوة القضاة والحكام ينبوع الفضل والكلام أبي عبد الله محمد ابن الشيخ العارف ابراهيم الحسيني الحاكم يومئذ ببعلبك ، الاتصال الشرعي بالتماس شرعي من مولانا

وسيدنا شيخ الاسلام السيد الجليل الشريف علاي الدين علي ابن المرحوم شيخ الاسلام السيد الشريف حسين المتولي على الوقف المرقوم المشار اليه مؤرخ في أوائل شهر رجب سنة خمسة وعشرون (كذا) وثمانماية ومتصل بشهادة الشيخ محمد ابن الشيخ عمر البوني وبشهادة الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد الحافظ جميع ما نسب لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام قدوة القضاة والحكام ينبوع الفضل والكلام أبي عبد الله محمد ابن الشيخ العارف ابراهيم الحسيني الحاكم بمدينة بعلبك من الاتصال والحكم والتنفيذ وساير ما نسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين اوحد العالمين صدر المدرسين أبي الوفاء شمس الدين محمد ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبو (كذا) المواهب نور الدين القاضي بدمشق الشام الاتصال الشرعي بالتماس شرعي من فخر السادة الاشراف الكرام السيد الشريف محمد ابن المرحوم السيد الشريف علي الوصي الشرعي على الطفل القاصر السيد الشريف علي بن المرحوم شيخ الاسلام السيد الجليل نقيب السادة الاشراف علي ابن المرحوم السيد الشريف حسين المشار اليه المنحصر به التولية والنظر على هذا الوقف الاقتضاء الشرعي . واذن مولانا الحاكم للسيد المزبور ان يتعاطى مصالح الوقف المزبور الى حين رشد السيد علوان المزبور ، وذلك حسب ما أوصى به والده رحمه الله تعالى اتصالا وتنفيذا واذنا مقبولات شرعا ، مؤرخ في الخامس من شهر ربيع الاخر سنة خمسة وخمسين وثمانماية ومتصل بشهادة الشيخ عبد الغني ابن الشيخ محمود بشهادة الشيخ علي ابن الشيخ عز الدين جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبي الوفا شمس الدين محمد بن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين صدر المدرسين أبي المواهب نور الدين القاضي بدمشق الشام من الاتصال والاذن والتنفيذ وسائر مانسب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين أوحد العلماء والمدرسين أبي الفضل علاي الدين ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين أبي المكارم خير الدين القاضي بدمشق الشام الاتصال الشرعي . أوقعه على وجه الشيخ حسن ابن الشيخ محمد الخطيب ايقاعا شرعيا بالتماس شرعي من مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين السيد الشريف علي ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين السيد الشريف حسين الحسيني المتولي على الوقف المزبور حسب ما هو مشروط له فيه ومنعه من الاحداث على الوقف والطلب والتعرض له عملا بشرط الواقف المزبور مؤرخ في يوم الخميس الثاني عشر من شهر الحجة الحرام سنة خمس وسبعين وثمان ماية وهو آخر ما وجد فيه من الاتصالات والتقاييد . وفي أدناه رسم شهادة تسعة انفار الاول ما قراته (١٩٩) شهد بذلك العبد الفقير محمد بن علي الثاني ما قراته شهد بذلك افقر الورى محمد الحسيني والثالث ما قراته شهد بذلك الفقير عمر العدوي والرابع ما قراته شهد بذلك العبد الضعيف علي

الشاكي والخامس ما قراته شهد بما فيه شمس الدين الشاكي والسادس ما قراتـه شهد بذلك الفقير حسن البصري والسابع ما قراته شهد بذلك ابراهيم الوفاء والثامن ما قراته شهد بذلك العبد الضعيف علي الانطاكي والتاسع ما قراته شهد محمد العدوي وقوبل على أصله حرف بحرف وكلمة كلمة وانصال بعد انصال ، المقابلة الشرعية وثبت مقابلة لدى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام الامر بنقله الثبوت الشرعي بشهادة شهـود آخرة ، ثم اتصل بشهادة المذكورين سيدي الشيخ عمر العدوي والشيخ شمس الدين الشاكي والشيخ محمد العدوي لطف الله تعالى بهم وبالمسلمين جميع ما نسب الى مولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلمين أوحد العلماء والمدرسين ابي الفضل عـلاء الدين بن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين وقدوة الفقهاء والمحدثين أبي المكارم خيـر الدين القاضي بدمشق الشام سابقا رحمه الله تعالى من الاتصال والحكم والتنفيـذ والايقاع والمنع وساير ما نسبب اليه لمولانا وسيدنا شيخ الاسلام والمسلميـن صـدر المدرسين حجة الله على الخلق أجمعين وارث علوم الانبياء والمرسلين المحفوف بعناية الملك المعين أبي المناقب شمس الدين محمد ابن المرحوم شيخ الاسلام والمسلمين قدوة الفقهاء والمحدثين طاهر ، الاذن بنقلها المشار اليه أعلاه الاتصال الشرعي .

فعند ذلك عين مولانا الامير محمد الواقف المشار اليه اعلاه أن يكون جملة هـذا الوقف مشاعا وان يصرف على عمارة النبي نوح عليه السلام وعلى عمارة أماكنه وعلى عمارة أوقافه والقرار فيها وما فيه التماس المزيد في الوقف . ثم على تنويره وفرشه ثم على مطبخه في ثلاثة أشهر شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان المعظم واطعـام العبدين والواردين والمنقطعين، ثم على المتولي والناظر عليه ثم على خدامه وأرباب شعايره حيث أنه لايزاد ولايحدث على الوظايف الآتي ذكرها وهي : امام وخطيب والمؤذنين وقيم وتريدار وكاتب وجابي ومن يتعاطى مصالح المطبخ والطبخ ولوازمه ومن يخدم الاسمطة والماء وذلك كله يكون تبعا للمتولي والناظر المزبور ينصب لذلك من يختاره ويرضاه ويصرف ذلك بحسب ما يراه مفوض في ذلك حسب ما عينه الواقف المشار اليه . ثم أشـرط التولية والنظر على وقفه لمولانا وسيدنا السيد الشريف علوان ابن المرحوم السيـد الشريف علي ابن المرحوم السيد الشريف حسين الحسيني المشار اليه اعلاه ، ثم من بعد لاولاده واولاد اولاده وأولاد أولاد اولاده وأعقابه وانساله ابدا ما داموا ودايمـا ما بقوا للارشد في الارشد منهم وعلى ان لاتوجه خدمة ولا وظيفة الا لمن يرضاه المتولـي منهم وان لاتزاد على هذه الوظايف المذكورات ولا يحدث عليها ، وعلى أن وقفه لايؤجر لمتغلب ولا لذوي شوكة بل يؤجر سنة بسنة لمن يرضاه المتولي المزبور وان فضل شيء

عـن ذلـك فللمتولـي المزبـور ان خـاس ؟ في سنـة مـن السنيـن عن المصروفات المزبـورة فليستديـن المتولـي علـى المستقبـل بحسـب ما يـراه . وان وقفـه لا يداخله حاكم ولا محاسب في محاسبة أو في توجيه وظيفة بل انـه مفوض الـى راي المتولي المزبور او الى راي من يكون من ذريته بالتفويض الشرعي وتعويضا شرعيين في ذلك لذلك ومن بدله اوتعداه فعليه لعنه الله ثم لعنة الله ثم لعنه الله والملايكه والناس اجمعين « فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه »(٩٠) « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد »(٩١) .

وجرى ذلك بحضور الحاج عبد القادر بن كحيل والحاج محمد ابن الشيخ عراق بالصنهاجي(؟) وبحضور الآخرين هما عواد بيك وعلي بيك أولاد المرحوم الامير محمد عم الواقف المشار اليه وصدقوا على صحة هذا الوقف وشروطه وانه صدار فعله (؟) في محله . وقبل منهم ذلك السيد علوان المتولي المشار اليه القبول الشرعي وتصادقوا على ذلك كله التصادق الشرعي تحريرا في اليوم المبارك الثاني عشرين شهر رجب الفرد سنة خمس وتسعماية (سنة ٩٥٠ / ١٥٤٣ م) وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وآلـه وصحبـه وسلـم .

وبه شهد علي مولانا الواقف بما صدر لـدى الحاكم علـي بن محمـد الحسيني

وبه شهد مولانا الشيخ
شمس الدين محمـد
محمد العدوي

محمد حمزه الحسيني

علي بـن يوسف

الامير حسين بن الحرفوش

المقدم علي بيدمـر

الشيخ عدي بن عمر شيخ
قريـة بـر الياس

عمر الخطيب بقرية المـرج
علي بن شمس الدين الخطيب

الشيخ محمد بن الشيخ علي البقاعي

محمد بن نور الدين
من أفقر الورى

الشيخ محمد القاضي شيخ قرية المرج
فخر الدين السعداوي

محي الدين عثمان العباسي

الحكم السلطاني الشريف

رقم ١٤٨٧ تاريخ ١٧ صفر سنة ٩٧٨ هـ / ١١ تموز ١٥٧١ م

من دفتر المهمة رقم ١٤ ، ص ١٠٠٠

حكم الى أمير أمراء الشام وقاضيها ودفتردارها :

بناء على دفتر القضايا الذي أرسلته الى سدتنا السعيدة (سدة سعادتنا) بصفتك دفتردار والذي تذكر فيه ان المقدم المدعو محمد بن حنش ملتزم مقاطعة خواص كرك نوح والشوف في ولاية الشام سابقا الذي كان بذمته ١٣٣٣٤ قطعة ذهبية قد الى الى الشام في زمن أمير أمراء الشام (السابق) مراد دام اقباله (وأمن) ثلاثة ـ أربعة آلاف قطعة ذهبية لاجل تسليمها . الا ان أمير أمراء المذكور سجنه في المدينة في تلك الاثناء وقتله بدعوى عصيانه (تمرده) . كما تذكر بأن المباشرين الذين كانوا معه قد بلعوا (أكلوا) وكتموا الاموال والارزاق وما كان سيسلم الى الخزينة من نقود ولم يسلم أقجة واحدة للخزينة وبقيت هذه النقود بدون تسليم .

والان فقد أمرنا :

عند وصوله ، عليك بالتفتيش شخصيا وبشكل محكم وذلك بمقتضى الشرع الشريف على النقود الموجودة في ذمة المذكور الذي مات قبل تسليمها . واذا كان المباشرون قد نهبوها فعليك بتحصيل واخذ المبالغ والاموال الميرية دون نقص من اي شخص تكون في يديه . وعليك أيها الدفتردار بقبض المال الميري وضبطه واعلامنا عن مقدار المال الميري الموجود في ذمة مراد دام اقباله لتطلب منه .

الحواشي :

(١) انظر شهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري(ت ٧٤٢ هـ/١٣٤١ م) ، التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة ، القاهرة ، ١٣١٢ ، ص ١٧٩، وانظر ايضا احمد بن علي القلقشندي ، (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨م) ، صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، م٤، نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية،وزارةالثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٣،م٤،ص ١٠٨ – ١١١ .

(٢) القلقشندي ، المصدر نفسه ، م٤ ، ص ٢٠١ .

(٣) راجع مقالة :

Francis Hours, S.J. and Kamal Salibi, «Muhammad Ib al-Hanas Muqaddam de la Biqa, «1499-1518» Melanges De l'Universite Saint-Jouseph, Fasc. 1. Tome XIII (1968) pp. 3-23.

(٤) ولاه الظاهر برقوق نيابة السلطة بملطية سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م ، فجمع حوله التركمان واظهر العصيان ، التف حوله عدد من امراء المماليكالبحرية ، وعناصر العشير وخاصة عشائر نعير ، عاث ببلاد الشام الى أن تم القضاء عليه بمكيدة سنة ٧٩٥ هـ / ١٣٩٢ م ، حول حياته راجع شهابالدين أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨ م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٥ م ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ،القاهرة ، ١٩٦٦ ، م ٥ ، ص ١٣٤ – ١٣٦ . راجع ايضا علاء الدين علي ابن خطيب الناصريةالحلبي ، (١٤٣٨/٨٤٢ م) الدر المنتخب في تاريخ حلب ، مكتبة دار الاوقاف الاسلامية بحلب ،رقم ١٠٢١٢ ، م ١ ، ورقة ١٩٩ (ب) أو صفحة ٢٤٥ وما بعـد .

(٥) سيف الدين يلبغا الناصري : تولى نيابة حلبفي أول دولة الصالح حاجي بن الاشرف ، وبنى في حلب جامعا ، عزله برقوق وسجنه بالاسكندريةواعاده الى حلب سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٩ م ، شارك منطاش في حركته ثم اختلف مع منطاش ، وتصالح مع برقوق ، حول حياته راجع ابن حجر ، المصدر نفسه ، م ٥ ، ص ٢١٥ – ٢١٨ . لمزيد منالمعلومات عن حياة يلبغا راجع ايضا علاء الدين علي بن خطيب الناصرية الحلبي الدر المنتخب فيتاريخ حلب ، مكتبة دار الاوقاف الاسلامية بحلب ، رقم ١٠٢١٢ ، م٢ ، ص ٤٢٨ .

(٦) ابن تغري بردى ، جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩ م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، م ١١ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ،وزارة الثقافة والارشاد القومي ، لا . ت . ص ٣٢٧ ومـا بعـد .

(٧) حول حركة منطاش راجع محمد بن صصرى ت اواخر القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ؟) ، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، نشره مع ترجمة انكليزية له William M. Brinner ٢ م ، جامعة كاليفورنيا ١٩٦٣ ، م١ ص ١٣٩من النص العربي ، كذلك راجع اخبار هذه الحركة لدى تقي الدين أحمد بن علي ، المقريزي (ت٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الثالث ، القسم الثاني ، حققهسعيد عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، اخبار ٧٨٩ هـ/

١٣٨٧ م وما بعد ، في ص ٥٦٧ وما بعد ، كذلك راجع جمال الدين يوسف بن تغري بردى (ت ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م) النجوم الزاهرة في دول ملوك مصروالقاهرة ، م ١١ ، وم ١٢ ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ،م ١١ ، ص ٣١٩ — وما بعد ، م ١٢ ، ص ١ — ، كذلك راجع ابن صصري ، المصدر نفسه ، م ١، ص ٧ .

(٨) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، م ١ ، ص ٧ .

(٩) راجع ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ، ص٢٨٩ ، ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ وما بعد .

(١٠) راجع صالح بن يحيى (ت ٨٤٠ هـ/١٤٣٩م)م) تاريخ بيروت : اخبار السلف من ذرية بحتر بن علي امير الغرب ببيروت ، حققـه فرنسيسهورس اليسوعي وكمـال سليمـان الصليبي ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٢١٥ ، الخبريرد مفصلا بشكل اوسع لدى اسطفان الدويهي ،(ت ١٧٠٤) ، تاريخ الازمنة ، تحقيق الاب فردناند توتل اليسوعي،المطبعة الكاثوليكية ، بيروت،١٩٥٠، ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(١١) المقريزي ، المصدر نفسـه ، ج٣ ، ق٢ ، ص٦٧٣ ، ابن تغري بردى ، المصدر نفسه م١١ ، ص ٣٦٠ — ٣٦١ ، ص ٣٦٣ ، ص ٣٦٥ .

(١٢) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ق٢ ، ص ٦٩٢ — ٦٩٥ .

(١٣) المقريزي ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٦٩٥ ، ابن تغري بردى ، المصدر نفسه ، م ١١ ، ص ٣٧١ .

(١٤) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ٥٧ .

(١٥) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٥٨ .

(١٦) ابن صصرى ، المصدر نفسه ، ص ٥٧ — ٥٨ .

(١٧) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١٨) ابن صصرى ، المصدر والمكان نفسهما .

(١٩) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ — ٩٠ .

(٢٠) نعير بن حيار بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضية بن فضل بن ربيعة الامير شمس الدين ، امير آل مهنا بالشام ، كان اميرا مهيباولي امرةالعرب مدة سنين.كانت معظم اقامتهبسلمية. قتله نائب حلب في شوال سنة ٨٠٨ هـ / آذار ١٤٠٦ م ، وبموته انكسرت شوكة آل فضل وولي الامرة من بعده ابنه العجل ، راجع عنه الترجمة الوافية لدى ابن خطيب الناصرية ، الدر المنتخب ، م٢، ص ٢٣٣ — ٢٣٦ ، وراجع ترجمته لدى شمس‌الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢ هـ/ ١٤٩٧ م) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، ١٢ م نسخة مصورة منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، لا . ت م٩ ، ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ، راجع ايضا مصطفى الحياري ، الامارة الطائية في بـلاد الشام ، عمان ، ١٩٧٧ ، ص ٧٦ — ٧٨ .

(٢١) كانت كلا من قريتي عذرا وضمير من ناحية المرج وتفيدنا احصاءات دفاتر الطابو عن سكان تلك القريتين انهما كانتا على النحو التالي :

	(ط . د ٤٠١)			(ط . د ٣٦٣)			(ط . د ٤٧٤)		
	خانة	مجرد	امام	خانة	مجرد	امام	خانة	مجرد	امام
أ – قرية ضمير	٢٠٠	٩	١	٢٥١	—	١	١٧٥	—	—
ب – قرية عذرا	١٥٦	٤	١	١٩٩	—	١	١٣٦	٣٢	٢
	ص ٨٥ – ٩٢			ص ٢٢٢ – ٢٢٧ ، ٥٢٨ – ٥٣٠			ص ٥٦٥ – ٥٦٧		

(٢٢) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ .

(٢٣) ابن صصري ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(٢٤) صالح بن يحيى ، المصدر نفسه ، ص ٢١٥ – ٢١٦ .

(٢٥) صالح بن يحيى ، المصدر نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٢٦) اسطفان الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٠٨ ، انظر أيضا كمال سليمان الصليبي ، منطلق تاريخ لبنان ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٥٢ .

(٢٧) شمس الدين محمد بن طولون ، (ت ٩٥٣ هـ/١٥٤٦ م) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، م٢، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، ١٩٦٢ – ١٩٦٤ ، م١ ، ص ١٦٧ – ١٦٨ .

(٢٨) ابن طولون ، مفاكهة الخلان م١ ، ص ٢١٢ ، انظر أيضا : اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٦٤ ، ص ٩٥ – ١٩٦ .

(٢٩) المصدر نفسه ، م١ ، ص ٩٣ .

(٣٠) كانت قرية قب الياس في القرن السادس عشر تابعة لناحية قورنه من سنجق (لواء) الشام ، وكان تعداد سكانها على النحو التالي

	(ح ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ط . د ٣٤٠	(ح ٩٢٧ هـ/١٥٣٠ م) ط . د ٣٨٣	(ح ٩٥٠ هـ/١٥٤٣ م) ط . د ٤٠١	(٩٧٧ هـ/١٥٦٩ م) ط . د ٤٧٤
خانة	٨٥	١٢٥	١٤٠	١٢٠
مجرد	٢٢	١٥	٦٥	—
امام	١	٢	٢	—
أعمى	١	—	—	—
	ص ١٤٦	ص ١٧٩	ص ٢٤٧	ص ٢٩٨ — ٣٠٠

(٣١) حول قرية زنتون راجع القائمة المرفقة لفهارس قرى كرك نوح . رقم ٢٢ .

(٣٢) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ١١٤ — ٢١٥ ، اعلام ، ص ٩٥ ، ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣٣) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٢٤ ، أعلام ، ص ١٠١ .

(٣٤) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٤٥ .

(٣٥) ابن طولون ، أعلام ، ص ١٣٦ ، ص ١٣٩ .

(٣٦) ابن طدلون ، اعلام ، ص ١٣٦ ، ص ١٣٩ .

(٣٧) ابن طولون ، أعلام ، ص ١٦١ ، الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٤٥ ، لاحظ ان الدويهي يجعل تاريخ خروج والي دمشق قانصوة المحمـوي سنة ٩٠٨ هـ / ١٥٠٢ م ، اما قرية مشغرا في القرن السادس عشر فكانت تابعة لناحية شوف البياض وكانت احصاءات سكانها على النحو التالي :

	ط . د ٤٣٠ ص ٢١٣	ط . د ٣٨٣ ص ٦٣١	ط . د ٤٠١ ص ٢٨٢ — ٢٨٤	ط . د ٤٧٤ ص ٩١٧
خانة	٨٣	٣٨٩	٤٠٨	٢٧٣
مجرد	٧	٢٦	٢	٢٣
امام وخطيب	٢	٢	٢	١

(٣٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٣٩) شيحين : تقع الى الجنوب الشرقي من صور وعلى بعد ٢٠ كم . وكانت في العهد المملوكي جزءا من ولاية صور . أما في العهد العثماني فكانت تابعة لناحية تبنين من لواء صفد ، راجع طه الطراونة ، مملكة صفد في عهد المماليك ، دار الافاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٠٣ ، راجع ايضا

Harold Rhode, **The Administration and population of the Sancak of Safad in the sixteenth century**, ph.D. Thesis, Columbia University, 1979.pp.77:

حول اصل اسرة بشارة ودورها في تاريخ جبل عامل كاسرة شيعية متنفذة منذ مطلع العهد البرجي في بلاد الشام ، راجع طه الطراونة ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ — ٢٢٤ .

(٤٠) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٢٦ .

(٤١) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ١٧٧ ، ٢٧٨ ، اعلام ، ص ١٦٣ .

(٤٢) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٦٧ .

(٤٣) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ١٩٢ — ٢٩٣ ، اعلام ، ص ١٧٧ ، حول حياة جان بردي بن عبد الله الغزالي (ت ٩٢٧ هـ / ١٥٢٠ م) راجع الغزي ، الكواكب ، م١ ، ص ١٦٨ — ١٧١ . اما قبة يلبغا اليحياوي او قبة الحاج ، الواقعة بقرب قرية القدم جنوبي دمشق فكانت محطة لاستقبال الحجاج وكبار المسؤولين ، بنيت في عهد والي الشام يلبغا اليحياوي ٧٤٦ — ٧٤٨ هـ / ١٣٤٥ — ١٣٤٧ م ، راجع :

M.A. Bakhit. **The Ottoman Province of Damascus**, p. 113:

(٤٤) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٣٠٤ ، اعلام ، ص ١٨٣ ، حول حياة سيباي امير امراء دمشق مرتين ونائب حلب سابقا ، راجع اعلام ، ص ١٧٥ وما بعد .

(٤٥) ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٣٠٥ .

(٤٦) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٩٨ .

(٤٧) ابن طولون ، اعلام ، ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٤٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ١٩ .

(٤٩) ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ٢٦ .

(٥٠) ابن طولون ، مفاكهة الخلان ، م٢ ، ص ٣٢ . لم اتبين ما المقصود « بلخيرة ابن السلطان » فمن المعروف ان خط ابن طولون دقيق وان محقق المفاكهة قد اخطأ في اكثر من مكان في قراءة النص .

(٥١) حول دور وتاريخ هذه الاسرة راجع عدنان البخيت ، « الاسرة الحارثية في مرج بني عامر ، ٨٨٥ هـ/ ١٤٨٠ م — ١٠٨٨ هـ / ١٦٧٧ م » ، الابحاث ، م ٢٨ ، ص ٥٥ — ٧٨ .

(٥٢) انظر ابن طولون كما أورده محمد بن عيسى بن محمود بن كنان الدمشقي الصالحي (ت ١١٥٣هـ/ ١٧٤٠ م) ، في كتابه : حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين الذي نشر محمد احمد دهمان جزءا منه ملحقا لكتاب ابن طولون اعلام الورى ، ص ٢٩٠ .

(٥٣) هذه الرسالة محفوظة بمكتبة طوب قبو تحت رقم ٦٣٤١ وتجد ترجمة لها ملحقة بهذه الدراسة . والجدير بالذكر ان السلطان سليم كان قد غادر القاهرة يوم الخميس ٢٣ شعبان سنة ٩٢٣ هـ / ١٠

ايلول١٥١٧م .انظر محمدبن احمدبن اياس الحنفي ، (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ٥ م ، حققه محمد مصطفى ، م ٥ ، القاهرة .١٩٦٠ ، ص ٢٠٦ . اما موسى التركماني فهو على الاغلب الشخص الذي تذكره دفاتر الطابو ، والذي عهدت اليه الدولة العثمانية في مطلع عهدها ببلاد كسروان . راجع :

M.A. Bakhit, The Ottoman Province of Damascus, p:176:

(٥٤) يونس باشا : احد وزراء السلطان سليم ، تسلم مدينة دمشق سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م . كما ارسله السلطان سليم لمطاردة ابن ساعد الغزاوي بمنطقة عجلون . شارك في فتح مصر حيث يذكره ابن اياس بقوله : « وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية بخلاف طبع التراكمة وكان قرره اولا في ان يكون نائبا عنه بمصر ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك في النيابة وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان الى الغاية بخلاف بقية الوزراء » قتله السلطان سليم في شعبان وهو في طريقه الى بلاد الشام في الخطارة واخذت امواله التي كانت بدمشق للسطان سليم . انظر ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ٤٣ – ٤٤، ص ٦٧ ، ابن اياس ، بدائع ، م ٥ ، ص ٢١٠ – ٢١١ .

(٥٥) على الاغلب يقصد بذلك شهاب الدين احمد بن يخشى اوغلو ، تولى دمشق في رمضان سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ م ، سكن في منزل سنطباي بدمشق ، يذكر الشيخ عبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي (ت ٩٢٧ هـ/١٥٢٠م) انه كان قد زاره في خيمته شمالي مصلى العيدين « قرأه محتشما وروى له عدة احاديث » عزله السلطان سليم في شوال سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م فسافر الى اسطنبول ، انظر ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ٣٥ ، ص ٤٠ ، ص ٦٢ ، ص ٧٠ .

(٥٦) سنطباي - بدأ عمله في دمشق كنقيب لقلعتها ثم يذكر في اخبار سنة ٩١٧ هـ/١٥١١م ، انه كان يعمل نائبا لنفس القلعة ، ثم ترقى ليصبح سنة ٩١٩ هـ / ١٥١٣ م حاجب الحجاب وامير الحاج ويذكر انه اعيد ثانية لمنصب الحجوجية سنة ٩٢١ هـ / ١٥١٥ م ، واحتفظ بهذا المنصب الى حين انهزام المماليك . راجع ابن طولون ، مفاكهة ، م١ ، ص ٣٥٤ .

(٥٧) حول نص هذه الرسالة المحفوظة تحت رقم ٦٣٤١ راجع ترجمتها العربية الملحقة بهذه الدراسة .

(٥٨) ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ١٦٢ .

(٥٩) ابن طولون ، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، ٢م ، تحقيق محمد احمد دهمان ، دمشق ، ١٩٤٩ ، ١٩٥٦ ، م١ ، ص ٢٧١ .

(٦٠) محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الدمشقي (٨٧٨ هـ/١٤٧٣ م – ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م) من اقطاب الصوفية في بلاد الشام ، رابط ببيروت وتوفي بمكة . حول حياته راجع نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة ، م١ ، ص ٥٩ – ٦٨ .

(٦١) انظر ترجمة الرسالة في الملحق .

(٦٢) ابن طولون ، مفاكهة ، م٢ ، ص ٧٧ ، ص ٧٩ ، اعلام ، ص ٢٢٦ .

(٦٣) راجع نص الرسالة وهي ركيكة اللغة ، وبخط سيء جدا ومشوش ، تحت رقم ١٠٧٣٤ من محفوظات طوب قبو وملحقة بهذه الدراسة .

(٦٤) ابن طولون ، اعلام ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٦٥) ابن طولون ، اعلام ، ص ٢٢٣ .

(٦٦) ابن طولون ، أعلام ، ص ٢٣٣ .

(٦٧) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٣٦ .

(٦٨) حول حياة الامير منصور بن عساف (ت ٩٨٨ هـ / ١٥٨٠ م) راجـع

M. A. Bakhit, The Ottoman Province of Damascus, pp. 176-9.

كذلك انظر الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٦٩) الدويهي ، تاريخ الازمنة ، ص ٢٥٤ ، ٢٨١ .

(٧٠) انظر T.D 543 ، ص ٥٣٧ — ٥٣٨ ، والجدير بالذكر انه بموجب T.D. 177 تاريخه ١٠٠٥هـ هـ/١٥٩٦ م ان هذه القرية خصصت لكيوان بن عبد الله وشخص اخر باسم حسن عبد الله ، ٢٤١ ، راجع قائمة قرى كرك نوح المرفقة .

(٧١) راجع ترجمة الحكم المرفقة بهذه الدراسة .

(٧٢) الاخبار عن هذه الاسرة في حمص عبارة عن اخبار شخصية من زواج وطهور وما الى ذلك ، انظـر مخطوط محمد مكي بن السيد : مذكرات احد ابناء حمص ١١٠٠ — ١١٣٥ هـ/١٦٨٨ — ١٧٢٢ م ، الجامعة الامريكية ببيروت ، المحفوظة تحت رقم T 181/956.9 ، ص ٢١٥ ، ص ٣٥٣ ، ص ٤٠٧ ، ص ٤١٤ — ٤١٥ ، ولقد قام عمر العمر بتحقيق هذا المخطـوط كجزء من رسالته للماجستير تقـدم بها لقسم التاريخ بجامعة دمشق سنة ١٩٧٦ ، ص ١٣١ ، ٣٦٤ ، ٤١٤ .

(٧٣) انظر على تسبيل المثال محمد محمد امين : الاوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ هـ — ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ — ١٥١٧ م ، دراسة تاريخية وثائقية ، القاهرة ، ١٩٨٠ ، فهرست وثائق القاهرة حتـى نهاية عصر سلاطين المماليك ، ٢٣٩ — ٩٢٢ هـ/٨٥٣ — ١٥١٦ م منشورات المعهد العلمي الفرنسـي للاثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨١ . انظر ايضا مقالة محمد محمد امين ، « الشاهد العدل في الشرع الاسلامي : دراسة تاريخية مع نشر وتحقيق اسجال عدالة من عصر سلاطين المماليك » العارة ، عدد ٢ ، مج ٨ ، (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م) ، ص ١٢٦ — ١٥٧ .

(٧٤) انظر كتاب الوزير لالا مصطفى باشا ويليه كتاب وقف فاطمة خاتون بنت محمد بك بن السلطان الملك الاشرف قانصوه الغوري ، حققه خليل مردم بك ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ١٩٢٥ ، وقف سنان باشا (ت ١٠٠٤ هـ/١٥٩٥ م) دمشق . لا . ت . ، اوقاف واملاك المسلمين في فلسطين في الوية غزة ، القدس الشريف ، صفد ، نابلس ، عجلون حسب الدفتر ٥٢٢ من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن العاشر الهجري ، تحقيق محمد ابشرلي ومحمد داود التميمي ، استانبول ، ١٩٨٢ .

(٧٥) راجع كتاب وقف الوزير لالا مصطفى باشا ، ص ٧٩ – ٨٤ .

(78)* B. Lewis, « Studies in the Ottoman Archives. » Nazareth in the Sixteenth Century According to the Ottoman Tapu Registers ». « Jafa in the 16th Century, According to the Ottoman Tahrir Registers.
« Notes and Documents From the Turkish Archives: A Contribution to the History of the Jews in the Ottoman Empire.»

وهذه المقالات جمعت ونشرت معا مع دراسات اخرى تحت عنوان :

Studies in Classical and Ottoman Islam (7th - 16th Centuries».
Variorum Reprints, London. 1976.

وانظـر ايضـا

Wolf-Dieter Hutteroth and Kamal Abdulfattah, **Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in 16th Century,** Erlangen. 1977.

وانظـر ايضـا

Amnon Cohen & Bernard Lewis.
Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century, Princeton University Press, 1978.

ففي هذه الدراسات مادة وافية عن الضرائب يمكن الرجوع اليها من اجل استيضاح ما جـاء في الجداول المرفقة .

(٧٩) آية رقم ٢٦١ من سورة البقرة .

(٨٠) « لا يضيع اجر المحسنين » ذكرت ثلاث مرات في القرآن الكريم ، في اية ١٢٠ من سورة التوبة ، في اية ١١٥ من سورة هود ، وفي اية رقم ٩٠ من سورة يوسف .

(٨١) لم اعثر له على ترجمة .

(٨٢) السيد علوان لم اعثر له على ترجمة .

(٨٣) حول مقام النبي نوح في كرك البقاع انظر علي بن ابي بكر الهروي (ت ٦١١ هـ/١٢١٤ م) كتـاب الاشارات الى معرفة الزيارات ، نشرته جانـين سورديل – طومين، دمشق، ١٩٥٣، ص ١٠ ، وانظر تفاصيل اكثر لدى الشيخ عبد الغني النابلسي (١١٤٣ هـ / ١٧٣٠ م) ، حلة الذهب الابريز في رحلة بعلبك والبقاع العزيز ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المعهد الالماني للابحاث الشرقية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٩٢ – ٩٤ ، نشرت الرحلة مع رحلة المطيفي باسم رحلتان الى لبنا ن.

(٨٤) حول الطواحين على نهر البردون راجع كشف اسماء القرى والمزارع وقطع الاراضي واصنـاف الضرائب في الجدول المرفق .

(٨٥) حول تربل راجع جدول اسماء القرى قرية رقم (١٢) ، انظر ايضا عفيف بطرس مرهج ، اعرف لبنان ، موسوعة المدن والقرى اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ ، م٣ ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢ .

(٨٦) حول الفرزن راجع كشوف اسماء القرى رقم ٣٠، انظر عفيف مرهج، المرجع نفسه. م٨، ص٧٠ـ٧٢.

(٨٧) حول رعيث راجع كشوف اسماء القرى رقم (٢) .

(٨٨) حول حشمش راجع كشوف اسماء القرى رقم (١٨) .

(٨٩) تنكز ، ابو سعيد سيف الدين تنكز الحسامي (ت ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م) ، ولي نيابة دمشق سنة ٧١٢ هـ/١٣١٢ م ـ ٧٤١ هـ/١٣٤٠ م ، كان صاحب نفوذ كبير لدى السلطان الناصر محمد ،وشهد كلا من معركتي وادي الخازندار ومعركة شقحب، والذي يهمنا هو انه كان وراء بناء وتجديد عدد من المساجد والمدارس والترب اوقف عليها عددا من القرى وقطع الاراضي والمزارع . كما انه وسع الطرقات وجدد القنوات ، صادره السلطان سنة ٧٤٠ هـ/١٣٤٠ م . تذكر المصادر املاكه في دمشق وحمص وبيروت والبقاع وبقارا بالتفاصيل اما فيما يتعلق باملاكه في كل من صفد وعجلون والقدس ونابلس والرملة وجلجولية والديار المصرية فلم تفصلها . حول حياته راجع محمد بن شاكر الكتبي ، (ت ٧٦٤ هـ/١٢٦٢ م) ، فوات الوفيات والذيل عليها ، م٤ تحقيق احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، م١ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٨ ، انظر أيضا شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨ م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٥ م ، تحقيق محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، م٢ ، ص ٥٥ ـ ٦٢ ، راجع ايضا حياة ناصر الحجي ، « الامير تنكز الحسامي نائب الشام » من منشورات حوليات كلية الاداب ، جامعة الكويت ، ١٩٨٠ م .

(٩٠) اية رقم ١٨١ من سورة البقرة .

(٩١) اية رقم ٣٠ من سورة ال عمران .



تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين ١٩٠٠ ـ ١٩١٨م

د. سهيلة الريماوي
الجامعة الاردنية

لمحة تاريخيـــة :

ان سنة ١٩٠٢ تفرض نفسها بصورة موضوعية كنقطة بداية لمرحلة جديدة فـي تاريخ الامبراطورية العثمانية هي مرحلة تبلور ((مفهوم اللامركزية)) ، والمطالبة بتطبيق ((اللامركزية)) في مواجهة ((المركزية الشديدة)) التي كانت تطبقها الدولة العثمانية في ارجاء الامبراطورية .

وطرح مصطلح ((عدم مركزيـت)) او اللامركزية لاول مـرة في مؤتمـر الاحـرار العثمانيين الذي عقد في باريس في هذه السنة ايضا (١٩٠٢) ، أما تعريف اللامركزيـة فهي تعني من الناحية الاجتماعية : رد الاشياء الى نصابها الطبيعـي ... وتعني مـن الناحية السياسية : توزيع السلطة الادارية على المراكز المختلفة التي يتالف منها الجسم السياسي ـ الاجتماعي ، عوضا عن حصرها في جزء واحد مركزي ، ليتيسر لكل جـزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم ، مع حفظ الصلة بالمركز حرصا علـى مصلحة الكـل .

لقد كان تبلور هذا المفهوم اللامركزي وليد حركة طويلة المدى ، يتطلب البحـث العلمي مواكبتها طيلة القرن التاسع عشر ، على الاقل ، باعتبار ان هـذا القـرن كلـه وحدة متكاملة ، ذلك ان الاحداث السياسية والاقتصادية والعسكرية والفكرية ، تكون في هذا القرن مرحلة خاصة ومتميزة من مراحل تاريخ الامبراطورية العثمانية .

لقد شهد هذا القرن منذ بدايته وحتى نهايته ، سلسلة متماسكة الحلقـات مـن الصراعات والتناقضات ، نتجت عن تفاعل ثلاث حركات تاريخية ضخمة ، تعد بمثابـة السمات الرئيسية لهذا القرن وهي :

القي هذا البحث في اليوم العلمي لكلية الاداب، الذي اقيم في الجامعة الاردنية بتاريخ ١٩ نيسان ١٩٨٢

أولا : حركة اليقظة القومية ، عند الاقوام التي تتكون منها الامة العثمانية .

ثانيا : حركة الراسمالية الاوربية النامية والغازية وتطورها السريع الى حركة استعمارية تبحث لاهثة عن المواد الخام والاسواق لتستغل الثروات الطبيعية والبشرية اسوا استغلال .

ثالثا : حركة محاولة اصلاح الامبراطورية العثمانية واوضاعها ، مع محاولة تقوية السيطرة المركزية للدولة ، وخاصة على المنطقة العربية .

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسية بدات تظهر بوادر الوعي وحركات الاصلاح والتغير والتمرد في أنحاء الامبراطورية ، كما بدات تظهر وسائل نقل ونشر ذلك الوعي وهذه الحركات ، من مدارس وصحف ومطابع وتأسيس جمعيات . . . الخ . وقد تفاعلت تلك الحركات الثلاث كعوامل اساسية مع عوامل اتساع الثقافة وازدياد وسائل انتشارها .

واخذت ارجاء الامبراطورية منذ مطلع القرن التاسع عشر ـ بل قبل ذلك ـ تموج بأفكار وتيارات تعبر عن التمرد على الوضع في الامبراطورية بجميع معانيه من ـ استبداد وتسلط وتخلف وجمود ـ وبصفة خاصة بلاد الوطن العربي ، ومهما كانت الصيغ والشعارات التي ارتفعت في ربوع الامبراطورية ، اصلاحية كانت أو ثورية ، فان جوهر هذه الصيغ والشعارات والتحركات كان يدور حول مشكلة الاستبداد والتسلط ، وحول حقوق القوميات والتشبث بالمساواة في الحقوق السياسية ، اي حول مفهوم اللامركزية وتطبيقه ، مهما اختلفت الاسماء .

وكانت الحركة الوهابية في الجزيرة العربية اشد هذه التيارات واعنفها ، وبالرغم من انها حركة دينية ، الا انها في الوقت نفسه كانت ذات مضمون قومي ـ سياسي ـ لا مركزي .

وكان من بين هذه التيارات ، تيارات تتحدى سيطرة الامبراطورية وتسعى للاستقلال عن الباب العالي ، حتى لو ابقت على خيط رفيع من التبعية الشكلية للخليفة أمير المؤمنين ، ولعل حركة محمد علي واصلاحاته في مصر ابرز مثل على تلك التيارات، خاصة بعد اعلان الحرب على سورية ووصوله الى كوتاهيه مهددا عاصمة الخلافة .

وكان ثمة تيارات لاتنادي بالاستقلال عن الدولة او الانفصال عنها ولكنها تطالب بالاصلاح الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الدستوري ، ومثال ذلك التيار الذي تبلور في وضع نظام اداري خاص للبنان بعد حوادث سنة ١٨٦٠ فمنحه كثيراً من الامتيازات .

وثمة تيارات أخرى كانت تنكر حق السلطان العثماني في الخلافة الاسلامية وامارة المؤمنين ، كالتيار الذي قام في اليمن ، فقد انكر الائمة الزيديون على آل عثمان التلقب بلقب امير المؤمنين ، وتمادوا في تحديهم بأن اطلقوا اللقب على أئمتهم ، ايمانا منهم بأن الخلافة لقرشي عامة ولزيدي بصورة خاصة .

وقد بدأ سلاطين آل عثمان مع مطلع القرن التاسع عشر ، يخشون النتائج السياسية التي قد تنشأ عن حركة الاصلاح في العقيدة ، وهي الحركة الوهابية ، والنتائج السياسية التي تنبع عن حركة الاصلاح العلمية والعسكرية ... التي قام بها محمد علي في مصر ، ومما زاد في خطورة الحركتين المذكورتين ان مجالهما كان الولايات العربية ، وكان السلطان محمود قد ساورته الريب في موقف هذه الولايات عن الادارة المركزية ، فتمكن بسلسلة من التدابير ان يشدد قبضة الدولة على اطراف الامبراطورية بعد ان تمكن من الغاء الاستقلالات الذاتية والاقطاعيات ، وتمكن من ضرب القوتين الناشئتين احداهما بالاخرى ، حيث كلف محمد علي والي مصر ، بالقضاء على الحركة الوهابية في الجزيرة العربية .

كما حاول السلطان محمود اصلاح الادارة والقضاء فأقدم على اختصار عدد الايالات ودمجها في أربع ايالات ــ بعد أن كان عددها ١٨ ايالة ــ ليتمكن من تطبيق سياسة مركزية قوية في البلاد ويضمن السيطرة على انحاء الامبراطورية .

ثم بدأ عهد التنظيمات في الامبراطورية باصدار مرسومين سلطانيين : سنة ١٨٥٦ . (خط كلخانه الهمايوني) سنة ١٨٣٩ ، و (منشور التنظيمات الخيرية) ثم صدرت عدة قوانين تنفيذا لاحكام هذا المنشور الاخير ، كان اهمها قانون الولايات الذي سنته الدولة في عهدالسلطان عبد العزيز سنة ١٨٦٤ ، وحددت فيه صلاحيات كل من الولاة والمتصرفين والقائمقامين .

ولم يكتف طلبة الاصلاح من الشباب بمفهوم الاصلاح واجراءاته التي باشرها السلاطين فبدأت تنمو حركة المطالبة بالدستور بزعامة مدحت باشا . وقد لمس الاحرار العثمانيون أهمية العامل الاقتصادي والوضع الاجتماعي ، ناهيك عن الوضع

السياسي ، في الدولة العثمانية ، وأشار برنامج مدحت باشا الى أن : « التبذير في الدولة قد بلغ درجة لا تطاق ، فان نظارة المالية ترسل الاموال الى السلطان الذي يصرفها في ملذاته » وأشار الى كيفية شراء الوظائف : « فالنظار يبيعون الوظائف بيع السلع ، فالوالي يشتري وظيفة من الصدر الاعظم ويذهب الى الولاية فيستغل أهلها بانواع الظلم حتى خربت الولايات » .. ثم يشير بيان مدحت باشا الى الحل وهو : « تبديل الادارة الحالية » ويطرح طريقة التبديل : « عن طريق انشاء مجلس نيابي وجعل النظار مسؤولين امامه وان يكون هذا المجلس مجلسا قوميا ، فلا يفرق في انتخابه بين المذاهب وان يوضع في الولايات تحت المراقبة الشديدة فلا يعبثوا بمصالح الرعية » .

ونادت حركة الاحرار العثمانيين بشكل عام : بتوسيع المأذونية ، وبأن الشورى هي الطريق الصحيح لحفظ الامبراطورية ، وان لا أمل للدولة العثمانية بحياة حرة شريفة الا باعلان الدستور .

وهكذا انفجر الصراع بين الاحرار العثمانيين وبين الحكومة العثمانية التي كانت تحاول جاهدة السيطرة على الامبراطورية المترامية الاطراف المتعددة القوميات . وكان الخط الواضح لسياستها هذه هو تشديد الحكم المركزي وتسخير ما تم من اصلاحات في هذه الفترة لتدعيم هذه السياسة المركزية .

وبالرغم من انتصار هذا الفريق الاصلاحي الذي تمكن من عزل السلطان عبد العزيز عن العرش ومبايعة السلطان عبد الحميد ، وفرض اعلان الدستور سنة ١٨٧٦ ، الا ان الموقف تفجر من جديد عندما علق السلطان الدستور وأصبح الخط الواضح لسياسة الدولة العثمانية تشديد الحكم المركزي ، بعد ان ادرك السلطان عبد الحميد ان التطورات المحلية في ارجاء الامبراطورية ومنها ــ الوطن العربي ــ كانت تسير في اتجاه مناقض لمركزية الدولة العثمانية واصلاحاتها التي تمت لتدعيم هذه السياسة ، وأحس ان رياح التمرد ضد « التسلط والاستبداد والتخلف » قد بدأت تهب في أرجاء الامبراطورية العثمانية .. فحاول السلطان عبد الحميد أن يستقطب التيارات السياسية والادارية والفكرية التي طرحت حول ضرورة الدستور وتوسيع المأذونية لصالح تجمع ديني تحت اسم الجامعة الاسلامية .

كان الفكر السياسي ــ والتيارات الفكرية عموما ــ قد تأثر بهذه الفعاليات التي واكبت الاحداث والحركات التاريخية التي أشرت الى ظهورها في القرن التاسع عشر ، فظهر عدد من المفكرين في أرجاء الامبراطورية ، اسهمت أفكارهم في نضج الوعي

السياسي ، وبالرغم من ان القاعدة الاساسية لانطلاقهم الفكري هي قاعدة دينية ، الا أن منطلقاتهم الفكرية كانت تدور حول مفاهيم وقيم اجتماعية وسياسية جديدة تدور حول واقع الامبراطورية ، وحول النظم السياسية للدولة على البعدين الداخلي والخارجي .

اما على الصعيد الداخلي ، فقد تطرقت أفكار هؤلاء الرواد الى النظم السياسية للدولة من زاوية موقف هذه النظم من الفرد وحقوقه وواجباته فيها ، وكيفية ادارة الولايات ، وتوسيع المأذونية ، وضرورة اعلان الدستور ، وضرورة تواجد اللغة المحلية للولاية الى جانب اللغة التركية في التعليم ...

وقد أشار عبد الرحمن الكواكبي صراحة ، في كتابه أم القرى ، الى أن الاسباب السياسية والادارية العثمانيين ، « وتمسك الدولة باصول الادارة المركزية مع بعد الاطراف عن العاصمة وعدم وقوف رؤساء الادارة في المركز على أحوال تلك الاطراف المتباعدة وخصائص سكانها » ، وهي من جملة الاسباب الكثيرة التي ادت لفتور المسلمين وتأخر الامبراطورية .. وبمعنى آخر ان عبد الرحمن الكواكبي وغيره ، قد طالب صراحة بتطبيق اللامركزية الادارية في الدولة العثمانية حتى تتمكن من التقدم وتقضي على الفتور ... بل أكثر من ذلك فقد طالب الكواكبي بأن يحمل الامبراطور العثماني تاجا مزدوجا « التاج التركي والتاج العربي » كما يحمل آل هاسبورغ تاج النمسا ـ المجر ، وبذلك تصلح احوال الامبراطورية العثمانية .. وبهذا يكون عبد الرحمن الكواكبي قد طالب بوضوح بتطبيق « اللامركزية » .

من توسيع المأذونية الى اللامركزية الادارية :

يمكننا القول ان أول من طرح مسألة المركزية واللامركزية في الادارة العامة ودعا الى بحثها بصورة جماعية هو (الامير صباح الدين) ابن الداماد (محمود باشا)(١) وكان يقيم مع والده في باريس هربا من استبداد السلطان عبد الحميد ، وفي سنة ١٩٠٢ دعا الامير الى عقد مؤتمر في باريس للاحرار العثمانيين فلبى طلبه أكثرية المعارضين لحكم السلطان عبد الحميد، وعلى الرغم من أن المؤتمرين كانوا متفقين على مقاومة الحكم الاستبدادي المطلق ، كما كانوا متفقين على المطالبة بقيام حكم دستوري في الدولة العثمانية ، الا انهم اختلفوا وانشقوا حول ثلاث مسائل رئيسية كانت مطروحة على بساط البحث ، في مقدمتها مسألة : « المركزية الادارية واللامركزية الادارية » ، ثم مسألة حقوق الاقليات القومية ومسألة السياسة الخارجية .

وقد ادى البحث في هذه المسائل الى الانشقاق داخل المؤتمر ، فالتفت الاكثرية حول الامير (صباح الدين) وتكونت جمعية برئاسته أطلق عليها اسم جمعية « التشبث الشخصي واللامركزية الادارية » أما الاقلية فالتفت حول (أحمد رضا) وكانت نواة لتشكيل الفئة المعارضة التي أسفرت فيما بعد عن جمعية « الاتحاد والترقي » بعد أن دمجت بالتنظيمات الحزبية التركية السرية التي تتطابق آراؤها وآراء (أحمد رضا) ذات المضمون العنصري وأسلوب الحكم المركزي (٢) .

وعندما طرحت جمعية « عدم مركزيت » أو اللامركزية ، برئاسة (البرنس صباح الدين) برنامج الجمعية ، كانت المادة الاولى تنص على : « التشبث باللامركزية » وطالبت أن يكون الحكم في الامبراطورية حكما لا مركزيا . واما البند الثاني فكان يطالب بالتوسيع في المأذونية (الصلاحية) في الولايات ، وهذا يتطلب ان تنتخب مجالس الادارة العمومية والبلديات انتخابا سريا ، وان يكون لاعضاء هذه المجالس الصلاحية التامة في شؤون الولاية المالية ، والمسائل والمعاملات المتعلقة بقوانينها وأنظمتها ، كما تطرقت الجمعية الى أعضاء (مجلس المبعوثان) ، وطالبت أن تنتخبهم مجالس الولايات العمومية لتمثيل الولاية في المركز بعد اعلان المشروطية . .

أما الموظفون الاداريون فقد أجازت الجمعية تعيينهم من قبل الحكومة المركزية في الولايات ، واما باقي موظفي الولاية المدنيين وغيرهم فيختارهم الولاة من افراد مختلف القوميات في الولاية بحسب النسبة العددية . . . (٣)

وهكذا يمكننا القول ان سنة ١٩٠٢ تفرض نفسها بصورة موضوعية كنقطة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ الامبراطورية العثمانية ، من حيث اثارة طرح قضية اللامركزية ضمن برنامج لجمعية تنظيمية ، اي طرح اللامركزية بشكل عملي والمطالبة بتنفيذها ، وقد انتشر برنامج الجمعية في انحاء الامبراطورية بعد أن افتتحت الفروع لها في دمشق برئاسة (رفيق العظم وحقي العظم) وفي عاليه برئاسة (محمود العلايلي) وفي اللاذقية وغيرها من المدن السورية . . وفي سنة ١٩٠٦ انتشرت أفكار الجمعية في أرجاء الامبراطورية بعد أن أصدر البرنس صباح الدين في باريس جريدة تحمل اسم « ترقي » وبدأ ينشر فيها آراءه مبينا أن « المركزية » في الادارة تقتل روح « التشبث الشخصي » وان الاستبداد يقتل العدالة التي تحققها المشروطية(٤) .

تطور مفهوم اللامركزية بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨

الدستور والمركزية لا يجتمعان :

بدات النداءات الجماهيرية بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨ ، ومنذ اليوم الاول ، بأن الدستور والمركزية لا يجتمعان ، وان الدستور يقتضي اشتراك عناصر الامة في كل الحقوق والواجبات ، والمركزية تنافى هذا الاشتراك ... وهكذا طرح مفهوم اللامركزية بصورة أكثر شمولا ، وتحول الى مطلب جماهيري .

وقد لمس الاتحاديون منذ اليوم الاول لاعلان الدستور حقيقة مطالب القوميات وأمانيها ، وشهدوا كذلك مدى التأييد الهائل الذي اكتسبوه بعد الانقلاب الدستوري ، فقد عبرت عن تلك المطالب وعن هذا التأييد جميع قوميات الامبراطورية باشتراكها في اخراج أعياد انقلاب ٢٣ تموز (يوليو) سنة ١٩٠٨، وخاصة عن طريق المسيرات الجماهيرية في الشوارع وعن طريق الخطب والمحاضرات الثقافية التي ألقيت من قبل أعضاء الجمعيات العربية السرية بعد ان أعلنت عن وجودها . وقد جاء ذكر توسيع المأذونية ، وحرية التعليم ، وحقوق القوميات في أكثر هذه الخطب من منطلق : ان الدستور والمركزية لا يجتمعان(٥) .

فكانت المحافظة على هذه الشعبية مع التنكر لتلك المطالب هي المعادلة الصعبة التي واجهتها جمعية الاتحاد والترقي لدى تطبيق برنامجها في التتريك من جهة والمركزية من جهة أخرى(٦) ولكنها تجاوبا مع الواقع لجأت للأساليب التالية :

أولا : اعلنت جمعية الاتحاد والترقي ، في برنامجها السياسي الموقت ، والتي وعدت بعرضه على مجلس المبعوثان في حينه ـ مساواة جميع المواطنين أمام القانون في الحقوق والواجبات ، دون تفريق بين الاديان والاجناس .

ثانيا : أعلنت الجمعية في ذلك البرنامج أيضا عن : « حرية التعليم وحرية تأليف الجمعيات التي تشمل حرية تأليف الاحزاب »(٧) .

ثالثا ـ جعلت من السلطان العثماني ـ خليفة المسلمين ـ امبراطورا يملك ولا يحكم ... « وقد قبل السلطان صدارة شرف الجمعية وفاه بها علنا »(٨) .

رابعا : قررت الهيئة الادارية لجمعية الاتحاد والترقي أن لاتتسلم الجمعية مركز رئاسة الوزراء ، أي (الصدارة العظمى) ، وان تحكم الجمعية من وراء ستار ، وقد وقع اختيار الجمعية على شخصية كامل باشا الذي كان مبعدا من قبل السلطان عن الاستانة مدة (١٢) سنة ، ولم يمتنع عن القبول ، كما أن السلطان « المغلوب على أمره » لم يعترض على هذا التعيين(٩) .

وبهذا (التكتيك) السياسي الاستبدادي المقنع بالدستور ، سار أعضاء جمعية الاتحاد والترقي في تطبيق مخططهم المركزي الطوراني تجاه القوميات الاخرى والاحرار العثمانيين ، والجمعيات السياسية ، وكل من نادى باللامركزية .

وكان من البديهي ، أن تبدأ جمعية الاتحاد والترقي بتطبيق برنامجها بالقضاء على جمعية « التشبث الشخصي واللامركزية الادارية » التي كانت تنادي باللامركزية وبحقوق القوميات في الامبراطورية العثمانية قبل اعلان الدستور ، وخاصة ان رئيسها عاد الى الاستانة واستقبله الشعب بحفاوة بالغة ، فلم يرق هذا الالتفاف الشعبي حول الامير صباح الدين للاتحاديين ، فحملوا عليه حملة صحفية ، واخذوا يهاجمونه في الاجتماعات العامة ، ويتهمون أفكاره بتشجيع العناصر غير التركية على طلب الاستقلال ، ـ وخاصة ان الجمعية أصبح لها العديد من الفروع في البلاد العربية كما اشرنا .

عند ذلك دعا البرنس صباح الدين الى عقد اجتماع عام ، وأعلن ، مضطرا ، أن اللامركزية التي ينادي بها هو وأعضاء جمعيته في الاستانة وفي بقية البلدان . انما هي « توسيع المأذونية » التي ينادي بها أعضاء جمعية الاتحاد والترقي(١٠) ثم وافق على دمج جمعيته مع جمعية الاتحاد والترقي الحاكمة واعلن بذلك تصفية حزبه في شهر تشرين ثاني نوفمبر سنة ١٩٠٨(١١) .

ولكن مفهوم اللامركزية لم يقض عليه بعد أن نجح الاتحاديون في مخططهم المشار اليه سابقا ، اذ طرح هذا المفهوم اللامركزي في ساحتين كبيرتين : الساحة الاولى : **الساحة الشعبية** : عندما تأسس حزب الاخاء العربي العثماني وجوهر تفكيره تطبيق اللامركزية ، والساحة الثانية : هي **الساحة البرلمانية** : عندما تأسست الاحزاب والكتل النيابية في مجلس المبعوثان وبدأت تطالب بتطبيق اللامركزية، اضف الى ذلك الجمعيات العربية السرية ، القحطانية والعربية الفتاة .

وبالرغم من أن حزب الاخاء العربي العثماني الذي تأسس سنة ١٩٠٨ في ٥ آب (اغسطس) ، لم يدع صراحة الى تطبيق اللامركزية الادارية او الى الاستقلال أو الانفصال ، فان الحزب نادى صراحة بالمحافظة على أحكام **القانون الاساسي** ، وجمع **كلمة الملل** ونادى دستور الحزب : « باعلاء شأن الامة العربية واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها كتأسيس مدارس وطبع الكتب والجرائد وتعليم اللغة العربية ... »(١٢) . وبينت الجمعية ان كل ما تقدمه وتدعو اليه « هو قائم بدوام الدستور المتكفل بالحرية الشخصية » .

وعندما اراد اعضاء جمعية الاخاء تطبيق برنامجهم « وحفظ حقوق العرب » ضمن الرابطة العثمانية ، اعلنوا عن تأييد مرشحي الحزب للانتخابات في دمشق ، وبداوا بنشر آرائهم في جريدتهم التي تحمل اسم الجمعية ، وقف الاتحاديون في مواجهتهم ، فنجح اثنان منهم فقط هما : شفيق المؤيد العظم ، ورشدي الشمعة (١٣) ونجح الاتحاديون في مخططهم تجاه الانتخابات فلم ينجح من المستقلين سوى ١٠ نواب بينما نجح من الاتحاديين ٢٦٥ نائبا أخذوا عليهم تعهدا وقسما بأن يلتزموا بالطاعة العمياء لجمعية الاتحاد والترقي ، ونجح نائب واحد من حزب الاحرار(١٤) ولم تكن اهداف هذه الجمعية خافية على جمعية الاتحاد والترقي لذلك اغتنم الاتحاديون فرصة انتصارهم على الثورة المضادة في ١٩٠٩/٤/١٣ ، فوجهوا اليها تهمة الاشتراك في الانقلاب واعلنوا حلها .

اما في ساحة البرلمان : فقد تشكلت عدة كتل برلمانية ، كانت سماتها الرئيسية المشتركة تتلخص بالتالي :

١ — من حيث المبدأ : المناداة باللامركزية الادارية ومقاومة المركزية بشكل عام .

٢ — من حيث أسلوب العمل : العمل العلني .

٣ — من حيث التكوين : عثمانية شاملة .

٤ — ومن حيث موقفها من الحزب الحاكم : المعارضة .

ومن هذه الاحزاب : حزب الاحرار ، الذي تأسس في ١٤ ايلول سبتمبر سنة ١٩٠٨ .

وحزب الاحرار المعتدلين ، أو « الحر الدستوري المعتدل » ، تأسس في ٢١ تشرين ثاني نوفمبر سنة ١٩٠٩ .

وحزب الاهالي ، الذي تأسس في ٢١ شباط ١٩١٠ .

وحزب الحرية والائتلاف ، الذي تأسس في ٨ ت٢ سنة ١٩١١ .

وقد استقطب الحزب الاخير (الحرية والائتلاف) هذه الاحزاب البرلمانية كلها عند تأسيسه . . لقد طرح هذا الحزب مفهوم اللامركزية الادارية من خلال مبادئه التي تتركز في مبدأي « الحرية » و « المساواة » وهما المبدأن الاساسيان ، « وأن الروح الاصلي في هذا البروغرام ــ يعني البرنامج ــ هو صون حرية الافراد وحفظ حقوق العناصر وتأييد الدستور فهذا لايتغير »(١٥) .

ومن هذا المبدأ الذي أعلنه الحزب عن طريق أحد أعضائه العرب ، وهو عبد الحميد الزهراوي ، يتبين لنا أن مضمون الحرية والمساواة كان ينصرف للافراد والجماعات أو للأفراد والعناصر (القوميات) ، ان نوع الحكم اللازم لامكانية قيام الحرية والمساواة هو الحكم الدستوري ، وان مبدأي الحرية والمساواة هما مبدآن لايتغيران كما يبدو في تعبير « هذا لايتغير » .

وقد حدد الزهراوي أيضا أهداف الحزب عندما قال: «الغرض الاعظم لهذا الحزب شيئان : مقاومة الاستبداد ولاسيما الاستبداد تحت ستائر القانون ، واصلاح ذات البين بين جميع العناصر .

ويحدد الحزب « العناصر » التي يسعى لاصلاح البين بينها في ثلاثة انواع : عنصر الجنسية وعنصر الدين ، وعنصر الفكر والاجتهاد الاجتماعي ، وكان يؤمن أن سكان الامبراطورية العثمانية أمة واحدة وليس مجموعة أمم ، وأن الدولة العثمانية هي دولة هذه الامة ، ولذلك ودرءا لكل الشبهات حول هدف الحزب فان الزهراوي يقول : « هذا لاننا لا نسعى الى غاية شخصية أو قومية وانما نسعى لادامة حياة هذه الدولة واعلاء شأنها وسعادة الامة العثمانية وانجاح بلادها وترقية عمرانها .... أسسنا هذا الحزب »

وواضح من هذا النص ان الحزب ينكر انه يسعى الى غايات « قومية » ، بينما هو يسعى « للحرية » العنصرية ، الامر الذي يؤكد بصورة حاسمة أن هذه العناصر الجنسية ليست امما أو قوميات ، وان حريتها وحقوقها لاتعني حريات وحقوقا قومية ، لان الحريات والحقوق القومية تجيز بل تقتضي ان تكون للأمة « دولتها

القومية المستقلة » وقد ترتب على هذا المفهوم أن كانت عضوية الحزب مفتوحةلجميع العناصر أو على حد قول الزهراوي : « لذلك يضم هذا الحزب ضمـا حقيقيا المسلم وغير المسلم ، والتركي وغير التركي » ويطلب من هذه العناصر : « أن تكون كلا متآلفة مع التخالف ، متعاونة مع التغاير » .

وانسجاما مع تلك المبادىء والاهداف فان حزب الحرية والائتلاف كـان ينـادي باللامركزية الادارية ولم يرتق الى مستوى المناداة باللامركزية السياسية .

كان الحزب يضم الاحزاب البرلمانية المعارضة التي أشرت اليها سابقا ، وقـد توصل الى الحكم بعد أن تمكن من اسقاط حكم الاتحاديين بتاريخ ٩ تمـوز (يوليو) سنـة ١٩١٢ .

وكرست صحف المعارضة مقالاتها لشرح مبادىء هذا الحزب وأهدافـه ، كمـا شكل أكبر كتلة برلمانية وقفت في وجه الاتحاديين « كتلة المعارضة » وانضم النـواب العرب الى هذه الكتلة وطرحوا في الساحة البرلمانية مشاكل الوطـن العربي وقضيـة الصهيونية ، ومشكلة حقوق العرب والثورة القومية في اليمن ، ومشكلة الغزو الايطالي لطرابلس الغرب ، من خلال جواب الاستانة ــ قبل تأسيس الحـزب ــ « ان الدولـة العليه ستطلب من ايطاليا بلهجة ودية طيبة الافصاح عن نواياهـا في طرابلس الغـرب ويأمل الباب العالي أن يجد واسطة لحل المسألة قبل أن تصبح حرجة »(١٦) كمـا أن سفير الدولة العثمانية في روما تقدم بتقرير الى مجلس المبعوثين شرح فيه كيف أنـه كتب مراراً للصدر الاعظم من روما لينذره بالخطر الذي يلمحه مـن تصـرف ايطاليـا واستعداداتها للاغارة على طرابلس الغرب ولكن الصدر الاعظم حقي باشا اهمل هـذه التقارير ولم يعرضها على مجلس الوزراء(١٧) . هذا بالاضافة الى التقرير الذي قدمه نواب طرابلس الغرب يطلبون فيه تقديم (حقي باشا) ــ الذي كان سفيراً للدولـة في روما ــ الى المحاكمة « الديوان العرفي » مع وزارته ــ وكان في هذه الاثناء يشغل منصب الصدارة ــ لاهماله واستهتاره تجاه خفايا المطامع الايطالية(١٨) .

بدأت الانسحابات تتوالى من حزب الاتحاد والترقي (العرب وغيرهم) وانضموا الى حزب المعارضة « الحرية والائتلاف » وكان أول مجلس ادارة للحزب يضـم مـن الاعضاء العرب : النائب سعيد الحسينـي نائب القـدس ، وشـكري العسلـي نائب دمشـق .

لقد تخطى هذا الحزب المناداة « بتوسيع المأذونية » المناداة باللامركزية ، وكان هذا كافيا لتكتل أبناء القوميات غير التركية حوله . ومما زاد في انتشار مبادئه ، ان افتتحت له الفروع في دمشق والبصرة وبيروت وحمص وحماه وغيرها من المدن السورية ، أمثال اللاذقية ونابلس وطرابلس الشام وعاليه وكسب ، وغيرها من المدن ... حتى لقد بلغ الامر ان انسحبت نوادي (أي فروع) حزب الاتحاد والترقي بمجموع اعضائها في حمص وحماه ودمشق وغيرها من مدن سورية ، لتنضم الى الحزب الجديد « واصبحت الامة تعاضده لانها ذاقت آلام مقاصد الحزب الآخر وعلمت ان لا هم للقابضين على زمامه اليوم الا انفسهم وتأمين منافعهم ...»(١٩) .

وقد ادت قضية المركزية واللامركزية بين الاتحاديين والمعارضة الى حل المجلس النيابي « المبعوثان » وانتخاب مجلس جديد بقوة الحديد والنار لصالح الاتحاديين من جهة(٢٠) كما ادت الى ثورة ضباط الجيش من جهة أخرى ، وكان الضباط الثائرون خليطا من الالبانيين والاتراك وغيرهم وبلغ عددهم نحو اثني عشر طابورا في فترة وجيزة(٢٢) واطلقت الهيئة التي تزعمت هذه الحركة على نفسها اسم « عصبة ضباط الانقاذ » . وقد لجأ هؤلاء الى الجبال في ١١ حزيران سنة ١٩١٢ بقيادة اليوزباشي الالباني « طيار بك » وطالبوا بتشكيل حكومة من غير الاتحاديين وبتطهير أركان حرب الجيش من الاحزاب ، وبمنع جمعية الاتحاد والترقي من التدخل بادارة السلطة ومنح جميع عناصر الامة الحرية والمساواة ، وتنظيم الادارة على طريقة مثلى بحيث تكون الاسبقية للكفاءة ، دون النظر الى الانتماء الحزبي ...

ومما زاد في قوة هذه الحركة العسكرية ، دعمها بحركة قومية ثورية من قبل أهالي البانيا الذين تقدموا بمطالبهم التي تشتمل على ١٢ مطلبا نادوا بها وقدموها باسم جميع العناصر التي تتألف منها شعوب الامبراطورية العثمانية ، وكان اهم هذه المطالب : حفظ اللغة المحلية في كل منطقة واعتبارها لغة رسمية ، وحفظ قوميتهم بحيث تكون ذات وحدة مستقلة ... وعندما حاولت حكومة الاتحاديين المماطلة ، واصلت فرقة ضباط الانقاذ تهديدها للوزارة ، ووجه الضباط كذلك بيانا على اخوانهم في السلاح ، وحمل البيان على انحراف أعضاء الاتحاد والترقي عن اهداف ثورة سنة ١٩٠٨(٢٢) وقد تجاوب مع هذه البيانات ضباط حاميات ازمير ودمشق وحلب وغيرها من المدن ، مما دعا حكومة الاتحاديين الى تقديم استقالتها في ٩ تموز (يوليو) سنة ١٩١٢ ليبدأ حكم أنصار حزب الحرية والائتلاف ، الذي ينادي باللامركزية .

الائتلافيون ومحاولة تطبيق اللامركزية :

بقي حكم انصار حزب الحريــة والائتلاف من ١٩١٢/٧/١٠ الى ١٩١٣/١/١٣ ، وتميزت هذه الفترة بالمناداة العلنية بتطبيق الاصلاح الاداري على اساس اللامركزية ، وتبنت هذه المناداة عدة جمعيات اصلاحية تأسست في بيروت ودمشق والبصرة ، كما نادى أعضاء المنتدى الادبي ــ الذي أسسه الشبيبة العرب في الآستانة منذ سنة ١٩١٠ــ بتعليم اللغة العربية والاصلاح اللامركزي . وكذلك ظهرت في هذه الفتــرة الاحــزاب العربية التي تنادي علانية باللامركزية ، وفي مقدمتها حزب اللامركزية الادارية العثماني الذي تاسس في مصر .

وكان اهم ما قام به حزب الحرية والائتلاف ، هو اقناع الصدر الاعظم (كامــل باشا) صديق الائتلافيين باعلان : ان وزارته ستطبق الاصلاح اللامركزي استجابة الى طلب الاصلاحيين رغم خطورة الموقف الخارجي على الحدود .

ذلك أن العرب اخذوا يتذمرون من تجاهل الحكومة المؤيدة من حــزب الائتلاف لبرنامج اللامركزية ، واخذ اشراف بغداد والبصرة ودمشق وحلب وبيروت والقــدس يبرقون الى الحكومة طالبين منها ان تصدر ارادة باعلان « لامركزية الحكم » في البــلاد العربية صيانة لها من الوقوع في براثن الغرب كما وقعت طرابلس الغرب(٢٣) .

وراجعت الشخصيات العربية في الاستانة ــ بعد عقد عدة اجتماعات ــ المسؤولين في الحكومة حول ذلك المطلب ، وكان على رأس وفد تلك الشخصيات شفيق المؤيد ، وشكري الحسيني ، وزكي مغامر ، وعبد الرحمن العابد وغيرهــم ، كما أن برقيــات الولاة الائتلافيين كانت تتوارد على رئيس الوزراء (كامل باشا) طالبة تطبيــق برنامــج وزارته في الاصلاح اللامركزي ، وكان اشدها اصرارا برقيات والي بيــروت الائتلافي : بوجوب جمع مجلس الولاية العمومي للمذاكرة في الاصلاحات المطلوبة وتنظيم اللوائح بمطالب السكان ، وقد أجيب الى طلبه ببلاغ ، عمم على بقية الولايات ، تشكلت على اثره في بيروت وحلب ودمشق والبصرة جمعيات اصلاحية اخذت تدرس وتحضر اللوائح الاصلاحية اللازمة للبلاد العربية، واسفرت عن طرح برنامج اصلاحي يطالب باللامركزية الادارية الموسعــة . .

اللامركزية الادارية الموسعة :

وضع الاصلاحيون من أعضاء النادي الائتلافي في مدينة بيروت لائحة اصلاحيــة صادرة عن لجنة انتخبها اهالي بيروت انفسهم(٢٤) وقعت عليها اللجنة في الجلســة الثالثة للجمعية العمومية المنعقدة في ١٩١٣/١/٣١ وصدقتها .

أما السمة العامة التي نظمت على اساسها اللائحة فهي : **الادارة واللامركزية الواسعة واما المادة الاساسية للائحة** ، فانها تنص على ان الحكومة العثمانية حكومة دستورية نيابية ، **اما المادة الاولى** ، فانها تقسم ادارة الولاية الى قسمين :

القسم الاول : هو المشتمل على الاعمال المتعلقة بكيان السلطنة وشؤونها الاساسية ، وهي المسائل الخارجية والعسكرية والجمارك والبوستة والتلغراف وسن القوانين ووضع المكوس ...

والقسم الثاني : وهو المشتمل على الاعمال المحلية المتعلقة بشؤون الولاية الداخلية الخاصة .

فكل ما يتعلق بالقسم الاول منوط تقريره واجراؤه بالحكومة المركزية ، وكل ما يتعلق بالقسم الثاني منوط تقريره بمجلس الولاية العمومي .

وتحدد اللائحة صفات الوالي القانونية في المادة الثانية : **فالصفة الاولى : تمثيل** الحكومة المركزية وبهذه الصفة يتولى اجراء جميع الاعمال المتعلقة بالقسم الاول طبقا لقرارات الحكومة المركزية ، والصفة الثانية تمثيل حكومة الولاية التي يراسها وبهذه الصفة يتولى تنفيذ جميع الاعمال المتعلقة بالقسم الثاني طبقا لقرارات المجلس العمومي

ثم تعين اللائحة وظائف الوالي وحقوقه ، وحقوق المجلس العمومي ووظائفه ، وتبحث في مالية الولاية والبلديات والاوقاف ولجنة المجلس العمومي ، وكيفية تعيين الموظفين ثم المستشارين ومجلس المستشارين ..

كما بحثت اللائحة مسألتين مهمتين وهما : **مسألة اللغة ومسالة الخدمة العسكرية** اما بخصوص **اللغة** : فقد نصت اللائحة على أن اللغة العربية تعتبر اللغة الرسمية في جميع المعاملات داخل الولاية وتعتبر أيضا لغة رسمية كاللغة التركية في مجلسي النواب والاعيان (مادة ١٥) ، كما طلبت اللائحة **تخفيض الخدمة العسكرية** الى سنتين ، وان تقضى ايام السلم في الولاية ، واشارت الى تنزيل قيمة البدل النقدي للنظامية الى ثلاثين ليرة عثمانية وللرديف (اي الجندي بعد الاربعين) الذي ادى الخدمة العسكرية ، وللاحتياط (اي الجنود الذين ادوا الخدمة ولم يتجاوزوا هذه السن) الى عشرين ليرة عثمانية . (٢٥)

وتمكن الائتلافيون في دمشق من وضع لائحة مشابهة للائحة بيروت الإصلاحية ، ولكنها « لم تكن معبرة عن كل ما تتوق اليه نفوس السوريين من اصلاح ورقي تام »(٢٦).

وتجاوب السوريون القيمون في مصر مع برامج الجمعيات الاصلاحية ، فنرى صاحب المنار يشكر أهل بيروت على عملهم الاصلاحي ويثني على التضامن الوطني الذي حققه أهل بيروت ، وفي الوقت نفسه طلب منهم ان « ينقحوا لائحتهم تنقيحا يتقون به الخطر » ويقصد بهذا الخطر تدخل المستشارين الاجانب الذي طالب به البيروتيون، وتمنى عليهم لو « لم يقيدوا انفسهم بهذه القيود الثقيلة »(٢٧) .

وبدأ المجلس العمومي بمناقشة اللوائح الاصلاحية من قبل الائتلافيين . ولكن لم يكد يمضي أسبوع واحد على دراسة « لائحة دمشق » حتى حصل الانقلاب الاتحادي، فأهملت هذه اللوائح الاصلاحية ثم كان نصيبها الالغاء . . . ولم يكن نصيب اللائحة الاصلاحية في البصرة بأفضل من ذلك . . وبدأت عمليات القمع ، فصادر الاتحاديون كل ما يتعلق بنادي الاصلاحيين وجمعيتهم واوقفوا صحفهم بحجة ان هذه الجمعيات الاصلاحية : « لم تتبع جادة الاعتدال بل تخطت في طلباتها حدود الواجب » وان الوالي اضطر لالغائها : « لتفاقم الخطر وحرصا على الراحة العمومية »(٢٨) لقد ايد الرأي الجماهيري موقف الاصلاحيين وعبر عن ذلك بالمظاهرات الصاخبة كما احتجت الصحف المؤيدة للاصلاحيين على قرار الوالي باغلاق النادي ، الذي اصدره بتاريخ ٩ نيسان سنة ١٩١٣ واحاطت القرار باطار اسود(٢٩) فصدر الامر بمصادرة الصحف المعارضة للاتحاديين ، ومنها : المفيد والاتحاد العثماني ولسان الحال ، والنصير ، والحقيقة ، وغيرها من الصحف الاصلاحية على فترات متلاحقة ، ووجهوا اليها تهمة : « تشويش الافكار وتهيج الخواطر » .

اما بقية الصحف فقد صدرت بيضاء خالية من الاخبار ، واكتفت بنشر الامر في صفحاتها الاولى دون تعقيب ، وارادت بذلك ان تترك للشعب أن يقدر هول المصيبة : « التي عجزت أقلام كتابها عن وصفها »(٣٠) .

حزب اللامركزية الادارية العثماني : ك١ / ١٩١٢

اعتقد الاتحاديون عندما قاوموا هذه اللوائح الاصلاحية التي تنادي باللامركزية الادارية الموسعة ، ان سياستهم قد انتصرت وان مبدأ المركزية الادارية الذي ينادون به انتصر على مبدأ اللامركزية ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك . .

ففي هذه الاثناء كان العرب السوريون في القاهرة يؤلفون اكبر حزب عربي نادى باللامركزية الادارية واشتق اسمه منها وهو « حزب اللامركزية الادارية العثماني » كنتيجة « لما انذرت بهالحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة ». ويقول رشيد رضا أحد مؤسسي الحزب : « كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معا .... وقد كنا نعتقد أن الدولة لايمكن ان تعيش طويلا اذا أصرت على شكل حكومتها المركزي وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة »(٣١) .

لقد بدأ هذا الحزب ، الذي تأسس في كانون الاول ١٩١٢ ، أعماله بتوحيد جهوده مع أعضاء جمعية بيروت الاصلاحية ، وارسل الحزب برنامجه مع عبد الكريم الخليل ، واقترح أن يطلب الاصلاح لجميع الولايات العربية على أساس اللامركزية بدلا من طلب الاصلاح لولاية بيروت وحدها .. « حتى نكون يدا واحدة في العمل » والمطالبة بتحقيق رغبة أعضاء الحزب بأن « لا يذكر اسم الحزب ، وان تكون المراسلات عن طريق حقي العظم »(٣٢) .

وعندما اغلق والي بيروت الاتحادي ، مكتب الجمعية الاصلاحية في بيروت ــ بعد استلام الاتحاديين الحكم في ٢٣ كانون ثاني سنة ١٩١٣ ــ كما أشرت ، احتج حزب اللامركزية في مصر ، وطالب بعزل الوالي لان عمله غير قانوني وانذرهم بقوله : تداركوا سوء العاقبة ، ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القانون ..(٣٣) .

لقد انتخب حزب اللامركزية هيئته الادارية بتاريخ ١٢ اكانون ثاني سنة ١٩١٣ وبدأ بشرح مفهوم اللامركزية على صفحات الجرائد،وقد كتب شبلي الشميل مقالاعرف فيه اللامركزية بقوله : « يراد بها في عرف السياسيين توزيع السلطة الادارية على المراكز المختلفة المؤلف منها الجسم السياسي الاجتماعي عوضا عن حصرها في جزء واحد مركزي ليتيسر لكل جزء الاهتمام بتدبير شؤونه الخاصة بنفسه عن علم مع حفظ الصلة بالمركز حرصا على مصلحة الكل »(٣٤) . ولم يخرج الحزب عن هذا المفهوم في صياغة مبادئه واهدافه ...

فقد صاغ هذا الحزب مبادئه واهدافه في وثيقة عنوانها « بيان الحزب وبرنامجه السياسي(٣٥) وهي وثيقة مفصلة تفصيلا وافيا » ، فقد كانت علنية الحزب تسمح له بهذا التفصيل ...

اما الجزء الاول من هذه الوثيقة وهو « بيان الحزب » ففيه محاولة لعرض ما يمكن تسميته بـ : « فلسفة الحزب أو نظريته السياسية » ثم تحليل الاوضاع الواقعة للامبراطورية العثمانية ، وينتهي بعد ذلك الى تأكيد اللامركزية الادارية كحل ضروري لما تقوم عليه تلك الاوضاع من صراع وتخلف وما تنطوي عليه بالنسبة للدولة العثمانية وشعوبها من مخاطر .

اما البرنامج المرفق بالبيان ، فهو في حقيقته دستور مقترح لنظام اللامركزية الادارية التي يطالب بها الحزب(٣٦) .

ويتألف هذا البرنامج من ست عشرة مادة تحتوي على المبادئ الدستورية الاساسية على الشكل التالي :

١ ــ وحدة الدولة العثمانية .

٢ ــ تأكيد وحدة السيادة فيها .

٣ ــ اقامة مركزية محددة القسمات .

اما اهم مظاهر الوحدة السياسية للدولة ووحدة السيادة فيها ، فقد حددها برنامج الحزب على الشكل التالي :

اولا : السلطان هو راس الدولة الواحدة اي (الامبراطورية العثمانية) . والسلطان يعين الوالي وقاضي القضاة فيها .

ثانيا : وان : « مجلس المبعوثان والاعيان » هو المجلس التشريعي المركزي للامبراطورية .

ثالثا : النظارة المركزية (اي الحكومة) وتتولى شؤون التشريع العام والدفاع والخارجية والمالية العامة المشتركة .

رابعا : يطالب البرنامج في أن تكون اللغة التركية لغة رسمية في جميع الولايات ، ولكن الى جانب لغةالولاية المحلية .

وفي الوقت نفسه ، فقد أشار البرنامج اشارات واضحة تؤكد مظاهر اللامركزية الادارية في الامبراطورية ، وتبدو اساسا على الشكل التالي :

اولا : تكوين أربع مؤسسات محلية هي :

أ ــ المجلس العمومي

ب ــ مجلس الادارة

جـ ــ مجلس المعارف

د ــ مجلس الاوقاف

وتحدد مواد البرنامج من المادة الخامسة وحتى المادة التاسعة صلاحيات هذه المجالس وسلطاتها على الشكل التالي :

صلاحيات المجلس العمومي وهي : « المراقبة على حكومتها » ــ والظاهر هنا من سياق الكلام ان كلمة حكومة تعني مجلس الادارة . ومن صلاحيات المجلس العمومي أيضا النظر في جميع شؤون الادارة المحلية من تقرير ميزانية الدولة وأمور الامن العام والمعارف والنافعة والاوقاف والبلدية ، وتقرير ما يراه فيها ، وسن النظامات لها . وأما ما كان من أمور النافعة ويتعلق من بعض الوجوه بالامور العسكرية أو السياسية الخارجية كسكك الحديد فيرفعها الى العاصمة .

وواضح من هذا النص ، ان جماعة حزب اللامركزية كانوا يريدون من هذا المجلس العمومي ان يكون بمثابة برلمان للادارة المحلية يراقب حكومتها ، أي « مجلس ادارتها » كما يفعل البرلمان في الحكومة ، ويقر الموازنة ولكنه لا يضعها ، ويسن النظامات التي تقابل القوانين في أحوال المجالس النيابية .

اما صلاحيات مجلس ادارة الولاية فهي : القيام بأعمال الحكومة الادارية وأهمها : وضع ميزانيتها واختيار جميع موظفيها .

واما صلاحيات المجالس الاخرى فهي : ان يتولى كل مجلس منها ادارة الشؤون التي تدخل في اختصاصه ووضع موازنتها .

فاذا أمعنا النظر في هذه الصلاحيات نرى ونلمس تشابك المركزية باللامركزية بشكل واضح ، ومن مظاهر هذا التشابك في رأينا النقاط التالية :

أ ــ ان قرارات المجلس العمومي تكون نافذة ، ومعنى ذلك أنها نافذة بدون حاجة الى تصديق ، لا من الوالي ولا من السلطان ــ كما يفهم من النص .

ب ــ وجوب رفع رأي المجلس العمومي الذي يتصل بأمور (النافعة) المتعلقة من بعض الوجوه بالامور السياسية العسكرية ، كسكك الحديد ، فيرفعه بعد ابداء رأيه لى العاصمة ، فليس للمجلس العمومي قرار نافذ في هذه الامور ، كما ان اختيار مجلس ادارة الولاية للموظفين يحتاج الى تصديق الوالي الذي يتسلم السلطة المركزية.

د ــ ان الشؤون المتعلقة بالخدمة العسكرية صيغت بطريقة توفق بين حاجات الدفاع المركزي ، وبين مقتضيات اللامركزية ، من حيث كون أهل كل ولاية يؤدون الخدمة العسكرية في ولايتهم ويكون عسكرها على قدم الاستعداد في زمن السلم ، واما سوق الجنود في زمن الحرب فهو منوط بوزارة الحربية وحينئذ يجب على المجلس العمومي ان يختصر وسائل الدفاع عن الدولة .

وعلى الرغم من ان مجموع الصياغة اللفظية تؤكد اللامركزية الادارية في نطاق الوحدة السياسية ، الا اننا نلمح في النصوص ، مرونة ، بل غموضا أحيانا ، يترك هامشا واسعا لاعطاء اللامركزية الادارية التي يتحدث عنها هذا البرنامج كثيرا من خصائص اللامركزية السياسية .

فلسفة الحزب وتركيزها على اللامركزية :

فاذا انتقلنا الى النظرية السياسية «الفلسفة» التي طرحها بيان حزب اللامركزية نراها تركز على عدة مبادىء اهمها :

١ ــ ان غرض الامم الذي ترمي اليه في هذا الوجود انما هو « الحياة » ويشير الى « الحياة الاجتماعية » و « الحياة السياسية » بمعنى ان يكون لها وجود اجتماعي راق ، ووجود سياسي ثابت ..

٢ ــ انه من الضروري أن تسعى الامة لكلا الوجودين في منهجهما القويم الموصل الى الغاية ، وتعنى بها جميعا ، بمعنى ان لا تقتصر مجهوداتها على بلوغ غاية احدهما دون الآخر .

هذان المبدآن العامان رتبت عليهما النظرية السياسية للحزب المبدأ الثالث للنظرية وطرحته على الشكل التالي :

٣ ـ ان القوانين الاجتماعية مهما كانت راقية ، قل أن تضمن الحياة للامـة ، اذا لم تكن قائمة على اساس متين هو : « القوانين السياسية » واوضحـت النظريـة مضمون هذا المبدأ في تأكيد عدم جدوى القوانين الاجتماعية التي لا ترتكز على أسـاس متين من القوانين السياسية ، حيث أوضحت نقطتين مهمتين :

النقطة الاولى : بينت انه مهما عنيت الحكومة بتنظيم قوانين الحياة الاجتماعيـة للامة واكثرت من مشروعات الاصلاح في المملكة ، سواء كان ذلك في التعليم او الاقتصاد او الادارة ، أو القضاء ، ونحو ذلك ، فانها « لا تخرج في هذا كله عن معنى الوصاية على محجور عليه لا يملك التصرف بشؤون حمايته الخصوصية ليثبت لنفسه وجودا صحيحا بين الناس ويعمل لسعادته جهد العامل المجد » ..

والنقطة الثانية : تستند على النقطة الاولى وتنبع منها : « لذا أصبح لهذا العهد شكل الحكومات التي تقوم به الحياة السياسية لكل أمة من الامم ، وصار من المسلـم بالبداهة ان وجود الامة السياسي والاجتماعي بين مجاميع الانسان الحية متوقـف على شكل الحكومة ، فكلما كانت مشاركة الشعب للحكومة أكثر ، كان ذلك لدوام وجـوده أضمـن » .

وخلصت نظرية حزب اللا مركزية من ذلك كله الى صياغة المبدأ الرابع وهو المبدأ الاكثر اهمية لهذا البحث ، وينص على التالي :

٤ ـ لهذا تكاد تكون سائر الحكومات التي للامم المستقلة اليوم : « حكومات دستورية شعبية » أي لا شأن فيها لسلطة الافراد ، بـل الشأن : « لعامة الامة » ومشاركتها للحكومة في كل جليل وحقير من الشؤون العامة ، الا أنها تتفاوت في ذلك منازل ودرجات وتختلف في الشكل اختلافا واضحا ، اذ روعي فيه الاجتهاد والنظر الى حالة الشعوب الاجتماعية والعرقية والقابلية والاستعداد ..

وبعد تأكيد المبادىء الاربعة المذكورة بالصورة المنطقية لتي انتهت الى تأكيد أن : « أفضل شكل من اشكال الحكومات هو الدستوري » ، يمضي بيان حـزب اللا مركزية الادارية فيؤكد ان : « أفضل اشكال الحكم الدستوري هو اللا مركزية خصوصا في الممالك التي تعددت فيها الفروق والمذاهب واللغات ، واختلفت العوائد والتقاليد والاخلاق ، فكان من المتعذر أن تساس بقانون واحد لـم تراع فيه تلك الاحوال ، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان » .

واعتمد حزب اللامركزية في تأكيد هذا المبدأ على التجربة التي ساقها كمثل حي، عندما عقد وصفا مقارنا للوضع القائم في سويسرا ، والوضع القائم في الامبراطورية العثمانية ، وبين أن الفروق بين اوضاع التقدم والترقي القائمة في سويسرا سببها اللامركزية التي تحكم بها سويسرا ، وان التخلف والاوضاع القائمة في السلطنة العثمانية سببها المركزية التي تحكم بها الامبراطورية العثمانية .

كما اعتمد في تأييد هذا المبدأ أيضا على تحليل تخطي مجرد المقارنة بين الاوضاع التي تبرزها التجربة ، وانتهى منه الى ان « اللامركزية تأبى بطبيعتها ان تكون تبعة الحكم مقصورة على افراد قليلين تصدر عنهم القوة والعمل الى كل ناحية من انحاء المملكة فيكونوا كالمحرك في آلة كبيرة جدا ، اذا اصابه عطب او ضعف تعطلت أجزاء سائر الآلة عن العمل دون أن يكون لاي جزء من هذه الاجزاء قوة ذاتية يعمل بها بنفسه، ودون أن يكون مسؤولا عن نتيجة وقوفه عن العمل » .

وعلى هذا الاساس ، يصبح من البديهي ان « الشعب غير المسؤول » عن أي خطأ يصدرعن حكومته ، لا يشعر كل فرد منه بالتبعية فلا يهتم بالنتائج الحكومية الا بعد الوقوع فيها ذلك لانه يسير بارادة غيره ، لا سلطة له حتى ولا على نفسه ، لانها محكوم عليها ان تسير في السبيل الذي يريده غيره وان خالف رغبته ومصلحته وهواه .

٥ ــ ويتوصل حزب اللامركزية الى مبدأ خامس ، يشير في جوهره الى أن : اللامركزية توزع التبعة على أفراد الامة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية ــ حياة الاعتماد على غير النفس ــ وتفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة ، وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي والعمران من أقرب سبيل وفي وقت قصير ، والعكس بالعكس ..

وبعد أن توصل حزب اللامركزية الى تأكيد هذه المبادىء التي تكون عناصر « نظريته السياسية » ، قدم وصفا وافيا لاوضاع الامبراطورية العثمانية وحللها ، من نواحي التعليم ، والنافعة ، والادارة ، والدفاع ، وانتهى الى تقرير موقف اجمله في قوله :

وقد ظهر للعيان أن المملكة كلها عرضة لخطر الزوال بهذه الحكومة المركزية ، مهددة بفقد الاستقلال الذي يفديه كل عثماني بأعز شيء وهو النفس ، ويتمنى كل شعب تظله راية الهلال بقاءه ليبقى عزيزا في وطنه أمينا من تسلط المغيرين عليه ..

وانتهى حزب اللامركزية الى ان العلاج الوحيد لهذا الموقف ، انما هو في الاخذ باللامركزية الادارية .

لقد فتح باب الحوار السياسي على مصراعيه بعد ان طرح حزب اللامركزية بيانه السابق ، وكانت الساحة الصحفية هي الساحة التي تبنت قيادة هـذا الحوار ، للمؤيدين والمعارضين .

كانت (المنار) أول مجلة نشرت برقيات التأييد للامركزية التـي أرسلها (طلاب اللامركزية) في سورية وفلسطين والجزيرة والعراق واوربا وامريكا ، وهـذه البرقيات موجهة للصدر الاعظم ، وجوهر هذه البرقيات أن : « الدولة لا تبقى ولا تحيا الا بادارة اللامركزية الواسعة » وان طلاب اللامركزية والاصلاح : « كلمتهم واحدة ، والامة كلها معهم تشد أزرهم وتنبذ من يخالفهم نبذ النوى » .(٣٧)

وقدم المنار دراسة مقارنة تعرض فيها لفوائد اللامركزية ، وضرر المركزية ، مبينا ان الحكومة قد اعجزها تنائي أ طراف المملكة ، و « اختلاف لغات واجناس ومشارب اهلها عن أن تنفذ قوانينها في كل ولاياتها ، فجاءت اللامركزية توزع التبعة على أفراد الامة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن » .

ويصل المنار الى النقاط التالية : ان الحكومة المركزية غير قادرة على الدفاع عن أكثر البلاد العثمانية اذا هاجمها عدو اجنبي ، ولذلك : « فان المملكة ستكون عرضة لخطر الزوال » وبالتالي تكون الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال ، وتبين المنار ان جوهر الفكر الاصلاحي هو هذه النقطة الاساسية : « لان اللامركزية تضمن سلامة هذه المملكة وتكفل تضامن شعوبها واتحادهم على العمل الانفع لعمران البلاد وسعادتها وقوة بقائها » . (٣٨)

أما معارضو اللامركزية ، فقد تهجموا على الفكرة برمتها لانها حسب رأيهم : « رواية سياسية هزلية ذات فصل مضحك » الفها د. شبلي شميل ورفيق العظم ، ثم يتابع الكاتب فيقول « تسلمها الاساتذة داوود بركات ورشيد رضا ومحب الخطيب فوضعوا لها الالحان الموسيقية ، ثم أخذها حقي العظم وسامي قصيري فوضعا لها ما لزمها من الزخرفة الفنية »(٣٩) .

ومما يلفت الانتباه ، ان هؤلاء المعارضين كانوا يفسرون كلمة اللامركزية وكأنها مرادفة لكلمة الاستقلال : فيشير الكاتب الى ان « لا صلاح لسورية باللامركزية ، وخير

اصلاح لها هو انتخاب الحكام الاكفاء ومراقبتهم .. وان الاصلاح والعدل والنظام هـو الدواء الوحيد للفوضى المنتشرة في الولايات العثمانية ، ولكن اللامركزية او الاستقلال المطلوب هو الداء القاتل فالحذر منه ثم الحـذر » (٤٠) . وقـد رد الدكتور شبلـي الشميل على هؤلاء مبينا أن اللامركزية ليست « بدعة في اللغة العربية » ويوجـه كلامه للذين ينفرون من كل جديد ، كما ينفي عنها صيغة « المهزلة السياسية » ، ويدعم قوله بانه قد سبق للاطباء والحكماء والفلاسفة ان استعملوا مثل هذا التركيب من قبـل فقالوا : « اللااسم له » وقالوا « اللانهاية » وقالوا « اللاادارية » . ثم بين ان العمران مدفوع الى اللامركزية قسرا لان « اللامركزية هي النظام الوحيد ، الذي يتكفل احسن من كل نظام آخر ، بالقدرة على معرفة احتياجات كل جزء وسدها بالوفرة والسرعة اللازمتين » .. ثم يقدم صورة للاوضاع في الامبراطورية العثمانية : « ضعف في المركز الرئيسي ،وضعف في المراكز الاخرى المحيطة ، وتفكك في صحة الروابط التي تربط هذا الجسم ، وخلل في الاعماق عموما ، واذا دام الحال أكثر فلا بد من وقوع الفســاد التام في الاعضاء وانفصالها بالكلية عن الجسم كله »(٤١) .

اما رفيق العظم رئيس حزب اللامركزية فقد بين ان اللامركزية شيء وطلب الاستقلال شيء آخر ، ونبه المعارضين الى الخطر الذي تواجهه الامبراطورية والـى سلسلة المصائب التي الت بانحائها وكان نهايتها « ذهاب طرابلس الغرب والولايات المكدونية » ودخول الدولة متاهة السيطرة الاوربية في شكل يراه ويعلم نتائجه الذين يهاجمون اللامركزية ، ويصل الى النتيجة التالية : « كل ذلك جعلنا نذهب الى أن الادارة الماضية لهذه الدولة ادارة لا تصلح لهذا الملك وان تغييرها ضروري لسلامةالبقية الباقية من الاوطان العثمانة اذا بقي أمل السلامة » . (٤٢)

ويشير رفيق العظم في مقالاته التي نشرها في جريدة المؤيد الى ارتفاع أصوات (خطباء السياسة) من فوق المنابر في مصير بلاد الدولة العثمانية خصوصا سورية ، وبلوغ الامة حالة من الجزع على بقية الاستقلال يعلمها كل من كان عنده عرق ينبض من العثمانييـن ..

وقد بقي هذا الجدل الصحفي قائما مـدة طويلة واتسعت دائرته حتى شملت صحف المهجر ، وصحف الجمعيات العربية ، والمنتدى الادبي ، وصحف الجمعيات الاصلاحية وكذلك الصحف التركية ، ولـم يتحـرك الاتحاديون لتطبيــق البرامج الاصلاحية ، أو بحث قضية اللامركزية بشكل جاد ، وعندها فكر أعضاء (جمعيـة العربية الفتاة) السرية في باريس ، تخطي هذا العمل الى عمل اكثر صلابة واكثر

ايجابية لمواجهة الاتحاديين .. وانتهى الى ضرورة عقد مؤتمر عربي في باريس ، تدعو اليه جمعية العربية الفتاة ، ويتبناه حزب اللامركزية الادارية العلني ، الموجودفي مصر. وبالرغم من الحملة الصحفية التي تبنتها صحف الاتحاديين ، ومؤيديهم من معارضي اللامركزية ، ومحاولة قتل هذه الفكرة الاصلاحية في المهد ، الا ان المؤتمر عقد في الوقت المحدد له ، وهو ١٨ حزيران ١٩١٣ .

اللامركزية الادارية واللامركزية السياسية « الكونفدرالية »

في المؤتمر العربي الاول :

طرحت قضية اللامركزية في المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس بتاريخ ١٩١٣/٦/١٨ وانتهى بتاريخ ٢٣/٦/ ١٩١٣ ، وكانت اللجنة التحضيرية للمؤتمر قد وزعت بيانا تحت عنوان « نداء الى الامة العربية » تدعو العرب فيه « الى أن يتمثلوا في المؤتمر الذي نظمته الجالية العربية في باريس للمطالبة بالاصلاحات اللامركزية والاعتراف بحقوق العرب في السلطنة »(٤٣) .

وقد تطرقت أكثر خطب المؤتمر الى هذه القضية الحيوية التي كانت تشكل الراي العام العربي في ذلك الوقت (٤٤) غير أن مندوب حزب اللامركزية السيد (اسكندر عمون) ركز على هذه المسألة في خطبته التي تحمل عنوان « الاصلاح على قاعدة اللامركزية » وكان جوهر الخطبة هو جوهر الفكر الذي طرحه حزب اللامركزية من خلال برنامجه الذي شرحته سابقا ، وبين أن هذا الحكم المركزي يحصر ادارة امور الامة في قوم قليلين ويقصي عنها سائر أبنائها ، شأنه شأن الجسم الذي يتولى عضو واحد منه قضاء كل حاجات ذلك الجسم ويقضي على باقي الاعضاء بالشلل.....

ثم بين الاسباب التي تستوجب تطبيق اللامركزية ومنها : ان الامة العثمانية مكونة من عناصر متباينة في أصولها ولغاتها وتاريخها واخلاقها وحاجاتها وعاداتها ، « وكل فريق ادرى بحاجاته الخاصة » هذا من ناحية ...

ومن ناحية اخرى ان « المركزية لا يمكن أن تتفق مع الحكم الدستوري » ، لان هذا الحكم يقتضي اشتراك أبناء الامة جميعا في كل حق وفي كل واجب ، والاشتراك مع ذلك التباين غير ممكن على مبدأ المركزية ، ثم اشار اسكندر عمون الى ان الحكم المركزي يقتضي بطبيعته أن تكون السلطة محصورة في عنصر واحد من عناصر الامة ، فيصبح

موقف هذا العنصر تجاه سائر العناصر موقف الخصم الغالب من الخصم المغلوب على امره كما هو الحال في الامبراطورية . ثم توصل الى النتيجة التالية وهي : ان هذا النظام الفاسد هو السبب في انحطاطنا وعلة كل المحن والمصائب التي حلت بنا ، وانه هو الذي اضاع نصف المملكة ويوشك أن يذهب بباقيها(٤٥) .

لم يكن العرب في هذه الفترة ينادون بالانفصال عن الدولة العثمانية كما كان يتوهم بعض انصار النظام المركزي ، واكد اسكندر عمون : ان هذا الامر بعيد عن الصحة ، وأن الامة العربية لاتريد الا استبدال شكل الحكم الذي يرجى منه وحدة الصلاح والنجاح لنا ولهم وهو الحكم على قاعدة اللامركزية ، بالحكم الفاسد ـ الذي يكاد يؤدي بالدولة ـ . . اما اذا أبت الامة التركية الا الهلاك ـ لم يقل العثمانية ـ فالعرب معذورون اذا هم ترددوا قبل أن يلقوا بنفسهم معهم في الهوة . . وأكد انه يريد استبدال حكم يناسب حاجة كل العناصر على اختلاف شؤونها بنظام الحكم القائم ، فيكون بمقتضاة لاهل كل ولاية الكلمة العليا في ادارة شؤونهم الداخلية ويكون لمجموع الامة العثمانية سلطة عليا نيابية قائمة على النسبة الصحيحة لادارة الشؤون العامة . وختم مندوب اللامركزية كلمته موضحا :

« ومعنى ذلك اننا نريد حكومة عثمانية ، لا تركية ولا عربية : حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات فلايستأثر فريق بحق من الحقوق ولايحرم فريق من حق من الحقوق لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين عربيا كان أو تركيا، أرمنيا أو كرديا مسلما أو مسيحيا اسرائيليا او درزيا . . . .

هذه هي فوائد اللامركزية التي نطلبها ، فاذا نفذ الاصلاح بمقتضاها امنا غوائل الحدثان واسترجعنا باذن الله مركزنا القديم بين الامم الكبرى . هذه هي قاعدتنا السياسية الجامعة، وان كان لابد لهذه القاعدة أيضا من شهداء فكلنا مستعدون» (٤٦) .

ولم يكن ممثلو حزب اللامركزية وحدهم قد اتجهوا الى ابراز اللامركزية كعلاج لاوضاع الامبراطورية وحل لمطالب العرب ، بل ان ممثلي جمعية العربية الفتاة السرية ، اتجهوا الى ابراز مبدأ القومية ، واشار عبد الغني العريسي الى أن للعرب حق الوجود السياسي وان للعرب حقوق رئيسية تتعلق بقوى الدولة الثلاث :

السلطة ، والقوة التشريعية ، والقوة الاجرائية .

وطالب بقسط مشروع من كل وزارة في الامبراطورية ، وبحق الامة العربية فيما يتعلق بالنافعة : « فان كل قرض يقترض من الدول الاجنبية للامور النافعة لنا فيه حق مشروع ، لان هذه القروض تعقد باسم المملكة وما دمنا نؤلف نصف المملكة فلنا حق بأن تصرف نصف هذه القروض للمشروعات العامة في بلادنا العربية » .

كما طالب العريسي بأن تكون اللغة العربية لغة رسمية في البلاد العربية بمادة قانونية تذكر في القانون الاساسي ، لا قانون حكومة موقتة يمكن الغاؤه من حين الى آخر بتقلب الوزارات المستعجلة . . . (٤٧)

كما ان رئيس المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي اشار الى : « وجوب اشتراك الفريقين (ويعني العرب والترك) بسياسة البلاد ، فانه قد تبين واضحا انه لا العرب انتفعوا ببراءتهم من ذنب اضاعة البلاد ولا الترك انتفعوا بتحملهم وحدهم تبعة ذلك العبء الثقيل . وبديهي أن هذا الاشتراك لا ينافي الاخاء بل الذي ينافي الاخاء هو عدم هذا الاشتراك » وبين الزهراوي ان : « أساس تربيتنا السياسية بعد الان هو بث هذه الفكرة والتعصب لها » ثم يخلص الزهراوي الى القول : « وقد وجدنا اللامركزية من خير الوسائل لظهور أثر هذا الاشتراك خارج العاصمة »(٤٨) كما اكدت كلمة نعوم مكرزل التي القاها باسم المهاجرين ومؤازرتهم للنهضة العربية الاصلاحية ، على أن المهاجرين من وراء البحار « يتمنون لمبادىء اللامركزية الانتشار والانتصار » .

نلمح في خطب المؤتمر العربي الاول في باريس التركيز على اللامركزية الادارية بالاضافة الى اللامركزية السياسة ، أي أن المؤتمر كان يتكلم بما يؤمن به اعضاء حزب اللامركزية الذي تبنى المؤتمر ، وما دعت اليه جمعية العربية الفتاة السرية .

ولكن مما لا شك فيه أن المناقشات التي دارت أثناء المؤتمر تلقي ضوءا واضحا حول محاولة استغلال هذه المفاهيم التي طرحها اعضاء المؤتمر . . .

فقد حاول بعض المتفرنسين مناقشة مبدأ المركزية واللامركزية من منطلق ان العرب لايمكنهم أن ينجحوا بأي طريقة من طرق الادارة الا اذا استعانوا في تنفيذها بمعارف الاختصاصيين من الاجانب كمستشارين للعرب ، وقد تزعم هذه المناقشة المحامي (شارل دباس) الذي كان يحضر المؤتمر عن الجالية العربية في باريس ، وختم مناقشته بقوله : « وصفوة القول أنه لا اصلاح حقيقي الا بالمستشارين الاجانب » (٤٩) .

وقد رد عليه كل من الشيخ احمد طبارة وسليم سلام واسكندر عمون بأن : « كل ولاية ادرى بحاجتها واعرف بدخائل نفسها واحق بطلب ما فيه مصلحتها وهذا هو معنى اللامركزية » بمعنى أنه اذا كان هذا يصلح لولاية ما ، فانه لا يصلح لولاية أخرى .

وقد أيد كلام شارل دباس ، الدكتور أيوب ثابت وتساءل : أليست حرية الكلام مباحة للجميع؟ فأجابه الرئيس بالايجاب، وعندها طلب الاثنان وضع نص بهذا الخصوص في برنامج حزب اللامركزية وفي قرارات المؤتمر ...

وعلى العموم فقد أجاب اسكندر عمون أن : « لا داعي يدعو الى وضع نص مخصوص في برنامج الحزب يوجب تعيين الاجانب ما دام لكل ولاية في نظر الحزب حق ادارة شؤونها » وليس للحزب أن يحتم على ولاية أمرا بما كان في حالاتها الخاصة بها ما لا يتفق معه مؤكدا : « ان تقرير حالة واحدة لكل الولايات هو ما نشكو منه اليوم؟ » وهكذا خيب عضو حزب اللامركزية أمل هذه الفئة ، وصدرت قرارات المؤتمر خالية من طلب الاستعانة بالمستشارين الاجانب. وكانت أهم نقاط قرارات المؤتمر العربي الاول في باريس تشير الى : ضرورة الاصلاحات الحقيقية في البلاد العثمانية ، وان يضمن للعرب حق التمتع بحقوقهم السياسية وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكا فعليا، وان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها ، ويجب أن تكون اللغة العربية معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ، وان تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية الا في الظروف والاحيان التي تدعو للاستثناء الاقصى .

كما صادق المؤتمر ايضا على لائحة بيروت الخاصة وهي قائمة على مبدأين أساسيين وهما : توسيع سلطة المجالس العمومية ، وتعيين مستشارين أجانب ، وكان قد صدق عليهما في ٣١ كانون الثاني سنة ١٩١٣ ، وطلب المؤتمر تنفيذ هذين المطلبين، كما طالب الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمتصرفية لبنان وسائل تحسين ماليتها .

والحقت قرارات المؤتمر الاصلية بملحق ينص على عدة نقاط أهمها : « اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول اي منصب كان في الحكومة العثمانية الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها » .

وقد تقرر أن تكون هذه القرارات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ، ولا يمكن مساعدة اي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

غير أن هذه الآراء التي وردت في مقررات المؤتمر العربي الاول في باريس قد عدلت ، بالاتفاقية التي تمت بين أعضاء المؤتمر ووقع عليها عبد الكريم الخليل رئيس الشبيبة العرب في الاستانة ، وبين جمعية الاتحاد والترقي ، ووقع عليها مندوب الاتحاديين مدحت شكري ، وهو اتفاق يقصر عن تحقيق المطالب العربية الواردة في مقررات المؤتمر وتتكون من اثنتي عشرة مادة، وانما حافظ على عدة نقاط جوهرية منها: التعليم في جميع البلاد العربية يكون باللسان العربي في القسم الابتدائي – والاعدادي ويكون بلسان الاكثرية في القسم العالي ، كما يشترط في جميع رؤساء المأمورين ما عدا الولاة معرفة اللغة العربية ، والاوقاف الموقوفة للجهات الخيرية المحلية تترك ادارتها لمجالس الجماعات المحلية ، وتترك الامور النافعة (الاشغال) للادارة المحلية ، والعسكر يخدمون في البلاد القريبة منهم ، أما العسكر الذي يلزم ارساله الى اليمن والحجاز وعسير يرسل ضمن نسبة عادلة من جميع المملكة العثمانية . اما بخصوص الوظائف فقد تم الاتفاق على أن يكون في هيئة الوزارة ثلاثة على الاقل من أولاد العرب ، وكذلك في محكمة التمييز ودائرة المشيخة وجميع الدوائر ، ويعين خمسة ولاة على الاقل من ابناء العرب وعشرة متصرفين ، ويعين في مجلس الاعيان من اولاد العرب بنسبة اثنين من كل ولاية ، ويعطى مقدار لسد عجز ميزانية الدوائر التي تترك ادارتها للولايات فيضاف هذا المقدار الى ميزانية الولاية ويعطي غير ذلك نصف رسوم العقارات على ان يصرف للمعارف ، وكان البند الثاني عشر ينص على التالي : يقبل مبدئيا ان تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللسان العربي وينظر في أمر تنفيذه بالتدريج . لقد وقع رئيس الشبيبة على هذه البنود بالرغم من انها ، بالمقارنة ، كانت دون المطالب العربية ، وقد وقعت الاتفاقية تدليلا من قادة المؤتمر عن حسن نواياهم تجاه الدولة العثمانية وتعبيرا منهم عن مرونة سياسية ارادوا بها اعطاء الاتحاديين وانصارهم من العرب ، فرصة أخيرة للتفاهم مع أحرار العرب اللامركزيين .

ومن المعلوم أن اتفاقية باريس لم تنفذ ، ذلك ان حكومة الاتحاد والترقي عندما قررت تنفيذ (الاصلاح) استصدرت ارادة سنية بذلك ، كشفت فيها عن حقيقة سياستها ونواياها ، فقد جاءت الارادة السنية مسخا للاتفاق وتشويها له في أكثرية بنوده وتراجعا تاما عن اهم هذه البنود وهو البند الثاني عشر الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلاد العربية باللغة العربية .

ووقف طلعت باشا خطيبا في الحفل الذي اقيم يوم ١٩١٣/٨/٥ في الاستانة ، بمناسبة صدور تلك الارادة السنية ، فأعلن على مسمع من الحضور والقادة العرب : أن موقف العثمانيين من نظام اللامركزية «كان مبنيا على أوضاع الشعوب البلقانية ، اننا

كنا نعلم نزعات تلك الشعوب ونواياها وكنا نخشى ان يؤدي نظام اللامركزية الى تسهيل وتسريع انفصالهم عنا » ثم يشير الى انفصال تلك الشعوب ولم يعد هناك : « ما يستوجب الاستمرار في سياسة المركزية .. لاننا نعرف نزعاتكم الحقيقية » وأكد طلعت باشا للعرب ان السياسة الجديدة ستكون مبنية على التفاهم والمودة الصحيحة ، قائلا : « لن نتردد في المضي معكم الى آخر حدود التساهل في سبيل تطمينكم على صيانة حقوقكم لاننا نعتمد على اخوتكم »(٥٠) .

واذا كان الكلام على هذه الصورة ، فان التطبيق كان غير ذلك . اذ بدأت مماطلة الاتحاديين في تحقيق بنود الاتفاقية من جهة ، ومماطلتهم في قضية اعادة افتتاح الجمعيات الاصلاحية وخاصة في بيروت ، بل ومقاومة الاصلاحيين عن طريق المجلس العرفي ، ثم موقفهم من الانتخابات لمجلس المبعوثين ..

وأهم من ذلك فقد تمكن الاتحاديون بهذه الطريقة التي اتبعوها من شق أعضاء المؤتمر ، وقد كان لانشقاق عبد الكريم الخليل (رئيس الشبيبة العرب في الاستانة) وعضو مؤتمر باريس ، ثم انشقاق عبد الحميد الزهراوي (رئيس المؤتمر) وقبوله منصب (عضو مجلس الاعيان) ، كان لانشقاقهما اكبر الاثر على تصدع الجبهة العربية وحركة طلاب الاصلاح واللامركزية، مما ادى الى مطالبة الاحرار العثمانيين وفي مقدمتهم أعضاء جمعية العربية الفتاة السرية ، وحزب اللامركزية العلني الى مقاومة الاتحاديين وحكومتهم وانصارهم ، والاصرار على ضرورة اعلان الحكم اللامركزي ، اما العسكريون فقد وجدوا في ذلك الانشقاق ومقدماته الدليل الذي وجده أعضاء الجمعيات الاصلاحية والاحزاب اللامركزية ، ولكنهم وجدوا فيه فوق ذلك دليلا على عدم قدرة المدنيين وعملهم السياسي ـ العلني على تحقيق المطالب العربية فاندفعوا نحو تأسيس تنظيم عسكري سري ، تبلور في جمعية العهد العسكرية السرية والتي تخطت اللامركزية الادارية الى اللامركزية السياسية .

اللامركزية السياسية : « الكونفدرالية » :

طرح مفهوم اللامركزية السياسية في الدولة العثمانية بشكل ظاهر عندما تأسست جمعية (العهد)(٥١) بعد انعقاد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ ، اي بعد أن ظهرت نوايا الاتحاديين في تمييع ما توصل اليه المؤتمر من بنود ، واتضحت نواياهم تجاه المشكلتين الرئيسيتين القائمتين في الامبراطورية العثمانية آنذاك وهما مشكلة الاستبداد ، ومشكلة التسلط القومي .

فقد اتضحت تلك النوايا وهذه السياسية على انها مركزية استبدادية مقنعة بالدستور تجاه المشكلة الاولى ، وعلى انها مركزية عنصرية طورانية مقنعة بالخلافة تجاه المشكلة الثانية .

ان تلك النوايا وهذه السياسة قد دفعت بمؤسسي جمعية العهد من ناحية المبادىء والاهداف ، الى المزيد من التمسك « بالقومية العربية » التي تتجسم في تأكيد واضح للامركزية سياسية تحل محل اللامركزية الادارية ، وتتخطاها على طريق المزيد من الحقوق القومية ، أو التي تتجسم ، بلغة أخرى ، في حل لاوضاع الامبراطورية العثمانية لتحقق به مقومات الاستقلال القومي السياسي دون ان يصل الى درجة الانفصال عن الدولة العثمانية(٥٢) .

ان بين فكرة اللامركزية الادارية وبين الاستقلال بالانفصال الكامل ، نقطة وقفت عندها جمعية العهد هي :

اللامركزية السياسية ، أو الكونفدرالية ، او الاستقلال القومي ، في نطاق امبراطورية ثنائية ذات راس رمزي واحد ، كما نصت المادة الاولى من مبادىء الجمعية واهدافها .

ولم يكن وصول اعضاء جمعية العهد الى هذا الموقف وتبنيه ، امرا فجائيا يفتقر الى المقدمات . . . فقد كانت حقوق القوميات في الامبراطورية العثمانية ــ كما بينا ــ مسالة أساسية ومطروحة ، تعددت صيغ الحلول التي تبنتها (الجمعيات) والتنظيمات السياسية تجاهها ، وتطورت هذه الصيغ تطورا سريعا ومتواصلا بلغ مرحلة جديدة نوعيا في مؤتمر باريس ، ولم يلبث ان انتهى في الحرب العالمية الاولى الى مطالبة العرب بالاستقلال والانفصال .

ان المناداة بتكوين مملكة ثنائية ، لحل المشكلة العربية التركية ، لم يكن الاتجاه الذي نادى به العرب وحدهم ، بل اننا نجد اشارات تقول بأن هذا الاتجاه هو اتجاه نادى به بعض الاتراك أيضا . فنجد الكاتبة التركية خالدة اديب تتحدث عن هؤلاء القادة الذين لم تذكر اسماءهم فتقول : « . . . كان لديهم رغبة بصورة معقولة في الوصول الى تفاهم مع العرب ، وخلق مملكة ثنائية ببرلمانين منفصلين تحت رئاسة الخليفة السلطان على غرار النموذج النمساوي ــ المجري ، وكانت هذه الفكرة الاخيرة هي التي حدت بالاتراك للحديث عن عاصمة جديدة ، ولقد اقترحت حلب من حيث كونها على الحدود العربية التركية »(٥٣) .

ولا بد لنا هنا من الاشارة الى أن الجمعية القحطانية السرية ـ التي شكلت بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨ ـ بوقت قصير ، كانت قد سبقت جمعية العهد في الدعوة الى صيغة الكونفدرالية الثنائية ، اذ تبنت الدعوة الى مشروع جديد وجريء هو : « تحول الامبراطورية العثمانية الى ملكية ثنائية » ، وكانت هذه محاولة أخرى لمواجهة المشكلة التي خلقتها مركزية الاتحاد والترقي ، ووفقا لذلك المشروع كانت الولايات العربية ستكون مملكة واحدة لها برلمانها وحكومتها المحلية ، وتكون اللغة العربية هي لغة مؤسساتها ، وكانت هذه المملكة جزءا من امبراطورية تركية عربية يقام بنيانها على غرار بنيان الامبراطورية النمساوية ـ المجرية .

وهكذا كان على السلطان العثماني في القسطنطينية ان يلبس بالاضافة الى تاجه التركي ، تاج المملكة العربية ، كما كان امبراطور هابسبورغ يلبس تاج المجر والنمسا .

وتشير الوثائق والكتب(٥٤) الى أن أعضاء القحطانية هم انفسهم اعضاء جمعية العهد ـ باستثناء المدنيين ـ وان رئيس الجمعيتين هو عزيز علي المصري ، فليس من المستبعد ان يكون برنامج العهد ، هو برنامج الجمعية القحطانية التي لم تعمر طويلا بعد تأسيسها اذ انضم اعضاؤها المدنيون الى الجمعيات العربية ، السرية والعلنية ، التي تأسست فيما بعد ، وأسس العسكريون جمعية العهد بعد فشل تحقيق متطلبات المؤتمر العربي الاول .

ولكن مما يلفت النظر ان الاستاذ توفيق برو يقول : ان عزيز المصري قد انكر التمثل بذلك النظام أثناء مقابلة شخصية زاره فيها برفقة الدكتور حسن صعب ـ قبل وفاته في الستينات ـ وفسر وجود هذا البند في برنامج جمعية العهد الذي اورده أمين سعيد وغيره ، انه قد يكون تعديلا متأخرا ادخله رفاقه المشرقيون فيما بعد ، ولكن هذا القول لابد وان يقيم في ضوء أوضاع عزيز المصري وقت هذه المقابلة (الناحية الصحية ، والسن)خاصة وان التطلع الى النموذج النمساوي ـ الهنغاري لم يكن غريبا على الفكر العربي ، فقد كان عبد الرحمن الكواكبي قد اشار اليه قبل ظهور جمعية العهد بفترة طويلة في كتابه المشهور « أم القرى » كما ذكرت سابقا ، ومن ناحية اخرى ان المطالبة باللامركزية لم تعد تؤدي الغرض نفسه بعد الحرب العالمية الاولى ، ولم تعد مطروحة على بساط البحث ، حتى يطالب بها أعضاء جمعية العهد المشرقيون ، بل ان الجمعية نفسها قد انقسمت الى جمعية العهد العراقية ، وجمعية العهد السورية ...

ومما يؤيد وجهة نظرنا هذه ان عزيز علي المصري قد نادى بثنائية التاج في الجمعية القحطانية التي اسسها بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ وكرر النداء في جمعية العهد ثم تخطى هذا النداء الى المطالبة بالاستقلال في برنامج الجمعية الثورية التي اسسها اثناء الحرب ، ويقول احمد قدري في مذكراته ان منشورات هذه الجمعية قد وقعت بين يدي جمال باشا السفاح وتم شنق القافلة الاولى والثانية للاحرار العرب في سنتي ١٩١٥ ، ١٩١٦ على اثر ذلك(٥٥) .

لقد فكرت الجمعيات العربية التي نادت باللامركزية ان تعقد مؤتمرا عربيا آخر ، قبل الحرب العالمية الاولى ، وبدأ الاستعداد له من قبل جمعية العربية الفتاة ، وكانت قد نقلت مركزها من باريس الى بيروت واصبح على مقربة من متابعة الاحداث وتقييم نتائجها ، وكتب عبد الغني العريسي الى محب الخطيب ــ عضو جمعية الفتاة وحزب اللامركزية ــ أن يهيء أعضاء حزب اللامركزية وخاصة رفيق وحقي العظم لقبول الفكرة ، على أن يتولى حزب اللامركزية اعداد المؤتمر . .

وقد أصدرت جمعية العربية الفتاة ، ثلاثة منشورات قبل الحرب ، عرفت باسم الصرخات الثلاث(٥٦) تدرجت بالمطالبة من المركزية الى اللامركزية الموسعة ، ثم المطالبة بالاستقلال ، وكانت جميعها تطالب بسرعة تحقيق بنود المؤتمر العربي في باريس ، وقد كتبت الاول بأسلوب من يرغب بالتفاهم مع المسؤولين ، وكان عنوانه « الى اولي الامر في العاصمة » وكانت الجملة الاولى على الشكل التالي : نحن عصبة العرب نمد ايدينا اليكم نصافحكم مصافحة الكريم للكريم . . .

ثم تبدأ الجمعية بتحديد مطالبها ، ويمكن تلخيصها بما يلي :

١ ــ ان من حق العرب مشاطرة الاتحاديين سياسة الملك فيما هو خاص بشأن الامة العربية « فالعرب قاعدة جامعتكم من قبل ومن بعد » .

٢ ــ ان يكون ممثلو العرب في مجلس (المبعوثان) على نسبة عددهم وخصوصا في مجلس الاعيان .

٣ ــ أن تكون الوزارات الجديدة عثمانية لا تركية : « فنحن والارمن كفلاء معكم بحفظ بلادنا وبلادكم ، فكما يكون في الوزارة لجماعتكم حق ، ان يكون لشركائكم » .

أما في السياسة الداخلية فقد طالبت الصرخة الاولى (باللامركزية) وبينت الجمعية ضرر السياسة المركزية التي تتبعها حكومة الاتحاديين بقولها :

« لقد عرف الصغير والكبير ان المركزية في ادارة الشعوب المختلفة لغة وطبيعة تفضي الى انقراض المجموع ، فلكم أيها الاولياء اسوة بالدول العظمى حيث تنفصل الادارات العامة عن الخاصة ، فيقوم كل فريق بشأنه ، فتأتي النتيجة بقوة مادية لا غلبة عليها ومعنوية لا خلاص اليها » وتطالب الصرخة بتقسيم المملكة الى ثلاث مناطق : ولا يات تركية ، ولايات عربية ، ولايات ارمنية ، وعلى رأس كل منطقة وزارة صغيرة ـ خاصة ـ يراسها رئيس يعينه جلالة الخليفة من أهل البلاد ، وهي تتألف من نظارات الداخلية والمعارف والاوقاف والنافعة والزراعة والبوليس والحق العام ، ومجلس نيابي من كلّ منطقة ينتخبه أهلها .

وبعبارة جامعة مانعة ان كل ما هو عائد لمجموع الامة فمرجعه الوزارة العليا وكل ما هو خاص لكل منطقة فمرجعه وزارة هذه المنطقة دون غيرها(٥٧) .

لقد كانت الصرخة الاولى لجمعية العربية الفتاة تسودها روح التفاهم ، وتفتح الباب على مصراعيه أمام الاتحاديين لمد أيديهم بمساعدة العرب والارمن ، وبذات الوقت كان فيها الشيء الكثير من الوعيد : « فان أجاب أولو الامور الى هذا النداء فأيدينا معقودة بأيديهم ،فهم جوانحنا أن استظللنا، ونحن ردؤهم أن استنجدونا والا كانوا كشاد الحبل وهو في وسطه ، فلا ينتهي العقد حتى ينتهي الشاد بقتل نفسه ... »

أما الصرخة الثانية فكانت موجهة الى ابناء العرب عامة ، وقد كتبت بأسلوب ثوري ، يستفز العرب وضمائرهم لاحياء مجدهم ... تبين الصرخة اضرار الحكم المركزي المتبع في البلاد والذي تعاني منه الامة العربية ، ويؤكد أعضاء جمعية الفتاة : « ان الغاية من صرختهم هذه ليس الانسلاخ عن الدولة العثمانية » أو « التنكر للامة التركية » ، ولكن الغاية منها ان يفهم أبناء العروبة « حقيقة التاريخ الحاضر فيعلموا ان الدولة العليا أصبحت لاتستطيع أن ترد عنهم غارة المغيرين » وتضرب مثلا ضياع طرابلس الغرب وفشل الدولة في البلقان(٥٨) .

وتتعرض الصرخة الثانية الى الحركات الاصلاحية وتشير الى انها غير كافية لحفظ البلاد ، ويطالب اعضاء الفتاة بتطبيق « اللامركزية الواسعة » ويضربون مثلا بدولة المانيا ، والولايات المتحدةودولة النمسا والمجر وسويسرا وامريكا الجنوبية والشمالية ، ويطلبون في صرختهم تطبيق النظام الاداري الذي قدموه في صرختهم الاولى .

وتختم الصرخة الموجهة الى ابناء العرب عامة بنداء : « الى اللامركزية ايها القوم » مع برنامج لتطبيق اللامركزية كانت قد ذكرته الصرخة الاولى واكدته الصرخة الثانية ومؤداه : « ثلاث وزارات خاصة ووزارة عامة » ثـم تنبـه الصرخـة الـى الخديعة : « اياكم والخديعة فتهزأ بكم جماعة العاصمة فيمنحون للولاة توسيع المأذونية » التـي يصفها أعضاء جمعية الفتاة بأنها : « أضر حالا وشر مآلا من طراز الحكم الحاضر » معللين ذلك بقولهم : « فنحن نشكو فعالهم وهم تحت مراقبة الاستانة فكيف بهم لـو رفعـت هذه المراقبة» . ثم يكررون نداءهم ثانية: «فاياكم والخديعةفتوسيع المأذونية ليس من اللامركزية في شيء ، فتبقون بها اما تحت خرق الولاة أو استعباد الاجانب . . . »(٥٩)

لم تحمل هذه الصرخات تاريخا معينا لصدورها ، ولكن يمكننا تحديـد تاريخهـا من وثائق أخرى ، في ما بين ٣١ آذار و ٢٥ نيسان سنة ١٩١٤ ، اذ ان الصرخةالثالثـة صدرت بعد هذا التاريخ بقليل . وأهم ما جاءت به هذه الصرخـة (الثالثـة) دعـوة صريحة للانفصال ، وتضرب مثلا بدولة اليونان التي انفصلت عن الدولـة فأصبحـت « أرقى من الترك بدرجات . . . والجبل الاسود فكان آية في الانتظام ، وانفصل الصرب . . . وانفصل البلغار ، . . . . ان تلك العناصر قد انقذت نفسها من القبر التركي ــ كما تقول الصرخة ــوجعلت لنفسها مكانة ومنزلة قد تكون لامتنا العربية بل من المحقق ان تكون . . . »(٦٠) .

لقد قرر أعضاء جمعية الفتاة أن لاجدوى من التفاهم مـع الترك بعـد مخاتلتهم ومراوغتهم لتحقيق المطالب الاصلاحية التي تقدم العرب بطلبهـا : « . . . وليعلمـن المختالون والمراوغون أن هذا اليوم له ما بعده ، وليعلمن العرب ان حركتهم لن تقـف دونها دسائس الساسة وانهم ضاربون هذه الدولة من اركانها حتى تخفـق في البـلاد رايـة العرب على سكانها » .

كما أصدر حزب اللامركزية الادارية بيانا شرح فيـه اللامركزيـة وفوائدهـا ، وطالب بأن تطرح قضية اللامركزية على الامة لاخذ رأيها بأن تصادق على منهاج الحزب عامة كما في كل مملكة دستورية ، واكد البيان على أن « افراد هذه الامة رغم مطالبتهـم باللامركزية الا انهم يريدون البقاء للدولة العثمانية والحياة مع اخوانهم الاتراك تحـت راية الهلال وان العنصر العربي والعنصر التركي لاغنى لاحدهما عن الآخـر » كمـا ان البيان يشير الـى « ان العرب قد اجتمعت كلمتهم في أنحـاء الامبراطورية العثمانيـة والمهجر على طلب تحقيق الحكم الاداري اللامركزي » حسب مقررات المؤتمر العربي في باريس ، واشار البيان « أن العرب سيقومون بمظاهرة سلمية يوم نشر البيـان وهـو

٩/١٠/١٩١٣ فيقف طلاب اللامركزية في العراق وسوريا وفلسطين والجزيرة العربية واوربا وامريكا أمام ادارات البريد يخاطبون الصدر الاعظم بلسان ينطق بالاخلاص للدولة والحرص على سلامتها ، ويناشدونه تنفيذ احكام اللامركزية الادارية الواسعة في الولايات العربية وأعطاء الشعب حرية في هيئاته النيابية وامور المعارف والنافعة وجميع الشؤون الاقتصادية المحلية واعتبار اللغة المحلية لغة رسمية »(٦١) .

وقد قرر حزب اللامركزية بعد ذلك عقد مؤتمر ثان يدعى اليه « ابناء الأمة العربية » ويحتج على حكومة الاتحاديين لانها تطارد اعضاء الحزب بتهمة « أنه موجود عندهم ما يسمونه « الأوراق المضرة » . . . وبقيت المداولات ما يقارب العام ، فقد وجدت عدة وثائق حول هذا الموضوع منها ، محضر الجلسة الاخيرة للحزب وكانت بتاريخ ٢٥ يوليو ١٩١٤ ، ووجدت مسودة الدعوة بين أوراق محب الدين الخطيب الذي تمكن من أن يقنع حزب اللامركزية بتبني المؤتمر الثاني للعرب كما اقترحت جمعية العربية الفتاة السرية ، ولكن هذا المؤتمر لم يعقد ، لان الحرب العالمية الاولى قد أعلنت قبل وضع جدول أعمال المؤتمر وتعيين وقت انعقاده وتحديد مكانه . . . (٦٢) .

أعلنت الحرب العالمية الاولى بعد خمسة أيام من تاريخ هذه الجلسة ، فقلبت الاوضاع راسا على عقب ، وطرحت مفاهيم جديدة وحلول جديدة للعديد من القضايا ، خاصة بعد أن زج الاتحاديون وحكومتهم بالدولة العثمانية في أتون الحرب الى جانب المانيا في ٣٠/١٠/١٩١٤ ، فكان ذلك بداية لمرحلة جديدة تعيشها أوضاع (الرجل المريض) .

مفهوم اللامركزية خلال الحرب العالمية الاولى :

١ ـ في بداية الحرب : التراجع عن طلب تحقيق اللامركزية والوقوف الى جانب الدولة العثمانية .

قد يستغرب البعض تقلص انتشار مفهوم اللامركزية وشموليته في بداية الحرب العالمية الاولى ، ذلك ان شبح المطامع الاوربية في أملاك (الرجل المريض) وخاصة البلاد العربية ، قد اصبح واضحا .

وبالرغم من أن موقف العرب في تقرير المصير كان في منتهى الخطورة ، ألا أنهم وقفوا الى جانب الدولة العثمانية ، بالرغم مما يحمله هذا القرار من تراجع عن المطالب العربية وخاصة عن مطلب تحقيق اللامركزية ، وصدرت بيانات الجمعيات والهيئات الشعبية تطالب ان يقف الجميع الى جانب تركيا . .

فقد كتب رئيس جمعية العهد بيانا ارسله الى انصاره في الاستانة ودمشق يطلب فيـه : « ان لايغريهم شيء في الدخول في أعمال عدوانية ، ضد الامبراطورية العثمانية، لان دخولها الحرب سوف يعرض الولايات العربية للفتح الاوربي ، وان عليهم أن يقفوا الى جانب تركيا لحين الحصول على ضمانات فعالة ضد المخططات الاوربية » .(٦٣)

كذلك أصدر حزب اللامركزية عدة بيانات بهذا المعنى . وكتب رشيد رضا الـى اصدقاء الحزب ، والى مسلمي سورية خطابا عاما ، يقول فيه : « ... اشكركم علـى ما أظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة وبـذل الانفس والامـوال والثروة لها ، والكف عن طلب الاصلاح فيها ، وتقديركم الحالة الحاضرة »(٦٤) .

وهناك (بعض الوثائق) على شكل رسائل متبادلة بين بعض قادة الحركة العربية، ورسائل من اعضاء الجمعيات الاصلاحية ، تشير الى اتجاهات وآراء اقل تحفظـا في تأييد الدولة العثمانية من الاتجاهات والاراء المذكورة ، ولكنها في النهاية تحبذ ضـرورة الوقوف الى جانب الدولة العثمانية في الحرب(٦٥) .

غير ان أعضاء جمعية العربية الفتاة طرحوا مفهوم الاستقلال ، بدلا من مفهـوم اللامركزية ، اثر اعلان الدولة العثمانية الحرب في ١٩١٤/١٠/٣٠ الى جانب الالمـان ، فاصدرت الجمعية قرارا واضحا جاء فيه : « ان غاية العرب هي الاستقلال حفاظا على كيان الدولة العربية لاعداءللاتراك ، أما اذا كانت البلاد العربية عرضـة لخطر الاستعمار الاوربي فان الجمعية تعمل مع أحرار العرب كافة للدفاع عن البلاد العربية جنبا الـى جنب مع الاتـراك » (٦٦) .

وهنا لابد من الاشارة الى نقطتين مهمتين تدلان على معالم الصـورة في واقـع الوطن العربي هذه الفترة :

الاولى : ان قوة الحركة العربية ، المتمثلة بالجمعيات العربية وما يلتف حولهـا من قوى مؤيدة ، لم تكن في ظروف الحرب وصراع قواها ، القوة الاولى الموجـودة على الساحة في المنطقة ، سواء من ناحية الحجم ، أو التأثير أو الوسائل ...

الثانية : ان الاوضاع العامة في البلاد العربية ، حينذاك ، كانت أوضاعا سيئـة ، سواء أكان ذلك من الناحية المعنوية او المادية : « فالحالة الاقتصادية سيئة جدا وهي قذى العيون ، وانناعلىمقربة من المجاعة ، وما أشاهـده مـن بؤس بعض العائـلات يمزق احشائي ... اما الدقيق فقليل في البلدة فضلا عن ان كثيرا من العائلات لا تملك شيئا ، لان أبواب الرزق قد سدت في وجه العامل والتاجر وسواهما .. »(٦٧) .

وهذا الوضع كان له أكبر الاثر في تأييد الدولة العثمانية من قبل الجمعيات العربية بل والرأي العام العربي ، وان كان مشوبا بالحذر من حيث ربط هذا التأييد بتحقيق المصلحة العربية ،وتعليق استمراره على تنفيذ متطلباتها . هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى رفض التطلع نحو أعداء الدولة العثمانية ، رفضا نابعا من وعي الحراكة العربية وجمعياتها ، لمطامع هؤلاء الاعداء في الوطن العربي ذاته .

ويشير لورنس الى ان وحدات الجيش الموجودة في دمشق وحلب كانت مستعدة للثورة ، وكان بامكانها أن تسيطر على المنطقة في أول محاولة لانه لم يكن للعثمانيين الا فرقة تركية واحدة عند طوروس ، ولكنها لم تعلن ثورتها(٦٨) .

وهكذا فان الحركة العربية ، بذلك الموقف ، فتحت أفقا رحبا أمام الاتحاديين وحكومتهم ، لفتح صفحة جديدة في التعامل معها ، يقوم على تناسي الصراعات الماضية والالتحام في المعركة القائمة التحاما يمليه ادراك خطورة الموقف، وعلى الاعتراف بالحقوق العربية التي كانت تلك الحركة قد حددتها وناضلت من أجلها . .

وبالمقابل رفع الاتحاديون شعارات التضامن العثماني تحت راية الجهاد المقدس عن طريق النصر ، ومن أبرز مظاهر تلك السياسة التوددية تعيين الفريق زكي باشا الحلبي – وهو من كبار ضباط العرب – قائدا عاما للجيوش العثمانية المرابطة في سورية والتي كانت أكثريتها الساحقة ، ضباطا وجنودا ، من العرب ، كما كان من مظاهرها كذلك ، اسناد عدد من المراكز العسكرية والمدنية الكبيرة في سورية الى ضباط العرب ورجالهم . ولكن عمر هذه السياسة التوددية كان قصيرا قصرا مذهلا ، وتغيرها كان تغيرا داميا ، فلم يمض على دخول الدولة العثمانية الحرب أكثر من بضعة اشهر حتى حل جمال السفاح محل الفريق زكي الحلبي في القيادة العامة في سورية .

بدأ جمال باشا عهده في سورية بالسير في تلك السياسة التوددية ، التي كان من ابرز مظاهرها مثلا اقواله في الحفلة الادبية التي دعا اليها زعماء الحركة العربية قبل الهجوم على قناة السويس ، حيث قال : « ان البرنامج الذي عقد حزبنا عزيمته على تنفيذه بحذافيره لاصلاح حالة العرب لاوسع بكثير مما قد يخطر ببالكم ، ولست انا من الذين يتوجسون شرا من بقاء العنصرين العربي والتركي متحدين وتابعين لخليفة واحد ، مع انفصال أحدهما عن الآخر كشعبين متحالفين »(٦٩) .

ولكن سياسة جمال باشا تجاه العرب كان فيها الكثير من الدهاء . اذ عمل على تشتيت القوة العسكرية العربية التي كانت مركزة في سورية ، تحت ستار « حاجة الحرب الى كفاءات الضباط والجنود العرب ، في ساحات أخرى » ، وهذا مخالف

لوعوده من جهة ، ومخالف لمطالب الحركة العربية في أن تحصر مهمات الجيوش العربية في الدفاع عن البلاد العربية ، كما كسب جمال باشا ثقة بعض قادة الحركة العربية وأعضاء المؤتمر العربي في باريس ، وفي مقدمتهم عبد الكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي ، وهما من دعاة اللامركزية ، وعندما اكتشف القناع عن وجهه كسفاح ، كان الاول أحد شهداء القافلة الاولى والثاني أحد شهداء القافلة الثانية من شهداء العرب. وحدث ذلك بسرعة مذهلة فلم ينقض أكثر من بضعة أشهر على أقواله حتى نصبت المشانق في دمشق وبيروت في آب (أغسطس) سنة ١٩١٥ وفي مايس سنة ١٩١٦ . وبالرغم من أن تنفيذ حكم الاعدام قد تم بسرعة مذهلة فان جمال باشا كان يبرر أعماله تجاه قافلة الشهداء الاولى بالنشرات التي تدعو الى تطبيق اللامركزية الادارية ، فيشير الى انه قرأ في الصحف في شهر مايو سنة ١٩١٥ حملات عنيفة موجهة من اللجنة اللامركزية على الحكومة العثمانية ، وانه لم يجد مبررا لذلك ، خاصة عندما جاءه اسعد الشقيري ، مفتي الجيش ، وأخبره أن الثورة بدأت علاماتها في سورية ، كما أكد له كامل الاسعد : ان جماعة المصلحين قد أساؤوا استعمال الثقة التي وضعها جمال باشا في رضا الصلح وعبد الكريم الخليل وغيره وأكد كلام أسعد الشقيري (٧٠) .

اما الاعمال المادية المعزوة للمتهمين من قافلة الشهداء الثانية ، فهي اعمال متباينة تختلف من مجموعة الى أخرى ، ولكنها تتركز أساسا في نقطتين : الانتساب الى جمعية عربية هي حزب اللامركزية ، وهي على حد نص بيان جمال باشا السفاح الصادر سنة ١٩١٦ — في معرض تفسير أحكام الديوان الحربي العرفي « الجمعية التي غايتها ومقصدها سلخ سوريا وفلسطين والعراق عن راية السلطة العثمانية وجعلها امارة مستقلة »(٧١) والنقطة الثانية احراز رسائل سياسية اختلق الاتحاديون بعضها وعزوا البعض الاخر الى زعماء الحركة العربية اللامركزيين . . .

ان أقصى ما يمكن قوله حول هذه التهم ان نفرا قليلا من أعضاء حزب اللامركزية، بالتعاون مع بعض زعامات القطاعات الطائفية من أصدقاء الحزب ، المتصلين بفرنسا والمتعاملين معها ، كانوا هم المتحركين في ذلك الوقت ، وبقطع النظر عن ثبوت التهم او عدم ثبوتها ، فان السياق التاريخي العام للوقائع يدلنا على أن هناك سياسة تعبر عن خطة مرسومة مسبقا للتخلص من أحرار العثمانيين العرب الذين يطالبون باللامركزية، وان مشانق جمال باشا نصبت للتخلص من هؤلاء اللامركزين ، وان السياسة التوددية للاتحاديين كانت سياسة تكتيكية لضرب القضية العربية بعد ان ينالوا ثقة قادة الحركة، وهكذا يمكننا القول ان الحركة العربية أصيبت بضربة شديدة فخسرت عددا كبيرا من خيرة شبابها وقاداتها ، وكان حزب اللامركزية ، والذين نادوا باللامركزية ، اكثرهم

تاثرا بتلك الضربة ، لدرجة ان حزب اللامركزية انتهى على اثرها ، وتحولت المطالبة باللامركزية الادارية ، والمطالبة باللامركزية السياسية ، الى المطالبة بالاستقلال التام والانفصال عن الدولة العثمانية ، بل وبالثورة على هذه الامبراطورية ، فأعلن الشريف حسين في مكة ـ بمؤازرة قادة الحركة العربية ـ الثورة العربية الكبرى ، وكان هدفها الاساسي الحصول على الاستقلال ، وهو الهدف الذي حددته جمعية العربية الفتاة ، وجمعية العهد وغيرها . .

ان الهدف العربي الذي ظهر قبل الحرب العالمية الاولى ، قدتحدد وتأكد خلالها ، وقامت الثورة العربية الكبرى من اجل تحقيقه الا وهو : اقامة دولة مشرقية كبرى ، تضم الاجزاء العربية التابعة للامبراطورية العثمانية ، فتكون دولة عربية كبرى ، موحدة ومستقلة ، وتكون خطوة على طريق وحدة عربية شاملة ، وقد حدد العرب دولتهم هذه: بخط يمتد من الاسكندرونة ويتجه نحو الجنوب حتى يصل رفح فالحدود المصرية ، ثم التيه فالبحر الاحمر حتى باب المندب ثم يشرق مع حدود ولاية البصرة فحدود ايران ، ثم يشمل الى التقاء البلاد العربية ببلاد الكرد ، ثم يغرب فيدخل الجزيرة والموصل ويترك ولاية حلب الى الجنوب فينتهي عند الاسكندرونة »(٧٢) .

وقد ظهرت هذه المطالب العربية في محادثات حسين ـ مكماهون ، بعد ان سلم اعضاء الجمعية العربية ، هذا (المصور الجغرافي) الى الامير فيصل ، فحمله بدوره الى والده الشريف حسين لتصبح الثورة العربية ، وأرض الحجاز ، النقطة المنطلق لرجالات الحركة العربية وتحقيق الهدف العربي الموحد .

ان مشاورات الحسين كانت سببا في كف الاتحاديين عن محاولة ابادة العرب في سورية والعراق ، وقد ادت الى تخفيف ما شرعوا فيه من مذابح ، ثم انها كانت خطوة هامة واولية لاخراج القضية العربية من حيز الفكر والخاطر والامنية الى ميدان الحقيقة الواضحة(٧٣) .

وعندما اخذت القبلة والمنار ، تنشران الاهداف التي تسعى الثورة العربية الى تحقيقها وبأن « الحسين قام بأعظم خدمة للعرب والمسلمين » لانه « باستقلاله هذا قد جعل الحجاز تحت سلطة اسلامية خالصة ، ويوشك ان يكون هذا مقدمة لدولة عربية اسلامية كبيرة »(٧٤) اخذت وفود المسلمين والعرب تتوجه نحو الحجاز لتحقيق الحلم الذي طالما راود العرب الاحرار بعد أن تأكد أن « الحركة العربية لم تقم الا لعز العرب »(٧٥) .

ولم يكن هذا التأييد مقتصرا على البلاد العثمانية ، بل انه كان أكثر شمولا من ذلك ، اذ تجاوز البحار الى المهجر ، فأيد اللامركزيون ـ الاستقلاليون هذه الثورة ورحبوا بقيامها داخل البلاد التركية ، وتفاءلوا بتحقيق الاستقلال للعرب وأصبحوا يمنون النفس بالمستقبل المشرق المنير بزوال دولة الاتراك الهرمة(٧٦) .

أما صحف المعارضة فقد كانت تلوح بتعذر قيام هذه الدولة العربية الكبرى المستقلة ، خاصة وان العداء بين أمراء الجزيرة يحول دون تأسيس دولة عربية ، كانت الصحف الموالية تؤكد : « ان الشريف لقادر على تلافي ذلك بعقد اتفاقية بين الجميع على قاعدة اللامركزية » . وتهون الامر على المعارضين بقولها : « اذا سقطت الدولة في هذه الحرب لم يكن استقلال أمير الحجاز احد أسباب سقوطها ، وان سلمت من الحرب ومن هؤلاء (الملاحدة) وعادت دولة اسلامية قوية ، لم يكن فيما تقدم من أستقلال الشريف ما يمنع من العودة الى الوفاق والاعتصام »(٧٧) .

وهكذا بقيت قضية الاستقلال مطروحة بشكل علني منذ اعلان الثورة وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، ولابد لنا من الاشارة الى أن الاستقلاليين المؤيدين للاستعمار قد كشفوا الاقنعة عن وجوههم مهللين لتدفق الجيوش الفرنسية على السهول السورية « كالسيل العارم الجارف الذي لا يقف في سبيله عائق ولا يرد لتياره حاجز . . . »(٧٨) فهذا التيار له مجال آخر في بحث آخر .

الوثائق :

وثائق : من مكتبة محب الدين الخطيب

سيرة جيل : مذكرات محب الدين الخطيب (مخطوط لم يطبع بعد) .

الكتب العربية :

أحمد قدري : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ، ط ١

اسعد داغر : ثورة العرب ، القاهرة ١٩١٦ .

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ، دار احياء الكتب العربية بمصر

توفيق برو : العرب والترك ، معهد الدراسات ـ القاهرة ١٩٦٠ .

جمال باشا : مذكرات جمال باشا ، تعريب علي أحمد شكري ، القاهرة ١٩٢٣ .

حقي العظم : حقائق عن الانتخابات النيابية في العراق وسورية وفلسطين ، القاهرة ١٩٢٤

رفيق العظم : مجموعة آثار رفيق بك العظم ، القاهرة ١٣٤٤ هـ

ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، بيروت ط٣ ١٩٦٥ .

عزت دروزة : الحركة العربية الحديثة ، ط١ ، صيدا

محب الدين الخطيب : المؤتمر العربي الاول ، القاهرة ١٩١٣

مصطفى الشهابي : القومية العربية ـ تاريخها وقوامها ومراحلها ، معهد الدراسات ، ط٢ ، ١٩٦١

الصحف والمجلات :

١ ـ ابابيل ، بيروت ، حسين محي الدين حبال سنة ١٩١٢ ـ سنة ١٩١٣ .

٢ ـ الاتحاد العثماني ، بيروت ، أحمد حسن طبارة ، سنة ١٩١٢ ـ سنة ١٩١٣ .

٣ ـ الاهرام ، القاهرة ، جبرائيل بشارة تقلا ، سنة ١٩٠٩ ـ سنة ١٩١٤ .

٤ ـ الحضارة ، القسطنطينية ، عبد الحميد الزهراوي ، سنة ١٩١١ ـ سنة ١٩١٢ (جريدة أسبوعية سياسية) .

٥ ـ السهام ، البرازيل ، جورج اسحق ، سنة ١٩١٧ ـ ١٩١٩ .

٦ ـ القبلة ، مكة المكرمة ، محب الدين الخطيب ، ١٣٣٤ ـ ١٣٣٦ هـ (نصف اسبوعية) .

٧ ـ المنار ، القاهرة ، محمد رشيد رضا ، سنة ١٩٠٨ ـ سنة ١٩١٨ (مجلة اسلامية) .

٨ ـ المحروسة ، القاهرة ، الياس زيادة ، سنة ١٩١٤ .

٩ ـ المفيد ، بيروت ، عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس ، سنة ١٩١١ ـ سنة ١٩١٣ .

١٠ـ المقتبس ، دمشق ، محمد كرد علي ، سنة ١٩٠٨ ـ ١٩١٦ .

١١ـ المقتطف ، القاهرة ، فارس نمر ـ يعقوب صروف ومكاريوس شاهين ، م٣٣ ، ج١

١٢ـ المؤيد ، القاهرة ، علي يوسف ، سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١٣ .

Carrespondance d'Orient: Revue economique, politique, et litteraire, Directeur Georges simma, Paris, 1906 - 1915.

الكتب الاجنبية :

T.E Laurance, **Seven Pillars of Wisdom**, Oxford 1943.

SAAB, Hassan, **The Federalists of te Ottoman Empire**, Amisterdam 1958.

Z. N. Zeine, **Arab Turkish Relations and the Emergence of Arabe Nationalism**, Beirut, 1958.



الحواشي :

(١) تطلق كلمة داماد على (صهر) آل عثمان ، وكان (الداماد محمود) قد هرب مع ولديه سنة ١٨٩٩ الى فرنسا ، وبدأ يرسل رسائله الى السلطان واغلبها كتب بلهجة شديدة وينبه السلطان فيها الى الاعمال التي يرتكبها بحق شعبه ، ويطالب بالاصلاحات الدستورية كشرط أساسي لعودته ، وقد توفي الداماد سنة ١٩٠٢ فاحتل ابنه (صباح الدين) مركزه واخذ على عاتقه تحقيق رسالة والده .

وكان الامير « قد اغرم بمدرسة ـ لوبلاي ـ الاجتماعية ، واعجب بآراء ـ ادمون دوملن ـ الذي كان من اركان هذه المدرسة حول التربية اللاتينية والتربية الانكلوسكسونية ، فلذلك اعتقد بوجوب اتباع مبادىء التربية الانكلوسكسونية والاهتمام بتنمية قابليات ـ التشبث الشخصي ـ في الافراد » ، (ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية) ، ط ١٩٦٤ ، ص ١١٩ .

(٢) من هذه التنظيمات : «عثمانلي حريت جمعيتي» من اعضائها جمال وطلعت ، و « الجمعية السرية » ومن اعضائها كمال اتاتورك وجمعية : « الاتحاد العثماني » « ومنظمة المركز العمومي » .. (راجع كتاب عثمان نوري ، عبد الحميد ودورسلطنتي.

(٣) توفيق علي برو ، العرب والترك ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .
ملخوذ عن مؤلف تركي بعنوان : الاحزاب السياسية في الدولة العثمانية .

(٤) راجع ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١١٩ وما بعدها .

(٥) اعلنت جمعية النهضة العربية السرية عن وجودها ، وكذلك جمعية الشوري العثمانية ، واحتفل اعضاء الجمعيتين باعلان الدستور في الاستانة ودمشق والقاهرة وبينوا في خطبهم كيف يعدون العدة لمثل هذا اليوم « فتحل المشاكل على مبادىء دستورية وتتألف القلوب » .

(٦) من مبادىء جمعية الاتحاد والترقي : النهوض بالامبراطورية العثمانية على اساس مركزي بقيادة وسيطرة العنصر التركي الطوراني .

(٧) توفيق علي برو ، العرب والترك ، ص ٨٠ .

(٨) المنار ، م ١٢ ج ٤ ، ص ٣٩٨ ، من مقال لمحمد انشاء الله .

(٩) المقتطف ، م ٣٤ ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

(١٠) جريدة المؤيد ، بتاريخ ١٩١١/٤/١٨ .

(١١) Z. N. Zeine. **Arab Turkish Relations andthe Emergence of Arabe Nationalism,** Beirut 1958, P. 187.

(١٢) د . سهيلة الريماوي ، مجلة دراسات تاريخية العدد التاسع .

(١٣) المقتبس ١٩٠٨/٢/٢٦ ، والهلال سنة ١٧ ، ج ٥ سنة ١٩١٩ ، ص ٣١١ .

(١٤) Correspondance d' Orient mc Annee N. 8, 15/1/1909, p. 51.

(١٥) عبد الحميد الزهراوي ، جريدة الحضارة ، عدد ٨٦ ، ٨٧ ، ١١/٣٠ و ١٩١١/١٢/٧ .

(١٦) جريدة المفيد ، ٢٨ ايلول سنة ١٩١١ .

(١٧) جريدة الاهرام ، ٩ تشرين ثاني (نوفمبر) سنة ١٩١١ .

(١٨) المنار ، م ١٤ ، ج ١١ ص ٨٦٢ — ٨٦٧ (من تقرير نائبي طرابلس ناجي بك وصادق بك) .

(١٩) المفيد ١٩١٢/١/٧ .

(٢٠) راجع كتاب حقي العظم ، حقائق عن الانتخابات النيابيــة في العراق وسوريا وفلسطين ، ص ٩ — ص ١٥ .

(٢١) الاهرام ١٩١٢/٧/٥ ، والمؤيد ١٩١٢/٧/١٧ .

(٢٢) راجع نص بيان عصبة ضباط الانقاذ في جريدة المؤيد بتاريخ ١٩١٢/٨/١ .

(٢٣) الاهرام ١٩١٢/٢/١٦ .

(٢٤) راجع اسماء اعضاء اللجنة في المفيد (١٩١٢/١٢/٢٣) ومنهم : سليم علي سلام ، احمد مختاربيهم، احمد طبارة ، كامل الصلح ، حسن الناطور ، البير سرسق ، جميل الحسامي و (خليل زينــة والدكتور ايــوب ثابت مــن جمعية النهضــة اللبنانية المسيحية) وغيرهم . وتتألف اللجنة من ٢٥ عضوا .

(٢٥) راجع اللائحة في ، المنار م ١٦ ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ ، وكتاب اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٦٢ — ٦٧ .

(٢٦) المفيد في ١٩١٣/١/٢٢ .

(٢٧) المنار ، م ١٦ ، ج ٤ ، (ابريل) سنة ١٩١٣ .

(٢٨) ابابيل ، بيروت ، ١٥ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ .

(٢٩) المفيد ، بيروت ، ٩ نيسان سنة ١٩١٣ .

(٣٠) الاتحاد العثماني ، بيروت ، ١٨ نيسان سنة ١٩١٣ .

(٣١) رفيق العظم ، آثاره ، المقدمة بقلم رشيد رضا.

(٣٢) من وثائق محب الدين الخطيب .

(٣٣) جريدة الاهرام ١٩١٣/٤/١٥ .

(٣٤) جريدة المحروسة ، مقالة بقلم د . شبلي شميل بتاريخ ٢٥ آذار سنة ١٩١٣ بعنوان اللامركزية والعمران .

(٣٥) وثيقة : من اوراق محب الدين الخطيب .

(٣٦) وثيقة : من اوراق محب الدين الخطيب .

(٣٧) المنار ، م ١٦ ، جـ ٦ ، سنة ١٩١٣ .

(٣٨) المنار ، م ١٦ ، جـ ٣ ، ٨ مارس سنة ١٩١٣ .

(٣٩) الاكسبريس ، الاسكندرية ، تاريخ ٩ مارس ١٩١٣ .
مما تجدر الاشارة اليه ان هـذه الاسماء هي اسماء الهيئة الادارية لحزب اللامركزية .

(٤٠) المصدر السابق .

(٤١) المحروسة ، القاهـرة ، ٢٥ مارس سنة ١٩١٣ .

(٤٢) المؤيد القاهرة ، ٢٩ مايو سنة ١٩١٣ .

(٤٣) القنصلية العامة الفرنسية في سورية رسالة من السيد كوجيه قنصل عام فرنسا في بيروت ، الرقم ٩٧ تاريخ ٦ (مايو) ايار سنة ١٩١٣ .

(٤٤) القى الزهراوي خطابة حول : تربيتنا السياسية وعبد الغني العريسي : حقـوق العرب في المملكـة العثمانية ، وندرة مطران : الحياة الوطنية في البلاد العربية والعثمانية ، ونعوم مكرزل : المهاجرون ومؤازرتهم للنهضة العربية الاصلاحية .

(٤٥) كتاب المؤتمر العربي الاول صادر عن اللجنة العليا اللامركزية ، القاهرة ١٩١٣ .

(٤٦) كتاب المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس ، صادر عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية ، القاهرة ١٩١٣ ، وكتاب وجيه كوثراني ، ص ١٠٤ ، دار الحداثة ، ط ١ ، بيروت ١٩٨٠ .

(٤٧) راجع : خطاب عبد الغني العريسي ، في كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ٤٢ ــ ص ٥٠ .

(٤٨) من خطبة الزهراوي ، راجع كتاب المؤتمر الاول ، ٣٦ ــ ٣٧ .

(٤٩) من الواضح وجود بعض المتفرنسين بين اعضاء المؤتمر ، ولكن لا يجوز ان تعمم هذه الصفة على جميع الاعضاء كما يفعل البعض .

(٥٠) ساطع الحصري ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٦ .

(٥١) ان ربط الاحداث بعضها مع البعض في تلـك الفترة يرجع تاريخ تأسيس العهد في اواخر سنة ١٩١٣

(٥٢) تنص المـادة الاولى : على ان جمعيـة سريـة انشئت في الاستانة وغايتها السعي للاستقلال الداخلي لبلاد العرب على ان تظل متحدة مع حكومـة الاستانة اتحاد المجر مع النمسا (من اوراق محب الدين الخطيب) يؤيده (امين سعيد في كتابة الثورة العربية الكبرى) م . ص ٣٦ .

(٥٣) Dr. SAAB, The Arab Federalists of the Otto. Empire, p. 237.

(٥٤) وثائق محب الدين الخطيب ، وكتب : امين سعيد ، وجورج انطونيوس ، وعزت دروزة ... وغيرها .

(٥٦) من اوراق محب الدين الخطيب .

(٥٧) الصرخة الاولى ، من وثائق محب الدين الخطيب .

(٥٨) الصرخة الثانية ، من اوراق محب الدين الخطيب .

(٥٩) المصدر السابق .

(٦٠) من اوراق محب الدين الخطيب ، الصرخة الثالثة .

(٦١) راجع نص البيان في المنار ، م ١٦ ج ١١ ، ص٨٤٩ – ٨٧٩ ، وايضا وثائق محب الدين الخطيب .

(٦٢) محضر جلسة ٢٥ تموز (يوليو) سنة ١٩١٤ ، من اوراق محب الدين الخطيب .
ومن المعلوم انه في ٢٨ تموز يوليو ١٩١٤ اعلنت امبراطورية النمسا – المجر الحرب على الصرب .

(٦٣) Dr. SAAB: The Federalists of the Ottoman, Empire

(٦٤) من اوراق محب الدين الخطيب يؤيده : اسعد داغر ثورة العرب ص ١٣٧ .

(٦٥) رسالة الضابط سليم بك الجزائري وهو من اعضاء القحطانية والعهد ، ورسالة من مختاريهم وهو من اعضاء اللجنة الاصلاحية في بيروت(من اوراق محب الدين الخطيب) .

(٦٦) احمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية ، ص ، تؤيده اوراق محب الدين الخطيب .

(٦٧) من اوراق محب الدين الخطيب رسالة من عبد الغني العريسي بتاريخ ١٩١٤/٩/١٤ .

(٦٨) T. E. Lourance: seven Pillors of wisdom p. 51.

(٦٩) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٤٠ .

(٧٠) مذكرات جمال باشا ، ص ٣٤١ .

(٧١) المصدر السابق .
اكثرهم من اعضاء جمعية العربية الفتاة ،ولكن الجمعية كانت سرية ولم يكتشف الاتراك وجودها فنسبوا الحزب اللامركزية العلني ..

(٧٢) د . سهيلة الريماوي ، مجلة قضايا عربية ،السنة السابعة ، عدد ١١ ، تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٨٠ .

(٧٣) المنار ، م ١٩ ج ٢ ، سنة ١٩١٦ .

(٧٤) المصدر السابق .

(٧٥) جريدة القبلة ، مكة المكرمة ، ٢٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٤ هـ .

(٧٦) جريدة السهام ، البرازيل ، ٢٥ أيار سنة ١٩١٨ .

(٧٧) المنار ، م ١٩ ، ج ٢ ، سنة ١٩١٦ .

(٧٨) اللطائف السورية ، مصر ، ٧ أكتوبر و ٤ مارس سنة ١٩١٨ .



الطّباعة ودورها في النّهضة الأوربيّة وفي اليقظة العربيّة

د . زوقان قرقوط
جامعة دمشق

يعرف (جان دلومو Jean Delumeau) النهضة بانها ((ارتقاء اوربا في ذلك العصر الذي تقدمت فيه حضارتها بصورة حاسمة ونهائية على الحضارات الاخرى (اونيفر سالس) . ولقد كانت وسائل النهضة التي اخذت تنتشر وتعم امم اوربا بداية التفاوت بين هذه الامم الاوربية وسائر امم العالم . ولابد لنا لفهم تخلف العالم الثالث من العودة باصوله الى ذلك العصر ، العصر الذي فتحت فيه الاجتياحات البرتغالية والاسبانية الافاق امام اوربا للهيمنة على العالم ، وراحت خيرات الدنيا وكنوزها وذخائرها تتدفق اليها .

ففي حين خرجت اوربا بوسائل النهضة (مخترعات ، ارتيادات جغرافية في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية ، نهب الشعوب ، تجديد اساليب العلوم والتعليم ، نشر التراث القومي والعالمي ...) من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ، دخلت امم اخرى ، كالامة العربية ، على الرغم من تقدمها الحضاري ، بل وتفوقها حينذاك ، الى ظلمات التاخر ((العصور الوسطى)) . وهكذا اختل التوازن . فالبعض يعتبر أن عدم قدرة العرب على تجاوز الظروف التي حالت دون تفاعلهم تفاعلا ايجابيا مباشرا مع عوامل النهضة يشكل بحد ذاته قصورا ذاتيا . ويرى اخرون للعرب مبرراتهم في ظروف الصراع المحتدم حينئذ بين العرب المسلمين واوربا ، وان ما يكشف عن القصور الذاتي أو عدمه هو مدى استجابة العرب الان لتحديات العصر . ولا شك في ان اولى وسائل النهضة الاوربية الى التفوق كانت ، في ذلك الحين ، هي الطباعة الحديثة ، كوسيلة متقدمة لنشر التراث والفكر . هذه الوسيلة التي نستعرض هنا جانبا من تطورها في الغرب وفي البلاد العربية .

قبل انتشار فن الطباعة في اوربا ، كانت الوسيلة الى المعرفة في العالم واحدة ، وان تفاوتت العناية والاهتمام بها من بلد الى آخر ، وتكاد تنحصر بالسماع والرواية

والاخبار المتناقلة والمخطوطات المتداولة .. لذلك كان النسخ والاستنساخ ، الى جانب الرحلات القليلة وتناقل التجار للاخبار والقصص والجواسيس والعيون .. وسيلة الحضارات في العالم للاتصال والتقدم .

الا ان هذه الوسيلة لم تعد تكفي اوربا القرن الخامس عشر ، حيث كانت الاقوام، اثر عصر الامبراطوريات ، تتشكل في امم ودول آخذة في التمايز بعضها عن بعض ، وراحت لغاتها تنفصل عن اللاتينية وغيرها من اللغات القديمة ، وتتكون ، من لهجاتها المحلية ، في لغات جديدة ، سرعان ما اتخذت طابعا قوميا اقليميا .. وقياسا على ذلك كانت المعرفة بالوسائل المألوفة تقتضي عملية مزدوجة : من جهة اتقان اللغات القديمة، مصدر هذه المعرفة : اليونانية ، اللاتينية ، العبرية ، العربية ، الفارسية ، الهندية ، الصينية .. ومن جهة اخرى استيعاب اللهجة الجديدة او اللغة الناشئة ، الآخذة في التكون : الفرنسية ، الايطالية ، الالمانية ، الانجليزية .. الخ . واذا كان من السهل تعلم اللغة الناشئة واتقان الكتابة بها ، لارتباطها بالحياة اليومية ، وبالامور الدارجة ، وبالتالي القيام بعملية النسخ المطلوبة حينئذ لنقل المعرفة ونشر الراي ، فان تعلم اللغات القديمة كان متعذرا الا على القلة النابغة ، وهي بالقطع ممن لا يتوافر لها الوقت الكافي للقيام بعملية النسخ او الانقطاع لها .

ومن جانب اخر قد يكون الاهم ، والحافز الاقوى ، كان عهد الحروب الصليبية قد ولى وهو العهد الذي كان بالحرب والتجييش وضبط التعصب ... يحمي العقيدة من التفتت والانحلال ... وصار الاسلام ، تحت رايات العثمانيين ، بعد سقوط القسطنطينية وبيزنطة ، يدق ابواب اوربا بعنف ، وانطلق حداة النهضة والاستنهاض من امثال* ايراسم Erasme) يجوبون اوربا ويقرعون اجراس الخطر .. للوقوف في وجه الاسلام . ومن هنا اشتداد الحاجة الى ترويج الفكر والتنوير والحماية ، وبالتالي الى (فن) الطباعة للايفاء بمتطلبات الصراع السياسي والمذهبي المحتدم في الداخل والخارج .



ولم تكن فكرة التدوين والطباعة ونشر الراي واذاعته ، بنت ساعتها او جاءت من الفراغ . فقد مرت ، عبر تاريخ البشرية ، بمحاولات عديدة ، نابعة من النزعة الخالدة للبقاء ، فالمصريون كتبوا على ورق البردي ونقشوا على الصخر ، والسومريون

(*) ايراسم Erasme هو ديديه ايراسم من رواد الحركة الانسانية في اوربا النهضة (١٤٦٩ ــ ١٥٣٦) يتمتع بفكر موسوعي.تناول المجتمع في عصره،وبخاصة الاجواء الدينية فيه ، بنقد عنيف ولكن بتعقل حذر . اهم اعماله « مديح الجنون » الذي طبع لاول مرة في بال (سويسرة) .

والاكاديون توصلوا الى كتابة الاوامر والمعلومات على قوالب من الآجر تنقش قبل حرقها ، وشاعت هذه الطريقة عند الصينيين حوالي سنة ٦٠٠ م ، غير انهم اتخذوا الخشب بدلا من الاجر في البداية ، ثم الورق(١) وذهب المستشرق (هامر بورجستال Hàmmer Purgstall) الى ان العرب اخذوا هذه الطريقة عن الصينيين على اثر فتح العرب لاجزاء من الهند واتصالهم بالصين ، ثم نقلوها معهم الى الاندلس . ويستدل على ذلك بنصوص من بعض الكتب الاندلسية ، منها ما ورد في كتاب الحلة السيرية لابن الاثير من ان بدوا مولى الامير عبد الله كان يكتب السجلات في داره ثم يبعث بها فتطبع . ومنها ان تجار المرية بالاندلس كانوا يبصمون بضائعهم بخاتم محفور من الخشب يرجع تاريخه الى سنة ٧٥٠ هـ (١٣٥٠ م) (٢) وذلك قبل محاولة غوتنبرغ بمائة عام* .

غير ان المقصود بفن الطباعة هنا ليس مجرد كتابة كلام على ورق او حفره على خشب أو احداث صورة لشيء بمداد ... وانما المقصود بذلك فن الطباعة الذي توصل اليه غوتنبرغ لاول مرة عام ١٤٤٠ م ، والذي أحدث انقلابا في فكر الانسان وحياته ، ونقل أوربا عشرات السنين الى الامام ، وهو نقش الحروف المفردة على المعادن بشكل يجعلها تجمع فتصبح كلاما يطبع على الورق ، ثم تحل ويعاد جمعها بصيغة اخرى فتطبع كلاما اخر وهكذا ... ثم وضع هذه الحروف المجموعة في آلات تطبع منها نسخا كثيرة في وقت قصير . فاذا به وسيلة لنشر العلوم والمعارف وترقية الافكار وبالتالي نشر الرأي والاطلاع على مجريات الامور .

وما كاد فن الطباعة ، على هذا النحو ، يظهر حتى اتجه به الاوربيون وجهة دينية متلائمة مع الروح التي كانت حينئذ تصبغ كل شيء بصبغتها ، غرضها طبع الانجيل بلغته الاصلية من جهة ، ثم نشر ارائهم الدينية بين غيرهم من أصحاب اللغات الشرقية من جهة اخرى . ولذا لم يمض على اختراع الطباعة بالحروف المفردة قليل وقت حتى كان ابطال تلك الصناعة قد اتجهوا الى عمل حروف لطبع اللغات الشرقية . فكانت العبرية اول لغة شرقية اجتذبت عناية المهتمين بالطباعة ، باعتبارها لغة الانجيل والتوراة ، وكانت العربية ثانيتها(٣) .

(*) ج . غوتنبرغ J. Gutenberg مخترع الطباعة بالحروف المتحركة (١٤٤٠ م) . عمل في (ماينس) منذ ١٤٤٨ م بالاشتراك مع (ج.فوست J. Fust) وطبع الطبعة الشهيرة من الكتاب المقدس المسماة بطبعة « الاثنين واربعين سطرا » .

قامت اول مطبعة عربية في (فانو Fano) بايطاليا ، امر بانشائها البابا يوليوس الثاني في اوائل القرن السادس عشر ، وعهد بهـا الى الطباع جريجوري جرجس البندقي . وقد اصدرت هذه المطبعة في سنة ١٥١٤ اول كتاب طبع باللغـة العربيـة وهو كتاب « صلاة السواعي » حسب طقوس كنيسة الاسكندرية ، ويقع في ٢١١ صفحة . ثم انتقلت الطباعة العربية الى جنوه ، فطبع بها في سنة ١٥١٦ م سـفر الزبور بأربع لغات ، هي العبرية واليونانية والعربية والكلدانية ، ومع كل منهـا ترجمة لاتينية مطابقة لها . ثم انتقلت الطباعة العربية بعد ذلـك الى البندقية ، وطبـع بهـا القرآن باللغة العربية في سنة ١٥٣٠ م * لكن النسخ اعدمت خوفا من تأثيره فـي عقائد المسيحيين .

وما لبثت الطباعة باللغة العربية ان نالت النصيب الاوفر من عناية المطابـع ، فكثرت مطبوعاتها العربية ، وعلى الاخص مطابع روما . ففي سنة ١٥٦٦ اصـدرت مطبعة مدرسة الاباء اليسوعيين بروما كتاب « اعتقاد الامانة الارثوذكسية في كنيسة روميـة » لاحد آباء اليسوعيين . وتلاه كتاب جدل في صحة الديـن المسيحي لنفس الاب سماه « مصاحبة روحانية بين عالمين » ومن المطابع العربية التي اشتهرت في روما مطبعة آل ميديتشي ، التي اصدرت كتبا عربية عديدة كان اولها كتاب الاناجيل المقدسة في عام ١٥٩١ م . وقد قيل انه جميل الطبع متقن الصور اذ قام بنقشـها على الخشب (تمبيستا Tempesta) امهر حفاري ذلك العصر(٤) . ومنها أيضا مطبعة جميعة انتشار الايمان ، وقد طبعت اكثيرا من الكتب الدينية . وبانتشـار الطباعة في سائر بلدان اوربا أصدرت مطبعة ليدن بهولندا ، التي انشاها (اربينيوس Erpenius) سنة ١٥٩٥ « أمثال لقمان » سنة ١٦١٥ ، و « العهد الجديد » سنة ١٦١٦ ، و « قصة يوسف » من القرآن ، وكان اول كتاب يطبع مضبوطا بالشـكل الكامل . وخطا (سافري دى بريف Savary de Brèves) الذي كان قنصلا لـدى الباب العالي ومال به شغفه بالعلوم الشرقية الى الانصراف للطباعة ، خطوة في اتقان الطباعة باللغة العربية ، فحفر في باريس (امهات) للحروف العربية اجمـل من حروف مطبعة آل مديتشي ثم نقلها الى روما وكان أول كتاب طبعه بها هو « التعليم المسيحي » سنة ١٦١٣ و « المزامير » ١٦١٤(٥) .

الا ان الطباعة ما لبثت ان تحولت تدريجيا من الاغراض الدينية الصرفة الى النواحي العلمية . وواضح ان المخاوف التي انبعثت في ارجاء اوربا اخذت تتبدد ، وبدت آفاق التفوق تلوح امامها بعد الاجتياحات التي قامت بها في اسيا وامريكا اللاتينية ، وتدفق الثروات اليها . لذلك صار الاهم لديها نبش ذخائر الشرق وكنوزه

الفكرية والعلمية ... ففي عام ١٥٨٤ م تم طبع اول كتاب علمي في مطبعة مدرسة الاباء اليسوعيين بروما باللغة العربية وهو « البستان في عجائب الارض والبلدان » . واصدرت مطبعة آل ميديتشي بروما عام ١٥٩٢ م كتاب « مبادىء اللغة العربية » ليوحنا ريموندي ، ثم كتاب « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والافاق » لابي عبد الله محمد المعروف بالشريف الادريسي . وفي عام ١٥٩٣ م نشرت هذه المطبعة ايضا « قانون ابن سينا في الطب » وبآخره كتاب « النجاة » ثم الحقته بكتاب « تحرير اصول اقليدس » لنصر الدين الطوسي عام ١٥٩٥ م . واخرجت مطبعة سافري دي بريف « مبادىء اللغة العربية » سنة ١٦٢٢ م لمنصور شلق ، و « نحو اللغة العربية » بعد عامين لبطرس المعوشي الماروني ، وكتاب « ايساغوجي » في المنطق بعد عام ... ومن اهم منشورات مطبعة لندن ، في بداية انشائها « تاريخ الدولة الخوارزمية » لابي الفداء سنة ١٦٥٠ م ، اكما كان كتاب عبد اللطيف البغدادي في الامور المشاهدة بمصر سنة ١٨٠٠ م من اهم ما اصدرته مطبعة اكسفورد ... وهكذا راحت تتابع الكتب العربية المنشورة ، وبتسارع ، من المطابع المنتشرة في عواصم اوربا : من غوتنجن وفيينا وبرلين وليدن وباريس وغيرها بما لا يقع تحت الحصر .

وفضلا عن المخطوطات التي تجمعت لدى أفواج الصليبيين فنقلوها معهم وكانوا يتفاخرون باقتنائها ، كان من مهام قناصل الغرب الاولى اينما كانوا ان يعملوا ما في وسعهم لنقل تراث الحضارات في العالم القديم ، وبخاصة التراث العربي . ففي القسم العربي بمكتبة باريس الوطنية مثلا ، مما حالفني الحظ بالاطلاع عليه ، وآمل ان يوفقني الى نشره قريبا ، رسائل عديدة مازالت محفوظة بخط اليد ، متبادلة بين القناصل في لبنان وسورية ، او موجهة الى من يتصلون معهم من غير رجال الدين ، من مسيحيين ومسلمين وغيرهم . وهي تشير الى مدى ذلك الاهتمام ونوعيته(٦) ، حتى ليمكن القول انه لم يهل القرن التاسع عشر ، قرن الاهتمام المركز بالمسألة الشرقية والانصراف الى التمهيد لاستعمار البلاد العربية ، حتى اتضحت للغرب تيارات الحضارة العربية الاسلامية ومنافذ السيطرة عليها .



كانت الحضارة العربية الاسلامية قد تجاوزت ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، منذ زمن طويل ، المرحلة التي اخذت تمر بها امم اوربا في مطلع النهضة ، بما تم للعرب، من قبل ، من نقل عن اليونان والحضارة الهيللنستية ، والفرس والهند وبيزنطة ، مما يلائم اتجاهاتهم ، الى الانتاج في مختلف مجالات الفكر . واشتدت حاجة الناس الى الاطلاع والمعرفة والبحث . وتلبية لهذه الحاجة كثر الوراقون وانتشرت المكتبات

في جنبات الوطن العربي وتزايد عدد النساخ . وكثر الطلب على المؤلفات والمؤلفين . فكثيرا ما كان بعضهم ينتقل من أقصى الغرب الى المشرق سعيا وراء مخطوط سمع بذكره ، او للتتلمذ على عالم طارت شهرته ، او بالعكس . وكان يعتبر عملا مقدسا وجليلا ان يبني الانسان مكتبة عامة أو مكانا يجمع فيه الكتب لنشر المعرفة بين الناس الى جانب نسخ الكتب وكتابتها(٧) . فقد روى الدكتور احمد جاب الله شلبي بما يدعو الى الدهشة والاعجاب عن النساخ في عصور الاسلام المزدهرة انه كان ، مثلا ، « .. بمكتبة بني عمار بطرابلس الشام مائة وثمانون ناسخا ، وكان هؤلاء النساخ يتبادلون العمل ليلا ونهارا ، بحيث لا ينقطع النسخ . ولم يقل عدد الذين يؤدون عملهم فعلا عن ثلاثين ناسخا في اية ساعة من ساعات النهار والليل »(٨) .

ولم يلبث الحال بفئة النساخ حتى باتوا يشكلون « طائفة » حرفية ذات اهمية وفعالية في المجتمع . تكتسب اهميتها ، الى جانب ترابطها وتماسكها للدفاع عن مصالحها ، من امور عديدة : من عناية كل فرد بقدسية اللغة العربية وحرصه على الا تقع ورقة فيها كتابة عربية على الارض فيطأها احد بقدمه ، ومن بلوغ التعصب والحماس لفكرة النسخ واتقان الحروف المكتوبة بالخط اليدوي والتفنن بها ، حدا عظيما ، ومن ارتباط هذا الفن بالدين واعتباره تعبيرا عن العاطفة الدينية .

لذلك لا غرابة اذا ما اعتبرت الطباعة ، عند انتشارها ، رجسا من اعمال الشيطان ، من ناحية لان جلد الطباعة يصنع من الحيوانات النجسة فلا يجوز أن تطبع به اللغة العربية المقدسة ، بله الكتب الدينية وخصوصا القرآن الكريم . ومن ناحية ثانية لان الالاف من الناسخين الذين كانوا يكسبون قوتهم عن طريق نسخ الكتب ، رأوا ان مهنتهم اصبحت في خطر وهكذا تضافرت متطلبات العقلية الدينية السائدة حينئذ ودواعي المصلحة ، للحيلولة دون ادخال الطباعة الى البلاد الاسلامية ، وبالتالي الى بلاد العرب . فعندما سمع المسلمون ، في البلاد العربية خاصة ، والبلاد العثمانية عامة ، اول اشاعة عن التجديد المقترح بادخال فن الطباعة ، تولاهم الفزع ، فرأى علماء الدين في ذلك انتهاكا للشريعة ، مدعين أن ثمرة التفكير البشري التي طالما توارثتها الاجيال عن طريق النسخ لا ينبغي لها ان تخضع لوسيلة اقل دقة في النقل واقل رقابة عليها . واظهر الذين تعشقوا الادب لذاته ، مخاوفهم من ضياع فن النسخ الذي طالما أضفى العظمة والجمال على انبل الافكار بنسخها بالخطوط الجميلة وبالتشابك الرمزي البديع للحروف وعلامات التشكيل(٩) .. الخ . ومن الواضح أن العامل الاقتصادي لم يدخل في حسابهم ، على الرغم من ان قيمة نسخ

القرآن الكريم بريشة حافظ عثمان ، او أي ناسخ مشهور اخر مساو له ، بحروف نسخية ، كانت تتراوح بين مائة ومائتين وخمسين جنيها ذهبيا(١٠) بل لعل هذا نفسه كان مدعاة للتمسك بفن النسخ ، كذلك لم تدخل في الحسبان ديموقراطية الثقافة وشعبية الفكر .

كان الوازع الديني هو المؤشر الاكبر وهو الموجه الفعال في دار الاسلام وفي بلاد المسيحية،ولكن شتان بين توجهه هنا،وتوجهه هناك ،كان اثره هنا جامدا . .وكان اثره هناك دافعا الى الامام . ولم يكن ذلك من جوهر الدين في شيء . ففي اوربا كان النزاع الطائفي والاقليمي ، كما كان صراعها السياسي وعلى راسها البابوية ضد الدولة العثمانية الفتية ، التي تمكنت من السيطرة على عاصمة المسيحية الثانية المتقدمة ، هو الموجه الاساسي . . وعلى الرغم من ان طبيعة الحكم لم تكن ، حينذاك ، لتختلف هنا كثيرا عنها هناك ، وكذلك عقلية رجال الدين ، الا ان ظروف اوربا الداخلية والخارجية كانت تعمل على توحيد اكثر المواقف بين رجال الدين والحكم . وعلى العكس من ذلك كان العامل الديني في بلاد المسلمين من جهة ، ومصلحة الاعداد الهائلة من الناسخين من جهة اخرى ، العاملين الاساسيين اللذين اخرا الاخذ بفن الطباعة، وكانا سببا في كبح ارادة الدولة . ذلك ان ارتباط طائفة الناسخين برجال الدين بات يشكل عقبة في وجه أي تصرف يضير مصالحهم مالم يضمن موافقتهم . وطيلة قرنين من الزمان باءت بالفشل جميع المحاولات لادخال فن الطباعة العربية الى البلاد العثمانية . حتى تمكن اخيرا الصدر الاعظم ابراهيم باشا ، المثقف المتنور ، بنفوذه ، من استمالة السلطات الدينية ، التي انتقلت اليها السيادة وحالت دون استقدام اي اختراع اوربي ، لتوافق على ايجاد مؤسسة للطباعة في الامبراطورية العثمانية ، بعد ان قدمت للسلطان تقارير الموفدين الى اوربا التي تعتبر الطباعة اساسا لكل تقدم(١١). ومع ذلك نفد اضطرت الحكومة الى أن تقطع عهدا على نفسها يرضي الطرفين : اذ وعدت بانها لن تسمح بطبع الكتب الدينية ، وانها سوف تتكفل باعالة الناسخين . ولقطع الطريق على الاعتراضات وتسكينا للتعصب لجأ السلطان الى اخذ فتوى من شيخ الاسلام عبد الله افندي* ، تجيز طبع الكتب غير الدينية ، هذه صيغتها :

★ تذكر بان السلاطين الثلاثة عبد العزيز ومراد الخامس وعبد الحميد الثاني قد سقطوا نتيجة فتوى من شيخ الاسلام ، وان السلطان محمود الثاني لم يكن ليقوى على حل الفرق الانكشارية لولا الفتوى التي دعمته .

ســؤال :

« اذا كان زيد الذي يدعي انه ذو قدرة في فن الطباعة ، وانه يستطيع أن ينقش على القوالب اشكالا للحروف والكلمات من كتب في اللغة والمنطق والفلسفة وعلم الفلك وعلوم دنيوية مماثلة ويأتي لنا بنسخ لتلك الكتب عن طريق ضغط الورق على القوالب فهل يسمح القانون الوضعي لزيد بممارسة مثل حرفة الطباعة ؟ . . .

انما نطلب فتوى في شأن زيد هذا وفي شأن الطباعة »

الجـواب : « والله أعلم »

« اذا قام شخص ذو قدرة على الطباعة بنقش الحروف والكلمات لكتاب مصحح على قالب بصورة صحيحة واتى لنا بنسخ كثيرة في مدة وجيزة بدون عناء عن طريق ضغط الورق على ذلك القالب فان كثرة الكتب قد تقلل من ثمنها ويترتب على ذلك زيادة اقتنائها وبما ان في ذلك فائدة هائلة فان هذا الموضوع جدير بالثناء العميم . وينبغي ان يعطى الاذن لذلك الشخص ، ولكن يجب ان يعين علماء لتصحيح الكتاب الذي سوف تنقش حروفه »(١٢) .

وعلى اثر هذه الفتوى صدر قرار سلطاني في ٥ تموز (يوليو) ١٧٢٧ باعتماد طبع الكتب وبالتصديق على تعيين اربعة من المراقبين للاشراف على اعمال مكتب الطباعة . وكان اول كتاب ظهر في عاصمة « الخلافة » الاسلامية العثمانية ، قاموسا تركيا ـ عربيا احتوى على نفس الفتوى وعلى موضوعات عن فوائد الطباعة اكتبها عدد من رجال العلم ذوي مكانة عالية في السلطة الدينية(١٣) .

وفي راي الاستاذ ساطع الحصري ان أول كتاب طبعته « دار الطباعة » المؤسسة في « البلدة الطيبة قسطنطينية صانها الله من الافات والبلية » هو المعجم المعروف « صحاح الجوهري » مع ترجمته التركية في سنة ١١٤١ هـ/(١٧٢٩ م)(١٤) .



والحقيقة ان فن الطباعة قد انتقل من اوربا الى الشرق قبل هذا التاريخ بكثير . وكان ذلك لاغراض دينية ، كما كان انتشار الطباعة باللغات الشرقية في اوربا لاغراض دينية بادىء الامر . وكما كانت اللغة العبرية هي اولى اللغات الشرقية التي نالت

عناية المشتغلين بالطباعة ، ثم تلتها اللغة العربية ، كذلك كان دخول الطباعة الى بلدان الشرق على هذا الترتيب ايضا : اللغة العبرية ثم اللغة العربية . فقد انشأ اليهودي ربي اسحق جرسون اول مطبعة عبرية في الاستانة : جاء الى الشرق خصيصا لينشر بين اليهود كتبهم الدينية . فاحاطها اليهود بنفوذهم لضمان اطراد نجاحها وكان الاطباء منهم وكبار التجار على اتصال وثيق بأولي الامر في « دار الاسلام »(١٥) وقد ظلت هذه المطبعة تخدم الاداب العبرية زهاء ثلاثمئة سنة طبعت فيها ما يزيد على مائة كتاب في جميع العلوم والفنون ، الا ان اغلب ما طبع فيها كان كتبا دينية . وأول كتاب طبع بها هو ملخص تاريخ اليهود ليوسيفوس بن كربون ، وكان طبعه في سنة ١٤٩٠ م . كما قامت بطبع بعض الكتب العربية بالحروف العبرية لا بالحروف العربية ، ومنها بعض رسائل بن ميمون في الدين اليهودي ، وترجمة التوراة الى العربية لسعيد الفيومي عام ١٥٥١ م(١٦) .

وقد انشأ اليهود بعد مطبعة الاستانة مطابع عديدة ، كان اهمها مطبعة سالونيك في اوائل القرن السادس عشر ، وطبعت كتبا دينية وعلمية كثيرة ، منها خطب مدينا بن صموئيل سنة ١٥٢٠ م ، ومجموعة في الطب سنة ١٧٩٦ م . وتأتي اهمية هذه المطبعة من أن الحركة اليهودية العالمية كانت تعمل على تركيز جهودها في سالونيك للتسرب منها الى الخلافة العثمانية ، وبالتالي لاحداث الانقلابات فيها ولا شك في قيامها بالدور المطلوب في كل ذلك .

وكانت مطبعة حلب أول المطابع العربية التي انشئت في الشرق وقد اختلف في أمرها كثيرا ، وبخاصة حول حروفها . الا ان المسلم به ان الذي انشأها هو اثناسيوس الرابع البطريرك الانطاكي ، الذي رحل في سنة ١٦٩٨ الى بخارست وطبع هناك بعض الكتب الدينية باليونانية والعربية ، ولما عاد الى حلب انشأ فيها هذه المطبعة(١٧) ، وكان اول مطبوعاتها كتاب طقوس كنسية سنة ١٧٠٢ م ،ثم الانجيل في سنة ١٧٠٦ . وعلى كل حال فالمهم في الامر هو انتشار فن الطباعة بصورة رسمية لما له من علاقة وثيقة في النهضة الفكرية وبعث التراث واحياء التاريخ ... الخ .

وأيا ما كان الامر فان الطباعة قد بدأت رسميا في الدولة العثمانية بالقرار السلطاني (٥ تموز ١٧٢٧) ، وبفتوى شيخ الاسلام ، واخذت تنتشر في ارجاء الوطن العربي بعد ظهورها في الغرب باكثر من مئتين وسبعين عاما . ومع ذلك فانها في مدة قرن ونيف من الزمان اي من عام نشوئها رسميا الى عام ١٨٣٠ (باستثناء ما اخرجته مطابع الحملة الفرنسية ومطبعة بولاق) — لم يزد عدد مطبوعاتها على اربعة وتسعين

كتابا ، منها تقاويم اولى بها ان لا تحسب ، ناهيك عن رداءة طبعها لتآكل الحروف وعدم تغييرها ، وما كان يصيبها من تعطيل وصدا أو عدم وجود من يديرها(١٨). الخ فضلا عن ان عدد النسخ من اي كتاب طبع بها لم يزد على خمسمائة نسخة اذا استثنينا « لغاتي ومنقولي » و « تحفة الكبار في اسفار البحار » اللذين طبع من كل منهما ألفا نسخة . ومع ذلك فحتى الثلاثينات من القرن التاسع عشر لا نجد كتابا واحدا بين ما اصدرته مطبعة الاستانة والمطابع الاخرى في حلب والشوير وبيروت والقدس وبغداد والقاهرة ، يعطي فكرة عما يجري في بلاد الغرب وعن التطور الذي حدث هناك وعن التغيير الذي ألم بدوله ، منذ منتصف القرن الخامس عشر . في حين نرى العكس في بلدان اوربا : فانها كانت قد اصبحت على علم بكل مجريات الامور في بلادنا .. وقبل انشاء المدارس التبشيرية في لبنان وارساء اساس الجامعة الامريكية ، وقيام المدارس في عهد محمد علي باشا في مصر وابنه ابراهيم في سورية ، كانت البلاد ماتزال تسير في التعليم وتربية النشىء علـى نمط الكتاتيب والتكايـا والجوامع ، ولا تعرف شيئا منظما عن الطرق الحديثة في التعليم ...



١ ـ الدكتور أبو الفتوح رضوان : مطبعة بولاق ، المطبعة الاميرية بالقاهرة عام ١٩٥٢ ص١ من المدخل .
كذلك الاب لويس شيخو «أصول فن الطباعة» ، مجلة المشرق عدد ثاني عام ١٩٠٠ حيث يروي أنه شاهد نماذج من الورق الصيني مكتوبة بهذه الطريقة في المتحف البريطاني .

Hammer Purgstall: «**Sur l'Art d'imprimer Chez les Arabes en Espagne**» J. AS. 4ᵉᵐ Serie, T.XX P254

٣ ـ الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ٦-٧

٤ ـ جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ١٩١١ ـ ١٩١٤ ص٤

٥ ـ جورجي زيدان : المصدر السابق

٧ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ، ح١ ص ١٧ دار المعارف بمصر .

٨ ـ الدكتور أحمد جاب الله شلبي : تاريخ التربية الاسلامية ص ١٥٠

٩ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق ص ١٩

١٠ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي نفس المصدر السابق ص ٢١

١١ ـ سامي الكيالي : الحركة الادبية في حلب ص ٢٠٥

١٢ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق ص ٢٠ ـ ٢١

١٣ ـ الدكتور شمس الدين الرفاعي : المصدر السابق .

١٤ ـ ساطع الحصري : آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع ، دار العلم للملايين : مقالة تاريخ انتشار الطباعة في الدولة العثمانية .

١٥ ـ الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص ٩

١٦ ـ مجلة المشرق ، السنة الثالثة عدد ٤ ص ١٧٥ حيث يجد المستزيد بيانا باكثر هذه المطبوعات .

١٧ ـ يقول شنورر Schnurrer أن حروفها هي نفس حروف بخارست . ويخطىء دي ساسي De Sacy رأيه ويقول أنه وجد خلافا كبيرا بين حروف حلب وحروف بخارست . في حين يرى الاب لويس شيخو ان انتيموس الكاهن الذي قام بطبع الكتب للبطريرك في بخارست صحبه الى حلب حيث قام بصب الحروف على غرار حروف بخارست وعلم هذا الفن لاناس من حلب .
ويروي جورجي زيدان عن جورج خياط أحد محامي حلب أن الذي حفر الاحرف وصبها هو الصائغ الماهر عبد الله زاخر الحلبي .

١٨ ـ تاريخ جودت: ترجمة عبد القادر افندي الدنا، بيروت ١٣٠٨ هـ ص ص ٨١ ـ ٨٤ حيث توجد قائمة مفصلة بالمطبوعات : الدكتور أبو الفتوح رضوان : المصدر السابق ص.ص ١٢، ١٣، ١٤ .

مؤتمرات تاريخية

سيعقد في جامعة حلب ـ معهد التراث العلمي العربي المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب وسيحتفل خلال المؤتمر بمرور ثمانية قرون على ميلاد الطبيب ومؤرخ الطب العربي ابن ابي اصيبعة ، وذلك يومي الاربعاء والخميس ١١ ـ ١٢ نيسان ١٩٨٤ م . ويهدف المؤتمر الى تقديم ابحاث أصيلة لم تنشر سابقا في موضوعات تاريخ العلوم الاساسية والعلوم الطبية عند العرب ، وذلك تمشيا مع اهداف معهد التراث والجمعية السورية لتاريخ لعلوم ، وقد تقدم الكثير بابحاثهم ، ونأمل ورود أبحاث اخرى تتعلق بمواضيع المؤتمر وتساهم في تحقيق اهدافه من حيث ابراز مساهمة الحضارة العربية في اغناء الحضارة الانسانية .

* * *

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

المدير المسؤول : د. شاكر الفحام — **رئيس التحرير : ناظم كلاس**

العددان : الخامس عشر والسادس عشر ، كانون الثاني ـ أيار ١٩٨٤

المراسلات :

جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السورية
لجنة كتابة تاريخ العرب ـ مجلة دراسات تاريخية

تنـويه

- ☐ ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية
- ☐ الآراء الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها

ثمن العدد : (١٠) ل.س عشر ليرات سورية

الاشتراك السنوي :

للمؤسسات : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية أو ما يعادلها

للأفــراد : (٣٠) ل.س ثلاثون ليرة سورية أو ما يعادلها

تضاف اليها أجور البريد الجوي أو العادي حسب رغبة المشترك

يمكن الاشتراك بمجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقة بالقيمة نفسها

في هذا العدد

الصفحة

دعوة لتشكيل اتحاد دولي عربي
لجمعيات تاريخ العلوم وفلسفتها عند العرب

ان الجمعية السورية لتاريخ العلوم عند العرب تتوجه بالدعوة الى الجمعيات والهيئات والمنظمات من الاقطار العربية كافة ، التي تهتم بتاريخ العلوم عند العرب والكشف عن تراثنا العلمي العربي الاصيل ، لتشكيل اتحاد دولي عربي لتاريخ العلوم وفلسفتها عند العرب .

فيرجى ممن يود المساهمة في تكوين هذا الاتحاد المراسلة الى العنوان التالي :

الاستاذ الدكتور خالد ماغوط
رئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم
معهد التراث العلمي العربي
جامعة حلب

حلب ـ الجمهورية العربية السورية

رئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم

مظاهر سكانية من دمشق
في العهد العثماني

د . عبد الكريم رافق

جامعة دمشق

مقدمة

تواجه الباحث صعوبات جمة في معرفة عدد سكان مدينة ما ، او قطر ما ، في مختلف فترات التاريخ العربي ، قبل اعتماد الاحصاءات الرسمية . والمصادر التاريخية العربية لا تزودنا بمعلومات عن اعداد السكان ، سواء في المدن ، أم في البلاد ككل ، كما أن معلوماتها بالنسبة لاعداد الجماعات ، بما في ذلك اعداد القاتلين في المعارك، تعوزها الدقة . ولم تكن تقديرات المراقبين الاجانب ، وبخاصة الرحالة منهم ، اقرب الى الصحة ، اذ اعتمدت ، في كثير من الاحيان ، على اعتبارات خاطئة أو مبالغ فيها ، او على معلومات مستقاة من مصادر غير موثوقة .

وازاء هذا الارتباك في المعلومات عن اعداد السكان ، وتزايدهم أو تناقصهم ، لجأ الباحثون المحدثون الى اعتماد معايير عدة لمعرفة اعداد السكان في الماضي . ومن هذه المعايير اعتماد عدد الحمامات في مدينة ما لمعرفة عدد سكانها . وذهب بعض الباحثين الى القول ان الحمام الواحد يخدم مائتي بيت يتألف كل منها من خمسة اشخاص . وعلى هذا فان مجموع السكان هو حاصل ضرب عدد الحمامات بالف (٢٠٠ × ٥) . وقال احد الباحثين ان الحمام الواحد يخدم ثلاثة الاف نسمة . وقدر اخر العدد بأربعة الاف .

واعتمد باحثون احرون مساحة الجوامع في التوصل الى معرفة عدد السكان في مدينة ما ، وذلك بتقسيم المساحة على ما يحتاجه المصلي الواحد من مكان للصلاة ، تقدر ابعاده ، حسب قول أحد الدارسين للجامع الكبير في مدينة سوسة التونسية ، بثين سنتيمترا عرضا ومتر وخمسة وثلاثين سنتيمترا طولا . وبعد التوصل الى عدد المصلين الذين تستوعبهم مساحة ذلك الجامع ، يضرب العدد بالرقم ثلاثة ونصف ، وهو ما يمثل وسطي عدد الاسرة في سوسة ، لتقدير مجموع عدد السكان

في تلك المدينة . وطبيعي أن هـذا المعيار لا يمكن استخدامه في كل بلد اسلامي ، نظرا لاجتهاد المذاهب فيما بينها بالنسبة لصلاة الجماعة .

ومن الباحثين من اعتمد المساحة المسكونة في المدينة وقسمها على وسطي مساحة البيت ، لمعرفة عـدد البيوت المسكونـة ، ثم ضـرب العدد بخمسـة ، وهو وسطي عدد افراد الاسرة المتعارف عليه بين عدد من المؤرخين . وتصطدم هـذه التقديرات بصعوبات كثيرة منها ان وسطي عدد افراد الاسرة يختلف من منطقة الى اخرى ، ومن فترة الى اخرى . وكذلك يختلف عدد ساكني البيت الواحد فيما بين الاسرة الصغيرة ، والاسرة الكبيرة التي تضم جيلين او اكثر (١) .

واعتمد بعض الباحثين السجلات المالية العثمانية ، ومقدار الضرائب والجزية لتقدير عدد السكان . ولكن هذه التقديرات بدورها لم تكن لتخلو من الاخطاء ، سواء بالنسبة لمجموع السكان في المدينة أو اللواء أو الولاية ، أم بالنسبة للسكان حسب طوائفهم . وقد ذكر أحد الباحثين ، مثلا ، ان سكان مدينة حلب تناقصوا مـن سبعة وخمسين الفا ، في الفترة ما بين ١٥٢٠ - ١٥٣٠ م ، الى ستة واربعين الفا في عام ١٥٨٠ ، وحدث مثل ذلك بالنسبة لسكان دمشق ، الذين تناقصوا من سبعة وخمسين الفا الى ثلاثة واربعين الفا في المدة ذاتها . وعزي هذا التناقص الـى الطاعون الكبير الذي اصاب السكان في عام ١٥٥٥ (٢) .

وقد حدثت الطواعين بشكل متكرر في العهد العثماني وشملت مناطق واسعة من بلاد الشام وغيرها . وبعضها انتشر بالعدوى من مناطق اخرى ، وبعضها الاخر حدث في اعقاب الزلازل والدمار الذي الحقته بالانسان والحيوان ، والتلوث الـذي اصاب المياه . وتغص كتب التراجم باسماء الذين « طعنوا » ، وتوفوا بسبب ذلك . واسهب ، بل بالغ الاخباريون في وصف حوادث الطاعون والاصابات التي خلفها . ومن ذلك قول ابن جمعة في احداث عام ١١٤٤/١٧٣١ - ١٧٣٢ :

« وفيها كان الطاعون بارض الشام ونواحيها حتى فني خلق كثير وعم غالب البلدان » (٣) . ومن الطواعين الشديدة التي اصابت بلاد الشام ، في العهد العثماني ، ذلك الذي حصل في عام ١١٧٣/١٧٦٠ ، في اعقاب سلسلة من الزلازل العنيفة (٤) . وكان طاعونا مخيفا مكث ، على حد قول رسلان القاري (٥) ، اربعة اشهر . وذكر اخر انه دام ستة اشهر (٦) وبلغت ضحاياه كل يوم في دمشق ، كما ذكر القاري ، « الف او ازيد » ، ووصف أحمد البديري الحلاق الدمشقي هذا الطاعون بقوله : « فقبل عيد الفطر بيومين وبعده بيومين يخرج من كل باب من ابواب دمشق ممن مـات مطعونا في كل يوم نحوا من الف جنازة والعياذ بالله . وهذا شيء ما سمع من عهـد

طاعون عمواس ، نسأله تعالى اللطف فيما جرت به المقادير » (٧) . وهذا دليل على اضطراب الروايات في ذكر الضحايا التي يميل الاخباريون الى تضخيمها نظرا لضخامة الحادث .

وقد قدر سكان بلاد الشام ، ابان الحكم المصري،في الفترة بين١٨٣١ــ١٨٤٠، بما يتراوح بين (١ر٣٧٩ر٤٤٦) و (١ر٧٩١ر٠٧٦) نسمة ، وذلك بالاستناد الى سجلات الضرائب المصرية (٨) . وجاء في الاحصاء العثماني لعام ١٨٩٣ ان ولاية حلب ، بما فيها ألوية حلب ومرعش واورفة ، بلغ عدد سكانها ، باستثناء البدو ، (٧٨٧ر٧١٤) نسمة ، منهم (٣٨٨ر٠٨٣) من الاناث و (٣٩٩ر٦٣١) من الذكور . وضمت ولاية سورية ، التي كانت تتألف من لواء الشام (ويضم دمشق ودرعا وحاصبيا وراشيا ووادي العجم وبعلبك والبقاع والنبك) ، ولواء حماة (ويضم حماة والسلمية وحمص والحميدية) (٧٤٨ر٠٠٤) نسمة ، منهم (٢٠٢ر٧٤١) من الاناث و (١٩٨ر٠٠٧) من الذكور . واشتملت ولاية بيروت ، التي تألفت من لواء بيروت (ويضم بيروت وصيدا وصور ومرجعيون) ، ولواء عكا (ويشتمل على عكا وحيفا وصفد والناصرة وطبرية) ، ولواءاللاذقية (ويضم اللاذقية وجبلة والمرقب وصهيون) ، ولواء طرابلس الشام (ويشمل طرابلس وعكار وصافيتا وحصن الاكراد)، ولواء البلقاء (ويضم نابلس وبني صعب وجماعين وجنين) على (٥٦٨ر٠١٤) نسمة ، منهم (٢٧٣ر٤٨٥) من الاناث و (٢٩٤ر٥٢٩) من الذكور . وعلى هذا يبلغ مجموع سكان هذه الولايات التي كانت تشكل القسم الاكبر من بلاد الشام (١ر٧٥٦ر٤٧٦) في عام ١٨٩٣ (٩) . وبالمقارنة مع عدد السكان في فترة الحكم المصري يتضح ان الزيادة كانت طفيفة ، أن لم تكن معدومة ، في أحسن الاحوال . وربما يفسر ذلك بالاحداث التي جرت ، ومنها اضطرابات فترة ١٨٤٠ ــ ١٨٦٠ ، والهجرة التي اعقبتها الى الخارج ، واصابات الطاعون المتكررة في القرن التاسع عشر .

سجلات التركات واهميتها في دراسة السكان

تزودنا سجلات التركات ، او المخلفات ، في العهد العثماني ، بمعلومات هامة عن السكان ، وبخاصة فيما يتعلق بحجم الاسرة ، ونسبة الجنس الواحد الى الاخر بين الاولاد ، ووسطي الاعمار ، والاوضاع الاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بذلك .

وقد عني بسجلات المخلفات نوعان من القضاة ، عرف كل منهما بلقب قسام ، واشير الى الواحد بلقب القسام العربي او البلدي ، والى الاخر بلقب القسام العسكري ، فالقسام العربي هو القاضي الذي قام بحصر وتسعير ، او بيع ، مخلفات

المتوفى ، واقتطاع ما كان بذمته من التزامات وديون وما ترتب على حصر التركة من نفقات ، ثم توزيع ما بقي من الثروة بين الورثة . وعالج هذا القسام بخاصة امور الاوصياء والقاصرين وثرواتهم ونفقات معيشتهم . وعرفت المحكمة التي ترأسها القسام العربي بمحكمة القسمة العربية البلدية ، وباختصار القسمة العربية أو القسمة البلدية . والقسام العربي غالبا ما يعينه قاضي قضاة دمشق ، وهو القاضي الحنفي الرئيسي فيها ، الذي يعين من استانبول ، وكان طيلة الفترة العثمانية روميا ، أي عثمانيا تركيا ، باستثناء حالات نادرة عين فيها اشخاص من اصل محلي لمنصب قاضي القضاة . ولا تتوافر معلومات واضحة حول مكان عمل القسام ، وعما اذا كانت لـه باستمرار محكمة خاصة به ، تشمل بناء معينا ، على غرار المحاكم الشرعية .

ويستدل من بعض النصوص ان القسام العربي اقام في محكمة الباب بدمشق(١٠) وهي مقر قاضي القضاة ، وتقع في مواجهة المدرسة النورية الكبرى ، لذا عرفت بالمحكمة النورية(١١) ، أما القسام العسكري فقد عالج شؤون العسكريين ، من الجنود والموظفين . وعين القسام العسكري من قبل قاضي عسكر الاناضول ، وعرفت محكمته بمحكمة القسمة العسكرية . ولا يعرف مكان اقامة هذا القسام ولا المكان الذي مارس عمله فيه ، ولكن وجدت سجلات كثيرة للقسمة العسكرية .

وتعد سجلات القسام العربي من اهم السجلات بالنسبة لدراسة السكان ، فهي تذكر المتوفين من مختلف طبقات الشعب. ولكنها لاتشكل بحال مسحا دقيقا لجميع المتوفين . فبعض الورثة يحلون قضاياهم فيما بينهم دون اللجوء الى القسام ، كما أن معظم السكان من غير المسلمين كانوا يلجأون الى محاكمهم الدينية الخاصة بهم . ومع ذلك ذكرت سجلات القسام اعدادا لا بأس بها من المتوفين غير المسلمين . ولا يرد في سجلات القسام ذكر للمتوفين القاصرين الا فيما ندر من الحالات ، حين يكـون هؤلاء من أصحاب الثروات ، بحكم الوراثة ، وعندئذ يقتضي تدخل القسام لحصر ثرواتهم وتوزيعها بين الوارثين . وعنيت سجلات القسام بالمتوفين من الجنسين ، الذكور والاناث ، كما أنها عالجت مخلفات المتوفين في القرى المحيطة بدمشق ، وفي المدن الأبعد احيانا حين تكون الوفاة قد حدثت في دمشق أو بجوارها ، أو اذا كان الوارثون في دمشق .

ومما تجدر ملاحظته ان هذه السجلات تعطي مسحا شبه كامل لمخلفات المتوفين الاغراب ، ومعظم هؤلاء من الاروام (الاتراك) ، الذين قدموا الى دمشق للالتحاق بقافلة الحج الشامي المتجهة منها الى الحجاز . وترد قوائم المتوفين هؤلاء في سجلات القسام العربي عقب عودة قافلة الحج الى دمشق ، في النصف الاول من شهر صفر

غالبا . ومن الحجاج من يتوفى في طريق العودة ، ويدفن هناك ، ومنهم المرضى الذين يصلون دمشق ويتوفون فيها . ويذكر هؤلاء جميعا في سجلات القسام العربي بدمشق .

ويقوم القسام بحصر ورثة المتوفى ، أو المتوفاة ، من زوجات ، أو ازواج ، وأولاد واقرباء . ويتم حصر الممتلكات في البيت وفي مكان العمل (الدكان أو الخان) وتحصى الديون ان وجدت ، ثم تطرح الممتلكات في المزاد ، لتقدير ثمنها ، أو بيعها ، و غالبا ما اشتراها ابناء المتوفى من حصصهم بالميراث ، كما اشتراها احيانا اغراب على اختلاف مذاهبهم . وكثيرا ما اجل بيع الممتلكات غير المنقولة ، مثل العقارات والاراضي ، التي تبقى مشاعا بين الورثة . أما في الحالات التي لا يوجد فيها وارثون للمتوفى فتنتقل الثروة الى بيت مال الدولة . وبالنسبة للحجاج الاغراب الذين لهم وارثون في اماكن اقامتهم البعيدة ، فتسلم ثروة المتوفى التي تكون بحوزته وغالبا ما شملت نقودا وحاجيات وسلعا ، الى وصي من بلدته ، يكون المتوفى قد عينه سلفا كتدبير احتياطي ، لينقل ذلك الى وارثيه .

ولم تذكر سجلات القسام العربي تاريخ الوفاة بدقة ، بل اكتفت بترديد العبارة التالية : « المتوفى قبل تاريخه » . وهذا يعني انه قد يمر بعض الوقت ، قد يبلغ شهورا أو سنوات ، على الوفاة ، قبل الشروع بحصر التركة ، وبخاصة اذا كانت كبيرة وتشمل ديونا كثيرة وهامة .

ولا تذكر السجلات عمر المتوفى ولا مكان اقامته اي حيه أو داره . واذا كان قرويا ذكرت القرية التي ينتسب اليها . واذا كان غريبا اشارت الى بلدته والولاية التي تقع فيها . وفي الحالات التي تذكر فيها دار المتوفى الدمشقي ، ويعين موضعها وحدودها ، بمناسبة تقدير سعرها ، وتوزيعها بين الورثة أو بيعها ، يمكن عندئذ معرفة الحي الذي كان يسكنه المتوفى . ولم تعن سجلات القسام بذكر عمل أو مهنة المتوفى ، ويمكن تقديرها من لقبه الذي يحمله ، مثل الدباغ أو الصباغ ، ومن الادوات والسلع التي توجد في دكانه .

وقد اهتم القسام العربي بمحاسبة اوصياء القاصرين كل سنة ، فيما عهد اليهم من ثروة القاصرين وتوظيفها ومبلغ الربح ، أو المرابحة ، الذي نجم عن ذلك . واهتم ايضا بمعرفة النفقات التي انفقها الوصي على القاصر ، وتقتطع من مبلغ ثروته .

دراسة عينتين من سجلات القسام العربي

تزودنا سجلات القسام العربي بمعلومات هامة عن تركيب الاسرة ، وبالتالي

السكان ، رغم الثغرات التي سبقت الاشارة اليها . ومع ان المخلفات التي نظر فيها القسام عنيت بالدرجة الاولى بشؤون القاصرين ، فان بعض المخلفات اقتصرت على ورثة من البالغين فقط . ومن شأن ذلك ان يطلعنا على فئات الاعمار بين السكان بشكل عام ، وتعد محتويات هذه السجلات مصدرا هاما لقطاع كبير من السكان آنذاك.

وقد قمنا بدراسة عينتين من سجلات القسام العربي بدمشق ، احداهما (١٢) تشمل الفترة بين اول شعبان ١١٦٣ و ٢٨ ذي الحجة ١١٦٥/٦ تموز ١٧٥٠ و ٧ تشرين الثاني ١٧٥٢ ، والثانية (١٣) تشمل الفترة بين أول ذي القعدة ١٢٣٢ و ١٦ ربيع الثاني ١٢٣٥/١٢ ايلول ١٨١٧ واول شباط ١٨٢٠ . وتتألف كل فترة من هاتين الفترتين من حوالي تسعة وعشرين شهرا . وقد اختيرت هاتان العينتان ، بفاصل سبعين سنة تقريباً ، لمعرفة المتغيرات السكانية التي حدثت خلال تلك المدة . وقد جرت احداث جسام ، بالنسبة لدمشق ، في تلك الفترة ، مثل الزلازل الشديدة التي اصابتها عام ١١٧٣/١٧٥٩ ، والطواعين التي اعقبتها واودت بحياة الآلاف من سكانها ، كما سبق القول . وحدث أيضا في تلك الفترة هجوم علي بك المملوكي من مصر على بلاد الشام واحتلاله دمشق لمدة عشرة ايام ، بين ٢٤ صفر و ٥ ربيع الاول ١١٨٥/٨ — ١٨ حزيران ١٧٧١ (١٤) ثم تلاه هجوم مملوكي اخر من مصر على الجزء الجنوبي من بلاد الشام في عام ١٧٧٥ ، كما ان احمد باشا الجزار والي صيدا المملوكي الاصل ، الذي عين على ولاية الشام اربع مرات ، بين عام ١٧٨٥ ووفاته في ١٨٠٤ ، والذي صد حملة نابليون بونابرت على عكا عام ١٧٩٩ ، قد روع الاهلين بظلمه وفرضه السخرة عليهم ، وتسخيره الطاقات البشرية والاقتصادية لمصلحته . وشهد الربع الاول من القرن التاسع عشر توغل قوات الوهابيين في بلاد الشام وحروبهم مع السلطة العثمانية .

تضم العينة الاولى مخلفات ٣٣٦ متوفى ، منهم (١٤٢) مسلما محليا (من دمشق والقرى المجاورة والمدن السورية ومن نزلاء دمشق) و (١٠٤) مسلمة محلية، و (٨٢) من الاغراب المسلمين ، وهم باكثريتهم من الاتراك ، ويضمون بعض المصريين والمغاربة ، و (٧) مسيحيين ، وامراة يهودية واحدة . ومن الـ (١٤٢) محليا ، حمل (٧١) منهم لقب حاج ، و (٣٢) لقب سيد ، و (١٤) لقب شيخ ، و (٦) لقب اسطه أو استاذ أو معلم (أسطه تحوير لكلمة أستاذ ، وتشير هذه الالقاب الى معلم الحرفة) وكان (١٩) منهم بدون لقب . ويبدو أن لقب سيد حل محل بقية الالقاب نظرا لاهميته في التدليل على ان صاحبه ينحدر من السلالة النبوية الشريفة . وفي بعض الحالات لم يحمل والد السيد هذا اللقب مما يدل على ان المتوفى قد اكتسب الشرافة عن طريق امه التي كانت من الاشراف . ويلاحظ ان الذين حملوا لقب شيخ ، ويدل

على درجة من التفقه في العلوم الدينية ، كانوا ينحدرون من اباء يحملون ذلك اللقب ، مما يشير الى انتقال الاهتمام بالعلوم الدينية من الاباء الى الابناء ، بدليل شيوع تعبير ان فلانا من اسرة علماء .

ويلاحظ في قائمة المتوفين الـ (١٤٢) ان (٧٣) منهم كانت لكل منهم زوجة واحدة عند وفاته ، و (٣١) كانت لكل منهم زوجتان . وفي (٢٧) من بين الـ (٣١) حالة هذه اشير الى الزوجة الثانية بانها زوجة سابقة ، وقد تكون مطلقة او متوفاة ، ولكنها خلفت اولادا حق لهم وراثة والدهم . اما الحالات الاربع اخرى فاشارت كل منها الى زوجتين كانتا في عصمة المتوفى عند وفاته . وفي أربع حالات من أصل (١٤٢) كان للمتوفى ثلاث زوجات ، وفي حالتين منهما كان اثنتان منهن في عصمته وزوجة سابقة ، وفي حالة واحدة كانت له زوجة واحدة في عصمته وزوجتان سابقتان وامرأة رابعة اشير اليها بمستولدته ، اي انها ولدت له اولادا ، ولم تكن بزوجته . وفي (٣٤) حالة من (١٤٢) لم يذكر للمتوفى اية زوجة مما يعني انه لم يكن متزوجا ، أو ان زوجته قد توفيت ، أو كانت مطلقة ولم تخلف له اولادا . ويلاحظ في هذه الاحصاءات ان ٥٩ر٦٧٪ من المتوفين المتزوجين كانت بعصمتهم زوجة واحدة حين وفاتهم ، وربما دل هذا الاتجاه بالاكتفاء بزوجة واحدة على اوضاع مادية محدودة ، و كذلك على تدني مستوى العمر بين المتوفين كما سنشير الى ذلك لاحقا . ونستنتج من عدد الحالات التي كان للمتوفى فيها زوجة سابقة او اكثر ، ويبلغ عددها (٣١) حالة تعادل ٧٠ر٢٨٪ من مجموع المتزوجين ، ان نسبة تعدد الزوجات ، وما يرتبط بذلك من طلاق ، كانت متدنية بالقياس مع اعداد المتوفين المتزوجين بزوجة واحدة .

واذا ما استعرضنا عدد الاولاد الذين خلفهم المتوفون لتوصلنا الى احصاءات هامة . فمن مجموع المتوفين الـ (١٤٢) خلف (٨٩) منهم اولاداً ، وبلغ مجموع هؤلاء الاولاد (٢٥١) ينقسمون الى (١٣٩) قاصرا و (١١٢) بالغا . وينقسم القاصرون الى (٦٣) ذكرا و (٧٦) انثى . اما البالغون فيتألفون من (٤٣) ذكرا و (٦٩) انثى . وبالاضافة الى العدد (٢٥١) كان تسع من زوجات المتوفين حاملات . وكان الحمل قبل ولادته يخمن دائما بذكر ، وذلك عند اقتسام الميراث ، وهذا اضمن لحقوق المولود مما او خمن بانثى ، لان حصتها نصف حصة الذكر ، ومن شأن ذلك أن يسبب الارباك المالي بين الورثة فيا بعد .

ونستنتج من كون عدد القاصرين بين أولاد المتوفين اكثر من عدد البالغين ان المجتمع الدمشقي كان فتيا . ولكن ذلك يعني من ناحية اقتصادية انه كان أقل انتاجا لان موارد صاحب الاسرة تنفق على عدد اكبر من القاصرين غير المنتجين .

ونلاحظ ايضا من ارتفاع نسبة القاصرين الى البالغين ، بين أولاد المتوفين ، ان متوسط اعمار المتوفين كانت متدنية . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان ٥٩ر٦٧٪ من المتوفين المتزوجين كانت لهم زوجة واحدة ، وان الزواج في المجتمعات الزراعية التقليدية يتم عادة في سن مبكرة ، وان الولادات تتلو الواحدة منها الاخرى ، في فترات قصيرة ، فان كثرة القاصرين تغدو ذات مدلولات هامة .

ويلاحظ كذلك من مقارنة مجموع عدد الاولاد ، وهو (٢٥١) بعدد الاسر التي ضمتهم وهو (٨٩) ان وسطي عدد الاولاد في الاسرة الواحدة هو (٢ر٨٢) . واذا اضفنا الى ذلك ان نسبة القاصرين من الاولاد كانت ٣٧ر٥٥٪ فان التفسير الارجح لهذا التدني في وسطي عدد الاولاد في الاسرة هو ارتفاع نسبة الوفيات ، سواء بين الاطفال أم الاباء . ومن بين المتوفين الـ (٨٩) ، هناك اربعة كان لكل منهم ستة اولاد ، وواحد له سبعة اولاد ، واخر له تسعة اولاد ، والجدير بالذكر ان ثروة المتوفى الذي خلف الاولاد التسعة كانت أعلى ثروة بين جميع المتوفين . اما غالبية الاسر فيتراوح عدد اولاد كل منها بين ولد واثنين. كما سنلاحظ في الجداول اللاحقة.

ويلفت الانتباه ان نسبة الاناث بين القاصرين بلغت ٦٧ر٥٤٪ ، ونسبتهن بين الاولاد البالغين بلغت ٦٠ر٦١٪ . وارتفاع نسبة الاناث بين البالغين عنها بين القاصرين ربما يدل على مقاومة الاناث للامراض اكثر من الذكور . وينتج عن ازدياد نسبة الاناث بين أولاد المتوفين تجزؤ الملكيات الموروثة الى حصص اصغر مما لو كان الامر عكس ذلك ، لان الانثى ترث نصف ما يرث الذكر .

والى جانب المتوفين المحليين الـ (١٤٢) ، في العينة الاولى ، هناك (١٠٤) من النساء المتوفيات من المسلمات المحليات . وقد حملت ثماني منهن لقب حاجة ، اي بنسبة ٦و٧٪ بينما كانت نسبة الذين يحملون لقب حاج بين الرجال المحليين المتوفين ٥٠٪ . ولم يكن تدني نسبة النساء اللواتي ذهبن الى الحج ليفسر بسبب اقتصادي بحت لان وسطي ثروة النساء المتوفيات فاق وسطي ثروة الرجال المتوفين ، ويبدو ان الاسباب تتعلق بالتقاليد السائدة وبصعوبات الطريق ومخاطره . ووجد بين النساء اربع عشرة امراة حملن لقب شريفة ، اي بنسبة تبلغ ١٣ر٤٦٪ من مجموع النساء المتوفيات . ويقابل ذلك واحد وثلاثون رجلا حملوا لقب سيد ، اي بنسبة تبلغ (٢١ر٨٣) من مجموع المتوفين المحليين . ونستدل من هذه النسب انه لم يكن ضروريا أو شائعا ان يتزوج الاشراف من شريفات دون غيرهن .

ولدى استعراض عدد النساء وازواجهن ، في العينة الاولى ، نجد ان (٧١)

امرأة من اصل (١٠٤) قد تزوجت كل منهن مرة واحدة . وهناك (١٧) امرأة تزوجت كل منهن مرتين . وليس هناك من امرأة واحدة ذكر انها تزوجت ثلاث مرات، وطبيعي ان المعيار الذي نعتمده في معرفة عدد مرات الزواج هو وجود الاولاد وانتسابهم وحقهم في الارث ، اما بقية النساء ، وعددهن (١٤) ، فلم يكن متزوجات عند وفاتهن . ونستدل من ارتفاع نسبة النساء المتزوجات مرة واحدة ، وتقدر ب (٧٨ر٨٨٪ بين المتزوجات ، وكذلك نسبة الرجال المتزوجين من زوجة واحدة ، والمقدرة ب (٥٩ر٦٧٪) ان المجتمع المحلي الشامي كان يميل الى عدم تعدد الزوجات أو الازواج. وربما يفسر ذلك باسباب اقتصادية أو بتدني وسطي الاعمار ، رغم أن نسبة الاناث فاقت نسبة الذكور بين البالغين ، كما ذكرنا .

وبلغ عدد الاولاد الذين خلفتهن (٦٠) متوفاة من اصل (١٠٤) ، (١٢٦) ولدا كان من بينهم (٨٧) من القاصرين و (٣٩) من البالغين . وتبلغ نسبة الاولاد لكل امرأة متزوجة (٩٣ر١) ، في حين بلغت النسبة بين الرجال (٨٢ر٢) ، لان الرجال امكنهم الزواج اكثر من مرة بالمقارنة مع النساء . ويتألف القاصرون من (٤٤) ذكرا و (٢٣) انثى ، والبالغون من (٢٠) ذكرا و (١٩) انثى . وارتفاع نسبة القاصرين بين اولاد النساء المتوفيات والبالغة ٠٤ر٦٩٪ تفوق نسبة القاصرين بين أولاد الرجال المتوفين والبالغة ٣٧ر٥٥٪ والنسبة في الحالتين تؤكد كون المجتمع فتيا .

وباستعراض اسماء النساء الـ (١٠٤) تبرز نسب الاسماء المستعملة انذاك ، فقد حملت (٢٣) امرأة اسم فاطمة ، و (١١) زينب ، و (٨) خديجة ، و (٧) عائشة ، و (٥) آمنة وخانم وسعدية ، و (٤) حامدة ورحمة ، و (٣) مريم و (٢) صالحة وصفية وليلى ونجيبة . وحملت امرأة واحدة اسم كل من اسامي واسمهان وجميلة وحديفة وحليمة وراجحة ورقية وزاهدة وست وستوت وسعدية وشرف وصادقة وصافية وعاتكة وعفيفة وعيني وفايقة وكرافة ونفيسة وهبت .

أما بالنسبة للمتوفين الاغراب الذين قدر عددهم ب (٨٢) فكان معظمهم من الاتراك الذين انضموا الى قافلة الحج الشامي المتجهة الى الحجاز . وقد ذكرت مخلفات المتوفين منهم في طريق العودة (يرجح أن المتوفين منهم في طريق الذهاب قد نظر في مخلفاتهم احد القساميين في الحجاز ، أو في دمشق بعد وصولهم اليها) . وقد ذكرت مخلفاتهم بصورة متتالية تقريبا في سجل القسام العربي . واشار السجل الى اسم البلدة التي قدم منها المتوفى ، والولاية التي تقع فيها ، واسم الوصي الذي يهتم بتركة المتوفى ، وغالبا ما اختاره صاحب المخلفات قبل وفاته ووافق عليه القسام ، واسماء الوارثين . ولكن لم تذكر تفاصيل كثيرة عن هؤلاء وفيما اذا كانوا

قاصرين أو بالغين لان سجل القسام يذكر الوارثين على سبيل العلم بهم لكي لا تنتقل الثروة الى بيت مال الدولة . وينقل الوصي التركة ، بعد اقتطاع الرسوم والمصاريف الاخرى الى اصحابها في البلد الاصلي .

وذكرت العينة الاولى اسماء سبعة متوفين من المسيحيين بينهم امرأة ، واسم امرأة يهودية واحدة . وكان لمعظمهم مشاكل اقتضى عرضها ، كما يبدو ، على القسام العربي . فاحدهم توفي في عكا ، والاخر كان ارمنيا توفي في احد خانات دمشق ولم يكن له وارث ، والثالث توفي في القاهرة ، والاخرون كان احدهم من حلب ، وثانيهم صائغا ، وثالثهم طبيبا .اما المرأة المسيحية فقد تركت زوجا وابنتين بالغتين . ولم تكن المرأة اليهودية متزوجة . وكان ستة من المسيحيين السبعة متزوجين ، ولثلاثة منهم اولاد بلغ عددهم ثمانية جميعهم من القاصرين ، وقد اشتملوا على ستة ذكور وانثيين ، ولا تشكل هذه الاعداد القليلة من المتوفين غير المسلمين نماذج ذات دلالات يمكن تعميمها .

وتتألف العينة الثانية التي درسناها ، والتي تعود الى الفترة بين ١٢٣٢ – ١٢٣٥/١٨١٧ – ١٨٢٠ ، من (٢٧٧) متوفى ، يضمون (١٢٠) مسلما محليا ، و (٧٦) مسلمة محلية ، و (٧٥) من الاغراب ، و (٦) مسيحيين . وضم المسلمون المحليون (٣٧) شخصا يحملون لقب حاج ، و (٢٦) لقب سيد ، و (١٣) لقب شيخ ، وشخصا واحدا يحمل لقب معلم ، أما الاسماء الاخرى فلم تحمل لقبا .

وبلغ عدد المتوفين المحليين الذين كانت بعصمة كل منهم زوجة واحدة عند وفاته (٦٦) من اصل (١٢٠) . وهناك سبعة كان لكل منهم زوجتان عند وفاته ، و(١٥) لكل منهم زوجة واحدة واخرى سابقة خلفت اولادا . وذكر اثنان لكل منهما زوجتان بالاضافة الى زوجة ثالثة سابقة . ولم يكن لـ (٣٠) منهم اية زوجة حين وفاتهم . ولكن احد عشر منهم كان لهم اولاد ، مما يدل على وجود زوجات لهم في السابق .

وقد خلف (٨٢) متوفى ، من اصل (١٢٠) ، اولادا بلغ مجموعهم (٢٣٧) . وضم هؤلاء (١٣٦) قاصرا و (١٠١) بالغا . واشتمل القاصرون على (٧٦) ذكرا و (٦٠) انثى . اما البالغون فضموا (٤٨) ذكرا و (٥٣) انثى . ووجد الى جانب هؤلاء الاولاد اثنا عشر حملا . ويلاحظ انه بعد مضي سبعين سنة على العينة الاولى زادت نسبة القاصرين الى البالغين في العينة الثانية ، وبلغت ٥٧ر٣٨٪ من مجموع الاولاد ، في حين ان النسبة في العينة الاولى كانت ٥٥ر٣٧٪ . ونلاحظ تناقصا في نسبة الاناث الى مجموع الاولاد ، اذ بلغت في العينة الثانية ٤٧ر٦٧٪ في حين كانت ٥٧ر٧٦٪ في العينة

الاولى . ويبلغ متوسط عدد الاولاد في الاسرة ، في العينة الثانية ، (٢ر٨٩) . وهذا يزيد بقليل عن متوسط العدد في العينة الاولى التي سبقت بسبعين سنة ، والبالغ ٢ر٨٢ ، مما يدل على ان التزايد السكاني كان بطيئا جدا .

وبالنسبة للنساء في العينة الثانية ، فقد حملت امرأتان من (٧٦) امرأة متوفاة لقب حاجة ، ولم تحمل أية أمرأة لقب شريفة . ووجد لـ (٣١) امرأة زوج لكل منهن عند وفاتها ، ولامرأتين زوج سابق لكل منهما رزقت منه اولادا . وكان لثلاث فقط زوجان سابقان لكل منهن . ولم يذكر سجل القسام لـ (١٩) امرأة اي زوج عند وفاتهن ، ولكن خمسا من هاته النسوة ، كان لهن أولاد ، مما يعني انهن كن مطلقات من ازواجهن ، او ان ازواجهن قد توفوا .

ولم تختلف الاسماء المفضلة للنساء كثيرا في العينة الثانية عنها في العينة الاولى ، فقد بقي اسم فاطمة يحتل المرتبة الاولى ، اذ حملته (١٨) امرأة ، وتلاه اسما آمنة وزينب (٦) مرات لكل منهما ، وخديجة وسعدية وصالحة (٥) ، وعائشة (٤) ، ورقية (٣) ، وحنيفة وحوا وكلسن ومروه وصادقة مرتين ، واسماء واسمهان وحسنة وحفظة وحنيفة ودرة ورحمة وساقية وصادقة وعاتكة وغوا وقادرية ومحبوبة ومريم مرة واحدة .

أما بالنسبة للمتوفين الاغراب ، وعددهم (٧٥) ، فكان معظمهم من الاناضول وقلة من روميلية . وكانوا جميعا يحملون لقب حاج . وكتبت تفاصيل تركات هؤلاء باللغة العثمانية خلافا للعينة الاولى التي كتبت فيها تركات الاغراب باللغة العربية. وربما دل ذلك على ان الدولة العثمانية في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، وقد بدأت بتطبيق الاصلاحات وفرض سلطة المركز على الولايات ، قد عمدت الى دعم اللغة العثمانية .

وذكرت في العينة الثانية اسماء ستة متوفين مسيحيين ضموا امرأة . وكانوا جميعا متزوجين ، وتزوج احدهم مرتين . وبلغ مجموع اولادهم (٢١) ولدا ضموا (١٢) من القاصرين (٧ ذكور و ٥ اناث) ، وتسعة من البالغين (٣ ذكور و ٦ اناث). ويشتركون مع المتوفين المسلمين بازدياد نسبة القاصرين بين الاولاد .

استنتاجات

بمقارنة العينتين ، وفق الجداول اللاحقة ، نصل الى الاستنتاجات التالية :

١ ـ الالقاب

العينـــة الاولـى

١١٦٣ ـ ١١٦٦/١٧٥٠ ـ ١٧٥٣

	حـــاج		شريف		شيخ	
متوفون محليون	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد : ١٤٢	٧١	٥٠ ٪	٣٢	٢٢ر٥٣ ٪	١٤	٩ر٨٦ ٪
متوفيات محليات						
العدد : ١٠٤	٨	٧٦ر٠ ٪	١٤	١٣ر٤٦ ٪	ـ	ـ

العينـــة الثانيــة

١٢٣٢ ـ ١٢٣٥/١٨١٧ ـ ١٨٢٠

	حـــاج		شريف		شيخ	
متوفون محليون	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد : ١٢٠	٣٧	٣٠ر٨٣ ٪	٢٦	٢١ر٦٦ ٪	١٣	١٠ر٨٣ ٪
متوفيات محليات						
العدد : ٧٦	٢	٢٦ر٠ ٪	ـ	ـ	ـ	ـ

يتضح من هذين الجدولين ان نسبة الذين أدوا فريضة الحج في العينة الثانية قد تناقصت عما في العينة الاولى ، وذلك بالنسبة للرجال والنساء معـا . ويمكن

تفسير هذه الظاهرة بالضائقة الاقتصادية التي اصابت جزءا من السكان المحليين في الربع الاول من القرن التاسع عشر ، اي في السنوات الاخيرة من حكم احمد باشا الجزار وابان حكم احد عشر واليا تعاقبوا على حكم دمشق من بعده وحتى نهاية فترة العينة الثانية(١٥) . ولكن السبب الاهم من ذلك هو اتساع هجمات الوهابيين في العقد الاول من القرن التاسع عشر ووصولهم الى اطراف دمشق ، وعدم خروج قافلة الحج الشامي الى الحجاز لبضع سنوات نتيجة لذلك . ثم تلا القتال بين قوات الوهابيين وقوات والي مصر محمد علي باشا الذي كلفه السلطان العثماني بمهاجمتهم. وتمكنت قوات محمد علي من البطش بالقوات الوهابية ــ السعودية اثر حملات متعددة ضدهم واحتلت عاصمتهم الدرعية في عام ١٨١٨(١٦) .

ويلاحظ في العينتين ان نسبة الاشراف بين المتوفين الرجال كانت متقاربة مما يدل على أن عدد الاشراف في دمشق كان متوازنا وطبيعيا ، خلافا لما حدث في حلب في فترة السبعين سنة التي فصلت بين العينتين ، اذ ازدادت اعداد الاشراف وقوتهم فيها الى درجة كبيرة جعلت نقيب الاشراف في استانبول يكتب الى نقيب الاشراف في حلب يحثه على التدقيق في صحة النسب واتخاذ العلامة الخضراء ولقب السيد . وكان الاشراف في حلب يدافعون عن مصالح السكان المحليين فيها ضد الانكشارية العثمانيين ، وبالتالي ضد تسلط الدولةالعثمانية . وحدثت مواقع دامية بين الفريقين بلغت ذروتها في مذبحة جامع الاطروش ، قرب القلعة ، في عام ١٧٩٨ وذهب ضحيتها عدد كبير من الاشراف . ونظرا للاهمية العسكرية للاشراف في حلب آنذاك فقد استنجدت بهم الدولةالعثمانية لمقاومةحملة نابليون بونابرتعلى مصر وبلاد الشام(١٧).

٢ ــ نسب الزواج

العينـــة الاولـــى
١١٦٣ ــ ١١٦٦/١٧٥٠ ــ ١٧٥٣

عدد المتزوجين	زوجة واحدة		زوجتان		ثلاث زوجات		بدون زوجة	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
١٠٨	٧٣	٦٧ر٥٩٪	٣١	٢٨ر٧٠٪	٤	٠ر٣٧٪	٤٣	٣١ر٤٨٪

عدد المتزوجات	من زوج واحد		متزوجات مرتين		متزوجات ثلاث مرات		بدون زوج	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٨٨	٧١	٨٠ر٦٨٪	١٧	١٩ر٣١٪	ــ	ــ	١٦	١٨ر١٨٪

العينـــة الثانيـــة

١٢٣٢ — ١٨١٧/١٢٣٥ — ١٨٢٠

عـدد المتزوجين	زوجة واحدة		زوجتـان		ثلاث زوجات		بدون زوجة	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
٩٠	٦٦	٧٣ر٣٣٪	٢٢	٢٤ر٤٤٪	٢	٢٢ر٠٪	٣٠	٣٣ر٣٣٪

عـدد المتزوجات	من زوج واحد		متزوجات مرتين		متزوجات ثلاث مرات		بدون زوج	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبه	العدد	النسبة
٤٦	٣١	٦٧ر٣٩٪	١٢	٢٦ر٠٨٪	٣	٦٥ر٠٪	١٩	٤١ر٣٠٪

يلاحظ في الاعداد والنسب السابقة ان ٦٧ر٥٩٪ من المتزوجين في العينة الاولى كانت لهم زوجة واحدة عند وفاتهم . وازدادت النسبة الى ٧٣ر٣٣٪ بعد سبعين سنة من ذلك ، مما يدل على ان المجتمع الشامي كان يميل في غالبيته الى الاكتفاء بزوجة واحدة . أما بالنسبة للنساء فنلاحظ ان نسبة المتزوجات من زوج واحد قد تدنت من ٦٨ر٨٠٪ في العينة الاولى الى ٦٧ر٣٩٪ في العينة الثانية . وربما كان سبب ذلك تدني نسبة الاناث في العينة الثانية الى ٤٧ر٦٧٪ ، وكانت في العينة الاولى ، قبل سبعين سنة ، ٥٧ر٦٧٪ . ولكن ما يعدل ذلك ارتفاع نسبة المتزوجات مرتين الى ٢٦ر٠٨٪ في العينة الثانية ، بينما كانت ١٩ر٣١٪ في العينة الاولى . وتبعا لهذا الاتجاه في الاقلال في عدد الزيجات فمن الطبيعي ان يكون المتزوجون من ثلاث زوجات ، أو المتزوجات ثلاث مرات ، اقل من المتزوجين من زوجتين ، او من المتزوجات مرتين . ويلفت النظر ضمن هذه النسب ان عدد المتزوجين باكثر من زوجة ، في العينة الاولى ، ومجموعهم (٣٥) ، ضم ست حالات فقط كان للمتوفى فيها زوجتان في عصمته حين وفاته ، أما الزوجات الاخريات ، ممن خلفن أولادا ، فكن زوجات سابقات . وفي العينة الثانية نلاحظ ان من مجموع (٢٤) متوفى لكل منهم اكثر من زوجة ، وجد سبعة فقط لكل منهم زوجتان في عصمته حين وفاته ، وهناك خمسة عشر لكل منهم زوجة واحدة واخرى سابقة . وفي حالتين كان للزوج زوجتان وزوجة اخرى سابقة . وتؤكد هذه التفاصيل ماورد في العينتين ، على مدى سبعين سنة ، من الاتجاه نحو الاكتفاء بزوجة واحدة .

ويلفت النظر ان عدد المتوفين بدون زوجة ، بلغ في العينة الاولى ٣١٫٤٨٪ وفي العينة الثانية ٣٣٫٣٣٪ . اما نسبة المتوفيات بدون زوج فبلغت ١٨٫١٨٪ في العينة الاولى و ٤١٫٣٠٪ في العينة الثانية . وربما يفسر هذا الازدياد بالنسبة للمتوفيات بدون زوج بارتفاع متوسط العمر بينهن بالنسبة لمتوسط عمر الازواج . كما أن هذا ينصب في النتيجة باتجاه عدم تعدد الزوجات أو الزيجات .

٣ – حجم الاسرة

العينة الاولى

١١٦٣ – ١١٦٦/١٧٥٠ – ١٧٥٧

متوفون اعقبوا اولادا	مجموع الاولاد	القاصرون		البالغون	
		العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٨٩	٢٥١	١٣٩	٥٥٫٣٧٪	١١٢	٤٤٫٦٢٪

متوفيات اعقبن اولادا	مجموع الاولاد	القاصرون		البالغون	
		العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٦٥	١٢٦	٨٧	٦٩٫٠٤٪	٣٩	٣٠٫٩٥٪

العينة الثانية

١٢٣٢ – ١٢٣٥/١٨١٧ – ١٨٢٠

متوفون اعقبوا اولادا	مجموع الاولاد	القاصرون		البالغون	
		العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٨٢	٢٣٧	١٣٦	٥٧٫٣٨٪	١٠١	٤٢٫٦١٪

متوفيات اعقبن اولادا	مجموع الاولاد	القاصرون		البالغون	
		العدد	النسبة	العدد	النسبة
العدد = ٤٢	٧٩	٥٢	٦٥٫٨٢٪	٢٧	٣٤٫١٧٪

ويتضح من هذا ان نسبة القاصرين بين اولاد المتوفين كانت تتجه نحو الازدياد خلال السبعين سنة التي فصلت العينة الثانية عن الاولى . ويفسر ذلك بتدني وسطي العمر بين الاباء نظرا لكثرة انتشار الاوبئة والطواعين بصورة خاصة ، ويترتب على كثرة القاصرين بين الاولاد ان الاب يضطر للانفاق عليهم لإعاشتهم ولا يستفيد كثيرا من عملهم قبل وفاته .

ويلاحظ أن متوسط مجموع الاولاد في الاسرة بالنسبة للمتوفين الذكور كان (٢ر٨٢) في العينة الاولى و (٢ر٨٩) في الثانية ، ويبدو ان تفسير هذه النسبة المتواضعة في عدد الاولاد يعود الى تدني وسطي العمر وكثرة الوفيات ثم الضائقة الاقتصادية . وسنعالج العلاقة بين الوضع الاقتصادي للاسرة وعدد الاولاد فيها في جدول لاحق . واذا اضفنا الابوين الى وسطي عدد الاولاد لوصلنا الى ما يقبرب الخمسة ، وهو الحجم المتعارف عليه للاسرة في بلاد الشام في العهد العثماني . ونظرا لان الاتجاه نحو الاكتفاء بزوجة واحدة كان هو الغالب فان حجم الاسرة لا يزيد عن الخمسة الا في حالات قليلة ، كأن يكون في الاسرة زوجتان او اكثر في وقت واحد .

وباستعراض عدد الاولاد في اسر المتوفين والمتوفيات في العينتين تصل الى النسب التالية :

العينة الاولى	العينة الثانية
١١٦٣ – ١١٦٦/١٧٥٠ – ١٧٥٣	١٢٣٢ – ١٢٣٥/١٨١٧ – ١٨٢٠

عدد الاولاد في الاسرة

	المتوفون (المجموع : ١١٠)		المتوفيات (المجموع : ٨٨)		المتوفون (المجموع : ٩٨)		المتوفيات (المجموع : ٥٢)	
	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة
بدون اولاد	٢١	١٩ر٠٩ (١)	٢٣	٢٦ر١٣	١٦	١٨ر٥١	١٠	٢٣ر٨٠
ولد واحد	٢٤	٢٦ر٦٦ (٢)	٢٩	٤٤ر٦١	١٨	٢٢ر٢٢	٢٣	٥٤ر٧٦
ولدان	٢٠	٢٢ر٢٢	٢١	٣٢ر٣٠	٢٢	٢٧ر١٦	٧	١٦ر٦٦
ثلاثة اولاد	١٥	١٦ر٦٦	٨	١٢ر٣٠	١٧	٢٠ر٩٨	٩	٢١ر٤٢
اربعة اولاد	١٨	٢٠ر٢٢	٤	٠ر٦١	١٤	١٧ر٠٧	١	٠ر١٩
خمسة اولاد	٦	٠ر٦٦	٣	٠ر٤٦	٦	٠ر٧٣	١	٠ر٢٣
ستة اولاد	٤	٠ر٤٤	–	–	١	٠ر١٢	١	٠ر٢٣
سبعة اولاد	١	٠ر١١	–	–	٣	٠ر٣٦	–	–
تسعة اولاد	١	٠ر١١	–	–	–	–	–	–
احدعشر ولدا	–	–	–	–	١	٠ر١٢	–	–
مجموع الاولاد (٣)	٢٥١		١٢٦		٢٣٧		٧٩	

١ – حسبت هذه النسبة من المجموع العام للمتوفين .

٢ – حسبت هذه النسبة من المجموع العام للمتوفين ذوي الاولاد .

٣ – لا يتضمن عدد الاولاد تسع حالات حمل في العينة الاولى واثنتي عشرة حالة حمل في العينة الثانية

يتضح من الجدول السابق ان عدد اسر المتوفين ، في العينة الاولى ، التي ضم كل منها ولدا واحدا : بلغ (٢٤) اسرة . يليها (٢٠) اسرة ضم كل منها ولدين ، وهذا يعني ان (٤٤) اسرة ، من اصل (٨٩) اسرة ذات اولاد ، ضمت (٦٤) ولدا ، اي ان ٤٩ر٤٣٪ من عدد الاسر ضم ٤٩ر٢٥٪ من عدد الاولاد . ويدل هذا على ان الاسرة كانت اقرب الى الصغر . اما الاسر التي راوح عدد الاولاد فيها من ثلاثة الى اربعة فبلغ عددها (٣٣) اسرة ، شكت ٣٧ر٠٧٪ من مجموع الاسر ، وضمت (١١٧) ولدا . اي بنسبة ٤٦ر٦١٪ من مجموع الاولاد . ثم يهبط عدد الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من خمسة الى ستة الى عشر اسر ، تشكل نسبة ١١ر٢٣٪ من مجموع الاسر ، وقد ضمت (٥٤) ولدا ، أي بنسبة ٢١ر٥١٪ .

وبالمقارنة مع المتزوجين في العينة الثانية نجد ان عدد الاسر التي ضمت ولدا واحدا بلغ ١٨ اسرة . ويليها (٢٢) اسرة ضم كل منها ولدين . وهذا يعني أن (٤٠) اسرة من أصل (٨٢) اسرةذات اولاد ضمت (٦٢) ولدا ، اي ان ٤٨ر٧٨٪ من عدد الاسر ضم ٢٦ر١٦٪ من عدد الاولاد . وتتشابه هذه النسب مع نسب العينة الاولى مما يعني استمرار الاسر ذات الحجم الصغير بعد سبعين سنة من العينة الاولى . اما الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من ثلاثة الى اربعة فقد بلغ عددها (٣١) اسرة ، تشكل نسبة ٣٧ر٨٠٪ ، وضمت (١٠٧) اولاد تبلغ نسبتهم ٤٥ر١٤٪ . وتتقارب هذه النسب بدورها من نسب العينة الاولى . ثم يهبط عدد الاسر التي راوح عدد الاولاد في كل منها من خمسة الى ستة فتشكل نسبة ٨ر٥٣٪ وقد ضمت (٣٦) ولدا يشكلون نسبة ١٥ر١٨٪ من مجموع الاولاد .

اما بالنسبة للمتوفيات في العينة الاولى ، فقد بلغ عدد اللواتي خلفن ولدا أو ولدين (٥٠) امراة ، اي ٧٦ر٩٢٪ من مجموع المتوفيات اللواتي خلفن اولادا . وبلغ عدد اولادهن (٧١) ولدا من اصل (١٢٦) ، اي بنسبة ٥٦ر٣٤٪ . ثم يهبط عدد اللواتي خلفن ثلاثة او اربعة اولاد الى (١٢) امراة ، نسبتهن ١٨ر٤٦٪ ، وعدد اولادهن (٤٠) ولدا ، بنسبة ٣١ر٧٤٪ .

ويقابل ذلك في العينة الثانية (٣٠) امراة خلفت كل منهن ولدا أو ولدين ، بنسبة ٧١ر٤٢٪ من عدد المتوفيات ذوات الاولاد ، وبلغ مجموع اولادهن (٣٧) ولدا ، بنسبة ٤٦ر٨٣٪ من مجموع الاولاد . وتقل هذه النسب قليلا عن نسب المتوفيات من فئتي الولد او الولدين في العينة الاولى . اما اللواتي خلفت كل منهن ثلاثة الى اربعة اولاد فبلغ عددهن (١٠) نساء ، اي بنسبة ٢٣ر٨٠٪ ، ومجموع اولادهن (٢٨) ولدا ، تساوي نسبتهم ٣٥ر٤٤٪ من مجموع الاولاد . وهذا اكثر بقليل من العينة الاولى ، اي ان

العينة الثانية تؤكد الاتجاه السائد نحو شمول الاسرة ولدا أو ولدين مع بعض الزيادة في عدد الاسر ذوات الثلاثة والاربعة اولاد .

٤ ــ العلاقة بين وضع الاسرة الاقتصادي وعدد اولادها

يمكن ايجاد علاقة بين عمل رب الاسرة ووضعه الاقتصادي ، وحجم أسرته . ويلاحظ من تفاصيل العينتين ان بعض الحرفيين الذين اقتضى عملهم الجلوس ، مثل القوافين (بائعي الاحذية) والقاووقجية (صانعي غطاء الرأس المعروف بالقلنسوة) ، وكذلك النساج ، كان لهم اسر متوسطة الحجم ، بمقاييس ذلك الزمن ، تضم الواحدة منها ولدين الى اربعة اولاد . ويشترك معهم في ذلك الحرفيون المشتغلون بالطعام ، مثل الحلوانية والاقسماوية (بائعي المرطبات) ، والسمانين . ولكن الحرفيين الذين اقتضى عملهم الحركة الدائمة ، مثل الحلاقين والحمامين والطحانين والكيالين فكانت اسرهم اقل عددا ، تضم الواحدة منها ولدا الى ثلاثة اولاد . اما المشتغلون بالعلم ، فيلاحظ انهم لا يتزوجون ، او يتزوجون وينجبون اولادا كثرا . واصحاب الاسر الكبيرة ، اي التي يضم كل منها اربعة اولاد او اكثر ، يكونون في الغالب اما من اصحاب الدخول القليلة او الثروات الضخمة . فالفئة الاولى تنظر الى الاولاد كمورد اقتصادي، والفئة الثانية تتباهى بالاولاد ، كقوة وجاه ، وبالقدرة على الانفاق عليهم .

وقد قمنا بدراسة العلاقة بين صافي ثروات المتوفين (اي المبالغ المتبقية من ثروتهم للورثة بعد اقتطاع التزامات المتوفى وديونه ونفقات دفنه) وعدد الاولاد الذين خلفوهم ، فوصلنا الى النتائج التالية :

يلاحظ في العينة الاولى ان اصحاب الدخل المحدود الذين يراوح صافي ثرواتهم بين قرش ومائة قرش ، بلغ عدد اولادهم (٥٦) ولدا وهذا اعلى رقم لمختلف فئات الثروة في حدود العينة الاولى . ويلاحظ ، من ناحية اخرى ، ان الاسر التي رزق كل منها بولد واحد بلغ عددها ، بقطع النظر عن دخلها ، اربعا وعشرين أسرة ، وهي اعلى نسبة بين الاسر على الاطلاق . مما يظهر ان الاسرة ذات الولد الواحد هي الغالبة . ويلي ذلك الاسر ذات الولدين .

العينـــة الاولـى

١١٦٣ ـ ١٧٥٠/١١٦٦ ـ ١٧٥٣

العلاقة بين صافي الثروة وعدد الاولاد لمتوفين دمشقيين

(عدد المتوفين ١١٠ خلف ٨٩ منهم اولادا)

عدد الاولاد في الاسرة	مفلس	١ ـ ١٠٠ قرش	١٠١ ـ ٢٠٠	٢٠١ ـ ٤٠٠	٤٠١ ـ ٦٠٠	٦٠١ ـ ٨٠٠	٨٠١ ـ ١٠٠٠	١٠٠١ ـ ١٥٠٠	١٥٠١ ـ مافوق	عدد الاسر حسب عدد الاولاد
بدون اولاد	١	٩	٢	٥	١	٢	—	—	١	٢١
ولد واحد	—	١٣	٤	٢	٣	٢	—	—	—	٢٤
ولدان	١	٧	٤	٤	٢	١	—	—	١	٢٠
ثلاثة اولاد	٢	٣	٥	٢	١	—	—	١	١	١٥
اربعة اولاد	٢	٣	٢	٣	٣	١	—	٣	١	١٨
خمسة اولاد	—	١	٤	—	—	—	—	—	١	٦
ستة اولاد	—	٢	—	—	—	١	—	—	١	٤
سبعة اولاد	—	—	—	—	—	—	—	١	—	١
تسعة اولاد	—	—	—	—	—	—	—	—	١	١
المجموع	١٦	٦٥	٥٥	٢٨	٢٢	١٤	—	٢٢	٢٩ ٢٥١٠ ولدا	٨٩ متوفى

العينـــة الثانيـــة

١٢٣٢ – ١٢٣٥/١٨٢٠ – ١٨٢٣

(عدد المتوفين ٩٨ خلف ٨٢ منهم اولادا)

عددالاولادفي الاسرة	مفلس	١–١٠٠ قرش	١٠١–٢٠٠	٢٠١–٤٠٠	٤٠١–٦٠٠	٦٠١–٨٠٠	٨٠١–١٠٠٠	١٠٠١–١٥٠٠	١٥٠١–مافوق	عدد الاسر حسب عدد الاولاد
بدون أولاد	١	٣	٤	٣	١	١	١	–	٢	١٦
ولد واحد	١	١	٣	٤	٤	٢	–	–	٣	١٨
ولدان	٢	٥	٢	١	١	١	١	٢	٧	٢٢
ثلاثة اولاد	–	١	٢	١	٢	١	١	٤	٥	١٧
اربعة أولاد	–	–	–	٢	٤	١	١	–	٦	١٤
خمسة أولاد	–	١	–	–	–	–	١	١	٣	٦
ستة أولاد	–	–	–	١	–	–	–	–	–	١
سبعة أولاد	–	١	–	–	–	١	–	–	١	٣
احدعشرولدا	–	–	–	–	–	–	١	–	–	١
المجموع	٥	٢٦	١٣	٢٣	٢٨	١٨	٢٥	٢١	٧٨ =٢٣٧ولدا	٨٢متوفى

ويحدث تبدل جذري في العينة الثانية ، اذ يزداد عدد الاولاد في الاسر التي زاد صافي ثروة اصحابها على (١٥٠٠) قرش . ويبلغ عدد اولاد هذه الفئة (٧٨) ولـدا من أصل (٢٣٧) ، اي بنسبة ٣٢٫٩٠٪ ، في حين ان نسبة الاولاد في الاسر التي زاد صافي ثروتها على (١٥٠٠) قرش في العينة الاولى كان ١١٫٥٥٪ . وتحتل الاسر ذات الدخل الاقل (من قرش الى مائة قرش) المرتبة الثالثة من حيث عدد الاولاد ، اذ بلغ مجموعهم (٢٦) ولدا ، اي بنسبة ١٠٫٩٧٪ من مجموع عدد الاولاد ، في حين كانت نسبة اولاد هذه الفئة من الدخل في العينة الاولى ٢٥٫٨٩٪ ، ويطـرأ تحسن في حجم الاسرة اذ يزداد عدد الاسر التي تضم الواحدة منها ولدين وتصبح هي الغالبة، ثم تتلوها الاسر ذات الولد الواحد ، ثم ذات الثلاثة والاربعة اولاد . وتبقى اعلى نسبة بين الاسر هي تلك التي تضم من ولد الى اربعة اولاد ، وتتساوى في ذلك العينتان الاولى والثانية . ففي العينة الاولى بلغت نسبة هذه الاسر ٨٦٫٥١٪ ، وفي العينة الثانية ٨٦٫٥٨٪ . ويظهر هذا ان الغالبية العظمى من الاسر خلال سبعين عامـا لم تتجاوز حدود الولد الى اربعة اولاد .

نخلص الى القول ان ما تقدم عرضه هو محاولة لالقاء الضوء على حجم الاسرة ووسطي العمر ، وربط ذلك بالوضع الاقتصادي والصحي . ورغم ان سجلات القسام عنيت اكثر من كل شيء بمخلفات المتوفين الذين تركوا قاصرين ، ولا تشكل مسحا لجميع المتوفين ، فانها هامة جدا لانها تطلعنا على مظاهر سكانية لقطاع كبير مـن السكان ، وما يترتب عليها من نتائج شتى في مختلف الميادين . ونذكر على سبيل المثال اثر الاسرة الصغيرة الحجم بالنسبة للملكية . فقلة الافراد في الاسرة من شأنه الا يفتت الملكية العقارية فتتجه هذه الى التجمع في اسر قليلة . ويصح ذلك بالنسبة للاوقاف الاهلية (الذرية) التي ينتفع بها عدد اقل من المستفيدين . واذا كان ازدياد الثروة لدى بعض الفئات في الربع الاول من القرن التاسع عشر قد نتج عنه ازدياد حجم الاسرة ، فان الكثرة من طبقات الشعب الادنى دخلا لم تبدل كثيرا في حجم الاسرة، ربما لانها بقيت تقليدية في اطرها وتقاليدها ودخلها . ولاشك ان اثر اوربا الصناعية على بلاد الشام قد زاد من الهوة الاقتصادية ، وبالتالي الاجتماعية ، بين طبقة قليلـة اصبحت تجني الثروات الضخمة من تعاملها مع أوربا ، واخرى تضم غالبية الشعب وتدفع ثمن منافسة البضائع الاوربية لمنتجاتها الحرفية . ولا شك ان هذا الوضـع كان له انعكاساته على حجم الاسرة . وقد تحسنت ، في القرن التاسع عشر ، الخدمات الصحية وطرق مكافحة الاوبئة ، واستحدثت اماكن الحجر (الكارانتينا) في مراكـز الحدود . ومن شان ذلك ان يحد من الوفيات ويزيد من عدد السكان .

الحواشي :

١ ـ انظر المناقشة الوافية لهذه الاراء المختلفةالتي قام بها المرحوم الدكتور انطوان عبد النور في كتابه بالفرنسية (وهو طروحة دكتوراه دولةمن جامعة باريس) وعنوانه :
Introduction à l'histoire urbaine de la Syria Ottomane (XVI°-XVII° siècle), Beyrouth, 1982, pp. 41-56.

٢ ـ المصدر السابق ، ص ٥٧ ـ ٦٠ .

٣ ـ محمد بن جمعة ، الباشات والقضاة ، نشرهالدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٦٥ .

٤ ـ انظر حول ذلك : الشيخ محمد احمد دهمان ، « زلزل سنة ١١٧٣ هجرية » ، مجلة المشرق ، المجلد ٤٢ (١٩٤٨) . ص ٣٣٣ ـ ٣٤٧ . وانظر ايضاسيد رسلان القاري ، الوزراء الذين حكموا دمشق نشره الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه :ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ، ١٩٥٩ ، ص ٨٢ .

٥ ـ رسلان القاري ، ص ٨٣ .

٦ ـ قدر الاخباري الدمشقي المعاصر للطاعونالخوري ميخائيل بريك أن الطاعون دام حوالي ستة اشهر انظر كتابه : تاريخ الشام ، ١٧٢٠ ـ ١٧٨٢ ،نشره قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص٧٠ . وانظر تفاصيل اخرى عن هذا الطاعون مستقاةمن مراسلات القناصل الاجانب في بلاد الشام وغيرها، في كتابنا :
The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut, 2nd printing (paperback), 1970, pp. 232-233.

٧ ـ احمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، نشره الدكتور احمد عزت عبد الكريم ،القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٢٨ .

٨ ـ انظر المقال التالي :
Daniel Panzanc , « L'Affrontement Turco - Egyptienne de 1830 - 1840 », **Economie et Société dans l'Empire Ottoman (fin du XVIII°-début du XX° siècle)**, publié par Jean-Louis Bacqué-Grammont et Paul Dumont, CNRS, Paris, 1983, pp. 232-233.

٩ ـ انظر تفاصيل هذا الاحصاء في مقال :

Kemal Karpat, «Ottoman Population Records and the Census of 1881/82-1893», **International Journal of Middle Eastern Studies**, Vol. 9, No. 2 (1978), pp. 258-274.

١٠ـ انظر مثلا : السجلات التالية : رقم ٢٢ ص١ ،رقم ٣٤ ص ١ ، رقم ٤٠ ، ص ١ ، رقم ٤١ ص ١ .

١١ـ انظر : محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في اعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ، ١٢٨٤/١٩٦٩ ، جـ ١ ، ص ٢٤٦ ، ٣١٧ ، جـ٤ ، ١٤٣ ، محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، ٤ اجزاء ، بولاق١٣٠١ ، جـ ١ ، ٦٣ ، ١٨٧ ، ٢٥٤ ، جـ ٢ ، ٢٨١ ـ ٢٨٢ ، جـ ٤ ، ١٠٢ .

١٢ـ انظر سجل القسام ، رقم ١٣١ .

١٣ـ انظر سجل القسام ، رقم ٢٩٠ .

١٤ـ انظر تفاصيل ضافية عن هذا الهجوم في كتابنا :

The Province of Damascus, pp. 260-282.

١٥ ـ انظر حول اوضاع دمشق الاقتصادية في هذه الفترة : تاريخ حسن اغا العبد ، حققه يوسف جميل نعيسة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٧٩ .

١٦ـ انظر حول توقف قافلة الحج بسبب تلك الاخطار ، تاريخ حسن اغا العبد ، ص ١٣٢ ، ١٤٣ ـ ١٤٤ . وانظر حول توغل القوات الوهابية في بلاد الشام ، المصدر السابق ، ص ١٤٩ ـ ١٥١ .

١٧ـ انظر : محمد راغب الطباخ ، اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء ، حلب ، ١٣٤٢ ـ ١٣٤٥ /١٩٢٣ ـ ١٩٢٦ ، جـ ٣ ، ص ٣٧٠ ـ ٣٧٤ .وانظر : تاريخ حسن اغا العبد ، ص ٦٣ ـ ٦٤ . وانظر كتابنا : العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ ـ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ٣١٨ ـ ٣٢٠ . وانظر الدراسة الضافية حول صراع الانكشارية والاشراف في حلب في كتاب :

Herbert L. Bodman, Jr., **Political Factions in Aleppo, 1760-1826**, North Carolina Press, 1963, pp. 79-102.

* * *

نداءٌ عالمي
لانقاذ آثار حوض الخابور الاوسط

اصدرت وزارة الثقافة والارشاد القومي في الجمهورية العربية السورية ــ المديرية العامة للاثار والمتاحف ــ النداء التالي :

تقوم السلطات المختصة في الجمهورية العربية السورية بانشاء سد كبير على نهر الخابور جنوبي مدينة الحسكة في سبيل رفع مستوى منطقة الجزيرة السورية من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والانسانية . وسيشكل هذا السد عند انجازه في عام ١٩٨٨ بحيرة اصطناعية على منسوب + ٣٠٠ م بطول ٢٥ كم وعرض وسطي ٥ كم تغمر قرابة ثلاثين موقعا اثريا مختلف الاهمية .

وقد أوضح المسح الاثري الاولي في المنطقة أن عهود هذه المواقع تتراوح بين طور تل حلف في الالف الخامس قبل الميلاد حتى العهد العربي الاسلامي . ومن المؤكد أن التحريات الادق ستوضح مستقبلا آثار العصر الحجري الحديث وغيره .

ان الآثاريين وعلماء اللغات القديمة والاتنولوجيين وغيرهم من مختلف الاختصاصات يرون في انشاء هذا السد مناسبة لالقاء الاضواء الساطعة على هذه المنطقة الرئيسية من « الجزيرة » التي كانت في العصور الاكادية والآشورية والبابلية القديمة مركزا ناشطا في اقتصاد بلاد الهلال الخصيب واصبحت خلال الالف الاول ق.م. من المقاطعات الآشورية بعد اخضاع الدويلات الآرامية في هذه المنطقة التي كانت قائمة منذ نهاية الالف الثاني ق.م .

واظهرت الدراسات الاولية في أسماء المدن المكتشفة امكانية تحقيق هوية مدائن أخرى من العهود القديمة في هذا الجزء من الخابور نظرا لوقوعه على شبكة مواصلات وقنوات مياه هامة .

وفي العهود اليونانية ــ الرومانية لعبت هذه البقاع دورا استراتيجيا حاسما في صراع الشرق والغرب حتى اذا جاء الاسلام ووحدت دولة العرب أجزاء العالم القديم كلها كانت الجزيرة السورية وخاصة حوض الخابور من مواطن الخير العميم والصراع المصيري بين العرب والبيزنطيين ثم الصليبيين .

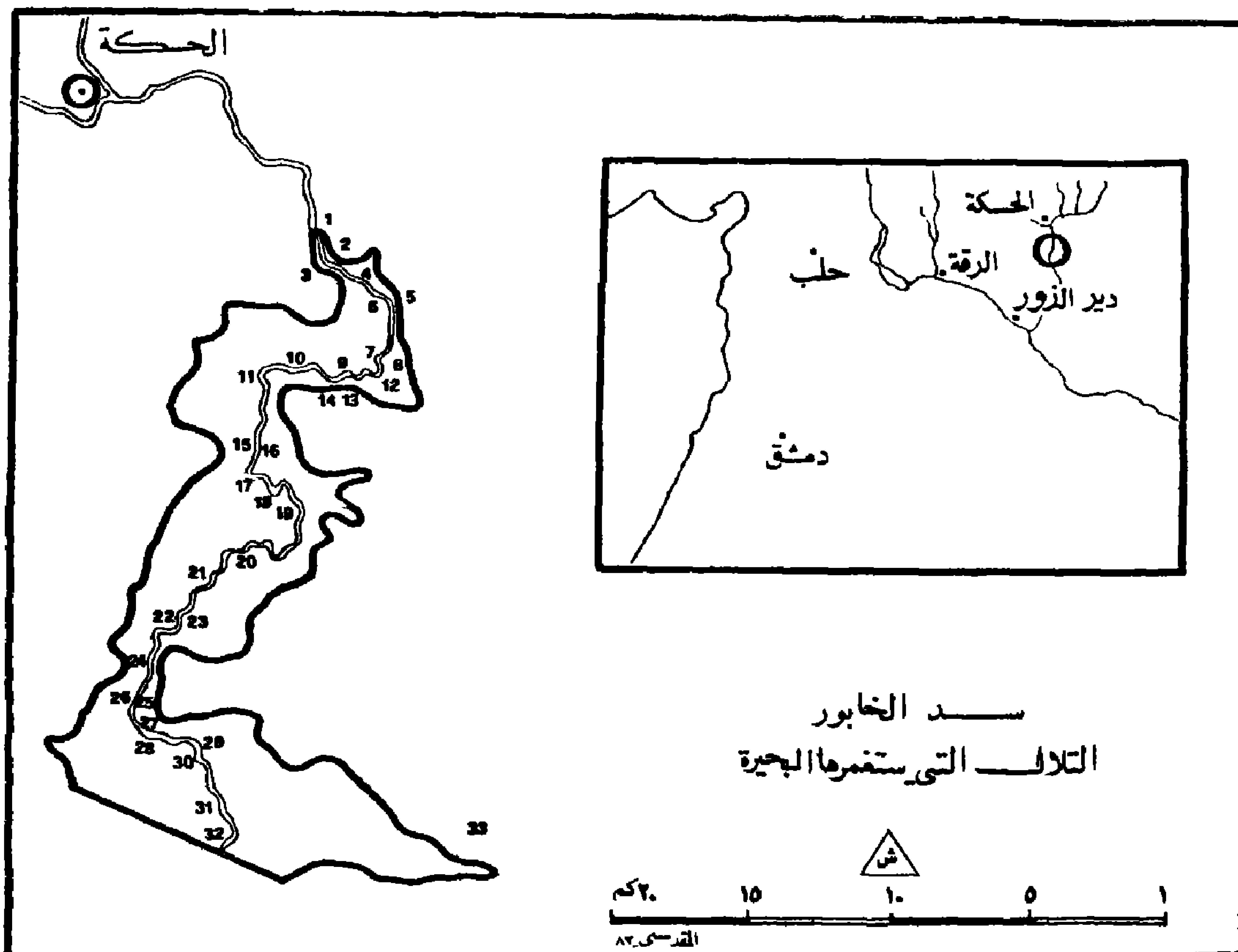
ان المواقع المهددة بالغمر قد لا تكون اطلالا اثرية ظاهرة تحتاج للنقل أو التقوية أو الحماية ولكنها في الغالب من الحالات هي تلال على ضفاف النهر تدل مقاطعها الستراتيغرافية على غنى بالشواهد الاثرية الكثيرة التي قد تنبئنا بما سكتت عنه النصوص والروايات .

والسلطة الاثرية اذ تدعو للاسهام في تلك الحملة العالمية ستقدم للبعثات التي تلبي الدعوة كل التسهيلات والمؤازرة التي تقدمها للبعثات الاجنبية العاملة حاليا في أراضي الجمهورية العربية السورية والتي يتجاوز عددها الثلاثين . وفضلا عن ذلك انها تسعى لدى المراجع العليا في البلاد لاستصدار الصكوك القانونية اللازمة لمنح البعثات بعض الاثار المكتشفة كما تم سابقا في حملة انقاذ آثار الفرات في السبعينات . ويمكن للؤسسات العلمية والاثرية الراغبة في الاسهام ، الاتصال مباشرة بالمديرية العامة للآثار والمتاحف (دمشق ـ سورية) . للحصول على المزيد من التفصيلات ... علما بأن العمل ببناء السد سيبدأ في النصف الثاني من عام ١٩٨٤ وينتهي خلال عام ١٩٨٧ وهي الفترة التي يمكن ممارسة التنقيب الاثري خلالها .

المدير العام للآثار والمتاحف

ـ مخطط لمنطقة غمر السد

١ ـ تل رد شقرا ٢ ـ تل كرما ٣ ـ تل مطار ٤ ـ تل رجائي ٥ ـ تل جابي
٦ ـ تل جديدى ٧ ـ تل خوين ٨ ـ تل تنينير ٩ ـ تل زيدية ١٠ ـ تل ناجة
١١ ـ تل ميليبيا ١٢ ـ تل شيخ عثمان ١٣ ـ تل ام قصير ١٤ ـ تل حسن
١٥ ـ تل بويض ١٦ ـ تل البديري ١٧ ـ تل مسيحة ١٨ ـ تل النهاب
١٩ ـ تل النهاب الجنوبي ٢٠ ـ تل صور ٢١ ـ تل كنيدج ٢٢ ـ تل دكاك
٢٣ ـ تل تعبان ٢٤ ـ تل دغيرات شمالي ٢٥ ـ تل ذهب ٢٦ ـ تل دغيرات
٢٧ ـ تل مطرية ٢٨ ـ تل مشنقة شمالي ٢٩ ـ تل مشنقة غربي ٣٠ ـ تل مشنقة
٣١ ـ تل فليتي ٣٢ ـ تل مقبرة فليتي ٣٣ ـ تل تليلات .


الحسكة
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31
32
33
الحسكة
حلب
الرقة
دير الزور
دمشق
سد الخابور
التلال التى ستغمرها البحيرة
ش
٢٠كم
١٥
١٠
٥
١
القدسي ـ ٨٢

المجتمع الأندلسي، والمجتمع الإسباني
في عصر ملوك الطوائف

د. أحمد بدر

جامعة دمشق

استمرت الوحدة السياسية في الاندلس ثلاثة قرون ، منذ فتحها في اواخر القرن الاول الهجري وحتى اخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي . وزادت في القرن الاخير مركزية الحكم والادارة ، وبلغت الاندلس أوج قوتها وإزدهارها ، فاصبحت دويلات الشمال الاسبانية تدور في فلكها ، وقرابة نصف المغرب العربي الاسلامي يخضع لنفوذها المباشر في قسم منه ، وغير المباشر في القسم الاخر . وارتقت بنتيجة قوتها السياسية وازدهارها الحضاري الى مرتبة الدول الاولى في العالم .

انهارت هذه الوحدة السياسية في خضم ما سمي بالفتنة ، وكانت عبارة عن ربع قرن من الحرب الاهلية ، التي جرت بالعاصمة قرطبة بين عناصر متعددة من المجتمع الاندلسي ، حاول فيها كل عنصر تنصيب شخص من الاسرة الاموية على سدة عرش الخلافة ، كي يحكم الاندلس به ومن ورائه . لكن الفشل حاق بالجميع، فقنعت كل قوة بالاكتفاء بحكم منطقة من الاندلس تتوافر لها فيها القوة . كما ان حرب المركز أدت لانحلال سلطة سلطانه واستقلال القوة المحلية عنه . ودعيت الدويلات هذه باسم الطوائف التي تعني الزمر والفئات والاشتات ، دون ان يكون لها صلة بمذاهب فكرية او فرق دينية او مذهبية .

* * *

ومن الصعب تحديد عدد الدويلات التي نشات لان الانحلال كان عاما وشاملا ، والتمزق كان شديدا . فقد قامت أسر اقطاعية قديمة بالاستقلال في مناطقها ، كما هو حال بني نجيب وبني هود في الثغر الاعلى منطقة سرقسطة ، وبني ذي النون في الثغر الاوسط ، طليطلة وماحولها ، وبني الاقطس المكناسيين في الثغر الادنى بطليوس . وقام الجند والعبيد الصقالبة بانشاء دول عديدة لهم في شرق الاندلس ،

في دانية والجزر ، في بلنسية وفي المرية ومرسية . اما الجند المغاربة ، أو من سماه الاندلسيون بالبربر ، فاقاموا عدة دول في الجنوب ، اكبرها دولة بني زيري في غرناطة ، معتمدة على عصبية العشيرة الزيرية ، وتليها دولة بني برزال في قرمونة بين قرطبة واشبيلية ، اضافة لعدة دويلات اصغر في الجنوب والجنوب الغربي من الاندلس . اما في الحاضرتين الكبيرتين على نهر الكبير الشمالي ، فاقامت الارستقراطيةالعربيةدولةبني عبادفي اشبيلية،وعلى رأسهاقاضي المدينة وكبيراغنيائها ، وفي قرطبة عاصمة الخلافة اقامت ارستقراطية الوظيفة ، او طبقة موالي الامويين ،دولة تراسها ابن جهور . اضافة لهؤلاء الذين سادوا مناطق توفر دعامة مادية وبشرية لقيام دولة استقل العشرات من الاشخاص الصعاليك ، او من سماهم الاندلسيون بالدابرة ، بحكم بلد صغير او حتى حصن ، ولكن هؤلاء لم يلبثوا ان ابتلعوا من قبل الدول الاكبر المجاورة ، التي استطاعت ان تعيش العصر كله ، وهو ثلاثة ارباع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي . اما عدد السكان الذين تقاسم السلطان عليهم ملوك الطوائف فلا يمكن معرفته على وجه الدقة اووجه اليقين . وان كان من المفيد هنا ذكر أحد التقديرات عند الباحث الاسباني رامون مينندث بيدال ، الذي يبنيها على رسالة موجهة من البابا غريغوريوس السابع لالفونسو السادس غازي طليطلة ، ينعته فيها بانه صاحب رعية من مليون رجل ، ويخلص في تقديره الى ان عدد سكان الجزيرة الايبيرية كلهم يصل الى مابين ثمانية وتسعة ملايين نسمة منهم ستة يخضعون لملوك الطوائف . ومع ذلك قدر للعدد الاقل ان يتغلب على العدد الاكثر ، الذي كان يعاني من تفكك وتمزق على صعد مختلفة ، اضافة لشيوع انحطاط معنوي في مجالي العقيدة والاخلاق في قطاعات واسعة من ابنائه . وتتبين لنا الابعاد الدقيقة لهذه الاوضاع التي كانت سبب قوة للبعض ، وعامل ضعف للبعض الاخر ، اذا استعرضنا اوضاع المجتمعين : العربي الاسلامي من جهة ، والاسباني الكاثوليكي من جهة ثانية ، عبر المجالات المختلفة .

السلطة في مجتمع الطوائف ــ بين الاساس النظري والواقع الفعلي .

وفقا لما ترسخ في العقول وقر في النفوس بالاندلس ، من ان مصدر السلطة هو الله عز وجل ، مارسها الرسول الكريم ، وخلفه خلفاؤه في حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وهم امراء للمؤمنين ، وعن ثالثهم عثمان بن عفان انتقلت الى معاوية لتتسلسل في الامويين في المشرق حتى مروان بن محمد ، ومنه انتقلت الى عبد الرحمن الداخل في الاندلس ، وتوارثها بعده الامراء والخلفاء الامويون حتى هشام المؤيد بالله ، والذي حدثت الفتنة في عهده واعلن موته خلالها اكثر من مرة .

حاول اغلب حكام الطوائف ، من الجيل الاول ، الاعتماد على اساس شرعي في حكمهم ، فلم يتخذوا القابا سلطانية واكتفوا بالقابهم السابقة ، كلقب القاضي ، أو اتخذوا لقب حاجب وادعوا انهم يحكمون باسم خليفة ، كما فعل زعماء المغاربة من بني زيري حين بايعوا خليفة مغربيا من بني حمود وادعوا ان هشاما المؤيد ، اخر الخلفاء الامويين ، تنازل له . ورد خصومهم العباديون من العرب الاندلسيين ،بالادعاء بان هشاما المؤيد حي وانهم عثروا عليه وبايعوه . لكن اخرين مثل اسماعيل بن ذي النون صاحب طليطلة ، لم يعترف بامامة الامويين قائلا : « والله لو نازعني هذا السلطان الصديق لقاتلته عليه ، فكيف اسلم سلطاني لمن يدعى اليه من بني امية ممن لا يوجب الله طاعتهم ، عترة مروان خبط باطل ، الذين لم تسبق لهم صحبة ولا ادخلهم السلف في شورى الامامة » ثم نفى فكرة حصر الخلافة بقريش قائلا : « توارثوا هذه هذه الامامة ممزقة وصنعتها قريش لاستعباد الناس ، والناس لام واب والفخار باطل »(١) ثم تجاوز هذه الفكرة ليقول بعدم وجود اساس شرعي للسلطة وانها مبنية على القوة وذلك بقوله « أحق الناس بالملك من استقل به ، والله لو نازعنيه فلان وفلان (ذكر هنا اسماء بعض السلف الصالح الذين كرم الله ذكرهم) لضربتهم دونه بسيفي » .

ساد هذا الوضع تجاه النظرة للسلطة حتى أواسط القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، اي عدة عقود من السنين . واتى بعد ذلك جيل اخر من ملوك الطوائف رأى ان يحكم دون غطاء شرعي او واجهة ، حتى ان ملكي الدولتين الحاميتين للخلفاء من أمويين وحموديين ، قاما بعملية الغاء الخلافة فاعلن ابن عباد موت هشام ، وقضى باديس الحمودي على اخر الحموديين ، واستخلص منه قاعدته مدينة مالقة(٢) . واصبحت نظرية اسماعيل بن ذي النون القائلة « احق الناس بالملك من استقل به » هي السائدة ، وعبرت القاب ملوك الطوائف انذاك عن هذا الواقع الجديد اذ كانت كألقاب الخلفاء العظام ، وخاصة العباسيين ، مثل منصور ومامون ومعتضد ومعتمد ومتوكل . وزاد البعض على ذلك فلم يعد يكتفي بلقب واحد بل تعداه الى لقبين ، وهو امر لم تكن له سابقة ، الا من الخليفة الاندلسي الاول عبد الرحمن الثالث ، موحد الاندلس وباسط سلطانها على شمال شبه الجزيرة الايبيرية ، واجزاء واسعة من المغرب ، الذي تسمى بلقبين ، لكنه تعفف عن استخدامهما معا في الداخل ، فاكتفى بلقب الناصر ، بينما كانت كتبه الخارجية تضيف اليه لقب القائم ايضا .(٣) اما ملوك الطوائف فقد استخدموا اللقبين معا في الداخل وضربوهما على النقد . وهكذا لقب يحي بن ذي النون ملك طليطلة نفسه « المامون ذو المجدين » ولقب محمد ابن عباد ملك اشبيلية نفسه

« المعتمد على الله ، المؤيد بالله » لكن احدا من ملوك الطوائف لم يتجرأ على تقلد لقب الخلفاء الشرعيين الرسمي وهو امير المؤمنين ومع ذلك فقد راى الكثيرون من الناس ان القابهم التي اتخذوها وهي القاب خلفاء عظام ، اكبر منهم بكثير . وبالتالي فهم صغار ينفخون انفسهم ليصبحوا كبارا . وقد عبر عن ذلك احد الشعراء بالقول :

مما يزهدني في ارض اندلس — اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير دولتها — كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

سلطة ملوك الطوائف في واقعها الفعلي

مهما يكن من شأن الاساس النظري لسلطة ملوك الطوائف ، فانهم مارسوا هذه السلطة فعليا ، واستبدوا بها الى حد يمككننا من اعتبارها مطلقة ، وذلك منذ الايام الاولى لنشوء دولتهم ، ومن ناحية اخرى اعتبروا دولهم ملكا شخصيا لهم يورثونه بمشيئتهم كتوريثهم العقارات والاملاك الخاصة ، كما فعل سليمان ابن هود في الثغر الاعلى ، عندما قسم مملكته بين اولاده الخمسة.وعلى شاكلته ورث المظفر ابن الافطس حاضرتي دولته بطليوس ويابرة الى ولديه ، فاختص كل منهما بواحدة . ومثله ايضا فعل باديس فخص حفيدا له بعاصمته غرناطة ، وحفيدا اخر بمالقة . وحتى عندما كانت الدولة مدينة واحدة كقرطبة حصل التقسيم ايضا ، ولكن بمهام الدولة ، فقسم ابو الوليد جهور نواحي ادارتها بين ولديه . وعندما لا يفعل الملك ذلك كان ورثته يعتقدون ان من حقهم الاقتسام ، كما حصل عندما سمى اسماعيل ابن ذي النون خلفا واحدا له، وهو يحيى المامون فنازعه على الامر عمه واخوه . وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك دولة العباديين . حيث تم التوارث لكامل للدولة من الاب الى ابن واحد فقط .

وفي مجال الادارة لم يبدع ملوك الطوائف شيئا ولم يبتكروا جديدا ، بل ساروا على نمط الادارة الموروثة من عصر الخلافة . ومع ذلك لم يتقنها منهم الا البعض ممن مارسوها سابقا في عهد الخلفاء ، كبني عباد وبني جهور . وما عدا هؤلاء ، كان بعض الملوك غفلا من كل معرفة ، فاستعانوا باداريين متفقهين في الادارة الاموية كي يشرفوا على تنظيم ادارتهم ، وهذا ما فعله العبد سابور حاكم بطليوس ، والعبدان مبارك والمظفر حاكما بلنسية ، وكانت هذه الادارة مرتبطة بالامير مباشرة ، الا في الدول التي سيطرت فيها قوة عشائرية غريبة على حواضر كبرى . فقد جعل بنو ذي النون ادارة طليطلة بيد فقهاء كبار منها كابن الحديدي

وابن الفرج وترك الفتيان الصقالبة ادارة مرسية لفقيهها ابن طاهر . اما غرناطة عاصمة بني زيري الصنهاجيين ، والتي كانت نسبة كبيرة من سكانها من اليهود ، فقد عهد بشؤونها خلال امد طويل لاب ثم لابنه من هؤلاء . وعندما ضم الزيريون لدولتهم الحاضرة الكبيرة ايضا مالقة ، جعلت رسميا تحت سيادة بلقين ابن ملك الدولة . لكنه قام بناء على توصية والده باسناد شؤونها الى فقيه منها هو محمد ابن الحسن النباهي ، الذي اعتبر وزيرا وقاضيا ، ومنح امتيازات مالية وردت في كتاب رسمي جاء فيه « هذا ما التزمه واعتقد العمل والوفاء به بلقين ابن باديس للوزير القاضي ابي عبد الله محمد بن الحسن واعتقد به اقراره على خطة القضاء والوزارة في جميع كورة رية (مالقة) وان يجري من الترفيع به ، والاكرام له ، الى اقصى غاية ، وان يجري على الحرية في جميع املاكه حاضرتها وباديتها الموروثة منه والمكتسبة ، القديمة الاكتساب والحديثة ، وما ابتاع منها من العالي (خليفة حمودي) وغيره لا يلزمها وظيف بوجه ولا يكلف عنها كلفة على حال ، وان يجري في قرابته وخوله وحاشيته وعامري ضياعه ، على المحافظة والبر والحرية »(٤) وصفوة القول ان سلطة ملوك الطوائف في الاندلس كانت تفتقد على الصعيد النظري الدعم الشرعي والمعنوي ، كما كانت تفتقر على الصعيد العملي الى اللحمة والتماسك ؛ ويزداد التمزق فيها والانحلال مع تقدم الزمن ، وكذلك عجزها عن كسب ولاء قطاع عريض من الناس او تثبيت ولاء القطاع الضيق ، بمن فيه ابناء الاسرة المالكة وكبار موظفيها ، كما يبدو ذلك واضحا في احوال دولتي بني عباد وبني زيري .

مصادر القوة البشرية والاقتصادية في مجتمع الطوائف

اعتمد ملوك الطوائف عند قيام دولتهم على دعم معين ، لامد قصير جدا ، وريثما تتمكن دولهم من الوقوف على قدميها ، وتباين هذا الدعم بتباين طبيعة الدولة ، وزعامتها ، فكان في بعضها مشيخة البلد ، واتباعهم فيها ، وفي بعضها الاخر عصبية العائلة او العشيرة ، وفي دول اخرى ، كدولة خيران العامري الاولى ، فلول متعددة من جند وصعاليك . لكن استبداد الملوك ، وحروبهم ضد بعضهم بعضا ، جعلهم يستبعدون هذه الدعائم ويستبدلون بها دعامة من الجند المرتزقة والعبيد .

وكان هؤلاء الجنود من عناصر متعددة ، يأتي في مقدمتها بنو برزال من زنانة ، ويكاد الاعتماد عليهم يكون عاما لدى كل الدويلات ، وخاصة في الجنوب . وقد وصف ابن حيان دورهم بقوله « فطال العجب عندنا بقرطبة وغيرها من صعاليك قليل عددهم منقطع مددهم اقتسموا قواعد الارض في وقت منا مضربين بين ملوكها ؛ راتعين في كلئها باقرين عن فلذتها ، حلوا محل الملح في الطعام بيأسهم الشديد ،

وقاموا مقام الفولاذ في الحديد ، فلا يقاتل الاعداء الا بهم ولا تعمر الارض الا في جوارهم : فطائفة عند ابن الافطس تقاوم اصحابها قبل ابن عباد ، وطائفة عندنا بقرطبة تحيز اهلها عن الاضداد ، فسبحان الذي اظهرهم ومكن لهم الى وقت وميعاد»(٥) ووصلت شهرتهم في الحرب والاقبال على استخدامهم ، لدرجة ان بني زيري الصنهاجيين ملوك غرناطة واصحاب الثارت مع زنانة عموما ، ومع بني برزال بوجه خاص ، في المغرب قبل الوصول الى الاندلس ، استعانوا بهم ايضا ، كما يقول الامير عبد الله الزيري « وزاد جاه النابة واستخص بني برزال واحسن اليهم وقربهم من نفسه ،وهم كانوا اولياءه وانصاره »(٦) . كما استخدم السودان من قبل الفتيان الصقالبة العامريين رغم انهم جنود ، ومن قبل الزيرين ايضا ، وكانوا اوفياء لهؤلاء الاخيرين . ففي الموقعة بين الفتى زهير صاحب المرية وبين الزيريين غدر سودان الصقلبي بسيدهم ، كما يورد صاحب الذخيرة القول : « سودان زهير غدوره اول وهلة وانقلبوا مع صنهاجة وليست بالبدع من افعالهم وكانوا قطعة خشنة يقاربون خمسمائة»(٧) وعندما هاجم العباديون مالقة ، انفرد السودان بالدفاع عن قضية سيدهم الزيري ، ولاذوا بالقصبة عند سقوط المدينة ، حيث استمروا في المقاومة ريثما وصلت امداد سيدهم(٨) . كما كان بين هؤلاء الجند مرتزقة من الاسبان أو غيرهم من الاوروبيين ، وقد ورد في وصف ابن حبان لجيش ابن ذي النون الموجه لاحتلال قرطبة « اذ جمع الجيش ذا الالوف المختلفة الالسنة »(٩) وفي مكان اخر يصف اجناده بانهم « ذوو السنة شتى وبطارق اعزة يعرب عنهم التراجمة » اما الاندلسيون فقد بعد عهدهم بالجندية والجيش ، منذ ابعادهم التدريجي الذي بلغ ذروته في عهد العامريين ، ومع ذلك كانوا يحشدون في وقت الخطر الشديد وقد برز عجزهم واضحا جليا ، وقتل الالوف منهم في الحروب التي جرت بين ملوك الطوائف ، او بين بعضهم وبين الاسبان. ومن امثلة هذه الحالات ماقام به ابن الافطس بعد هزيمة له امام ابن عباد ، في صراعهما على مدينة يابرة اذ جمع لمواجهة خصمه فلول جيشه المهزوم ، واخرج معهم « كل من قدر على ركوب دابة من البياض ببلده وحشر رجال البوادي بعمله خلقا كثيرا » . لكن الهزيمة حلت بابن الافطس ثانية ولم يغن عنه هؤلاء شيئا ، وكانت الضحايا منهم كثيرة ، حتى ان راوية ثقة لابن حيان افاده بأن « بطليوس بقيت مدة خالية الدكاكين والاسواق من استئصال القتل لاهلها »(١٠) وربما نجمت كثرة القتل من كون اكثرهم غير فرسان ، وبالتالي عاجزين عن الفرار السريع ، كما فعل الجنود . وقد لقي عامة الاندلسيين مصيرا مشابها في الثغر الاعلى ، وكذلك في موقعة بطرنة على مقربة من بلنسيه ، عند مهاجمة فرناندو الاول لها .

اما اعداد هؤلاء الجند المعتمد عليهم فلا يمكن التعرف عليها بدقة في غياب

الاحصاءات ، وللتطورات التي كانت تطرأ عليها في كل دولة ، انما يمكن التوصل لاستنتاجات عامة من خلال الارقام التي يوردها مؤرخون ثقات ، او رجال دولة لعدد جنود دولة ما ، وذلك في معرض الحديث عن احدى المعارك . فيذكر الامير عبد الله الزيري في معرض حديثه عن هجوم تحالف من الصقالبة والاندلسيين ضد بني قومه الزيريين ، بعدما جمعوا كل قواتهم فبلغت عدتها اربعة الاف ، وجابههم بنو زيري باقل من الف(١١) وعلى الرغم مما قد يكون في الارقام من مبالغة نحو الاكثار من عدد الاعداء والتقليل من عدد ابناء القوم لتضخيم حجم الانتصار ، فان النتيجة بالنسبة لنا لاتتغير كثيرا ، وهي ان اكبر جيش جمع في الاندلس في الفترة الاولى لقيام دول الطوائف لايزيد عدده عن خمسة الاف . ومن الطبيعي ان يكون عدد الجند في جيش كل طائفة من الطوائف أقل من ذلك بكثير ، حتى ان جيش ابن ذي النون الذي جهد في جمعه كي يظفر بقرطبة ، امنيته الغالية ، والذي وصفه المؤرخون المعاصرون بانه متعدد الالسنة ويحتاج الى تراجمة ليعربوا عن كلام البطارقة فيه ، هذا الجيش يمكننا تقدير عدده من ملاحظة عدد الجند المعادين الذين ما ان تكامل وصولهم للميدان ، حتى انسحب دون قتال ، وكان هؤلاء لايزيدون عن مائتي جندي من قرطبة ، رفدتهم نجدة من ابن عباد تتكون من مقدمة في ثلاثمائة فارس ، ثم جدد في اثرهم الف فارس(١٢) .

ويظهر ان اعداد الجند كانت تقل بمرور الزمن في عصر الطوائف ، وخاصة لدى الدول المزقة ، كدولة بني زيري ، فالاخوان عبد الله صاحب غرناطة وافى الحشد الاسلامي قبيل الزلاقة في ثلاثمائة فارس ، واخوه تميم من مالقة في نحو مائتين(١٣) . وفي بعض الدول ذات الموارد الضعيفة ، كدولة بني جهور في قرطبة ، اضيف الى قلة العدد ، وهي مائتا جندي ، انهيار الهيكل التنظيمي للجيش ، لدرجة ان رواتبهم لم تكن مدفوعة ، ومؤنهم غير محفوظة أو مؤمنة ، كما يستفاد من ابن حيان وهو المؤرخ الثقة والشاهد العيان لذلك من داخل الدولة والذي يصف عملية حشدهم وتعبئتهم للمعركة بقوله : « فما ان تتامت عدتهم مائتي فارس ، اكثرهم مسوقون ، حاقدون ، معوقون ، مستقصرون ، يشتري لهم القوت من السوق مضيقا على رعيته ، ويزدلف بهم في غد ايامهم ، ويعدهم ثواب عاجل الطعن تسيئة على مستأخر النصر » .

لذلك يمكن القول ان كثيرا مما يسمى بجيوش ملوك الطوائف كانت اقرب الى العصابات منها الى الجيوش المنظمة ، وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك جند العباديين ، الذين يرتقون الى مرتبة جيش ، اذ ظهر لديهم الاختصاص فكان منهم مختصون باعمال الحصار ظهر عملهم عند احتلال شلب، فقد دخلوها عنوة بعد

هدم سورها بالمجانيق من جهة ، ونقبه من جهة . كما كان لدى العباديين اسطولهم الحربي الذي شارك في الاعمال الحربية مثل دخول الجزيرة الخضراء وتهديد مالقة ، وفي اواخر ايام دولتهم لبوا دعوة يوسف بن تاشفين لمساعدته في احتلال سبتة بقواتهم البحرية وشاركوا بسفينة حربية ضخمة كان لها اثر كبير في اخضاع المدينة . وقد وصف ابن بسام هذه السفينة باسلوبه الادبي قائلا : « انشأ المعتمد سفينة ضاهى بها مصانع الملوك القاهرين بعد العهد بمثلها شدة اسر ، وسعة بطن وظهر ، كأنما بناها على الماء صرحا ممردا واخذ بها على الريح ميثاقا مؤكدا »(١٤) .

هذا الواقع ، للجيوش التي اعتمد عليها ملوك الطوائف في اقامة عروشهم ، اثر على الباحثين النظريين ، واخرج نظرياتهم منسجمة مع هذا الواقع . ومثال ذلك ابو بكر الطرطوش ، صاحب سراج الملوك الذي عاش في هذه الفترة ضمن دولة بني هود في الثغر الاعلى ، التي شابه حالها حال دول الطوائف الاخرى ، وتستعين بفارس اسباني هو السيد لدعم عرشها . ولابي بكر هذا نظرية فى قيام الدولة وانتصارها مخالفة تماما لراي ابن خلدون ، الذي يجعلها العصبية في حين يجعل هو عامل قيام الدولة عدد الجند المسجلين في ديوانها ، ويعتبر سبب انتصارها توفر عدد من الشجعان داخل جيشها . وربما انتصر جيش بوجود ستة الى ثمانية ابطال لان كل واحد يقوم بجيش كامل(١٥) .

نتيجة لما مر ، يمكننا القول بان قوة كل دولة من دول الطوائف تتناسب مع قدرتها المالية ، لان هؤلاء المرتزقة ، كانوا يتقاضون اجورهم دنانير ذهبية ، كما يفهم مما يورده مؤرخ العصر ابن حيان في معرض حديثه على استخدام بني برزال كجند ، قائلا : « خلطوا الشر بين رؤسائها واستخرجوا ما اظهروه من دنانيرهم وخلعهم وجاحوا (استأصلوا) ذات ايديهم وعلموهم كيف تؤكل الكتف » . وربما يفسر ذلك غنى بني برزال بالذهب ، حتى انهم عندما انشأوا دولة لهم في قرمونة سكوا عملة ذهبية بوفرة ، مما جعل التعامل بها يشيع في الاندلس .

وقد توافر لكل دولة من دول الطوائف الكبيرة مورد مالي كان اساس بقائها حتى نهاية العصر . ويتمثل هذا الوارد بانتاج زراعي او معدني في الغالب ، يتحول الى مال عبر المتاجرة به ضمن دائرة اقتصاد شبه الجزيرة الايبيرية ، او بتصديره الى خارجها ، كما هو حال قطن اشبيلية وزئبق طليطلة ، وكتان غرناطة وحريرها .

وقد ادت الحروب بين هذه الدول الى اضعاف القوة الاقتصادية لبلاد

الاندلس ككل . فالحاصلات الزراعية كانت تدمر لعدة سنوات متتالية بسبب الغارات ، التي تمنع في الوقت نفسه الانتقال والمتاجرة بين المناطق ، مما اضعف الدورة التجارية داخل شبه الجزيرة ، وجعل الموانى ، التي تعتمد على التجارة الخارجية ، تشهد ازدهارا نسبيا ، بالمقارنة مع مدن الداخل . وتقدم بلنسية ودانية مثلا على ذلك ، والاوضح منه مدينة المرية ، فقد تزايد عدد سكانها الى حد جعل داخل اسواها يضيق بهم ، فتكون لها ربض واسع قام خيران العامري باحاطته بسور(١٦) ، وفي ذلك مايعكس نشاط الفعاليات الاقتصادية فيها ، والتي يرد وصفها في زمن المرابطين الذي تلا حكم الطوائف ويعتبر صادقا بالنسبة لهذه الفترة وفيه « كان بها من الصناعات كل غريبة ، وكان بها من طراز الحرير ثمانمائة طراز وتعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهاني والجرجاني والستور المكللة . وكانت فيما تقدم يصنع بها آلات النحاس والحديد ما لا يحد .. كما أن مراكب التجار تقصدها من الاسكندرية والشام وفيها الف فندق الا ثلاثين فندقا » .

وتوفر لدول اخرى ، كدولة بني عباد ، سبيل الاتصال التجاري ، مع السلامة النسبية للسهول الغنية ، اضافة لغناها في المواد التي تعتبر حربية . وهكذا كانت فيها منطقة الشرف التي تمتد من اشبيلية الى لبلة بطول اربعين وعرض اثني عشر ميلا ، ويجود فيها القطن الذي يعم بلاد الاندلس ويتجهز به التجار الى افريقيا وسجلماسة (بوابة تجارة الذهب) وما والاها . وكذلك الزيتون الذي يتجهز بزيته الى المغرب والمشرق برا وبحرا . وفي الدلتا التي تتشكل عند مصب نهرها تتكون جزر تربى فيها الدواب لان الكلا دائم والمكان امين من الغارات . وفي موانى اخرى ضمنها ، كمدينة شلب ، يتوفر في جبالها الخشب وفي ميناء آخر الحديد ، مما جعلها قادرة على صناعة سفن وصل عدد قطعها اخر الامر حوالي ثمانين قطعة(١٧) . وربما نكمن في هذا كله تفسير تطور هذه الدولة الى اقوى دول الطوائف ، حيث استطاعت ان تسيطر على منطقة واسعة ممتدة من الاطلسي غربا الى المتوسط شرقا .

عناصر مجتمع الطوائف وعصبياته :

تميزت في المجتمع الاندلسي ، منذ نهاية عصر الخلافة وبداية الفتنة ، ثلاثة عناصر رئيسية وهي : العنصر الاندلسي ، ويشكل الاغلبية وعامة الناس ، ثم المغاربة، أو البربر ، بفرعيهم صنهاجة وزناتة . أما العنصر الثالث فهو الصقالبة ، وعرف افراده بالفتيان العامريين أو الفتيان الصقالبة . انقلب العنصران الاخيران في عهد الطوائف الى عنصرين حاكمين للعديد من المناطق ، وخاصة في الشرق والجنوب ، واقتصر حكم ابناء العنصر الاندلسي على بعض المناطق . وقد نشأ صدام بين هذه

العناصر منذ اواخر ايام الخلافة ، وادى الى انهيارها في خضم الفتنة ، التي كانت مجابهة حربية فيما بينها ، ثم استمر قويا بعدها في عصر الطوائف لعدة عقود من السنين ، قبل ان يتفسخ تدريجيا داخل كل عصبية . وتكثر الشواهد والظواهر على اثر هذه العصبيات العنصرية في سلوك الجميع ، من ناحية تقارب اهلها وعملهم سويا في مواجهة العصبيات الاخرى . يبرز منها في شرق الاندلس عصبية الصقالبة المعادية للمغاربة وللعرب الاندلسيين . وقد ركز بعضهم ، قبل ان يلوا في الاندلس حكما ، على تبيان فضل عنصرهم وتفوقه ، فالف حبيب الصقلبي ، احد فتيان الامويين ، كتابا يتعصب فيه لقومه وسماه (الاستظهار والمغالبة على من انكر فضل الصقالبة) . وتهيأ لهم خلال حكمهم او ممارستهم للسيادة ، ان يمارسوا على من حكموهم من الاندلسيين سياسة التمييز لعنصرهم ، واضطهاد الاخرين على الصعيد العملي . فكان الفتيان الصقلبيان مبارك والمظفر ، حاكما بلنسية ، حسب قول ابن حيان « يحثان الرعية بسلطانهما ، ولا يعبآن بما آذاها من كلفهما ، يقلدانها شرار العمال (الموظفين الماليين) ويستزيدان عليها في الوظائف (المغارم والضرائب) الثقال ، مع الايام والليال ، حتى لغدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر وياكلون البقل والحشيش وفر اكثرهم عن تراهم ... وصارا يتخذان ما جلا عنه اهله من تلك القرى ضياعا مستخلصة ، فاذا وقع عليها اسم كبير منهم راجع اهلها راضين عنه بالاعتمال بالسهم راجين في دفاعه من الحدثان »(١٨) .

ولم يقتصر اذاهم على من وقع تحت حكمهم ، بل شجعوا هرب بني جنسهم من العبيد في المناطق الاخرى فقد « لحق بهم موالي المسلمين ومن اجناس الصقلب والافرنج والبشكنش عشيرتهم ... وانفتح على المسلمين ببلاد الاندلس أمر شديد في اباقة العبيد اذ نزع اليهم كل شريد طريد وكل عاق مشاق » .

وفي مدينة دانية وجزر البابليار ، حكم الصقلبي مجاهد العامري ، الذي اشتهر بتشجيعه للعلم والادب ، مما جمل صورته لدى بعض المؤرخين العرب المسلمين المتأخرين عن زمنه ، كالمراكشي صاحب المعجب . لكنه من ناحية التعامل مع العرب المسلمين لم يكن اخف وطاة من الحاكمين السابقين ، فقد كان ، حسب ما يقتبسه عنه ابن الخطيب : « شديد الوطاة على رعيته ، سام اهل الجزائر الخسف ، فسطا بوجوههم ورؤسائهم ، والزم قلوبهم الرهب ، لما خافهم على دولته ، بغربب من التعبد والسياسة ، حتى لقد حظر عليهم رماكهم السامية ، وكانت عمدة اموالهم ، فكتبها منعوتة ، فلا تكاد الرمكة تنبخ مهرا ، حتى يكتب على ربه بنعته ويلزمه تربيته والقيام عليه الى ان يصلح ، فيقبض منه عند ذلك ويعطى خمسة دنانير دراهم ، لا يزيد عليها في وقت ، ولا يبرأ منه ان نفق الا ببراءة من ثقته ، وقد قطع اذن رجل لقطعه اذن مهر طلب التشويه بخلقه »(١٩) .

ويزودنا الجغرافي ابن حوقل بمعلومات اضافية عن هذه الدواب التي تنبغ في الجزر ، وهي بغال من نوع خاص يختلف عن غيره لانها ، حسب قوله « تبدن وتصنع وتنجب » ، كما ان الطلب عليها كثير في مجتمع الاندلس اذ انه « قل سوق يصير اليه اهله الا على الفاره من المركوب ، ولا يعرف فيهم المشي الا اهل الصنائع والارذال » وقد يختص ركوبهم بالبغال الفره التي تجلب من جزيرة ميورقة وبها يتفاخرون ويتكاثرون . اما عن ثمنها : فيقول ابن حوقل : « ورايت فيها غير بغل بيع بخمسمائة دينار فاما ما يبلغ المائة والمائتي دينار فاكثر من ان يحصى »(٢٠) .

وزاد مجاهد على من سبقه بتشجيع الهجوم على العرب فكريا ، اذ قرب اليه عددا من الشعوبيين . وقد عاش في بلاطة اللغوي المشهور ابن سيده ، صاحب معجم المخصص ، الذي رتبت فيه كلمات العربية على اساس الموضوعات ، وجاء عنه في سير النبلاء انه كان شعوبيا يفضل العجم على العرب . واذا كان هذا قد خدم العربية وهاجم العرب ، الا ان مجاهدا سبى صبيا صغيرا من البشكنش ، عرف بابن غرسية ، وقربه اليه واشرف على تربيته في جميع المجالات ، واعطت هذه التربية اشهر ثمرة لها ، متمثلة في رسالة له او مؤلف صغير ، عرف برسالة ابن غرسيه في الشعوبية ، التي تفتقر الى الابداع ، لانها تقتصر على ترديد أفكار الحركة الشعوبية في المشرق ، والتي ترتكز على ذكر عيوب حياة العرب في الجاهلية ، من حقارة ملبسهم وماكلهم ومسكنهم واختلاط انسابهم وافتقارهم لاي مجد سياسي أو فكري . لكن المهم فيها الدلالة على اتجاه صاحبها ، ونشر هذه الافكار بعد جمعها على نطاق واسع في الاندلس ، وقد زادت شهرة الرسالة لكثرة من رد عليها من الكتاب الاندلسيين المشهورين(٢١) .

اما الاندلسيون فكان كرههم للعصبيات الغريبة الحاكمة لهم يدفعهم للتطلع نحو سيادة حكام منهم . واوضح مثل على ذلك مالقة ، التي خضعت للمغاربة الزيريين وابن عباد على مقربة منهم في الجزيرة ، ومع شهرته في مجال القسوة ، الا انهم كانوا ، حسب رواية الوراق « اذ جرى ذكر عباد المعتضد ارتجوا له ورفعوا أصواتهم بالثناء عليه ، هذا ما كانت أعينهم تقذى من قبح آثاره ويصك سمعهم من هول أخباره ، ويلفح وجوههم من شرر ناره ، تشيعا لم يكن له أصل الا شؤم الحمية ولوم العصبية »(٢٢) ولم تكن عصبية باديس ضد الاندلسيين أقل من ذلك ، اذ عندما بلغه ما حصل للملك المغربي صاحب كورة تاكرنا ، من قيام أحد أفراد رعيته الاندلسية عليه ، بالتواطؤ مع ابن عباد ، مما ادى الى مقتله سنة ٤٥٧ هـ ، أصبح باديس في حالة حداد من هجر شرابه والابتعاد عن ملاذه ، ودبر أمر الانتقام من الاندلسيين في بلده انتقاما وخشية من قيامهم بالشيء ذاته ، ودبر مذبحة لهم عند تجمعهم لصلاه

الجمعة(٢٣) . لكن الوزير ، الذي كان على يقين ان في العملية قصر نظر سيودي بالدولة ، دبر اتصالا سريا بالناس كي لا يأتوا في اليوم المحدد لصلاة الجمعة ، ليتجنبوا المذبحة ، ويمكن بعدها ان تهدأ ثائرة باديس ويعود الى رشده .

لكن تقدم الزمن بدويلات الطوائف وما حدث خلاله من مستجدات ، أدى الى حدوث تفسخ في كل عصبية من داخلها ودفعها للخلف في مجال الاهتمام .

وبدات بالتبلور صورة تناقض اخرى في المجتمع الاندلسي ، وهو التناقض بين الرعية والملوك ، ولعل ابرز هذه المستجدات توطد الدول ، وما يتعلق بذلك من ظروف داخليـة وخارجيـة .

فعندما تشكلت للعصبية الواحدة دول عدة ، اصبحت مصلحة الدولة المنشأة لحساب اسرة او عشيرة او قبيلة ، تتقدم على غيرها . وهكذا لم تمنع العصبية المغربية أو البوبرية بني برزال من التحالف مع العباديين ، زعماء العصبية العربية ، كما ان العصبية العربية لم تمنع العباديين من الاجهاز على دويلات عرب اقحاح . واخذ تمزق العصبية يتعمق ليطال عصبية العشيرة الواحدة ، وهكذا كان المرتزقة البرزاليون عمدة جند عدة دول متصارعة متقاتلة ، اي انهم يقتلون بعضهم بعضا . وفي دولة العشيرة الزيرية بدأ الصراع بين صاحب الدولة ، الذي يريد الاستبدادبالحكم ، وبين وجوه عشيرته ، الذين يريدون البقاء شركاء له في الحكم والسلطة . ولعل المثل البارز على ضعف العصبية ، في العشيرة والاسرة ، لجوء ملوك الطوائف الى الاعتماد على اشخاص بعيدين عن سائر درجات عصبية الحاكم ، بحيث يكونون بعيدين اما دينيا ، أو موطنا . ويعبر عن هذا الاتجاه لدى ملوك الطوائف بشكل صريح الامير عبد الله ، في معرض شرحه لمبررات جده باديس في الاعتماد على ابن النغريلة اليهودي ، وذلك بقوله : « استعمله لذلك استيحاشا من غيره ، ولما كان يرى من طلب ابن عمه له (الحكم) ، ولان هذا يهودي ذمي لا تشره نفسه الى ولاية ، ولا هو اندلسي فيتقى منه ادخال داخله مع غير جنسه من السلاطين »(٢٤) . ونجد امثلة على السلوك نفسه لدى الملوك الاخرين الذين اعتمدوا على العبيد ، فقد عين ابن الافطس لثغر قلمرية الهام عبدا من عبيده يسمى (رانده) ، لم يجد بينه وبين البلد ما يصله به ويدفعه لتعريض حياته للخطر من أجله . فعندما هاجم الاسبان بلده ، اتفق معهم سرا على انتقاله اليهم مقابل الامان له ولاهله ، وانتقل الى معسكرهم ليلا، تاركا المدينة لمصيرها ولاهلها دون قائد(٢٥) .

من ناحية اخرى كان قائد جيش ابن عباد الداخل الى قرطبة يسمى محمد بن

مارتين . وكان احد قواده ، الذي تآمر مع ابنه للاطاحة به ، عبدا يسمى (النابة) هرب الى خصمه باديس عندكشف المعتضد العبادي للمؤامرة وقتل ابنه(٢٦) . وقد يكون هؤلاء المقربون من المستعربين ، المعروف ولاؤهم ، كفئة ، لملوك الاسبان ، مثل (شيشلاند Cisnando Davidez) ، الذي كان يعيش في أراضي ابن الافطس على مقربة من قلمرية ، واسره المعتضد بن عباد في احدى غاراته ، ولم يلبث ان اصبح من اقرب المقربين اليه سواء في شؤون السلم أو الحرب ، الا انه لم يلبث ان هرب الى فرناندو الاول ملك ليون ،واصبح واحدا من الكونتات المحيطين به ، واستخدمه في سفاراته الى ملوك الطوائف(٢٧) .

ادى هذا التفسخ في العصبية الى بروز تناقض اجتماعي من نوع طبقي ، هو ذلك القائم بين الملوك والرعية ، وقد جمع بين عناصر كل فئة قواسم مشتركة ، كما ظهرت لديهم على التوالي مصالح مشتركة أيضا .

طبقة الملوك

طبع سلوك هذه الطبقة بطابع الانطلاق من المصلحة الذاتية دون اعتبار كبير لقيم اخرى ، من الانتماء لعصبية أو أوامر الدين ونواهيه ، بشكل دقيق . ومن هذا المنطلق دفعت الجزية لملوك الاسبان رغم التحريم الشرعي لذلك ، واهتمت باحاطة اشخاصها بهالة من التضخيم والتمجيد . ومن هنا جاء استقدامها للعلماء وسخاؤها على الشعراء .

وكذلك برز اهتمامها بالعمران ، وهو امر معروف لدى أمراء الاندلس وملوكها منذ قيام الدولة الاموية . لكن ملوك الطوائف اختلفوا عن هؤلاء في أنواع المباني ، اذ لم يعيروا اهتماما كبيرا للابنية الدينية ، كما فعل الامراء والخلفاء الذين كان من نتائج فعلهم بناء مسجد قرطبة وتوسيعه الدائم ، اضافة الى مساجد الاحياء الكثيرة. اما الان فقد حل مكان ذلك اهتمام يتناسب مع الحاجات ، وهي حماية الملك وتحقيق الترف له . وبذلك ازدهر العمران الحربي وعمران القصور . ويتمثل البناء الحربي ببناء اسوار المدن والحصون . وقد كان الاهتمام بتحصين المدن في السابق منصبا على مدن الثغور ، في حين ساد الاتجاه في عصر الخلافة نحو تهديم الموجود منها من الداخل حتى لا يحتمي به الثائرون . اما ملوك الطوائف فقام كل منهم باحاطة حاضرته باسوار ، وخاصة اذا كان ممن يتعرضون للهجوم .

كانت البداية بغرناطة ، عندما جعلها الزيريون قاعدتهم . وجدد بنوا الافطس

عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م سور بطليوس وجعلوه من الحجارة والكلس بعدما كان من التراب . واحاط العبدان مبارك والمظفر بلنسية بسور ، وكذلك فعل أصحاب قرمونة (٢٨) .

وبنيت ايضا الحصون باعداد كبيرة خارج المدن لاغراض الدفاع والهجوم ، ومنها ما يبنى في اماكن مناسبة لحماية طريق يؤدي الى الحاضرة ، ويزود بكميات من الغذاء ، تكفي محاربيه امدا طويلا ، كي يقاوموا الحصار الطويل ، فيقوم المهاجمون ردا على ذلك ببناء حصن في مقابل الحصن المحاصر ، كي يستطيع مقاتلتهم البقاء فيه شتاء وصيفا . وقد يبنى حصن المهاجمين كقاعدة انطلاق يشنون منها الغارات على سهول الخصم الغنية ، كما فعل العباديون عندما بنوا حصن بليش ، على بعد بريد من غرناطة . وقام الزيريون خلال مهاجمتهم لبني صمادح ببناء سبعة حصون . ومن ناحية ثانية ساد اتجاه اخر لبناء وتحسين القصبات ، التي تقام في مكان مرتفع داخل المدينة وبجوارها ، وفي هذه الفترة اشتهر العمل في قصبة المرية . ومن المعلوم ان القصبات مقر للحكم ، وبالتالي فقد أصبحت ضرورية للصمود في وجه اية انتفاضة داخل المدينة .

أما بناء القصور ، فان الحديث عن نشاط ملوك الطوائف في هذا الميدان يحتل مساحات أوسع على صفحات كتب المؤرخين المعاصرين . فالقصر علامة من علامات السلطان والسيادة ، ومن البدهي ان يكون لكل ملك قصر على الاقل . لكن المؤرخين اهتموا بوصف ما بدا لهم من القصور رائعا ومتميزا ، ولذلك تتكرر في اوصافهم عبارات تنم عن ذلك ، مثل « تحار فيه الابصار » و « ما لا يقدر واصف على وصفه » . ومن الامثلة على ذلك ، ما بناه ابو يحي محمد بن معن بن صمادح ملك المرية ، اذ بنى في مدينته قصرا كبيرا ما بين الجبل والشاطىء ، احتوى على بستان فيه من جميع الثمار وغريبها ، وعدة دور يشرف الجالس في بعضها على الميناء ويشهد السفن غادية وآتية ، وكل منها يسمى مجلس افخمها دار الحكم . أما العناصر المعمارية فيه فالارض من الرخام ، والاقواس مقرنصة والنقوش والزخرفة استخدمت فيها المواد الثمينة ، ومن ضمنها الذهب الخالص(٢٩) . ولعل اكمل الصور التي يوردها المؤرخون دلالة على البذخ في التزيينات المعمارية لدى ملوك الطوائف ، صورة المجلس المكرم في قصر المأمون بن ذي النون ، الذي يقدمها لنا ابن حيان نقلا عن أحد اصدقائه من الادباء ، الذين حضروا حفلا في القصر ، ثم استقبلهم الملك في هذا المجلس . ومما يقوله هذا الاديب ، ان لهذا المجلس ازار من المرمر خرمت في جثمانه صور البهائم واطيار واشجار ذات ثمار ، ثم يلي هذا الازار نحو الاعلى ازار اخر من التزيينات

الكتابية ، وهي عبارة عن اشعار في مدح المأمون . أما الازار الاعلى فكان من نفيس الزجاج الملون ، وقد وضعت عليه أشكال حيوان واطيار واشجار فوق أرضية من الذهب . وبهذه الدار بحيرتان نصبت على أركانهما تماثيل أسود مصنوعة من الذهب ، ينساب الماء من افواهها الى حوض رخام محفور عليه صور احياء ، من حيوان واشجار ، وغرست في كل حوض شجرة فضة يترقى الماء فيها ثم ينصب من رؤوس الاغصان الصغرى على شكل رذاذ المطر أو رشاش التندية ، اما بقيته فتتدفق من ذروة الشجرة على شكل شلال(٣٠) .

واحتوت هذه القصور المترفة في تزييناتها ، على تحف ونفائس لا علاقة لها بالبناء ، واهمها تلك النفائس المصنوعة من المعادن والمواد الثمينة ، ومنها الانية الثمينة ، وتكثر الامثلة على النوع الاول عند المعتمد بن عباد ، عند الحديث عن وصف الشعراء لهذه الطرائف الملوكية ، مثل وصف فيل الفضة الذي يقذف الماء على البركة ، وتمثال لحجل من البلور ، عيناه ياقوتتان ، وقد ملىء بنفائس الدر(٣١) .

وكانت الانية من المعدن الثمين مبثوثة في القصور ، وقد سخر المأمون بن يحي ابن ذي النون من ترك والده لاكوام الفضة التي كان يملكها ، والتي ملأت مجلسا بكامله ، على شكل نقر (قطع) . وعندما عرض الفقهاء حوله صواب راي ابيه من انه اتخذها كذلك للاستعانة بها عند الحاجة . وانها ان صيغت واصبحت تحفا يراها الجميع ويزيد الملك الاسباني طمعا بها ، لم يقنع برايهم ، ونفذ ما يريد ، فجعلها صنوفا كثيرة « من الحلية الرائعة والآنية الفائقة ، اذ لا معنى في ابقائها نقر ، لانها تكون بالحجارة أشبه منها بآلات الامارة »(٣٢) .

شابه هذا البذخ في زخرفة البناء واتخاذ التحف النفيسة ، البذخ في النفقة داخل القصور أيضا . وقد اشتهر تحقيق المعتمد بن عباد للرميكية نزوتها بأن تحيا مرة ثانية ، ولأمد ، شيئا من حياتها السابقة ، فتسيخ قدماها في الطين عندما تملأ جرتها ، فأعاد خلق الجو لها ، لكنه جعل الطين من معجون الكافور والعنبر . ولم يكن ابن ذى النون بأقل منه بذخا في الحفلات ، ويكفي وصف مراحل غسل اليدين بعد الاكل ، في الحفل الذي أقامه بمناسبة اعذار حفيده ، « ولما فرغت تلك الطائفة ، جيء بهم الى المجلس المرسوم لوضوئهم ، وقد فرش ايضا بوطاء الوشي المرقوم بالذهب وعلقت فيه ستور مثقلة متماثلة ، فأخذوا مجلسهم فيه ، وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النقاوات والذرائر المطيبات في الاقداح والاشناندانات الفضيات المحكمة الصناعات ، ثم ادني اليهم اثر ذلك الوضوء في اباريق الفضة المحكمة الصنعة ، يصبون على ايديهم في طسوس الفضة المماثلة .. فاستوعبوا الوضوء ،

وادنيت من ايديهم مناديل تتضاءل لها ما عليهم من سني الكسوة . ثم نقلوا الى مجلس التطييب ، فشرع في تطييبهم من مجاهر الفضة البديعة بفلق العود الهندي ، المشوبة بقطع العنبر الفستقي ، بعد ان نديت اعراض ثيابهم بشآبيب الورد الجوري ، يصب فوق رؤوسهم من اواني الزجاج المجدود وفياشات البلور المحفورة ، ثم ادني اليهم قوارير المها المحكمة الصنعة ، الرائقة الهيئة ، قد اترعت بالغوالي الذاكية ، النامة بسرها قبل الخبرة ، المتخذة من خالص المسك التبتي ، ومحض العنبر المغربي ، لاءم بينهما رشح البان البرمكي »(٣٣) .

هذا البذخ والترف ، اضافة لسد الضرورات في البناء الحربي ، وتهيئة المال لشراء العبيد واستئجار الجند ودفع الجزية للامراء الاسبان ، احتاج الى مبالغ كبيرة من المال فرضت على الرعية ، التي كانت تنكب بين الحين والحين بالمغارات ، وما يتبعها من انتساف زروع ونهب مواش . وكان ما يفرض على الرعية يتخذ اشكالا شتى من الضرائب والمغارم يعددها ابن حزم بعد مقارنتها بما كان الناس يدفعونه سابقا بقوله « والمغارم التي كان يقبضها السلاطين ، فانما كانت على الارضين خاصة فكانت تقرب مما فرض عمر على الارض . وأما اليوم فانما هي جزية على رؤوس المسلمين يسمونها بالقطيعة ، ويؤدونها مشاهرة ، وضريبة على اموالهم من الغنم والبقر والدواب والنحل ، يرسم على كل رأس ، وعلى كل خلية شيء ما . وقبالات ما يؤدى على كل ما يباع في الاسواق » . واضاف ملوك الطوائف شيئا اخر ، وهو احتكارهم للبضائع الثمينة في كل بلد ، كقيام زيري غرناطة باحتكار نسبة من انتاج الكتان ، المادة الثمينة ، وقيام الصقالبة في دولة دانية والجزر باحتكار انواع من الدواب .

ويبدو وكأن الاحتكار قد شمل كل ما هو ثمين ولدى الدول كلها ، ففي مدينة شنترين الخاضعة لابن الافطس تنسج حلل غالية الثمن ونادرة ، وقد احاطها الاهالي بأسطورة تقول : « ان دابة تخرج من البحر هناك وتحتك بحجارة على ساحل البحر ، فيسقط منها وبرة على لون الذهب وليس الخز ، وهي قليلة عزيزة جدا ، فيجمعها الناس وتنسج منها الثياب وتزيد قيمة الثوب منها على الف دينار لحسنه وعزته » لكن الملوك يحجرون عليها ولا تنقل من بلادهم الا بالخفية(٣٤) .

الرعيـــة :

يعتبر الجميع بعد الملوك رعية ، لان استبداد الملوك ابعد اخر الامر حتى الاقربين . وتباين وضع هذه الرعية بالنسبة للملوك ، اذ قربوا منها من تدعو الحاجة اليه ،

وارتبطت بالتالي مصلحته بمصلحتهم . ويأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء والعلماء والمهرة في صناعات العمران والتحف والحلي . فقد عرف عن المأمون بن ذى النون البطش ، لكنه كان يقف من عريف البناء عنده موقفا أقرب الى موقف المستعطف ، فقد اظهر غيظه عندما اخلف هذا وعده بالانجاز ، ولما احضر بين يديه كتم غيظه واظهر المداراة له ، حتى قبل هذا ان ينجز المجلس المطلوب في عيد تال يجري فيه المأمون استقباله(٣٥) . وطلب العبدان مبارك والمظفر ، حسب قول ابن حيان « فاخر الاسلحة والالات ونفائس الحلي فطار اليهم عريف كل صناعة ورئيس »(٣٦) .

وكانت عطايا الملوك تساعد البعض على الخلاص من العسر ، بينما تؤمن لاخرين حياة رافهة ، فمن قدموا على العبدين السابقين مبارك والمظفر وخدموهما ، شاركوهما في الترف أيضا . واشتمل « هذا الترف على جميع اصحابهما ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما . فاحتذوا فعلهما ، في تفخيم البناء وتهافتوا منه في ترهات مضلة، وتكشفوا في اشغال متصلة ، لاهين عما كانت فيه الامة يومئذ . واتسع الخرق في عظيم ذلك الانفاق ، فمنهم من قدرت نفقته على منزله مائة الف دينار واقل منها وفوقها » . ويمثل هذا تناقضا صارخا مع وضع رعية البلد التي اصبح الحشيش والبقل مأكولا لها ، والجلود والحصر ملبسا . ولم يكن هذا الوضع قاصرا على بلنسية بل كان عاما على ما يبدو ، اذ يورد الجغرافي العذري ، وهو معاصر ، عن بلده المرية التي شهدت ازدهارا كبيرا في هذه الفترة ، انه « أحصى بمدينة المرية في تفرقة بعض الصدقات من الضعفاء وعلى يد قاضيها موسى بن أحمد المرسي ، فوجد فيها وفي أرباضها عشرون الف ضعيف »(٣٧) ، وهو رقم كبير اذا تذكرنا ان عدد سكان الاندلس وفيها عشرات المدن مثل المرية لا يزيد على خمسة الى ستة ملايين نسمة.

وتزعم سواد الناس ، أو ما تبقى من الرعية ، الفقهاء . وزعامتهم في المدن تقليدية تعود الى الفترة الاولى لقيام الدولة ، وقد كونوا الان مركز ثقل لهيمنتهم على كتل بشرية ضخمة ، خاصة وان عامة المدن قد تكاثرت بفعل الهجرة من الارياف خشية الهجمات والغارات . لذلك سعى الملوك لتقريب كبار الفقهاء ، اما بترك حكم المدينة بيدهم ، أو باعفائهم من المغارم كما مر معنا . وهذه الوسيلة في التقريب ليست فقط اتقاء لشرهم ، بل لجعل قياد العامة سلسا لينا ، وتسهيل قبولها لما يفرض عليها من مغارم ، عن طريق ايجاد المبرر الشرعي ، كما قال أحد الفقهاء للامير عبد الله « فانك لو شئت ان تأخذ من أحد درهما بغير الناموس لسمج عند الناس ، واذا أخذت الفا على وجه الحق حل لك اخذه ولم يستبشعه أحد »(٣٨) .

لكن استجلاب الجميع كان غير ممكن ، اما بسبب المنافسة بين الفقهاء ، كما حصل في طليطلة ، حيث قرب ابن الحديدي وابن الفرج ، فنفر الفقهاء من بني مغيث

وبني اللورانكي . كما ان بعض الفقهاء ، كانوا من التقى بحيث لا يسكتون على باطل ، ففي اشبيلية كان الفقيه أبو حفص عمر بن الحسن الهوزني ، احد رجال المشيخة ، وغادر بلده بعد ذلك خشية بطش المعتضد به ، لمكانته بين الناس . فزار المشرق واخذ العلم ، واستأذن المعتضد بعد ذلك بنزول مرسية . وعندما حصلت حادثة بشتر واهتزت لها الاندلس بعث اليه برسالة يحثه على الجهاد ، فأظهر المعتضد الموافقة واستدرجه الى البلد أولا ، ثم الى القصر بعد ذلك ، حيث قتله بيديه(٣٩) . وفي سرقسطة وعظ فقيه اخر المقتدر ، بعدم جواز دفع الجزية للاسبان اعداء الدين ، فكان جزاؤه القتل ، كي يكون عبرة لغيره فلا يتطاول احد على سياسة الملوك(٤٠) . وكان جزاء البعض ممن لم يجابه مجابهة صريحة النفي ، كما فعل باديس بابن القليعي، الفقيه الغرناطي . وكذلك كان حال ابن حزم الذي سجن في عدة بلاطات ثم ابعد عنها ، الا انه لم يقتل رغم هجومه الصارخ على ملوك الطوائف ، حتى انه جعل منهم كفرة ، اذ انه ، بعد عرضه للمغارم التي يفرضونها ، يقول : يقدمون ايضا « على اباحة بيع الخمر من المسلمين في بعض البلاد ، وهذا كله ما يقبض المتغلبون اليوم ، وهذا هو هتك الاستار ونقض شرائع الاسلام وحل عراه عروة عروة ، واحداث دين جديد والنحل من الله عز وجل » . وفي مكان آخر يأتي تكفيره لهم علنا « ان كل مدبر مدينة ، او حصن في شيء من اندلسنا هذه اولها عن أخرها ، يحارب الله تعالى ورسوله وساع في الارض بفساد ، والذي ترونه عيانا من شنهم الغارات على اموال المسلمين من الرعية التي تكون في ملك من ضارهم واباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التي يعصون على أهلها ، ضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين يسلطون اليهود على قوارع طرق المسلمين في اخذ الجزية والضريبة من أهل الاسلام معتذرون بضرورة لا تبيح ما حرمه الله ، غرضهم فيها استدامة نفاذ امرهم ونهيهم » . ويمكن للمرء ان يفترض ان نجاته من القتل كانت بسبب عدم تعرضه لملك من الملوك بالذات ، أو ربما لكونه ظاهري المذهب مخالف للاكثرية ، مما يحد من تأثير أقواله وتحريضاته . أو قد يكون لتعرض جميع الفقهاء له ومحاربتهم اياه بالكلمة لانه كفرهم ايضا ولم يكتف بتكفير الملوك ، وذلك بقوله : « فلا تغالطوا انفسكم ، ولا يغرنكم الفساق والمنتسبون الى الفقه ، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزيفون لاهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم »(٤١) .

وقد يجمع هذه الاصناف من الفقهاء كونهم من وجوه الناس ، اما من كانوا من الضعفاء فمنهم من غادر الى المغرب حيث قويت دولة المرابطين ، وهي دولة فقهاء تساس أمورها حسب الشرع ، مثل عبد الرحمن بن اسباط وكان فقيرا « يتحرف بالنسخ ولم يكن حسن الخط ولا فصيحا ، وعندما ارتقت حاله قليلا أصبح احد الكتاب في باب الديوان بالمرية ومن هذا العمل انتقل الى المغرب ودخل في خدمة المرابطين»(٤٢).

ومنهم من كان طامحا للشهرة والمال فسلك درب الموالاة للملوك انما في ثوب واعظ ، والمثل الكبير على هذا الطراز من الفقهاء هو سليمان بن خلف الباجي ، الذي كان فقيرا لكنه سافر للمشرق طلبا للعلم . حيث عمل ببغداد حارس درب ، وكان يستفيد باجارته على تفقته وبضوئه على مطالعته ، ثم ورد الاندلس وهو في عسر مادي فصار يتولى ضرب ورق الذهب للغزل ، حتى انه كان يخرج لتلاميذه وفي يديه أثر المطرقة وصدأ العمل . وربما قربه الملوك بعدما ثبت لهم نفعه من خلال تصديه لابن حزم ، اذ كان عنده من الاتقان والتحقيق والمعرفة بطرق الجدل والمناظرة ما مكنه من احراج ابن حزم وفضحه في نظر المالكيين ، فقدمت له الوظائف والعطايا وتنقل بين البلاطات ، بحجة اصلاح ذات البين بين الملوك وتوحيد كلمتهم . لكن اتهام الناس له وتركيزهم على كيفية اتساع وتوفر كسبه وقبول جوائز الملوك ، يدل على اعتبار الناس له من الفقهاء الذين ضمهم الملوك الى جانبهم(٤٣) .

وبدا الامر ميئوسا منه ، وزعامة الرعية بين خاضع ومقتول او منفي أو خائف. وقد عبر المؤرخ المعاصر للاحداث ، وهو ابن حيان ، عن الوضع بما يدل على قدرته على تحليل القوى الفاعلة في الاندلس ، وشعوره باليأس ، وذلك من خلال تعليقه على سقوط بشتر « وطرق الناعى بها قرطبة في شهر رمضان فصك الاسماع واطار الافئدة ، وزلزل أرض الاندلس قاطبة ، وصار للناس شغلا تسكعوا في التحدث به والسؤال عنهوالتصورلحلول مثله اياما ، ولم يفارقوا ذلك عادتهم مناستبعادالوجل، والاغترار بالاجل والاستناد الى امراء الفرقة الهمل ، الذين هم بين فشل ووكل ، فيصدوهم عن سواء السبيل ويلبسون عليهم واضح الدليل . ولم تزل آفة الناس منذ خلقوا في صنفين منهم ، هم كالملح فيهم : الامراء والفقهاء ... بصلاحهم يصلحون وبفسادهم يردون ، فقد خص الله سبحانه هذا القرن الذي نحن فيه من اعوجاج هذين الصنفين لدينا بما لا كفاء له ولا مخلص منه . فالامراء القاسطون قد نكبوا عن نهج الطريق زيادا عن الجماعة وجريا الى الفرقة . والفقهاء أئمتهم صموت عنهم ، صدف عما أكده الله عليهم من التبيين لهم ، قد أصبحوا بين آكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم اخذ بالتقية في صدقهم . فما القول في أرض فسد ملحها الذي هو المصلح لجميع اغذيتها . هل هي الا مشفية على بوارها واستئصالها »(٤٤) .

ضعف الحمية الدينية لدى قطاع واسع من الاندلسيين

رغم كون الدين رابطة تربط الجميع ، وتتجاوز انقساماتهم العرقية والاجتماعية، الا أن ضعف الحمية الدينية لدى قطاع واسع من الاندلسيين ، اضافة لملوكهم ،

افقد هذا العامل الموحد الكثير من تأثيره وفعاليته ، وكان لهذا الوضع جذوره البعيدة ، اذ ان المجتمع الاندلسي متعدد الاديان ، وكانت اعداد من بقي على دينه من الاسبان كبيرة ، لفتت نظر الرحالة ابن حوقل في الجنوب ، كما جذب انتباهه قوة شوكتهم « وبالاندلس غير ضيعة فيها الالوف من الناس لم تمدن ، وهم على دين النصرانية روم وربما عصوا في بعض الاوقات ولجأ بعضهم الى حصن فطال جهادهم ، لانهم في غاية العتو والتمرد. واذا خلعوا ربقة الطاعة صعب ردهم الا باستئصالهم »(٤٥) ومن المعروف ان لهم استقلالا داخليا وبرأسهم قوامستهم ، ومتى عصى احد قادتهم كان يعطي شروطا متسامحة كي يعود الى ربقة الطاعة . وقد اعطي لاحدهم عهد بأن يحتفظ بكل ما لديه من مال ونساء ، وصادف أن احدى امائه كانت مسلمة وشكت الى القاضي الذي حاول ان يحكم بما يوجبه الشرع ، لكن حاجب الخليفة تدخل وطلب الحفاظ على عهد الخليفة(٤٦) .

من ناحية اخرى ، كان التسامح في التعايش واضحا في كل المجالات ، خاصة بعد ما تم الامتزاج بين الطرفين ، وبدا وكأن جزءا كبيرا من التناقض بينهما قد حل ، واصبحت تجمع بينهما لغتان مشتركتان ، العربية لغة الثقافة للجميع ، والرومانس لغة الشارع . والسيادة للامراء أو الخلفاء العرب المسلمين . كذلك كان الاختلاط في البيت كبيرا ، بسبب الزواج من الاسبانيات منذ البداية واستمرار تفضيل الجواري منهن على غيرهن من سائر اصناف الجواري . وهذا ما جعل عادات الاسبان الاجتماعية تسيطر لحد ما ، فقد كان الجميع يحتفلون بالفصح وبرأس السنة الميلادية رغم مواعظ وتحذيرات الفقهاء ، كما ان التزاوج ادى ، بعد اجيال ، الى فقدان التمايز في الملامح الجسدية ، حتى أن ابن حزم يلاحظ ان الاسرة الاموية الحاكمة يغلب عليها لون الشقرة(٤٧) . ومن الطبيعي في ظل هذه الاوضاع كلها الا يتولد عند العرب الاندلسيين ، خاصة وانهم السادة ، نوع من الحمية ضد الاسبان تقوم بدور العصبية الجامعة .

وعندما انقلب ميزان القوى لم تتكون هذه العصبية ايضا ، لان الامراء الاسبان لم يدخلوا كغزاة أول الامر بل كمساعدين لفريق ضد آخر . وكان من الممكن ان يؤدي الاختلاط بالجنود الاسبان ، وما قد يقومون به من اعمال تؤذي مشاعر المسلمين ، الى اثارة حميتهم . الا ان هذا حصل في وقت كانت فيه العصبية بين اندلسيين ومغاربة تهيمن على المشاعر ، الى حد بدت معها الحمية الدينية في منتهى الضعف ، رغم استفزازها . فقد قام أحد الجند الذين قدموا لمساعدة القرطبيين ضد المغاربة بالتعرض للمقدسات الاسلامية بالشتم والاهانة فلم يكلمه احد ، فقام رجل من المسلمين غيرة للنبي الا تنكرون ما تسمعون ، اما انتم مسلمون ؟ فقال له جماعة منهم : امض لشغلك(٤٨) .

وعندما ظهر الخطر الاسباني مهددا ، وبدأت المدن بالسقوط ، كان رد الفعل وظهور الحمية الدينية مقتصرا على صيحات البعض . وبقي الملوك لا مبالين ، وكل ما في سلوكهم لا يشير لحمية دينية أو محاولة الظهور بمظهر الخاضع لاوامر الدين ونواهيه ، وبقوا منهمكين في الملذات التي يتطرفون في بعضها باستخدام رخص الدين ويخالفونه في بعضها .

فقد استكثروا من الجواري ، وتباروا فيما بينهم بالحصول على ارقاهن حتى اشتهرت اسماء بعضهن ، واصبحت اعلاما تتردد في كتابات المؤرخين . ففي ٤٤٢ هـ ورد رسول للمظفر بن الافطس الى قرطبة يلتمس شراء وصائف ملهيات لسيده ، وكن قد عدمن بقرطبة يومئذ ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما فما اشتراهما . وكان خصمه المعتضد اكثر توفيقا منه ، اذ سعى لاجتلاب قينة الرميحي ، الوزير في قرطبة بعد وفاته . وقد استدعاها لما وصفت له بالخدمة (٤٩) .

واشتهر أحد ملوك الطوائف الصغار ، وهو أحد ملوك بني زين أصحاب شنتمرية الشرق ، « بأنه ارفع الملوك همة في اكتساب الالات واقتناء القينات ، اشترى جارية الطبيب الكناني بثلاثة الاف دينار . وطبقت شهرة هذه الجارية الاندلس ، لان ابن حيان يخصها بما يشبه الترجمة عن محاسنها النفسية والجسدية ، ومهارتها في العاب الفروسية ، اضافة الى معارفها الواسعة في اللغة والخط والنحو والطب والتشريع(٥٠) .

ولكن أهم مظاهر مخالفة أوامر الدين هي شرب الخمر علنا ، وحتى اعتبار البعض له شيئا عاديا ، من ذلك أن الامير عبد الله الزيري ، الذي يبدو عليه التدين اكثر من غيره لا يتحرج من ذكر اقبال جده باديس على الشراب ضمن جملة اعمال ، ويتحدث عن دعوة والده الى شراب بنفس الصيغة التي يتحدث بها عن دعوته الى طعام . كما أن المأمون بن ذى النون ، المعروف بوقاره ، خصص مائدة خاصة للشاربين في حفل اعذار حفيده ، قدمت عليها أصناف طعام من نوع ملائم للشراب ، بترتيب في التقديم مناسب له أيضا ، ثم شاركهم في الجلوس لسماع غناء مغن يهودي لابيات حث فيها على طلب الشراب ،كمقدمة لمديحه ، وفيها بعض الفاظ لا تتناسب مع المعتقد الاسلامي السليم ومنها :

باكر لبكر الدنان ان هداء العروس في السحر
واشرب عقارا تخال حمرتها تحرق أيدي السقاة بالشرر
فان يحيى احيا بدولته ما قد محاه تصرف القدر
ملك هو الدهر في عزيمته يطلع فينا بطلعة القمر(٥١)

ويبدو من الناحية الاخرى ان الخلاعة قد انتشرت في صفوف نساء هذه الطبقة ايضا ، قياسا على ما كان يصدر عن السنة بعض بنات ملوكهم . فولادة المشهورة ابنة الخليفة المستكفي ، وهو من خلفاء الفتنة اشتهر بالتخنث في المقام الاول ، نسب اليها من الاشعار الغزلية ، واشعار الهجاء لابن زيدون وغيره ، ما يعتبر بذيئا بجميع المقاييس . ويعتبر مما قالته في الغزل المكشوف :

امكن عاشقي من صحن خدي　　　واعطي قبلتي من يشتهيها

شيئا مهذبا لما ورد عنها في الهجاء .

وربما كانت ام الكرام ، ابنة صاحب المرية ، اكثر تهذيبا من ولادة قياسا لما حفظ عنها ، ويتعلق بغزل صريح للفتى المرسي مسمار ، كقولها(٥٢) :

يا معشر الناس الا فاعجبوا　　　مما جنته لوعة الحب
لولاه ، لم ينزل ببدر الدجا　　　من افقه العلوي للترب
حبي بمن أهواه لو انه　　　فارقني تابعه قلبي



المجتمع الاسباني

يقدم المجتمع الاسباني صورة مناقضة لصورة مجتمع الطوائف في جميع النواحي وعلى مختلف الصعد .

السير باتجاه توحيد السلطة :

كان عصر الطوائف عصر تجزئة السلطة في الواقع الفعلي ، وانعدام وجود اي رابط بين السلطات حتى ولو كان نظريا ، في حين قام في الشمال الاسباني اربع دول هي : ليون في الزاوية الشمالية الغربية ، وقشتالة الى الشرق والجنوب منها اي في المنطقة المحاذية لوسط الاندلس ، وما بين اعالي الضفة اليسرى لنهر ابرو والبيرينيه وخليج غاسقونيا قامت دولة نافارا . اما في اقصى الشمال الشرقي من شبه الجزيرة فقد قامت كونتية برشلونة . ويتجلى السير نحو التوحيد ضمن هذه الممالك في هذه الفترة على مستويين ، في المجال النظري كان ملوك ليون يعتبرون انفسهم امتدادا للاسرة المالكة القوطية قبل الفتح الاسلامي . وفي مضمون هذا

الاعتبار ما يشير الى حقهم في حكم شبه الجزيرة الايبيرية كلها ، كما كان ملـوك القوط . وازاء تعدد الدويلات الاسبانية اتخذ ملوك ليون لقب امبراطور ، وحتـى باسيليوس ، سواء في وثائقهم الرسمية ، او تجاه رعاياهم ، أو لدى ملوك الدويلات الاسبانية الاخـرى .

اما على المستوى الفعلي والعملي ، فقد كانت الوراثة ، في هذه الفترة ، تؤدي في غالب الاحيان الى ضم التاج الواحد لاكثر من دولة ، وهكذا حكم كل من فرديناندو أولا وابنه الفونسو السادس ، كلا من دولتي ليون وقشتالة منذ ١٠٣٨ م/٤٣٠ هـ — ١١٠٩ م/٥٠٣ هـ .(٥٣)

القوى البشرية والاقتصادية

معروف ومشهور ان مهد الريكونيكيستا (حرب الاسترداد) ، أو المنطقـة التي بقي الاسبان يسيطرون عليها منذ أيام الفتح العربي الاسلامي ، كانت تلك الاوعار الجبلية ، الواقعة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية . وكانت السـهول التي تليها ، والتي تحجز بينهم وبين العرب المسلمين ، أرضا مهجورة . وعندمـا انحدروا من الجبال وانتشروا في هذه السـهول تدريجيا ، مستفيدين من فتـرات الضعف التي تمر بها الامارة الاموية ، استطاعوا آخر الامر وخلال الحرب الاهليةالتي عصفت بالاندلس أواخر عصر الامارة ان يصلوا الى حوض نهر دويرة وقامت لهـم عاصمة اصبحت مقر ملوكهم هي مدينة ليون . وقد اعمرت هذه الاراضي الواسعة باسبان ليسوا من النبلاء ، وانما من احرار بسطاء ، مهاجرين من المنطقة الجبلية ، او مستعربين فروا من الجنوب ، اما أنفة من الخضوع للمسلمين ، او هربا مـن الحروب الاهلية التي حدثت أواخر عصر الامارة . وقد كان لهؤلاء نمط حياة ريفي ، وعاشوا ضمن تجمعات ريفية بسيطة ، تقوم حصون على اطراف بعضها وفي امكنة مناسبة لحماية التجمعات . وفي ظل بعضها كان العمران يمتد والتجمع يكبر ليصبح نواة لمدن صغيرة مثل لوغو ، وبرغشر وسمورة .

كان اقتصاد هذه التجمعات اقتصادا ريفيا ، قائما على الزراعة وتربية المواشي ومطبوعا بطابع الفقر الشديد ، اذ افتقرت الى مراكز اقطاعية كبيرة ، يمكن ان تكون بلاطات صغيرة بكل ما يتولد عنها من حاجات تدفع الى قيـام اقتصاد متنوع الفعاليات ، من صناعة وتجارة . لهذا كانت صناعاتها محدودة جدا ، وقاصرة على توفير ضرورات الحياة ، عبر الصناعات المنزلية . كما ان دور التجارة فيها بلـغ من الضآلة حدا لم يستدع فيه سك عملة ، فاستخدموا ، كوحدة للتعامـل ، مـد

القمح أو راس الغنم او قطعا من الفضة . وبما ان بلادهم تقـع بيـن منطقتين نشيطتين ضمن دائرة التجارة العالمية ، لذلك قام افراد من المنطقتين ، اي مـن الاندلس ، أو من غاليا الكارولنجية ، بزيارات للمنطقة ، وأوجدوا لها بالتالي هـذا الرباط الدقيق والواهي بالتجارة العالمية ، والذي كان عبارة عن افراد من التجار اليهود أو المستعربين . وقد بدا ملمح وحيد تقريبا للتطور ضمن هذه المنطقة التي تمتد من نهر دويره جنوبا حتى قمم الكانتوبريك شمالا ، ومن المحيط الاطلسي غربا الى أراضي نافارا شرقا ، وهذا الملمح هو مدينة ليون ، السدة الملكية ، واجتذب هذا الموقع السياسي ، بجمعه السكاني الكبير نسبيا ، والذي يتغذى من منتجات سهل فسيح حول المدينة ، بعض العناصر التي تمتهن التجارة ، كالمستعربين ، الذيـن افتتح أحدهم حانوتا ، وبعض اليهود الذين يتعاطون الربا ، وقام في ليـون سوق أسبوعي عند قوس الملك حيث كان يتم التبادل بين الاغذية والموارد الطبيعية الاخرى ، والادوات المصنوعة . ودشن هذا النظام ما يسمى باقتصاد المدينة ، حيث تكون المدينة مع اطرافها دورة اقتصادية ، او وحدة اقتصادية مغلقة ، يتم ضمن اطارها انتـاج الخيرات ، وتوزيعها ، أو تبادلها واستهلاكها ، وربما بدأ بالظهور في الفترة نفسها ، نمو مدينة اخرى في اقصى الشمال الغربي حيث ضريح شنت ياقب بسبب توافـد الحجاج على زيارته من بقاع شتى ، الامر الذي يخلق تطورا في الفعاليات ، ومع ذلك لم يصل الى مستوى نمو مدينة ليون وتطورها . لكن مقارنة اكبر مركز حضاري في الدولة الاسبانية مع مراكز الحضارة في الاندلس يعكس لنا مقدار تدنيه . ويكفي لاجلاء صورة هذا التدني مقارنته بمدينة المرية الاحدث منه نشأة ، والتي يصـف الجغرافي العذري المعاصر الطابع العام لها باستقبالها السفن من البلاد الاسلاميـة والاوربية ، وبدار صناعتها القديمة التي قسمت الى قسمين : القسم الاول وفيه المراكب الحربية والالة والعدة ، والقسم الثاني وفيه القيسارية ، قد رتب كل صناعة منها حسب ما يشكل لها . قد امن فيها التجار بأموالهم وقصد اليها الناس مـن اقطارهـم(٥٤) .

تلا ذلك توسيع الحدود بعد دويرة نحو الجنوب باتجاه نهر التاجه ، بعد سقوط الخلافة الاموية وخلال فترة الفتنة . ونشأت في الارض الجديدة ، وبحذاء اراضي دول الطوائف ، تجمعات بشرية ، وبينها مجموعات عمرانية دفاعية على قمم المرتفعات أو مداخل الاودية لحماية السهول والسيطرة على الطرق المؤدية لها . واضافة لهـا انتشرت عدة كنائس متواضعة واديرة . أما نمط الحياة هنا ، فكان اكثر بدائيـة من وضع المجتمع وراء دويرة ، فالسكان هنا لا يستطيعون ان يكونوا زراعا ، بسبب سعة الارض التي وقعت بين ايديهم ، والتي تحتاج زراعتها الى ايد عاملة كثيرة ،

لذلك امتهنوا الرعي والحرب ، مما نمى الروح الحربية بين صفوفهم ، وهي ليست بالامر الجديد عليهم ، لانه لو كانت لهم صفات مناقضة لظلوا في جبالهم ومناطقهم البعيدة عن الحدود آمنين(٥٥) .

التنظيم الاجتماعي ـ السياسي :

كانت السيادة في هذا المجتمع مجزاة وفق النظام الاقطاعي ، ففي كل منطقة كانت السيادة لاحد الكونتات (conde) . ويمثل هؤلاء النبالة العليا ويتوارثون السيادة في اسرهم . وبذلك كانت سيادة الملك خارج قطاعه غير مباشرة ، وقاصرة على تبعية الكونتات له . وقد ادخل فرناندو الاول اصلاحا جديدا ، الغى بموجبه التوريث في ملكية الاقطاعات وادارتها ، فبدلا من ان تكون هذه موروثة ، اصبحت منحة ملكية يكون للممنوح له حق الانتفاع بها ، وممارسة السلطات الادارية والقضائية بها ، نيابة عن الملك . وقد اعتمد هذا الاصلاح على النبلاء من طبقة ادنى او الفرسان (Infanzones) بينما كان الكونتات ينتمون الى النبالة العليا (Hidalgos) . وقد تغيرت الالقاب للممنوح لهم فلم يعد كونت (Conde) وانما (Tenienté) او (Merino) بمعنى الوكيل او الممسك او الخولي او الحاجب . ولم يقتصر هذا العمل على منح الاراضي الجديدة المكتسبة ، وانما اصاب القديمة ايضا ، وازيح بعض النبلاء من اقطاعاتهم ومنح النبلاء الصغار مناطق شاسعة(٥٦) .

وقد حصل في قشتالة اكبر تطوير لهذا النظام ، اذ زيد في عدد النبلاء الجدد او الفرسان هؤلاء ، ورفع عددهم فيها من ٣٠٠ الى ٦٠٠(٥٧) .

ويتمخض هذا النظام عن نتيجتين ، اولاهما تقوية السلطة الملكية ، والثانية زيادة المحاربين باعداد كبيرة ، لان الفارس او النبيل الصغير ليس جنديا فردا ، وانما يهرع للحرب مع اتباعه ، فهو بمثابة قائد لمجموعة من الجند . ومما لا ريب فيه ان هذا يخلق في وجه مجتمع الطوائف مجتمعا محاربا ومتماسكا ، مؤلفا من محاربين يرتبطون بسيدهم الملك ارتباطا وثيقا بفعل الاصلاح الجديد ، وبفعل الاعراف في النظام الاقطاعي التي تنظم العلاقة بين السيد والتابع ، في اطار واجبات متبادلة ذلك ان من واجبات التابع أن يخدم سيده ضد كل الناس سواء في الحرب ، أو عندما يدعوه الى مجلس الملك (El Corte) أو في المهمات التي يكلف بأدائها .

ويمكن تجميد أو وقف القيام بهذه الواجبات باذن يمنحه السيد ، ضمن طقوس معينة ، منها قيام التابع بتقبيل يده والاستئذان بالمغادرة ، واذا انقطع

التابع دون اذن ووداع يعتبر خائنا . ومن واجبات السيد اكرام التابع وحمايته من الاذى والاعتداء والاهانة ، وان يحيطه بضمانات امتيازاته القضائية ، كما عليه ان يسعى له بزواج نافع ماديا ، وان يعطيه مرتبا عند مرافقته للحرب ، وعند نهايتها عليه ان يقسم بين اتباعه اربعة اخماس الغنيمة(٥٨) . وفي هذا الواجب الاخير تأثير عربي واضح .

بساطة الحياة المادية والثقافية في البلاط وما حوله :

يمكن اكمال صورة الحياة في المجتمع الاسباني المعاصر لملوك الطوائف اذا اضفنا لما ذكرناه عن نمط حياة هذا المجتمع ، صورة الحياة في طبقته العليا . فمن المعروف ان المعاصرين من الملوك الاسبان هما فرناندو الاول ، وبعده ابنه الفونسو السادس (الفنش) . وكان هذا هو الابن الثاني لابيه ، الا انه الاثير ، لذا عهد اليه عندقسمة املاكه بمملكة ليون . وهذا ما اثار عليه اخاه الثاني سانشو (شانجة) فوقعت عدة وقائع بين الاخوين انتهت باسر الفونسو ، ونفيه بتوسط اخته اوراكا التي تحبه ، الى مدينة طليطلة ، حيث قضى تسعة شهور من كانون الثاني الى تشرين الاول من عام ١٠٧٢ م ، حتى اغتيل اخوه وهو على حصار مدينة ليون الثائرة (٥٩) . فعاد الفونسو ليبسط سلطانه على كامل مملكة ابيه ويتابع سياسته .

كانت حياة بلاط هؤلاء ، بمقارنتها مع بلاطات ملوك الطوائف ، حياة تقشف اذ لم يكن لهم على ما يبدو ملابس متميزة ، لذلك جرت العادة ، منذ زمن ابيهما ، ان يرتدي الامير منهم ملابس المسلمين . وقد عاين ذلك احد الكتاب من اصدقاء ابن حيان ، الذين خرجوا للتفاوض معه اثناء مروره بأراضي سرقسطة(٦٠) . اما الفونسو السادس غازي طليطلة فيقدم له ابن بسام وصفا في معرض ذكره لمقابلة وفد من طليطلة له فيقول : « وجعلوا ينظرون اليه وهو يضفث ثقامة راسه ، فما نسوا ذفر اطماره ودرن اظفاره »(٦١) . ورغم ان الصيغة ادبية قد يكون فيها مبالغة على حساب المعنى ، الا انها تدل على انطباعهم بقذارته ، خاصة اذا تذكرنا مفهوم النظافة والتنظيف لديهم وكما يظهر لنا من مراحل غسل الناس لايديهم بعد الطعام ، في حفلة اعذار حفيد ابن ذى النون .

وفي مجال الحياة الثقافية ، يذكر مينيندث بيدال ان اكبر المكتبات لديهم كان فيها قرابة مائتي كتاب ، وهو امر يستدعي للذاكرة مكتبة الحكم ذات الاربعمائةالف مجلد وكون اكبر مكتبة لهم تحوي كتبا تعادل نصف ما كتبه ابن حزم ، المعاصر لهم . ويصبح التناقض صارخا اكثر ، اذا انتقلنا للمضمون ، فبينما حفلت مكتبات القصور

والافراد العرب المسلمين بالعلوم في شتى نواحي المعرفة ، نجد اكثر كتب هذه المكتبة دينيا ، ومن نوع كتب الطقوس والمواعظ ، لا من كتب فلسفة العقيدة ومناقشتها . اما محتوياتها من مؤلفات الثقافة القديمة ، فقاصرة على كتب بعض الشعراء دون كتب الفلسفة ، وحتى هذه حوربت من الطريقة الديرية الكلونية ، التي بدا تأثيرها يتعاظم في البلاط ، حتى ان أحد كبار المصلحين فيها انتهى من تأملاته حول الشاعر فيرجيل الى نتيجة مفادها ان شعره جميل لكنه مثل كأس جميل يحتوي حشرات . لهذا استبعدت مؤلفات الكتاب غير الكنسيين من المكتبات الجديدة التي انشئت . واذا انتقلنا الى انتاج الفترة من مؤلفات تتشابه نوعا بين البلاطين ، نرى ان كل ما انتج في بلاط مملكة ليون في هذه الفترة في ميدان التأريخ لا يتعدى خمس عشرة صفحة ، كتبها سامبيرو ، كاتب الفونسو الخامس ، لتسجيل تاريخ (١١٦) سنة سابقة ، تميزت ، عدا عن ضآلة الحجم ، بفقر شديد في المضمون ، اذ لم تحو الا معلومات عامة بصيغة ضبابية تذكر فيها احداثا مجردة من اطاري الزمان والمكان . بينما ارخ المؤرخ المعاصر ابن حيان لعصره الاقصر زمنا بكثير ، في ستين مجلدة ، يبدو فيها ، اضافة للصياغة الراقية الدقيقة ، توافر اكثر العناصر التي يتطلبها البحث التاريخي الحديث ، من تأمين المصدر المناسب ، حتى التفسير والتعليل .

يظهر الفارق نفسه ، اذا انتقلنا للعمارة والمجال الفني ، فأهم ما بناه هؤلاء في عاصمتهم ليون كان كاتدرائية سان خوان ، بناها الفونسو الخامس بالطين والاجر ، ثم جدد فرناندو الاول البناء وجعله من حجر . ومع ذلك فقد بقيت عبارة عن مبنى فقير جدا ، اذا ما قورن بالمسجد الجامع في قرطبة ، أو بما بناه ملوك الطوائف من قصبات وقصور(٦٢) . في هذا الجو الذي يسوده التقشف والبساطة ، يبدو الحديث عن بلاط عامر بالترف واللهو غير ممكن ، فساد لديهم الاهتمام بالحرب ، وكان فراغ فرناندو الاول يسد بمعاشرة الرهبان ، الذين كانت عشرتهم مبعثا لسروره ، وكذلك تلاوة الاناشيد الدينية معهم .

الريكونيكيستا (حرب الاسترداد) وتطبيقها .

انقلب البحر الابيض المتوسط لميدان صراع ، بعدما أتم العرب المسلمون فتوحاتهم اواخر القرن الاول للهجرة / أوائل القرن الثامن للميلاد ، وذلك بين العرب من جهة ، واوربا المسيحية من جهة اخرى ، وقادته قوتان : الدول الجرمانية كقوة عسكرية ودنيوية ، والبابوية كقوة روحية وثقافية . وقدر لاسبانيا ان تكون ميدانا لتواجد ممثلي الطرفين واحتكاكهما(٦٣) .

وكان على العرب المسلمين في عصر الطوائف ان يجابهوا هجوما من الطرفين ، المحلي والاوربي . فالبابوية كانت تنظر للصراع ضمن ميدانه الواسع ، الذي تدخل فيه اسبانيا . وهكذا قام البابا الكساندر الثاني عام ١٠٦٣ م/٤٥٦ هـ ، اي قبل ثلاثين عاما من توجه أول حملة صليبية الى فلسطين ، بتقديم وعد بالخلاص من الخطايا والبراءة من الذنوب لكل من يشارك في حرب صليبية ضد العرب المسلمين في الاندلس . وتجمع جيش أغلبه من الفرنسيين والنورمانديين ، وانضم اليهم فرسان ايطاليون . وبعض المحاربين الاسبان من مناطق الشمال(٦٤) ، وهاجم بربشتر فقاومت وحاربت المهاجمين في خارجها . لكن تعرف هؤلاء على السرب الذي يدخل منه ماء النهر الى المدينة ، وسده ، جعل المدينة تعرض الاستسلام مقابل الامان للانفس ، فرفض الطلب . ثم دخل المهاجمون البلد عنوة وقتلوا من اهلها الافا ثم امروا الباقين بالخروج من المدينة ، وبعد ذلك تغير الامر ليصبح عودة كل واحد الى بيته ، فقسمت البيوت ومن فيها على المحاربين وتركت لكل منهم الحرية بأن يفعل ما يشاء بمن وقعوا في حوزته . لم يكن هذا اول احتلال لبلد اندلسي . لكن كل ما حدث سابقا كان من قبل اسبان ينالون ما ينالون بانفاق مع صاحبه كثمن لمساعدة ، او انهم كانوا يتفقون مع طرف من أهله ، لكن هذا كان أول احتلال بهجوم من أغراب ، كما ان ما حصل فيه من أعمال شنيعة أحدث ردة فعل عارمة في الاندلس كلها . وهذا ما يفسر تقاطر النجدات على المقتدر بن هود ، فاجتمع لديه جيش لم يعرف عصر الطوائف له مثيلا من قبل في العدة والعدد ، حتى قيل ان فيه ستة آلاف من الرماة العقارة . وتمثلت خطة الهجوم عليه بقيام الرماة بالرمي على السور تغطية لعمل النقابين تحته ، والذين توصلوا لفتح الثغرة فيه ودخلوا منها وابادوا الحامية كلها تقريبا ، وكانت مكونة ، حسب قول ابن حيان ، من الف فارس واربعة آلاف راجل ، بعد ان بقي بايدي الروم قرابة سنة كاملة ، بدءا من جمادى الاولى ٤٥٧ هـ/اب ١٠٦٤ م(٦٥) .

اختلف التوسع الاسباني على حساب العرب المسلمين فيما يسمى بحرب الاسترداد ، عن التوسع الاوربي ، اذ لم يكونوا على وعي ظاهر بالبعد العالمي لصراعهم مع العرب المسلمين ، وانما كان البارز لديهم البعد الوطني او القومي ، المتمثل بايمانهم بأن اسبانيا واحدة ، وتشمل شبه الجزيرة الايبيرية ، وانها كانت مسيحية كاثوليكية يحكمها القوط ، ويجب ان تعود الان لحكم ملوك ليون الذين اصبحوا منذ زمن يعتبرون انفسهم خلفاء للملوك القوط ، وفي اتخاذهم لقب امبراطور ، اي رئيس ملوك شبه الجزيرة ، تعبير عن ذلك . وقد ظلوا يكررون الفكرة ذاتها سواء زمن فرناندو الاول او ابنه الفونسو السادس ، فقال الاول لوفد من أهل طليطلة « انما

نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديما في أول امركم ، فقد سكنتموها ما قضي لكم وقد نصرنا الان عليكم برداءتكم فارحلوا الى عدوتكم ، واتركوا لنا بلادنا ، فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم » وقال مبعوث الفونسو كلاما في نفس المعنى للامير عبد الله « انما كانت الاندلس للروم في أول الامر حتى غلبهم العرب »(٦٦) .

ولم يكن الاسترداد في نظرهم هدفا مثاليا بل هدفا يحقق لهم غنى ماديا ، لان ما بيدهم من الجزيرة حسب قول سفير الفونسو السادس هو ان (العرب الحقوهم بأبخس البقاع جليقية) . كما ان نفوسهم شرهت للذهب والمعدن الثمين والنفائس . وكان العرب يدركون ذلك ، بدليل نصح بعضهم للمأمون بن ذى النون بالا يحول نقر الفضة لديه الى آنية ثمينة خشية رؤية الجليقيين لها واثارة طمعهم .

أما من الطرف الاخر ، فقد كشف ذلك حتى لعامتهم ، اذ ان القرطبيين اول الفتنة استأجروا اسبانا لمساعدتهم ضد المغاربة مقابل ذهب ، فكان الفارس ينال ، عدا شرابه وطعامه ، دينارين في اليوم . وينال القومس أو القائد مائة دينار . وعندما شكا أهل طليطلة لفرناندو عجزهم عن تقديم ما يطلبه من مال ، كان جوابه « لو كشفت سقوف بيوتكم لبرقت ذهبا » .

من ناحية ثانية كانوا يرون ان الساعة لتحقيق مطمحهم قد ازفت ، اذ زالت هالة المجد والقوة والتقدم ، التي كانت تحيط بالعرب المسلمين في اذهانهم ، بعدما اختلطوا بهم . وقد قال أحد رؤساء الجند لدى أهل قرطبة « كنا نظن ان الدين والشجاعة والحق عند أهل قرطبة واذ القوم لا دين لهم ولا شجاعة فيهم ولا عقول معهم ، وان ما اتفق لهم من الظهور والنصر كان بفضل ملوكهم ، فلما ذهبوا انكشف أمرهم »(٦٧) . كما أن الحالة الحربية لجند الطوائف كما رأينا كانت معروفة لهم وللعرب المسلمين ايضا ، حتى قال ابن حيان « وصب الله تعالى على أهل الثغور من الجبن عن العدو ما لا كفاء له ، فلا يكاد احد منهم يلقى نصرانيا في قرار من الارض الا ويوليه الدبر ، غير مستحي من الله من الفرار امامه ، حتى تعود أعداء الله ذلك منهم »(٦٨) .

رغم ذلك لم ير الملك الاسباني الاكتساح المباشر والاجهاز على حكم الملوك العرب المسلمين كما فعلت الغزوة الصليبية ، بل كان اعمق من اولئك بكثير لمعرفته باوضاع شبه الجزيرة ، ولمعرفته بأحوال العرب المسلمين من الداخل ، بفضل ما توافر له من معارف عبر مداخلات بني قومه معهم ، وعبر الاشخاص الذين انتقلوا لخدمته من بلاطات ملوك الطوائف ، مثل شيشلاند . لذلك كانت له خطة عامة لتحقيق الهدف ، او خطة استراتيجية كما نقول في عصرنا الحديث ، وخطط مرحلية ،

تقوم الاولى على أساس أنه من غير المجدي الاكتساح ، بسبب الفقر السكاني في المناطق الاسبانية ، اذ ان الهجوم المباشر يفني الرجال والاموال ، واذا احتل البلاد وابقى سكانها فهو لا يأمن خضوعهم ، واذا طردهم لم يجد من يعمر الارض . لذلك كانت خطته العامة أن يخضعهم للجزية ويضرب بعضهم ببعض فيفتقرون ويضعفون ، ويغنى هو ويقوى . وما بين الحين والاخر ينهك جزء من بلادهم فيلقي بنفسه دون قتال أو تعب ، ويكون قادرا على هضمه وابتلاعه .

ليست لخطة المذكورة ، العامة او المرحلية ، من استنتاج مؤرخ حديث ، بعد استقراء الحوادث وسلوك الفونسو السادس ، وانما ذكرها الامير عبد الله المشارك في الاحداث ، الذي يؤكد بدوره ان هذا ليس استنتاجا منه ، وانما كانت سياسة مقررة في بلاط الملك الاسباني ، بعد مداولات مع رجاله ، لذلك يقول الامير « كنا نعلم هذا من مذهبه على ما كان يخبر به وزراءه . ولقد قال شيشلاند في حال هذه السفرة وشافهنا بذلك ، وقال : هم الان عند التمكن طامعين بأخذ ظلاماتهم ، فلا يصح ذلك الا بضعف الحال والمطاولة ، حتى اذا لم يبق مال ولا رجال أخذناها بلا تكلف »(٦٩) .

تجاه ذلك الذي انكشف لملوك الطوائف من خطط اعدائهم ، لم يستطيعوا ابداع تصور ، او وضع خطة مقابلة يلتزمون بها ، بل كانوا يمارسون سياسة يومية دون آفاق بعيدة ، ويجدون ملجأ بالتوكل على فرج يأتي من الله عز وجل ، حسب قول الملك المذكور « فكان الجميع يساير الامور ويدافع الايام ويقول : من هنا الى ان تتم الاموال وتهلك الرعايا بزعمهم يأتي الله بالفرج وبنصر المسلمين » .

تطبيق خطة اخذ الجزية :

كانت طوائف الثغور قد خضعت لدفع الجزية منذ أيام فرناندو الاول . وعمم ابنه هذا النظام على شبه الجزيرة كلها ، فخضع لها بنو ذي النون في طليطلة ، وبنو عباد في اشبيلية ، واخيرا الزيريون في غرناطة وعلى المضيق . وكانت عبارة عن دفعة اولى كبيرة ، نعرف منها الذي فرض على غرناطة وقدره ثلاثون الف دينار ، ثم جزية سنوية قدرها عشرة آلاف . وكان الملك الغرناطي خلال المساومة على المبلغ ، يقدم اعترافا بان كل ما يملك مرده لالفونسو « فخذ ما تقدر عليه واترك رمقا لا نستأصل من أجله ، وما تركت تجده عندنا ما طلبت » .

اما على المستوى السياسي ، فكان دفع الجزية مرفقا بحماية الفونسو لمن

يدفع « ووعدنا انه يحامي عنا كمايحامي عن بلده » ، وكذلك الاعتراف به كحكم ، فعند عقد اتفاق بين غرناطة واشبيلية تم بوساطة منه وبضمانته « ثم انه عقد العقد بين يديه على ذلك وانه لا يتعدى منا أحد على صاحبه » .

عندما أصبح الملك الاسباني في هذا الموضع تسابق الجميع لنيل الحظوة لديه عن طريق تقديم الهدايا له وتقديم ما يحتاجه في الازمات . فعندما حاصر طليطلة لاعادة يحيى بن ذي النون اليها ، هاجمه الشتاء ، وانعدمت الاقوات في معسكره ، فهب ملوك الطوائف الاخرون لتزويده بالمؤن(٧٠) . ويظهر ان هذا التقديم كان يتم سرا ، بينما يظهر الجميع علنا تعاطفهم مع اخوانهم في الدين أهل طليطلة ، مما جعل هؤلاء يطمعون في عونهم . لكن الفونسو اضطر لفضح هذا الامر كي لا يطول الحصار. وكان ذلك عندما طلب أهل طليطلة الذين عضهم الحصار من محاصرهم ، حسب عادة مرعية في تلك العصور ، ان يسمح لهم بهدنة يطلبون خلالها من الطوائف الاخرى عونها ، فان لم تفعل سلموا له المدينة . فصار يسألهم عمن سيطلبون عونه ، وكلما ذكروا له ملكا من الملوك استدعى رسله ، حاملي المؤن اليه . فاسقط في يد مبعوثي أهل طليطلة واخبروا اهل مدينتهم بذلك ، فاستسلمت المدينة . وزاد تهافت ملوك الطوائف على نيل رضاه ، وصار يفخرون باي اشارة دالة على ذلك . والحادثة المشهورة لديهم في هذا المجال هي ان حسام الدولة ملك شنتمرية الشرق (السهلة) تلقى من الفونسو السادس ، مقابل هديته الثمينة له ، قردا ، فكان يفخر بذلك ويعتقد انه دليل أمن .

من ناحية اخرى كان الفونسوا السادس حريصا ، عند تطبيق اي خطة مرحلية ، ان تتم بشكل لا يمس بسلامة الخطة العامة ، أو يعرقل تنفيذها . فعند طلبه من أمير غرناطة الجزية ، وامتناع هذا الاخير عن تقديمها اول الامر ، عرض عليه ابن عمار ، وزير المعتمد ابن عباد ، أن يساعده على اخذها ويكون له ما بها من اموال ويدفع عنها خمسين الف دينار . لكن الفونسو استخدم العرض للتهديد والمساومة وتظاهر بقبوله ، ثم قبل من امير غرناطة ثلاثين الفا كدفعة اولى وعشرة الاف كل سنة ، وعلل الامير عبد الله ذلك بانه لا يريد ان يعطيها للمعتمد بن عباد ، اذ سيتقوى بها ويصبح اخضاعه اكثر عسرا عليه .

ضمن هذه السياسة ، وبعد دخول ابن ذي النون طليطلة بمساعدته لعجزه عن كبح جماح الثورات ضده ، وجد الفونسو الفرصة حانت لقضم مملكته ، وكان رأي الوزير شيشلاند ، ان في هذا تسرعا سيجد فيه ملوك الجزيرة تهديدا ، وذلك بقوله

على لسان ابن بسام « ولا تلح على ملوك الجزيرة فلست تستغني عنهم ، ولا تجد عمالا اطوع منهم ، فانك ان ابيت الا الالحاح عليهم والتسرع بالمكروه اليهم نفرتهم عن ذراك واحوجتهم الى مداخلة سواك » وهذا ما حصل ، اذ ان احتلال طليطلة وما حولها جعل ملوك الطوائف يرون في ذلك تحولا من الحماية الى ثل العروش واحتلال البلاد ، في وقت كان الغليان سائدا بين الناس ، والانظار متوجهة الى ما وراء المضيق لطلب العون من المرابطين ، فتم ذلك ونزل المرابطون ليوقفوا المد الاسباني ، ثم ليقضوا على ملوك الطوائف ويجعلوا الاندلس جزءا من دولتهم المغربية .

* * *

الحواشي :

(١) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، (القاهرة ١٩٤٥) ، ق ٤ ، م١ ، ص١٠٩-١١٠ .

(٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، تحقيق بروفنصال ، ج ٣ ، ص ٢٦٦ .

(٣) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٥٠ ،

(٤) ابو الحسن النباهي ، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، ص ٩١ - ٩٢ .

(٥) الذخيرة ، ق ٢ ، م١ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٦) الامير عبد الله الزيري ، التبيان في الحادثةالكائنة على بني زيري ، تح.بروفنصال ، ص ٦٢-٦٣

(٧) الذخيرة ، ق ١ ، م ٢ ، ص ١٦٩ .

(٨) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ .

(٩) الذخيرة ، ق ٢ ، م١ ، ص ١٢٢ - ١٢٣ و ١٢٨ .

(١٠) المصدر السابق ، ق ١ ، م ١ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ .

(١١) التبيان ، ص ٢٢ .

(١٢) ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٢٦٠ .

(١٣) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ، ص ١٠٠ .

(١٤) ذخيره ، ق١ ، م٢ ، ص ١٢٧ .
J.V. Bermejo, Saqut al Barguati Al-Andalus, Vol. XXIII, (1963), p.201

(١٥) R. Menendez pidal, Espana del cid, Vol. 1, P. 284-285.

(١٦) الحميري ، الروض المعطار ، تحقيق احسان عباس ، ص ٥٢٨ .

(١٧) المصدر السابق ص ٥٩ و ٣٤٢ - ٣٤٤ .

(١٨) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص ١٦٢.

(١٩) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ص ٢١٨ .

(٢٠) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١١٠ .

(٢١) M. Al-Abbadi, Los eslavos en Espana, Madrid, 1953.

(٢٢) رواية الوراق عند ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٢٧٤ .

(٢٣) رواية ابن حيان عند ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق عنان ، ص ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

(٢٤) التبيان ، ص ٣١ .

(٢٥) ابن عذاري ، ج٣ ، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٢٦) التبيان ص٣ .

(٢٧) R. Menendez pidel, op. cit, p. 92

(٢٨) الروض المعطار ، ص ٩٢ و ٤٦٤ .

(٢٩) العذري ، ترصيع الاخبار ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٣٠) الذخيرة ، ق ٤ ، م١ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤ .

(٣١) المقري ، النفح ، ج ٥ ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٦ .

(٣٢) الذخيرة ، ق ٤ ، م١ ، ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(٣٣) الذخيرة ، ق ٤ ، م١ ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(٣٤) القزويني : اثار البلاد واخبار العباد ، ص ٥٤٢ .

(٣٥) الذخيرة ، ق ٤ ، م ١ ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٣٦) رواية ابن حيان عند ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٣٧) العذري ، ترصيع الاخبار ، ص ٨٦ .

(٣٨) التبيان ، ص ١١٦ .

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة ، ت ٨٦٥ . الذخيرة ، ق ٢ ، م ١ ص ٦٨ ـ ٦٩ .

(٤٠) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٢٩ .

(٤١) M. Asin palacios, un codico inexplorada Cordobés ibn Hazm, Al-Andalus, Vol. II, 1934, pp. 1-56.

(٤٢) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عنان ، ج٣ ، ص ٢٣ .

(٤٣) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج ٣ ـ ٤ ، ص ٨٠٢ ـ ٨٠٨ .

(٤٤) رواية ابن حيان عند ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٤٥) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ١٠٦ .

(٤٦) الخشني ، قضاة قرطبة ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٤٧) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٤٤ .

(٤٨) ابن عذارى ، ج٣ ، ص ٩٧ — ٩٨ .

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٢١٢ .

(٥٠) ابن عذاري ، ص ٢٠٨ .

(٥١) الذخيرة ، ق٤ ، م١ ، ص ١٠٥ .

(٥٢) المقري ، النفح ، ج٥ ، ص ٢٠٢ و ٢٣٦ — ٢٣٧

(٥٣) Diccionaria Historica Espanol, Arts, Alfonso VI, Y Fernando I.

(٥٤) العذري ، توضيح الاخبار ، ص ٨٦

(٥٥) Sanchez Albornoz-Espana, un Enigma Historico, Vol. I, pp. 114-117.

(٥٦) Diccionario Historico Espanol, Vol. II Arts, Fernando I.

(٥٧) R. Menendez pidal, op. cit.

(٥٨) Mayer, Historia de las instituciones Espanoles, p. 106.

(٥٩) Alfonso VI, Y su hermano la infanta urroca, Al-Andalus, Vol. XIII, (1948), pp. 150 - 661.

(٦٠) الذخيرة ، ق١ ، م١ ، ص ١٥٥ .

(٦١) المصدر السابق ، ق ٤ ، م١ ص ١٢٩ .

(٦٢) R. Menendez piad, op. cit, p. 83

(٦٣) المصدر السابق ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(٦٤) J. Read, the Moors in Spain and portugal, p. 103 - 104.

(٦٥) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(٦٦) التبيان ، ص [illegible] .

(٦٧) ابن عذاري ، ج ٣ ، ص [illegible] .

(٦٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(٦٩) التبيان ، ص ٧٣ .

(٧٠) الذخيرة ، ق ٤ ، م١ ص ١٢٨ .

لمحات من تاريخ أيلة « العقبة »
في العصر الإسلامي

د. صالح درادكة

الجامعة الاردنية

تذكر المصادر العربية ايلة كثيرا عند الحديث عن الامور التجارية والسياسية لمنطقة جنوب الاردن ، والحجاز ، وشمال البحر الاحمر ، ففيها تلاقت قديما السلع المختلفة من الصين والهند وبلاد العرب وافريقيا واوروبا . وهذه الاهمية لايلة اكتسبتها من موقعها الهام كحلقة وصل في العالم القديم ، ولذلك استفادت الامم التي سيطرت على هذه المنطقة من أيلة واستخدمتها في الاغراض الاقتصادية والعسكرية .

وعلى الرغم من هذه الاهمية لم تحظ أيلة بدراسة شاملة وجادة تتناسب وتاريخ هذا الثغر عبر العصور .

وقد قامت بعثة المدارس الامريكية للدراسات الشرقية في الاعوام ١٩٣٨ – ١٩٣٩ بحفريات في موقع ، تل الخليفة ، القريب من العقبة الحالية (١) ونشر جلدن (٢) وموسل (٣) بعض الدراسات حول « أيلة » . غير أن ما نشروه جزئي ولا يعالج الا نواحي خاصة من أيلة في فترات تاريخية قصيرة ومحددة . ولذلك بقي تاريخ ايلة بحاجة الى دراسة شاملة .

تحتل العقبة اليوم مكانة هامة في الاقتصاد الاردني واقتصاد الاقطار المجاورة ، الامر الذي حفزني على محاولة القيام بالدراسة التاريخية المطلوبة لهذا الثغر ذى التاريخ الطويل ، آملا أن استطيع قضاء بعض حق لهذه المدينة او ان الفت نظر الباحثين نحوها ، وفي كلتا الحالتين خدمة للمكتبة التاريخية العربية . والله من وراء القصد .



١ ــ ذكر الجغرافيون العرب « أيلة » وضبطوا اسمها فجعلوه على وزن فعلة ، وحددوا موقعها على ساحل بحر القلزم ، وقالوا هي آخر الشام وأول الحجاز ، وآخر الحجاز واول الشام ، يجتمع فيها الحجاج ، وذكروا ان فيها زروعا وتجارة وسمكا (٤) .

اما المقدسي فسماها ويلة وقال : هي مدينة على طرف شعبة بحر الصين عامرة جليلة (٥) واعتبرها فرضة فلسطين وخزانة الحجاز ، وقال : ، العوام يسمونها ايلة ، وايلة قد خربت على قرب منها . ٦) وذهب الى انها هي التي قال الله فيها : « واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر »(٧) .

وقد اختلف المفسرون في تعيين هذه القرية الوارد ذكرها في الآية السابقة ، فقيل هي ايلة وقيل مدينة بين ايلة والطور وقيل طبرية ، وذهب بعضهم الى انها ساحل من سواحل الشام بين مدين وعينونة يقال لها « معناة »(٨) .

ووصف المقدسي مجتمع ويلة قائلا : « وفي ويلة تنازع بين الشاميين والحجازيين والمصريين كما في عبادان ، واضافتها الى الشام اصوب لان رسومهم وارطالهم شامية وهي فرضة فلسطين ومنها يقع جلابهم »(٩) .

وهذا يشير الى ان سكان ايلة في القرن الرابع الهجري كانوا خليطا من الشاميين والحجازيين والمصريين ، وقد يكون التنازع نتيجة التنافس التجاري . ويبدو من كلام المقدسي ان الايليين تأثروا بأهل الشام اكثر من غيرهم ، ويعود ذلك الى أن ايلة كانت تتبع فلسطين في أغلب العصور .

وقد اختلف في سبب تسميتها بهذا الاسم ، ففريق ذهب الى ان « ايلة » اسم لجبل برضوى ، وهو غير المدينة المذكورة ، اي جبل ينبع بين مكة والمدينة واستشهد بشعر القائل :

من وحش ايلة موشي اكارعه

والوحش لا ينسب الى المدن ، وفي هذا المعنى ايضا قال كثير عزة :

رايت واصحابي بايلة موهنا … وقد غار نجم الفرقد المتصوب
لعزة نارا ما تبوخ كأنها … اذا ما رمقناها من البعد كوكب
تعجب اصحابي لها حين اوقدت … وللمصطليها آخر الليل اعجب
اذا ما خبت من اخر الليل خبوة … أعيد لها بالمندلي فتثقب (١٠)

وفي مكان آخر من شعر كثير نجد انه استعمل لفظ « ايلة » للدلالة على جبل ، فقد قال :

ولو بذلت ام الوليد حديثها　　لعصم برضوى اصبحت تتقرب
تهبطن من اركان ضاس وايله　　اليها ولو اغرى بهن المكلب (١١)

وهناك من يرى انها سميت بهذا الاسم نسبة الى « ايلة » بنت مدين بنت ابراهيم الخليل عليه السلام (١٢) .

وفي لسان العرب لابن منظور : « ايَل » اسم جبل ، واستشهد بقول الشماخ :

تربع اكناف القنان فصارة　　فايَل فالماوان فهو زهوم (١٣)

واما ما يدل على انها اسم بلدة فقول ابن الاعرابي :

فانكم والملك يا اهل ايلة　　لكالمتابي وهو ليس له أب (١٤)

والايل هي ذكر الاوعال من الغزلان . ولا شك ان منطقة ايلة كانت من الاماكن التي تكاثرت بها الوعول والغزلان . وذهب البيهقي الى ان الايكة اسم جامع للارض التي فيها مدينة ايلة ومدين(١٥) .

وفي النص العبري للتوراة جاء اسمها « ايلوت » . وفي الترجمة العربية للتوراة «ايلة» ولا نعلم مدى العلاقة اللغوية بين الفاظ «ايلة» و «ايلوت» و «ايلات» . غير إننا نرى أن « ايلة » لفظة عربية . ويرى بعض الباحثين المحدثين ان لفظة ايلات معروفة أيضا عند الشعوب السامية ، فزوجة الاله بعل عند الفينيقيين تسمى «ايلات» وهي المعروفة كذلك بـ « عشيرة البحر » والتي يطلق عليها لقب الآم الالهة (١٦) وتعني (ايلات) بالعبرية « بيت الالهة » . وجاء في التوراة ان سليمان بن داود (١٠٠٤ — ٩٦٨ ق.م) بنى عصيون جابر قرب ايلة على شاطىء بحر سوف في ارض ادوم (١٧) . كما ذكرت التوراة ان عزيا ملك يهوذا بنى ايلة وردها ليهوذا (١٨) . ويستفاد من التوراة ان العرب وبعض الاقوام الساكنة قرب ايلة كانت تهاجم مملكة يهوذا . كما ان الصراع مع الايدوميين كان مستمرا (١٩) .

٢ — واطلق اليونان على ايله اسم «Elana» ايليانا وكانوا يسمون خليج العقبة الحالي «Aleantic Gulf» (٢٠)

وعندما استولى البطالمه على مصر ، دخلت منطقة جنوب فلسطين والاردن في الصراع بين البطالمه والسلوقيين ، ووقعت ايلة بيد البطالمة الذين اتخذوا منها ميناء لنقل تجارة فلسطين الى موانىء البحر الاحمر وافريقية كما كان يستقبل السفن القادمة من افريقية والمحيط الهندي ، وقد ادرك الانباط مدى الخطر الذي يتهددهم من جراء النشاط التجاري البحري للبطالمة ، فتحرشوا بهم وتعرضوا لسفنهم في البحر مما جعل البطالمة يفكرون جديا بوسائل تمنع الانباط من مهاجمة السفن ونهب حمولاتها ، فبنى فيلادلفوس مدينة برنيسي Berenice على خليج العقبة لحماية التجار من هجمات الانباط ، كما انشأ بطليموس (٢٨٥ ــ ٢٤٦ ق.م) قوة بحرية لحراسة السفن البطلمية ، وبذلك تمكن من السيطرة على شمال البحر الاحمر وخليج العقبة . وقد ازدهرت ايلة في الفترة الهيللنية حتى اننا نجد ايراتوسثنس Eratosthenes (٢٧٥ ــ ١٩٤ ق.م) يقول : ايله اهم مدن بلاد العرب التجارية (٢١) . واحتفظت ايلة باسمها في العهد الروماني لانها كانت معروفة به قبل احتلال الرومان للمنطقة العربية (٢٢) .

وقد ازدهرت تيماء وأيلة وسلع في شمال الحجاز وجنوب فلسطين في فترات من العهد الروماني ، اذ كانت مراكز للقوافل التجارية الكبرى منها تسوق العالم الروماني واليوناني معظم ما يحتاج اليه(٢٣) .

وبعد احتلال الامبراطور الروماني تراجان (٩٨ ــ ١١٧ م) بتراء عاصمة الانباط سنة ١٠٥ ، ١٠٦ م كون ما يسمى بالمقاطعة العربية Provencia Arabea ثم أحدث تغييرات مهمة في الادارة وفي طرق المواصلات واصول الجباية ، فانشأ طريقا مهمة من « أيلة » حتى راس خليج العقبة مارة بالبتراء الى بصرى فدمشق . وصارت بصرى محطة مهمة جدا للقوافل القادمة من اليمن والحجاز ، واصلح تراجان القناة القديمة التي تصل النيل بالبحر الاحمر واحكم احتكار الرومان للتجارة البحرية التي كانت مصدر كل غنى وثراء (٢٤) .

وفي القرن الثالث الميلادي قسمت المقاطعة العربية الى كورتين : كورة شمالية عاصمتها بصرى وعرفت بـ « كورة بصرى » ، وكورة جنوبية عاصمتها بترا وعرفت باسم كورة بترا (٢٥)

أما في القرن الرابع الميلادي وفي حوالي ٣٠٧ م تقريبا اقتطع من الكورة الجنوبية بعض المدن مثل « أيلة » و « Phainon » فينون أو فينان حاليا (٢٦) ، والحقت بفلسطين وبذلك توسعت رقعة فلسطين . ويظهر ان الضرورات العسكرية هي التي دفعت الى احداث هذه التغييرات ، فقد كانت الطرق الحربية تصل من أيلة الى سورية وفلسطين ولهذا أصبحت هذه المدينة معسكرا للجيش الروماني(٢٧) .

وفي العهد البيزنطي دخلت المنطقة العربية في الصراع ما بين الفرس والروم البيزنطيين ، لذلك اختط يوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٥) خطة لتحرير التجارة البيزنطية من سيطرة الساسانيين عليها ، وهي الاتصال المباشر بالاسواق الرئيسية المصدرة، ونقل المشتريات الى الامبراطورية بطريق البحر الذي كان يسيطر الروم على اعاليه. لقد كان ميناء « ايلة » في ايدي البيزنطيين ، وكان فرضة حافلة تقصدها السفن القادمة من اليمن والهند والصين وتاتيها من البر قوافل الشام (٢٨) .

استقرت النصرانية في ايلة منذ عهد مبكر حيث تنصر معظم سكانها ، واشترك اساقفتها في النشاط الكنسي ، فقد كان « بطرس » اسقفها من بين الذين وقعوا قرار مجمع نيقية (٣٢٥م) وكان اميرها قبل يوحنا بن روبة أوريون النصراني (٢٩) كما كانت في القرن الرابع الميلادي مقرا لابرشية حضر مطارنتها بعض المجامع الكنسية ، ومنهم المطران « غوث » وكان في راي الاب شيخو عربيا ، حضر المجمع الخلقدوني سنة ٤٥١ م (٣٠) .

ومات في ايلة سنة ٥١٣ م ، القديس « ايليا » وهو عربي الاصل سكن مدة في احد الاديرة الواقعة على ضفة نهر الاردن اليمنى ثم رقي الى رتبة البطريركية (٣١). ولما تضعضعت قوة بيزنطة على تخوم « ايلة » كسدت تجارتها لان « ايلة » والبلاد المحيطة بها كانت خاضعة لنفوذ الامراء من بني غسان (٣٢) .

وفي بعض الاحيان كانت ايلة تقع تحت سيطرة القبائل البدوية . وكان شيوخ هذه القبائل يحكمون وكانهم عمال روم « فيلارك Phylarchus » ، بعضهم يحكم اراضي صغيرة ، ويعمل اتباعهم بالرعي وبعضهم بالزراعة واخرون بالتجارة والبعض اعراب يتنقلون في البادية ، والذين كانوا يقطنون ساحل العقبة كانوا اشباه اعراب ، ينتهزون الفرص المؤاتية ويشتغلون بالتجارة لحسابهم او لحساب غيرهم او يقدمون الخدمات للتجار مقابل جعل معين (٣٣) .

ومن اشهر القبائل التي استوطنت منطقة ايلة قضاعة التي امتد نفوذها ما بين الشام والحجاز الى العراق ، واستعملهم الروم على بادية العرب هنالك (٣٤) . وامتدت مواطن جذام من ايلة شمالا الى ينبع جنوبا على طول الساحل (٣٥) ، وبلغ من نفوذ جذام ان المصادر تذكر لهم رياسة في معان ، وان بطن بني النافرة من نفاثه من جذام تعاون مع الرومان الذين عينوا فروة بن عمرو بن النافرة عاملا لهم على قومه وعلى من كان حوالي معان من العرب . وتزعم بعض المصادر ان فروة هذا هو الذي بعث الى الرسول « ص » باسلامه واهدى له بغلة بيضاء مما جعل

قيصر ينقم عليه فاغرى به الحارث بن ابي شمر الغساني ملك غسان فأخذه وصلبه بفلسطين (٣٦) . ونظرا لغلبة جذام على منطقة ايلة ذهب بعض المؤرخين الى ان يوحنا بن رؤبة ، صاحب أيلة ، الذي صالح الرسول « ص » هو من جذام(٣٧) .

والى جانب امتداد جذام كانت قبيلة جهينة التي كانت ما بين ينبع ويثرب في متسع من برية الحجاز الى عقبة ايلة (٣٨) . والى جانب امتداد جهينة كانت مواقع قبيلة بلي (٣٩) .

وفي غمرة الصراع بين آل حجر الكندي والغساسنة كانت أيلة خارج هذا الصراع ، مع انها تعتبر ضمن المنطقة التي شملها نفوذ غسان . وربما كان ذلك عائدا الى المكانة الخاصة لمدينة ايلة عند الروم الذين اقاموا بها حامية رومية واشرفوا عليها اشرافا مباشرا .

اتسع نفوذ الغساسنة اتساعا كبيرا شمل ما بين أيلة ولبنان وهذا ما يفهم من شعر حسان بن ثابت يمدح به آل النعمان (٤٠) :

ملكا من جبل الثلج الى جانبي ايلة من عبد وحر
من يغر الدهر أو يأمنه من قتيل بعد عمرو وحجر

وقد تعرض الشعراء لايلة في اشعارهم يذكرون موقعها تارة ويشيرون الى بعض الاماكن المتصلة بها تارة أخرى ، كما اشاروا الى نباتاتها وزروعها ودنانيرها ، ففي ارجوزة طويلة للحسين بن قبيصة المحرمي الجذامي جاء :

وعزلت ايلة والبحر المضم عنها يمينا وتعددت في الاتم(٤١)
وعزلت حزم ردام ذا الثلم عنها يمينا وتياسرت لسلام
وصبحت نعمى واكواز النعم (٤٢)

وذكر في بعض الاشعار ان شجر الدوم كان بأيلة ، فقد ورد منسوبا لايلة . فمما اخذ على حميد بن ثور الهلالي ، وقيل على ابن الطمحان القيني ، قوله :

لما تخايلت الحمول حسبتها دوما بأيلة ناعما مكموما (٤٣)

وضرب بعض الشعراء المثل بدنانير « أيلة » : فهذا احيحه بن الجلاح يرثي ابنه قائلا :

ألا ان عيني بالبكاء تهلل	جزوع صبور كل ذلك يفعل
فان تعتريني بالنهار كآبة	فليلي اذا امسى امر واطول
فما هبرزي من دنانير ايلة	بأيدي الوشاة ناصع يتأكل
بأحسن منه يوم اصبح غاديا	ونفسني فيه الحمام المعجل (٤٤)

وكانت ايلة مجتمعا تتلاقح فيه الافكار اليونانية والمسيحية والعربية ، فهي مركز من المراكز الرومانية ، وهي ايضا اسقفية مسيحية ، وهي قريبة من الحجاز حيث كانت الاسواق العربية تنعقد دوريا وتتحول الى مهرجانات ادبية وثقافية . تمثل كل النزعات السائدة قبيل الاسلام ، فهي لم تشتهر اقتصاديا فحسب بل اشتهرت كمركز من مراكز الثقافة المرموقة في بلاد العرب (٤٥) .

٣ – برز اسم « ايلة » في التاريخ الاسلامي منذ زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك بحكم موقعها كبوابة لبلاد الشام . والتي كان سيطرقها المسلمون في توجههم نحو الشمال . ففي اعقاب غزوة تبوك – اي في السنة التاسعة للهجرة – عقد الرسول صلحا مع يحنه بن رؤبة صاحب ايلة (٤٦) وقد اوردت المصادر كتاب الصلح بخلاف يسير . وتذكر هذه المصادر ان يحنه « يوحنا » بن رؤبة هو الذي قدم على الرسول في تبوك وطلب ان يصالحه مقابل دفع الجزية (٤٧) ، الامر الذي يدفع الى التساؤل عن اسباب ودوافع قدوم صاحب ايلة ليدفع الجزية للرسول ، وايلة مدينة عامرة وجليلة ومعظم سكانها من النصارى ؟!

ويبدو ان يحنه بن رؤبة لم يقدم طائعا مختارا ، فقد اثبتت المصادر رسالة بعثها الرسول الى يحنه وسروات اهل ايلة ، يستفاد منها ان قدوم الوفد الايلي انما كان بفعل التهديد الذي تضمنته رسالة الرسول هذه والتي ادت مع عوامل اخرى الى كتاب الصلح بين الرسول واهل ايلة ، وجاء في الرسالة :

« سلم انتم فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو فاني لم اكن لاقاتلكم حتى اكتب اليكم ، فاسلم او اعط الجزية ، واطع الله ورسوله ورسل رسوله واكرمهم واكسهم كسوة حسنة غير كسوة الغزاء (٤٨) . واكس زيدا كسوة حسنة فمهما رضيت رسلي فاني قد رضيت وقد علم الجزية فان اردتم ان يأمن البر والبحر فأطع الله ورسوله ويمنع عنكم كل حق كان للعرب والعجم الا حق الله وحق رسوله وانك ان رددتهم ولم ترضهم لا آخذ منكم شيئا حتى اقاتلكم فأسبي الصغير واقتل الكبير فاني رسول الله بالحق أؤمن بالله وكتبه ورسوله وبالمسيح بن مريم انه كلمة الله واني أؤمن به انه رسول الله وات قبل ان يمسكم الشر فاني قد اوصيت رسلي

بكم واعط حرملة ثلاثة اوسق شعيراً وان حرملة شفع لكم واني لولا الله وذلك لم اراسلكم شيئا حتى ترى الجيش وانكم ان اطعتم رسلي فان اللهلكم جار ومحمد ومن يكون منه وان رسلي شرحبيل وأبيّ وحرملة وحريث بن زيد الطائي (٤٩) فانهم مهما قاضوك عليه فقد رضيته وان لكم ذمة الله وذمة محمد رسول الله والسلام عليكم ان اطعتم وجهزوا أهل مقنا الى ارضهم »(٥٠) .

ان اهتمام الرسول بجنوب بلاد الشام اصبح ضرورة ملحة ، ولا سيما بعد هزيمة المسلمين في مؤتة ، وتجمع الروم وقبائل عاملة ولخم وجذام لحرب المسلمين (٥١) . فكان لا بد والحالة هذه ان يعمل الرسول على ترتيب الاوضاع ما بين المدينة والشام لصالح سياسة التوجه نحو بلاد الشام . ولهذا اتخذ الرسول عدة اجراءات تضمن عدم عداء القبائل والحواضر في شمال الحجاز ، وذلك عن طريق ربط سكان هذه المناطق بالمواثيق والعهود وكتب الامان ان لم يكونوا قد ارتبطوا بالاسلام . وتلك ضرورة لحماية قوات المسلمين في صراعها مع الروم الذي بدأ بغزوة مؤتة . وكان الوضع الخاص لايلة بدفع صاحبها وسرواتها للاستجابة لطلب الرسول ، فأيلة مدينة تعتمد على التجارة بالدرجة الاولى ، والرسول أصبح يسيطر على اهم الطرق التجارية البرية المؤدية الى أيلة من اليمن وجنوب بلاد العرب ، ونحن نعرف ايضا ان العام التاسع للهجرة هو عام الوفود الذي يشير الى خضوع الجزيرة للرسول ، وقد ذكر الواقدي أن « دومة (دومة الجندل) وأيلة وتيماء ، قد خافوا النبي صلى الله عليه وسلم لما رأوا العرب قد اسلمت »(٥٢) . كما أن فكرة النصارى عن الاسلام لم تكن سيئة حتى الان ، اذ اننا لا نلمس معارضة نصرانية واضحة ضد الدعوة الإسلامية في هذا العهد ، بينما كانت العلاقة بين المسلمين واليهودعلى اسوأ ما تكون فكل هذه العوامل – في راي الباحث – دفعت يحنه بن رؤبة واهل ايلة للموافقة على دفع الجزية ومصالحة الرسول ، ومن هنا لا نستبعد ان يكون ابن رؤبة واصحابه قد قدموا على الرسول في تبوك حيث تم الصلح الذي نقرؤه في كتاب الآمان الموجه من الرسول الى يحنه بن رؤبة ،وهذا نصه (٥٣) : بسم الله الرحمن الرحيم : « هذا امنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنه بن رؤبة واهل ايلة ، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر فمن احدث منهم حدثا فانه لا يحول ما له دون نفسه وانه طيب لمن اخذه من الناس ، وانه لا يحل ان يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا بريدونه من بر وبحر »(٥٤) .

وقد ذكرت بعض المصادر التي اثبتت نص كتاب الصلح أسم الكاتب والشهود ومقدار الجزية . الا ان ابن هشام لم يذكر ذلك ، فقد جاء في هذه المصادر انالكاتب هو جهيم بنالصلت وبعضها اضاف شرحبيل بن حسنة (٥٥) ، واما السبكي فذهب

الى ان علي بن ابي طالب هو الذي كتب كتاب الصلح وفيه شهادة ابي بكر وعمر وعثمان واعلام الصحابة . جاء ذلك في معرض رده على الجرجاني الذي زعم ان ابا حنيفة لم يسبق في كتابة الشروط ، واورد السبكي جواب ابي منصور بان الرسول صلى الله عليه وسلم اول من املى كتب العهود والمواثيق ، منها عهده هذا الى نصارى ايلة ؛ وذكر ان هذا العهد باق عند اصحابه ايلة ولاجل ذلك يصانون(٥٦) وتذكر اغلب المصادر ان مقدار الجزية التي صولح اهل ايلة عليها كان ثلاثماية دينار في السنة ، وكانوا ثلاثماية رجل اي ان يؤخذ من كل حالم دينار في السنة(٥٧) .

وجاء في بعض الروايات ان الرسول اشترط على اهل ايلة بالاضافة للجزية قرى من يمر بهم من المسلمين (٥٨) .

ويبدو ان الجزية لم تبق على حالها بل زاد فيها الخلفاء من بني امية . فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز خفف من اثقال الجزية المفروضة على النصارى في قبرص وايلة ، وكان لا يزداد من اهل ايلة على ثلاثماية دينار شيئا . ويفهم من هذا ان الجزية في البداية كانت على الرؤوس ثم اصبحت جماعية ، اذ لا بد ان يكون نصارى ايلة قد نقصوا او ازدادوا في زمن عمر بن عبد العزيز .

واطلقت المصادر على يوحنا بن رؤبة تارة صاحب ايلة وتارة اسقف ايلة ، واخرى ملك ايلة(٥٩) وقيل ان رسول الله كساه بردة(٦٠) وهي البردة التي اشتراها ابو العباس السفاح بثلاثماية دينار وهي غير البرد التي منحها الرسول – ص – الى كعب بن زهير عندما انشده قصيدته المشهورة التي مطلعها (٦١) :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم اثرها لم يفد مكبول

كما ذكر ايضا ان يوحنا بن رؤبة اهدى للرسول هدية فيها بغلة بيضاء ، فرد رسول الله على هذه الهدية باهداء البرد ليوحنا . وذكر المقريزي ان اليهود كانوا يخرجون رداء عدنيا ملفوفا في الثياب قد ابرز منه قدر شبر فقط ، يزعمون انه برد النبي – ص – وانه بعثه اليهم امانا (٦٢) . وهذه الرواية وما شابهها انما يقصد بها حرص اهل الذمة في فترات معينة ابراز ما يثبت حصولهم على امان الرسول او الخلفاء ، وليس بالضرورة ان تكون هذه الادلة صحيحة ، ففي بعضها التزوير واضح (٦٣) .

ويستدل من كتاب الصلح ان اهل ايلة كانوا يعملون بالتجارة البرية والبحرية، كما

يعملون بصيد السمك . وجاء في وصف بعض الجغرافيين لها بانها مدينة اليهود(٦٤) ولعل هذه الاشارة فيها مبالغة ظاهرة لاننا لم نعثر في المصادر انها كانت يهودية في العهود الاسلامية وان كان يقطنها جماعة من اليهود عملوا كبقية سكانها بالتجارة ، وارتبطوا بالتجار في بلاد العرب ، فقد اشتهر ابو رافع الخيبري اليهودي بالتجارة ، وكانت له شهرة بين المواضع التي يكثر فيها اليهود في العهد المدني ، حيث تشير الروايات الى ان اليهود احتكروا تجارة البلح والشعير والقمح في شمال الحجاز (٦٥) ومن المعروف ان اليهود كانوا يعملون بالصيرفة والصياغة في اماكن اقامتهم .

وحظيت ايلة باهمية خاصة اثناء حركة الفتوح الاسلامية، فقدكانت معبرا لجيوش الفتح المتجهة الى بلاد الشام ، وقد سلكها عمرو بن العاص الذي اخذ طريق المعرقة على ايلة لما بعثه الخليفة ابو بكر قبل فلسطين (٦٦) . واصبحت ايلة بالضرورة محطة للفاتحين نزلها كثير من المسلمين منهم عدد كبير من موالي عثمان بن عفان (٦٧) . ومنهم من نزل في ضواحي ايلة مثل ابو محمد عبدالله بن عبد الحكم بن اعين الحقلي مولى رافع مولى عثمان الذي نسب الى قرية حقل الى جانب ايلة وكان فقيها اماما توفي سنة تسع وعشرين ومائتين (٦٨) ، كما توفي ابو بكر محمد بن مسلم بن شهاب الزهري امام أهل المدينة في « ادمـا » و « ادمى » قرب « بـدا وشغب » وهما واديان على مرحلة من ايلة(٦٩) والزهري شيخ العديد من المحدثين الذين نسبوا الى ايلة ، فقد اقام بها واخذ الكثيرون عنه(٧٠) وكان الذين نزلوا ايلة يعملون في البداية بسقاية الحجاج (٧١) . وتذكر بعض الروايات ان عمر بن الخطاب نزل أيلة سنة سبع عشرة(٧٢) ، وربما كان ذلك عندما كان في طريقه الى الجابية . وممن نزل ايلة في الفترة الاسلامية المبكرة ابان بن سعيد بن العاص (٧٣) وقد عاتبته خطيبته عائشة ابنة عثمان على تركه المدينة واقامته بايلة قائلة :

نزلت ببيت الضب لا انت ضائـر عدوا ولا مستنفعا انت نافع (٧٤)

وبرز اسم ايلة في حوادث الفتنة الاولى ، فتنة عثمان ، فقد كانت مركز استطلاع للاحزاب المتصارعة ، ومنها عاد المصريون لحصار عثمان ، وفي هذه المدينـة كانت العيون ترصد ما يجري في عاصمة الدولة الاسلامية ، فقد تبع عبدالله بن سعد بن ابي السرح المصريين حين خرجوا على عثمان واقام في ايلة يترقب ما تسفر عنـه الاحداث ، حتى اذا ما علم بمقتل الخليفة عثمان دخل فلسطين واقام بها (٧٥) . وقد تجمع موالي عثمان وانصاره ايضا في ايلة يتسقطون بدورهم اخبار المدينة ، ولـما بعث علي بن ابي طالب قيسا بن سعد واليا الى مصر لقيته خيل انصار عثمان في ايلة وسالوه عن حاله ، ولم يجرؤ باخبارهم انه عامل علي على مصر ، بل قال لهـم

انه من فالة عثمان يطلب من يأوي اليه وينتصر به ، ومضى حتى دخل مصر حيث اعلن امره (٧٦) . ولما ولي مروان بن الحكم المدينة في مطلع الحكم الاموي عين مصعب بن عبد الرحمن بن عوف على شرطته فقال له هذا : اني لا اضبط المدينة بحرس المدينة ، فابغني رجالا من غيرها ، فأعانه بمائتي رجل من اهل ايلة ، فضبطها ضبطا شديدا(٧٧) . ويرى (ترتون) مؤلف كتاب « أهل الذمة في الاسلام » ان هؤلاء كانوا من النصارى (٧٨) . ولم يوثق ما ذهب اليه . والغالب ان هؤلاء من انصار الامويين الذين كانوا قد استوطنوا ايلة ومنهم موالي عثمان بن عفان الناقمون على اهل المدينة لموقفهم من عثمان .

وبعد بيعة مروان بن الحكم بالخلافة في ذي القعدة ، ٦٤ هـ ، خرج يريد مصر التي كانت تتبع ابن الزبير ، وخرج معه خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد وعبد الرحمن بن الحكم وزفر بن الحارث وحسان بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني في اشراف كثير ، وبعث ابنه عبد العزيز في جيش الى ايلة ليدخل مصر من تلك الناحية (٧٩) . ولما علم ابن الزبير ارسل جيشا يقوده واليه بمصر عبد الرحمن بن جحدم ، واتبعه بجيش اخر يقوده زهير بن قيس البلوي الى ايلة ليمنع عبد العزيز من المسير اليها ، وقد التقى زهير بعبد العزيز بن مروان في مكان قرب ايلة يدعى (بصاق) فقاتله فانهزم زهير ومن معه ، وفي ذلك قال زهير بن قيس لعبد العزيز بن مروان (٨٠) :

منعت بصاقا والبطاح فلم ترم بطاحك لما ان حميت ذماركا

وفي بداية قتال عبد الملك بن مروان لابن الزبير وجه عبد الملك طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان ، وامره ان ينزل بين ايلة ووادي القرى فيمنع عمال ابن الزبير من الانتشار ويحفظ ما بينه وبين الشام ويسد خللا ان ظهر له (٨١) ، وفي طارق هذا يقول الشاعر :

ولو تكلمنا ذممنا طارقا والدهر قد أمرّ عبدا آبقا (٨٢)

لقد سقت هذه الاخبار لابين كم كان ولاة الامر او الخارجون عليهم ــ منذ مطلع الدولة الاسلامية ــ يعيرون من اهمية لموقع ايلة ويتسابقون للسيطرة عليها ، وارى ان لذلك سببين :

الاول : موقع ايلة كحلقة وصل بين مصر والشام والحجاز ، والاستيلاء عليها يعني

السيطرة على مركز اتصال هام في العالم الاسلامي ، لا سيما وقد وحد الاسلام المنطقة سياسيا فأصبحت ايلة على صلة مباشرة بالمراكز السياسية والتجارية في العالم الاسلامي .

الثاني : كون أيلة مركز تجمع الحجاج والتجار والمسافرين من انحاء العالم الاسلامي أكسبها ميزة استعلامية فريدة ، فمنها يمكن تتبع اخبار العالم الاسلامي بعامة وما يجري في العاصمة الاسلامية بخاصة ، وهذا من الاسباب التي جعلت الحميمة القريبة منها المركز السري للدعوة العباسية .

وفي التقسيمات الادارية التي تمت في عهد عمر بن الخطاب تبعت ايلة جند فلسطين (٨٣) ، واصبحت منذ عهد مبكر مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية . فكانت واحدة من المراكز المشهورة التي عنيت بالسنة الى جانب دمشق وبيت المقدس والرملة وعسقلان والمدينة المنورة (٨٤) .

ولما استتب الامر لعبدالله بن الزبير في الحجاز ارسل الى عبدالله بن عباس ومحمد بن الحنفية : « اما ان تبايعاني او تخرجا من جواري » (٨٥) . فخرجا من مكة ونزلا بالطائف واقاما هناك ، ثم خرج ابن الحنفية الى أيلة ومنها كتب لعبد الملك بن مروان يستأذنه في القدوم عليه والنزول الى جواره فكتب عبد الملك اليه : « وراءك اوسع لك ، والا حاجة لي فيك » فأقام محمد بن الحنفية عامه ذلك بأيلة الى ان توفي بها (٨٦) .

وفي غمرة الصراع بين عبد الله بن الزبير والامويين احتلت أيلة مكانها الهام في الاحداث السياسية والعسكرية كما هو شأنها دائما ، فالكل يحاول ان يسبق الى السيطرة عليها ، فهي حلقة وصل بين الشام والحجاز ومصر كما اسلفنا .

وفي العهد العباسي كان لايلة دورها في الاحداث، فلما تولى هارون الرشيد الخلافة قلد الحسين بن جميل ولاية مصر وجمع اليه خراجها وصلاتها ، فتشدد في جباية الخراج ، فخرج عليه ابو الندى مولى بلي في نحو من الف رجل واخذ يقطع الطريق بأيلة ، وخرج مع ابي الندى اهل الحوف ، ثم انضوى اليه رجل من جذام يقال له المنذر بن غالب بن غطفان ومعه سلام النوبي فبلغوا مبلغا عظيما في النهب والسلب والقتل حتى بلغ الرشيد خبرهم فارسل اليهم يحي بن معاذ في جيش من بغداد كما ارسل الحسين بن جميل ايضا اليهم جيشا يقوده عبد العزيز الجزري ، فالتقى العسكران بأيلة ، وقاتلا أبا الندى وجماعته وهزموهم وظفروا بابي الندى الذي ارسل الى بغداد حيث قتل (٨٧) . ونالت أيلة عناية الخلفاء العباسيين واعوانهم

من القادة فانفق في اصلاح طرقها وتحسين احوالها المال الكثير (٨٨) . ذلك ان أيلة كانت تصبح في فترات الاضطراب السياسي ملجأ للفارين من وجه السلطان أو العصاة المتمردين نظرا لموقعها وصعوبة مسالك المنطقة المحيطة بها (٨٩) .

وفي خلال حكم الاسرة الطولونية لمصر حصل في أيلة بعض الاصلاحات ، ويبدو ان الطريق المحاذي لايلة في اسفل العقبة قد ضاق بفعل ماء البحر ، نأمر أحمد بن طولون (٢٥٤ – ٢٧٠ هـ / ٨٦٨ – ٨٨٣ م) بانشاء طريق جديد على حافة جبل ام نصيلة بدلا من طريق القوافل القديم الذي كان ضيقا محصورا بين منحدر الجبل من ناحية وبين البحر من ناحية اخرى ، فكانت تطغى عليه الامواج في اغلب الاحيان . وسمي هذا الممر العميق ، عقبة أيلة ، نسبة الى المدينة التى كانت تجاوره (٩٠) .

وفي سنة خمس عشرة واربعمائة (٤١٥ هـ) في خلافة الظاهر لاعزاز دين الله الفاطمي (٤١١ – ٤٢٧ هـ) ، هاجم عبد الله بن أدريس الجعفري ومعه أحد بني الجراح مدينة أيلة ونهبها واخذ منها نحوا من ثلاثة الاف دينار وغلالا ، وسبى النساء والاطفال . ويعود السبب في ذلك الى ان عبد الله عزل من ولاية وادي القرى فراجع حسان(٩١) بن الجراح ليتوسط له لدى الظاهر ليعود لولايته السابقة ، غير ان الظاهر الفاطمي لم يستجب لهذه الوساطة ، ففعل الجعفري ما فعل بمساعدةالامير من بني الجراح ، الى أن سارت اليه قوات عسكرية من القاهرة (٩٢) .

وتعرضت أيلة للكوارث الطبيعية علاوة علىالكوارث السياسية، فقدنقل صاحب النجوم الزاهرة عن ابن الصابىء ان زلزلة حدثت سنة ٤٦٠ هـ أهلكت أيلة ومن فيها وذكر اشياء كثيرة من هذه المقولة (٩٣) . وتعرضت كل من غزة واللد والكرك سنة ٦٩٢هـ الى الزلازل فتهدمت فيها دور وكذلك حدثت هزة اخرى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م اصابت المنطقة الجنوبية من الاردن الحالي وشملت معظم افريقيا وسورية وقبرص ، ولا نعلم مقدار ما احدثته هذه الهزات من الخسائر في أيلة والمناطق المجاورة لها (٩٤) .

ولعل أهل أيلة لم يتأثروا كثيرا بكارثة الجراد التي اصابت منطقة شمال الجزيرة وبلاد الشام في مستهل ربيع الاول من سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م بشكل مباشر لان الايليين كانوا يعتمدون في معيشتهم على التجارة وتقديم الخدمات والصيدالبحري(٩٥) وفي عام ٧٤٩هـ تعرضت غزة وبلاد الشام بعامة للطاعون الذي افنى كثيرا من السكان في مصر وبلاد الشام ، ولا بد ان أيلة اصابها ما اصاب غيرها مع ان المصادر ركزت على وفيات مصر ودمشق وغزة (٩٦) .

ولما اصبحت ايلة غير صالحة للملاحة نقلت الى الجنوب من موقعها الاول واقيمت المدينة في هذه الجهة ، وهجر الناس أيلة القديمة منذ القرن التاسع ، أما مدينة ويلة الجديدة ـ واسمها مشتق من « أيلـة » ـ فكانت فـي عهد الخلفاء مركـزا للثقافة العقلية والثقافية المادية (٩٧) .

ومع بداية الحروب الصليبية اصبحت أيلة محل صراع مرير بين الفرنجة والمسلمين ، ذلك ان الصليبيين وضعوا نصب اعينهم منذ البداية السيطرة على شمال البحر الاحمر وذلك لتحقيق عدة اهداف منها : فصل مصر عن بلاد الشـام ،والاستئثار بتجارة البحر الاحمر ، وفي هذا ما فيـه من اضعاف لقوة المسلمين المادية والسياسية والمعنوية مقابل زيادة قوة الصليبيين ، ثم الاستيلاء على المدينة ومكة لضـرب الروح المعنوية لدى المسلمين لحرمانهم من اقدس مقدساتهم (٩٨) . كمـا انهـم باستيلائهم على هذه المنطقـة يمنعون غارات القبائل المتتالية على مملكة القـدس الصليبية ، لذلك جرد بلدوين الاول سنة ٥١٠هـ/ ١١١٦م حملة على أيلة وتمكـن مـن احتلالهـا وضمهـا الـى الاقليـم الـذي كـان يحكمـه كـرك مونتريـال Crac don Montreal ، واقامـوا الحصـون في جزيـرة فرعـون امـام ايلة ، كما انشأوا في المدينـة نفسـها حصنا صغيـرا وشحنوه بالمقاتلة ، فمنعـوا بذلـك الاتصـال بيـن مصر وبلاد الشـام (٩٩) .

اصبحت القوة الصليبية الجديدة في أيلة وشمال البحر الاحمـر عقبـة في وجه التجارة ، كما اصبح الحجاج يتعرضون للاذى والضرر في طريقهم علـى ايـدي الصليبيين في هـذه المنطقـة (١٠٠) .

وامام خطورة سيطرة الاعداء على هذه المنطقة الحيوية ، صمم صلاح الدين الايوبـي على تطهير ايلة وما جاورها من الصليبيين ، فسار من مصر قاصدا أيلة وعمل مراكب مفصلة وحملها قطعا على ظهور الجمال الى ميناء عيذاب حيث أعـاد تركيبها وابحر بها نحو ايلة فحاصرهـا برا وبحرا حتى فتحها في العشر الاول من شهـر ربيع الاخر سنة ٥٦٦هـ (١٠١)ويمكن ادراك مدى الاهمية التي كان صلاح الدين الايوبي يوليها لاحتلال أيلة من الرسالة التي كتبها القاضي الفاضـل ـ كاتب صـلاح الدين ـ الـى الخليفة في بغداد يبشره بالفتح ويصف له ما لاقاه المسلمون من عناء في فتحها ، نقتطف منها : « ... ومنها قلعة بثغـر أيلة كان العـدو قـد بناها في بحر الهند ، وهو المسلـوك منه الى الحرمين واليمن وغزا سـاحـل الحرم فسبى منه خلقا ، وخرق الكفـر في هذا الجانب خرقـا ، فكادت القبلـة أن يستولى على أصلها ، ومساجد الله ان يسكنها غير أهلهـا ، ومقـام الخليـل

صلوات الله عليه ان يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول شرفه الله ان يتطرق من لا يدين بمن جاء به من الاسلام . ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلا للجهاد . وموئلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد ، فلو شرح ما تم بها للمسلمين من الاثر الجليل ، وما استد من خلاتهم ، واحرق من زروع المشركين ورعي من غلاتهم ، الى ان ضعفت ثغورهم ، واختلت امورهم ، لاحتيج فيه الى زمن يشغل عن المهمات الشريفة لسماع مورده وايضاح مقصده(١٠٢) .

ويتبين من هذهالرسالة ان الفرنج غزوا سواحلالحجاز قبلعام ٥٦٦هـ/١١٧٠م وهددوا الحرمين الشريفين خلافا لما هو متعارف عليه عند المؤرخين بأن النشاط البحري الصليبي لم يصل الى قبالة الحرمين الا بعد تولي ارناط امارة الكرك ، ودليل ذلك ايضا ما جاء في الرسالة السابقة :« ومن هؤلاء الكفار صاحب صقلية . . الى ان وصل منها في السنة الخالية الى الاسكندرية امر رائع وخطب هائل مما اثقل ظهر البحر مثل حمله ولا ملأ صدره مثل خيله ورجله . . » .

ومن المعروف ان غزوة صاحب صقلية للاسكندرية حدثت فيسنة ١١٧٤/٥٦٩ م كما يتبين من تاريخ الرسالة اي ٥٧٠هـ/١١٧٤ م (١٠٤) .

وعليه يمكن القول بان الصليبيين بداوا نشاطهم البحري في البحر الاحمر قبل امارة ارناط على الكرك ، غير ان هذا النشاط لا يقارن بضخامة نشاط ارناط وغزواته المنظمة التي كان يوجهها من الكرك للسيطرة على البحر الاحمر لاعتراض السفن التجارية وتهديد طريق البر ايضا (١٠٥) . ومن هنا ندرك ان صلاح الدين كان مضطرا للحملة السابقة حتى لا يحقق الصليبيون اهدافهم ويعيثون في منطقة الحجاز والبحر نهبا وسلبا وقرصنة وفصلا بين مصر والشام .

وحتىيضمن صلاحالدين امن ايلة وطرقالمواصلات بين مصروالشاموالحجازاخذ يشن الحملات المتواصلة والشديدة على كل من قلعتي الشوبك والكرك ، وكان امير الكرك ، ارناط ، ينتهز الفرص ليشن بدوره الغارات على ايلة وعلى طرق القوافل البرية والبحرية ، ذلك انه وضع نصب عينيه تحقيق الاهداف الصليبية السابقة في المنطقة ، اي احتلال منطقة الحجاز والبحر الاحمر وهدم المقدسات الاسلامية او نقل جثمان الرسول صلى الله عليه وسلم الى الكرك واستخدامه وسيلة ضغط على المسلمين لاذلالهم وتحصيل الضرائب منهم (١٠٦) .

وفي غمرة هذا الصراع عزم ارناط على اعادة احتلال ايلة مهما كلفه ذلك من

ثمن . فأعد مراكب مفككة في الكرك ونقلها الى بحر القلزم ــ كما سبق وعمل صلاح الدين ــ وذلك عام ٥٧٨ هـ/١١٨٢ م ، وهاجم أيلة وتمكن مــن هزيمة حاميتهــا واحتلالهــا ثانية ، ثم حاصر جزيرة فرعون ولم يتمكن من فتحها ، فترك قسمــا من سفنه يحاصر القلعة في الجزيرة ويراقب مداخل البحر الاحمر ، وانطلــق بالقســم الشــاني نحــو الجنــوب يريــد تملك الحجــاز كمــا قال الذهبي : « وفيها سار الفــرنج بحــرا وبــرا لتملك الحجــاز »(١٠٧) ، فهاجــم مينــاء عيــذاب المصري واحرق السفن ونهب ما فيها ، كما استولى على مراكب الحجاج القادمــة من مدينة جدة ، كما توغلت قوة صليبية في بر عيذاب واسروا قافلــة كبيــرة من الحجاج كانت في طريقها الى الديار الحجازية .. وواصلت القوة البحرية الصليبية تقدمها نحو الجنوب حتى سواحل تهامة واليمن (١٠٨) .

أثارت هذه الحملة مشاعر وحماس المسلمين فدعوا الى الجهاد المقدس لتخليص منطقة أيلة من خطــر الفرنجه ، وتبدو هذه المشاعــر واضحة في الرســائل التي كتبها القاضي الفاضل الى الخليفة في هذه الفترة (١٠٩) .

ارسل صلاح الدين الى أخيه الملك العادل ابي بكــر بن ايوب بمصر أمــــرا بمواجهة الحملة الصليبية الجديدة ، فعهد هذا بدوره الى القائــد البحــري حسام الدين لؤلؤ (١١٠) ، بالمهمة ، فأعد لؤلؤ اسطولا في الاسكندرية ومصر ونقلــه الــى أيلة برا ، وهناك اعاد تركيبه وشحنه بالمقاتلة من المغاربة البحريين . وكان مقاتلو جزيرة فرعون المحاصرون قد تضايقوا من طول الحصار الصليبي فانقطع المــاء عنهم حتى شعروا بقرب الهلاك ، فارسل الله عليهم امطارا غزيرة في شهر شعبان ســدت حاجتهــم وانقذتهم بعد يأس ، فقويت معنوياتهم وخزنوا من الماء ما يكفيهم لشــهرين وصمموا على الصمود للحصار . بدأ حسام الدين اول اعماله العسكرية ضــد المحاصرين فانزل بهم ضربة قاصمة وذلك في شعبان من سنة ٥٧٨هـ/ كانون الاول ١١٨٢م ، فاحرق السفن الصليبية بالنار الاغريقية واسر وقتل عددا كبيرا منهم(١١١) واما من تمكن من الهرب الى البر فقد ادركهم العربان في تلك الشعاب وقبضــوا عليهم ولم ينج منهم أحد . وبعد جزيرة فرعون توجه حسام الدين جنوبا للاحقــة الاسطول الصليبي فمر على ميناء عيذاب ولم يجد به أثرا لهــذا الاسطول (١١٢) اللهم الا الدمار الذي الحقه الصليبيون بالميناء والسفن التي كانت به ، وتابــع حسام الدين مطاردة الاعداء فوجدهم قد بلغوا ميناء رابغ (١١٣) الحجازي حيث اعترضوا تجارا فنهبوا بعضهم واسروا اخرين واشاعوا الذعر في ســواحل الحجاز ، وتوجهوا نحو ساحل مكة وفي نيتهم الاستيلاء على المدينة المنورة ، فتركوا مراكبهم في الميناء

المواجه للمدينة بحراسة عدد من جنودهم ، وسار ارناط ومعه فرسان الداوية وهم نحو ثلاثماية مقاتل يساعدهم بعض الاعراب المرتزقة من اهالي تلك الجهات ، وساروا جميعا حتى قربوا من المدينة ، وقد انهكتهم حرارة الشمس المحرقة وصعوبة الطريق الوعرة ، ومع ذلك كله صمم ارناط على الوصول الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ،

ادرك لؤلؤ مراكب اعدائه في الحوراء(١١٤) فاحرقها واطلق الاسرى من التجار ورد اليهم ما اخذ منهم ، ونزل الى البر بقسم من قواته حيث قدم لهم كثير من الاعراب المساعدة ، كما قدموا لهم الخيل للركوب ، وتبعوا اثار ارناط مسرعين حتى لا يتمكن الاخير من تحقيق اهدافه . وبعد خمسة ايام تمكنوا من اللحاق به على بعد يوم من المدينة ، ادرك ارناط ان لا سبيل للعودة الى اسطوله في البحر الاحمر ، وفر جنده الى الجبال ، وفر هو نحو الشمال متخفيا يبغي العودة الى منطلقه ، وتمكنت قوات حسام الدين من قتل واسر معظم جند ارناط الذي استطاع الوصول الى قواته في تبوك والعودة بهم وبمن نجا معه الى الكرك (١١٥) .

وعاد لؤلؤ باسراه وكانوا ماية وسبعين أسيرا ، فارسل اثنين منهم الى مكة المكرمة حيث نحروا في منى في موسم الحج ليكونا عبرة لمن يعتبر (١١٦) واما البقية فقد حملها معه الى مصر ، وكان دخولهم مصر عظيما ، ثم وزعوا على سائر المدن المصرية ليقتلوا بها ، وقد شاهد ابن جبير عددا منهم في الاسكندرية اثناء وجوده بها (١١٧) عام ٥٧٨ هـ/١١٨٣ م وقد اركبوا على الجمال بالمقلوب وطيف بهم في شوارع الاسكندرية بين قرع الطبول والنفخ في الابواق ، ثم قتلوا ولقد استغرقت حملة ارناط وعيثه في منطقة البحر الاحمر فسادا زهاء اربعة اشهر من شعبان حتى ذي القعدة من العام ٥٧٨هـ/١١٨٢ ــ ١١٨٣ م . وفي حملة ارناط هذه قال ابن الوردي(١١٨)

لقد طمع البرنس بمستحيل   فجر لقومه سفك الدماء
ولو ترك النبي بلا دفاع   لدافع عنه املاك السماء

ومما يجدر ذكره انه في الحصار الثاني لايلة وقلاعها دمرت حصون الجزيرة وهدم جانب من المدينة ، ولكن سرعان ما استعادت مجدها في عهد حكام حصن الكرك من بني ايوب ومن المماليك من بعدهم . وكانت الفتن التي نشبت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر سببا في القضاء على تجارة ايلة وفي دمار المدينة نفسها وبقي منها فقط القلعة الموجودة على ارض القارة لتحمي العقبة طريق

الحجاج الوافدين من مصر ، وسميت المدينة بعد ذلك باسم العقبة فقط واسقط من التسمية اسم « ايلة »(١١٩) . وبعد هزيمة الصليبيين لم نعد نجد في المصادر اخبارا ذات قيمة عن ايلة ، فقد ذكر ان فئة من اليهود كانت تسكنها ، كما بقيت ايلة محطة لقوافل الحجاج ، ثم اصبحت ملجأ للمتمردين على الدولة او الراغبين في العصيان ، او سجنا للخصوم في العهد المملوكي والعثماني(١٢٠) .

لقد رافق ، جلدن Gildden بعثة المدارس الامريكية للدراسات الشرقية التي نقبت في موقع تل الخليفة ، وذلك تحت ادارة نلسون جلك في ربيع ١٩٤٠ . درس جلدن النقوش الموجودة على جدران مدخل حصن العقبة ونشرها (١٢١) ، واورد النص على النحو التالي :

أ ـ الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليمنى من مدخل الحصن تقول :
القلعة المباركة السعيدة مولانا المالك الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري سلطان الاسلام والمسلمين قاتل (الكفرة والمشركين) .

ب ـ الكتابات الموجودة على جدران الجهة اليسرى من المدخل تقول :

محيي العدل في العالمين .. السلطان الملك الاشرف ابو النصر قانصوه الغوري أعز الله انصاره بمحمد وآله وكان (Sic) هذه القلعة المباركة ذات الامير خاير بك العلاي (العلائي For) المعماري ... بتاريخ (سنة) عشر (......)

وقداستخلص جلدن ان باني القلعة هوالسلطان المملوكي قانصوه الغوري ،واكمل الفراغات المطموسة في الجزء الثاني من الكتابات مصححا النص كما يلي :

بتاريخ سنة عشرين وتسعماية أو تسعمايةوعشرين،اي مايساوي ١٥١٤ ـ ١٥١٥م.

وقد ذكر ابن اياس في كتابه (بدائع الزهور في وقائع الدهور) اسم الامير خاير بك العلاي المعروف بالمعمار في آخر اسماء الامراء المقدمين الستة والعشرين في زمن السلطان قانصوه الغوري سنة ٩٢٢ هـ وقال : « والامير خاير بك المعمار احد المقدمين وكان مقيما بثغر رشيد بسبب عمارة الابراج التي هناك والصور »(١٢٢) وكما هو واضح من النص الذي نشره جلدن فان خاير بك هو باني قلعة ايلة كما هو الباني للعديد من المنشات العمرانية في اواخر العهد المملوكي وبخاصة عهد السلطان قانصوه الغوري . وذكر ابن اياس ان خاير بك هذا لم يرافق قانصوه

الغوري في حملته الى شمال سورية (١٢٣) لمواجهة السلطان سليم العثماني في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ م . وانما تخلف مع مجموعة الامراء التي بقيت في القاهرة . وبعد معركة الريدانيـة ودخول الجيش العثماني القاهرة ، تعرض بيت خاير بـك المعمار للنهب على ايـدي الجند العثمانيين الذين نهبوا بيوت الاعيان المصريين ، ولم يذكر ابن اياس عن نهاية خاير بك شيئا . بالاضافة الى ترميم القلعة فقد اصلح قانصوه الغوري الطريق الى العقبة وبنى فيها الخان السالف الذكر تحيط الابـراج ببواباته ، وخصص له الحواصل لمنفعة الحجـاج (١٤) .

٤ ــ بدأت اسماء الايليين تظهر منذ عهد مبكر (القرن الاول الهجري) . ولا عجب ان وصف السمعاني ايلة بقوله : خرج منها جماعة من العلماء والفضلاء مـن كـل نوع (١٢٥) فقد شغل عبدالله بن سعد الايلي القضاء في عهد عمر بن عبد العزيز(١٢٦) وذكر الاصفهاني ان عبدالله بن يونس صاحب ايلة كان ملحنا ، واورد له لحنا فـي اخباره عن الوليد بن يزيد (١٢٧) . وحل بأيلة العديد مـن الخلفاء ورجال الدولـة وهم في طريقهم الى الحج او في انتقالهم من قطر الى اخـر ، ولهذا ما له من تأثير في الحياة العامة لمدينة ايلة (١٢٨) التي اصبحت مركزا مـن مراكز الثقافـة فـي بلاد الشام نسب اليها عدد من العلماء والمحدثين نذكر منهم (١٢٩) .

١ ــ ابو زيد ، يونس بن زيد بن ابي النجاد الايلي ، المتوفى في بضع وخمسن ومائة وهو من موالي معاوية بن ابي سفيان ، وهو من ابـرز تلاميذ ابـن شـهاب الزهري ، روى عن اخيه ابي علي بن يزيد ، ونافع مولى ابن عمر ، وهشـام بن عروة وعمارة بن عزية وعكرمة وغيرهم .

وروى عنه كثيرون منهم جرير وعمرو بن الحارث وابن اخيه عنبسـه بن خالد الايلي ، والليث والاوزاعي وسليمان بن بلال ، وطلحة بن يحيى الزقي وابن المبارك وابن وهب والقاسم بن مسرور ومفضل بن فضالة وشبيـب بن سعد الحبطي ، وبقية بن الوليد ، وحسان بن ابراهيم الكرماني ، وعبدالله ابن رجاء المكي ،وابو صفوان عبد الله بن سعيد الاموي وعبد الله بن عمر النميري وعثمان بن عمر بن فارس واخرون . وقيل فيه انه ثقة حلو الحديث كثيره ، كما قيل فيه غير ذلك (١٣٠) .

٢ ــ عقيل بن خالد الايلي القرشي الاموي مولى آل عثمان بن عفان ، قيل توفي بمصر سنة احدى او اثنتين واربعين ومائة . ويكنى ابو خالد ، روى عن الزهري ، وعن ابيه وعمه زياد ونافع مولى ابن عمر وعكرمة والحسن وسعيد ابن ابي

سعيد الخدري وسعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت وسلمة بن كهيل وغيرهم . وكان عقيل في الشرطة فلازم الزهري الذي كان بدوره اميرا للجند وروى عنه ، وكان الزهري اذا ما راى عقيلا اصيب بالنعاس من السهر خاطبه قائلا : ما انت من سمار قريش الذين قال الله فيهم : « سامرا تهجرون » (١٣١) .

٣ ـ هارون بن سعيد الايلي . روى عن ابن عيينة وابن وهب وابي ضمرة وخالد بن ابي نزار ومؤمل بن اسماعيل وبشر بن بكر ، وعنه مسلم وابو داود والنسائي وابن ماجه وابو حاتم ومحمد بن وضاح وبقي بن مخلد والمعمري وزكريا الساجي وعاصم بن رازح وعمير بن محمد البحيري وعلي بن أحمد بن علان وابن أخيه مسعدة بن حازم المصري واسامة بن يحيى التجيبي وابو جعفر الطحاوي وابو بكر بن ابي داود ، وآخرون منهم ابو العباس الشيباني النسوي محدث خراسان في عصره . وهو ممن تعرض للمحنة في خلق القرآن في زمن الواثق سنة ٢٢٧ هـ ووصف بالجرأة في القول ، وقيل انه كان مقدما في الحديث ثقة فاضلا وتوفي سنة ٢٦٣ هـ وقيل بل سنة ٢٥٣ هـ (١٣٢) .

واشتهر في الحديث ايضا ابنه ابو محمد عبد الرحمن بن هارون المتوفى في شوال سنة ثمان وسبعين ومئتين .

٤ ـ محمد بن عزيز بن عبدالله بن زياد بن خالد بن عقيل بن خالد الايلي ، أبو عبدالله العقيلي مولى بني امية توفي سنة ٢٦٧ هـ بأيلة . روى عن ابن عمه سلامة بن روح وسليمان بن سلم الجنائزي ويعقوب بن زهدم بن الحارث . وعنه النسائي وابن ماجه وابو داود في غير السنن ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهو من اقرانه ويعقوب بن سفيان ومحمد بن مسلم بن وارة وابو حاتم وابن ابي عاصم وجعفر الغرياني وحرمى بن ابي العلاء وبكر بن سهل الدمياطي وزكريا الساجي وابن خزيمة وابو عوانة وعمرو بن ابي الطاهر المصري وعلي بن اسحاق بن زياد وعبد الله بن محمد بن مسلم الاسفرائني وابو بكر محمد بن حمدون بن خالد بن يحيى عن يعقوب بن سفيان قال : دخلت ايلة فسألت عن كتب سلامة بن روح ووجدت له فيها حديثا (١٣٣) .

٥ ـ ابو عثمان عنبسه بن خالد بن يزيد بن أبي النجاد الايلي من موالي بني أمية . روى عن عمه يونس بن يزيد الايلي ، وابن جريج وابن المبارك ورجاء بن جميل . وروى عنه ، عبد الله بن وهب وهو من اقرانه ، ومحمد بن مهدي الاخميني وهاشم بن محمد الربعي وأبو محمد الاموي واحمد بن صالح المصري ، وقل انه كان على

خراج مصر ، توفي بأيلة في جمادي الاولى سنة ثمان وتسعين ومائة (سنة ١٩٨ وقيل سنة ١٩٧) وقيل عنه ثقة كما قيل ضعيف الحديث . واتهم بأنه كان يعلق النساء بالثدي عندما كان على خراج مصر (١٣٤) .

٦ ـ زريق بن حكيم الايلي ، وقيل بن الحكم ، وهو الذي كتب اليه الخليفة عمر بن عبد العزيز : « انك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق .. انا كنا نقضي بذلك بالمدينة فوجدنا أهل الشام على غير ذلك ، فلا تقض الا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين » . وروى عن عمرة بنت عبد الرحمن وسعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وروى عنه ابنه ومالك وابن عيينه ويونس بن يزيد الايلي وعقيل الايلي ، وسعيد بن ابي أيوب وغيرهم وقيل عنه ثقة (١٣٥) .

٧ ـ طلحة بن عبد الملك الايلي روى عن القاسم بن محمد وزريق بن حكيم ، وروى عنه اخوه القاسم بن سرور والاوزاعي ، ومالك بن انس ، وعبيد الله وعبد الله ابنا عمر ويحيى القطان وقيل عنه ثقة (١٣٦) ، قد روى خبر معاملة عمر بن عبد العزيز لاهل أيلة (١٣٧) .

٨ ـ عبد الجبار بن عمر الايلي ويكنى ابا الصباح وهو من موالي بني أمية . روى عن الزهري وابن المنكدر ونافع مولى ابن عمر وربيعة ويحي بن سعيد الانصاري واسحاق بن عبد الله بن أبي فروة وغيرهم ، وعنه رشدين بن سعد وابن المبارك وابن وهب وابو عبد الرحمن المقرىء وسعيد بن أبي مريم وغيرهم ، قيل عنه ضعيف، وذكره البخاري في فصل من مات من الستين الى السبعين ومائتين (١٣٨)

٩ ـ ابو صخر يزيد بن أبي سمية الايلي كان من العباد يصلي ليله اجمع ويبكي وكان يوافي المواسم كلّ عام على محمد بن المنكدر وصفوان بن سليم ويزيد بن خصيفة وسليمان بن سحيم وابي حازم فيلقون عمر بن ذر فيقص عليهم ويذكرهم امر الآخرة فلا يزالون كذلك حتى ينقضي الموسم ، ثم لا يلتقون بعد الا في كل موسم . روى عن ابن عمر وعمر بن عبد العزيز وابي بكر بن عبد الرحمن وهشام بن أسماعيل ، وروى عنه هشام بن سعد المدني وابو الصباح سعدان بن سالم الايلي وعبد الجبار بن عمر الايلي ، وقيل عنه صالح الحديث ثقة (١٣٩) .

١٠ ـ سعد بن عبد الله بن سعد الايلي توفي سنة ثلاث وسبعين ومائة ، روى عن محمد بن كعب القرظي والقاسم بن محمد وعنه صخرة بن ربيعة وقيل عنه ثقة ولا بأس به (١٤٠) .

١١ ـ سعدان بن سالم الايلي ويكنى ابو الصباح . كان احد النفر الذين وفدوا على عمر بن عبد العزيز ، روى عن يزيد بن ابي سمية ابي صخر الايلي وسهل بن صدقة مولى عمر بن عبد العزيز وذكر في الثقات (١٤١) .

١٢ ـ يحي بن صالح الايلي روى عن اسماعيل بن علية وعنه يحي بن بكير المصري وذكر أن ابن بكير لقيه بأبلة سنة سبع وتسعين وذكر له احاديث وقال كلهـا غير محفوظة وذكر من الضعفاء (١٤٢) .

١٣ ـ شيبان بن فروح ، وهو شيبان بن ابي شيبة الحبطي مولاهم ابو محمد الايلي . ولد في حدود سنة ١٤٠ . ومات سنة ست وقيل سنة خمس وثلاثين ومائتين . روى عن جرير بن حازم وابي الاشهب العطاردي وابان بن يزيد العطار وحماد بن سلمة وسلام بن مسكين ومهدي بن ميمون وعبد الوارث بن سعيد وسليمان بن المغيرة والصعق بن حزن وعبد العزيز بن مسلم وابو داود . وعنه ابو داود والنسائي بواسطة ابي بكر الاحمدين بن ابراهيم العطار وابن علي بن سعيد المروزي وزكريا بن يحيى السجزي وابو يعلي والحسن بن سفيان وبقي بن مخلد وجعفر بن محمد الفرياني وعبد الله بن احمد وعبدان الاهوازي وعثمان الدارمي وموسى بن هارون وابو القاسم البغوي وغيرهم . قيل كان ثقة صدوقا (١٤٣).

١٤ ـ خالد بن نزار بن المغيرة بن سليم الغساني مولاهم الايلي . وقال ابن سعد مات سنة ٢٢٢ . روى عن ابراهيم بن طهمان وسفيان بن عيينه وعنه مالك والقاسم بن مبرور والاوزاعي ونافع بن عمر الجمحي وابن ابي الزناد ومحمد بن ادريس الشافعي وهو من اقرانه وغيرهم . وعنه أحمد بن صالح المصري وابو الطاهر بن السرح وابنه طاهر بن خالد ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وهارون بن سعيد الايلي وجماعة . وذكر في الثقات (١٤٤) .

١٥ ـ الحكم بن عبد الله بن سعد بن عبد الله الايلي ، مولى الحارث بن الحكم بـن ابي العاص، قيل انه سمع الحديث من انس بن مالك وحدث بدمشق وغيرها عن الزهري ونافع وغيرهما وروى عنه يحيى بن حمزة والليث بن سعد وغيرهما ، وثقه جماعة وضعفه وكذبه آخرن (١٤٥) .

١٦ ـ الحسين بن محمد بن الحسن بن عامر بن احمد ابو طاهر الانصاري الخزرجي المقري المعروف بابن خراشة الايلي من أهل أيله كان امام المسجد الجامع بدمشق قرأ القرآن على المظفر الاصبهاني واقرانه وحدث عن الحنائي وطبقته توفي سنة ثمان وعشرين واربعمائة وكان ثقة نبيلا مامونا اشعري المذهب (١٤٦) .

١٧ ـ داود بن ايوب بن سليمان بن عبد الاحد ويقال بن عبد الواحد الايلي حدث عن ابيه وهشام بن عمار وابراهيم بن المنذر وروى عن ابن الاعرابي وغيره(١٤٧).

١٨ ـ اسحاق بن اسماعيل بن العلاء وقيل ابن عبد الاعلى الايلي كنيته ابو يعقوب . روى عن سفيان بن عيينة وعبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد وسلامة بن روح وغيرهم . وعنه النسائي وابن ماجه وابن واره ومكحول البيروتي وعبد الله بن مسلم المقدسي وغيرهم . توفي بأيلة سنة ٢٠٨ هـ(١٤٨) .

١٩ ـ احمد بن عبد الله بن زكريا الايلي(١٤٩) .

٢٠ ـ اسماعيل بن حفص بن عمر بن دينار ويقال ميمون الايلي (١٥٠) .

٢١ ـ عمر بن سعيد الايلي (١٥١) .

٢٢ ـ حسين بن رستم الايلي (١٥٢) .

٢٣ ـ شهاب الدين ابو العباس احمد بن محمد بن احمد بن محمد بن عمر الايلي(١٥٣).

٢٤ ـ ابو عبد الله الايلي (١٥٤) .

٢٥ ـ عبد الله بن سعد الايلي ت ٢٢٩ هـ (١٥٥) .

٢٦ ـ عبد الله بن يونس الايلي (١٥٦) .

٢٧ ـ سعيد بن الهيثم الايلي (١٥٧) .

٢٨ ـ حسان بن أبان بن عثمان ابو علي الايلي ت ٣٢٢ هـ (١٥٨) .

٢٩ ـ مره بن عمرو الايلي (١٥٩) .

٣٠ ـ أحمد بن الحسين المصري الايلي ت ٢٩٢ هـ (١٦٠) .

هذا وزار العديد من العلماء أيلة وأقاموا فيها لفترات متقطعة اذكر من بينهم عبد الرحمن بن اسحق ابو القاسم الزجاجي النحوي من أهل بغداد وسكن طبرية وايلة وحدث بدمشق وصنف في النحو مختصرا (١٦١) ، وكذلك حل بها عبد الله بن المبارك المحدث المشهور حيث جعله ابن سعد فيمن حل فيها (١٦٢) وقد ترك المدينة بعض العلماء ونزلوا أيلة طلبا للعزلة ، فقد قيل للزهري ، يا أبا بكر : « طلبت العلم حتى اذا كنت وعاء من اوعيته تركت المدينة وخرجت عنها » قال : « انما كنت انزل المدينة والناس اذ ذاك اناس » (١٦٣) وكان الزهري قد حل في أيلة .

الحواشي :

(١) N. Glueck, Bulletin of the American Schools of Oriental Research, 71 (1938) pp. 3f., 75 (1939) 8f.

وانظر ايضا محمود ابو طالب ، تاريخ الاردن وفلسطين في العصور القديمة ، عمان ١٩٧٨ ، ص ٢٤ .

(٢) H. W. Glidden, The mumluk Origin of the Fortified Khan, At Al-Akabah, Jordan, P. 116-118.

وانظر مقالته عن ايلة في : The Ency. of Islam. 2, Vol, 1 PP. 783 - 84.

(٣) موسل «Musil» دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية ، مادة « ايلة » .

(٤) انظر اليعقوبي ، البلدان ٨٥ ، ٩٤ ، والهمداني ، صفة جزيرة العرب ص ٣ ، ٥٨ . والمقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص١٧٨ — ١٧٩ والبكري ، معجم ما استعجم ٢١٦/١ . وابن الفقيه الهمداني ، البلدان ص ٢٥ وما بعدها وابن حوقل صورة الارض ص ١٥٣ ، والاصطخري ، المسالك والممالك ص ١٤ ، ٥٩ ، والحربي ، المناسك ، صفحات متفرقة (انظر ثبت الاماكن) ، والقزويني ، آثار البلاد واخبار العباد ، ص١٥٣ . وأبو الفداء ، تقويم البلدان ص ٢٥ ، والحميري ، الروض المعطار ص ٧٠ — ٧١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق .

(٧) سورة الاعراف ، آية ١٦٣ مكية . وانظر المقدسي ، المرجع السابق . والمقريزي ، خطط ص ٣٤٥/١ .

(٨) المقريزي ، خطط ٣٤٥/١ . عينونة : قيل هي من قرى بيت المقدس ، وقيل قرية من وراء البثنية من دون القلزم في طرف الشام . ياقوت ، معجم البلدان ، مادة « عينون » .

(٩) المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

(١٠) ياقوت ، معجم البلدان « ايلة » ٢٩٣/١ . البكري ، معجم ما استعجم ٢١٧/١ ، الهمداني ، صفة ٢٣٤ . ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٣ .

(١١) ياقوت ، معجم البلدان « آيلة » ٢٩١/١ . المكلب : الذي يعلم الكلاب اخذ الصيد ، لسان العرب « كلب » . ضاس موضع بين المدينة وينبع ، ياقوت ، معجم البلدان « ضاس » .

(١٢) ياقوت ، معجم « ايلة » وانظر الحميري الروض المعطار ص ٧٠ — ٧١ والبكري ، المرجع السابق ٢١٧/١ .

(١٣) جاء في اللسان ان « ايلة » : قرية عربية وورد ذكرها في الحديث ، وهو بفتح الهمزة وسكون الياء ، البلد المعروف فيما بين مصر والشام . وايل : اسم جبل . انظر لسان العرب « آيل » . صارة الجبل : راسه وقيل اسم جبل قرب وادي القرى . ياقوت ، معجم البلدان « صاره » .

(١٤) اراد كالمتابي آيا اللسان « ايل » .

(١٥) وقيل الايكة بلدة معينة كانت في قديم الزمان فخربت . انظر رواية البيهقي في نشوة الطرب ٨١٢/٢ .

(١٦) نجيب ميخائيل ابراهيم ، سورية ص ٦٧ .

(١٧) سفر الملوك الاول الاصحاح : ٩ آية ٢٦ . ومما يجدر ذكره ان سليمان استعان بالملك حيرام ملك صور الفينيقي الذي بنى له السفن وزوده بالنواتي ، انظر نفس الاصحاح .

(١٨) سفر الايام الثاني ، الاصحاح ٢٦ آية : ٢ .

(١٩) انظر حول هذا الموضوع سفر الملوك الثاني ، الاصحاح ١٤ آية ٧ وسفر الايام الثاني ، الاصحاح ٢٦ الايات ٦ ـ ٩ والاصحاح ٢٨ الآيات ١٦ ـ ١٩ وها ستنج قاموس الكتاب المقدس ١٨٤/١ وما بعدها. Musil, Hegaz, P. 274, وجواد علي ، المفصل ٦٤٣/١ .

(٢٠) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ص ٣٠٢ .
وانظر ايضا
G.A. Smith, **Historical Geography of the Holy land,** (London 1894, 1968) P. 367.

(٢١) انظر مفيد رائف العابد ، حول مصادر تاريخ العرب ، مجلة دراسات تاريخية دمشق ، العدد ، ٦ لسنة ١٩٨١ ص ١٣٦ . وحول ايلة في زمن البطالة انظر : جواد علي ، المفصل ٢٧/٢ ، سيد عبد العزيز سالم ، تاريخ العرب في العصر الجاهلي ١٩٠ . ومصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ٤٩٣/١ . يرى بعض الباحثين ان Berenice هي عصيون جابر انظر جواد علي ٦٣٧/١ . الدباغ ، المرجع السابق . سيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ص ١٩٠ ، وانظر جلدن : I. E 2. Vol. 1. «Ayla»
اراتوستنس احد اشهر ثلاثة كتاب في العصر الهيلليني (٣٢٣ – ٣١ ق.م) مفيد العابد ، مجلة دراسات ص ١٣٦ .

(٢٢) نجيب ميخائيل ، المرجع السابق ص ٣٠٢ ، ٣٩٤ .

(٢٣) سعيد الافغاني ، اسواق العرب ص ١٦ .

(٢٤) جواد علي ، المفصل ٦٥/٢ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٤٢ .

(٢٥) جواد علي ، نفس المرجع ٧١/٣ . ومن الطريف ان يذكر شيخ الربوة ان : « بلاد الشام في العهد الروماني كانت مقسمة الى اربعة الشام قسم قصبته دمشق وقسم قصبته طبرية ويسمى بالاردن، وقسم قصبته حمص وقسم قصبته ايليا « بيت المقدس » ويسمى فلسطين وكان لهم في كل عمل بطريق من البطارقة يحفظه » مع العلم ان هذه التقسيمات اسلامية ، انظر نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ١٩٢ .

(٢٦) ورد ذكر فينان في سفر العدد اصحاح ٣٣ الايات ٤٢ – ٤٣ اثناء عبور الاسرائيليين فلسطين ، وتلفظ « فينون » ايضا واشتهرت بمناجم النحاس – على حد زعم التوراة – وكانت في العهد البيزنطي مركزا لاسقفية . انظر لويس مخلوف ، الاردن تاريخ وحضارة وآثار ، عمان ١٩٨٣ ص ٢٢٩ .

(٢٧) Glidden, I.E.2, vol.1.pp. 783-84

وموسل ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية « أيلة » ٢٠٧/٣ جواد علي ، المرجع السابق ٧١/٣ .

(٢٨) الاب لويس شيخو ، النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ص ٤٤٨/٢ . جواد علي ، المرجع السابق ١٧٠/٤ .

(٢٩) شيخو ، المرجع السابق ٤٧/١ ، ١٠٨ . موسل، دائرة المعارف الاسلامية « أيلة » .

(٣٠) شيخو ، المرجع السابق . الدباغ ، المرجع السابق ٤٩٢ – ٤٩٣ .

(٣١) شيخو ، المرجع السابق ، ٤٧/١ . الدباغ ، المرجع السابق ص ٤٩٣ .

(٣٢) موسل ، دائرة المعارف الاسلامية « أيلة » .

(٣٣) جواد علي ، المرجع السابق ٦٠٦/٢ .

(٣٤) ابن خلدون ، تاريخ ٢٤/٢ وما بعدها .

(٣٥) الهمداني ، صفة .. ص ١٢٩ . جواد علي ، المرجع السابق ٢٤٥/٤ .

(٣٦) انظر ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ص ٤٢١ . تاريخ ابن خلدون ٣٧/٢ . جواد علي ، المرجع السابق ٤٦٢/٤ . وفي رواية ان فروة كان على عمان او معان ، الطبقات الكبرى ٢٨١/١ .

(٣٧) الطبقات الكبرى ٢٨١/١ ، تاريخ ابن خلدون ٣٤٤/١ .

(٣٨) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ١٦/٣ . تاريخ ابن خلدون ٢٠/٢ – ٢٤ .

(٣٩) تاريخ ابن خلدون ، المرجع السابق والصفحة .

(٤٠) انظر ابن قتيبة ، المعارف ص ٦٤٣ ، ابن منظور ، اللسان « ايلة » البكري ، معجم ما استعجم ، ٢١٦/١ . صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ص ٦٢ .

(٤١) الاتم : واد يسيل من حسمى على ليلة .

(٤٢) نعمى : ماء يفيء عليها ظل الشوق بالعشي . والشوق : اعظم جبل بحسمى . انظر حمد الجاسر ، ابو علي الهجري وابحاثه في تحديد المواضيع ص ٢٣٥ – ٢٣٦ .

(٤٣) الدوم : شجر المقل وهو لا يكم ، انما يكم النخل : انظر ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ص ٢٣٢ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد ١٨٢/٦ .

(٤٤) الوشاة : الضرابون . ناصع : مشرق . يتاكل : اي ياكل بعضه بعضا من حسنه . الهبرزي : الدينار الجيد ، وقيل الذهب الخالص . انظر : ياقوت ، معجم البلدان (ايله) ٢٩٢/١ . ابن منظور ، اللسان « هبرز » .

(٤٥) انظر : سعيد الافغاني ، اسواق العرب ص ٢١٢ . سياتي الحديث عن الناحية الثقافية لايلة في الجزء الاخير من هذا البحث .

(٤٦) ستاتي مصادر كتاب الصلح عند ايراد هذا الكتاب في الصفحات القادمة .

(٤٧) انظر المصادر التي اوردت كتاب الصلح .

(٤٨) قوله : غير كسوة « الغزاء » بالمعجمتين وفي اخره همزة والظاهرة ان الصحيح « الغزاة » بالتاء جمع غازية بمعنى المقاتلة ، اي غير ثوب المقاتل كالدرع ، وثوب حرير يختص بحال الحرب ، وفي نسخة ابن عساكر « العراء » ولا يناسب سياق الكلام ، انظر الاحمدي ، مكاتيب الرسول ١٦٢/١ .

(٤٩) حريث بن زيد الطائي ، يعتقد انه ابن زيد الخيل الذي لقب ايضا بزيد الخير ، انظر تحليل الرسالة ، الاحمدي ، المرجع السابق ١٦١/١ – ١٦٤ .

(٥٠) طبقات ابن سعد « والنص له » ٢٧٧/١ – ٢٧٨ . وانظر تهذيب ابن عساكر ١١٤/٤ . وفي مجموعة الوثائق السياسية لحميد الله ص ٨٧ رقم (٣٠) عن الطبقات وابن حديدة في المصباح المضيء في كلمة يحنه ، والزرقاني ٣٦٠/٣ ثم نقل كاتياني ٩ : ٣٨ « التعليقة الاولى » واشبرنكر ٣٢١/٣ – ٤٢٢ واشبربرص ٢١ – ٤٢ . والاحمدي ، مكاتيب الرسول ١٦١/١ – ١٦٤ . وقد ضبطت المصادر اسم صاحب ايله تارة « يحنه » وتارة اخرى « يوحنا » واكثرها على اللفظ الاول ، انظر الاحمدي ، المرجع السابق .

(٥١) البلاذري ، فتوح ص ٧١ ، وانظر ابن سعد ، الطبقات ١٦٥/٢ . وتاريخ ابن عساكر « رواية ابن اسحاق » ٤٢٤/١ .

(٥٢) المغازي ١٠٣١/٣ .

(٥٣) سيرة ابن هشام ٥٢٥/٢ – ٥٢٦ . وانظر مغازي الواقدي ١٠٣١/٣ وطبقات ابن سعد ٢٨٩/١ وابو عبيدة الاموال ٢٨٧ – ٢٨٨ وتاريخ ابن عساكر م ١ ص ٤٢٤ . والسيرة الحلبية ١٦٠/٢ . ومحمد حميد الله ، الوثائق السياسية رقم ٣١ – ٣١ أ ص ٨٨ ، عن القسطلاني ، المواهب اللدنية ٢٩٧/١ ، وسيرة ابن سيد الناس ٢٢٠/٢ والزرقاني في شرح المواهب ٣٥٩/٣ ، والمقريزي، امتاع الاسماع ٤٦٨/١ ، وابن زنجويه ،الاموال« نسخة خطية » رقم ٦٩/ب و ٧٠ أ والبيهقي ، دلائل النبوة ، خطية كوبرولو بتركيا ، ج١ ورقة ٢٣ب . واحمد بن حنبل ، المسند ٤٢٥/٥ . والبكري ، معجم ما استعجم ٢١٧/١ .

(٥٤) سيرة ابن هشام ٥٢٥/٢ – ٥٢٦ .

(٥٥) الواقدي ، المغازي ١٠٣١/٣ طبقات ابن سعد ٢٨٩/١ وابو عبيد بن سلام ، الاموال ص ٢٨٨ . ومحمد حميد الله ، الوثائق السياسية رقم ٣١ – ٣١ آ ، ص ٨٨ – ٨٩ .

(٥٦) السبكي ، تاج الدين ابي نصر ، طبقات الشافعية الكبرى ١٤٦/٥ .

(٥٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٧١ ، والمسعودي، التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ . وقدامة بن جعفر ، الخراج وصناعة الكتابة ص ٢٧٠ . وياقوت الحموي ، معجم البلدان « أيله » ٢٩٢/١ . وابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١٩١/٢ . وتاريخ ابن خلدون ٢٤٤/١ .

(٥٨) قدامه بن جعفر ،الخراج ... ص ٢٧٠ .

(٥٩) مغازي الواقدي ١٠٣٠/٣ . والمسعودي التنبيه والاشراف ص ٢٣٦ . وتاريخ ابن خلدون ٢٤٤/١ وانظر ايضا مصادر كتاب الصلح السابقة .

(٦٠) حول البرده انظر : العماد الاصفهاني ،خريدة القصر وجريدة العصر ، ص ١٢ حا : ٥ من القسم العراقي . والسيوطي ، تاريخ الخلفاء ص ١٩ . القلقشندي ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ٢٦٩/٢، وحاشية ابن هشام على بانت سعاد ، ومقالة الاثار النبوية لاحمد تيمور في « مجلة الهداية الاسلامية المصرية » م ١ ح ٨ لسنة ١٣٤٨ هـ .

(٦١) انظر القصيدة في سيرة ابن سيد الناس ٢٠٩/٢ وما بعدها .

(٦٢) خطط المقريزي ٣٤٥/١ وما بعدها .

(٦٣) انظر محمد حميد ، الوثائق السياسية ص ٤١١ وما بعدها ، وابو عبيد ، الاموال ص ٢٠٧ .

(٦٤) ياقوت ، معجم البلدان « ايله » ٢٩٢/١ . اليعقوبي ، البلدان ص ٩٤ ، الحميري ، الروض المعطار ص ٧٠ ،ابو الفداء ، تقويم البلدان ص ٨٧ ، القزويني ، اثار البلاد ص ١٥٣ . ان ظاهر كتاب الرسول ليحنه يعني كونهم نصارى ، انظر الاحمدي مكاتيب الرسول ص ١٦٤ .

(٦٥) ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب ص١٨ وانظر ايضا الافغاني ، اسواق العرب ص ٢٤ .

(٦٦) البلاذري ، فتوح ص ١١٦ . وتاريخ الطبري ٣٨٧/٣ .

(٦٧) اليعقوبي ، بلدان ص ٩٤ ، وياقوت ، معجم البلدان « أيلة » ٣٩٢/١ .

(٦٨) ابن حوقل ، صورة الارض ١٥٣ ، وياقوت الحموي ، المشترك وضعا والمفترق صقعا ص ١٤١ .

(٦٩) انساب السمعاني ٤٠٩/١.

(٧٠) النووي ، تهذيب الاسماء واللغات ٩٠/١ .

(٧١) الحميري ، الروض المعطار ص ٧٠ .

(٧٢) الطبري « رواية سيف » ٦٤/٤ .

(٧٣) ابن الكلبي ، جمهرة النسب « رواية ابن حبيب » خطيه ص ٢٥ .

(٧٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ١٢/٤ .

(٧٥) تاريخ الطبري ، ٣٧٨/٤ .

(٧٦) المرجع السابق ٤٤٢/٤ . وتاريخ ابن خلدون ٤٠٥/١ .

(٧٧) ابو الفرج الاصفهاني ، الاغاني ٧٤/٥ .

(٧٨) اهل الذمة في الاسلام ص ٢١٥ .

(٧٩) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٢ .

(٨٠) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٣ . بصاق :مكان بين التيه وايله : انظر : ياقوت ، المشترك وضعا والمفترق صقعا ص ٥٥ .

(٨١) البلاذري ، انساب الاشراف ٢٥٦/٥ .

(٨٢) المرجع السابق والصفحة .

(٨٣) في رواية غير موثقة ذكر مولوي ، س . ا . ف . حسيني ، ان عمر قسم جند فلسطين الى قسمين جعل أيلة عاصمة احدهما والرملة عاصمة القسم الاخر . وتبعه في ذلك علي حسني الخربوطلي . انظر حسيني في كتابه « الادارة العربية » ص ٨١ ، والخربوطلي ، في كتابه « الاسلام والخلافة » ص ٩٠ .

(٨٤) انظر ملكة ، ابيض ، التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثة الاولى ص ٤١٠ .

(٨٥) ابو حنيفة الدينوري ، الاخبار الطوال ص٣٠٩ .

(٨٦) ابو حنيفة الدينوي ، الاخبار الطوال ص ٣٠٩.

(٨٧) الكندي ، الولاة والقضاة ص ١٤٣ . والنجوم الزاهرة ١٣٤/٢ - ١٣٥ .

(٨٨) النجوم الزاهرة ١٠١/٣ .

(٨٩) المرجع السابق ٩٠/٢ .

(٩٠) المقريزي ، خطط ٣٤٥/١ وما بعدها . وموسل، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية((ايلة)).

(٩١) حسان بن جراح الطائي : احد اسرة بني جراح من قبيلة طيء اليمنية الذين استقروا في فلسطين كان لهم دور في الحياة السياسية في الشام في نهاية القرن الرابع الهجري واوائل القرن الخامس ولكنهم لم يستطيعوا اطلاقا ان يؤسسوا دولة ولا ان تكون لهم عاصمة الا لفترة قصيرة جدا في الرمله . وتولى حسان بن جراح في سنة ٤٠٤ هـ وكون بالاشتراك مع صالح بن مرداس وسنان بن البنا حلفا ليستقلوا بالشام عن الدولة الفاطمية فتكون حلب لابن مرداس ودمشق لسنان بن البنا وفلسطين لابن جراح . وطلبوا معاونة الامبراطور البيزنطي فلم يسعفهم ، واستعان الفاطميون على محاربتهم بالقائد المشهور انوشتكين الدزبري . انظر المسبحي ، اخبار مصر ج ٤٠ ص ٣٥ ، حا : ١ .

(٩٢) المسبحي ، اخبار مصر ، ج ٤٠ ص ٢٤ - ٢٥ . المقريزي ، خطط ٣٤٧/١ ، اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا ١٤٣/٢ .

(٩٣) النجوم الزاهرة ٨٠/٥ .

(٩٤) محمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك ، ص١١٠ .

(٩٥) المقريزي ، السلوك م١ ج٣ ص ٧٨٣ . والنجوم الزاهرة ٣٦/٨ وما بعدها .

(٩٦) ابن كثير ، البداية والنهاية . حوادث سنة ٧٤٩ هـ ، ٢٢٥/١٤ وما بعدها .

(٩٧) موسل ، دائرة المعارف الاسلامية ((ايلة))وفارن ، المقدسي ، احسن التقاسيم ص ١٧٨ - ١٧٩ .

(٩٨) حول اهداف الصليبيين من احتلال أيلة والمنطقة المجاورة ، انظر :

Prawer, (J). The Latin Kingdom of Jerusalem, London, 1972, p.71

King. Knight Hospitallers, P. 115.

Lane pool, Saladin, p. 175.

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٣٢٧/١.

يوسف غوانمه ، امارة الكرك الايوبية ص ١٢٧وما بعدها .

(٩٩) William of tyer, A History of deeds done beyond the sea, vol. 1. P. 513.
وعاشور ، المرجع السابق والصفحة .
موسل ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية « أيلة » ، ومحمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك ص ٥ . وغوانمه ، المرجع السابق ص ٩٩ .

(١٠٠) ابن قاضي شهبة ، سيرة الملك نور الدين ، لوحة (٩٥) مخطوط ، نقلا عن غوانمه ص ٩٩ . وانظر عاشور ، المرجع السابق ٧١٥/٢ .

(١٠١) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ١١٠/٩ ، والمقريزي ، خطط ٣٤٧/١ . وابو شامه ، شهاب الدين ، كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ج١ ق٢ ص ٤٨١ . وابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ٢١٤/١ . والبنداري ، سناء البرق الشامي ، ١٠٩/١ . وسبط بن الجوزي ، مرآة الزمان ١٧٧/٨ ، وابن واصل ، مفرج الكروب ١٩٨/١ . وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ٥٢/٣ . وابن الوردي ، تتمة المختصر ٧٨/٢ ، وابن كثير البداية والنهاية ٢٦٣/١٢ . ورانسمان ٦٣١/٢ وعاشور ، المرجع السابق ٧١٨/٣ ومحمد عدنان البخيت ص ٧ . وغوانمه ص ١٢٨ .

(١٠٢) راجع نص هذه الرسالة في : ابو شامه ، الروضتين ٦١٩/١ — ٦٢١ . وابن واصل ، مفرج الكروب ٤٨٦/٢ — ٤٩٣ . والقلقشندي ، صبح الاعشى ٨١/١٣ — ٩٠ .

(١٠٣) يوسف غوانمة ، امارة الكرك ص ١٠١ .

(١٠٤) ابو شامه ، الروضتين ٣٥/٢ . وابن واصل، مفرج الكروب ١٢٧/٢ ، وغوانمه المرجع السابق والصفحة .

(١٠٥) يوسف غوانمة ، المرجع السابق والصفحة .

(١٠٦) ابو شامة المرجع السابق والصفحة . وابن واصل ، المرجع السابق والصفحة .

(١٠٧) دول الاسلام ٩٠/٢ .

(١٠٨) حول حملة ارناط هذه انظر : المقريزي ، السلوك ٧٨/١ — ٧٩ وخطط المقريزي ٣٤٧/١ ، ورحلة ابن جبير ص ٢٩ — ٣٠ ، والكامل لابن الاثير حوادث سنة ٥٧٧ هـ ١٥٩/٩ — ١٦٠ ، ومفرج الكروب ١٣٠/٢ ، ٣١٧/٣ — ٣١٨ ، وابو شامه ، الروضتين ٢٥/٢ ، وابن خلدون ، تاريخ ٢٩٩/٥ ، والحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٢٨٠/١ ، وسبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٢٣٦/٨ ، وفيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ٢٣٧/٢ ، ورانسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ٧٠٦/٢ وانظر ايضا :
Coder, The Latin Kingdom, p. 140, 381.
Stevenson, W.D, The Crusaders in the east,p.229.
King, Knight,. P. 115.
Lane poole, Saladin p. 176.
وسعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، ٧٨٤/٢ .

(١٠٩) جمع الدكتور الشيال رسائل القاضي الفاضل المتعلقة بهذه الحملة في آخر كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب ج ٢ من رقم ٧ — ١١ ص ٣١٢ — ٣١٨ . انظر يوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٣١ — ١٣٢ .

(١١٠) حسام الدين لؤلؤ : كان من كبار قواد صلاح الدين الايوبي ، وعرف بانه اشجع الشجعان والفرس الفرسان ، فهو الذي حطم الفرنج في بحر ايله وبر الحجاز وكان كثير المبرات واسع الخيرات اشترك في معارك عديدة ضد الصليبيين ، وفيه يقول الرضي بن ابي حصينه المصري مخاطبا الفرنج :

عدو لكم لؤلؤ والبحر مسكنه ... والدر في البحر لا يخشى من القبر

فامر حسامك ان يحظى بنحرهم ... فالدر من كان منسوبا الى البحر

توفي في القاهرة سنة ٥٩٦ هـ

انظر ابو شامه ، الروضتين ٢/٢٤٠ عاشور ، المرجع السابق ، ويوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٣٢ .

(١١١) حول هذه الحملة انظر : مصادر حملة ارناط السابقة وسعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٢/٧٨٧ وما بعدها . ويوسف غوانمة ، المرجع السابق ص ١٣١ — ١٣٢ .

(١١٢) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ٩/١٥٩ — ١٦٠ . وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٩ .

(١١٣) رابغ : مدينة على ساحل البحر الاحمر منها يمر الحجاج ، وهي تقع الى الشمال من جدة .

(١١٤) الحوراء : مدينة على ساحل وادي القرى ، بها مسجد جامع وبها ثمانية آبار عذبة وبها ثمار ونخل واهلها عرب من جهينه وبلي . انظر المقريزي ، خطط ١/٣٤٧ ، وصبح الاعشى ٣/٣٨٩ .

(١١٥) انظر حول هذه الحملة ايضا : الحنبلي ، الانس الجليل ١/٢٨١ . ابن واصل مفرج الكروب ٢/١٣١ ، ٣/٢١٦ ، ٣/٢١٨ . Conder, OP. cit., p. 147. وابو شامه ، الروضتين ٢/٣٥ والذهبي ، دول الاسلام ٢/٩٠ . وسبط ابن الجوزي ، ومرآة الزمان ٨/٢٣٥ . وتاريخ ابن خلدون ٥/٢٩٩ .

(١١٦) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ٨/٢٣٥ ، وابو شامه ، الروضتين ٢/٣٥ . وابن واصل مفرج الكروب ٢/١٢٨ . وابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر ٣/٦٩ . ورانسمان ، الحروب الصليبية ٢/٧٠٧ و Lane poole, Saladin p. 176. ويوسف غوانمة ، امارة الكرك ص ١٣٤ — ١٣٥ .

(١١٧) ابن جبير ، الرحلة ص ٣١ . انظر رسالة القاضي الفاضل الى الخليفة يصف فيها فتح ايلة في صبح الاعشى في صناعة الانشا ٧/٢٧ — ٢٨ .

(١١٨) تتمة المختصر في اخبار البشر ١٤٠/٢ .

(١١٩) موسل ، دائرة المعارف الاسلامية « أيله » ص ٢٠٨ .

(١٢٠) ابو الفداء ، تقويم البلدان ص ٨٧ . والقريزي ، خطط ١٨٤/١ ومحمد عدنان البخيت ، مملكة الكرك ص ٢٩ .

(١٢١) Gildden, M.W. The Mumluk Origin of the Fortified Khan At Al Aqaba, Jordan , Archaeologica Orientaliain memoriam , E . Hery Feld , NewYork, 1952, pp. 116-118.

(١٢٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٩ .

(١٢٣) وذلك على غير ما ذهب اليه جلدن اعتماداعلى ابن اياس ، ان خايربك رافق قانصوه الغوري سنة ٩٢٢ هـ ويمكن ان يكون قد قتل في تلك المعركة . انظر مقالة جلدن السابقة .

(١٢٤) انظر ابن اياس ، بدائع الزهور ، المرجع السابق ج ٥ ص ٣٩ وما بعد . وانظر ايضا ، الحميري الروض المعطار ص ٧١ .

(١٢٥) انساب السمعاني ، ٤٠٩/١ رقم (٢٩٠) .

(١٢٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٢٧٦ .

(١٢٧) الاغاني ، ٦٩/٧ . نسب لايلة اكثر من واحد بهذا الاسم ولم نتبين أيهم الذي عناه ابو الفرج الاصفهاني . انظر : البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦١٢/٢ .

(١٢٨) انظر على سبيل المثال ، المحبر ص ٣٧ ، والنجوم الزاهرة ٢٠٦/٦ – ٢٠٨ .

(١٢٩) اكتفينا بالتعريف بالمشهورين من العلماء الذين نسبوا الى ايله ، وذكرنا اسماء الآخرين ذكرا فقط . ولا ندعي ان هذه الاسماء هي كل مانسب الى أيله من علماء ومحدثين .

(١٣٠) انظر طبقات ابن سعد ٥٢/٧ ، وطبقات ابن خياط ، ص ١٩٦ ، ويحي بن آدم ، كتاب الخراج ، ((انظر يونس بن يزيد الايلي في فهرس الاعلام)) والبسوي ، المعرفة والتاريخ ١٣٩/١ . وانساب السمعاني ٤١٠/١ رقم (٢٩٠) والذهبي ، العبر ٢١٨/١ . وابن حجر ، تهذيب التهذيب ٤٥٠/١١ وما بعدها ، رقم (٧٦٩) .

(١٣١) المؤمنون آية ٦٧. عن عقيل انظر : طبقات ابن سعد ٥١٩/٧ . وطبقات ابن خياط ص ٢٩٥ . والبسوي ، المعرفة والتاريخ ١٢٤/١ و ٦٢٦/١ وصفحات متفرقة – انظر الفهرس . والذهبي ، سير اعلام النبلاء ٢٤١/٥ « يذكر ان الزهري كان امير جند » . وابن حجر ، تهذيب التهذيب ٢٥٥/٧ وما بعدها رقم (٤٦٧) .

(١٣٢) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ص : ١٩٩ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٤٥١ ، ابن الجوزي ، المنتظم ١٧٢/٦ . الذهبي ، تذكرة الحفاظ رقم « ٥٤٨ » ، ابن حجر ، تهذيب « ١٢ » ٦/١١–٧ . انساب السمعاني ٤١١/١ .

(١٣٣) ابن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب ١٥٣/٢ . ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٣٤٤/٩ رقم ٥٦٧ .

(١٣٤) البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦٥/٢، ١٧٥/٢، ٣٤٤/٣ /٣٣٢، ٣٦٧/٣ . انساب السمعاني « ٢٩٠ » ٤١٠/١ ، تهذيب ابن حجر « ٢٧٦ » ١٥٤/٨ .

(١٣٥) ابن سعد ، الطبقات ، ٥٢٠/٧ ابن خياط ص ٢٩٥ ، البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦٩٢/١ ، تهذيب ابن حجر (٥١٥) ٢٧٣/٣ .

(١٣٦) ابن سعد ، المرجع السابق ٥١٩/٧ . ابن خياط ص ٢٩٦ ، تهذيب ابن حجر (٤٧) ١٩/٥ – ٢٠

(١٣٧) البلاذري ، فتوح ص ٧١ .

(١٣٨) طبقات ابن سعد ٥٢/٧ ، البسوي ، المرجع السابق ٤٤/٣ ، الذهبي ، ميزان الاعتدال رقم (٤٧٤٣) ٥٢٤/٢ . تهذيب ابن حجر (٢٠٩) ١٠٣/٦ .

(١٣٩) طبقات ابن سعد ٥١٩/٧ . تهذيب ابن حجر « ٦٢٨ » ٣٢٤/١١ .

(١٤٠) البسوي ، المعرفة والتاريخ ١٦٣/١ . ابن حجر ، تهذيب رقم (٨٨٥) ٤٧٦/٢ .

(١٤١) البسوي ، المعرفة ٥٨٤/١ ، ٦٩٠/٢ . ابن حجر ، تهذيب (٩٠٨) ٤٨٧/٢ .

(١٤٢) ابن حجر ، تهذيب (٢٧٢) ٢٣١/١١ .

(١٤٣) ابن حجر ، تهذيب (٦٢٩) ٣٧٤/٤ – ٣٧٥ .

(١٤٤) ابن حجر ، تهذيب (٢٢٦) ١٢٣/٣ .

(١٤٥) ابن عساكر التهذيب تاريخ دمشق ٣٩٧/٤ .

(١٤٦) ن.م. ٣٥٩/٤ .

(١٤٧) ن.م. ١٩٨/٥

(١٤٨) ابن حجر ، تهذيب (٤١٧) ٢٢٥/١ – ٢٢٦ .

(١٤٩) الاسنوي ، طبقات الشافعية ١٢٣/١ رقم (١٠١) .

(١٥٠) ابن حجر ، تهذيب التهذيب ٢٢٨/١ رقم (٥٢٨) .

(١٥١) البسوي ، المعرفة والتاريخ ٦٩٩/١ .

(١٥٢) طبقات ابن سعد ٥٢٠/٧ .

(١٥٣) شذرات الذهب ٣٥/٧ .

(١٥٤) الهمداني ، الاكليل ٢٣٢/٨ .

(١٥٥) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٢٧٦ .

(١٥٦) الاغاني ٦٩/٧ .

(١٥٧) الكندي ، الولاة والقضاة ص ٤٠٧ .

(١٥٨) ياقوت ، معجم البلدان « أيله » .

(١٥٩) الاكليل ٢٠٥/٨ .

(١٦٠) النجوم الزاهره ١٥٧/٣ .

(١٦١) المرجع السابق ٢٠٢/٣ – ٢٠٣ .

(١٦٢) الطبقات الكبرى ٥٥٤/٧ .

(١٦٣) البسوي ، المعرفة والتاريخ « عن العباس بن عبد العظيم » ٦٢١/١ .

ثبت المصادر والمراجع « حسب الحروف الهجائية » .

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس ، العهد القديم ، جمعيات الكتاب المقدس ١٩٥٢ .
- ابيض ، ملكة ، التربية والثقافة العربية الاسلامية في الشام والجزيرة في القرون الثلاثة الاولى . دار العلم للملايين ، ط ١ بيروت ١٩٨٠ .
- ابن الاثير ، ابي الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الاثير الجزري الملقب بعز الدين المتوفى ٦٣٠ هـ .
الكامل في التاريخ ، عني بمراجعة أصوله والتعليق عليه نخبة من العلماء ، دار الكتاب العربي ، ط ، بيروت ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- الاحمدي ، علي بن حسينعلي ، مكاتب الرسول ، دار صعب للطباعة بيروت ، بت .

- الاسنوي ، جمال الدين عبد الرحيم ت ٧٧٢ هـ ، طبقات الشافعية ، تح . عبد الله الجبوري ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٣٩٠ هـ — ١٩٧٠م.

- الاصطخري ، ابي اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي ، المسالك والممالك ، تح . دي جويه ، طبعة بريل ١٩٢٧ م .

- الاصفهاني ، ابي الفرج علي بن الحسين ت ٣٥٦ هـ — ٩٧٦ م « كتاب الاغاني » مصور عن طبعة دار الكتب مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت لبنان .

- الاصفهاني ، الحسن بن عبد الله ، بلاد العرب، تح . حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامه — الرياض ، ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

- الاصفهاني ، عماد الدين الكاتب ، « خريدة القصر وجريدة العصر » ، القسم العراقي ، ج١ ، تح . محمد بهجة الاثري وجميل سعيد ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٥ م .

- الافغاني ، سعيد ، « أسواق العرب في الجاهلية والاسلام » ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٣ ، بيروت ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م .

- الالوسي ، محمود شكري « بلوغ الارب في معرفة احوال العرب » ، تح . محمد بهجة الاثري ، ط٣، مصر ١٣٤٢ هـ .

- أمين احمد « فجر الاسلام » ط ١٠ ، مصر ، ١٩٦٥ .

- الاندلسي ، ابي القاسم صاعد بن احمد بن صاعد ت ٤٦٢ هـ — (١٠٦٩ / ١٠٧٠ م) ، « طبقات الامم » تح . لويس شيخو اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية للاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩١٢ م .

- الانصاري ، شيخ الربوه شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي ، « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » ، نشر A. Mehren ليبزغ ١٩٢٣ م .

- ابن اياس ، محمد بن احمد بن اياس الحنفي، « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، دار الفكر ، بيروت ، بت .

- ابن اياس ، محمد بن احمد ، « بدائع الزهور في وقائع الدهور » ، ج٥ ، تح محمد مصطفى ، ط٢، القاهرة ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م .

- باركر ، ارنست ، « الحروب الصليبية » ترجمة الباز العريني ، مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ١٩٦٠ م .

- البخيت ، محمد عدنان ، « مملكة الكرك في العهد المملوكي » ط ١ ، عمان ١٩٧٦ م .

- بروكلمان ، كارل « تاريخ الشعوب الاسلامية » نقله الى العربية نبيه امين فارس ، ومنير البعلبكي، ط٥ ، بيروت ١٩٦٨ .

- البسوي ، ابي يوسف يعقوب بن سفيان ، ت ٢٧٧ ، « المعرفة والتاريخ » رواية عبد الله بن جعفر بن درستويه النحوي ، تح . اكرم ضياء العمري ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

- ابن بطوطة ، محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي ، ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤ م - ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م « رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار » دار الكتاب اللبناني دار الكتاب المصري .

- البلاذري ، ابي الحسن احمد بن يحي بن جابر ، ت ٢٧٩ هـ « انساب الاشراف » ج٥ طبعة القدس ١٩٣٦ م .

- البلاذري ، « فتوح البلدان » عني بمراجعته والتعليق عليه ، رضوان محمد رضوان ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٩ م .

- البنداري ، قوام الدين الفتح علي بن محمد البنداري الاصفهاني ، ت ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م ، « سنا البرق الشامي » ، مختصر البرق الشامي لعماد الدين الكاتب الاصفهاني ت ٥٩٧ هـ - ١٢٠٠ م تح . فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم ، الهيئة العامة للكتاب ، القاهره ١٩٧٤ م .

- ترتون ، دكتور آ. س ، ترتون « اهل الذمة في الاسلام » ترجمة وتعليق حسن حبشي ، دار المعارف ط ٢ مصر ١٩٦٧ م .

- الجاحظ ، ابي عثمان عمرو بن بحر « البيان والتبيين » ، دار الفكر للجميع ١٩٦٨ م .

- الجاسر ، حمد ، « ابو علي الهجري وابحاثه في تحديد المواضع » ، ط ١ ، دار اليمامة ، الرياض ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

- ابن جبير ، ابي الحسن محمد بن احمد الاندلسي ، ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧ م « رحلة ابن جبير المسماة : تذكرة الاخبار في اتفاقات الاسفار » تح . حسين نصار ، القاهرة ١٩٢٥ م .

- ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد علي ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م ، « المنتظم في تاريخ الملوك والامم » ، حيدر أباد - الهند ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٥ .

- ابن الجوزي ، سبط ، شمس الدين ابو المظفر يوسف ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م « مرآة الزمان في تاريخ الاعيان » ج ٨ ، مخطوط ، مكتبة بلدية الاسكندرية رقم ١٨٧٨ ب .

- ابن حبيب ، ابي جعفر محمد ت ٢٤٥ هـ ، « المحبر » رواية ابي سعيد الحسن السكري ، اعتنت بتصحيحه ، ايلزه ليختن شتير ، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت .

- حتى ، فيليب ، « تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين » ترجمة جورج حداد ، وعبد الكريم رافق ، مراجعة جبرائيل جبور ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٨ م.

- ابن حجر ، شهاب الدين ابي الفضل ابن حجر العسقلاني ، ت ٨٥٢ هـ ، « تهذيب التهذيب » ط١ ، الدكن ، الهند ١٣٢٥ هـ .
- الحربي ، ابي اسحاق ابراهيم بن اسحاق بن بشر بن عبد الله « كتاب المناسك واماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة » تح. حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- ابن حزم ، ابي محمد علي بن احمد بن سعيد الاندلسي ، « جمهرة انساب العرب » تح . عبد السلام هارون - دار المعارف بمصر ١٣٩١ - ١٩٧١ م .
- حسيني ، مولوي س . ا . ق . « الادارة العربية » ترجمة ابراهيم احمد العدوي مراجعة : عبد العزيز عبد الحق ، اشراف وزارة الثقافة العامة - مصر ١٣٧٨ - ١٩٥٨ م .
- الحلبي الشافعي ، علي بن برهان الدين . « انسان العيون في سيرة الامين والمامون» المعروفة بالسيرة الحلبية وبهامشها السيرة النبوية لزيني دحلان ، المطبعة الازهرية بمصر ط ٣ ١٣٥١ هـ/١٩٣٢ م.
- الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله ياقوت الحموي الرومي البغدادي ، « معجم البلدان » ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .
- الحموي ، « المشترك وضعا والمفترق صقعا » ،مكتبة المثنى ، بغداد .
- حميد الله ، محمد « الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة » ط ٣ بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- الحميري ، محمد بن عبد المنعم « الروض المعطار في خبر الاقطار » تح . احسان عباس ، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥ م .
- الحنبلي ، ابي الفلاح عبد الحي بن العماد ت ١٠٨٩ هـ « شذرات الذهب في اخبار من ذهب » عن نسخة المصنف المحفوظة في دار الكتب المصرية دار المسيرة ، ط٢ بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .
- الحنبلي ، ابي اليمن القاضي مجير الدين ت ٩٢٧ هـ - ١٥٢١ م « الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل » المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .
- ابن حوقل ، ابي القاسم بن حوقل النصيبي « صورة الارض » منشورات مكتبة الحياة ، بيروت .
- الخربوطلي ، علي حسني ، الاسلام والخلافة ، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٩ م .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد المغربي ت ٨٠٩ هـ « تاريخ ابن خلدون المسمى بالعبر وديوان المبتدا والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر » . بتصحيح وعناية : علال الفاسي وعبد العزيز بن ادريس المغربي ، وتعليق الامير شكيب ارسلان ، مصر ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م .
- ابن خياط ، ابي عمرو خليفة بن خياط شباب العصفري ت ٢٤٠ هـ ، « كتاب الطبقات » رواية ابي عمران موسى بن زكريا التستري ، تح . اكرم العمري ، مطبعة العاني ، بغداد ١٣٨٧ هـ /١٩٦٧ م .

- الدباغ ، مصطفى مراد ، « بلادنا فلسطين » ج١ ق٢ ، ط١ ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦ م .
- الدينوري ، ابي حنيفة احمد بن داود ت ٢٨٢هـ « الاخبار الطوال » ، تح . عبد المنعم عامر ، مراجعة الدكتور جمال الدين الشيال ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ط١ ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- الذهبي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ ، « دول الاسلام » ، . حيدر اباد الدكن مطبعة المعارف النظامية ١٣٣٧ هـ ـ ١٩١٨ م .
- الذهبي ، نفسه ، « تذكرة الحفاظ » ط٣ ، المطبعة الهندية ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م .
- الذهبي ، نفسه ، « العبر في خبر من غبر » ج١ تح . صلاح الدين المنجد الكويت ١٩٦٠ م .
- الذهبي ، « ميزان الاعتدال في نقد الرجال » القسم الرابع ، تح . علي محمد البجاوي ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، بت .
- رانسمان ، ستيفن ، « تاريخ الحروب الصليبية » ترجمة الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ م .
- زكي ، عبد الرحمن ، « الجيش المصري في العصر الاسلامي » مطبعة الكيلاني ، القاهرة ١٩٧٠ م .
- سالم ، سيد عبد العزيز ، « تاريخ العرب في العصر الجاهلي » بيروت ، ١٩٧١ .
- السبكي ، تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي ، ٧٢٧ ـ ٧٧١ هـ ، « طبقات الشافعية الكبرى » تح ، محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو ، ط١ ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، مصر ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م .
- ابن سعد ، محمد ، « الطبقات الكبرى » دار بيروت ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٧ م
- ابن سعيد الاندلسي ، ابي الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك « نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب » تح . نصرت عبد الرحمن ، مكتبة الاقصى عمان ، الاردن ١٩٨٢ م .
- السمعاني ، ابي سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي ت ٥٦٢ هـ ١١٦٦ م « الانساب » تصحيح وتعليق الشيخ عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني ، « امين مكتبة الحرم المكي » دائرة المعارف العثمانية ط ١ ، حيدر اباد ، الهند ، ١٣٨٢ هـ ـ ١٩٦٢ م .
- ابن سيد الناس ، فتح الدين ابو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحي بن سيد الناس الشافعي ت ٧٣٤ هـ ، « عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير » دار الجيل ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٧٤ م .
- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر ت ٩١١ هـ « تاريخ الخلفاء » تح . محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٣ ، مطبعة المدني القاهرة ١٣٨٣ ـ ١٩٦٤ م .

- أبو شامة ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي « الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية » ج١ ق٢ تح . محمد حلمي محمد احمد ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ١٩٦٢ م .
- ابن شداد ، القاضي بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عتبه ت ٦٣٢ هـ - ١٢٣٤ م . « كتاب سيرة صلاح الدين » المسماة « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » مطبعة التمدن ، القاهرة ١٩٠٣ .
- شيخو ، لويس ، « النصرانية وادابها بين عرب الجاهلية » المطبعة اليسوعية ، بيروت ١٩٢٣ م .
- الطبري ، ابي جعفر محمد بن جرير « تاريخ الرسل والملوك » تح . محمد ابو الفضل ابراهيم دار المعارف ، مصر ١٩٦٠ - ١٩٦٩ م .
- الظاهري ، غرس الدين خليل بن شاهين « زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك » اعتنى بتصحيحه ، بولس راويس ، باريس ١٨٩٤ م
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، الحركة الصليبية ، ط١ ، القاهرة ١٩٦٣ م .
- ابن عبد ربه الاندلسي ، أحمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ « العقد الفريد » تح . محمد سعيد العريان ، دار الفكر ، بيروت .
- ابو عبيد ، القاسم بن سلام ، ت ٢٢٤ هـ « الاموال » تح . محمد خليل هراس ، ط١ ، القاهرة ١٣٨٨ - ١٩٦٨ م .
- ابن عساكر ، ثقة الدين ابو القاسم علي بن هبة الله الشافعي ت ٥٧١ هـ « تاريخ دمشق » م١ تح . صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، بت . « وتهذيب تاريخ دمشق » هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران ، ت ١٣٤٦ هـ ، دار المسيرة ، ط٢ بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ .
- العماد الاصفهاني ، ابي عبد الله محمد بن صفي الدين ، ابو الفرج محمد بن نفيس ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠ « الفتح القسي في الفتح القدسي » تح . محمد محمود صبح ، القاهرة ١٩٦٥ .
- علي جواد ، « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » بيروت ، ١٩٦٨ م
- العلي ، صالح « محاضرات في تاريخ العرب » ، بغداد ١٩٦٨ م .
- كرد علي ، محمد « الاسلام والحضارة الاسلامية » ط٣ ، القاهرة ١٩٦٨ م .
- كرد علي ، محمد ، « كتاب خطط الشام » دمشق ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م .
- العمري ، شهاب الدين احمد بن فضل الله ت ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م ، « مسالك الابصار في ممالك الامصار » ج١ حققه احمد زكي باشا ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٠٤ م .
- غوانمة ، يوسف حسن درويش ، « امارة الكرك الايوبية » ط٢ عمان ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .

- ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر ت ٧٣٢ هـ « تقويم البلدان » . تح . رينود وماك كوكين دي سلان ، باريس ١٨٤٠ .
- ابو الفداء « المختصر في اخبار البشر المسمى بتاريخ ابي الفداء » دار المعرفة بيروت - لبنان .
- ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٨٠٧ هـ / ١٤٠٥ م « تاريخ الدول والملوك » نشر باسم تاريخ ابن الفرات تح. قسطنطين زريق ومشاركة نجلاء عز الدين ، المطبعة الاميركانية بيروت ١٩٣٦ - ١٩٤٢ .
- ابن قاضي شهبة ، بدر الدين محمد بن ابي بكر بن قاضي شهبه الاسدي الدمشقي ت ٨٧٤ هـ /١٤٦٩م « سيرة الملك العادل نور الدين الشهيد » مخطوط ، بلدية الاسكندرية رقم ١٣٣٦ب .
- ابن قتيبة ، ابي محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٦ / ٨٨٩ م « الشعر والشعراء » نسخة ليدن - بريل ١٩٠٢ م .
- ابن قتيبة ، « المعارف » تح . ثروة عكاشة ، ط ٢ ، دار المعارف مصر ١٩٦٩ .
- قدامه بن جعفر « الخراج وصناعة الكتابة » شرح وتعليق محمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١ م .
- القرشي ، يحي بن آدم ت ٢٠٣ هـ « كتاب الخراج » صححه وشرحه الشيخ احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية ، ط٢ ١٣٨٤ هـ .
- القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، « آثار البلاد واخبار العباد » دار صادر بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .
- القلقشندي ، ابو العباس احمد بن علي بن احمد بن عبد الله بن ابي اليمن ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م « صبح الاعشى في صناعة الانشا » القاهرة ١٩٦٣ « نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية » .
- ابن كثير ، عماد الدين اسماعيل بن كثير الدمشقي ابو الفداء ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٢ م . « البداية والنهاية » مكتبة المعارف ، بيروت ومكتبة النصر ، الرياض ط ١ ، ١٩٦٦ م .
- ابن الكلبي ، ابو المنذر هشام بن محمد ت ٢٠٦ هـ « جمهرة النسب » رواية محمد بن حبيب ، مخطوط مصور .
- الكندي ، ابو عمر محمد بن يوسف الكندي المصري « كتاب الولاة وكتاب القضاة » تهذيب وتصحيح رفن كست مطبعة الاباء اليسوعية ، بيروت ١٩٠٨ م .
- ابو المحاسن ، جمال الدين يوسف بن تغري بر دي الاتابكي ، « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م .
- المسعودي ، ابي الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦ هـ « التنبيه والاشراف دار التراث ، بيروت ١٣٨٨ هـ ١٩٦٨ م .

- المقدسي ، شمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد بن ابي بكر البناء البشاري ت ٣٨١ هـ – ٩٩٢ م « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » دار خياط بالافسست عن طبعة بريل ١٩٠٦ .

- المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي ،ت ٨٤٥ هـ « اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفا » تح . محمد حلمي محمد احمد ، القاهرة ١٣٩٠ هـ ١٩٧١ م .

- المقريزي ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار المعروف بالخطط المقريزية » دار التحرير للطبع والنشر عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .

- المقريزي ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية » دار التحرير مطبعة دار الكتب القاهرة ، ١٩٧٠ – ١٩٧٣م.

- المسبحي ، الامير المختار عز الملك محمد بن عبيد الله بن احمد (٣٦٦ – ٤٢٠ هـ / ٩٧٧ – ١٠٢٩م) « اخبار مصر ج ٤٠ ، تح . ايمن فؤاد سيد وتياري بيانكي (١) القسم التاريخي ، المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية القاهرة ، بت .

- ابن منظور ، ابي الفضل جمال الدين محمد مكرم الافريقي المصري ، « لسان العرب »

- موسل ، دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية مادة « ايلة » .

- نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الادنى القديم ، القسم الثالث « سورية » دار المعارف ، ط٣ مصر ١٩٦٦ م .

- النووي ، ابي زكريا محي الدين بن شرف ت ٦٧٦ هـ « تهذيب الاسماء واللغات » ادارة الطباعة المنيرية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنـان .

- ابن هشام ، ابي محمد عبد الملك ، ت ٢١٣ هـ « السيرة النبوية » تح . مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ، ط٢ ، مصر ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .

- الهمداني ، ابي بكر احمد بن محمد المعروف بابن الفقيه « مختصر كتاب البلدان ، طبع في مدينة ليدن ، بمطبعة بريل ١٣٠٢ هـ » .

- الهمداني ، ابي محمد الحسن بن احمد بن يعقوب المتوفى ما بين ٣٥٠ – ٣٦٠ هـ « الاكليل » ج ٨ تح . محمد بن علي الاكوع ، دمشـق ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م .

- الهمداني « صفة جزيرة العرب » تح . محمد بن علي الاكوع ، دار اليمامة ، الرياض ١٣٩٣ هـ ، ١٩٧٤ م .

- الواقدي ، محمد بن عمر بن واقد ت ٢٠٧ هـ « كتاب المغازي » تح . مارسدن جونس منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، لبنان.

- ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م . « مفرج الكروب في اخبار بني ابوب » ج١ ـ ٣ تح . جمال الدين الشيال ،المطبقة الاميرية ، القاهرة ١٩٥٣ ـ ١٩٦٠ م ، ج ٤ ـ ٥ تح . حسنين ربيع وسعيد عاشور ،مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧ م .
- ابن الوردي ، زين الدين عمر « تتمة المختصر في اخبار البشر المسمى بتاريخ ابن الوردي » تح . احمد رفعت البدراوي ، دار المعرفة ، ط ١ بيروت ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٧٠ م .
- ولفنسون ، اسرائيل « تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام » مصر ١٩٢٧ م .
- اليعقوبي ، أحمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب ت ٢٨٤ هـ « كتاب البلدان » ط٢ المطبعة الحيدرية ،النجف ١٢٧٧ هـ ـ ١٩٥٧ م .

المراجع الاجنبية :

1) Conder, G.R. « **The Latin Kingdom of Jerusalem** » London, 1943.

2) Fulcher of chartres, «**A History of the expedition to Jerusalem**»1095-1127, trans. by France, Ritaryan Hew york, 1973.

3) A. Smith, **Historical Geography at the Holy Land**, (London 1824; 1968)

4) H.W. Glidden, 1. E 2, vol. 1, PP. 783-84.

5) King, E, **The Knights Hospitallers in The Holy-land**, London, 1943.

6) Lane poole, «Stanly» «**Saladin and The Fall of The Kingdom of Jerusalem** Beirut, 1964.

7) Prawer, J « **The latin Kingdom of Jerusalem**, London, 1872.

8) Schlumberger «G» «**Renaul de chatillon**, Paris, 1898.

9) Stevenson, W. D, «**The Crusaders in The East**» Beirut, 1968.

2 Vol., trans. by Emily Atwater Babcock and A.C. Kry, Newyork, Columbia
2vol., trans. by Emily Atwater Babcock and A.C. Kry, Newyork, Columbia
University Press. 1943.

الدوريات

(١) مفيد رائف العابد ، حول مصادر تاريخ العرب، مجله دراسات تاريخية ، دمشق العدد ١٩٨١/٦ م ، ص ١٢٩ وما بعدها .

H. W. Glidden, The Mamluk Origin of the fortified Khan At Al-Aqabah, Jordan.

(٣) Archaelogica Orientaliain memoriam, E. Heryfeld, Newyork 1952, pp. 116-118.

(٢) N. Glueck , Bulletin of the American School of oriental Research , 71 (1938) PP. 3f, 75 (1939) 8f.

* * *

حدود الجزيرة الفراتية
عند الاصطخري وابن حوقل
(بين شمشاط وسميساط)

د . عبد المرشد العزاوي
جامعة دمشق

لاحظنا في كتاب مسالك الممالك للاصطخري ، وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل . وفي تقويم البلدان لابي الفداء ، وجود اختلاف فيما اوردوه عن الحدود الشمالية لاقليم الجزيرة الفراتية . فهناك اختلاف بين ما ورد عند الاصطخري وبين ما ورد عند ابن حوقل الاخذ عنه بالنسبة للمكان الذي تبدأ منه الحدود ، واتفاق على المكان الذي تنتهي اليه ، واختلاف كبير بين ما ورد عند الاصطخري وبين ماهو وارد عند ابي الفداء، كما نلاحظ تناقضا واضحا بين الحدود الواردة عند الاصطخري وبين المبدأ الذي سار عليه في تقسيم العالم الاسلامي الى اقاليم جغرافية ذات حدود طبيعية بارزة .

هذا ولقد تبين لنا بعد البحث ، بان هذا الاختلاف مختلق ، احدثه النساخ بخلطهم بين مدينتين من مدن الفرات في اكثر من موضع هما : شمشاط الواقعة على مجرى نهر مراد ، وسميساط الواقعة على مجرى نهر الفرات بعد خروجه من جبال طوروس ولم يتنبه المحققون لهذا الخلط ، فجاءت النصوص عند الاصطخري وعند ابن حوقل على غير حقيقتها . كما واظهر التصويب الذي اجريناه في نصوص الاصطخري وابن حوقل ،بان نظرة الجغرافيين الثلاثة الى الحدود الشمالية للجزيرة واحدة في الاصل ، وهي متفقة في ان القوس المائي الذي يرسمه المجرى الادنى لنهر مراد ومجرى نهر الفرات من مصب نهر مراد الى وصوله الى ملطية هو الحد الطبيعي والاداري للجزيرة في الشمال ، الامر الذي سوف تكون له اهميته في دراسة الكثير من الاحداث التاريخية التي جرت في المنطقة والتي تباينت وجهات النظر في نسبتها الى الجزيرة أو لخارجها .

لذا ، فاننا نتوجه بالرجاء الى لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، ان تقوم باعادة طباعة كتابي الاصطخري وابن حوقل ، بعد أن تعيد تحقيقهما تحقيقا دقيقا ، وذلك لما لهذين الكتابين من أهمية جغرافية وتاريخية كبيرة والله الموفق .

* * *

جاء في كتاب الاصطخري « مسالك الممالك » ما يلي : « وأما الجزيرة فانها بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر . ومخرج الفرات من داخل بلد الروم من ملطية على يومين **ويجري بينها وبين سميساط** * ويمر على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرقة وقرقيسيا ** والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة ، ثم يعدل حد الجزيرة في سمت الشمال الى تكريت وهي على دجلة حتى ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثم يتجاوز آمد فينقطع حد دجلة على بعد من حد ارمينية . **ثم يمتد مغربا الى سميساط** . ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدانا ، ومخرج دجلة فوق آمد من حد بلد الارمن وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى **الجزيرة وهي خارجة عنها لقربها منها » (١ ، ٢ ، ٣) .**

ارض الجزيرة*

وامّا الجزيرة فانّها ما بين دجلة والفرات وتشتمل على ديار ربيعة ومضر ومخرج الفُرات من داخل بلد الروم من ملطية على يومين ويجرى بينها وبين سُمَيْسَاط ويمرّ على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرَّقّة وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وقد انقطع حدُّ الفُرات ممّا يلى الجزيرة ثم يعدل حدُّ الجزيرة فى سمت الشمال الى تكريت وهى على دجلة حتّى ينتهى عليها الى السنّ ممّا يلى الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ثمّ يتجاوز آمد فينقطع حدُّ دجلة على بعد من حدّ ارمينية ثمّ يمتدُّ مغرباً الى سميساط ثمّ ينتهى الى مخرج ماء الفرات فى حدّ الاسلام من حيث ابتدانا ومخرج دجلة فوق آمد من حدّ بلد الارمن وعلى شرقىّ دجلة وغربىّ الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وهى خارجة عنها لقربها منها

الشكل (١)

النص كما ورد عند الاصطخري ، تح . دي جويه ، ص ٧١ – ٧٢

صورة مشابهة لما ورد عند الاصطخري في حدود الجزيرة نراها عند ابن حوقل في كتابه « صورة الارض » ، مع تعديل طفيف حيث يقول :

---

* اشار دي جويه في هامش كتاب مسالك الممالك الى ورودها في المخطوطة (D) باسم شمشاط .

** الاسم الحالي لقرقيسيا هو البصيرة ، ولآمد ديار بكر .

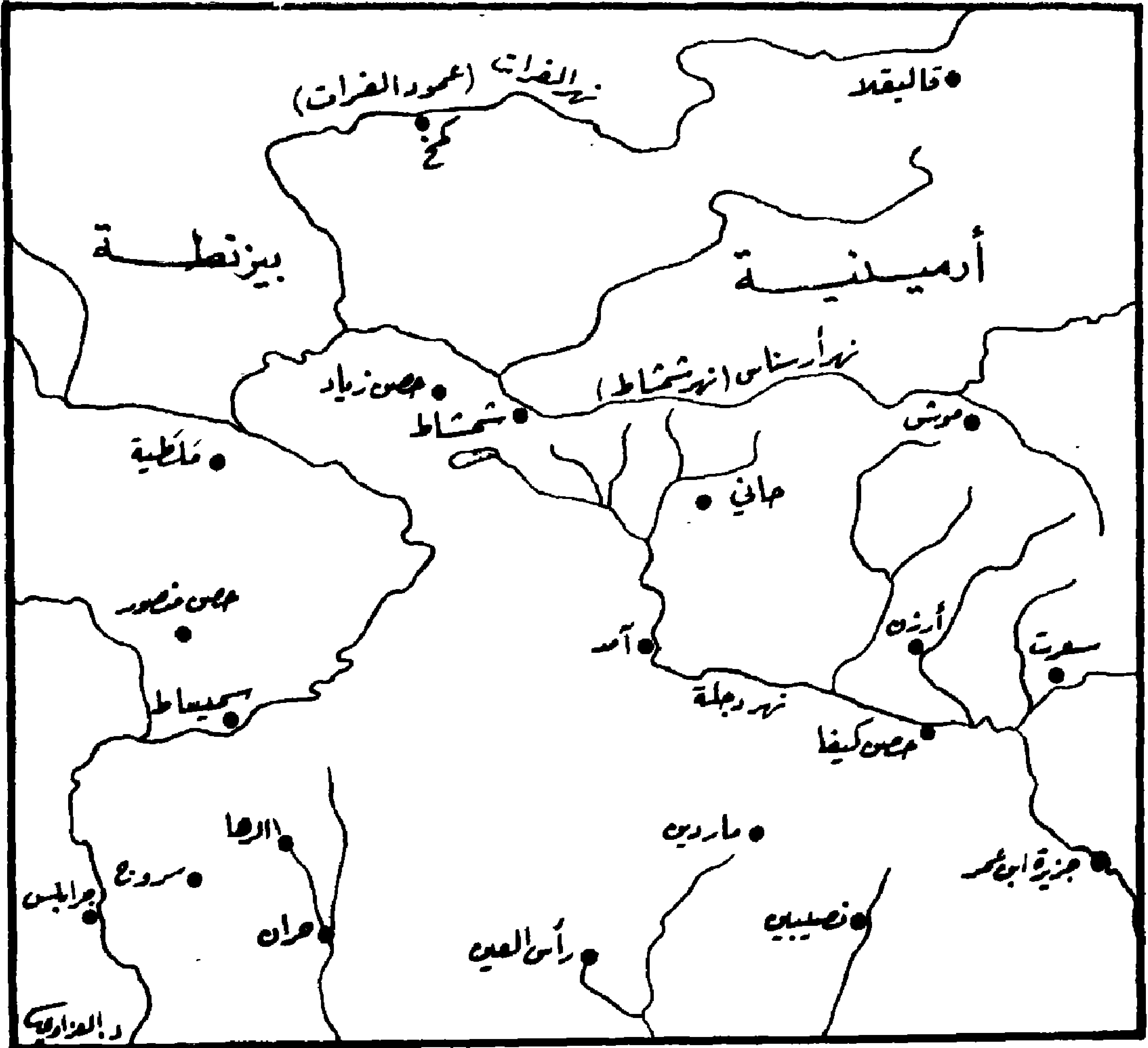
« فأما الجزيرة التي بين دجلة والفرات فتشتمل على ديار ربيعة ومضر ومخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما شكلته مجتازا من ملطية على **يومين ، ويجري بينها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين** ، ويمر على سميساط ونواحي جسر منبج على بالس الى الرقة وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار ، وينقطع الحد عن الفرات مما يلي الجزيرة بالانبار ثم يعود حد الجزيرة الى سمت الشمال فيكون الحد العراق وتكريت على دجلة وينتهي الحد منها مصاعدا على دجلة الى السن مما يلي الجزيرة والى الحديثة والموصل ، ويصعد بصعود دجلة الى الجزيرة المعروفة بابن عمر ثم يتجاوزها الى آمد . فيكون مافي غربها من حد ارمينية ، **ثم يعود الحد مغربا على البر الى سميساط** ، ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتداؤه ، وعلى شرقي دجلة . وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وهي خارجة عنها ونائية منها » . (٤) .

اما ابو الفداء وهو الثالث بين الجغرافيين العرب الذين ذكروا حدود الجزيرة بالتفصيل فقد قال : « الجزيرة هي البلاد التي بين دجلة والفرات ، وقد ضموا كثيرا من البلاد الفراتيـة التي في الجانب الاخـر من الفـرات من بر الشام الى الجزيره لقربها من البلاد الجزرية مثل الرحبة وغيرها ، **والذي يحيط بالجزيرة الفرات من حدود بلاد الروم وهو طرف الحد الغربي الجنوبي للجزيرة ، فيمتد الحد الجنوبي الغربي مع الفرات الى ملطيه الى سميساط** الى قلعة الروم الى البيرة الى قبـالة منبج الى بالس الى الرقة الى قرقيسيا الى الرحبة الى هيت الى الانبار ، ومن الانبار يخرج الفرات عن تحديد الجزيرة ، ثم يعطف الحد من الانبار الى تكريت وهي على دجلة الى السن الى الحديثة على دجلة الى الموصل الى جزيرة ابن عمر الى آمد . ثم يصير الحد غربيا ممتدا بعد أن يتجاوز آمد على حدود ارمينية **الى حدود بلاد الروم الى الفرات عند ملطية من حيث ابتدأنا** ، فعلى هذا يكون بعض ارمينية وبعض الروم غربي الجزيرة وبعض البادية جنوبيها والعراق شرقيها وبعض ارمينية شماليها ، **والجزيرة تشتمل على ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر »(٥) .**

في هذه النصوص الثلاثة المبينة لحدود الجزيرة اختلاف في الحد الشمالي ملفت للنظر ، فما ورد في النص عند الاصطخري يدفع بالحدود الشمالية للجزيرة الى الجنوب من حدها المائي الطبيعي المتمثل بالمجرى الادنى لنهر شمشاط (نهر ارسناس كما اسمته الروم ومرادصو كما يسميه الاتراك) وذلك في قوله : **« ثم يعود الحد بعد**

آمد مغربا الى سميساط ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتداؤه » ، أما ابن حوقل فهو بالرغم من اشارته الى بداية الحدود على نهر شمشاط الا انه عاد فانهاها عند سميساط . بينما نجد ابا الفداء يبدأ بالحدود مع الفرات قبل وصوله الى ملطية ويعود بها الى حيث ابتدأ ، مشيرا اشارة غيرة صريحة الى مجرى نهر شمشاط كحد شمالي للجزيرة ، وذلك في مده للحدود بعد آمد باتجاه الغرب على حدود ارمينية ، وحدود ارمينية في هذا الجزء من الجزيرة هي مجرى نهر شمشاط (انظر في الخريطة المرفقة) . هذا الاختلاف جعلنا نتوقف عن رسم الحدود الشمالية للجزيرة عند وضعنا لخريطة النقاط الاهلة وطرق المواصلات في الجزيرة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي / ، الى ان نتعرف على أسبابه .

شمالي الجزيرة الفراتية



شكل (٢)

٠ ٢٥ ٥٠ ٧٥ ١٠٠ ١٢٥ كم

يقول ابن رستة في حديثه عن الاقليم الرابع : « ومن مدنه سرمن راى والموصل **وبلد ونصيبين وآمد وراس العين وقاليقلا وشمشاط وحران ... » ويقول أيضا :** « وكور الجزيرة ارزن وميافارقين وآمد وسميساط وقردي وبازبدي وبلد ونصيبين **ودارا وراس العين وقرقيسيا والرقة وسروج وحران ورها* وراس كيف ** وشمشاط»** كما يقول : « ومن كور الجزيرة مما يسمى الثغور **شمشاط** وملطية وزبطرة **ومرعش والحدث وسميساط وحصن منصور ، وتقسم كور الجزيرة كلها الى قسمين:** قسم يسمى ديار ربيعة وقسم يسمى ديار مضر » (٦) . وأورد ابن خرداذبة مدينه شمشاط في عداد الثغور الجزرية وهي : سلغوس وكيسوم وشمشاط وملطية وزبطرة والحدث ومرعش وكمخ وحصن منصور وقوروس ودلوك ورعبان ، وقال ابو الفداء : « قال في اللباب : وشمشاط بلدة بالثغور الجزرية بين آمد وخرت برت *** (٧) . وادخل ياقوت الحموي مدينة شمشاط في الجزيرة في ديار مضر ، حيث عرف ديار مضر بقوله : « وهي ماكان في السهل بقرب من شرقي الفرات نحو حران والرقة وشمشاط وسروج وتل موزن » (٨) ، كما قال فيها : « شمشاط مدينة على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت . وهي الان محسوبة من اعمال خرتبرت »(٩) وقال الاصطخري نفسه عند حديثه عن الشام : « وشمشاط هي ثغر الجزيرة لانها في غربي دجلة وشرقي الفرات ، وأما ملطية وما ذكرناه من ثغور الشام فانما نسبناها الى الجزيرة لان اهلها يرابطون بها لقربهم منها ، والا فثغر الجزيرة على الحقيقة **شمشاط » (١٠ ــ ١١) . كما ورد في مخطوطة كتاب الاقاليم للاصطخري وهو الاسم** الاخر لكتاب مسالك الممالك ، قوله : « .. .واما ملطية وماذكرناه من الثغور في ثغر الشام فانها تنسب الى ثغور الجزيرة لان أهل الجزيرة ينتابونها لقربها منهم ، والثغر الذي هو من صلب الجزيرة شمشاط » (١٢) . وقال قدامه في ذكر الطرق والمسافات : « وبين آمد وشمشاط بقرب ثغور الروم سبعة فراسخ » ، (١٣) . **فشمشاط كما هو بيّن ثغر من صلب الجزيرة وجزء من أراضيها ويقع داخل حدودها،** واذا كان الجغرافيون العرب قد اختلفوا في تبعية بعض الثغور الى الجزيرة ، الا انهم لم يختلفوا في تبعية شمشاط لها . فهم اختلفوا حول تبعية ملطية ، حيث جعلها ابن خرداذبة من الجزيرة وعدها في جملة ثغورها (١٤) ، بينما اخرجها الاصطخري من اقليم الجزيرة وادخلها في اقليم الشام ، وذلك بقوله : « وقد جمعت الى الشام الثغور وبعضه يعرف بثغور الشام وبعضه يعرف بثغور الجزيرة وكلاهما من الشام ،

---

* الرها حاليا هي مدينة اورفة .

** ترد احيانا باسم حصن كيفا .

*** تعرف بحصن زياد واسمها الحالي خربوط .

وذلك ان ماوراء الفرات من الشام وانما سمي من ملطية الى مرعش بثغور الجزيرة لان اهل الجزيرة بها كانوا يرابطون ويغزون لا لانها من الجزيرة » (١٥) . **كذلك فعل ابن حوقل الذي أورد النص نفسه تقريبا وذلك في قوله : « قد جمعت الثغور الى** الشام وبعض الثغور كانت تعرف بثغور الشام ، وبعضها تعرف بثغور الجزيرة ، وذلك ان كل ماكان وراء الفرات فمن الشام وانما سمي من ملطية الى مرعش ثغور الجزيرة لان أهل الجزيرة بها كانوا يرابطون ويغزون ، لا لانها من الجزيرة واعمالها »(١٦) . بينما راى أبو الفداء في تبعية ملطية رأيا آخر حيث اتبعها ببلاد الروم وذلك بقوله : « وقد عد ابن حوقل ملطية في جملة بلاد الشام ... ، وأما نحن فعددناها في بلاد الروم وهو اليق بها (١٧) . كذلك خالف الاصطخري ومن بعده ابن حوقل من سبقه من الجغرافيين والاداريين العرب في ادخال ميا فارقين في الجزيرة مبينا أسباب ذلك بقوله : « وميا فارقين * بعدها قوم من الجزيرة الا انها دون دجلة وخلفها حد دجلة فيما صورنا مابين دجلة والفرات لذلك جعلناها بارمينية (١٨) .

ان مثل هذا الخلاف عند الجغرافيين والاداريين بالنسبة لتبعية بعض الثغور للجزيرة لانراه الا نادرا بالنسبة لتبعية شمشاط لها ، بل هو في حقيقته تناقض يقع فيه المؤلف نفسه . مثال ذلك مانراه عند ياقوت الحموي . فهو في تعريفه لديار مضر ادخل شمشاط في الجزيرة كما راينا قبل قليل ، وفي تعريفه لشمشاط قال : « شمشاط مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت »(١٩) ، ثم قال في حديثه عن ارمينية : « وهي ارمينيتان الكبرى والصغرى .. .، وقيل هي ثلاث ارمينيات وقيل اربع ... ، والرابعة بها قبر صفوان بن المعطل صاحب رسول الله (ص) وهي قرب حصن زياد ، ومن الرابعة شمشاط وقاليقلا وارجيش وباجنيس » (٢٠) .

تقع شمشاط على الضفة الجنوبية لنهر حمل اسمها كان يعرف قبل الفتح بنهر ارسناس وكذلك ارسوناياس ، ويطلق عليه اليوم اسم نهر مراد أو مرادصو ، وقدعرفها الروم باسم ارموساتا Armosata (٢١) وارساموساتا Arsamosata (٢٢) . وقد ذكر موقعها هذا وذكر نهرها كل من : ابن خرداذبة ، وذلك بقوله : « ومخرج الفرات من قاليقلا ، ويمر بأرض الروم ويستمد من عيون كثيرة ، ويصب فيه نهر ارسناس نهر شمشاط ، ويجيء الى كمخ ويجري على ميلين من ملطية ويجيء الى

* تعرف اليوم باسم سيلواني . (الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر ، تاليف اسكندر داود ، ص ٨٤) _ كما تعرف باسم سيلوان . Silvan

جبلتا حتى يبلغ الى سميساط ، فيحمل من هناك السفن والاطواف ويجيء حتى يبلغ السواد . (٢٣) . كما ذكر ذلك سهراب بن سرابيون في معرض حديثه عن الانهار الصابة في الفرات وذلك بقوله : « ويصب في الفرات أيضا نهر يقال له نهر ارسناس هو نهر شمشاط ، وأوله من جبل على حد بلد طرون ، ثم يمر بباب مدينة شمشاط ، ثم يمر بالقرب من باب حصن يقال له حصن زباد ، وعلى جانبي هذا النهر حصون ستة ، ثم يصب في الفرات فوق ملطية بمرحلتين في الجانب الشرقي » (٢٤) . كما كرر الاشارة الى موقع شمشاط على نهر ارسناس في حديثه عن الانهار الرافدة الانهار الصابة في الفرات وذلك بقوله : « ارسناس نهر يصب اليه نهر يقال له نهر الذئب ، مخرجه من جبل في ناحية قاليقلا يدور فيمر بحصون كثيرة ويصب في ارسناس فوق مدينة شمشاط بشيء يسير (٢٥) . وقال ابو الفداء : « ويصب في الفرات ويخرج منها انهر كثيرة ، فمن الانهار التي تصب فيها نهر شمشاط وهو نهر يمر على شمشاط ، ثم يمر على حصن زياد وهو خرتبرت ، ثم يصب في الفرات فوق ملطية » (٢٦) .

فتح المسلمون الجزيرة في عهد عمر بن الخطاب بقيادة عياض بن غنم ثم فتحوا ارمينية واخلوا بالتوغل عبر الدروب في جبال طوروس ، وتمكنوا في العصر الاموي من دفع خط الحدود مع البيزنطيين بعيدا عن الشاطيء الغربي لنهر الفرات ، وكانت معظم حروب الامويين مع البيزنطيين حروب استقرار ، حيث كانوا يعمرون مايحتلونه من اراضي ويقيمون فيها الجند ويبنون الحصون لمنع العدو من استرجاعها . ثم استلم العباسيون الثغور التي اسسها الامويون وكانت تتألف من اعداد كبيرة من الحصون والقلاع والمدن المحصنة (٢٧) ، منها شمشاط وحصن زياد على نهر ارسناس وكمخ وملطية على الفرات ، وقام ابو جعفر المنصور باعادة بناء ماتخرب منها ، وبتنظيم الصوائف والشواتي وشحن الثغور بالرجال والعتاد ، وجعل من منطقة الجزيرة كيانا اداريا مستقلا . وقد تابع المهدي سيرة والده وكذلك فعل الرشيد ، مضيفا الى ذلك تأسيس اقليم مشابه لاقليم الاطراف البيزنطي على حدود البلاد الاسلامية الشمالية اطلق عليه اسم العواصم ، كانت عاصمته منبج ثم انطاكية ، ورتب له جيشا دائما يرابط على طول حدوده (٢٨) . *

ظلت المواقع الحدودية المتقدمة في اسيا الصغرى قوية طوال العهد العباسي الاول ، الا ان انشغال الخلافة العباسية بتفاقم الثورات الكبيرة التي نشأت فيها ، مثل ثورة الزنج ، التي ظهر صاحبها للناس في سنة ٢٥٥ هـ ، وشغل الخلافة العباسية

* ان الترتيب الاداري الذي اوجده الرشيد للثغور لم يدم طويلا .

في قتاله اربع عشرة سنة واربعة أشهر (٢٥٥ ـ ٢٧٠ هـ) ، فكانت مصيبة عظيمة على أهل الاسلام (٢٩) ، وذلك في فترة حكم الخليفة المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ) ، ثم ثوره القرامطة التي بدات في سنة ٢٧٨ هـ واستمرت الى سنة ٣٧٨ هـ (٣٠) ؛ وقصر الفترة التي حكم فيها الطولونيون بلاد الشام ، مكن باسيل الاول مؤسس الاسرة المقدونية من ان يدفع المسلمين شرقا على طول خط الحدود ، وان يستولي تدريجيا ما بين سنتي ٢٥٨ ـ ٢٦٩ هـ / ٨٧١ ـ ٨٨١ م على جميع المعابر التي كانت تنفذ منها جيوش المسلمين الى آسيا الصغرى (٣١) . الا ان المسلمين استطاعوا في فترة حكم المعتضد وفي فترة حكم المكتفي وفي معظم الفترة التي حكم فيها المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ) من الظهور على الروم ، حيث تمكنوا من فتح عدد كبير من الحصون البيزنطية ، وتوغلت الصوائف الى اماكن متقدمة في اراضي بيزنطة ، فاخربوا قوتية في سنة ٢٩٤ هـ ، واحرق رستم امير الثغور حصن مليح الارمني في آسيا الصغرى في سنة ٢٩٩ هـ ، وفي سنة ٣٠٢ هـ سار وزير المقتدر علي بن عيسى لغزو الصائفة فلم تتيسر له فغزاها ثانية في برد شديد وثلج ، وغزا أيضا بشر والي طرسوس بلاد الروم ففتح فيها وغنم واسر مائة وخمسين بطريقا ، (٣٢) . واستمرت الحال على ذلك حتى عام ٣٠٥ هـ حيث جاءت رسل من ملك الروم للخليفة المقتدر يطلبون المهادنة والفداء فاجيبوا الى ذلك ، وامتدت الهدنة من عام ٣٠٥ هـ ـ ٣١٠ هـ . هذا وتشير قائمة الجباية التي اعدها علي بن عيسى وزير المقتدر لسنة ٣٠٦ هـ/٩١٨ م ، الى انه لم يخرج من يد المسلمين من الثغور الجزرية الا ثغر كمخ ،بينما ظلت البقية في أيديهم ، حيث وردت فيها مقادير الجباية في شمشاط وحصن منصور وكيسوم وارزن وميافارقين وغيرها من ثغور الجزيرة(٣٣) . وفي سنة ٣١٢ هـ عاد رسل ملك الروم مرة ثانية بطلب الهدنة وتقرير الفداء فاجيبوا الى ذلك ، ثم غدر الروم بالصائفة فدخل المسلمون بلادهم فأثخنوا فيها ، الا أن الثغور ضعفت بعد ذلك عن دفع الروم ، لانشغال المقتدر بالفتن الداخلية ، فاستولى الروم على ملطية في سنة ٣١٤ هـ ، ثم ملكوا خلاط وبدليس صلحا في سنة ٣١٦ هـ ، وفارق أهل ارزن بلادهم خوفا من الروم(٣٤) . (اورد ابن حوقل استيلاء الروم على ملطية في سنة ٣١٩ هـ/٩٣١م وقال في ذلك : « فكانت أول مصيبة دخلت على الاسلام من جهة الثغور » (٣٥)) .

قدر الباحثون فترة وضع الاصطخري لكتابه مسالك الممالك فيما بين سنة ٣١٨ و ٣٢١ هـ /٩٣٠ ـ ٩٣٣ م (٣٦) ، اي في أواخر عهد المقتدر . فاذا اخذنا بما كتبه الاصطخري عن الثغور في فصل « ذكر ارض الشام » والذي يقول فيه : « ... ومما يلي الروم الثغور وهي ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة واذنة وطرسوس » (٣٧) ، وكذلك قوله : « واما العواصم فاسم الناحية وليس موضع

بعينه يسمى العواصم ، وقصبتها انطاكية وهي بعد دمشق انزه بلد بالشام ... وملطية مدينة كبيرة من اكبر مدن الثغور التي دون جبل اللكام وتحتف بها جبال كثيرة الجوز وسائر الثمار مباح لا مالك له وهي من قرى بلد الروم على مرحلة ، وحصن منصور حصن صغير فيه منبر وزروعه عذي ، والحدث ومرعش وهما مدينتان صغيرتان عامرتان ... ، **واما زبطرة فانه حصن كان من اقرب هذه الثغور الى بلد الروم خربه الروم ، والهارونية من غربي جبل اللكام .. ، واسكندرونة حصن على** ساحل بحر الروم صغير به نخل وبياس مدينة صغيرة على شط بحر الروم ذات **نخل وزروع خصبة ، والبثنيات * حصن على شط البحر ايضا فيه يجمع خشب** الصنوبر الذي ينقل الى الشامات والى مصر والثغور ، والكنيسة ، والمثقب حصن صغير بناه عمر بن عبد العزيز به منبر ومصحف له ، وعين زربة بلد يشبه مدن الغور **بها نخيل وهي خصبة واسعة الثمار والزروع والرعي ، والمصيصة مدينتان احداهما** تسمى المصيصة والاخرى تسمى كفر بيا على جانبي جيحان وبينهما قنطرة حجارة حصينة جدا .. ، واذنة مدينة تكون مثل احد جانبي المصيصة على نهر يسمى **سيحان وهي مدينة خصبة عامرة .. ، وطرسوس مدينة كبيرة عليها سوران من حجارة** تشتمل على خيل ورجال وعدة وهي في غاية العمارة والخصب وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين المسلمين والروم .. ، واولاس حصن على ساحل البحر وهي آخر ما على بحر الروم من العمارة للمسلمين » (٣٨). وبأن المسلمين استطاعوا في سنة ٣١٩هـ غزو بلاد الروم في الشتاء بقيادة ثمال والي طرسوس واسروا نحوا من ثلاثة آلاف من الروم ، ثم غزاها ثمال في الصيف فبلغ عمورية وقد فارقها الروم . واوغل **المسلمون في بلاد الروم ينهبون ويقتلون ويخربون حتى بلغوا انقرة(٣٩) . ومما اوردته** الدكتورة امينة بيطار عن حروب الحمدانيين المظفرة ضد البيزنطيين في الجبهة الارمنية وفي اقليم الجزيرة والتي امتدت من سنة ٣١٩ هـ الى سنة **٣٣٣ هـ/٩٣١ م الى ٩٤٤ ـ ٩٤٥ م ، تمكن الحمدانيون فيها من تحقيق** النصر على البيزنطيين في معظمها ، فاستعادوا ملطية في سنة ٣١٩ هـ ، وحطموا بقيادة سيف الدولة مقاومة البيزنطيين بين حصن سلام وحصن زياد ، ونزل سيف الدولة على قلونية في العمق البيزنطي واحرق رساتيقها وسلب ضياعها (٤٠) ، ادركنا بأن الثغور الشامية والجزرية بما فيها شمشاط كانت في حوزة المسلمين في الفترة التي وضع فيها الاصطخري كتابه ، ولم تسقط شمشاط في ايدي الروم الا بعد وفاة الاصطخري التي كانت في سنة ٣٤٦ هـ /٩٥٧ م ، او في منتصف القرن الرابع الهجري على ابعد تقدير (٤١) ، أي في فترة ضعف الامارة

---

* وردت في بعض المصادر باسم التينات وفي مصادر اخرى باسم الثنيات .

الحمدانية ورجحان كفة البيزنطيين ، ومن هنا جاء قول ابن حوقل : « ويجري بينها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين * » واذا اضفنا الى كل ماقدمناه من شواهد جغرافية وتاريخية عن تبعية شمشاط للجزيرة طبيعيا واداريا وسياسيا في الفتره التي وضع فيها الاصطخري كتابه ، التجديد الذي جاء به الاصطخري والذي تمثل في تقسيمه العالم الاسلامي الى اقاليم تقسيما يقوم على اساس جغرافي لا اداري، وهو الامر الذي لم يسبقه اليه احد على مايبدو (٤٢) ، سهل علينا توقع وجود تصحيف في النص ادى الى الخلط بين شمشاط وسميساط واستبدال الواحدة بالاخرى في حالات كثيرة ، وقع النساخ فيه ، ولم ينتبه اليه المحققون المحدثون في بعض الحالات . وقد كانت دلائل هذا التصحيف عديدة نورد منها ما يلي :

في النسخة المصورة عن مخطوطة كتاب الاقاليم للاصطخري وهو الاسم الآخر لكتاب مسالك الممالك كما اشرنا من قبل ، التي نشرها الدكتور ج.ن مولر Dr. J. H. Moeller ، والموجودة في مكتبة كلية الاداب بجامعة دمشق برقم (١٤٧) نجد ما يلي : « وسمساط هي ثغر الجزيرة لانها شرقي دجلة والفرات ، واما ملطية وماذكرناه من الثغور فهي ثغر الشام وانها تنسب الى ثغور الجزيرة لان اهل الجزيرة ينتابونها لقربها منهم والثغر الذي هو من صلب الجزيرة سمشاط » (ص ٤١) .

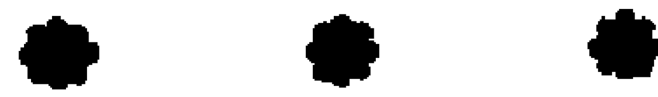
واما جزيره بن عمر فهي مدينه صغيره على الدجله عربي الزاب ذات اشجار ومياه
وهي حصينه خصبه تسيره الحيران جدا   وسمسساط هي ثغر الجزيره لانها شرقي
دجله والفرات   واما ملطيه وماذكرناه من الثغور في ثغر الشام وانها تنسب
الى ثغور الجزيره لان اهل الجزيره ينتابونها لقربها منهم والثغر الذي هو من صلب الجزيره
سمشاط   والحديثه على شط دجله شرقيها وهي مدينه نزهه جدا ذات
بساتين واشجار ولها مياه   والسن على شط الدجله مدينه بقربها جبل بارما

الشكل (٢) من مخطوطة كتاب الاقاليم للاصطخري

---

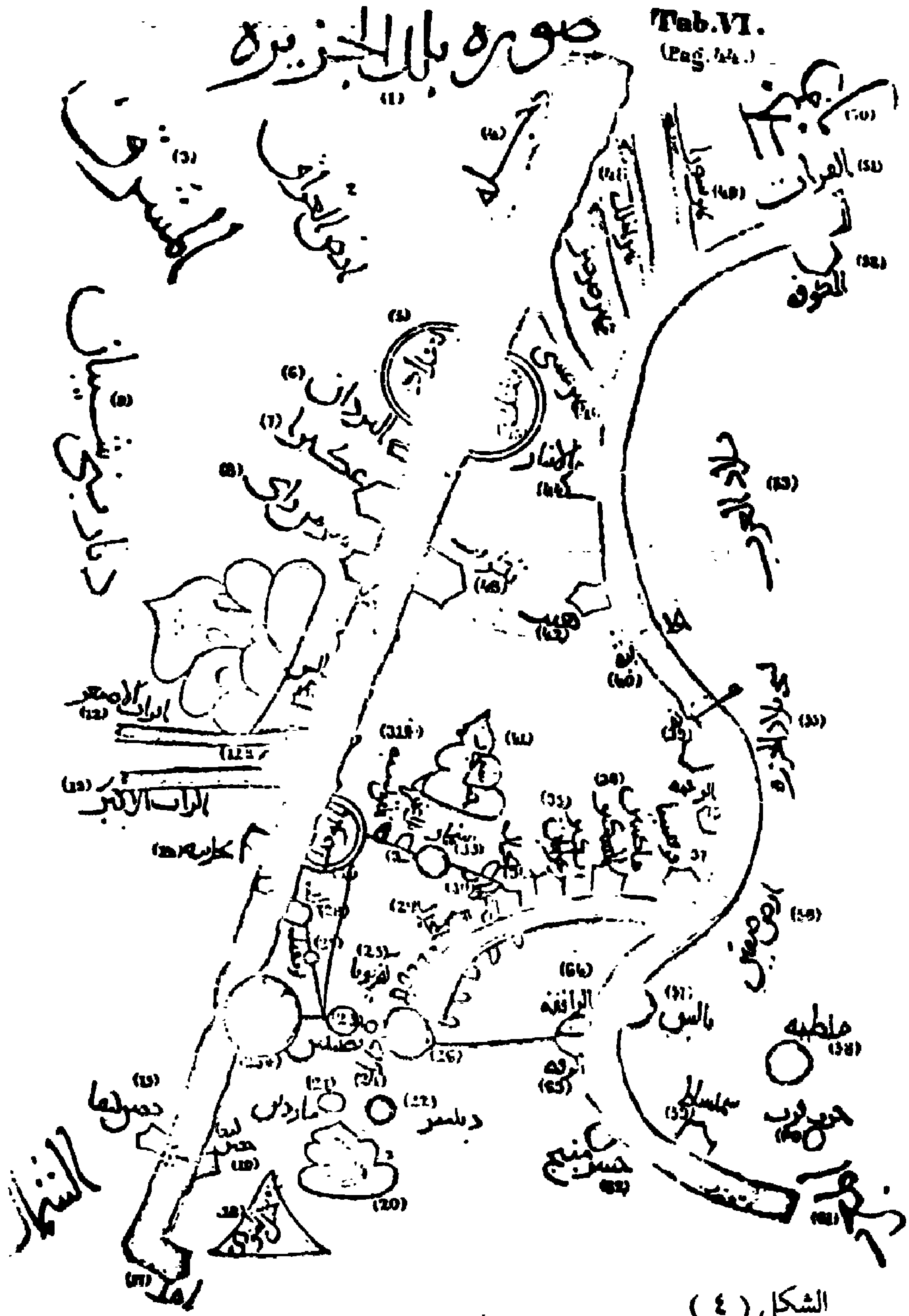
* انظر تغيرات الحدود في منطقة الثغور في هذه الفترة في خريطة مصر وسورية من اطلس توبنغر Tubinger Atlas الطولونيون والاخشيديون والحمدانيون .

من الواضح ان سمساط الواردة في أول الفقرة هي شمشاط وقد حذفت نقاطها، ذلك ان سميساط تقع الى الغرب من الفرات لا في شرقيها ، كما تبعد كثيرا عن دجلة . كما حذفت نقاط الشين الاولى من كلمة شمشاط الواردة في آخر الفقرة . وفي صورتي الشام والجزيرة من المخطوطة نفسها نجد في صورة الجزيرة وبالقرب من الرمز الدال على جسر منبج على الشاطىء الغربي للفرات رمزا لمدينة كتبت بجانبه عبارة سمساط ، وفي صورة الشام وفي الموقع نفسه وللمدينة ذاتها كتبت الى جانب الرمز عبارة شميشاط . وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل وفي الحديث عن جبل اللكام واتصاله بجبال طوروس وزاغروس حيث نجد : « ... ولا يزال هـذا الجبل يستمر من اعمال آمد ونواحي دجلة الى الفرات فيكون سميساط فيه ويتصل بحدود مرعش » (ص ١٥٧) . فالمقصود هنا شمشاط لا سميساط ، ذلك ان سميساط تقع على الفرات بعد خروجه من جبال طوروس وبعيدا عنها . اضف الى ذلك مانراه في اشارات محققي المخطوطات المختلفة عن وجود مثل هذا الخلط والتي تبين في الهوامش عند طباعتها ، كما في كتاب مسالك الممالك للاصطخري وفي كتاب الخراج لقدامه بن جعفر وفي تقويم البلدان لابي الفداء وفي احسن التقاسيم للمقدسي .



اخيرا لننظر في النصوص التالية :

في كتاب مسالك الممالك للاصطخري تحقيق دي جويه **M. J. De Goeje** وطباعة عام ١٩٢٧ ورد النص التالي : « واما العواصم فقصبتها انطاكية ... ، واما الثغور فانه لا قصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج قريبة الى الثغور ومن منبج الى ملطية ٤ ايام ومن منبج الى سميساط يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط يومان ومن **شمشاط الى حصن منصور** يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان » ص ٦٧ (٤٣) .



الشكل (٤)

Tab. IV.
(Pag. 33.)

حدود صورة الشام مصر

بحر الروم

دمشق

حمص

حماه

حلب

انطاكية

ملطية

الفرات

حدود بلد الروم



الشكل (٥)

ومنبج قريبة الى[٨] الثغور ومن منبج الى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج
الى قورس مرحلتان ومن منبج الى ملطية ٤ ايام ومن منبج [٥] الى سميساط
يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط يومان
ومن شمشاط الى حصن منصور يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان
*ومن حصن منصور الى زبطرة يوم ومن حصن منصور الى الحدث يوم
ومن الحدث الى مرعش يوم *ومن ملطية الى مرعش ٣ مراحل كبار فهذه
مسافات ثغور الجزيرة، واما الثغور الشامية فمن اسكندرونة الى بياس مرحلة
خفيفة ومن بياس الى المصيصة مرحلتان ومن المصيصة الى عين زربة يوم

الشكل (٦) : النص كما ورد في المسالك والممالك للاصطخري ، ص ٦٧

وفي كتاب مسالك الممالك للاصطخري تحقيق الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني ومراجعة محمد شفيق غربال ورد النص نفسه حيث جاء فيه : « واما العواصم فقصبتها انطاكية . . ، وأما الثغور فانه لاقصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج قريبة من الثغور ومن منبج الى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج الى قورس مرحلتان ومن منبج الى ملطية ٤ ايام ومن منبج الى سميساط يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط يومان ومن **شمشاط الى حصن منصور** يوم **ومن حصن منصور الى ملطية يومان . . .** » (ص٤٩) (٤٤) .

وفي كتاب صورة الارض لابن حوقل تحقيق كريمرز **J. H. Kramers** **طبعة دار الحياة البيروتية) يتكرر النص نفسه تقريبا اذ ورد فيه : « وقد مر في ذكر العواصم ما صارت اليه من ملك الروم لها ما يغني عن اعادة فيها . والعواصم قصبتها انطاكية ... ، والثغور فلا قصبة لها وكل مدينة قائمة بنفسها ومنبج مدينة قريبة من الثغور ومنها الى** الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج الى قورس مرحلتان ومنها الى ماطية اربعة ايام ومن منبج الى سميساط يومان ومن منبج الى الحدث يومان ومن سميساط الى شمشاط مرحلتان **ومن شمشاط الى خصن منصور** يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان . . » (ص ١٧٢) .

اما في مصورة مخطوطة كتاب الاقاليم الوارد ذكرها اعلاه فقد جاء النص على الشكل التالي : واما العواصم فان قصبتها انطاكية ... ، **واما الثغور فانه لاقصبة**

لها وكل مدينة قايمة بنفسها .ومنبج قريبة الى الثغور ومن منبج الى الفرات مرحلة خفيفة ومن منبج الى قورس مرحلتان ومن منبج الى ملطية اربعة ايام ومن منبج الى سمساط يومان ومن سمساط الى حصن منصور يوم ومن حصن منصور الى ملطية يومان » (ص ٣٧) .

ملس ايام واما الثغور فانه لا قضبه لها وكل مدينه قايمه بنفسها . ومنبج
قريبه الى الثغور ومن منبج الى الفرات مرحله خفيفه ومن منبج الى قورس
مرحلتان ومن منبج الى ملطيه اربعه ايام . ومن منبج الى سمساط يومان
ومن سمساط الى حصن منصور يوم ومن حصن منصور الى ملطيه يومان
ومن حصن منصور الى زبطره يوم ومن حصن منصور الى الحدث يوم ومن الحدث
الى مرعش يوم فهذه مسافه ثغور الجزيره واما الثغور الشاميه
فان من الاسكندرونه الى بياس مرحله . ومن بياس الى المصيصه مرحلتان ومن المصيصه
الى عين زربه يوم ومن المصيصه الى اذنه يوم ومن اذنه الى طرسوس يوم
ومن طرسوس الى اولاس على بحر الروم يومان ومن بياس الى الكنيسه
والهارونيه اقل من يوم ومن الهارونيه الى مرعش من ثغور الجزيره اقل من يوم

الشكل (٧) من مخطوطة كتاب الاقاليم

يظهر لنا في النصوص الثلاثة الاولى خلط واضح بين شمشاط وسميساط وقع فيه المحققون الثلاثة : دي جويه والحيني وكريمرز ، ذلك ان مسافة اليوم الواردة بين شمشاط وحصن منصور هي في حقيقة الامر بين سميساط وحصن منصور ، اي كما جاءت في النص الوارد في مخطوطة كتاب الاقاليم ، ذلك ان المسافة بين سميساط وحصن منصور لاتزيد عن الخمسين كيلو مترا ؛ بينما يصل البعد بين حصن منصور وبين شمشاط وفي خط مستقيم الى المائة والخمسين كيلو مترا وذلك

حسب القياس الذي اجريناه في خريطة مصر وسورية ــ الطولونيون والاخشيديون والحمدانيون ــ من اطلس توبنغر مقياس ٠٠٠ ١/٤٠٠٠ ، وفي خريطة تركيا من اطلس العالم مقياس ٠٠٠ ١/٢٥٠٠ ،بعد أن حددنا عليها مواقع كل من شمشاط وحصن منصور ، وفي خريطة سورية في عصر نور الدين مقياس ٠٠٠ ١/١٠٠٠ لنيكيتا اليسييف . فاذا اخذنا بما أورده الدكتور احمد سوسه من ان طول الميل العربي كما حسبه نللينو C.A. Nallino يساوي ١٩٧٣ر٣ مترا (٤٥) ، وبما أورده ياقوت الحموي من أن الميل جزء من ثلاثة اجزاء من الفرسخ (٤٦) ، وان الفرسخ بالتالي معادل لـ ٥٩١٩ر٩ مترا ، فان المسافة بين سميساط وحصن منصور هي اكثر من ثمانية فراسخ بقليل ، وان المسافة بين حصن منصور وشمشاط في خط مستقيم هي حوالي ٢٥ فرسخا ، ثم اذا اخذنا بما ذكره ابو الفداء من قول البيروني : « ان تعريجات الطرق والتواءها بحسب الجبال والوعر وغير ذلك يكون الخمس بالتقريب ، فاذا كان بين البلدين خمسون فرسخا بحسب سير السائر فيكون على خط مستقيم اربعين فرسخا » (٤٧) ، فان المسافة بين شمشاط الواقعة الى الشمال من جبال طوروس وبين حصن منصور الواقع على السفوح الجنوبية من هذه الجبال الوعرة هي :

٢٥ + $\frac{٢٥}{٥}$ = ٣٠ فرسخا . ثم اذا اخذنا بما ذكره ابو الفداء من أن الفقهاء قدروا الستة عشر فرسخا مسيرة يومين فكل ثمانية فراسخ مسيرة يوم بالسير الوسط (٤٨)، تبين لنا ان المسافة بين حصن منصور وشمشاط اربعة ايام بالسير الوسط او ثلاث مراحل كبيرة ، وليست يوما واحدا كما وردت في النصوص المحققة ، يؤكد هذا ما أورده ابن خرداذبة من ان المسافة بين سميساط وحصن منصور هي ستة فراسخ وما أورده قدامة بن جعفر من ذكر للمسافات بين الرقة والثغور الجزرية والتي جاءت على الشكل التالي : ... من سميساط وهي مدينة على الفرات من الجانب الشامي الى حصن منصور ستة فراسخ وهي ثغر ، ومنها الى ملطية في عقاب شديدة عشرة فراسخ وهي ثغر ايضا الى مدينة تسمى كمخ وكانت ثغرا استولى عليه العدو أربعة فراسخ .

من كل ما تقدم نستطيع أن نصل الى النتائج التالية :

١ ــ لامجال للشك في أن الحدود الشمالية للجزيرة كما أوردها الاصطخري في الاصل ، تبدأ من المكان الذي تقترب فيه منابع دجلة من مجرى نهر ارسناس بالقرب من مدينة شمشاط ، ثم تساير النهر حتى مصبه في عمود الفرات .

٢ ــ من غير المعقول ان يخالف الاصطخري المبدأ الذي اختطه لعمله والمتمثل في

تقسيم العالم الاسلامي على اسس جغرافية واعتماد الحدود الطبيعية اساسا في التقسيم ، فلا يأخذ بمجرى نهر شمشاط (نهر مراد) حدا شماليا للجزيرة ، علما بأنه لايوجد كما بينا ما يحول دون ذلك لا اداريا ولاسياسيا .

٣ ـ بالرغم من مشاعر المرارة وخيبة الامل التي نراها عند ابن حوقل في النسخة الثانية من كتابه صورة الارض التي انهى كتابتها حوالي عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ورفعها الى ابي السري الحسن بن الفضل بن أبي السري الاصبهاني بسبب ماوصلت اليه حالة سكان العواصم والثغور من سوء نتيجة لضعف المسلمين وتخاذل حكامهم ، (النسخة الاولى رفعها الى سيف الدولة قبل وفاة الاخير في سنة ٣٥٦ هـ) ، وبالرغم من وجود العامل السياسي والاداري الذي تمثل باستيلاء الروم على العواصم والثغور من جبلة الى شمشاط ، فانه لم يخالف التجديد الذي جاء به الاصطخري في تقسيم العالم الاسلامي تقسيما جغرافيا ، وحافظ على الحدود الطبيعية لبلاد الشام المتمثلة باعالي جبال طوروس ، كما وحافظ في بداية النص على الحدود الطبيعية للجزيرة في الشمال المتمثلة بمجرى نهر شمشاط .

٤ ـ وجود تصحيف واضح في النصوص الخاصة بالحدود الشمالية للجزيرة في مؤلفي الاصطخري وابن حوقل ، وخلط واضح بين شمشاط وبين سميساط في حالات كثيرة سهل حدوثه تشابه الاحرف في اسمي المدينتين عند كتابتها بدون نقط وبخاصة عندما يجري حذف الياء من كلمة سميساط وهو امر كثير الحدوث(٤٩)، كما سهل حدوثه عدم اهتمام بعض الجغرافيين العرب بالتمييز بين المجرى الرئيسي لنهر الفرات (عمود الفرات) حيث تقع مدينة سميساط وبين رافده الاكبر نهر شمشاط (مرادصو) حيث تقع مدينة شمشاط وتسميتهم للنهرين باسم واحد هو الفرات ، وهو مارأيناه عند ابن حوقل في قوله : « ومخرج الفرات من داخل بلد الروم على ما شكلته مجتازا من ملطية على يومين ، ويجري بينها وبين المدينة المعروفة كانت بشمشاط للمسلمين » ، وما نراه عند ياقوت الحموي في قوله : « بشمشاط مدينة على الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت » .

بعد الذي بيناه ، فاننا نرى بأن التحقيق السليم للنص الخاص بحدود الجزيرة عند الاصطخري ، والذي نورد صورة عنه مأخوذة من مخطوطة كتاب الاقاليم ، يجب أن يأخذ الشكل التالي :

ذكر ارض الجزيرة

الجزيره ما بين دجله والفرات وتشتمل على ديار ربيعه ومضر ومخرج الفرات
من داخل الروم من ملطيه على يومين وبينها وبين شمشاط فيخرج على شمساط
وجسر منبج وبالس الى الرقتين وقرقيسيا والرحبه وهيت والانبار وقد انقطع
حد الفرات مما يلي الجزيره ثم يعدل في سمت الشمال الى تكريت وهي على الدجله حتى
ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيره والحديثه والموصل وجزيره ابن عمر ثم يجاوز امد فينقطع
حد الدجله على بعد من حد ارمينيه ثم يمتد الى شمشاط ثم ينتهي الى مخرج ما الفرات
في حد الاسلام من حيث ابتداناه ومخرج الدجله فوق امد من حد بلاد الارمن وعلى شرقي
الدجله وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيره وان كانت خارجه عنها لقربها منها

الشكل (٨)

من مخطوطة كتاب الاقاليم

« الجزيرة مابين دجلة والفرات ، وتشتمل على ديار ربيعة ومضر . ومخرج **الفرات** من داخل بلد الروم من ملطية على يومين ويجري بينها وبين **شمشاط** ، فيخرج على سميساط وجسر منبج وبالس الى الرقتين وقرقيسيا والرحبة وهيت والانبار وقد **انقطع حد الفرات مما يلي الجزيرة** ، ثم يعدل في سمت الشمال الى تكريت وهي على الدجلة حتى ينتهي عليها الى السن مما يلي الجزيرة والحديثة والموصل وجزيرة ابن عمر ، ثم يجاوز آمد فينقطع حد الدجلة على بعد من حد ارمينية ثم يمتد مغربا الى **شمشاط** ثم ينتهي الى مخرج ماء الفرات في حد الاسلام من حيث ابتدأناه ، ومخرج الدجلة فوق آمد من حد بلد الارمن ، وعلى شرقي دجلة وغربي الفرات مدن وقرى تنسب الى الجزيرة وان كانت خارجة عنها لقربها منها » .

وبهذا يستقيم الامر فينطبق الحد في الشمال على الحد الطبيعي للجزيرة المتمثل بمجرى نهر مراد (نهر شمشاط) ويصحح الخطأ الذي وقع فيه كل من دي جويه وكريمرز والحيني .



الحواشـــي :

(١) الاصطخري ، مسالك المالك ، تحقيق دي جويه ،(ص ٧٢) .

(٢) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق الدكتورمحمد جابر عبد العال الحيني ، (ص٥٢).

(٣) الاصطخري،كتاب الاقاليم (مخطوطة) وفي النص بعض الاختلاف عن المطبوع (ص ٤).

(٤) ابن حوقل ، صورة الارض ، (ص ١٨٩) .

(٥) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، (ص ٢٧٣) .

(٦) ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، المجلد السابع (ص ١٠٦) .

(٧) ابو الفداء ، تقويم البلدان ، (ص٢٧٧) .

(٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، (ص٤٩٤) المجلد الثاني .

(٩) المصدر السابق ، (ص٣٦٢) ، المجلد الثالث .

(١٠) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه ص ٧٥) .

(١١) المصدر نفسه ، تحقيق الحيني ، (ص٥٤) .

(١٢) الاصطخري ، كتاب الاقاليم (مخطوطة) (ص ٤١) .

(١٣) قدامه بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة ص(٢١٥)

(١٤) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، (ص٢٣٥).

(١٥) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه (ص ٥٥) .

(١٦) ابن حوقل ، صورة الارض (ص١٥٤).

(١٧) ابو الفداء ، تقويم البلدان (ص٢٢٥).

(١٨) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه (ص ١٥٤) .

(١٩) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الثالث (ص ٣٦٢) .

(٢٠) المصدر السابق ، المجلد الاول (ص١٦٠).

(٢١) ديلابورت ، اطلس التاريخ الجزء الاول ، خريطة (رقم ١٨) .

(٢٢) هينز هالم ، اطلس توبنغن ، خريطة مصر وسورية ، الطولونيون ، الاخشيديون ، الحمدانيون (مقياس ١/٤٠٠٠٠٠٠)

(٢٣) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك (ص ١٧٤).

(٢٤) سهراب ، عجائب الاقاليم السبعة (ص ١٢٠) .

(٢٥) المصدر السابق ، (ص١٢٢) .

(٢٦) أبو الفداء ، تقويم البلدان (ص ٥١).

(٢٧) امينة بيطار ، الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام ص ٢٥٦) .

(٢٨) المصدر السابق (ص ٢٥٧).

(٢٩) احمد دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، المجلد الاول (ص ٢٦٨).

(٣٠) المصدر السابق ، (ص ٢٧٩).

(٣١) فتحي عثمان ، الحدود الاسلامية البيزنطية ، المجلد الثاني (ص ٢٢٠).

(٣٢) احمد دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، المجلد الاول ، (ص٢٧٦ – ٢٧٨).

(٣٣) امينة بيطار ، الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (ص٣٢٤ – ٣٢٥).

(٣٤) احمد دحلان ، الفتوحات الاسلامية ، المجلد الال (ص ٣٦٨).

(٣٥) ابن حوقل ، صورة الارض (ص ١٦٦).

(٣٦) احمد سوسة ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، المجلد الاول (ص ١٧٩) .

(٣٧) الاصطخري ، مسالك الممالك ، تحقيق دي جويه (ص ٥٥).

(٣٨) المصدر السابق ، (ص ٦٢ – ٦٣).

(٣٩) احمد دحلان ، الفتوحات الاسلامية (ص ٢٨١) .

(٤٠) امينة بيطار ، الحياة السياسية واهم مظاهر الحضارة في بلاد الشام (ص ٢٨٤) .

(٤١) احمد سوسة ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، المجلد الاول ، ص ١٧٢ .

(٤٢) المصدر السابق ، (ص ١٦١).

(٤٣) نشر دي جويه كتاب الاصطخري من خمس مخطوطات رمز لها بالاحرف A. B. C. D. E. ونشرت في سنة ١٨٧٠ م .

(٤٤) يقول الدكتور محمد جابر عبد العال الحيني في مقدمة كتاب مسالك الممالك للاصطخري ، الذي قام بتحقيقه بتكليف من وزارة الثقافة المصرية،((وهذه النسخة التي اقوبها هي ثمرة الرأي على مخطوطة محفوظة بدار الكتب المصرية برقم ١٩٩ جغرافيا ، وعلى مصورتين لمخطوطتين محفوظتين بدار الكتب المصرية ....، وقد حاولت جهدي ان اصل الى نص الاصطخري مستعينا بالمخطوطات على ضوء كتاب ابن حوقل ، لانه كما ذكرنا نكاد يكون صورة أخرى لكتاب الاصطخري))
كما اشار الى أن ناسخ المخطوطة التي كانت في حوزة المرحوم علي باشا جارالله امتاز بخصلة فريدة ، هي انه كثيرا ما يجعل للباء او للتاء في اول الكلمة راسا مستثنيا بها عن النقط.

(٤٥) أحمد سوسة ، المرجع السابق ، المجلد الاول ص ١١٢).

(٤٦) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الاول (ص ٣٦) .

(٤٧) أبو الفداء ، تقويم البلدان ، (ص ٧٤) .

(٤٨) المصدر السابق ، (ص ٧٤).

(٤٩) الواقدي ، فتوح الشام (ص ٨٥) .

المصـــادر :

١ ـ ابن حوقل ، صورة الارض ، دار الحياة ،بيروت .

٢ ـ ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، مكتبة المثنى ، بغداد .

٣ ـ ابن جعفر قدامة ، الخراج وصنعة الكتابة ،مكتبة المثنى ، بغداد .

٤ ـ ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، ليدن ١٨٩١ .

٥ ـ ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، دمشق ١٩٧٨الجزء الثالث .

٦ ـ ابن سرابيون سهراب ، عجائب الاقاليم السبعة ، فيينا ١٩٢٩ .

٧ ـ ابو الفداء ، تقويم البلدان ، مكتبة المثنى، بغداد .

٨ ـ الاصطخري ، مسالك الممالك ، دار القلم ١٩٦١ .

٩ ـ الاصطخري ، مسالك الممالك ، منشورات مؤسسة النصر .

١٠ ـ الاصطخري ، كتاب الاقاليم (مصورة لمخطوطة) مكتبة المثنى ،بغداد .

١١ ـ الحموي ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت١٩٥٧ .

١٢ ـ المسعودي ، التنبيه والاشراف ، بيروت١٩٦٥ .

١٣ ـ المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ليدن ، ١٩٠٦ الطبعة الثانية .

١٤ ـ الواقدي ، فتوح الشام ، القاهرة ، الطبعة الرابعة .

المراجع :

١٥ ـ اسكندر داود ، الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر ، دمشق ١٩٥٩ .

١٦ ـ بيطار امينة ، الحياة السياسية واهم مظاهرالحضارة في بلاد الشام ، دمشق ١٩٨٠ .

١٧ ـ دحلان احمد ، الفتوحات الاسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية القاهرة ، ١٩٦٨ .

١٨ ـ سوسة احمد ، الشريف الادريسي في الجغرافيا العربية ، نقابة المهندسين العراقيين ١٩٧٤ .

١٩ ـ عثمان فتحي ، الحدود الاسلامية البيزنطية دار الكاتب القاهرة .

٢٠ ـ مادون محمد علي ، خريطة اثر روما في بادية الشام ، مقياس ......١/١ ، ١٩٨٠ .

٢١ ـ Atlas Historique Larouss; Paris 1978.

٢٢ ـ Atlas Tubinger (Tavo), Universitat Tubingen.

٢٣ ـ Atlas Historique. I. L'Antique; Par L Delaporte, Paris. 1948.

٢٤ ـ The World Atlas. Moscow 1967.

١٥ ـ Carte de la Syrie a L'epoque de Nur Ad-Din, par Ellisséeff M. N.
Echelle : 1000000.

* * *

تعـــريب النّقــــد

وأثره على العلاقات العربيّة البيزنطيّة والوضع الاقتصادي

د. نجدة خمّاش

جامعة دمشق

كان بين الدولة البيزنطية والدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضي بان يضرب الساسانيون نقودا من الفضة فقط ، وبالا يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هي الدراهم الفضية التي بقيت مستخدمة في العراق والمشرق ، بينما شاعت العملة الذهبية في البلاد الاسلامية التي كانت سابقا تابعة للدولة البيزنطية (١) .

وعرف عرب الجزيرة النقود الذهبية والنحاسية البيزنطية لصلتهم الوثيقة بعرب الشام ، فقد كانت التجارة بينهم موسمية منتظمة ، يحمل التجار من عرب الجزيرة حاصلات اليمن والحبشة والسواحل الافريقية ، وربما بعض ما يرد من الهند الى الشام ، ويعودون بمنتجات الشام والنقود البيزنطية ، وكانت النقود البيزنطية المتداولة ، قبل الاسلام وبعده ، نقود فوكاس (٦٠٢ ـ ٦١٠ م) ونقود هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١) ولا بد ان تكون نقود الاباطرة السابقين موجودة ايضا ، بدليل ان النقود المقلدة من قبل العرب تحمل صورهم(٢) .

وبالرغم من ان الجيوش العربية الاسلامية نجحت في تحرير الشام ومصر في العهد الراشدي ، الا انها لم تستطع القضاء على الامبراطورية البيزنطية ، بينما نجحت في القضاء على الامبراطورية الساسانية ودخلت المناطق التي كانت تابعة لها ضمن نطاق الدولة الاسلامية . ولذلك فقد استمرت الحروب بين العرب والبيزنطيين ، لان الروم في نظر العرب هم العدو الذي طرده القادة الفاتحون من الشام ومصر ، ثم اخذوا يتعقبونه ، بحرا في قبرص ورودس ، بل قدر لهم ان يقهروه ويهزموه في أول معركة بحرية خاضها الاسطول العربي . ولما قامت الدولة الاموية اندفعت الجيوش والاساطيل الاسلامية حتى بلغت أبواب القسطنطينية مرة اولى وثانية وثالثة ، واستمرت الدولة فيما بين هذه الحملات ماضية في ارسال الصوائف والشواتي سنويا ، ولم تكف عن ذلك حتى بعد اخفاق الغزوة الثالثة ، اذ ان الخلفاء بعملهم هذا كانوا يتابعون عملية

الجهاد ضد اعداء المسلمين ؛ كما ان هذه الحملات كانت تكسب الامراء هالة من المجد، بالاضافة الى ان عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من ان تحافظ جيوشهم الشامية على ما تتمتع به من نظام وسجايا ، لان بني امية ، كما يقول البلاذري ، كانت تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية مما يلي ثغور الشام(٣) . ولكن حالة الحرب هذه لم تكن تستدعي بالضرورة توقف جميع العلاقات ؛ لاننا لا نستطيع ان نسبغ على حياة القرون الوسطى ظواهر هي من طبيعة العلاقات السياسية الحديثة ، فابن جبير في رحلته مثلا يتحدث عن اتصال تجاري مزدهر كان يقوم بين المدن الاسلامية في الشام وميناء الصليبيين في عكا خلال الحروب الصليبية(٤) ، وهو اتصال لم يكن يتأثر اطلاقا بالاعمال العسكرية الناشبة حينئذ بين الامراء المتنازعين وجيوشهم ، الا ان قلة المعلومات المتعلقة بالشام في مصادرنا قد تؤدي الى الظن بان فتح العرب الشام ومصر كان عاملا في توقف العلاقات التجارية بين العرب والبيزنطيين ، في حين ان الفتح العربي لم يؤد الى تغييرات اقتصادية حاسمة ولعل رواية ابي عبيد في كتابه ــ الاموال ــ تشير الى هذا الاستمرار في التبادل التجاري ، فهو حين يتطرق الى موضوع الضريبة المفروضة على تجار الثغور أو أهل الحرب يذكر انه كان من مذهب عمر فيما وضع من ذلك ، انه كان يأخذ من التجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، ومن أهل الذمة نصف العشر ، ويأخذ العشر على تجارة أهل الحرب ، وانه انما فرض عليهم العشر لانهم كانوا يأخذون من تجار المسلمين مثله اذا قدموا بلادهم . وبعد هذا ببضعة سطور يحدد من هم التجار اهل الحرب على نحو لايقبل اللبس فيقول : « الروم كانوا يقدمون الى الشام »(٥) .

كما يذكر البلاذري وابن قتيبة ان القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من ارض العرب وتأتي من قبلهم الدنانير(٦) . فاذا أضفنا الى هاتين الروايتين الواردتين في مصادرنا العربية ، أن العرب تركوا ممارسة التجارة البحرية في الشام ومصر لمن كانوا يمارسونها سابقا من سكان الاسكندرية أو سكان مدن السواحل الشامية ؛ واعتماد معاوية ويزيد على النصارى(٧) ، وبقاء اللغة اليونانية في الشام لغة دواوين الخراج، وتسامح الامويين مع النصارى من أهل البلاد ، واحتفاظ أوراق البردي التي كان يصنعها الاقباط في مصر بالشارات والتعابير المسيحية التي كانت مستخدمة في العهد البيزنطي ، وانتقال دور الطراز في تنيس وتونة ودمياط والتي كانت تحتكرها الدولة البيزنطية الى ايدي العرب(٨) ، واستمرار دور الضرب البيزنطية في سك العملة الذهبية التي بقيت حتى عام ٦٩٢م ــ ٧٣هـ النقد الاساسي المتداول في مصر والشام (٩)، وبقاء النقد الذهبي البيزنطي النقد العالمي المستخدم في المعاملات التجارية في عالم البحر المتوسط (١٠) ، امكننا القول بوجود نوع من الاستمرار للماضي البيزنطي ، بالرغم من التغييرات السكانية في منطقة الساحل الشامي (١١)، والحروب المتكررة مع الدولة

البيزنطية ، وان الفتح العربي لم يؤد الى تغييرات اقتصادية حاسمة في تجارة عالم البحر المتوسط .

ولكننا لا نستطيع ان ننكر ان الفتح ادى الى بعض التغييرات ، من أهمها ايقاف ما كان يرسل الى القسطنطينية من مصر من حبوب والتي اصبحت ترسل الى مكة والمدينة ، مما اضطر هرقل الى ايقاف توزيع القمح مجانا في العاصمة والاعتماد على مناطق اخرى تمد العاصمة بما تحتاجه ، وهذا بدوره أدى الى استفادة سكان بعض المناطق الاخرى التابعة للدولة البيزنطية ، كالمناطق الزراعية في البلقان واسيا الصغرى ، وجنوبي روسيا ، لانها وجدت اسواقا جديدة لمنتجاتها (١٢).

اما التغيير الثاني ، فهو التنحي عن كثير من القوانين التي سنها جستنيان ، فيما يتعلق بالتصدير والاستيراد في القرن السابق . ذلك ان العرب عندما سيطروا على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني ، وسيطروا كذلك على الشام ومصر ، لم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من اهمية ، كما ان حكام القسطنطينية في هذه الفترة ، كما تشير الى ذلك الادلة المختلفة ، لم يمنعوا التجارة مع الشام ومصر الا فيما يتعلق بالخشب المستخدم في بناء السفن ، لان المنع يعني الاعتراف بخسرانهم لهاتين الولايتين نهائيا . ويبدو ان الحكام البيزنطيين ،حتى سنة ٦٩٢م – ٧٣هـ ، كانوا يرفضون الاعتراف بان الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية ، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسلة من هاتين الولايتين قانون جستنيان ، وان كانت الضرائب الجمركية تفرض بالطبع على هذه المنتجات المستوردة ، كما ان قوانين الملاحة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقا ، يبدو وكأنها اختفت في هذه الفترة ، واصبح التجار احرارا لا رقابة من الدولة عليهم بعد ان توقف اصدار القمح من الاسكندرية الى العاصمة (١٣). وظهر قانون الملاحة الروداني الذي اصبح بموجبه ربابنة السفن احرارا في ان يتوجهوا الى المكان الذي يريدونه من اجل اخذ حمولتهم (١٤) . ولذلك فان القرن السابع بشكل عام يمكن اعتباره عهد التجارة الحرة غير المقيدة في البحر المتوسط(١٥)، كما ان كلا من الشام ومصر كانتا مزدهرتين اقتصاديا في حوالي ٧٠٠ م – ٨١ هـ ، فعلاقات مصر التجاريةمع الجنوب والشرق ازدادت ، لان الساسانيين الذين هددوا في نهاية القرن السادس توسع التجارة المصرية في البحر الاحمر والمحيط الهندي تحطمت قوتهم على ايدي العرب ، فعادت لهذا الطريق اهميته ، واستفادت دمشق من فائض الاموال التي كانت ترسل الى بيوت اموالها (١٦) ، ومن اخماس الغنائم التي كان يرسلها القادة من الشرق والغرب (١٧). كما ان ازالة الحواجز التجارية القديمة بين منطقة العراق والشام قد ساعد على ازدهار التجارة مع الشرق ، ولعل الساحل الشامي فقط هو

الذي كان يعاني احيانا من تمرد السكان الجراجمة مثلا ، ومن هجمات الاسطول البيزنطي احيانا اخرى ، فلم يصل الى المستوى المرتفع في الثروة التجارية والصناعية التي كانت تتمتع بها الاقسام الداخلية . ومع ذلك لابد من الحذر قبل اعطاء احكام قطعية ، فان هذه المنطقة الساحلية كانت ولا تزال قادرة على أن تمد الاسطول العربي باعداد كبيرة من الافراد ، كما ان قبرص بالرغم من الغزوات كانت قادرة على ان ترسل جزية سنوية مقدارها سبعة الاف دينار الى دمشق ، ومبلغا مماثلا الى الى القسطنطينية ، وهذا بدوره يشير الى ازدهار تجاري(١٨) .

واذا كانت السنوات الخمسون من حكم العرب للشام ومصر لم تؤد الى نتائج سلبية بالنسبة الى الحياة الاقتصادية في القسم الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، فان الدلائل كذلك تشير الى عدم تدهور الاقتصاد في الغرب . ويقدم لوبيز (Lopez) ادلة قيمة على استمرار تجارة غير مضطربة نسبيا في كل البحر الابيض المتوسط خلال القرن السابع (١٩) . ونجد في شمال افريقيا مثالا واضحا ، فالبرغم من ان ولاية افريقية البيزنطية قد عانت من غزوات العرب ابتداء من ٦٤٧ م — ٢٧ هـ ، فان الدلائل لا تشير الى تحطيم في قدراتها الانتاجية او ازدهارها التجاري ، وقد دهش العرب عندما قاموا بغزوتهم بغنى افريقية ، اذ كان اكثر اموالهم من الذهب والفضة « وكانت توضع بين يدي عبد الله بن سعد بن سرح اكوام الذهب والفضة ، فقال للافارقة : من اين لكم هذا ، فجعل رجل منهم يلتمس شيئا في الارض حتى جاء بنواة زيتون ، فقال : من هذا اصبنا الاموال لان اهل البحر والجزر ليس لهم زيت فكانوا يشترون الزيت من هنا »(٢٠) واذا صدقت رواية ابن عذاري فقد كان سهم الفارس بعد معركة سبيطلة ثلاثة الاف دينار وسهم الراجل الف دينار (٢١)، وفي الفترة ما بين ٦٩٥ — ٧٠٥ م/٧٦ — ٨٧ هـ كانت ولاية افريقية لاتزال قادره على ان تبهر العرب بثروتها من الذهب والفضة والجوهر والياقوت، وانواع الدواب والرقيق والامتعة(٢٢) وفي هذا دليل على ازدهار الشواطىء الافريقية في القرن السابع الميلادي .

وتقدم ايطاليا دليلا اخر على استمرار التجارة مع الشرق ، ولاسيما رافينا (Ravenne) (٢٣)، التي كانت لها علاقات وثيقة مع القسطنطينية والاسكندرية(٢٤) . كما أن السوريين كانوا معروفين على نطاق واسع ، فاربعة من البابوات في اواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن كانوا سوريين ، كما وجد دير للسوريين في روما . وهذا كله يشير الى ان العلاقات مع الشام هي اقوى مما كان يعتقد(٢٥) . اما فرنسا فقد كانت المركز التجاري الاساسي للتجار السوريين ، وحتى ٧١٦ م — ٩٨ هـ كان جنوب فرنسا يستورد التوابل الشرقية واوراق البردي ، ومنتجات اخرى ، ونجد دليلا على ذلك ، كما يقول بيرين (Pirenne)، في الامتياز الذي منحه الملك الميروفنجي في تلك

السنة لدير كوربي (Corbie)باستيراد البضائع الشرقية دون دفع ضريبة في ميناء فوس (Fos) ان هذا الامتياز يؤكد ما كان قد منح من امتيازات في القرن السابق (٢٦) ومع ذلك فهنالك شواهد تشير الى ازمة اقتصادية في فرنسا واسبانيا في اواخر القرن السابع واوائل القرن الثامن الميلاديين . ومهما كانت عوامل هذه الازمة فقد انعكست على النقد المستخدم عند القوط والميروفنجيين ، اذ ازدادالاعتماد على النقد الفضي ، بينما اخذ النقد الذهبي بالتضاؤل(٢٧) .

ان الادلة السابقة تشير الى ان حوض البحر المتوسط كان لا يزال وحدة مزدهرة سنة ٧٠٠م ـ ٨١هـ . فاذا درسنا الوضع الاقتصادي سنة ٧٥٢م ـ١٣٥هـ، نجد مصر والشام في حالة من الفوضى والاضطراب ، وكذلك شمال افريقيا واسبانيا، وفرنسا راكدة ، ولا نجد اثرا للسوريين والمصريين في الاسواق الغربية ، ونجد ان الاسرة الكارولنجية هي المسيطرة بدلا من الميروفنجيين في اكس لاشابل (Aix la Chapelle) والعباسيين بدلا من الامويين وعاصمتهم بغداد ، وكلتا العاصمتين تبعدان عن شواطىء البحر المتوسط ، ولا شك ان امرا هاما قد حدث وادى الى مثل هذه الثورة الاقتصادية والسياسية العميقة(٢٨) .

قد نجد تفسيرا لهذه التغيرات الاقتصادية والسياسية في التبدل الذي اصاب طبيعة النزاع بين الامويين والبيزنطيين مابين ٦٩٢ ـ ٧٥٢ م/٧٣ ـ ١٣٥ هـ. ذلك ان الاسلوب الذي اتبعه العرب في محاولاتهم الاستيلاء على القسطنطينية كان عسكريا بحتا في البدء . اما في محاولتهم الثالثة للقضاء عليها فنرى تداخل العامل الاقتصادي، فبالاضافة الى العداء العسكري والبحري اضيفت الحرب الاقتصادية .

وقد بدأت هذه الحرب الاقتصادية عندما ضرب عبد الملك بن مروان الدنانير الذهبية المعربة . ويجمع المؤرخون العرب على ان عبد الملك هو اول من ضرب الدراهم والدنانير العربية في الاسلام ، وان كا ن المؤرخون يختلفون في سنة ضربها فان عددا كبيرا يؤكد ان ذلك تم سنة ٧٦هـ (٢٩). ولكن البلاذري يذكر عن محمد بن سعيد عن ابي الزناد عن ابيه ان عبد الملك اول من ضرب الذهب عام الجماعة سنة اربع وسبعين ، ويعود هذا الاختلاف في الواقع الى ان تعريب النقد مر بمراحل قبل ان يصبح عربيا خالصا ، فقد وجد دينار في سورية حوالي عام ١٩٥٤ وانتقل الى لبنان ومنه اقتني لصالح متحف كراتشي حيث هو محفوظ الان. وهذا الدينارالعربي الجديد يعود الى سنة ٧٤هـ ، وهو يمثل على الوجه شخص عبد الملك واقفا متقلدا سيفا مرتديا ملابس مزركشة ، وكتب في المدار حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة « بسم الله ، لا اله الا الله وحده ، محمد رسول الله » وعلى الظهر بدا في الوسط الصليب البيزنطي المحور، وكتب حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة ايضا

« بسم الله » « ضرب هذا الدينار سنة ٧٤ هـ » . هذا الدينار لايزال فريدا في العالم وقد ضرب على نمطه دنانير في السنوات ٧٥ ، ٧٦ ، هـ(٣٠) . ويرى علماء الاثار ان هذا الدينار يمثل الخطوة الخامسة من مراحل تطور النقود الذهبية نحو التعريب ، اذ كان التعريب واضحا ، وان كان التاثير البيزنطي لايزال موجودا . امـا الدنانيـر العربية الخالصة فلا تحمل صورا للخليفة ، بل مأثورات عربية صرفة ، فاذا كان هذا الدينار الذي ضرب سنة ٧٤هـ يمثل الخطوة الخامسة ، فمعنى ذلكوجود دنانير معربة قبل عام ٧٤هـ وبالاستناد الى ذلك يمكننا تقبل رواية تيوفانس التيتذكر ان جستنيان الثاني نقض الهدنة سنة ٦٩٢م ــ ٧٣هـ مع عبد الملك ، متخذا من مسألة الدنانير تعلة لنقض الصلح(٣١) ، لانه اعتبر سك عبد الملك للدنانير افتئاتا على امتيازاتالامبراطور . فاذا اضفنا الى ذلك ان عبد الملك امر ان تزال الشارات والتعابير المسيحية من اوراق البردي وان تضاف التعابير الاسلامية(٣٢) ، لاتضح لنا ان عبد الملك اراد بعمله هذا ان يحرر الدولة الاسلامية منالسيطرةالبيزنطية اقتصاديا وان يقيم وحدة اقتصادية مستقلة ، وربما اراد بعمله هذا ان يحققنوعا منالضغط الاقتصادي لاسيما وانرواية المدائني عن مسلمة بن محارب ان خالد بن يزيد اشار على عبد الملك بتحريم دنانير الروم ومنع التعامل بها ، ومنع دخول شيء من القراطيس بلاد الروم « فمكث حينا لا يحمل اليهم »(٣٣) .

اذا كانت العوامل السابقة تعلل اصدار عبد الملك للعملة الذهبية المعربة ، فانها لا تكفي لتعليل اصدار العملةالفضية ــ الدراهم ــ في العراق ، وهذايعنيوجود اسباب اخرى ، وان للمسألة جذورا اعمق تتصل بالحياة الاقتصادية ، وتتعلق بها اعتبارات دينية . فقد كانت النقود مختلفة الاوزان والقيم(٣٤) دون ان يكون هناك مقياس ثابت موحد في جميع انحاء الدولة يمكن من تحديد النسب بينها ، فكانت حالة النقد هذه عائقا للنشاط التجاري ، كما ان الافراد المسلمين كانوا يلقون حرجا عند اداء واجب الزكـاة (٣٥) .

وكذلك كانت الدولة تجد صعوبة اذا ارادت ان تستـوفي حقوقها من الجزية والخراج ، مثال ذلك ان الخليفة عمر قسط الخراج في العراق ورقا وعينا ، والدراهم تؤدى فيه عددا ، ففسد الناس فكانوا يؤدونه بالطبرية ووزن الدرهم اربعـة دوانق (كل دانق قيراطان ونصف) ويستبدون بالوافي ووزنه مثقـال (مثقال الفضة في العراق ١٢ قيراطا)(٣٦) . فلما ولي زياد بن ابيه طلب اداء الوافي فشق ذلك علـى الناس (٣٧) . فلما استوثق الامر لعبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب وعبد الله ابني الزبير فحص عن النقود والاوزان والمكاييل وضرب الدنانير والدراهم ، فجعل وزن الدينار اثنين وعشرين قيراطا الا حبة بالشامي ، وجعل وزن الدرهم خمسة

عشر قيراطا سوى (أي لا زيادة فيه ولا نقصان) وجعل عبد الملك الذهب الذي ضربه دنانير على المثقال الشامي(٣٨) . (المثقال الشامي ٢٤ قيراطا) .

كان اصلاح عبد الملك اصلاحا حاسما ، قضى على المفاسد التي كانت موجودة وأوجد النقد القومي العربي للدولة الاسلامية ، وبقي عمله لانه قام على أساس علمي. ولكن اذا كان تعريب الدرهم لم يثر ردود فعل فهذا امر طبيعي ، لان الدولة العربية كانت قد قضت على الدولة الساسانية وامتد الحكم العربي الى كل المناطق التي كانت سابقا تحت نفوذها ، أما الدولة البيزنطية فكانت لا تزال قائمة . واذا كان الاباطرة في البلاط البيزنطي قد رفضوا ، طيلة الفترة السابقة ، الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عنهم ، فان التعريب الذي تم في عبد الملك ، سواء في مجال النقد ام القراطيس ، ثم في دواوين الخراج فيما بعد ، يدل بوضوح على أن الامور التى حاكى فيها الخلفاء الادارة البيزنطية ، أو نقلوها بعد التعديل ، انما هي محاولة عامدة منهم غايتها دراسة الحيثيات واعداد أنفسهم للسيطرة على مقدرات دولتهم ، ومن ثم فان بيزنطة لن تقف مكتوفة الايدي أمام هذه التدابير ، وكان جواب جستنيان على الدنانير المعربة التي أرسلها له عبد الملك نقض الهدنة واعلان الحرب ، فالتقى المسلمون بالجيوش البيزنطية بالقرب من قيصارية (Caesarea) في معركة سيباستبولس (Sebastapolis) ، وهزم جستنيان هزيمة شنيعة كاد معها أن يخسر آسيا الصغرى بكاملها (٣٩) . ولا شك أن جستنيان قام من ناحية اخرى ببعض التدابير لقطع التجارة مع اعدائه ، وربما كان هذا هو التفسير الوحيد لذلك التهجير الوحشي الاجباري لسكان قبرص الذين كانوا يتاجرون مع الشام ، فاذا كان هذا التعليل صحيحا فانه يفسر كذلك ثورة الاسطول في بند كبير هايوت (Kibyrrhaeot) (٤٠) الذي يعتمد الى حد كبير في تجارته على مصر ، وسيره نحو القسطنطينية لخلع خليفة جستنيان الثاني (٤١) . وقد يفسر لنا كذلك لماذا أسهم تجار (رافينا) وهم الذين كانوا يمدون مصر بالاخشاب، في سقوط ذلك الامبراطور . (٤٢) كما انه مما يثير الانتباه ان من أول أعمال تبيريوس الثالث (Tiberius Apsimarus) ٦٩٨ — ٧٠٥م/٧٩ — ٨٧ هـ والذي كان حاكم بند (الكبيرهايوت) انه عمد الى ارسال ثلاثة من أشراف قبرص يرافقهم موظف امبراطوري كبير لاعادة القبارصة الموجودين في رومانيا (Romania) وسيزيكس (Cyzicus) وفي البندين الكبيرهايوت وتراقيا (Thracia) كما حاول ارجاع أولئك الذين كانوا قد هربوا الى الشام ، وذلك رغبة منه في اعادة سكان قبرص ٦٩٨م/٧٩هـ (٤٣) . وربما حقق تيبيريوس بذلك نوعا من السلم الاقتصادي مع الامويين ، لاننا لا نشاهد ضغوطا اقتصادية تمارس من قبل الخليفة في دمشق في عهد ذلك الامبراطور .

ولكن ما أن عاد جستنيان الى السلطة سنة ٧٠٥م/٨٧هـ حتى نلاحظ عودة الى ظهور حرب اقتصادية مرة ثانية ، فنرى من جهة استمرار الوليد بن عبد الملك في عملية التعريب التي كانت قد تمت في الشام والعراق في خلافة عبد الملك ، والتي لم يتم تطبيقها في مصر الا في عهد الوليد(٤٤) . وتشير اورا ڤالبردي ، ان الاوراق المعربة تماما تعود الى ٧٠٩م/٩١هـ ، وأن آخر ورقة بردي تحمل اللغتين اليونانية والعربية تعود الى ٧١٩م/١٠١ هـ (٤٥) . كما أن الوليد هو الذي طبق ، في السنة نفسها (٩١ هـ) ولأول مرة ، الرقابة على سكان مصر . فقد أوجد نظاما صارما أجبر فيه الافراد على حمل سجلاتهم ، والزم كل فرد يريد الانتقال من جهة الى اخرى في انحاء القطر المصري ، أو يريد ركوب سفينة أو النزول منها ، أن يحمل سجله ، وأمر الوالي بالقبض على كل شخص لا يحمل سجله معه ، اما من فقد سجله ، أو أتلفه ، فقد كان الوالي يلزمه الحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة قدرها خمسة دنانير (٤٦) . كما أن مخطوطة سيريانية لمؤلف مجهول تشير الى ان الوليد اصدر عام ١٠٢٠ سلوقي /٧٠٨م/٩٠هـ أمرا باحصاء المقيمين ، وكذلك كل مسافر يعود الى منطقته او أرض أجداده او مكان تولده(٤٧) . فنلاحظ تشديدا على تحركات الرعايا ، نجد ما يقابله عند حكام بيزنطة الذين بدأوا يتشددون كذلك مع رعاياهم الذين يريدون التوجه الى الاراضي العربية (٤٨) . الا أن الاجراءات الاقتصادية التي اتخذها جستنيان الثاني وخلفاؤه هي التي كان لها اكبر الاثر ، ومن الصعب اعطاء صورة متكاملة للنظام الذي طبق ، في حين يمكن رسم الخطوط العريضة له ، في العودة الى النظام التجاري المقيد الذي كان متبعا في عهد جستنيان الاول وخلفائه ضد الامبراطورية الساسانية ، حيث كانت طرق التجارة والبضائع المستوردة كلها موجهة بدقة لمصلحة الامبراطورية والدفاع عن مصالحها كما أن بيزنطة استخدمت اسطولها لدعم ذلك النظام . وهنالك من الاسباب ما يدفع الى الاعتقاد بأن بيزنطة طبقت في حوالي ٧١٥ ، ٧١٦ م / ٩٧ ، ٩٨ هـ الحرب الاقتصادية المدعومة بالقوى البحرية على الولايات الاموية وبعض المناطق المجاورة ، والافتراض ، كما يقول هايد (Heyd) بأن هذا النظام قد طبق على الولايات العربية يقوى عندما نعلم أن اخر حمولة ضخمة من البضائع الشرقية تسجل في ميناء فوس (Fos) كانت سنة ٧١٦ م/٩٨ هـ ، كما ان مملكة لومبارديا اوقفت استخدامها لاوراق البردي(٤٩) ، أي ان البيزنطيين أغلقوا البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الاراضي العربية ، الا اذا اتبعت هذه السفن الطرق والتنظيمات المفروضة من قبل بيزنطة ، وقد يفسر هذا توجه اسطول اسلامي ضخم في اواخر ٩٩ هـ نحو القسطنطينية(٥٠) اذ أن الحصار البيزنطي كان يعني تهديدا للحياة الاقتصادية والتجارية في الشام ومصر (٥١) .

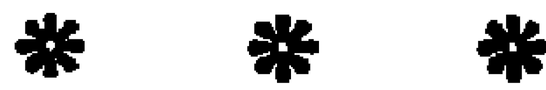
الا ان بيزنطة لم يكن باستطاعتها ان تتخلى عن منتجات العالم العربي ، كما أن

التوابل وبضائع الشرق ، التي كان يتاجر بها التجار المسلمون ، كانت موادا أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية . ولذلك سمح حكام بيزنطة لمرفأ أو مرفأين مراقبين باستقبال التجار المسلمين ، منهما مرفأ طرابزون (Trebizond) الذي كان يسمح فيه بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة (٥٢) ويعلق لوبيز (Lopez) انه بالرغم من أننا لانملك دليلا واقعيا ، الا أنه ليس ثمة ما يمنعنا من الافتراض أن هذا الاجراء قد يعود الى ٧١٦ م — ٩٨ هـ ، أو قبل ذلك ، لان اختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة ، فطرابزون مرفأ أمين على البحر الاسود غير مهدد . وباتخاذهم طرابزون كمحطة نهائية للتجارة العربية ، سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام ، المركزين البحريين لمنافسيهم الامويين ، الى بلاد العراق ، التي لم تكن تشكل خطرا عليهم . وربما كانت القسطنطينية المرفأ التجاري الثاني الذي كان يسمح للتجار بدخوله والخروج منه ، لاننا ، اذا نظرنا الى التعليمات الواردة في كتاب صادر في القرن التاسع الميلادي والمتعلقة بتجارة العاصمة ، نجد ان هذه التعليمات تشير بصراحة الى أن التجار العرب كانوا يشجعون على المجيء الى المدينة من القرن الذهبي، حيث كانوا يعطون امتيازات تجارية خاصة(٥٣) . وربماكان هذا الوضعمطبقامنذ العام ٧١٨ م — ١٠٠ هـ ، فالجامع الذي يقال ان ليون الايسوري قد بناه في القسطنطينية قد يؤيد هذا الافتراض .

غير أن وضع نظام لتقييد التجارة شيء ، وفرضه على الاعداء العرب أمر آخر . الا أن عاملين اثنين سهلا تنفيذه أكثر مما كان متوقعا ، العامل الاول ، هو قوة الاسطول البيزنطي الذي خرج منتصرا ١٠٠ هـ ، واخذ يمخر عباب البحر المتوسط ، وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من الجزر في هذا البحر ، كجزر البليار ، وساردينيا، وكورسيكا ، التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال الافريقي والساحل الاسباني ، بالاضافة الى سيطرة بيزنطة على مضيق مسينا وعلى مدخل البحر الادرياتيكي . ولذلك كان من السهل جدا منع اي سفينة تتوجه غربا أو شرقا من الاستمرار . أما العامل الثاني الذي ساعدهم ، فهو ان الطريق البحري المتبع هو طريق كريت قبرص الساحل الجنوبي لاسيا الصغرى . وبالرغم من أن الخطالبحري المباشر من الاسكندرية الى كريت كان مستخدما كذلك ، الا ان قوة الاسطول البيزنطي مكنته من أن يقطع بشكل فعال التجارة ، ليس مع الغرب فقط ، وانما بين الشام ومصر وشمالي افريقيا (٥٤) واذا استطاعت سفينة أن تفلت من رقابة الاسطول البيزنطي في نقطة معينة ، فهناك احتمال كبير ان يعترضها هذا الاسطول في مكان آخر، ونظرة الى شواطيء البحر المتوسط في هذه الفترة تبين لنا أن هذا الحصار الاقتصادي قد طبق بشكل فعال ، لاننا اذا اتجهنا بأنظارنا الى الشرق ، حيث كانت

الاجراءات الاقتصادية والبحرية موجهة ضد مصر والشام بالدرجة الاولى ، نلاحظ أن الشام ٧٥٢ م / ١٣٥ هـ قد خسرت مركزها التجاري الهام ، وبقيت مدن الساحل الشامي عاجزة مدة عشرين عاما عن تشكيل اسطول (٥٥) وانتقل الحكم الى العباسيين حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون ، وخسرت الشام مكانتها كمركز للخلافة الاسلامية .

هذا في الشرق ، اما في الغرب ، فاننا نجد فرنسا ، التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر ، تمر بفترة ركود اقتصادي بعد سنة ٧١٦ م ، اذ لم تعد ترى تجارا سوريين في موانيها الجنوبية أو تجارا من مناطق اخرى . كما أن المدن التي هدمها الكارولنجيون بقيت مهدمة ، وتوقف سك النقود الذهبية مدة خمسين سنة ، ابتداء من منتصف القرن الثامن الميلادي (٥٦) وهكذا ترى أن البيزنطيين ، في حربهم حتى الموت ضد الامويين ، استخدموا الاجراءات الاقتصادية والبحرية للوصول الى النصر في الفترة مابين ٧١٥ ــ ٧٥٢ م ٩٧ ــ ١٣٥هـ وقد ساعدت الظروف السياسية واضطراب الامر في الشام ، وقيام الثورة العباسية، ساعدت بيزنطة على تحقيق مآربها ، وبعملها هذا حطمت بيزنطة النمط الاقتصادي القديم للحياة في بلدان البحر المتوسط وهيأت المجال لظهور نمط جديد .



الحواشي

(١) ادم ميتز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، تعريب محمد عبد الهادي ابو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ج٢ ص ٣١٦ . ويذكر ادم ميتز انه كان بين بيزنطويين كلودفيج ملك الفرنجة معاهدة كذلك .

(٢) محمد ابو الفرج العش ، النقود العربية الاسلامية ، مصدر وثائقي للتاريخ والفن ، المؤتمر الدولي لبلاد الشام ، الجامعة الاردنية ، ١٩٧٤ ، ص ٢٧٢ .

(٣) البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٧ . مؤرخ مجهول ، العيون والحدائق ، ص ٨٩ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ١٩٥٩م ص ٢٦٠ ، ٢٧٦ .

(٥) أبو عبيد ، كتاب الاموال ، الفقرة ١٦٥١ ، ١٦٥٥ .

(٦) ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، القاهرة ، ١٩٢٥ ، ج١ ص ١٦٨ . البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ .

(٧) خليفة بن خياط ، ج١ ص ٢٧٦ . الطبري ، ج٥ ص ٣٢٠ . الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٢٤ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ص ٢٢٣ . تهذيب تاريخ دمشق ج٦ ص ٧٣ ، ٢٧٨ . ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤ .

(٨) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ .

Grohman , Allgemeine **Einfuhrung der Arabischen Papyri** , Vien, 1924, pp. 77, 92.

The Kurra Papyrie from Aphrodite , The Oriental Institute , Chicago , 1936, pp. 70 - 72.

(٩) Archibald Lewis , **Naval Power in the Mediterranean,** 500 - 1100, p. 79.

(١٠) Ibid, p. 81.

(١١) البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٤ ، ١٦٦ ، ٣٦٩ .

(١٢) Vernadsky, G., **Sur L'Origine de la loi** Agraire, Byzantium, 1925, IV pp. 169 - 180.

(١٣) Charanis, p., **The Social Structure Of The Later Roman Empire,** Byzantium, 1944 - 1945 XVII pp. 50 - 51.

(١٤) Archibald Lewis, **op. Cit**, p. 83.

يشير انعريادس الى ان البعض ينسب هذا القانون الى الاباطرة الايسوريين ، ولكن اوستروغورسكي Ostrogorsky يبين انه لا يمكن ان نقول اكثر من ان هذا القانون صدر ما بين ٦٠٠ و ٨٠٠ م . وهناك اشارة في الموسوعة البريطانية الى هذا القانون ولكن دون ايضاح دقيق .

(١٥) The largely mythical body of law attributed to the Rhodian mariners has been constructed from a Few scattered references in the Digest. E.B.ed., 1970, Art. Maritime Law. Andre M. Andreades, The Economic Life of the Byzantine Empire, Byzantium II p.65 Archibald Lewis, **Op. Cit.** p. 83.

(١٦) اليعقوبي ، تاريخ ، ج٢ ص ٢٣٤ . ابن عبدالحكم ، فتوح ص ١٠٢ . المقريزي ، الخطط ، ج١ ص ٥١٤ . ساويرس ، ج٥ ، ص ١٨٩ .
البلاذري ، انساب ، القسم الرابع ج١ ص ٢١٨ . ابن الاعثم ، فتوح ، ج٤ ص ١٨١ .

(١٧) ابن الاعثم ، فتوح ، ج٢ ص ١٢٣ ، ج٧ ص١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٣ . ابن الاثير ، الكامل ، ج٥ ص ١٥٦ .

(١٨) صالح معاوية قبرص بعد غزوته الثانية على سبعة الاف دينار ولم يزل اهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم الف دينار ، فجرى ذلك الى خلافة عمر بن عبدالعزيز فحطها عنهم ، فلما ولي هشام بن عبد الملك ردها ، فاستمر الامر على ذلك حتى خلافة ابي جعفر المنصور الذي ردهم الى صلح معاوية .

(١٩) Lopez , Mohammed & Charelemagne, A Rivision is Speculum , 1943 , XVIII, p. 22.

(٢٠) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج١ ص ٨ .

(٢١) المصدر السابق ، ص ٨ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٣٠ .

(٢٣) Diehl, ch., **Etude Sur L'Administration dans L'Exarchat de Ravenne**, Paris, 1888, pp. 279 - 280.

(٢٤) Ibid., pp. 279 - 280.

(٢٥) Ibid., pp. 255 - 256.

(٢٦) Pirenne, H. **Mohammed & Charlemagne**, New York, 1939, p. 88.

(٢٧) Ibid., pp. 84 - 85.

(٢٨) Archibald Lewis, p. 88.

(٢٩) الدينوري ، ص ٣١٦ . ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٤١ . الطبري ج ٦ ص ٢٥٦ . ابن الاثير ج٤ ص ٥٤ . القلقشندي ، ج١ ص ٤٢٤ . السيوطي تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٧ .

(٣٠) Miles, The Earliest Arab Gold Coinage, 1967, p. 212.

(٣١) Theophanes, sixth year of Justinian, A. M. 6183, A.C. 692, Bonn, pp. 558 - 559.
George Hill, The History of Cyprus, vol. I, p. 287.

(٣٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣٣) المصدر السابق ، ص ٢٤٢ .

(٣٤) المصدر السابق ، ص ٤٥١ — ٤٥٢ .

(٣٥) اوضح هذا السبب المقريزي في رسالته عن النقود ، مجموعة النقود العربية وعلم النميات ، نشرة الاب انستاس الكرملي ، القاهرة ، ١٩٣٩ ، ص ٣٦-٣٧ .

(٣٦) ولترهينتس Water Hintz المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها بالنظام المتري ترجمة الدكتور كامل العسلي ، منشورات الجامعة الاردنية ، ص ٩ .

(٣٧) ابو هلال العسكري ، الاوائل ، ج٢ ص ٣٢ .

(٣٨) انستاس الكرملي ، النقود العربية . البلاذري ، ص ١٠ . المقريزي ص ٣٤ .
وكان الدينار البيزنطي (Solidus) يزن ٤٫٤٨ غ تقريبا ، (Ostrogorsky p. 217)
اما الدينار الاسلامي فكان وزنه ٤٫٢٠ او ٤٫٣٠ غ ، وهو اقل من وزن الدينار العربي المضروب حسب النمط البيزنطي ، وكان ذلك ضروريا من اجل ايجاد نسبة عادلة بين الدينار الذهبي والدرهم الفضي وزنا وقيمة .

(٣٩) George Hill. Op. Cit, p. 287.

(٤٠) يضم بند الكيبرهايوت الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى والجزر القريبة منه .
Ostrogorsky, p. 139.

(٤١) Archibald Lewis, Op. Cit., p. 89.

(٤٢) Diehl, Exarchat, p. 279 - 80.

(٤٣) George Hill, Op. Cit. pp. 288 - 89.

(٤٤) الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٥٨ .

(٤٥) Archibald Lewis, p. 90.

(٤٦) ساويرس ، سير الاباء البطاركة ، ج٥ ص٧٠.

(٤٧) ص ١٧٦ من المخطوطة السريانية المترجمة الى اللاتينية ، ص ٢٣٣ من المخطوطة الاصلية . (مكتبة جامعة لانكستر) .

(٤٨) Archibald Lewis p. 91.

(٤٩) Heyd, Histoire du Commerce du Levant, Leipsig, 1885, pp. 89 - 92.

(٥٠) يذكر تيوفانس Theophanes ان الاسطول العربي الذي توجه في خلافة سليمان بن عبد الملك لدعم القوات البرية ولاحكام الحصار على القسطنطينية برا وبحرا كان يتالف من ١٨٠٠ سفينة منها سفن حربية واخرى لنقل المؤن ،وكان حصار المسلمين للقسطنطينية حصارا قاسيا شديدا نتيجة للثلوج التي هطلت مدة مائة يوم في تراقيا ، مما عرقل عملية الحصار ، واضطر المسلمون الى تحمل الكثير من المشاق والجهد . وفي الربيع وصلت نجدات برية وبحرية لمسلمة بن عبد الملك ، فقد وصل اسطول من مصر يتالفمن ٤٠٠ سفينة ، واسطول اخر من افريقيا مؤلف من ٢٦٠. سفينة ، الا أن معظم هذه السفن ، كمايقول تيوفانس ، دمرت نتيجة لاستخدام البيزنطيين النار الافريقية .

Theophanes, Tr. Leopold Breyer, p. 27 - 28.

(٥١) Lopez, Op. Cit. pp. 26 - 28.

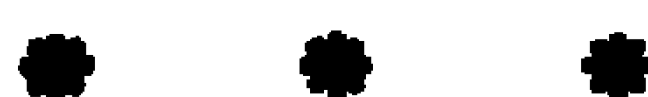
(٥٢) Lopez, Silk Industry in the Byzantine Empire, Speculum, 1945, XX pp. 26 - 27

(٥٣) Ibid, p. 27.

(٥٤) Archibald Lewis 95.

(٥٥) George Hill, Op. Cit. p. 290.

(٥٦) Archibald Lewis, p. 97, Prou. M.
Catalogue de Monnaies Carolingienne de la Bibliothèque Nationale



أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي
من خلال المصادر اليونانية واللاتينية المعاصرة

د. نعيم فرح

جامعة دمشق

تركت حملة الاسكندر المكيدوني أثرا كبيرا في التاريخ والادب التاريخي . لقد ظلت شعوب الشرق الوثنية قرونا عديدة تتحدث عن المدن التي بناها الاسكندر وتتناقل القصص التي نسجت حولها . أما الاسباب الرئيسية لحملة الاسكندر وتوغلها في الشرق فهي الرغبة في تحقيق المصالح الاقتصادية للامبراطورية المكيدونية ـ اليونانية . وحاربت روما أيضا في بداية العهد الامبراطوري من أجل السيطرة على طرق التجارة مع الشرق . لقد فرضت سيطرتها العسكرية على آسيا الصغرى وارمينيا ، ثم احتلت سورية وفلسطين ومصر وقضت على دولة الانباط ودولة تدمر . وامتدت الطرق التجارية البرية من شواطىء البحر الابيض المتوسط الى مدن الصين الشمالية ، فانتقل الحرير الخام والمصنوعات الحريرية من بلد الى بلد ومن تاجر الى آخر حتى وصلت الى عاصمة العالم العظمى – روما . والاهتمام بالصين رافقه اهتمام بالهند لكثرة بضائعها وتنوعها ، بالاضافة الى كونها بلدا وسيطا في بيع حرير الصين .

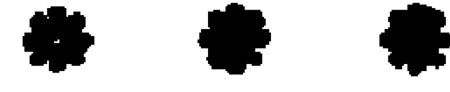
ومع نهاية روما القديمة وسقوطها ولدت روما الجديدة « القسطنطينية » واصبحت عاصمة للامبراطورية الرومانية « البيزنطية » . كانت بيزنطة دولة بحرية كبرى تسيطر على موانى كثيرة تنتشر في سواحل أوروبا وآسيا وافريقيا وفي الجزر، كما تسيطر على انهار كبرى ، مثل النيل و الفرات والدانوب . وصارت القسطنطينية

★ قدم هذا البحث للمؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، الجامعة الاردنية عمان ، ٩ – ١٤ محرم ١٤٠٤ هـ ٢٠ – ٢٥ تشرين اول ١٩٨٣ .

بعد قرن من نشوئها اكبر سوق عالمية تلاقت فيها خيوط الاقتصاد العالمي والسياسة الدولية . وقد اهتمت بيزنطة ببضائع الهند والصين ، فسعت الى السيطرة على الطرق التجارية البرية والبحرية والمؤدية الى الشرق الاقصى . وادى تطور الصناعة في المدن البيزنطية الشرقية ، وبخاصة مدن مصر وبلاد الشام ، الى ازدياد النشاط التجاري ، كما افضى النشاط التجاري الى تطور الصناعة في تلك المدن . لقد اتحدت مصر البطلمية مع سورية السلوقية وغيرها من بلدان الشرق الاوسط تحت السيادة الرومانية ــ البيزنطية ، مما أدى الى نمو التبادل التجاري ، حيث صارت بضائع سورية ومصر تصل الى الهند والصين ، كما صارت خيوط الحرير الصينية وافاويه الهند تصل الى المدن البيزنطية . وكان التجار البيزنطيون والتجار الفرس تجارا وسطاء تاجروا ببضائع الشعوب الخاضعة لسلطتهم والشعوب المجاورة لهم .

امتدت الخطوط التجارية من سواحل البحر الابيض المتوسط الى الهند والصين عبر آسيا ، ولكن هذه الخطوط لم تكن تخضع لسلطة دولة واحدة أو يسيطر عليها شعب واحد ، وانما ساهمت في التجارة العالمية شعوب عديدة منها : اليونان والسوريون والفرس والسغد والاتراك والهنود والصينيون والعرب . كانت روما قد سيطرت على الخطوط التجارية في آسيا الصغرى وبلاد الشام وشمال بلاد النهرين. وقد دابت القسطنطينية على ان تحافظ على النفوذ الروماني ــ اليوناني في هذه المناطق . غير ان السياسة التوسعية لكل من بيزنطية وفارس أدت الى تصادم حربي دائم بين الطرفين ، مما عرقل الحركة التجارية على الخطوط البرية عبر آسيا الوسطى . وعلى هذا اخذت بيزنطية توجه اهتمامها الى الطريق البحرية المؤدية الى الهند والمعروفة منذ العهد الروماني القديم . لقد ادركت بيزنطية أهمية الطريق البحرية عبر البحر الاحمر والمحيط الهندي ، لذلك سعت الى تدعيم نفوذها السياسي في اليمن والحبشة . وعلى هذا نشطت الدبلوماسية البيزنطية في سبيل اقامة علاقات حسنة مع الحبشة والممالك الحميرية في اليمن والامارات العربية الصغيرة المنتشرة على طول الطريق التجارية الممتدة من سورية الى جنوب الجزيرة العربية . ولتدعيم هذه العلاقات شجع الاباطرة البيزنطيون المبشرين على نشر الدين المسيحي في اليمن والحبشة ، كما قدموا المساعدات المالية في هذا السبيل . وكان الهدف الرئيسي للاباطرة البيزنطيين الاستغناء عن وساطة التجار الفرس في جلب بضائع الهند والصين والاعتماد على التجار الاحباش واليمنيين في هذا المجال . وعلى هذا سعى ساسة بيزنطة الى توحيد الحبشة واليمن في دولة واحدة تكون موالية لهم ، فدفعوا الاحباش الى احتلال اليمن . غير أن الفرس لم يقفوا مكتوفي الايدي تجاه الاطماع البيزنطية في السيطرة على الطريق البحرية المؤدية الى الهند ، وانما بذلوا ما في وسعهم لطرد الاحباش من اليمن وتقليص النفوذ البيزنطي فيها ، فاستطاعوا تحقيق ذلك ،

اذ انهم فرضوا سيطرتهم العسكرية على اليمن في اواخر القرن السادس الميلادي . ودامت تلك السيطرة حتى ظهور الاسلام ، حيث تمكن العرب المسلمون من تحرير اليمن من الاحتلال الفارسي وضمه تحت لواء الدولة العربية الاسلامية الناشئة .



ان أهم عوامل الجذب التي ادت الى نقل عاصمة الرومان من ضفاف التيبر الى شواطىء البوسفور تتمثل بتمركز الثقل الاقتصادي (الصناعي والتجاري والزراعي) في الولايات الشرقية من الامبراطورية الرومانية ، وبخاصة في مصر وسورية (بلاد الشام) . ومن جهة ثانية فقد دفع نقل العاصمة من روما الى القسطنطينية عجلة التطور الاقتصادي في الشرق الى الامام . ومدينة القسطنطينية « بيزنطيوم » لم تكتسب لقب « الجسر الذهبي » بين الشرق والغرب الا بعد ان صارت عاصمة سياسية للامبراطورية الرومانية الشرقية . على أن مدن سورية (بلاد الشام) ومصر وآسيا الصغرى ظلت تحافظ على نشاطها الاقتصادي بعد نشوء القسطنطينية حتى الفتح العربي الاسلامي . والمصادر التاريخية والجغرافية المتنوعة المعاصرة لتلك المرحلة تؤكد على استمرار الازدهار الاقتصادي والعلمي والثقافي في مدن مصر وسورية (بلاد الشام) بشكل خاص .

ان قوة المصالح الاقتصادية للطبقات المهتمة بالتجارة الخارجية هي التي دفعت بعض المتنورين الى كتابة نصوص تاريخية وجغرافية ورسم خرائط جغرافية ليتعرف من له منفعة في ذلك على الطرق البرية والبحرية المؤدية الى الهند والصين ، وعلى البضائع المتنوعة من نباتية وحيوانية ومعدنية وغيرها مما تنتجه تلك البلاد والبلدان المجاورة لها أو التي تقع في الطريق اليها . ومن تلك النصوص التاريخية ـ الجغرافية سنتعرف على : الطبغرافية المسيحية لمؤلفها قزما الملاح الهندي ، الطرق من جنة آدم حتى الرومان ، الوصف الكامل للعالم والشعوب ، تاريخ أميانوس ماركيلينوس، تاريخ الكنيسة لمؤلفه فيلوستورغيوس ، تاريخ بروكوبيوس الكيساري • وغيرها . وعدا هذه النصوص التاريخية ـ الجغرافية المذكورة فان الاكتشافات الاثرية وكثرة العملة البيزنطية المكتشفة على طرق الحرير المؤدية الى الهند والصين تؤكد ايضا على نشاط التجارة البيزنطية الخارجية منذ نشوء بيزنطة حتى ظهور الاسلام .

من اي وسط اجتماعي خرجت تلك الكتابات التاريخية ـ الجغرافية التي تشهد على ازدهار التجارة البيزنطية منذ بداية القرن الرابع حتى أواخر القرن السادس ، وماهي الاسباب التي ادت الى ظهور مثل هذه الكتابات ؟ . ان تطور

التبادل البضائعي والمالي في الشرق الاوسط في العصر الامبراطوري الروماني وبداية العصر البيزنطي أدى الى تشكل طبقة واسعة من الصناع والتجار . وان تجمع الاموال الكثيرة لدى بعض التجار الكبار واصحاب المصانع أتاح لهم امكانية الاستيراد وعقد صفقات تجارية كبيرة ، ولذا اهتموا بأمر التجارة الخارجية الى جانب اهتمامهم بالتجارة الداخلية . وتذكر المصادر البيزنطية أيضا وجود التجار الوسطاء الذين يحصلون على المواد الخام ويبيعونها للصناع وأصحاب الورش الصناعية ، ثم يشترونها من هؤلاء ثانية بعد تصنيعها وتحويلها الى مصنوعات جاهزة للاستعمال ، فيبيعونها في الاسواق الداخلية والخارجية . وهكذا نلاحظ أن فئات متعددة من المجتمع في الامبراطورية البيزنطية قد اهتمت بأمور التجارة : التجار الكبار والصغار، الصناع ، أصحاب الورش والمصانع ، البحارة ، أصحاب السفن ، رجال القوافل التجارية ، أصحاب الاراضي الزراعية الذين اهتموا بتجارة الحبوب والمحاصيل الزراعية ، المرابون الذين يقرضون القروض للتجار ، المستهلكون الاغنياء والفقراء ، واخيرا الدولة التي تهتم بجمع الضرائب من الصناع والتجار لتمويل الخزانة . وتطلب ازدهار التجارة المعرفة المتنوعة : معرفة الكتابة والحساب لتسجيل البضائع واثمانها وارباحها ، ومعرفة البضائع الموجودة في كل بلد من البلدان التي يمكن المتاجرة معها، بالاضافة الى البضائع التي يمكن بيعها في أسواقها ، ومعرفة الطرق البرية والبحرية المؤدية الى البلدان التي تتاجر معها الامبراطورية البيزنطية ، والظروف الطبيعية والاجتماعية التي تحيط بالطرق والبلدان التي تمر بها القوافل او السفن ، بالاضافة الى معرفة امور اخرى عديدة .وهكذاجاءت الكتابات التاريخية ــ الجغرافية التي اشرنا اليها ، والتي سنتحدث عنها فيما يلي ، تلبية لحاجات المهتمين بأمور التجارة الخارجية ، ولتؤمن لهم المعارف والمعلومات المتنوعة المطلوبة .

وكان تطور المدارس والجامعات في تلك المرحلة التاريخية (منذ القرن الرابع حتى القرن السابع) له علاقة الى حد كبير بتطور التجارة والعلاقات التجارية . ففي المدن البيزنطية الكبرى مثل : (القسطنطينية ، الاسكندرية ، انطاكية ، بيروت ، الرها ، نصيبين) نشأت مدارس وجامعات متعددة تقدم المعارف المتنوعة لطلاب العلم ، رغم أن التعليم اكتسب طابعا دينيا بصورة عامة ، حيث أشرف عليه رجال الكنيسة بالدرجة الاولى . هذا وقد استغلت الحكومات البيزنطية تأثير الكنيسة المسيحية ونفوذها في البلدان الخارجية التي تتاجر معها ، بغية تأمين مصالحهاالتجارية وتسهيل عملية المبادلات .

من خلال المصادر التاريخية ــ الجغرافية البيزنطية المعاصرة ، التي سنسلط عليها بعض الاضواء في هذا البحث ، نلاحظ ان التجارة البيزنطية العالمية كانت

مزدهرة ونشطة في المرحلة التاريخية مابين القرنين الرابع والسابع الميلاديين . كما نلاحظ ايضا أن مدن بلاد الشام كان لها دور بارز في الصناعة والتجارة العالمية . ولكن هذه التجارة ستتعرض للتقلص والانكماش في أواخر القرن السادس والقرن السابع بسبب توتر الصراع البيزنطي ــ الفارسي أولا ، ثم الصراع البيزنطي ــ العربي ثانيا . على أن التجارة العالمية ستنشط من جديد بدءا من القرن الثامن الميلادي وتبلغ اقصى ازدهارها في العهد العباسي .



المصادر التاريخية ــ الجغرافية

١ ــ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » « Expositio totius mundi et gentium »

وصلت الينا مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » «... Expositio » في نسختين . وقد صنفت النسخة الاولى القديمة بحرف « A » وطبعت سنة ١٦٢٨ على يد العالم يعقوب غوتفريد . أما النسخة الثانية الاحدث منها فقد صنفت بحرف « B » ووجدت منها مخطوطتان طبعتا في سلسلة « الجغرافيات اليونانية الصغيرة » في باريس سنة ١٨٦١ .
«Geographi graeci minores, ed. C. Mullerus, Paris, V.2, 1861 »

ونحن في بحثنا هذا نقتبس عن النسخة الثانية « B » التي نشرها مولر ونعتمد عليها من حيث الترقيم وترتيب الصفحات . ولدى مقارنة النسختين القديمة والاحدث منها : « A » و « B » ، من قبل بعض المؤرخين وعلماء اللغات تبين لهم أن النسخة القديمة « A » كتبت بلغة لاتينية ركيكة جدا . بينما كتبت النسخة الثانية « B » بلغة لاتينية افضل من لغة النسخة الاولى ، ولكنها ليست لغة نحوية صرفة . وعلى هذا افترض بعض العلماء ان المخطوطة مترجمة بالاصل عن اليونانية ، ثم افترض البعض الآخر أن مؤلف المخطوطة سوري او مصري . وأخيرا اكدت المؤرخة السوفييتية نينا بيغوليفسكايا ان مؤلف المخطوطة سوري الاصل(١) .

تقول نينا بيغوليفسكايا : نستطيع أن نتعرف على مؤلف المخطوطة وتاريخها من خلال المعلومات الواردة في المخطوطة نفسها . فالنسخة الثانية « B » من المخطوطة تحتوي على (٦٨) فقرة : منها احدى عشرة فقرة مخصصة لاخبار سورية ، من فقرة ٢٣ ــ ٣٣ ، بينما خصصت اربع فقرات فقط لاخبار مصر . ويذكر مؤلف

المخطوطة التقسيم السياسي في سورية (بلاد الشام) ، كما يذكر أسماء عشرين مدينة سورية ، بينما لم يتحدث المؤلف في أخبار مصر سوى عن مدينة الاسكندرية فقط . ومما يؤكد ايضا ان مؤلف المخطوطة تاجر سوري اهتمامه الخاص بأخبار سورية (بلاد الشام) ومعرفته الدقيقة بمدنها الساحلية والداخلية ، اضافة الى تقديره للتجار السوريين تقديراً رفيعا ، حيث يصفهم بأنهم مهرة اغنياء ويتحلون بمكارم الاخلاق . ومن خلال هذه المعطيات وغيرها يتبين لنا أن المؤلف سوري الاصل وليس مصريا . والم المؤلف باللغة اللاتينية واللغة اليونانية الماما بسيطا ، فكان يكتب المعلومات بلغته السريانية أولا ثم يترجمها الى اللغة اللاتينية . ومن خلال دراسة الاحداث التي ورد ذكرها في المخطوطة يتبين لنا ان المخطوطة قد كتبت في منتصف القرن الرابع (حوالي سنة ٣٥٠ ميلادية) .

اطلق بعض الباحثين على مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » اسم : « الجغرافية الاقتصادية او التجارية للامبراطورية البيزنطية في القرن الرابع » . حيث وردت فيها معلومات وفيرة وصحيحة عن اهم القضايا الاقتصادية في مختلف المدن البيزنطية . كما انها وضعت بيد كاتب وصف ما شاهده بعينيه او عرفه معرفة تامة او سمعه من شهود عيان . لقد تحدث مؤلف المخطوطة عن النواحي الاقتصادية في مدن ايطاليا واسبانيا وموريتانيا ونوميديا وشبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى ومصر وسورية وغيرها . فالفقرات الاولى من المخطوطة (من فقرة ١ ــ ٢٠) تحدث فيها المؤلف عن شعوب الشرق وبلدانه الواقعة خارج حدود الامبراطورية البيزنطية . وبصورة خاصة عن الهند . أما الفقرات التالية (من فقرة ٢١ ــ ٦٧) فقد خصصها المؤلف للتحدث عن النواحي الاقتصادية داخل حدود الامبراطورية البيزنطية .

واهتم مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » بالتحدث عن الحياة الاقتصادية في مدن بلاد الشام بشكل خاص . لقد تحدث المؤلف عن عاصمة سورية الساحلية ــ مدينة انطاكية ــ التي امتازت بنشاط تجارتها ووفرة ثروتها وتنوع بضائعها . ونستدل من حديثه ايضا ان صور وصيدا وبيروت وسلوقية وانطاكية واللاذقية كانت مراكز صناعية تجارية هامة وشهدت ازدهارا اقتصاديا في العهد البيزنطي . ويذكر مؤلف المخطوطة اسماء مدن كثيرة في بلاد الشام مثل : سكيفو بوليس ، اللاذقية ، بيبلوس (جبيل) ، تير (صور) ، بيريتس (بيروت) ، قيسارية ، نيابوليس ، اللد ، ايرخون ، دمشق ، هيليوبوليس ، عسقلان ، غزة ، طرابلس ، اليفتيروبوليس ، كما يقول عن هذه المدن انها تمتاز بمناخ معتدل ونشاط تجاري وفيها رجال اغنياء في كل شيء : في الكلام الجميل الفصيح ، في العمل ، في الاحسان واعمال الخير . ويذكر المؤلف ان جميع هذه المدن توجد فيها الحبوب

والخمور والزيوت بوفرة ، كماتزرع حولها اشجار النخيل ، الا ان النخيل الذي يزرع حول دمشق وايرخون هو من اجود الانواع ، كما تزرع حول هاتين المدينتين ايضا اشجار الجوز والتفاح المتنوعة (٢) .واما مدينتا عسقلان وغزة فتمونان بالخمور كلا من سورية ومصر . هذا ويشبه المؤلف النشاط التجاري في مدن بلاد الشام بغليان الماء (in negotio bullientes) (٣) . وبالاضافة الى الصناعات الزراعية المذكورة اعلاه اشتهرت مدن بلاد الشام ايضا بصناعة مختلف انواع الالبسة . مؤلف المخطوطة يذكر ان الالبسة الكتانية كانت تصدر من المدن التالية : (بيبلوس ،صور ، بيروت ، سكيفوبوليس ، اللاذقية) الى جميع انحاء العالم ، كما ان الاقمشة المصبوغة بالارجوان الحقيقي كانت تصنع في المدن التالية : (ساربتا ، قيسارية ، نيابوليس ، اللد) (٤) .

استمر النشاط الاقتصادي ، الذي تحدث عنه مؤرخ القرن الرابع ، في مدن بلاد الشام في القرون اللاحقة . غير ان الاجراءات التي اتخذها الامبراطور البيزنطي جستنيانوس الاول في القرن السادس ، المتمثلة باحتكار الدولة لتجارة خيوط الحرير ورفع اسعارها ، قد الحقت الضرر بمصانع النسيج الصغيرة الخاصة الموجودة في مختلف مدن بلاد الشام ، فاضطر معظم اصحاب هذه المصانع الى اغلاق مصانعهم ، حيث لم يعد باستطاعتهم الحصول على خيوط الحرير اللازمة لتشغيل هذه المصانع (٥) .

اضافة الى اهتمام مؤلف المخطوطة بالقضايا الاقتصادية اهتم ايضا ببعض النواحي الفنية والثقافية في مدن بلاد الشام . لقد تحدث المؤلف عن الامور المتعلقة بالعروض المسرحية واعمال السرك التي كانت تجري في انطاكية واللاذقية وصور وبيروت وقيسارية وغيرها ، فذكر ان افضل سائقي خيول السباق وجدوا في اللاذقية ، ومنها توزعوا الى مختلف المدن . اما في بيروت وصور فقد وجد افضل المثلين التنكريين ، كما وجد في قيسارية اجود المثلين الصامتين ، وفي غزة اقدر الفنانين والمصارعين ، وفي عسقلان وكاستابيتيا اقوى اللاعبين الرياضيين ، وفي هليوبوليس أمهر العازفين على الناي والمزمار واجمل النساء اللواتي ورثن جمالهن عن فينوس (الهة الحب والجمال) التي لاتزال تعيش (حسب تصور المؤلف) في جبال لبنان قرب هليوبوليس (٦) . وفي هذه المدن كان يتم تدريب مختلف الفنانين كالموسيقيين والمثلين وسائقي خيول السباق الذين يشتركون في تقديم المشاهد الفنية في السرك او الملعب . وفي الغالب شارك بعض التجار في استخدام وتشغيل هؤلاء الفنانين ، حيث كانت العاب السرك تشكل المكان والزمان المناسبين لبيع البضائع المتنوعة .

واثارت مدن بلاد الشام اعجاب المؤلف ، فكتب عنها وصفا يعبر عن غبطته وابتهاجه بجمالها ومآثرها الحضارية . ذكر المؤلف أن مدينة انطاكية تكثر فيها التماثيل الفنية والابنية الجميلة ، كما كانت كثيرة السكان وافرة الثروة . اما مدينة قيسارية فكانت رائعة بموقعها ومخطط عمرانها وامتازت بوجود نخاسها المربع الفريد من نوعه ★ . واشتهرت مدينة سلوقية بمينائها المريح المدهش الذي أعيد بناؤه في عهد الامبراطور قسطنطين الكبير ، هذا الميناء الملائم لاعمال التجارة وللامور العسكرية الستراتيجية معا (٧) . وتفتخر مدينة بيروت بمدارس الحقوق التي يتخرج منها رجال القانون ويتوزعون في جميع ولايات الامبراطورية ، كي يسهروا على حسن سير المحاكم ويحرسوا القانون (٨) . هذا وتتحدث مصادر تاريخية اخرى عن مساهمة اساتذة بيروت الحقوقيين في صياغة المجموعات القانونية المتعددة للامبراطورية البيزنطية مثل مجموعة جيرموجينيوس Codex Germogenianus ومجموعة تيودوسيوس Codex theodosianus ومجموعة جستنيانوس Codex Justinianus وقال مؤلف المخطوطة عن مدينة بصرى الشام انها ذات تجارة واسعة ، Quae negotia maxima habere dicitur لانها قريبة من العرب والفرس .

وذكر المؤلف كلمة أرابيا Arabia لتدل على الولاية العربية الرومانية . اما كلمة ساراكينوي Sarakenoi فقصد بها البدو الرحل من العرب ، الذين كانت لهم علاقات تجارية مع مناطق الحدود البيزنطية ، كما قال عنهم أيضا « انهم يرغبون أن يقضوا حياتهم في الغزو وجمع الغنائم » Rapina Sperantium Suam Vitam transigere ويروى عنهم تحكمهم بالنساء (٩) .

وتحدث مؤلف المخطوطة عن بعض المدن التجارية الواقعة على الحدود البيزنطية الفارسية في بلاد النهرين مثل مدينة نصيبين ومدينة اديسا (الرها) ، اللتين بفضل « حكمة الالهة والاباطرة » وقفتا صامدتين في وجه الفرس . وقال المؤلف عن سكان هاتين المدينتين انهم كانوا حاذقين في الاعمال التجارية in negotio Valde acutos فاحتكروا التجارة مع الفرس ، حيث اشتروا منهم بضائعهم وباعوها في جميع الولايات البيزنطية ، في حين باعوا للفرس بضائع ومنتوجات الامبراطورية الرومانية ، عدا النحاس والحديد (١٠) ، ذلك أن الحكومة البيزنطية حظرت بيع هذه المعادن للفرس

★ النخاس : ج نخس وهو نصب تذكاري على شكل عمود .

وغيرهم من الاعداء ، كيلا يستخدموها في صناعة الاسلحة ، وقد استمر هذا الحظر حتى القرن السادس الميلادي .

وهكذا حصلنا من يد مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » على وصف عام للتجارة الداخلية والخارجية في مدن بلاد الشام في القرن الرابع الميلادي . وباعتبار ان مؤلف المخطوطة تاجر سوري فقد كتب عن الامور التي تهمه كالبضائع وانواعها الجيدة في هذه المدينة او تلك . ان تطور قوى الانتاج في الامبراطورية البيزنطية قد تم تحت تأثير هذا التبادل التجاري النشيط . ونحن نعلم ان تطور التجارة وازدياد راس المال التجاري يؤديان الى تطور الانتاج . وهكذا فان اللوحة الاقتصادية التي رسمها لنا مؤلف المخطوطة على عجل تبين لنا صورة العلاقات الاقتصادية في المجتمع البيزنطي الذي لاتزال فيه جذور علاقات العبودية قوية . ولكن بعد مرور ثلاثة قرون على هذه الصورة سيتغير شكلها ، حيث ستتفسخ علاقات العبودية وتولد علاقات جديدة تؤثر على حياة المدن وتجارتها .

ب ـ « تاريخ اميانوس ماركيلينوس » « Ammianus Marcellinus .. Historia »

عاش المؤرخ اليوناني اميانوس ماركيلينوس في مدينة انطاكية السورية في القرن الرابع الميلادي (٣٣٠ ـ ٤٠٠ م) . امتهن اميانوس في شبابه الحياة العسكرية . فاشترك في حملات الامبراطور البيزنطي جوليانوس (المرتد عن المسيحية الى الوثنية) ضد الفرس . وفي الستين من عمره بدأ اميانوس بتدوين مؤلفه « التاريخ » المعروف تحت عنوان — Res Gestae — أي « الاعمال » . وقد دون اميانوس تاريخا مؤلفا من واحد وثلاثين جزءاً بقي منها ثمانية عشر جزءاً فقط (من الجزء ١٤ ـ ٣١) تغطي احداث الفترة مابين سنتي ٣٥٣ ـ ٣٧٨ م . ورغم ان لغته الاصلية كانت اليونانية فقد دون كتاباته باللاتينية . مما جعل اسلوبه غامضا أحيانا . كان اميانوس معاصرا للاحداث التي كتب عنها او شاهد عيان ، كما كان امينا في تسجيل الاخبار والمعلومات ، وتمتع بفكر نقدي وقدرة على تصوير الوقائع والاحداث المختلفة . ويجدر بنا ان نذكر له قوله : « ان المؤرخ الذي يطمس الوقائع عن قصد ليس اقل مغالطة من الذي يختلق مالم يكن » ـ (Historia, XXIX, 1,5) . ولم تقتصر مهمة اميانوس على ذكر الوقائع والاحداث . بل عمل على جمعها وربطها بالاحداث الكبرى محاولا أن يهتدي الى تفسير منطقي للتاريخ .

يتوافق حديث المؤرخ اميانوس ماركيلينوس مع حديث مؤلف مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » عن مدن سورية وفينيقية وفلسطين (بلاد الشام) ، حيث يذكر عددا كبيرا من هذه المدن ويقول عنها : « هذه المدن تتشابه بعضها مع البعض الآخر بازدهارها وحسن تنظيم مرافقها العامة وتوفر أسباب الراحة فيها » . ويذكر اميانوس ان الولاية العربية التي نظمها الامبراطور الروماني تراجان وجد فيها عدد من المدن الكبيرة المحاطة بأسوار منيعة ، كما وجدت فيها البضائع والسلع التجارية بوفرة (١١) .

ولم يقتصر نشاط مدن بلاد الشام الاقتصادي على التجارة الداخلية وتبادل المنتوجات والبضائع المحلية فقط ، بل كانت بضائع الهند والصين تصل الى هذه المدن ومنها توزع الى مختلف ولايات الامبراطورية البيزنطية . فالمؤرخ اميانوس ماركيلينوس يتحدث عن التجارة الخارجية في مدينة باتنان السورية الواقعة في منطقة اريموز على طريق القوافل القديمة التي تصل بين انطاكية في الغرب ومدينة اديسا الرها) في الشرق ، كما انها تتوسط بموقعها بين حلب(بيرو) ومنبج(هيرويوليس) . وبما أن مدينة باتنان لاتبعد كثيرا عن مجرى نهر الفرات فقد وصلت اليها البضائع بطريق مائية من الخليج العربي . ويقول اميانوس أن مدينة باتنان كانت تعج بالتجار الاغنيـــاء Refertum mercatoribus opulentis ، كما كان يقصدها الناس الاغنياء لشراء البضائع في أيلول من كل عام ، حيث يقام فيها في هذا الشهر معرض تجاري . والى مدينة باتنان كانت تصل بضائع تجارية من الهند عن طريق البر والبحر (١٢) . هذه المعلومات التي يسردها المؤرخ اميانوس ماركيلينوس توضح لنا صورة التبادل التجاري الخارجي النشيط بين مدن بلاد الشام والبلدان البعيدة في القرن الرابع الميلادى .

جـ ـ فيلوستورغيوس ـ تاريخ الكنيسة : Philostorgius --- Historia Ecclesiastica

تعتبر كتابات فيلوستورغيوس ، وبخاصة كتابه « تاريخ الكنيسة » من المصادر التاريخية الهامة التي تلقي ضوءا ساطعا على تجارة بيزنطة الخارجية في القرنين الرابع والخامس الميلاديين . غير أن هذا الكتاب لم يصلنا بشكل كامل ، بل وصل الينا على شكل مقتطفات في كتابات (مكتبة) فوتيوس بطريرك القسطنطينية في اواخر القرن

التاسع . وقد نشر كتاب فيلوستور غيوس « تاريخ الكنيسة » في ليبزغ سنة ١٩١٣ على يد الناشر بيدز تحت عنوان :

Philostorgius, Historia Ecclesiastica, ed. Bidez, Leipzig, 1913.

ولد فيلوستورغيوس سنة ٣٦٨ م ، فلما بلغ العشرين من عمره ذهب الى القسطنطينية وقضى فيها فترة من حياته . وقد احب فيلوستورغيوس الترحال فزار فلسطين وانطاكية ، كما كان عالي الهمة شديد الملاحظة فحصل على ثقافة متنوعة في مجال الفلك والجغرافية . انهى فيلوستورغيوس كتابه المسمى : Historia Ecclesiastica حوالي سنة ٤٣٠ م . ولما كانت آراؤه العقائدية تتناقض مع العقيدة الاورثوذوكسية فقد استخف الاورثوذوكسيون بكتاباته واهملوها .

من خلال « تاريخ الكنيسة » هذا نلمس مساعي الاباطرة البيزنطيين (في القرن الرابع) لتوطيد علاقاتهم السياسية مع اليمن والحبشة وغيرهما من البلدان الواقعة على الطريق التجارية المؤدية الى الهند . وذلك بنشر الديانة المسيحية في تلك البلدان . بغية كسب شعوبها وملوكها حلفاء للبيزنطيين وحماة لمصالحهم التجارية . يتحدث فيلوستورغيوس عن اليمن فيسميها بلاد الحميريين الواقعة الى جوار المحيط (الهندي) . ويذكر انها تنتج محصولين في السنة الواحدة ، ولذا أطلق عليها القدماء اسم « العربية السعيدة » (١٣) . كذلك يذكر فيلوستورغيوس أن الحميريين يعبدون كواكب السماء كالشمس والقمر وغيرهما من الآلهة المحلية ، كما يوجد بينهم عدد من اليهود (١٤) . هذه المعلومات التي ينقلها فيلوستور غيوس تتوافق تماما مع النقوش الحميرية وبعض المصادر السورية (السريانية) واليونانية الاخرى (١٥) .

في عهد الامبراطور كونستانتيوس بن قسطنطين الكبير (٣٣٧ – ٣٦١) قدمت الى بلاد حمير سفارة بيزنطية على رأسها شخص يدعى تيوفيلوس الهندي . ويذكر فيلوستورغيوس أن تيوفيلوس الهندي كان في شبابه رهينة عند الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ – ٣٣٧) واصله من جزيرة ديف ، كما يقول : « ان بلاد الديفيين عبارة عن جزيرة ، لكن الديفيين يطلق عليهم اسم الهنود » . هذا وتطلق جميع المصادر البيزنطية المتقدمة اسم ديف او سيليديف على جزيرة سيلان . اما قزما الملاح الهندي فيطلق (في كتابه : الطبغرافية المسيحية) على جزيرة سيلان اسم « تابروبان » . كما أن فيلوستورغيوس يطلق في مكان آخر اسم تابروبان على جزيرة سيلان ، ومن هنا يظن أنه يقصد من اسم ديف جزيرة سقطرة (ديوسكوريد) التي هو منها أصلا . وكان المسيحيون الموجودون في

جزيرة سقطرة في زمن قزما الملاح (القرن السادس) على المذهب النسطوري ، حيث رسم كهنتهم على أيدي الفرس – أي على أيدي الاساقفة المسيحيين النساطرة الموجودين في فارس (١٦) .

كان تيوفيلوس مسيحيا فنال رتبة دياكون ثم صار أسقفا فألقيت على عاتقه مهمات دبلوماسية كلفة بها الاباطرة البيزنطيون . لقد أوفد الامبراطور كونستانتيوس الاسقف تيوفيلوس على راس سفارة الى اليمن تحمل معها هدايا ثمينة من بينها مئتا حصان كابادوكي من أجود السلالات . وبالاضافة الى الهدايا حمل السفير البيزنطي تيوفيلوس مبلغا من المال قدمه الى ملك الحميريين ، الذي أطلق عليه لقب « حاكم الشعب اليمني – اتنارخوس » ، وطلب منه أن يصرف هذا المال على بناء كنيسة للمسيحيين في مدينة ظفار عاصمة الحميريين . لقد نجحت البعثة الدبلوماسية البيزنطية في تحقيق مهمتها ، حيث طلبت من ملك الحميريين ، عدا بناء الكنيسة ، تنفيذ أشياء كثيرة أخرى . ويفهم من هذا أن البعثة الدبلوماسية عملت على تطوير العلاقات التجارية وترسيخ النفوذ السياسي البيزنطي في اليمن . فعدا كنيسة ظفار بنيت كنيسة ثانية في عدن ، الميناء التجاري الهام على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، كذلك بنيت كنيسة ثالثة عند مصب الخليج العربي في المحيط . في مدينة تدعى « السوق الفارسية » (١٧) . وذكر فيلوستورغيوس أن هذه الكنائس بنيت على حساب ملك الحميريين لانه اعتنق المسيحية ، كما قدم الامبراطور كونستانتيوس اعانة مالية من أجل هذا الفرض .

بعد ان انهى السفير البيزنطي الاسقف تيوفيلوس الهندي مهمته في اليمن توجه الى الحبشة ، حيث نفذ بعض المهمات السياسية التي كلفه بها الامبراطور البيزنطي . لكن تيوفيلوس قبل أن يذهب الى الحبشة زار ، في الغالب ، مسقط راسه جزيرة ديف (سقطرة أو سيلان) . واخير عاد تيوفيلوس من أكسوم عاصمة الاحباش الى القسطنطينية .

اهتم فيلوستور غيوس كمعاصريه بالتحدث عن مكان الجنة في الارض ، التي تجري فيها الانهار التالية : فيسون (الغانج) ، النيل ، دجلة ، الفرات ، وهذا الامر لايهمنا في هذا المكان . واهتم فيلوستورغيوس ، بصورة خاصة ، بالتحدث عن البلدان الواقعة الى الجنوب والجنوب الشرقي خارج حدود الامبراطورية البيزنطية مثل : الحبشة ، اليمن ، الهند ، سيلان ، فهو يذكر ثرواتها الطبيعية ونباتاتها وحيواناتها . وقد عرف فيلوستورغيوس اليمن والحبشة معرفة جيدة ، فأطلق على اليمن اسم « بلاد حمير » وعلى الحبشة اسم « دولة اكسوم » . أما اسم الهند عنده

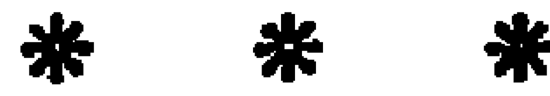
فيقصد به الهند نفسها أو الهند العظمى . هــذا وكانت معلوماته الجغرافية عن حوض البحر الاحمر واضحة وصحيحة ، فهو يذكر ميناءين كبيرين على خليجي البحر الاحمر الشماليين وهما ميناء كليزما (القلزم) وميناء ايلة (ايلات) ، كما يذكر ميناء أكسوم على الشاطىء الحبشي .

من اهم المعلومات الطريفــة التي أوردها فيلوستورغيوس انتشار السوريين (تجار من بلاد الشام) على السواحل الى الشرق من الاحباش وحتــى المحيط الخارجي (المحيط الهادي) . وقال فيلوستورغيوس : ان هؤلاء التجار السوريين مازالوا يتكلمون اللغة السورية ، لكن بشرتهم اسودت لانهم يعيشون تحت أشعة شمس حــارة . وترجمــة النص حرفيــا هنى على الشكل التالــي : « قبــل هؤلاء الاحباش وباتجاه الشرق حتى المحيط الخــارجي يعيش السوريون ، كما يعرفون بهذا الاسم لدى السكان المحليين . وكان الاسكندر المكيدوني قد نقلهم مــن سورية واسكنهم هناك ، وهم حتى الآن يتكلمون لغتهم السورية » (١٨) . هــذه المعلومات تدل على وجود مستعمرات تجارية سورية في سواحل الهندوستان الغربية « حيث توجد القرفة والفيلة بكثرة ، وحيث يتواجد السوريون الذين حافظوا على لغتهم » ، كما توضح لنــا مدى التأثير السوري في تلك المناطق . واكد صحة هــذه المعلومات قزما الملاح الهندي (في كتابه : الطبغرافية المسيحية) ، حيث تحدث عن انتشار المستعمرات السورية في الموانيء التجارية والمدن الواقعة على سواحل الهند ، كما تحدث عن انتشار الديانة المسيحية في سواحل الهند الشرقية وسيلان وآسيا الوسطى بواسطة المبشرين والتجار السوريين (١٩) .

ذكر فيلوستور غيوس الحيوانات المتنوعة التي تعيش في الهند وجنوب افريقيا ووسطها ومنهــا : الفيلة والثيران الكبيرة ، والافاعي ، وحيد القرن ، السعاديــن المتنوعة ، الزرافة ، والحمار الوحشي . وذكر ايضا استخراج الذهب من مناجم اواسط افريقيا (بلاد ساسو) وحوض نهر الغانج في الهند .

هذا المصدر التاريخي « تاريخ الكنيسة » لمؤلفه فيلوستورغيوس له اهميــة خاصة ، حيث وردت فيه معلومات مفيدة واضحة عن التبادل التجاري وملاقات بيزنطة الخارجيــة في النصف الثاني من القرن الرابع الميلادي . ان ارسال السفارات والوفود الدبلوماسية الى اليمن والحبشة يدل على اهتمام الدولة البيزنطية بالتقرب والتحالف مع هذين البلدين ، كما أن مساعيها لنشر الديانة المسيحية تعتبر احدى الوسائل لتمتين علاقاتها مع البلدان الواقعة على طريق الهند التجارية . والهدف الاساسي من هذه السياسة هو تحقيق مصالح بيزنطة الاقتصادية . ولكن عندما

سيطر الفرس على جنوب الجزيرة العربية (في النصف الثاني من القرن السادس) لم تعد بيزنطة تهتم ببذل المساعي الدبلوماسية في تلك المنطقة . ولهذا المصدر التاريخي **أهمية خاصة ايضا كونه يوضح لنا انتشار الجاليات السورية التجارية في موانى** الهند ، مما يدل على الدور الهام الذي لعبه التجار العرب السوريون (تجار بلاد الشام) في التجارة البيزنطية الداخلية والخارجية .



د ــ قزما الملاح الهندي ــ « الطبغرافية المسيحية » :
Cosmas Indiocopleustes --- The Christian topography

يعتبر كتاب « الطبغرافية المسيحية » لمؤلفه قزما ــ الملاح الهندي ــ من المصادر التاريخيه الهامة التي تفيدنا بمعلومات وفيرة عن تجارة بيزنطة في القرن السادس الميلادي . وقد انتشرت نسخ كثيرة من هذا الكتاب في العصور الوسطى ، كما ترجمت النسخ الاصلية اليونانية الى عدة لغات منها اللاتينية والسلافية . وقزما الملاح الهندي اصله من مصر ، وفي الغالب ، من مدينة الاسكندرية ، حيث شاع كثيرا مثل هذا الاسم في مصر . تحدث قزما الملاح الهندي في كتابه عن نفسه وحياته باختصار . فذكر أنه عرف اللغة اليونانية ، ولكنه لم يتقن فصاحتها جيدا بسبب انشغاله بمشاكل الحياة اليومية الصاخبة (٢٠) .

اشتغل قزما الملاح الهندي بالتجارة فطاف في بحار ثلاثة هي : البحر الرومي (المتوسط) ، البحر الاريتيري (المحيط الهندي) ، البحر الفارسي (الخليج العربي). وذكر قزما أن المعلومات التي نقلها الينا في كتابه أخذها مباشرة عن سكان المناطق والبلدان التي زارها (٢١) . لقد أبحر قزما من جزيرة سنغيدون الواقعة في مدخل المحيط الهندي باتجاه الهند ، فتعرض لعاصفة بحرية شديدة ، لكنه لم يذكر اذا كان قد وصل الى الهند أم لا .غير أن الوصف الدقيق الذي عرضه في الفصل الحادي عشر من كتابه عن جزيرة سيلان يدل على انه من تأليف شاهد عيان . وقد حل قزما **في الحبشة سنة ٥٢٢ او ٥٢٥ في عهد ملكها الاصبح ، الذي عاصر عهد الامبراطور** البيزنطي جوستين الاول (٢٢) . وفي الحبشة زار قزما مدينة أدوليس (عدول) التي كانت مرفأ تجاريا يقصده التجار من مختلف الجنسيات . وفي هذه المدينة نسخ قزما نقشين : النقش الاول كان على لوح من المرمر ويخلد ذكرى حملة بطليموس الثالث **ملك مصر (٢٤٧ ــ ٢٢٢ق.م) على الحبشة . أما النقش الثاني فكان تخليدا** لتنصيب احد الملوك الاحباش على العرش (في القرن الثاني او الثالث الميلادي) :

الذي يحمل لقب « نيجوس » ــ النجاشي ــ ولكن اسمه لم يذكر . وزار قزما أيضا مدينة أكسوم عاصمة الحبشة التي كانت مركزا تجاريا هاما . وتحدث قزما عن الزرافة Camelo Paradalis فقال لاتعيش الا في الحبشة ، ويوجد بعض منها في حديقة القصر الملكي في أكسوم ، كونها من الحيوانات النادرة (٢٣) .

تجول قزما في ساحل افريقيا الجنوبي الشرقي فوصل الى شبه جزيرة الصومال. وربما وصل قزما أيضا الى بلاد ساسو عند منابع النيل الجنوبية ، حيث ذكر أن ملك اكسوم أقام علاقات تجارية مع بلاد ساسو فاستورد منها الذهب (٢٤) . وحل قزما أخيرا في صحراء سيناء وترهب في دير هنــاك يسميه رايتوي ، فقضى فيه بقية حياته منصرفا لكتابة الكتب . ونستدل على رهبنته من احدى نسخ كتابه « الطبغرافية المسيحية » المحفوظة في فلورنسيا ، حيث ورد اسمه فيها « قزما الراهب »

وعدا عن « الطبغرافية المسيحية » كتب قزما بعض الكتب الاخرى ولكنها فقدت ولم تصل الينا ، ومنها كتاب يذكر المؤلف انه كتبه لشخص يدعى قسطنطين وصف فيه المعمورة في جهة المحيط ــ من الاسكندرية الى المحيط الجنوبي (نهر النيل) ــ مصر كلها ، الحبشــة ، البحــر العربــي والمناطــق المحيطــة بــه ، المــــدن ، الاقاليم ، الشعوب التي يحيــط بهــا المحيــط وتقع في داخل القارة ــ وهــذا يعني انه وصف في ذلك الكتاب جميع مناطق افريقيا الشرقية ودون فيــه ملاحظاته الشخصية وما شاهده بعينيه . (٢٥) . كذلك كتب قزما الملاح كتابا في الفلك لكاهن يدعى هومولوغوس Homologos ، لكنه لم يصلنا ، كما لم يصلنا ايضا ماكتبه في شرح « قصيدة القصائد » (٢٦) .

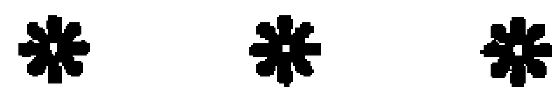
يتألف كتاب « الطبغرافية المسيحية » من اثني عشر فصلا ، لكن هذه الفصول تختلف بمحتوياتها . الفصول الخمسة الاولى تحتوي آراء قزما ــ الملاح الهندي ــ حول نشوء المعمورة . اما الفصول الخمسة الثانية ــ (اي من ٥ ــ ١٠) فتحتوي معلومات في الفلك وعلم الفضاء ، ولكنها غير واضحة وغير دقيقة . وأهم فصول الكتاب هو الفصل الحادي عشر الذي يتحدث فيه عن جزيرة سيلان كشاهد عيان . وعرض قزما في الفصل الثاني عشر آراء الكتاب الوثنيين القدماء حول قيمة التوراة وقدمها . هذا وقد كتب قزما كتابه « الطبغرافية المسيحية » بين سنتي ٥٤٧ ــ ٥٥٠ ميلاديــة (٢٧) .

وتتطابق آراء قزما حول نشوء المعمورة مع آراء النســاطرة السوريين . كما أن

تجارة بيزنطة مع بلدان الشرق : الحبشة ، جنوب افريقيا ، الهند ، كان لا بد لها ان تشد قزما الى مجال التأثير السوري ، حيث قبض السوريون النساطرة الذين يعيشون تحت النفوذ الفارسي على زمام التجارة ، كما كانت اللغة السورية هي لغة التجارة الاولى في الشرق (٢٨) . ومما يدل على التأثير السوري النسطوري على آراء قزما انه عندما عدد مذاهب الهراطقة المسيحيين لم يذكر النساطرة بين الهراطقة . هذا وقد وردته اخبار من الاوساط السورية تفيد بأن كهنة جزيرة سقطرة (ديوسكوريد) كان يتم تعيينهم من فارس — أي من قبل رجال الدين النساطرة الخاضعين للنفوذ الفارسي (٢٩) .

يشاهد في كتاب « الطبغرافية المسيحية » بعض الصور ، خاصة في اقدم مخطوطة محفوظة في الفاتيكان تحت رقم (٦٩٩) (٣٠) . ويؤكد الباحثون أن قزما — الملاح الهندي — كان قد رسم تلك الصور بيده . لقد ذكر قزما انه رسم الزرافة كما شاهدها في حديقة قصر اكسوم الملكي . وقد رسم قزما ايضا بعض المدن على شكل حصن له سور حوله . ومن المدن التي رسمها قزما بيده مدينة دمشق .

ويستحسن ان نذكر هنا الكلمات الجميلة التي اختتم بها العالم الروسي سريزنفسكي ترجمة كتاب قزما « سعى بعض الناس الى جمع الذهب ، في حين اغتصب بعضهم الاراضي او اللؤلؤ او غيره من الثروات . اما صاحب هذا الكتاب الحكيم (قزما) فلم يبحث عن الذهب أو اللؤلؤ أو غيره من الكنوز ، بل سعى الى وصف العالم بشكل لائق ، فجمع بذلك ثروة لاتزول . ان الكلمة وحدها هي ذخر كل ما في الارض » (٣١) .



هـ — « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » « Odoiporiai apo Edem... »

عثر الباحثون على مخطوطة صغيرة مكتوبة باللغة اليونانية تحتوي معلومات جغرافية وتاريخية ترجع الى ما قبل القرن السابع الميلادي . كما عثر الباحثون ايضا على مخطوطة اخرى مكتوبة باللغة الكروزينية (لغة بلاد الكرج) قريبة الشبه بمحتواها من المخطوطة اليونانية المذكورة . وتحمل المخطوطة اليونانية هذا العنوان : « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » وأول من نشر هذه المخطوطة هو العالم كلوتز سنة ١٩١٠ .

A. Klotz. Odoiporiai apo Edem. Rheinisches Museum für Philologie, t. 65, 1910,PP.608 — 610.

ثم نشر المخطوطة بعده العالم أفاليشفيلي سنــة ١٩٢٨ .

Z. Avalichvili. Géographie et legende. Revue del'Orient chrétien, 26, 1928, PP. 280 - 283.

كذلك وجدت العالمة السوفيتية نينا بيغوليفسكايا نسخة من المخطوطة باللغة اليونانية في المكتبة العامة الوطنية في مدينة لينينغراد تحمل الرقم (٢٢٥) ومؤرخة بتاريخ سنة ١٦٦١ ، فنشرتها مع ترجمة لها باللغة الروسية في ملحق كتابها : بيزنطة على طرق الهند ، موسكو ١٩٥١ ،ص ٤٠٨ — ٤١٠ .

مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتــى الرومان » اصغر بكثير من مخطوطة « الوصف الكامل للعالم والشعوب » (Expositio...) ، لكن المخطوطتين تتشابهان في ذكر أسماء البلدان والاقاليم وتحديد المسافات بين الاقاليم بعدد مراحل السير لقطع المسافات برا او بحرا . وعدا عن صغرها تتميز مخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » عن مخطوطة « الوصف الكامل ... » بطابعها المسيحي ، حيث يكثر فيها ذكر المسيحيين في مختلف اقاليم الشرق ، بينما لا نلاحظ الطابع المسيحي في مخطوطة « الوصف الكامل ... » .

ان الفقرات الاولى من مخطوطة « الوصف الكامل ... » ومخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » تدل على أن الطريق البحرية الى الهند والمسافات بين الموانى والمراكز التجارية الرئيسية على هذه الطريق كانت معروفةفي بيزنطة في القرن الرابع الميلادي . في النص اليوناني والنص الكروزيني لمخطوطة « الطرق من جنة آدم ... » تبــدأ الطريق من الهند ، اول مركز في الشرق يصــدر البضائــــع ، عبر ايران ، فتصــل الى روما عبر البحر الابيض المتوسط ، ومن روما تنقل الى غاليا (فرنسا) . ليس من شك ان خلف كتابة هذه المخطوطة اليونانية (الجغرافية — التاريخية) تكمن مصالح تجارية عالمية . هذا وقد لعب التجار السوريون (تجار بلاد الشام) الدور الاول في تلك التجارة العالمية ، ومما يشهد على ذلك شواهد القبور الكثيرة المكتشفة في فرنسا والتي كتبت عليها كتابات باللغة السورية (السريانية) ترجع الى القرنين السادس والسابع الميلاديين .

تطلق مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » على الفرس صفة عباد النار ، كما تذكر العرب باسم ساراكينوي دون أن تذكر الاسلام ، وهذا يدل على أن المخطوطة كتبت قبل ظهور الاسلام في القرن السابع . اما ذكر المسيحيين لدى الهون (في آسيا الوسطى) وفي جزيرة سيلان والهند الكبرى فهذا يدل على ان المخطوطة قد كتبت

في الفترة التي نشط فيها تبشير البعثات الدينية السورية النسطورية في بلدان الشرق في المرحلة مابين القرنين الخامس والسابع الميلاديين .

وعدا ذكر الطرق البحرية والمناطق الساحلية فقد ورد في مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » ذكر الطرق البرية والمناطق القارية مثل : جنة آدم ، بلاد البراهمة ، بلاد الهون . على أن التصورات عن جنة آدم والهند الشمالية والصين وبلاد الهون جاءت في مخطوطة « الطرق من جنة آدم حتى الرومان » غامضة ومبهمة . اما في كتاب قزما ــ الملاح الهندي ــ « الطبغرافية المسيحية » فقد وردت المعلومات عن البلدان المذكورة بشكل أوضح واكثر واقعية . ولا يعترف قزما بوجود جنة آدم على الارض . اما الصين عنده فهي بلاد في الشرق يقع خلفها المحيط الكبير ، وللوصول الى هذه البلاد توجد طريقان : الاولى بحرية في الجنوب ، والثانية برية في الشمال . وينفي قزما ــ الملاح الهندي ــ وجود جنة آدم في الارض قائلا : « ما من احد عرف جنة آدم على الارض أو وصل اليها ، فلو كان من الممكن الوصول الى جنة آدم لذهب اليها الكثيرون ، ذلك أن الناس يذهبون الى أقاصي الارض للحصول على الحرير الخام ، فكيف لايذهبون الى جنة آدم لو كانت موجودة في الارض فعلا ! » .

تعريب المخطوطة اليونانية « الطرق من جنة آدم حتى الرومان »

(ورقة ٦٧ ب) حول طرق جنة آدم .

من آدم الى دراجنان تتأرجح المراحل (موناي) على طول النهر المسمى فيسون . من دراجنان الى ابيلات سبعون مرحلة ، هناك يزرعون ويحصدون ، وكل شيء يملكونه مشترك لاقسمة فيه ، والناس هناك مسيحيون . من ابيلات الى ارمين (ايمير) أربعون مرحلة .

من ارمين الى نيكوس اثنتان وثلاثون مرحلة .

من نيكوس الى ديسيمانيس مرحلتان ، ومنها الى هنا المسافة غير محسوبة ويروي ارضهم نهر فيسون ، ولاتوجد عندهم أصنام ، وهم لايتبعون المسيح وليسوا معه ، لكنهم يخشون الله وصادقون .

بعد ديسيمانيس يعيش شعب يدعى خوناي (الصينيون) . ذلك الشعب كبير جدا ، (وارضه واسعة) يلزم لاجتيازها ثمانية أشهر . ولديه أرض بدون ماء

Рукопись Государственной Публичной библиотеки в Ленинграде, греческая, № 252

(Текст печатается по неизданной рукописи № 252 с разночтениями издания „Подорожных". Klotz. 'Οδοιπορία ἀπὸ 'Εδνέμ. Rheinisches Museum für Philologie (1910) N. F., 65 B. H. 4, p. 608—610) (Л. 67 б). Περὶ ὁδοιπορίαι τῆς 'Εδὲμ τοῦ παραδείσου.[1]

'Από 'Αδὰμ[2] ἕως Δραγμὰν[3] μοναί, εὐ δομήντα[4] παρὰ τὸν ποταμὸν τὸν λεγόμενον Φυσῶν καὶ ἀπό Δραγμὰν[5] ἕως 'Εβηλὰτ[6] μοναὶ ō ἐκεὶ σπέρνουν[7] (л.68-а) καὶ δερίζουν· ἔχουσιν δὲ τὰ πάντα κοινὰ καὶ ἀμέρισταοί δὲ ἄν[θρωπ] οι[8] χριστιανοί· ἀπὸ 'Εβηλὰτ ἕως 'Ερμὴν[9], μοναὶ μ̄ ἀπὸ 'Ερμὴν[10] ἕως Νέκους, μοναι λ̄β̄ ἀπὸ Νέκους ἕως Δισιμάνεις[11] μοναι β[12] ἕως ὧδε ἀμέριστα· ποτήζεται δὲ ἡ γῆ αὐτῶν τοῦ Φυσῶν ποταμοῦ[13] εἴδολα ἐν αὐτοῖς οὐ κέκτηνται· οὔτε[14] πρὸ τοῦ Χ[ριστο]ῦ οὔτε[15] μετὰ του Χριστοῦ· ἀλλὰ πάντα[16] θεοσεβεῖς καὶ ἀγαθεῖς· ἀπὸ Δισιμάνεις ἔθνος λεγόμενον Χῶναι· τὸ δὲ ἔθνος τοῦτο μέγα· ἔχων[17] ὁδοιποροίαν μην[ῶν] η̄[18] ἔχει δὲ καὶ τόποις ἀνήδροις μηνῶν κθ̄. ἀπὸ 'Αβὰ παραπλέη τὸν αἴγυαλῶν. και[19] ἔρχεται εἰς τὴν 'Ινδίαν τὴν μεγάλην· πλέον μήνας ζ εἰδὲ[20] \ριστιανοι καὶ ''Ελληνα·ς· ἀπὸ 'Ινδίας εἰς 'Αξομίαν παραπλέε· μήνας ζ[21] καὶ ἀπὸ 'Αξομίς[22] (л. 68-б) παραπλέει τὴν 'Ερυθρὰν θάλασσαν[23] ἔρχεται εἰς τὴν 'Ινδιάν τὴν μακρὰν[24] διὰ μηνῶν ε̄ ἐισὶν δὲ καὶ ''Ελληνας καὶ Χρ·στ·ανοί.[25] ἀπὸ 'Ινδίας παραπλέει ἕως Περσίδος μήνας γ̄.. νυ...ηης[26] οἱ ἄνομοι μάγοι καὶ φάρμακοί· ἀπὸ Περσίδος εἰς Σαρακηνίαν[27] μοναι β. ἀπὸ Σαρακηνὴν πλέει εἰς τὴν 'Εβιλὰτ[28] την 'Ερυθρὰν θάλασσαν εἰς τὴν[29] λιμένα τῆς Περσίδος 'Ινδίας[30] καὶ ἀπὸ Αἰγύπτου μοναί ζ ''Ελληνας καὶ Χριστιανοὶ εἰσιν·[31] ἀπὸ 'Εβηλὰτ εἰς 'Ελαμὴ[32], μοναί θ̄. ἀπὸ 'Ελαμὴ ἕως 'Αντιοχεία μοναὶ κ̄ ἀπὸ 'Αντιοχείας εἰς Κονσταντινούπολιν[33] μοναὶ λ̄β̄ ἀπὸ Κονσταντινούπολιν[34] ἕως 'Ρώμης μοναί π̄ς̄ ἀπὸ 'Ρώμης εἰς Χαλίαν[35] μοναὶ κζ[36]

'Η μονὴ ἔχει μήλια ζ καμουν ὅλα μύλια χιλιάδες ρθ καὶ φ ἤγουν χιλι [л. 69-а] άδες· ἑκατὸν ἐννέα καὶ πεντακόσια.

Τέλος τῆς ὁδοιπορίας τῆς 'Εδὲμ τοῦ παραδείσου.

النص اليوناني الموجود في المكتبة الوطنية بمدينة ليننغراد لمخطوطة " الطرق من جنة آدم حتى الرومان " نشرته مع ترجمته الروسية العالمة السوفييتية نينا بيغولفسكايا في كتابها " بيزنطة على طرق الهند " ، موسكو ١٩٥١ ص ٤٠٨ — ٤١٠ .

(صحراء) يلزم لاجتيازها تسعة وعشرون شهرا . من آب (دياب) يبحرون على طول الشاطىء حتى يصلوا الى الهند العظمى . مدة الابحار سبعة اشهر ، وهم هناك) مسيحيون ويونانيون . من الهند الى اكسوم يبحرون سبعة اشهر ، بينما من اكسوم يبحرون عبر البحر الاريتيري فيصلون الى الهند العظمى بعد خمسة إشهر ، وهم هناك هلينيون ومسيحيون .

من الهند الى الفرس يبحرون ثلاثة اشهر ، وهم (الفرس) مجوس طغاة مفسدون . من الفرس الى السار اكينوي (العرب) مرحلتان .
من الساراكينوي (العرب) يبحرون الى ايلات البحر الاريتيري والى ميناء الفرس الهندي .

ومن مصر الى ايلات سبع مراحل ، وهم (هناك) هلينيون ومسيحيون . من ايلات الى عيلام تسع مراحل .

من عيلام الى انطاكية عشرون مرحلة .

من انطاكية الى القسطنطينية اثنتان وثلاثون مرحلة .

من القسطنطينية الى روما ست وثمانون مرحلة .

من روما الى غاليا سبع وعشرون مرحلة .

المرحلة تساوي سبعة اميال .

طول الطريق كله (الطريق من جنة آدم حتى الرومان) مئه وتسعة آلاف وخمسماية (١٠٩٥٠٠) ميل . نهاية طريق جنة آدم .

* * *

و ــ صناعة الحرير وتجارته في بلاد الشام في العهد البيزنطي من خلال المصادر المعاصــرة .

« بروكوبيوس الكيساري » ــ « Procopius Caesarensis : Anecdota »

وجدت مصانع الغزل والنسيج (الورش الصناعية) في مدن بلاد الشام منذ القرون الاولى الميلادية . في هذه المصانع تحول الحرير الخام الى خيوط دقيقة وصبغ

بألوان مختلفة ، ثم نسج قماشاً بأيدي صناع مهرة واعطي للخياطين الذين خاطوا منه معاطف وعباءات مطرزة وموشاة بخيوط ذهبية ، فباعها التجار السوريون في اسواق الشرق والغرب . وكان الحرير الخام يصل الى مدن بلاد الشام الساحلية عن طريق البحر . لقد استورده التجار من الهند ونقلوه على السفن الحبشية الى ميناء أدوليس (عدول) ــ الواقعة على ساحل البحر الاحمر الحبشي ــ ، ثم الى خليج ايلات ، ومن ايلات نقل الحرير في الطرق البرية الى ساحل بلاد الشام . كذلك كانت طرق القوافل البرية الممتدة من الصين الى أواسط آسيا وايران تنتهي في الساحل الشمالي لبلاد الشام ، وفي هذه الطرق نقل الحرير الخام ايضا .

وردت في مجموعة الامبراطور تيودوسيوس القانونية Codex Theodosianus اسماء بعض المصنوعات الحريرية ومنها : Metaxa وتعني الحرير الخام ، Nema Sericum وتعني الخيوط المغزولة ، Vestis Serica وتعني الالبسة الحريرية ، Subserica وتعني الاقمشة الحريرية الموشاة بخيوط ذهبية ــ اي نوعا من الديباج . وقد غزلت الخيوط الحريرية وصبغت في بيروت وصور وصيدا ، حيث اشتهرت هذه المدن بمثل هذه الصناعات . ومما ساعد على تطور الصناعات الحريرية في مدن بلاد الشام الساحلية وجود الصباغ الارجواني (الذي صبغت به الالبسة الحريرية الملكية) في هذه المدن منذ القدم (٣٢) وقد كتب المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس الكيساري في القرن السادس مايلي : « تصنع المعاطف من الحرير الخام في بيروت وصور ومدن فينيقية منذ قديم الزمان ، وقد عاش في تلك المدن تجار يملكون الورش والمصانع . ومن هناك وزعت البضائع الى مختلف انحاء المعمورة » (٣٣) .

في القرن السادس الميلادي نظمت حكومة الامبراطور جستنيانوس الكبير صناعة الحرير وتجارته بشكل يخدم مصلحة خزانة الدولة البيزنطية بالدرجة الاولى . لقد احتكرت الدولة صناعة الحرير وتجارته ، مما الحق ضرراً فادحا بمدن بلاد الشام الساحلية التي تعيش من دخل هذه الصناعة والتجارة . لقد تعطلت صناعة الحرير وضعفت المبادلات التجارية ، فأفلس كثير من الصناع والتجار وافتقروا .

ويتحدث المؤرخ البيزنطي المعاصر للاحداث بروكوبيوس الكيساري بالتفصيل عن الازمة التي اصابت صناعة الحرير وتجارته في القرن السادس الميلادي . فالتجار الفرس استغلوا وضعهم كوسطاء محتكرين ، كما استغلوا توتر العلاقات بين بيزنطة وايران ، فرفعوا اسعار الحرير الخام ، مما ادى الى ارتفاع أسعار الاقمشة الحريرية المصنعة في المدن البيزنطية ، وبصورة خاصة في مدن بلاد الشام الساحلية . وهناك

سبب آخر لارتفاع أسعار الحرير وهو ازدياد عدد المراكز الجمركية في الاراضي الفارسية والبيزنطيــة ، حيــث حصــل كل مركز على ضريبة مرور مقدارها عشر ثمن البضائع الحريرية او غيرها . اضف الى ذلك احتكرت حكومــة جستنيانوس صناعة الحرير وتجارته لتزيد دخل خزانة الدولة من أرباح هذه الصناعة والتجارة ، مما ادى الى اغلاق الكثير من المصانع الخاصة ، وبخاصة المصانع الصغيرة التي لم يعد بامكان أصحابها الحصول على الحرير الخام . هذا وقد خصصت الحكومــة البيزنطيــة بعض الموظفين (Komme Pkuapuu) والقت على عاتقهم شراء الحرير الخام من الفرس . ورفع التجار الفرس سعر الحرير الخام وحدوده كما يلي : كل ليتر (٥ر٣٢٧ غرام) من الحرير الخام يساوي ١٥ نومسمة من الذهب البيزنطي . على أن الحكومة البيزنطية لم تحدد أسعار مصنوعاتها الحريرية ، لان ذلك ليس في مصلحتها ، خاصة بعد ان احتكرت صناعة الحرير وتجارته . وقد سمحت الحكومة البيزنطية لتجار الحرير وصناعه ان يبيعوا للدولة ما يحصلون عليه من الحرير الخام من الفرس ، على ان يكون البيع بالسعر الذي حدده التجار الفرس المذكور سابقا . وبالمقابل تستطيع الدولة أن تبيع الحرير الخام للمصانع الخاصة بالسعر الذي تريده. ان احتكار الدولة لصناعة الحرير وتجارته ابعد من الوجود كل منافس لهافيهذاالمجال، ولذا صار بامكانها ان ترفع أسعار المبيع كما تشاء . كذلك انخفضت قيمة الذهب الشرائيــة ، حيث صار الستراتيروس الذهبي يصرف ب (١٨٠) فوليس Follis في زمن جستنيانوس ، بينما كان الستراتيروس يصرف قبل ذلك بـ (٢١٠) فوليس، وهذا الانخفاض فيسعر الذهب ادى الى ارتفاع اسعار مختلف البضائع ، بما في ذلك المصنوعات الحريرية .

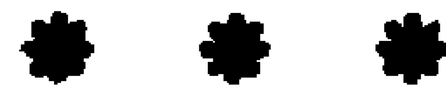
بنتيجة تلك الاجراءات والعوامل لحقت اضرار فادحة بصناع الحرير وتجاره في مدينة بيروت وصور وغيرها من مدن بلاد الشام الساحلية التي تمركزت فيها صناعة الحرير وتجارته . لقد اضطر هؤلاء الصناع والتجــار الى رفع ثمن مصنوعاتهــم الحريرية ، لانهم اشتروا الحرير الخام باسعار مرتفعة من الدولة او خلسة عن طريق التهريب . عندئذ تدخلت الدولة فاصدرت قوانين تحدد لهؤلاء أسعار مصنوعاتهم الحريرية . وعلى هذا اضطر الصناع والتجار أن يبيعوا مصنوعاتهم الحريرية بخسارة ملموسة ، لانهم كانوا قد دفعوا ثمن الحرير الخام غاليا . على أن بعض الصناع والتجار باعوا المصنوعات الحريرية خلسة (دون مراعاة تسعيرة الدولة) ، ولذا اصدرت الامبراطورة تيودورا زوجة جستنيانوس أوامرها بمصادرة بضائع هؤلاء « المهربين » وفرض غرامة مالية كبيرة عليهم ، ويتابع المؤرخ بروكوبيوس Procopius حديثه عن اوضاع صناعة الحرير وتجارته المتردية في مدن بلاد الشام الساحلية قائلا : « ان

الشعب البسيط الذي قام بالعمل اليدوي (في صناعة الحرير) قد افتقر وعانى الجوع المميت ، ولذا اضطر ان يترك هذا العمل . على ان بعض هؤلاء الصناع هاجر الى ايران ليجد عملا له في صناعة الحرير هناك (٣٤) . ويذكر بروكوبيوس أيضا أن التجار الذين نقلوا الحرير الخام من الهند عن طريق البحر الاحمر قد ساء أمرهم بنتيجة اجراءات الدولة (المشار اليها) . وتؤكد المصادر المعاصرة الاخرى على تدهور صناعة الحرير وتجارته في مدن بلاد الشام في القرن السادس الميلادي،اذتذكر تلك المصادر : ان تجار تلك المدن واصحاب المصانع فيها والصناع قد افلسوا (٣٥) .

وتجدر الاشارة الى أن احتياجات القصر الامبراطوري الكثيرة من المصنوعات الحريرية دفع الدولة الى اقامة مصانع لها في العاصمة البيزنطية لتؤمن احتياجاتها من هذه المصنوعات . وقد اعتمدت الدولة على عمل العبيد في هذه الصناعة ، كما شكلت منهم مجموعات متخصصة أطلق عليها اسم : Gynacciarii .

وفي ٤٢٦ م صدر قانون ينص على معاقبة كل من يأوي عبدا هاربا عنده من هؤلاء العبيد الذين يشتغلون في مصانع الدولة . وقد اكدت قوانين جستنيانوس على استمرار مفعول القانون السابق في القرن السادس الميلادي ايضا (٣٦) .

ان الاضرار الفادحة التي لحقت بصناع الحرير وتجاره في مدن بلاد الشام ، بالاضافة الى زيادة الضرائب على العاملين في حقل الزراعة واضطهاد جميع السكان بسبب عقيدتهم المونوفيزيتية (الايمان بوجود طبيعة الهية واحدة في المسيح) المخالفة للعقيدة البيزنطية الرسمية (الايمان بوجود طبيعتين في المسيح ، الهية وبشرية) ، كل ذلك كان من العوامل التي أثارت استياء سكان بلاد الشام (العرب القدماء) من جور السلطات البيزنطية المحتلة ودفعتهم على الترحيب باخوانهم العرب المسلمين ، الذين فتحوا بلاد الشام وحرروها من الاستعمار البيزنطي .



المصـــادر والمراجـــع :

ـ آ ـ

« الوصف الكامل للعالم والشعوب »

« Expositio totius mundi et gentium »

١ ـ نينا بيغوليفسكايا : بيزنطة على طرق الهند،موسكو ١٩٥١ ، ص ٣٣–٥٤ .

٢ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » الفقرة ٣١ ، ص ٥١٩ .
Expositio..., 31, P. 519.

٣ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٩ ، ص ٥١٨ .

٤ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٣١ ، ص ٥١٨ .

٥ ـ Procopius : Anecdota
بروكوبيوس : الترجمة الروسية في المسلسل الدوري « اخبار التاريخ القديم » ف . د . ي العدد الرابع ، سنة ١٩٣٨،ص٣٤١–٣٤٣ .

٦ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرات ٣٠–٣٢ ، ص ٥١٨–٥١٩ .

٧ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرات ٣٠ ـ ٣٢ ، ص ٥١٨ ـ ٥١٩ .

٨ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب »،الفقرة ٢٥ ، ص ٥١٧ .

٩ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٠ ، ص ٥١٦ .

١٠ ـ « الوصف الكامل للعالم والشعوب » ، الفقرة ٢٢ ، ص ٥١٦ .

ـ ب ـ

« تاريخ أميانوس ماركيلينوس »

« Ammianus Marcellinus .. Historia »

١١ ـ Ammiani Marcellini Rerum gestarum libri, qui supersunt, rec. C. U. Clark, V. I — II, Berolini, 1910 — 1915, 14, 8 — 13.
ترجمه الى اللغة الروسية يو.كولاكوفسكي وآ.سوني،بعنوان : اميانوس ماركيلينوس ـ تاريخ. ترجمة من اللاتينية في ثلاثة اجزاء ، كييف ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨ .

١٢ ـ اميانوس ماركيلينوس ـ تاريخ،الترجمةالروسية ، الجزء الاول ، ص ١٦ .

— ج —

« فيلو ستورغيوس — تاريخ الكنيسة »

Philostorgius, Historia Eclesiastica, ed. Bidez, Leipzig, 1913.

١٣ — فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، طبعة ليبزغ ١٩١٣ ، ص ٤٢ .

١٤ — فيلوستورغيوس ، ص ٣٣ .

١٥ — نينا بيغوليفسكايا : بيزنطة على طرق الهند، موسكو ١٩٥١ ، ص ٧٢ .

١٦ — قزما الملاح الهندي : الطبغرافية المسيحية ، النص اليوناني ، طبعة وينستند ،كمبردج١٩٠٩، ص ١١٩ .

Cosmas In⁻ᵈ.ecopleustes : The Christian topography (greec text), ed. by Winstedt, Cambridge, 1909, P. 119.

١٧ — فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، ص ٢٤ .

١٨ — فيلوستورغيوس ، تاريخ الكنيسة ، ص ٢٥ .

١٩ — قزما الملاح الهندي : الطبغرافية المسيحية ، ص ١١٩ .

— د —

— قزما الملاح الهندي — « الطبغرافية المسيحية »

20 — Cosmas Indeicopleustes : The Christian topography (greec text), edit by Winstedt, Cambridge, 1909, P. 52.

21 — Cosmas Indicopleustes, P. 62.

22 — Cosmas, P. 72.

23 — Cosmas, P. 319.

24 — Cosmas, P. 70 — 71.

٢٥ — ب . آ توراييف ، تاريخ الشرق القديم ، بطرس بورغ ، ١٩١٤ ، ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

٢٦ — نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ١٣٢ .

٢٧ — نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ١٣٣ .

٢٨ — نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ١٣٣ .

29 — Cosmas, 119.

30 — C. Stornajolo, la Miniatura de la topografia Christiana, codex Vaticanus 699, Millano, 1908.

٣١ ـ ي.ي. سريزنفسكي ، معلومات وملاحظات حول المصادر المجهولة او المعروفة قليلا ،بطرسبورغ ١٨٦٧ ، ص ٥ .

٣٢ ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند ، موسكو ١٩٥١ ، ص ٨٦ .

ـ هـ ـ

« صناعة الحرير وتجارته في مدن بلاد الشام »

33 — Procopius Caesarensis : Anecdota (Hitoria Arcana), Cap. 25, ed. Haury, Berlin, 1905, V. III. P. 115.

34 — Procopius, Anecdota, Cap. 25, P. 157.

٣٥ ـ نينا بيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

٣٦ ـ نينابيغوليفسكايا ، بيزنطة على طرق الهند، ص ٩٥ .



صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام
١٩٠٨ ـ ١٩١٨
حزب اللامركزية الإدارية العثماني

د. سهيلة الريماوي

الجامعة الاردنية

اولا : البعد التنظيمي الداخلي للحزب :

حزب اللامركزية الادارية العثماني ، تنظيم سياسي علني ، اقامه السوريون خارج سورية ، وبالتحديد في مصر أواخر سنة ١٩١٢ أو أوائل سنة ١٩١٣ ، ويرجع التاريخ الاول ، استنادا الى وثيقة حصلت عليها من مكتبة محب الدين الخطيب في القاهرة تحدد تاريخ ١٢ يناير ((كانون الثاني)) سنة ١٩١٣ يوم اجتماع اللجنة العليا للحزب وانتخاب محب الدين الخطيب في هذه الجلسة مساعداً للسكرتارية ، اي سكرتيراً ثانياً (١) .

وعلى العموم فان مسالة ((التنظيم السياسي)) ، على صعيدي النظرية والتطبيق هي واحدة من أهم المسائل التي تواجه الفكر والحركات السياسية المعاصرة في امم العالم كله ، وهي من أهم المسائل التي واجهت العرب العثمانيين بعد اعلان المشروطية سنة ١٩٠٨ .

واذا كانت ضرورة ((التنظيم السياسي)) امرا مسلما به ، ولم تثر كثيرا من النقاش أو الجدل حولها عند العرب العثمانيين في مطلع القرن العشرين ، فمما لاشك فيه أن ((صيغة)) التنظيم السياسي ومقوماته ، امور اثارت نقاشا واسعا وجدلا حادا بين الشبيبة العرب في الاستانة حول مسائل كثيرة منها : هل الاحزاب والحزبية هما الصيغة المثلى للتنظيم والنشاط السياسيين ؟ أم تراهما غير ذلك ؟

هل الاحزاب السرية ، أم الاحزاب العلنية ، أم الجمعيات القومية ، أم جمعيات الاخاء والائتلاف ، افضل من غيرها في ذلك الوقت ؟

ما كيفية بناء الحزب ، وما مقومات هذا البناء ومهماته ، وصلاته بالمؤسسات السياسية والاجتماعية الاخرى في الدولة والمجتمع ؟

من هنا فان مواجهة مسألة التنظيم السياسي بصورة عامة وما تنطوي عليه بطبيعتها ، من مواجهة لمسألة الاحزاب والحزبية بصورة خاصة ، هي مسألة حية واجهتها امتنا بفكرها وحركتها مواجهة فعلية مباشرة ، منذ مطلع القرن العشرين حتى وقتنا الحاضر .

واذا كان حزب الاخاء العربي العثماني أول حزب علني تأسس بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ (٢) ، وجمعية العربية الفتاة والجمعية القحطانية من أوائل الجمعيات السرية التي اسسها العرب العثمانيون بعد الانقلاب ، فان حزب اللامركزية الادارية العثمانية هو في مقدمة الاحزاب العلنية التي اسسها السوريون خارج سورية ، وقد انتشر انتشاراً واسعا في بلاد الشام حيث تأسست له الفروع النشطة ، وبقي قائما من اواخر سنة ١٩١٢ وحتى سنة ١٩١٦، حيث قدم جمال باشا السفاح أكثر اعضائه شهداء على اعواد المشانق في هذه السنة .

نشاة حزب اللامركزية وظروف تاسيسه :

نشأ هذا الحزب اثر ضياع طرابلس الغرب ، وبعد ان أيقن العرب الشاميون المقيمون في القاهرة ، ان الامبراطورية العثمانية غير قادرة على حماية حدودها ، أو على تطبيق نظامها المركزي الاداري .

ويقول رشيد رضا احد مؤسسي الحزب :

« ان حزب اللامركزية كان يراد به خدمة الدولة والبلاد العربية معا . وكان سبب تأسيسه ما ذكر آنفا من سبب تأسيس الجمعية العربية وهو ما انذرت به الحرب البلقانية العثمانية من توقع زوال الدولة ، وقد كنا نعتقد ان الدولة لا يمكنها ان تعيش طويلا اذا أصرت على شكل حكومتها المركزي ، وتحكيم الترك في جميع شعوب الدولة »(٣) .

وقد تشكلت اول هيئة ادارية للحزب على الشكل التالي :

١ ــ الرئيس : رفيق العظم من دمشق

٢ ــ نائب الرئيس : اسكندر عمون من لبنان

٣ ـ امين السر : حقي العظم من دمشق

٤ ـ امين السر الثاني : محب الدين الخطيب من دمشق

٥ ـ امين السر الثاني : رشيد رضا من طرابلس لبنان

٦ ـ عضـو : د. شبلي شميل من لبنان

٧ ـ عضـو : سامي جريديني من لبنان

٨ ـ عضـو : داوود بركات رئيس تحرير صحيفة الاهرام بمصر(٤)

مبادىء حزب اللامركزية واهدافه :

يتميز هذا الحزب بأنه صاغ مبادئه واهدافه في وثيقة عنوانها : « بيان الحزب وبرنامجه السياسي »(٥) . وهي وثيقة مفصلة تفصيلا وافيا ، ترقى الى مستوى دساتير الاحزاب الحديثة . والسبب في هذا التفصيل الواضح ، ان هذا الحزب كان يتمتع بعدة صفات اهمها : انه كان حزبا علنيا ، ويتكون من سياسيين مجربين ، ثم انه حزب نشأ في مصر حيث كان مستوى الفكر والوعي السياسي على درجة متقدمة، كما انه كان بعيدا عن مركز الدولة العثمانية .

اما الجزء الاول من هذه الوثيقة وهو : « بيان الحزب » ففيه محاولة لعرض ما يمكن تسميته « فلسفة الحزب » أو « نظريته السياسية » وتحليل لاوضاع الامبراطورية العثمانية الواقعية ، لينتهي من ذلك الى تأكيد اللامركزية الادارية كحل ضروري لما كانت عليه تلك الاوضاع من صراع وتخلف وما تنطوي عليه بالنسبة للدولة العثمانية وشعوبها من مخاطر .

أما البرنامج المرفق بالبيان ، فهو في حقيقته « دستور مقترح » لنظام اللامركزية الادارية التي يطالب بها الحزب(٦) . ويتألف هذا البرنامج من (١٦) مادة ، تحتوي على المبادىء الدستورية الاساسية ، ويمكن ان نوجزها على الشكل التالي :

أولا : التأكيد على وحدة الدولة العثمانية ، وعلى وحدة السيادة فيها .

ثانيا : اقامة مركزية ادارية محددة القسمات .

اما اهم مظاهر الوحدة السياسية للدولة العثمانية ، واهم مظاهر وحدة السيادة

فيها ، في برنامج الحزب ، فهي ان البرنامج يؤكد على ان السلطان هو رأس الدولة العثمانية الواحدة (أي الامبراطورية العثمانية) وانه هو الذي يعين الوالي وقاضي القضاة في ارجاء الامبراطورية .

ويشير البرنامج الى ان (مجلس المبعوثان والاعيان) هو المجلس التشريعي المركزي للامبراطورية العثمانية .

كما يشير البرنامج الى ان « النظارة المركزية » أي « الحكومة » هي التي تتولى شؤون التشريع العام والدفاع والخارجية والمالية العامة المشتركة .

اما بالنسبة للغة ، فيشير البرنامج الى ان اللغة التركية هي لغة رسمية في جميع الولايات التي تتألف منها الامبراطورية العثمانية ولكن « الى جانب لغاتها المحلية » .

اما مظاهر اللامركزية الادارية في برنامج الحزب فانها تبدو اساسا على الشكل التالي :

ان البرنامج يطالب بتكوين أربع مؤسسات محلية هي : أ ـ المجلس العمومي ، ب ـ مجلس الادارة ، جـ ـ مجلس المعارف ، د ـ مجلس الاوقاف .

وصلاحيات هذه المجالس وسلطاتها تحددها مواد البرنامج من المادة الخامسة وحتى المادة التاسعة على الشكل التالي :

صلاحيات المجلس العمومي .

صلاحيات مجلس ادارة الولاية .

صلاحيات المجالس الثلاثة الاخرى .

أما صلاحيات المجلس العمومي فهي المراقبة على حكومتها (والظاهر ان كلمة حكومة هنا تعني مجلس الادارة) ، والنظر في جميع شؤون الادارة المحلية ، من تقرير ميزانية الدولة ، وأمور الامن العام ، والمعارف ، والنافعة ، والاوقاف ، والبلدية ، وتقرير ما يراه فيها وسن النظامات لها .

وأما ما كان من أمور النافعة ويتعلق من بعض الوجوه بالامور العسكرية او السياسية الخارجية ، كسكك الحديد ، فيرفعها الى العاصمة .

وواضح مما تقدم ان هذا المجلس العمومي هو بمثابة برلمان للادارة المحلية يراقب حكومتها (أي مجلس ادارتها) كما يفعل البرلمان في الحكومة ، ويقر الموازنة ولكنه لا يضعها ، ويسن النظامات التي تقابل القوانين في أحوال المجالس النيابية .

اما صلاحيات مجلس ادارة الولاية ، فهي القيام بأعمال الحكومة الادارية واهمها: وضع ميزانيتها واختيار جميع موظفيها .

واما صلاحيات المجالس الثلاثة الاخرى ، فهي ان يتولى كل مجلس منها ادارة الشؤون ووضع الموازنة في مجال اختصاصه .

ومن مظاهر تشابك المركزية باللامركزية في هذه الصلاحيات ما يلي :

أ ـ ان قرارات المجلس العمومي تكون نافذة ومعنى ذلك انها نافذة بدون حاجة الى تصديق من الوالي او من السلطان كما يفهم من النص .

ب ـ وجوب رفع راي المجلس العمومي الذي يتصل بالنافعة ، والمتعلق من بعض الوجوه بالامور السياسية والعسكرية للسكك الحديدية ، الى العاصمة، بعد ابداء رأيه. فقرار المجلس العمومي غير نافذ في هذه الامور ، مع ان اختيار مجلس ادارة الولاية للموظفين يحتاج الى تصديق من يمثل السلطة المركزية .

جـ ـ ان الشؤون المتعلقة بالخدمة العسكرية صيغت بطريقة توفق بين حاجات الدفاع المركزي وبين مقتضيات اللامركزية ، من حيث كون أهل كل ولاية يؤدون الخدمة العسكرية في ولايتهم ، ويكون عسكرها على أهبة الاستعداد للزود عنها زمن السلم ، واما سوق الجنود في زمن الحرب فهو منوط بوزارة الحربية ، وحينئذ يجب على المجلس العمومي ان يختصر وسائل الدفاع عن الدولة .

وبالرغم من ان مجمل الصياغة اللفظية توكد اللامركزية الادارية في نطاق الوحدة السياسية ، الا ان في النصوص مرونة ، بل غموضا أحيانا ، يترك هامشا واسعا لاعطاء اللامركزية الادارية التي يتحدث عنها هذا البرنامج كثيرا من خصائص اللامركزية السياسية .

اما النظرية السياسية للحزب ، أو فلسفته ، كما تبدو في البيان ، فانها تقوم على تأكيد المبادىء التالية :

١ ـ ان غرض الامم الذي ترمي اليه في هذا الوجود انما هو الحياة . بمعناها الواسع ، الحياة الاجتماعية والحياة السياسية ، اي « أن يكون لها وجود اجتماعي راق ، ووجود سياسي ثابت » .

٢ ـ انه « من الضروري ان تسعى الامة لكلا الوجودين في منهجهما القويم الموصل الى الغاية ، وتعنى بهما جميعا ، ولا تقتصر مجهوداتها على بلوغ غاية احدهما دون الآخر » .

ورتبت هذه النظرية على المبدأين السالفين مبدأ ثالثا هو :

٣ ـ ان « القوانين الاجتماعية مهما كانت راقية قل ان تضمن الحياة لامة اذا لم تكن قائمة على أساس متين هو القوانين السياسية » .

وأوضحت مضمون هذا المبدأ في تأكيد عدم جدوى القوانين الاجتماعية التي لا ترتكز على أساس متين من القوانين السياسية ، فبينت :

أ ـ « ومهما عنيت الحكومة بتنظيم قوانين الحياة الاجتماعية للامة واكثرت من مشروعات الاصلاح في المملكة ، في التعليم والاقتصاد والادارة والقضاء ونحو ذلك ، فانها لا تخرج في هذا كله عن معنى الوصاية على محجور عليه لا يملك التصرف بشؤون حياته الخصوصية ليثبت لنفسه وجودا صحيحا بين الناس ويعمل لسعادته جهد العامل المجد » .

ب ـ « ولذا اصبح لهذا العهد شكل الحكومات التي تقوم به الحياة السياسية لكل امة من الامم وصار من المسلم بالبداهة ان وجود الامة السياسي والاجتماعي بين (مجاميع الانسان) الحية متوقف على شكل الحكومة فكلما كانت مشاركة الشعب للحكومة أكثر ، كان ذلك لدوام وجوده اضمن » .

وخلصت نظرية الحزب من ذلك كله الى صياغة مبدأ رابع هو :

٤ ـ « لهذا تكاد تكون سائر الحكومات التي للامم المستقلة اليوم دستورية شعبية لا شأن فيها لسلطة الافراد بل الشأن لعامة الامة ومشاركتها للحكومة في كل جليل وحقير من الشؤون العامة ، الا أنها تتفاوت في ذلك منازل ودرجات وتختلف في الشكل اختلافا روعي فيه الاجتهاد والنظر الى حالة الشعوب الاجتماعية والعرقية والقابلية والاستعداد » .

وبعد تأكيد المبادىء الاربعة المذكورة بالصورة المنطقية ، التي انتهت الى تأكيد أن أفضل شكل من اشكال الحكومات هو الشكل الدستوري ، يمضي بيان حزب اللامركزية الادارية فيؤكد ان « افضل اشكال الحكم الدستوري هو اللامركزية ، خصوصا في الممالك التي تعددت فيها العروق والمذاهب واللغات ، واختلفت العوائد والتقاليد والاخلاق ، فكان من المتعذر ان تساس بقانون واحد لم تراع فيه تلك الاحوال ، ولم ينظر معه في الحاجة والزمان والمكان » .

واعتمد بيان الحزب في تأكيد هذا المبدأ على التجربة ، وضرب مثلا حيا عليها بسويسرا والدولة العثمانية ، بعد ان اشار في وصف مقارن للفروق بين اوضاع التقدم والترقي القائمة في سويسرا التي تحكم باللامركزية ، وبين السلطنة العثمانية التي تحكم بالمركزية .

كما اعتمد في تأييد هذا المبدأ أيضا على تحليل تخطى فيه مجرد المقارنة بين الاوضاع التي تبرزها التجربة ، وانتهى منه الى ان اللامركزية تأبى بطبيعتها ان تكون تبعة الحكم مقصورة على أفراد قليلين تصدر عنهم القوة والعمل الى كل ناحية من انحاء المملكة فيكونوا « كالمحرك في آلة كبيرة جدا اذا اصابه عطب او ضعف تعطلت اجزاء سائر الآلة عن العمل دون أن يكون لاي جزء من هذه الاجزاء قوة ذاتية يعمل بها لنفسه ودون أن يكون مسؤولا عن نتيجة وقوفه عن العمل » .

ومن البديهي أن الشعب غير المسؤول عن اي خطأ يصدر عن حكومته لا يشعر كل فرد منه بالتبعية فلا يهتم بالنتائج لخطأ الحكومة الا بعد الوقوع فيه . ذلك لانه يسير بارادة غيره لا سلطة له حتى على نفسه ، لانها محكوم عليها ان تسير في السبيل الذي يريده غيره وان « خالف رغبته ومصلحته وهواه » .

ثم يبدأ البيان بتمجيد اللامركزية وضرورة تطبيقها بقوله :

« فاللامركزية توزع التبعة على أفراد الامة بمقدار ما تعطيهم من السيطرة على مصالح الوطن وبسبب ذلك تنزع عنهم ثوب الحياة الاتكالية ، حياة الاعتماد على غير النفس ، وتفسح أمام كل فرد مجال العمل الواسع في جهاد الحياة وتمهد للشعب بلوغ غايات المدنية والترقي والعمران من أقرب سبيل وفي وقت قصير والعكس بالعكس » .

وبعد أن توصل الحزب الى تأكيد المبادىء الخمسة المذكورة التي تكون عناصر

نظريته السياسية ، ووصف أوضاع الامبراطورية وحللها من نواحي التعليم والنافعة والادارة والدفاع ، انتهى الى تقرير موقف اجمله بقوله :

« وقد ظهر للعيان ان المملكة كلها عرضة لخطر الزوال بهذه الحكومة المركزية مهددة بفقد الاستقلال الذي يفديه كل عثماني بأعز شيء لديه وهو النفس ، ويتمنى كل شعب تظله راية الهلال بقاءه ليبقى عزيزا في وطنه أمينا من تسلط المغيرين عليه ».

ثم انتهى الى ان العلاج الوحيد لهذا الموقف انما هو في الاخذ « باللامركزية الادارية »

النظام الداخلي للحزب :

يبين لنا النظام الداخلي لحزب اللامركزية الادارية العثماني ، السمات الرئيسية التالية لهـذا الحزب وهي :

١ ــ انه حزب علني ، فهو على حد نص المادة الثالثة : « ليس هذا الحزب خفيا وليس فيه ما يعد من الاسرار فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهرا وعلانية دون الخشية من أحد لاعتقاده يقينا ان الدولة لا تبقى في (العالم السياسي) الا اذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية » .

٢ ــ انه حزب يؤمن بالوسائل المشروعة ، فهو على حد نص المادة الثانية ينادي بعـدة نقاط و ... « والمطالبة بكل الوسائل المشروعة بحكومة تؤسس على قواعد اللامركزية الادارية في جميع ولايات الدولة العثمانية » .

٣ ــ انه حزب عثماني التكوين ، فهو على حد نص المادة الرابعة يقول : « ان الدخول في حزب اللامركزية مباح لكل عثماني بلغ العشرين من العمر ، على شرط ان يكون اولا من المتمتعين بجميع الحقوق المدنية ، ثانيا : غير محكوم عليه بحكم مخل بالشرف ، ثالثا : غير معروف بسوء السيرة ، رابعا : ان يقبل القواعد المبينة في برنامج الحزب » .

هذا على الرغم من انه لم ينتسب الى هذا الحزب في الواقع الا اعضاء من العرب. ويقـدم لنـا القانون الداخلـي لهـذا الحزب (أي النظـام الداخلـي أو اللائحة بالمصطلحات الحديثة) نموذجا طيبا من ناحية الشكل . فالتطبيق موضوع اخر لنظام داخلي يقوم على ما يسمى اليوم نظرية « الديموقراطية المركزية » في تكوين الاحزاب

ويتضح ذلك من خلال النقاط التالية :

النقطة الاولى : تحديد واجبات الاعضاء وحقوقهم على الشكل التالي :

١ ــ انه لا يجوز الجمع بين عضوية الحزب وعضوية حزب آخر يخالفه في المادة والغاية (م ٥) .

٢ ــ ان من اهم واجبات العضو ان يدفع الى الفرع المسجل فيه راتبا شهريا (أي اشتراكا شهريا) اقله قرشان . ويعفى الفقراء من هذا الراتب .

٣ ــ ان من اهم واجبات اعضاء الحزب من المبعوثين أن يسعوا بكل ما في وسعهم لتنفيذ قواعد الحزب في المجلس .

٤ ــ انه وان كان لا يقيد الحزب اعضاءه بشيء غير قواعد برنامجه السياسي الذي وضع لاجله (م ٨) فانه لا يسوغ لاحد المنتمين اليه مراجعة الحكومة باسم الحزب من تلقاء نفسه . واذا ثبت على أحد الاعضاء مثل هذا السلوك يمحى اسمه من سجل الحزب (م ١٠) .

وواضح من هذا القيد انه يحرم على غير الجهة المختصة في الحزب ، او من تكلفه بذلك ، أن يراجع الحكومة باسم الحزب ، وهذه مسألة انضباطية على غاية من الاهمية ، تحمى الحزب من استغلال اسمه أو توريطه ، والتاكيد عليها يشير الى الاحتمالات الكبيرة لوقوع مثل هذا التجاوز بسبب طبيعة الاوضاع السياسية من جهة ، ولكون الحزب يضم بطبيعته كثيرا من السياسيين الموجودين في الاستانة .

واعطى الحزب اهمية لهذه المسألة ليس بالنص على خطرها فحسب وانما بفرض أقصى عقوبة حزبية ممكنة على العضو ، وهي محو اسمه من سجل الحزب .

النقطة الثانية : تحديد صلاحيات اللجان والهيئات التنفيذية وبناء علاقاتها مع بعضها ، ومع القاعدة الحزبية على الشكل التالي :

١ ــ القاعدة تنتخب القيادة على المستويات المختلفة .

٢ ــ والقاعدة ترسم السياسة لفترة مقبلة .

٣ ــ والقاعدة تحاسب القيادة على تنفيذ السياسة .

٤ ــ اما المراكز القيادية في الهيئات القيادية بمختلف مستوياتها ، فتملأ بالانتخابات وبطريقة الاقتراع السري .

٥ ــ والهيئات الدنيا حرة في نطاق اختصاصها المحلي ، وكذلك الهيئات العليـا في نطـاق اختصاصها الاعلـى .

٦ ــ القيادات مسؤولة امام الهيئات التي تنتخبها . وهي مطالبة بأن تقدم لها تقارير دورية عن كل شؤون الحزب ونشاطاته في كافة المجالات .

٧ ــ الانضباط في نطاق المبادىء المذكورة اعلاه .

ويبدو تطبيق هذه المبادىء ، التي هي جوهر مضمون نظرية (الديموقراطية المركزية) في تكوين الاحزاب ونظمها الداخلية ، على الشكل التالي :

١ ــ كل عضو في فرع هو عضو في مؤتمر هذا الفرع (مادة ١٥) .

٢ ــ في كل فرع لجنة ادارية تتألف من ٢٠ عضوا ينتخبها مؤتمر الفرع .

٣ ــ كل لجنة ادارية تنتخب رئيسها وسكرتيرها وامين صندوقها .

٤ ــ يعقد كل فرع مؤتمرا فرعيا محليا سنويا يحضره جميع اعضاء الفرع ، كمـا تعقد اللجنة مؤتمرا حزبيا عاما سنويا في القاهرة يحضره اعضاء اللجنة العليا واعضاء الحزب في المركز العام ، ومندوبون عن اللجان الفرعية جميعها .

٥ ــ لا تعد مذكرات اللجان ، ولا قراراتها ، قانونية ، الا اذا حضر اجتماعها نصـف أعضائها على الاقل . اما اذا تكررت الدعوة فيكون الحاضرون حينئذ نصابا قانونيا

٦ ــ المؤتمر العام للحزب هو السلطة العليا فيه . ويبدو تاكيد هذا المبدا في الاسس التالية ، التي أفرد لها فصل خاص في نظام الحزب هو الفصل السابع ، ويشير الى النقاط التاليـة :

اختصاص المؤتمر العام بالاطلاع على بيان اللجنة العليا عن اعمال الحزب في السنة الماضية ، ورؤية حساباتها ، والتصديق عليها ، والمذاكرة في كل ما يرفـع اليه من اعمال السنة المقبلة وتقريرها . واللجنة العليا مكلفة ان تهيء لائحة عامـة (المقصود تقريرا عاما) عن الحزب وأحواله بناء على ما يردها من اللوائح والكشوف من لجان الفروع ، وترفعها الى المؤتمر العام .

انفراده بحق اقرار اي تغيير او تبديل في برنامج الحزب السياسي الاساسي ، وتقييد هذا الحق بأن لا يتم التغيير الا بطلب تحريري من اللجنة العليا أو لجنة من لجان الفروع « وان يكون ذلك بأغلبية اراء المؤتمر » .

سيادة قراراته بالنسبة لجميع لجان الحزب ، بحيث يكون على اللجنة العليا ولجان الفروع تنفيذ ما يقرره المؤتمر العام كل منها فيما يخصه .

ماليـة الحـزب :

اما مالية الحزب فقد نظمت في الفصل السابع من نظامه الداخلي تنظيما متكاملا وسليما يقوم على الاسس التالية :

١ ـ تتألف اموال الحزب من التبرعات والاشتراكات . وتطالب اللجان الادارية بالاجتهاد في اتخاذ الوسائل الشريفة ليكثر ماله .

٢ ـ كل ما يقبض من المال باسم الحزب يجب ان يعطى به وصل مطبوع من دفتر قسيمة موقع عليه من الرئيس وامين الصندوق والمستلم .

٣ ـ تودع اموال الحزب في احد المصارف (البنوك) الموثوق بها باسم الرئيس والسكرتير وامين الصندوق ، ويسحب ما يسحب منها بامضاءاتهم جميعا (اي بعد ان يوقع عليها الجميع) .

٤ ـ لا يجوز ان يصرف شيء من مال الحزب في لجنة من لجانه الا بقرار من ادارة هـذه اللجنـة .

٥ ـ يجوز ان يكون في يد أمين الصندوق مبلغ لا يزيد عن الف قرش لاجل النفقات العارضـة .

واذا ما ضربنا صفحا عن متابعة التطبيق الفعلي لهذا النظام في مبادئه ونصوصه، بسبب استحالة هذه المتابعة من الناحية الواقعية ، فمما لا شك فيه ان هذا النظام بمبادئه ونصوصه يشير الى تصور متقدم ومتطور لمعالم البعد التنظيمي الداخلي بالنسبة لحزب علني شرعي ، تفوق المبادىء والنصوص التي قام عليها اي تنظيم حزبي سابق من التنظيمات العلنية التي تشكلت منذ سنة ١٩٠٨ حتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، بل يكاد يفوق المبادىء والنصوص التي قامت عليها الاحزاب في الوطن العربي في مراحـل لاحقـة .

وقد وجدت في مكتبة السيد محب الدين الخطيب ، السكرتير الثاني للحزب ، بعض الوثائق ، وتدل على مدى انتشار حزب اللامركزية وفروعه في اركان الامبراطورية العثمانية ، وتشتمل هذه الوثائق على دعوات لحضور جلسات المجلس وعلى بطاقة اعتماد اي طلب انتساب ، وعلى طلبات استقالة(٧) ، مما يؤكد لنا أن حزب اللامركزية يضارع في تنظيمه الاحزاب الحديثة ، وربما فاقها . وقد قام بدور فعال في تسيير الحياة الحزبية والسياسية في سورية قبل الحرب وحتى ١٩١٦ ، وانتهى اثر المشانق التي نصبها جمال باشا السفاح للاحرار العرب في تلك السنة ، كان بعض هؤلاء الشهداء من حزب اللامركزية .

ثانيا ـ البعد الحركي او الحياة الحزبية العامة لحزب اللامركزية :

يمكننا القول ان الاعداد لعقد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ ، كان من ابرز المجالات التي ظهرت فيها الحياة الحزبية العربية بشكل عام ، وفعاليات حزب اللامركزية بشكل خاص .

فقد كانت الاحزاب العربية في الامبراطورية العثمانية ، قبل انعقاد المؤتمر هي : جمعية العربية الفتاة (السرية) ، وقد لعبت دورها في المؤتمر من وراء ستار ، وحزب اللامركزية (العلني) الذي كان في بدء تشكيله ، ولكنه لعب الدور الاول في المؤتمر ، ثم الجمعيات الاصلاحية في بيروت ودمشق والبصرة وغيرها .

وقد جاءت المبادرة في هذه الاتصالات بين الاحزاب من قبل جمعية العربية الفتاة ، عندما وجه عبد الغني العريسي ، وهو من مؤسسي الجمعية ، رسالة الى صديقه محب الدين الخطيب عضو حزب اللامركزية في مصر ، يدعوه فيها للانتساب الى جمعية الفتاة العربية(٨) ، وعندما تم له ذلك طلب من محب الدين الخطيب ان يقنع حزبه بالاتصال باعضاء الحركة الاصلاحية القائمة في بيروت والتي تأسست في السنة التي بديء بها تأسيس حزب اللامركزية . وقد تمكن محب الدين الخطيب من القيام بهذه المهمة ، فارسل حزب اللامركزية برنامج الحزب الى بيروت مع عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي فيالاستانة ، واقترح اعضاء حزب اللامركزية ان يكون الاصلاح لجميع الولايات السورية ، بدلا من طلب الاصلاح لولاية بيروت فقط .. ثم شرح اعضاء اللامركزية غايتهم من هذا الاتصال بقولهم : « حتى تكون يدا واحدة في العمل والمطالبة بتحقيق مبادىء الحزب » ثم طلبوا أن تكون المكاتبات مع حزب اللامركزية عن طريق حقي العظم احد كتاب السر في الحزب (٩) .

وعندما قام والي بيروت الاتحادي بمصادرة محتويات مكاتب اللجنة الإصلاحية واغلاق صحفها ومكاتبها ، لم يسع حزب اللامركزية السكوت على اعمال الوالي ، فارسل الى الصدر الاعظم برقية احتجاج جاء فيها : « مصادرةوالي بيروت لجمعيتها الاصلاحية في عملها القانوني استبداد منكر ، مضيع لآمال الامة ، موجب للتقاطع بين الهيئتين ، تداركوا سوء العاقبة بعزل الوالي ونقض عمله ولا تسنوا للشعب سنة سيئة بمخالفة القوانين »(١٠) .

المؤتمر العربي الاول في باريس :

وعندما تباطأت حكومة الاتحاديين بتنفيذ بنود اللائحة الاصلاحية لمدينة بيروت وغيرها من المدن ، بادر أعضاء جمعية العربية الفتاة بالاتصال باعضاء حزب اللامركزية في مصر عن طريق العضو محب الدين الخطيب . ولا نود الخوض في تتبع المراحل التي مر بها المؤتمر فهناك دراسات كثيرة حول هذا الموضوع اهمها الدراسة الصادرة عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر(١١) ، ولكننا سنبرز الدور الذي لعبه حزب اللامركزية في المؤتمر .

لقد تمكن محب الدين الخطيب من ان يصبح صلة الوصل بين جمعية العربية الفتاة ، التي دعت الى عقد المؤتمر ، وبين اعضاء حزب اللامركزية ، وذلك بعد أن انتسب الى الجمعية واصبح عضوا في التنظيمين الحزبيين ، وتمكن من موقعه هذا من ان يعمل بنجاح لتبنى حزب اللامركزية لمؤتمر باريس تبنيا كاملا (١٢) .

وفي جلسة لجنة المؤتمر المنعقدة يوم الثلاثاء الموافق ١٩١٣/٣/١١ تقرر أن ترتبط هذه اللجنة بحزب اللامركزية في مصر بصفة رسمية ، وفي جلسة ١٩١٣/٤/٤ قررت لجنة المؤتمر ان ترسل كتابا الى اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة تعرض عليها فيه ان تكون لجنة الحزب هي المسؤولة عن المؤتمر ، وان تعهد برئاسته الى احد ممثلي حزب اللامركزية(١٣) .

وقد تلقت اللجنة التحضيرية للمؤتمر جوابا من اللجنة العليا لحزب اللامركزية مؤرخا في ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ ، توافق فيه على تبني المؤتمر ، وذلك بعد أن اقرت اللجنة العليا للحزب في جلستها المنعقدة يوم الجمعة ١١ نيسان ، «قبول اقتراح لجنةالمؤتمروتعيين وفد يمثل اللجنةالعليا لحزب اللامركزيةهناك»(١٤).

كما اقرت لجنة الحزب ارسال مندوبين من قبلها لحضور المؤتمر ، على ان يكون

لهم حق النظر والمشاركة في موضوعات المؤتمر « حتى تكون موافقة لمبادىء الحزب وبرنامجه »(١٥) .

على ضوء هذا الرد ، حددت لجنة المؤتمر « المسائل التي ستكـون اساس المذاكرات » على الشكل التالي :

١ ـ الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال
٢ ـ حقوق العرب في المملكة العثمانية
٣ ـ ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية
٤ ـ المهاجرة من سورية والى سورية .

وقد توالت برقيات التأييد ، السري والعلني ، على لجنـة المؤتمر وحزب اللامركزية من الجمعيات الاصلاحية في بيروت وغيرها ، كما ايدته الجمعيات العربية في المهجر ، وقامت الصحف العربية بحملة تأييد وتوعية جماهيرية ، تعرضت فيها الى ضرورة وجود حزب اللامركزية في البلاد وضرورة تطبيق اللامركزية : « لان المركزية هي قوام حياة العرب وانهم شركاء في هذه المملكة بل هم الاكثرية المطلقة فيها »(١٦) .

وبدات الوفود تتوالى على باريس وكان في مقدمتها حزب اللامركزية الاداري الذي يمثله السيد عبد الحميد الزهراوي عن اللجنة العليا للحزب (وهو مبعوث حماه سابقا ، وصاحب جريدة الحضارة في القسطنطينية) واسكندر بك عمون ، وهو وكيل رئيس اللجنة العليا للحزب ، ويعمل بالمحاماة في مصر(١٧) .

وقد استلم رئاسة المؤتمر الشيخ عبد الحميد الزهراوي ، في حين القى كلمة الحزب اسكندر عمون ، فركز على اهمية مبدأ اللامركزية وضرورة تطبيقه كعلاج لاوضاع الامبراطورية وحل لمطالب العرب . واسس هذا المبدأ على الحقوق القومية بصـورة عامـة(١٨) .

وقد اتخذت قرارات المؤتمر في الجلسة الختامية التي عقدت يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣(١٩) ، وعددها ١١ مادة ، ونص الملحق على انه : ستكون هذه المقررات برنامجا سياسيا للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة اي مرشح في الانتخابات التشريعية الا اذا تعهد مسبقا بتاييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه . وقد وضع المؤتمر قيدا على الزعماء العرب ، وعلى الاخص على رجال الاحزاب منهم ، بشان عدم قبول المناصب في الدولة العثمانية .

وبالرغم من ان المؤتمر خرج بنتائج عامة ، مثل توحيد نشاط الاحزاب والمنظمات

العربية الكبرى في الوطن والمهجر ، وبيّن ضرورة تمسك العرب بالدولة العثمانية مع مطالبتها بتطبيق اللامركزية ومشاركة العرب للترك في الحكم ، وضرورة التعليم باللغة العربية ، الا أن حزب اللامركزية حقق نتائج خاصة به ، اهمها انه بدأ يلعب الدور الاساسي العلني في ذلك العمل الجبهوي ، اذا صح التعبير ، وهو الحزب الحديث التأسيس ، وينتشر انتشارا سريعا ويؤسس له الفروع في ارجاء الامبراطورية(٢٠) . وهكذا كسب الى صفه الجماهير الشعبية وسيطر على الساحة الشعبية ايضا .

اتفاقية (باريس الحزبية) وتصدع جبهة المؤتمر بقيادة حزب اللامركزية :

كان حزب الاتحاد والترقي قد اوفد امين سره مدحت شكري الى باريس ليكون على مقربة من المؤتمر العربي ، وفوضه بان يسعى لعقد اتفاق بين حزبه وبين الاحزاب العربية الممثلة في المؤتمر وفقا لمسودة اتفاق كانت قد وضعت اثر مفاوضات جرت في الاستانة بين ممثلي الشبيبة العرب برئاسة عبد الكريم الخليل في العاصمة العثمانية ، وبين حزب الاتحاد والترقي الحاكم .

وقد تم التوصل فعلا في باريس الى اتفاق وقع عليه السيد عبدالحميد الزهراوي رئيس المؤتمر بالنيابة عن المؤتمر العربي ، ومدحت شكري بالنيابة عن جمعية الاتحاد والترقي . وهو اتفاق يعرف باسم (اتفاقية باريس)(٢١) . وقد جاءت هذه الاتفاقية بشكل يعدل مشروع اتفاق الاستانة المذكور ، ولكنه يقصر تقصيرا واضحا عن تحقيق المطالب العربية الواردة في مقررات المؤتمر اذا ما قورنت بنودها بمقررات المؤتمر العربي(٢٢) . وعلى اثر ذلك عاد عبد الكريم الخليل الى الاستانة برفقة مدحت شكري لعرض الاتفاق على اللجنة المركزية لحزب الاتحاد والترقي وحكومته ، وبقي رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي مع عدد من المندوبين في باريس كهيئة متابعة تنتظر نتائج مباحثات عبد الكريم الخليل في الاستانة ، وتتأهب للاشتراك في تنفيذ الاتفاق اذا ما أقره الاتحاديون .

ومن منطلق ضرب الاحزاب والقيادات العربية المؤتلفة في المؤتمر العربي الاول وتفتيتها « وافق المركز العام لحزب الاتحاد والترقي على الاتفاقية » ووقعها وزير الداخلية عن الحزب طلعت باشا ، كما وقعها عبد الكريم الخليل رئيس الشبيبة العرب عن المؤتمر ، واتفق الفريقان ، بطلب من الاتحاد والترقي ، أن تبقى الاتفاقية سرية حتى يتم تنفيذها(٢٣) .

ومما لا شك فيه أن الاتفاق على هذه السرية كان عملية خبيثة أراد بها

الاتحاديون عدة أغراض ، ابرزها تفتيت جبهة باريس الحزبية التي تحققت بعقد المؤتمر العربي الاول .

وحدث حادث ليس في الحسبان قام به حزب اللامركزية دون قصد . فقد أعلن رفيق العظم رئيس الحزب شروط الاتفاقية بعد اكثر من شهر على توقيعها ، بنتيجة التباس صنعته وكالة رويتر الانكليزية ، عندما أعلنت ان الباب العالي قد وافق على الاتفاقية ، فثار الاتحاديون ، وذهبت جريدة (طنين) التركية الى درجة انكار وجود الاتفاق وانكار ان سفر مدحت شكري الى باريس كان من اجل التفاوض مع رجال المؤتمر العربي . وتطور الامر الى درجة التهجم القاسي على المؤتمر وأحزابه ورجاله ومقرراته .

وعندما قررت حكومة الاتحاد والترقي تنفيذ (الاصلاح) واستصدرت ارادة سنية بذلك ، فضحت حقيقة سياستها ونواياها . فقد جاءت الارادة السنية مسخا للاتفاق وتشويها له في اكثرية بنوده ، وتراجعا تاما عن اهم هذه البنود ، وهو البند الثاني عشر ، الذي يقضي بأن تكون المعاملات الرسمية في البلادالعربيةباللغة العربية .

بدء تفتت الجبهة الحزبية العربية :

لقد تمكن الاتحاديون من اشاعة التفرقة في صفوف الجبهة العربية ، كما انهم تمكنوا أيضا من أن يحرجوا ، بصفة خاصة ، حزب اللامركزية ، الحزب العلني القائد في المؤتمر ، خاصة بعد ان رضي عبد الكريم الخليل بخطوات الاتحاديين وبالارادة السنية التي اصدروها ، وفتح بانشقاقه ثغرة من موقف الجبهة العربية . وزاد الامر سوءاً عندما التف حول عبد الكريم الخليل الكثير من الانتهازيين وطلاب الوظائف في الاستانة . وبالرغم من أن اعضاء الوفد الذي ذهب الى الاستانة لمتابعة اقرار بنود مؤتمر باريس اقتنعوا بأن الحكومة تماطل العرب وانها لن تحقق شيئا من هذه البنود(٢٤) ، لم يقنط رئيس الشبيبة العربية في الاستانة عبد الكريم الخليل من الاتحاديين وبقي يتفاوض معهم ويثق بهم ، وزاد فأخذ يحاول اقناع عبد الحميد الزهراوي في التوجه الى الاستانة .

بقي الزهراوي مدة خمسة اشهر في باريس بعد ان عاد وفد المتابعة الى بيروت من طريق استامبول ، وبقي معه خليل زينية وايوب ثابت ، وعندما ارسل له عبد الكريم الخليل برقية يدعوه فيها الى الاستانة استأذن حزب اللامركزية في مصر ، وكان الزهراوي مدة اقامته في باريس ، ايام المؤتمر وبعدها ، يكاتب الحزب ويعمل

برايه ، فخيره الحزب بين مصر والاستانة . وكان هو يفضل السفر الى الاستانة في حين كان الحزب يفضل حضوره الى مصر(٢٥) . ووصل الزهراوي عاصمة الامبراطورية في ١٩١٣/١٠/٢٨ فاستقبلته الشبيبة العربية في المحطة بالهتاف فليحي الاصلاح فليحي زعماء العرب ولتحي الامة العربية »(٢٦) ، وفي ١٠/٣٠ من العام نفسه بدات مفاوضات الزهراوي بصورة رسمية مع مدحت شكري سكرتير جمعية الاتحاد والترقي ، ولكن لم يمض اسبوع ونصف على بدء المفاوضات حتى ادرك الزهراوي تسويف الاتحاديين ومماطلتهم لتحقيق الاتفاقية ، فحاول العودة الى مصر ولكن عبد الكريم الخليل واصدقاءه الحوا عليه بالبقاء ، فما كان منه الا ان أعرب عن استيائه وتشككه بسياسة الاتحاديين لمحرري احدى الصحف بحديث وقع عليه بخط يده وطلب نشره .

واهم ما جاء في هذا الحديث تأكيد الزهراوي على ان الحكومة تعده وعودا لا تختلف عن الوعود التي تعطيها لغيره من المصلحين ويقول : « ولكن ما فائدة الوعود ونحن نريد أعمالا لا أقوالا » . وعندما سأله مندوب الصحيفة ولكن « ما هو السبب في مماطلة الحكومة ؟ » قال : « اظن السبب الخلاف القائم بين أعضاء جمعية الاتحاد والترقي ، فان فريقا من أعضائها يؤيد مطالبنا وفريقا يرفضها »(٢٧) .

الا ان حكومة الاتحاديين تمكنت في نهاية المطاف من اقناع عبد الحميد الزهراوي بانها في الطريق الى اقامة مدرستين سلطانيتين (ثانويتين) في دمشق وبيروت اساتذتهما من العرب ، وجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم والدواوين العربية ، اما بقية البنود فستتحقق بعد توافر المال اللازم . زيادة على ذلك صدرت الارادة السنية ١٩١٤/١/٤ بتعيين سبعة من العرب اعضاء في مجلس الاعيان ، كان الزهراوي هو الوحيد بينهم من دعاة اللامركزية في حين كان ثلاثة من الاتحاديين ، والثلاثة الاخرون من الحياديين(٢٨) .

بيان حزب اللامركزية بتاريخ ١٩١٣/١٠/٩ :

أصدر حزب اللامركزية بيانا بعد وصول الزهراوي الى الاستانة بيوم واحد . وكانت الاسباب التي دعت الحزب لاصدار البيان هي النتائج غير المشجعة التي استخلصها وفد المتابعة الذي زار الاستانة . وكان حزب اللامركزية يشعر بأن (اتفاقية باريس) مقصرة عن مطالب المؤتمر وعن مبادئه كحزب كذلك ، ولكنه وافق على توقيعها .

ولذلك فان البيان الذي أصدره كان يعبر عن موقف الحزب ، وتبرز فيه معاني الدفاع عن النفس ، والتمسك بمقررات مؤتمر باريس ، والاعتدال في معالجة موقف المنشقين ، وعلى الاخص عبد الحميد الزهراوي الذي كان الحزب قد رشحه لرئاسة المؤتمر وتصبه رئيسا له(٢٩) .

وأهم ما نستخلصه من هذا البيان ، ان الحزب لن يرسل وفدا الى الاستانة الا اذا تحقق لـــه امران :

الاول : ان توافق الحكومة على الاتفاقية وتطبقها بالحرف .

والثاني : ان تطرح قضية اللامركزية على الامة لابداء رأيها ، بأن تصادق على منهاج الحزب عامـــة .

ولقد بقي حزب اللامركزية منسجما مع بيانه المذكور في موقفه تجاه تنفيـــذ مقررات المؤتمر العربي الاول والاتفاقية ، فلم يستجب لطلب عبد الكريم الخليـــل بارسال وفد من اعضائه للاشتراك في مباحثات تنفيذ الاصلاح ، كما لم يستجب بعـــد ذلك لطلب الخليل ، والزهراوي ، الذي أصبح عضوا في مجلس الاعيان ، بان يرســـل رئيسه رفيق العظم ، وعضو اللجنة المركزية للحزب السيد رشيد رضا الى الاستانة لمتابعة خطة الاصلاح ، التي رأى الخليل والزهراوي بوادرها في تعيين العرب السبعة في مجلس الاعيان ، بل ان الشيخ رشيد رضا يقول ، تجاه تعيين الزهراوي وتجاه هذه الدعوة « اما انا فكان يغلب على ظني ان جعله من الاعيان احبولة يريدون بها اصطياد المخلصين من طلاب الاصلاح في خارج المملكة ليفتكوا بهم بعـــد جلبهم اليهـــم جملة واحـــدة »(٣٠) . وهو رأي لم تلبث الاحداث ان أكـــدت صحته خـــلال الحـــرب العالميـــة الاولـــى .

وبرر الحزب موقفه من عبد الحميد الزهراوي بأن « الحزب يرغب في الاصلاح ويرفض المشاغبة وعداوة الدولة » . كما ان الحزب راى أن « تظل الصلة وثيقة بين الطرفين (أي الزهراوي والحزب) لثقة الحزب به وباخلاصه في العمل لمصلحة الامة ، ولانه خير من يوقف الحزب على أعمال الحكومة »(٣١) .

وفي مكان آخر يشير رشيد رضا الى ان الزهراوي : « قبل منصب الاعيـــان بتلك النية الصالحة من غير مشاورة للحزب ولا لاحد من اصدقائه وانه اخبرنا بمـــا كان وبنيته فيه ، فلمناه على تعجله ، ولكن الحزب اجاز عمله ، واتفق الراي على ان يمضي في هذه التجربة وان لاينضم اليه احد من المقيمين خارج المملكة »(٣٢) .

ومهما كانت نوايا الزهراوي الصالحة ، التي يتحدث عنها الشيخ رشيد رضا في الفقرة السابقة ، فان اجازة الحزب لتصرفه ، وموافقته على المضي في التجربة التي بدأها الزهراوي ، كان موقفا من الحزب يبلغ في مرونته حد الاستهتار بالمؤتمر وبمقرراته ، التي كان اهمها القيد الذي وضعه المؤتمر على قبول المناصب .

والحقيقة ان حزب اللامركزية فشل في فرض (الانضباط) على صديقه الحميم عبد الحميد الزهراوي ، الذي رشحه لرئاسة مؤتمر باريس ، بل اجاز عدم الانضباط هذا فأسهم بذلك اسهاما فعليا في الاساءة الى قيمة المؤتمر المعنوية ، وفي زعزعة الثقة التي قامت بين الاحزاب والجمعيات المشتركة فيه ، حتى ان بعضها اتهم الحزب نفسه بالتواطؤ مع الاتراك وتمييع القضية ، ودفع الحزب والقضية ثمنا باهظا لهذا الفشل ، وكان أول من حمل حزب اللامركزية مسؤولية تمييع قرارات المؤتمر ، جمعيات المهجر ، خصوصا جمعية الاتحاد السوري في امريكا ، التي ارسلت كتابا مؤرخا في ١٩١٤/٢/١٩ الى حزب اللامركزية تشرح فيه وجهة نظرها(٣٣) وتحمل الحزب مسؤولية تهاون رئيس المؤتمر أمام اغراء الوظائف . وتشير الى أن حزب اللامركزية قد تراجع امام اغراء المناصب .

تصدعات حزب اللامركزية :

قرر اعضاء حزب اللامركزية عقد جلسة للرد على جمعية الاتحاد السوري ، ليبينوا تطورات الامور وموقف الزهراوي الاخير . ولكن السكرتير حقي العظم رفض ان يبرىء ساحة الزهراوي ، واخذ يشنع عليه ويصفه بالاوصاف التي لا تليق بمركزه وتبني الحزب لـه .

ولكن الحزب ، رغم معارضة سكرتيره ، ارسل جوابا لجمعية الاتحاد السوري يشرح فيه موقف الزهراوي ، وموقف الحزب ، وان تعيين الزهراوي في مجلس الاعيان ارتضته اللجنة العليا لحزب اللامركزية لدوام التفاهم بينها وبين الحكومة .. واكد الحزب في جوابه بأن الحزب مازال المطالب بالاصلاح ، والحزب الامين على تحقيق مبادئه حتى النهاية .

في هذه الاثناء ، كانت حكومة الاتحاديين قد القت القبض على الزعيم العربي عزيز علي المصري ، رئيس حزب العهد السري ، وتركزت جهود العرب عموما حول هذه الازمة ، ولكن الاتحاديين اصدروا حكمهم على بطل برقة بالاعدام ، ثم افرج عنه امام الضغط العربي العام(٣٤) .

والمهم في حادثة عزيز المصري ان الزهراوي كان يهاجم العسكريين عموما ، وخصوصا عزيز المصري وموقفه من الزهراوي والخليل(٣٥) وبالتالي كانت الازمة وسوء التفاهم قد انتقلت الى حزب اللامركزية نفسه ، ففي حين ايد اعضاء الحزب موقف الزهراوي ، ايد حقي العظم ، امين سر الحزب ، موقف عزيز علي المصري .

وهكذا بدات التصدعات تتسرب الى التنظيم الداخلي لحزب اللامركزية نفسه . وعلى الرغم من وقوف جميع اعضاء الحزب الى جانب عزيز المصري ومساهمة الحزب، كما تدل الوثائق ، في قيادة المظاهرات والدعوة للاجتماعات التي نادت بتخفيف الحكم، وطالبت بالافراج عن المصري ... الا أن التصدع كان قد بدأ في حزب اللامركزية وانتهى الى ازمة حزبية كادت تؤدي الى حل الحزب وتشتت اعضائه .

ازمة حزب اللامركزية :

يشير محب الدين الخطيب في مذكراته « سيرة جيل »(٣٦) ان رشيد رضا ورفيق العظم واكثرية الاعضاء قد تساهلوا في موقفهم من تصرف الزهراوي ، « بل واقروه عليه » في حين حمل حقي العظم لواء المعارضةواخذ يندد بالزهراوي فيالمجالس الخاصة والعامة . وكان يتفوه على الزهراوي بكلام لا يقبله « أي انسان وكنا نلومه على هذا الاسلوب الشنيع لشيخ جليل »(٣٧) . فقرر الحزب ان يستدعي الزهراوي من الاستانة وان يعقد جلسة لدراسة الموقف ، وخصوصا ان الحكومة بدات بمطاردة أعضاء الحزب وانصاره .

عقد الحزب جلسة في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الجمعة الواقع في ١٩١٤/٤/٢٤ برئاسة رفيق العظم وحضور رشيد رضا ، ونجيب بسترس ، وحقي العظم وسليم عز الدين ، ونعمان أبو شعر ، وخليل ايوب ، والدكتور خليل مشاقة ، والدكتور عزت الجندي والسيد محب الدين الخطيب . وكادت الازمة ان تنفجر في هذه الجلسة لولا ان تداركها الشيخ رشيد رضا ، فقد ظهرت عدة آراء متضاربة حول الحزب وسياسته ، كان اولها اقتراح رئيس الحزب بحل اللجنة المركزية ، وهذا يؤدي بالتالي الى حل الحزب . ولكن محب الدين الخطيب احتج على هذا الاقتراح بقوله : « ان الحزب ليس هو اللجنة ، واذا شاءت اللجنة ان تتنحى ، فلتدع الجمعية العمومية وتعرض عليها استقالتها ليصير انتخاب غيرها اما اذا كان الراي حل الحزب كله ، فيلزم عرض الفكرة على الجمعية العمومية ايضا »(٣٨) .

وأما حقي العظم ، فكان رايه أن الحزب لا يعمل ولذلك عليهم أن يضاعفوا من

نشاطهم وان يكتبوا المناشير ويوزعوها على الفروع حتى تشعر الجماهير بنشاط الحزب ويستعيد مكانته بعد موقفه من الزهراوي وتهاونه في ملاحقة قرارات المؤتمر . وكان رأيه اما أن نعمل وننشط او نحل الحزب .

وعندها تقدم الشيخ رشيد رضا باقتراح لحل الازمة ، وملخصه : « عقد مؤتمر للحزب وفروعه » وان يكتب المركز بذلك الى الفروع قائلا « نسألهم عن المؤتمر وهل نعجل به أم نؤخره وهل يشتركون معنا أم لا » .

ثم قال معللا اقتراحه بعقد المؤتمر ، ان الحكومة ستخفف من شدتها ، وخصوصا بعد حركة عزيز المصري وكيف اثرت هذه الحركة عند الحكومة ، وانها ستحسن الحال بين الحكومة والحزب ، كما ان المؤتمر بهذا الوقت « يجعل للحزب رونقا واهمية » وخصوصا ان الحزب استدعى الزهراوي للمفاوضات في الحالة الحاضرة .. « فالمؤتمر يؤكد عمل الحزب ، وعندها ننفي ما يخشاه حقي من اعتقاد الناس باننا ساكتون » .

ولكن العضو نعمان ابو شعر ، اقترح ثانية ان يحل الحزب وان يعلن ذلك قائلا « انه من المستحيل أن يرجع الترك عن صلفهم وغرورهم ... ودوام هذه الاعمال مضر لاخواننا في الداخلية » .

ولكن الاعضاء استبعدوا حل الحزب ، ووافقوا جميعا على اقتراح رشيد رضا بعقد مؤتمر للحزب وفروعه ..

واقترح رفيق العظم عمل نشرة يعلن الحزب فيها عن نفسه بانه حزب سياسي ، لا جمعية ثورية . وبما ان الحكومة بدات تطارد أفراده في داخلية البلاد ، انعقد عزم الحزب على ان يعقد مؤتمرا يعلن فيه ، للامة وللحكومة معا ، اعماله .. وتوزع النشرة على الصحف وعلى الفروع .

وفي الساعة السادسة والنصف انتهت الجلسة(٣٩) .

وكان قد اقترح في هذه الجلسة وضع مسودة للبيان الحزبي الذي يدعو لعقد المؤتمر ، كما اقترح ان يرسل البيان الى فرع حمص ، لانه من اقوى فروع الحزب داخل الامبراطورية وقد وجدت نص مسودة هذا البيان بين وثائق الاستاذ محب الدين الخطيب . يحتج البيان على مطاردة الحكومة لاعضاء الحزب ، بتهمة انه موجود عندهم ما يسمونه « الاوراق المضرة » لذلك رأت اللجنة العليا للحزب « ان تعقد

مؤتمرا للحزب في مصر تدعو اليه ابناء الامة العربية ، وتتلو عليهم اعمالها منذ تأسيس الحزب علنـا »(٤٠) .

ان هذه الجملة « تدعو اليه ابناء الامة العربية » يستدل منهـا ان حـزب اللامركزية ، وان كان قد قرر عقد مؤتمر للحزب وفروعه ، الا انه سيدعو لحضوره ابناء الامة العربية من حزبيين وغير حزبيين . وهذا ما كان يسعى اليه حزب العربية الفتاة ، من عقد مؤتمر ثان على غرار مؤتمر باريس ، يعقد في مصر ، ويقوم بالدعوة اليه حزب اللامركزية . وقد وفق محب الدين الخطيب في تحقيق مطلب حزبه السري، وهو حزب الفتاة ، لدى حزبه العلني ، حزب اللامركزية ، فتبنى الدعوة للمؤتمر دون علمه برغبة حزب الفتاة(٤١) .

وبالرغم من ان الردود قد وصلت الى حزب اللامركزية بالموافقة ، كما فعل فرع حمص مثلا(٤٢) ، الا ان المؤتمر لم يعقد لعدة اسباب :

أولا : لان الازمة في حزب اللامركزية بلغت اوجها بعد كتابة مسودة البيان .

ثانيا : لان الحرب العالمية الاولى اعلنت بعد حل الازمة الحزبية بمدة وجيزة .

أما تفاصيل عودة الازمة الحزبية وتفجيرها ، فقد حصلت على تفاصيلها من مذكرة مؤرخة بتاريخ الثلاثاء ٥ مايو سنة ١٩١٤ وجدتها بين وثائق الاستاذ محـب الدين الخطيب وملخصها :

انه بعد كتابة مسودة البيان ، حصل خلاف بين رفيق العظم الذي امتنـع عن توقيع البيان كرئيس للحزب ، وبين حقي العظم سكرتير الحزب ، الذي عـد نفسه مستقيلا من السكرتارية ، مع بقائه عضو لجنة ...

ويقول محب الدين الخطيب : عندما علمت بهذا الوضع الذي شرحه لي حقي بك وطلب مني توقيع البيان بصفتي السكرتير الثاني للحزب ، تأكدت ان الخرق قـد اتسع بين حقي بك ورفيق بكالذي يرى ان للعمل اوقاتا لايصلحان يعمل فيغيرها(٤٣) .

والحقيقة ان الوضع في حزب اللامركزية كان يهتز تحت الضربات التي وجهت اليه لتهاونه في موقف الزهراوي ، وتخليه عن تأييد المؤتمر ومقرراته .

فقد كانت جمعيات امريكا تطعن طعنا غير محق ولا هو معقول « والاعضـاء

المسيحيون قد انسحبوا من الحزب وقدموا استقالاتهم ، ومنهم نعمان أبو شعر وخليل ايوب » والحكومة تلاحق أعضاء الحزب ، وكلما صادرت احد المنشورات التي تصدرها الاحزاب العربية ، الصقت التهمة باعضاء حزب اللامركزية(٤٤) .

ولهذا كله كان يأس رفيق بك شديدا ، وكان يقول انه بحاجة الى الراحة من عناء السياسة وعدم الاشتغال بها بتاتا(٤٥) .

اما رشيد رضا فكان يرى سبب الازمة في التعصب المذهبي لبعض الاعضاء المسيحيين في الحزب ومنهم سليم النجار مراسل جريدة الاهرام ، الذي كان يراسل جريدة الهدى النيويوركية ، ويصرح لها برايه مطالبا بتعيين حصة المسيحيين من الامتيازات « كاننا سنعيش في المستقبل امما متفرقة بتفرق المذاهب كما يقول رشيد رضا »(٤٦) .

وفي راي سليم النجار ان الحزب لم يعد شيئا بعد استقالة نعمان وخليل منه ، ومعارضة حقي العظم وعزت الجندي لقراراته ، واقتصار اسكندر عمون على حضور الجلسات التي تعقد في منزله فقط .

ولعل تحليل رفيق العظم للازمة ، يلقى اكثر من ضوء على الازمة الحزبية التي يعاني منها حزب اللامركزية ، وهي تتلخص فيما يلي :

١ ــ ان حقي العظم يقوم باعماله الاندفاعية رغبة بالانتقام من الاتحاديين والترك.

٢ ــ ان الاعضاء المسيحيين يستدرجوننا الى الرضا بالاحتلال الفرنسي والعمل له ، ويضرب مثلا تأكيدا لقوله . « عندما اتى رجل مسلم غير معروف من خليل يقول له ، لماذا أنتم تشتغلون مع رفيق واصحابه فقال له : نحن نريد ان نتخذ هؤلاء المسلمين آلة للاحتلال الفرنسي »(٤٧) .

ويعتب رفيق العظم على حقي العظم قائلا : بالرغم من ان حقي بك علم بهذا القول وجاء هو بنفسه الي واخبرني بما حصل ، ومع ذلك فقد نسي كل شيء ولايزال منقادا لكل حملة طيش يسمعها من هؤلاء .

وبين رفيق العظم ــ رئيس حزب اللامركزية ــ موقفه من اراء حقي العظم ، واراء الاعضاء المسيحيين قائلا :

انا لست منتقما ، ولا اريد الانتقام من الاتحاديين كما يفعل حقي بك ، ولم يفعلوا لي ما يدعوني الى الانتقام « ولا اطمع بوظيفة ، ولو اعطيت لي السلطة لابتعدت عنها ، وانما انا طالب اصلاح لهذا الملك . . .

أما بالنسبة لموقف المسيحيين فيقول : « خيانة كبرى ان نأتي الى بلادنا بحكام أقوى من الاهالي بالمال والعلم والعقل والسلاح وغير ذلك ، فنمكنهم فيهم ، نحن نطلب اصلاح هذه البلاد ليس الا ، اما اولئك فوطنيتهم مقلوبة . . .

. . . أنا عشت ثلاثين سنة في السياسة وأنا شريف ، واريد ان اموت شريفا ، هم يريدون ان يسوؤا سمعتي الان بما يبلغوا لهذا وهذا من الاقوال ، ثم يريدون ان يتخذوننا آلة لامر نحن نعمل لغيره ، فأنا اريد أن ابتعد عنهم حتى يجربوا الطرق التي يريدون ان يسلكونها ، كفاني ما مضى من تعبي لاجل هذه المملكة . فلارتح الان ولاعتزل هذه الاعمال المنهكة » .

أما كيف انتهت ازمة حزب اللامركزية ، فيمكننا القول ، استنادا الى محضر جلسة عقدت في ٢٥ يوليو سنة ١٩١٤ ، بان الازمة حلت بتفاهم الاعضاء ، حيث حضر هذه الجلسة من الاعضاء ، اسكندر عمون ، وسليم عز الدين ، ورشيد رضا وصالح رضا ، وحقي العظم ، ومحب الدين الخطيب ، وكانت الجلسة برئاسة رفيق العظم (٤٨) . وهذا دليل قاطع على أن المسالة قد سويت بين الاعضاء ، وبعد استقالة الاعضاء الذين ذكرت اسماءهم سابقا .

ودارت الجلسة حول عقد المؤتمر ، والاستعداد له ، فقال رفيق العظم انه كتب للاستانة حول هذا الموضوع ، وكتب لبعض المبعوثين يطلب منهم حضور المؤتمر ، واكد اسكندر عمون أن المؤتمر يجب ان يحضره أناس معروفون ذوو مكانة .

وعندما اقترح رفيق العظم وحقي العظم ، وضع جدول لاعمال المؤتمر ، اجاب اسكندر عمون ان البحث في ذلك سابق لاوانه واقترح الانتظار حتى يتمكن الحزب من تعيين وقت المؤتمر ..

أما النقطة الثانية التي اثيرت في الجلسة ، فهي محاولة تفاهم اسعد داغر مع الصهيونيين ، وطلب اسكندر عمون استيضاحا حول هذه النقطة فافهمه رفيق بك تفاصيل المسالة(٤٩) .

ان الحرب العالمية الاولى التي اعلنت بعد خمسة ايام من تاريخ هذه الجلسة

قلبت الاوضاع رأسا على عقب ، ودخلت البلاد في حياة جديدة ، تابعة من ظروف الحرب وتطوراتها السريعة وهكذا قضي على أمل حزب اللامركزية والفتاة في عقد مؤتمر عربي ثاني .

حزب اللامركزية خلال الحرب العالمية الاولى :

كان اندلاع الحرب العالمية الاولى حادثا ضخما شملت آثاره مجالات متعددة ، اقتصادية واجتماعية وسياسية ، في كل دولة او شعب ، وكذلك كانت آثار الحرب ذات آثار جذرية وشاملة على الاحزاب والفعاليات الحزبية في الدولة العثمانية بصورة عامة ، والاحزاب في الوطن العربي بصورة خاصة .

وقد اشرنا الى ان حزب اللامركزية كان يعاني ازمة حادة قبل نشوب الحرب بقليل ، وكاد أن يكون في نقطة التصادم مع الضباط العرب والعسكريين ، ممثلين في تنظيمهم العسكري حزب العهد . ومع ذلك فقد بادرت الاحزاب العربية وفي مقدمتها جمعية العربية الفتاة السرية ، وحزب اللامركزية العلني الى التشاور حول ما يجب ان يكون عليه الموقف العربي وكانت الدولة العثمانية لم تدخل الحرب بعد ، فأرسلت العربية الفتاة الاخوين محمد ومحمود المحمصاني الى القاهرة للاتصال بحزبهما ، حزب اللامركزية ، فوصلا الى القاهرة قبل دخول تركيا الحرب ، واديا المهمة الحزبية التي كلفا بها من جمعيتهما السرية ، العربية الفتاة . ولما حاولا العودة الى سورية بعد اعلان التعبئة العامة في الدولة العثمانية ، نصح أحد الاصحاب محمد المحمصاني البقاء في مصر فأجابه : « ان الوطن في حاجة الى كل فرد من ابنائه في هذا الاوان العصيب فمن الخيانة ان لا نقوم بالواجب علينا نحوه »(٥٠) .

وقد اجمل لي الاستاذ محب الدين الخطيب ــ الذي كان حينئذ من اركان حزبي العربية الفتاة واللامركزية ــ والذي اشترك في تلك المباحثات ــ نتائجها مستعينا بمذكراته (سيرة جيل)(٥١) فقال :

كانت الآراء متفقة ومتلاقية على ان مصلحة العالم الاسلامي والاقطار العربية ، في ملحمة الحرب العالمية الاولى ، هي في الوقوف على الحياد وترك الفريقين المتنازعين على استعمار الارض واستعباد الامم يحطم بعضهما بعضا . . .

وفي مقابل هذا الموقف « السلبي » كان من المتعذر اتخاذ خطة ايجابية فيما يجب ان يعمله العرب اذا دخلت تركيا الحرب ، بغير ان يؤخذ راي الزعماء والحكام العرب في الاقطار العربية التي لها صلة بالدولة العثمانية . .

لذلك فقد تقرر ايفاد مندوبين الى اولئك الزعماء والحكام للتعرف على رأيهم فيما ينبغي ان يكون عليه موقف الامة العربية تجاه الاتراك اذا ما انزلقوا في الحرب مع فريق دون آخـر .

وقد اختير محب الدين الخطيب للسفر الى الخليج العربي ، ومحاولة الاجتماع بالامير عبد العزيز آل سعود أمير نجد والاحساء ، وبالسيد طالب النقيب زعيم العراق الجنوبي ، وغيره من الزعماء ...

واختير عبد الرحمن عاصم للسفر الى اليمن من أجل الاتصال بامامها .. واتفق على الاتصال بالشريف حسين أمير مكة على الرغم مما هو معروف عنه من عدم اطمئنانه الى الاحزاب والجمعيات أو ثقته فيها(٥٢) ، واختير الشيخ محمد القلقيلي للذهاب الى بلاد الشام (٥٣) .

وقد توجه كل من محب الدين الخطيب وعبد الرحمن عاصم الى الجهة التي انتدب اليها ، لاداء مهمته فيها ، ولم يتمكن اي منهما ان يبلغ تلك الجهة ، او ان يؤدي هذه المهمة ، فقد اعتقل الانكليز محب الدين الخطيب في البصرة ، وبقي عبد الرحمن عاصم في القاهرة لدخول تركيا الحرب وعدم تمكنه من السفر الى الجهة التي ندب اليها ، اما الشيخ القلقيلي فقد عاد من بيروت الى الاسكندرية ثانية . ويقول محب الدين الخطيب في مذكراته ، في معرض التعليق على اعتقاله « والظاهر ان برسي كوكس (الحاكم البريطاني في العراق) كان يعلم المهمة التي كان سفرنا من اجلها ، اذ قال لي عندما ودعني بعد الافراج عني ، بان العرب سينالون استقلالهم ، وبان الانكليز سيجلون عن العراق في الوقت المناسب ، لكنهم يحتفظون بالبصرة لاجل الهند »(٥٤) .

ويقول محب الدين الخطيب انه لم يتمكن من تحديد كيفية اطلاع الانكليز على سفره أو على مهمته بالرغم من أهمية هذه المسألة في ذلك الوقت .

وقد قرر حزب اللامركزية بعد ذلك عقد اجتماع كبير مع فروع الحزب ، لوضع خطة للدفاع عن البلاد العربية « لانها معرضة للخطر الذي تتعرض له كل البلاد العثمانية ، بل لخطر اشد لبعدها عن مركز القوة الذي يضطر الاتراك لحصر دفاعهم عن وطنهم ومركز سلطتهم »(٥٥) .

وطلب الحزب من فروعه ان يتلقى اجوبة سريعة من الفروع على الامور الاتية :

١ ــ ما هي القوة التي عندكم ويمكننا الارتكان عليها عند الحاجة لعمل عام .

٢ ــ هل في امكانكم جمع شيء من المال واسعافنا به او استبقاؤه عندكم حسب اللزوم وما هو المقدار الذي يمكنكم جمعه .

٣ ــ هل عندكم ملجأ امين لفرد او اكثر لمن يناط بهم ادارة الحركة الوطنية وان تؤمن معيشتهم كل التأمين .

٤ ــ هل يمكنكم ارسال شخص تثقون به ينوب عن فرعكم الى جهة نعينها لكم ليتلقى منها التعليمات اللازمة .

٥ ــ اذا لم يمكنكم ارسال شخص هل ترون من اللازم ان يأتيكم موفد مخصوص لاعطاء هذه التعليمات ؟

ويعلل حزب اللامركزية موقفه هذا قائلا : علينا معاشر العرب ان نفكر من الان في الوسائط التي تقي استقلالنا من الزوال ، ومن الواجب المقدس على حزبنا الذي له نوع من التشكيلات وكل افراده من أهل الوطنية الصادقة والغيرة على الوطن والحرص على سلامة الاستقلال ان يكون في مقدمة المفكرين في هذا الامر العامل على اتخاذ الوسائط الناجحة لسلامة الوطن وحياة بنيه(٥٦) .

لا بد لنا من الاشارة الى النقطة التالية وهي ان امين سعيد في كتابه (اسرار الثورة العربية الكبرى)(٥٧) يضع قصة المشاورات بين الاحزاب العربية وقرار الاتصال بالامراء العرب ، في نطاق فصل عن (المخطط الانكليزي لاستقلال الحركة العربية) تحت عنوان فرعي هو : « الاتصال بالهيئات العربية الاخرى » ، يصور فيه عملية التشاور بين جمعية العربية الفتاة واللامركزية التي اشرنا اليها سابقا ، ثم عملية ارسال المندوبين الذين كلفوا بالتشاور مع الامراء العرب تصورا مغايرا لكل ما اطلعت عليه من وثائق ، وللصورة التي سجلها محب الدين الخطيب في مذكراته .

يصور أمين سعيد الامر كما يلي :

١ ــ انهم (اي الانكليز) اتصلوا سنة ١٩١٤ وقبل اعلان الحرب بقليل بالسيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤسس جمعية (الجامعة العربية) وسألوه ان يوفد مندوبين الى الامراء عبد العزيز في نجد ، والامام يحيى في اليمن ، والسيد الادريسي في عسير ، وبعض زعماء الشام يسألونهم رأيهم في الخطة التي يسيرون عليها حتى نشوب الحرب ، فوافق مبدئيا ، وسألوه عن النفقات التي يستلزمها هذا الموضوع فقدره بألف جنيه دفعت له ، وانتدب لهذه المهمة ثلاثة من الشباب العاملين في القضية

وهم السادة : محب الدين الخطيب ، اوفده الى نجد ، والشيخ محمد القلقيلي اوفده الى بلاد الشام والشيخ عاصم رضا ، اوفده الى بلاد اليمن .

٢ انشأ الانكليز اتصالات محدودة مع قادة حزب اللامركزية العثماني بمصر ، وكان السيد رشيد رضا وكيله ، ورفيق العظم رئيسه ، ومحب الدين الخطيب مساعد أمينه العام .

٣ ـ ويشير امين سعيد الى ان وصول محمود المحمصاني الى القاهرة واجتماعه بقادة الاحزاب فيها كان صدفة ، لوجوده على ظهر الباخرة الذاهبة من باريس الى بيروت وبما ان هذه الباخرة من عادتها ان تبقى يومين في الاسكندرية فقد أغتنم الفرصة وجاء الى القاهرة واتصل باخوانه العاملين في الحركة العربية ، وعلم ايضا ان هناك اتصالات بين الانكليز وبين جماعة اللامركزية .

٤ ـ ان اخوان المحمصاني في بيروت ارسلوا الشيخ كامل القصاب الى القاهرة للاطلاع على هذه الاتصالات ، بعد أن سمعوا بها من محمود المحمصاني .

٥ ـ ان الانكليز اتصلوا ثلاث اتصالات مع الشريف عبد الله قبل اعلان الحرب سنة ١٩١٤ .

ان الوثائق التي وجدتها في مكتبة محب الدين الخطيب والتي استندت اليها في هذه الدراسة تشير الى ان المبادرة كانت من حزب الفتاة اولا ، وان محمود المحمصاني بالاضافة الى كونه عضوا مؤسسا في حزب الفتاة ، الا انه في نفس الوقت كان عضوا في حزب اللامركزية ايضا . أو بصورة أخرى ، كان هو ومحب الدين الخطيب صلةالوصل بين الفتاة واللامركزية . وهذا تكتيك حزبي استخدمته الفتاةوسارت عليهطيلةعهدها.

أما قضية اتصال الانكليز بالشريف عبد الله ، فقد ذكرتها اكثر المصادر وتناولتها من أوجه متعددة .

ففي حين يذكر الملك عبد الله في مذكراته ، وامين سعيد(٥٨) ، ان اللقاء بين (كتشنر وستورس) وعبد الله سنة ١٩١٤ كان صدفة اثناء زيارته للقاهرة ، يؤكد ستورس ، وانيس صايغ ، أن اللقاء كان مقصودا ، وان بادرة الاتصال صدرت عن عبد الله وليس عن كتشنر(٥٩) . ويضيف ستورس ان عبد الله سأله بصراحة ما اذا كانت بريطانيا مستعدة لتزويد الشريف حسين بدستة أو دستةونصف من الرشاشات الحربية وعندما سأله عن الغرض منها اجاب ، كما يجيب طالبو الاسلحة عموما ،

للدفاع ، ويضيف ستورس أنه اعاد السؤال بالحاح مستفهما عما يعنيه بالدفاع فقال انه الدفاع ضد هجمات الاتراك ، ويقول ستورس لم اكن بحاجة الى تعليمات خاصة لاخبره اننا لا يمكن ان نفكر في تزويد احد باسلحة تستعمل ضد قوة صديقة(٦٠) .

كما تشير المصادر الى قضية اتصال الانكليز بالشيخ رشيد رضا ، وهي قضية صحيحة لان الشيخ رشيد يذكرها في المنار ، ولكن الذي لا يذكره قضية استلامه مبلغ الالف جنيه الذي يشير اليها أمين سعيد .

ومما يلفت النظر ، ان رشيد رضا يذكر أيضا مقابلته مع عبد الله في نفس العام ١٩١٤ ، وكيف ان الشريف دخل في جمعية الجامعة العربية واقسم قسمها . ولعل الشيخ رشيد قابل الانكليز واستلم المبلغ بصفته من اصدقاء عبد الله بن الحسين . وهذا التعليل ينقلنا الى نطاق أوسع وهو ان الانكليز ربما تداولوا الامر مع الشيخ رشيد رضا بصفته الشخصية وليس بصفته أحد اعضاء حزب اللامركزية أو غيره من الاحزاب ، كما ان محب الدين الخطيب لم يشر الى اتصال الانكليز بحزب اللامركزية ، او حزب الجامعة العربية في مذكراته ، بل ، واكثر من ذلك ، يستغرب حديث برسي كوكس معه ، ويشير مندهشا ومخمنا انه كان يعرف المهمة التي انتدب من أجلها .

وقبل أن تتبلور هذه المقابلات في خطة عربية مشتركة لمواجهة الموقف الذي سينشأ عن دخول الدولة العثمانية الحرب ، زج الاتحاديون وحكومتهم بالدولة العثمانية في اتون الحرب الى جانب المانيا ، كما كانت الاحزاب العربية تخشى وتتوقع ، وذلك بتاريخ ٣٠/١٠/١٩١٤ . فما كان من حزب اللامركزية الا ان كلف الشيخ رشيد رضا وهو أحد كبار قادته ان يبعث برسائل الى من يثق بهم في سورية يحثهم فيها على الولاء للحكومة ، وينشر خطابا عاما موجها الى مسلمي سورية يقول فيه : « ثم اشكر لكم ما اظهرتموه من النجدة والهمة في الاخلاص والطاعة للدولة ، وبذل الانفس والاموال والثروة لها ، والكف عن طلب الاصلاح فيها ، وتقديركم الحالة الحاضرة قدرها ، حتى انكم ساهمتم في هذا الرقي امم الارض التي سكتت عن جميع مطالبها ونزعاتها الداخلية »(٦١) .

ويمكننا القول ان موقف الاحزاب العربية كان لا يختلف عن موقف حزب اللامركزية ، ما عدا جمعية العربية الفتاة (٦٢) . وبدأ نوع من التقارب بين الاحزاب العربية وحزب الاتحاد والترقي ممثلا بجمال السفاح الذي سار في اوائل عهده على سياسة التودد للعرب بخبث ودهاء كبيرين ، وبعد أن كسب ثقة ومودة بعض قادة

الحركة العربية من ذوي الصلات الوثيقة بالاحزاب ، وان لم يكونوا من اعضائها وقادتها ، مثل عبد الكريم الخليل وغيره . ولكنه لم يلبث ان كشف القناع عن وجهه كسفاح يعمل على استئصال الحركات العربية التي ظهرت قبل الحرب وسحقها .

ان السرعة المذهلة التي تم بها قلب الوضع بين الاتحاديين والحركة العربية تدل على خطة مبيتة ومرسومة مسبقا ..

على ان هذا الاستنتاج الذي ينطوي على حكم يدين الاتحاديين وسياستهم ، وسرعة تغييرهم هذه السياسة ، لا بد له من الشرح الوافي(٦٣) . فهو مسألة مطروحة على كل من يتعرض لهذه الحقبة من تاريخ الدولة العثمانية ، او من تاريخ بلاد الشام بصورة خاصة . والذي يعنينا هنا ان جمال باشا كان قد علق القافلة الاولى على اعواد المشانق في دمشق وبيروت في آب (اغسطس) سنة ١٩١٥ ، ليتبعها قبل ان تجف دماء الشهداء بالقافلة الثانية في أيار (مايو) سنة ١٩١٦ معتبرا الجميع اعضاء في حزب اللامركزية ، وكان عبد الكريم الخليل من ابطال وشهداء القافلة الاولى ، وعبد الحميد الزهراوي ، رئيس المؤتمر العربي ، من ابطال وشهداء القافلة الثانية ، وانفرط عقد الحزب بعد هذا التاريخ .



الحواشي :

(١) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

(٢) راجع : مجلة دراسات تاريخية ، العددان التاسع والعاشر ، تشرين أول ١٩٨٢ .
بحث للدكتورة سهيلة الريماوي بعنوان «صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩
ص ١٢٠ وما بعدها .

(٣) رفيق العظم ، اثاره ، المقدمة صفحة ج ، بقلم رشيد رضا .

(٤) الامير مصطفى الشهابي ، القومية العربية ، ص ٨١ .

(٥) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

(٦) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

(٧) من وثائق محب الدين الخطيب .

(٨) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ، رسالة موجهة من عبد الغني العريسي الى محب الدين الخطيب ، وموقعة بالرقم ٢١ وهو رقم العريسي اثناء اقامته في باريس .

(٩) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب، رسالة موجهة من الحزب الى الجمعية الاصلاحية في بيروت .

(١٠) راجع نص البرقية في جريدة الاهرام بتاريخ ١٩١٣/٤/١٥ .

(١١) هذا الكتاب يقع في حوالي ٢٤٠ صفحة تقريبا بعنوان « المؤتمر العربي الاول ـ المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان بارس في يوم الاربعاء ١٨ حزيران سنة ١٩١٣ ».

(١٢) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب واوراقه رسالة موجهة من العريسي الى الخطيب .

(١٣) راجع كتاب المؤتمر العربي الاول في باريس ، ص ٥ .

(١٤) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب واوراقه ، محضر جلسة للحزب بهذا التاريخ .

(١٥) المصدر السابق ، الوثيقة ، وكتاب المؤتمر العربي الاول في باريس ، ص ٨ .

(١٦) جريدة المؤيد ، بتاريخ ١٩١٣/٣/٢٧ .

(١٧) حول أسماء بقية الوفود ، راجع كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ١٤ ـ ١٦ .

(١٨) راجع خطبة اسكندر عمون في كتاب المؤتمر العربي الاول ، ص ١٠٠ وما بعدها .

(١٩) راجع قرارات المؤتمر بالتفصيل في كتاب المؤتمر العربي ، ص ١١٣ ـ ١٢١ .

(٢٠) لقد حصلت على عدة وثائق من مكتبة محب الدين الخطيب ، وهي عبارة عن رسائل متبادلة بين مركز الحزب في القاهرة وفروعه في فلسطين وسورية والسودان والعراق .

(٢١) راجع كتاب المؤتمر العربي الاول ، المقدمة صفحة ب ، بقلم رشيد رضا .

(٢٢) لقد قدم احمد عزت الاعظمي في كتابه القضية العربية ، ج٤ ، تحليلا وافيا حول مقررات المؤتمر والاتفاقية ، نرجو الرجوع اليه .

(٢٣) راجع كتاب ساطع الحصري ، نشوء القومية العربية ، ص ٢٠٢ .

(٢٤) اعضاء هذا الوفد هم من اعضاء هيئة المتابعة التي بقيت في باريس لمتابعة قرارات المؤتمر برئاسة الزهراوي وقد ارسلت وفدا من اعضائها الى الاستانة بناء على طلب عبد الكريم الخليل ، ويتالف من سليم سلام والشيخ أحمد طبارة واحمد مختار بيهم ، بينما بقي الزهراوي في باريس .

(٢٥) مجلة المنار ، م١٩ ، ج٣ ، ص ١٧٦ .
وبين مجموعة أوراق محب الدين الخطيب عدة رسائل متبادلة بين الحزب وعبد الحميد الزهراوي وفيها نظهر بوضوح ان الحزب لم يستطع الضغط على صديقه الزهراوي ، فترك له حرية الخيار في السفر الى الاستانة .

(٢٦) راجع اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٩٢ .

(٢٧) راجع نص الحديث الصحفي في اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢٨) راجع حول هذا الموضوع ، جريدة الاهرام ، بتاريخ ١٩١٤/١/٢١ ، و ١٩١٤/١/٣٠ والاعضاء هم: عبد الرحمن اليوسف ، سليمان الباروني ومحي الدين النقيب ، ثم محمد بيهم ويوسف سرسق واحمد الكيخيا .

(٢٩) راجع نص البيان ، في مجلة المنار ، م١٦ ، ج١١ ، ص ٨٤٩ ـ ٨٧٩ .
وفي كتاب احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ج٤ ، ص ٣٠-٥٢ .

(٣٠) مجلة المنار ، م١٧ ، ج٣ ، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٣١) مجلة المنار المصدر السابق .

(٣٢) مجلة المنار ، م١٩ ، ج٣ ص ١٧٤ .

(٣٣) راجع نص الكتاب الذي ارسلته جمعية الاتحاد السوري ورد حزب اللامركزية عليه في احمد عزت الاعظمي ، القضية العربية ، ج ٤ .

(٣٤) سنتعرض لهذه القضية ونقدم حولها شرحا وافيا في دراسة لاحقة تدور حول حزب العهد العسكري السري .

(٣٥) لقد وجدت بين أوراق محب الدين الخطيب عدة رسائل بخط الزهراوي موجهة الى حزب اللامركزية تدور حول هذا الموضوع .

(٣٦) وهي مذكرات مخطوطة موجودة في مكتبة آل الخطيب في القاهرة ، لم تطبع بعد .

(٣٧) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل.

(٣٨) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ،محضر جلسة للحزب بهذا التاريخ .

(٣٩) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ،محضر جلسة للحزب .

(٤٠) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب ،بيان صادر عن حزب اللامركزية .

(٤١) هناك دراسة مفصلة اقوم باعدادها لتصدر في كتاب مستقل تحمل عنوان « جمعية العربية الفتاة السرية » دراسة وثائقية .

(٤٢) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب مصدرها مدينة حمص .

(٤٣) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل

(٤٤) كان حقي العظم قد اسس الجمعية الثورية واخذ يصدر المناشير والبيانات التي تهاجم الاتحاديين والوضع بشكل عام في الامبراطورية ، وكانت هذه البيانات تنسب الى حزب اللامركزية . ويشير أحمد قدري في كتابه مذكراتي عن الثورة العربية ان هذه المناشير كانت السبب في المشانق التي علق عليها جمال باشا احرار العرب . راجع حول هذه النقطة « الجمعية الثورية » احمد عزت الاعظمي ، في كتابه القضية العربية ، جـ ٤ . واحمد قدري ، مذكراتي عن الثورة العربية .

(٤٥) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

(٤٦) نفس المصدر السابق .

(٤٧) المصدر السابق .

(٤٨) وثيقة من وثائق محب الدين الخطيب ، محضر جلسة .

(٤٩) لقد وجدت عدة وثائق بين وثائق محب الدين الخطيب في مكتبته حول هذا الموضوع وساقدم حولها دراسة مفصلة في وقت لاحق .

(٥٠) اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ١٢٩ .

(٥١) من أوراق الدكتورة سهيلة الريماوي ، مقابلة خاصة مع محب الدين الخطيب في القاهرة سنة ١٩٦٦

(٥٢) محب الدين الخطيب ، المذكرات ، سيرة جيل

(٥٣) امين سعيد ، اسرار الثورة العربية الكبرى ، ص ٢٧ .

(٥٤) محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

(٥٥) وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

(٥٦) نفس الوثيقة والمصدر .

(٥٧) راجع أمين سعيد ، الثورة العربية الكبـرى ومأساة الامير حسين ، ص ٣٧ – ٣٩ .

(٥٨) عبد الله بن الحسين ، مذكراتي ، ص ٧١–٧٣
وامين سعيد ، اسرار الثورة العربية الكبرى ،ص ٣٥ – ٣٦ .

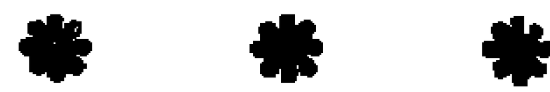
(٥٩) انيس صايغ ، الهاشميون والثورة العربيـةالكبرى ، ص ٧٧ .

(٦٠) Storrs, R., Orientation, P. 123, London 1943.

(٦١) اسعد داغر ، ثورة العرب ، ص ١٣٧ .

(٦٢) لقد قدمنا تحليلا وافيا حول موقف جمعيـةالعربية الفتاة السرية ، في كتابنا عن الجمعية ، وهي دراسة وثائقية ستصدر قريبا .

(٦٣) راجع دراسات تاريخية ، العددان الثالث عشروالرابع عشر ، ص ١٣٨ وما بعدها ، بحثالدكتورة سهيلة الريماوي بعنوان (مفهوم اللامركزية عندالعرب العثمانيين) .



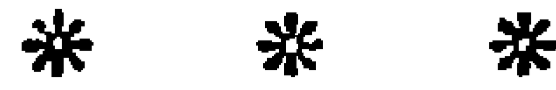
مؤتمرات تاريخية

بعض ملاحظات حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية

(من نهاية القرن الثامن عشر الى بداية القرن العشرين)

عقد في مدينة ستراسبورغ بفرنسا ، برعاية جامعة ستراسبورغ وبدعم من لجنة اللغات والحضارات الشرقية التابعة للمركز الوطني الفرنسي للدراسات العلمية ـ وفي آن واحد ـ المؤتمر الدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي لتركيا ، وندوة عالمية لمعالجة الاقتصاد والمجتمعات في الامبراطورية العثمانية منذ اواخر القرن الثامن عشر وحتى مطلع القرن العشرين .

وشارك في المؤتمر ما يزيد على مائة باحث ، كما شارك في الندوة ثمانون باحثا ، تقدم واحد واربعون منهم ببحوث ، نشر القسم الاكبر منها في الكتاب الذي نعالجه هنا .



يعاني التاريخ العربي الحديث من قلة الدراسات عن الولايات العربية التي بقيت تحت السيطرة العثمانية مدة اربعة قرون ، من القرن السادس عشر حتى بداية هذا القرن ، على الرغم من وجود آلاف السجلات في مراكز الوثائق ، في دمشق وطرابلس واستانبول ، وغيرها من المدن ، بالاضافة الى رسائل القناصل الاوروبيين ، التي تنتظر من يتعمق بالبحث فيها . ويأتي الكتاب حول **اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية (من نهاية القرن الثامن عشر الى بداية القرن العشرين)** ليسد جزءا من هذا الفراغ ، وان كانت الابحاث المخصصة للولايات العربية فيه قليلة نسبيا .

عقد مؤتمر ستراسبورغ بين الاول والخامس من تموز ١٩٨٠ ، وشارك فيه واحد واربعون باحثا من بلدان مختلفة . اما الكتاب الذي صدر في العام الماضي

عن « المركز الوطني للدراسات العلمية بباريس » ؛ ★) فقد جمع خمسة وثلاثين بحثا قدمت في المؤتمر حول الموضوعات التالية :

- عهد التنظيمات (الاصلاحات الادارية والاجتماعية والاقتصادية) .
- اثر الراسمالية الاوروبية على اقتصاد الامبراطورية العثمانية .
- الحياة الاقتصادية الداخلية للامبراطورية .
- المشاكل الديموغرافية واحصاءات السكان .
- ثورة الاتــراك الجـــدد .

وما يؤخذ على الكتاب عدم تبويب البحوث في فصول يتناول كل منها موضوعامعينا وقد يكون السبب صعوبة وجود قاسم مشترك بين العديد من البحوث ، وضعف المستوى « النظري » لمعظمها . وما سنحاول تقديمه هنا هو تلخيص لبعض هذه البحوث التي رأيناها ذات اهمية ، لانها عالجت اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية ، محاولين بذلك ابراز اهم نتائج وطروحات المؤتمر .

« دمج الامبراطورية العثمانية بالسوق الرأسمالية العالمية »

يعد مقال الباحثين ايمانويل فالرشتاين ورشاد كسبه ، وعنوانه **« الدمج ضمن السوق العالمية : تغيير بنية الامبراطورية العثمانية ، ١٧٥٠ - ١٨٣٩ »** ، اكثر المقالات شمولا لمحاولته بناء اطار منهجي يفسر اقتصاد ومجتمعات وسياسة الامبراطورية العثمانية بصورة عامة .

يكمن الفارق بين اقتصاد الامبراطورية العثمانية واقتصاد الدول الاوروبية الراسمالية ، بنظر الباحثين ، في ان الاول يخضع ، كاقتصاد سائر الامبراطوريات ، الى نظام سياسي موحد يرتكز على الاسلام الحنفي كركيزة ايديولوجية للدولة العثمانية. وتضم هذه الامبراطورية ، جماعات وكتل عرقية واديان مختلفة ، لم تسع الدولة ،

Economie et Sociétés dans l'Empire Ottoman (Fin du XVIII^e- Début du XX^e Siècle). Actes du colloque de Strasbourg (1er-5 Juillet 1980), Publiés par Jean-Louis Bacqué-Grammont et Paul Dumont (Paris: CNRS, 1983).

المقالات باللغات الثلاث : الفرنسية والانكليزية والالمانية « ٤٨٦ صفحة » .

طوال اربعة قرون ، لدمجها او تفتيتها ، بل اقتصرت علاقتها معها على تحصيل الضرائب واعادة توزيعها . لذا فان نمط الاقتصاد العثماني ، يقتصر بالدرجة الاولى على اعادة توزيع الضرائب وفقا للتراتب السائد في شتى انحاء الامبراطورية . ويختلف هذا النمط من الانتاج عن الراسمالية الاوروبية ، التي نمت منذ القرن السادس عشر ، في ان الدول الاوروبية كانت ذات انظمة سياسية متعددة ، تحاول دمج افرادها ضمن اطر قومية وجغرافية محددة . اما اقتصادها فهو خاضع لمنطق انتاج السلع وتسويقها للحصول على فائض القيمة منها . ولم تتم عملية التسويق هذه في اطار جغرافي معين (اوروبا مثلا) بل اتسعت لتشمل،في القرن التاسع عشر، العالم كله.

ينطلق اذن مقال فالرشتاين وكسبه من الفرضيات التالية :

(١) رافق نمو الاقتصاد الراسمالي العالمي ، منذ القرن السادس عشر ، تقسيم جديد للعمل في المجتمع .

(٢) يتطلب نمط الانتاج الرأسمالي العالمي توسيع رقعته الجغرافية باستمرار ، وامتدادها الى امكنة تقع خارج سيطرته السياسية .

(٣) ينتج عما سبق ان الاقتصاد الراسمالي العالمي يحاول باستمرار « دمج » مجتمعات غير راسمالية ، ومن بينها طبعا الامبراطورية العثمانية ، في السوق العالمية.

يقارن المقال بين مرحلتين من تاريخ الامبراطورية العثمانية : الاولى مرحلة ما قبل « الدمج » بالسوق الرأسمالية العالمية ، والثانية (بين ١٧٥٠ — ١٨٣٩) التي شهدت تنظيما اقتصاديا وسياسيا مختلفا عن المرحلة السابقة . ويتمحور المقال حول السؤال التالي : لماذا بدات عملية « الدمج » في منتصف القرن الثامن عشر (حوالي سنة ١٧٥٠) وليس قبل ذلك ؟

كان الاقتصاد العثماني يقوم بشكل اساسي على الزراعة الريفية وطوائف الحرف المدينية . وكانت الدولة العثمانية ، بواسطة جهازها البيروقراطي ، تعمل على توزيع الاراضي الزراعية وجباية ضرائبها ، وذلك ضمن اطار النظام المعروف (بالتيمار) . فمعظم الاراضي الصالحة للزراعة هي مبدئيا ملك للدولة ، وتسمى اراضي (اميرية) : ففي سنة ١٥٢٨ مثلا ، كانت نسبة الاراضي « الاميرية » ٨٧٪ . وعندما كانت الدولة العثمانية ، بنتيجة الحروب التوسعية التي خاضتها تلحق اراضي جديدة بالامبراطورية ، كانت تصنف تلك الاراضي وفقا لحجمها واهميتها التراتبية ،

ضمن سجلات خاصة تعرف « بالتيمار » ثم يتم توكيل مسؤول (السباهي) على مقاطعات (التيمار) هذه . وللسباهي وظيفتان اساسيتان : فهو من جهة عسكري ذو رتبة عالية في الجيش ، ومن جهة اخرى هو مسؤول عن تحصيل ضرائب مقاطعات التيمار التي اصبحت ، بعد توزيعها من قبل الدولة ، اشبه بالملكية الفردية .

وكانت اراضي التيمار تصادر من السباهي في حال عدم تمكنه من تحصيل الضرائب المطلوبة .

وكان السباهي ، ابان « العهد الكلاسيكي » للامبراطورية العثمانية ، صلة الوصل بين الفلاحين والسلطة المركزية ، التي كانت بدورها تدعم هذه الصلة عن طريق وسطاء آخرين . فالى جانب النظام القضائي المديني ، كان الدفتردار يقوم بتنظيم توزيع الضرائب وكيفية تحصيلها من المتصرفين بمقاطعات التيمار ، ومن شيوخ طوائف الحرف ، الذين كانوا بدورهم صلة الوصل بين الحرفيين والسلطة المحلية المالية (اي الدفتردار) . اذ يخضع التنظيم الحرفي المديني الى تراتب جامد على رأسه شيخ الحرفة الذي يتولى حل الخلافات الداخلية للطائفة وتحصيل الضرائب وفقا لقدرة المساهمين ، كما أن الطائفة تحدد عدد المعلمين والاجراء والصناع . وتمنع ممارسة المهنة دون اذن سابق من أهل الحرفة .

بدات الصورة التي رسمناها عن الامبراطورية العثمانية ، وتتلخص في سيطرة الدولة على القوى الانتاجية ، تتبدل تدريجيا منذ القرن السابع عشر ، وذلك لعدة اسباب اهمها :

(١) توقف التوسع الحربي للامبراطورية ، حتى انه ، منذ اواخر القرن التاسع عشر اصبحت الدولة غير قادرة على المحافظة على مقاطعات استولت عليها في القرون السابقة .

(٢) اضعف ذلك نظام التيمار الذي يرتكز ، بالدرجة الاولى ، على ضم مقاطعات جديدة كغنيمة حرب واعادة توزيعها ، ويهدف الى زيادة التحصيل الضريبي وفقا لتزايد نفقات الدولة واجهزتها .

(٣) نتج عن دخول الذهب الاسباني بكميات كبيرة الى داخل حدود الامبراطورية العثمانية ، تضخم في الاسعار وفقدان العملات المحلية لقيمتها ، مما زاد في خلل ميزانية الدولة التي ضعفت لعدم قدرتها على زيادة الضرائب .

حاولت الدولة ، للاسباب التي سبقت الاشارة اليها ، ولاسباب اخرى ، كالانفاق على حروب باهظة الثمن وغير مجدية ، والتغيير الذي طرأ على اهمية معظم الطرق التجارية داخل الامبراطورية وخارجها ، الى تحسين نظام جباية الضرائب ، فنتج عن ذلك ابدال نظام التيمار بالالتزام . وما يهمنا من الناحية التاريخية معرفة الفارق في الشكل والبنية بين هذين النظامين والتحولات الاجتماعية التي نتجت عن اعتماد نظام الالتزام . واستغرق الانتقال من نظام الى اخر قرن او اكثر ، وتم التحول في بعض الولايات ، بسرعة اكثر من ولايات اخرى . الا ان ما يهمنا من الناحية التاريخية ، هو المقارنة بين شكلين من ريع الارض برزا في ظروف تاريخية مختلفة .

وبذلك ينتهي البحث .

الانفتاح التجاري العثماني على الدول الاوروبية

يكمل مقال الباحث سلفور كنصال **« غزو الراسمالية الصناعية للسوق الداخلية العثمانية (١٨٣٨ ـ ١٨٨١) »** الصورة العامة التي رسمناها باقتضاب شديد عن التطور التاريخي للاقتصاد العثماني . اذ يحلل الكاتب اثر الثورة الصناعية الاوروبية التي بدأت في منتصف القرن الثامن عشر وبلغت اوجها في القرن التاسع عشر على اقتصاد الامبراطورية العثمانية . ويتساءل عن اسباب « الانفتاح » الاوروبي الى خارج رقعة سيطرته السياسية ، والاسباب التي حتمت على العثمانيين قبوله كامر واقع لا مفر منه .

يحلل مقال كنصال الفترة الممتدة بين عامي ١٨٣٨ و ١٨٨١ ، وهي الفترة التي شهدت « انحلالا » في السوق الراسمالية الاوروبية ، بالمقارنة مع الفترة السابقة الممتدة بين عامي ١٧٨٩ و ١٨١٤ . وبدأ الانحلال سنة ١٨١٤ وامتد الى ١٨٤٩ . ففي القرن التاسع عشر ، دعم الاقتصاد البريطاني ، وهو اقوى قوة صناعية انذاك بالتبادل التجاري مع الدول الاخرى وخاصة « غير الراسمالية » منها ، وسبب ذلك عدم وجود المواد الاولية الكافية ، في بريطانيا ، للصناعة . واستغلت بريطانيا دورها كاقوى قوة سياسية وصناعية في العالم في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، لتوسيع رقعة تبادلها التجاري ، فاختارت بذلك التوسع الخارجي لان بنيتها الداخلية لم تكن مستعدة بعد لامتصاص نموها الصناعي والاقتصادي المتعاظم .

كانت سياسة بريطانيا الخارجية تهدف الى تفتيت الحواجز التي تعيق توسعها التجاري محاولة بذلك اغراق الاسواق «غير الراسمالية» ببضائعها وسلعها ، «وضمها»

الى السوق الراسمالية العالمية . فالمعاهدة التجارية مع الامبراطورية العثمانية في ١٧ آب ١٨٣٨ (تلاها اتفاق اخر بين فرنسا والامبراطورية في ٢٠ نوفمبر ١٨٣٨) محاولة لـ « عقلنة » التجارة العثمانية بعد رفع الحواجز الداخلية التي تعيق انتقال البضائع بين مختلف الولايات العثمانية ، وتنظيم التجارة الخارجية مع الدول الاوروبية الراسمالية . اما خط التنظيمات الذي اتبعته الدولة منذ عام ١٨٣٩ ، والذي كان لبريطانيا دور بارز في صياغة خطوطه العريضة ، فما هو الا الجانب السياسي للانفتاح على الغرب ومؤسساته الدستورية والحقوقية .

وكانت الولايات العثمانية ، قبيل معاهدة ١٨٣٨ ، منفصلة تجاريا عن بعضها البعض وكانت الضرائب المرتفعة لتغطية العجز المالي المستمر تعيق انتقال البضائع بحرية من ولاية الى اخرى ، مما اضعف حركة التجارة داخل الامبراطورية . كما كانت التجارة ، كالاراضي الزراعية ، ملتزمة سنويا وبالمزد من قبل اشخاص ذوي علاقة وثيقة بالدولة واجهزتها ، وتمدد عقود هؤلاء الاشخاص في حال تحصيلهم الالتزامات المتوجبة عليهم .

ومن جهة اخرى ، فان الملتزمين لعبوا دور الوسيط بين الدولة والتجارالاجانب، فتمكنت الدولة بذلك من مراقبة حركة التصدير والاستيراد ، والحد من نفوذ التجار الاوروبيين الاقتصادي والسياسي في الامبراطورية .

يستنتج مما سبق ان الامبراطورية العثمانية استطاعت ، حتى معاهدة ١٨٣٨ ، المحافظة على التوازن بين تجارتها الداخلية وتجارتها الخارجية ، وحدّت بذلك من عجزها المالي المتفاقم . وقد نتج عن التغلغل التجاري والسياسي الاوروبي منذ عام ١٨٣٨ ، عجز مستمر في ميزان الاستيراد والتصدير ، وتدهور في قيمة العملات المحلية وازدياد ديون الدول غير الصناعية من الدول الاوروبية الراسمالية .

معاهدة ١٨٣٨ التجارية

نبه اورهان كرمش في مقاله « **نظرة جديدة الى معاهدة ١٨٣٨ التجارية** » الى تسرع البعض في التأكيد بان معاهدة ١٨٣٨ بين الامبراطورية العثمانية وبريطانيا (ولاحقا مع فرنسا) قد تسببت في انهيار الحرف في المدن العثمانية . فالبعض يدعي ان المعاهدة ، التي رفعت التعرفة الجمركية على السلع المستوردة من ٣ الى ٥٪ ، وطلبت الغاء « الحواجز الداخلية » لانتقال السلع من ولاية الى اخرى ، لاغراق السوق الداخلية بالبضائع البريطانية الرخيصة الثمن ، قد تسببت في انهيار الحرف في المدن

العثمانية . وتتكون « الحواجز الداخلية » التي طالبت المعاهدة بالغائها من ثلاثة اجراءات ادارية : تلزيم الجمارك الداخلية لاحد الملتزمين واعطائه السلطة التامة في تحصيل الضرائب على السلع المستوردة ، نظام « التذكرة » الذي يسمح في بعض الحالات في نقل البضائع بين الولايات ، واخيرا ، التعرفات الجمركية المتعددة لنقل البضائع بين الولايات .

ففي نظر بعض المحللين ، لم تكن زيادة الـ ٢٪ على الاستيراد الخارجي كافية لمكافحة الضرر الناجم عن الغاء « الحواجز الداخلية » ، وما يعارضه اورهان كرمش هو الربط غير المبني علميا بين معاهدة ١٨٣٨ وانهيار الحرف فيما بعد . ويناقش ثلاث فرضيات تفتقر للبراهين العلمية الكافية .

تقول الفرضية الاولى ان الغاء نظام الالتزام على السلع قد شجع استيراد المصانع الصغيرة الى تركيا وذلك لانخفاض اسعار المستوردات . فالملتزم الذي يحتكر عملية شراء سلع معينة وبيعها ، في سوق غير راسمالية ، اي غير منفتحة للمنافسة التجارية ، يبيعها باسعار مرتفعة، كما ان كمية السلع المبيعة ضئيلة . ويعارض اورهان كرمش هذه الفرضية الاولى وذلك لان فتح السوق العثمانية للمنافسة « الراسمالية » لا يعني بالضرورة تدنياً في اسعار السلع وكثرة وجودها في السوق ، اذ ان عملية ارتفاع الاسعار والتضخم في العملات مرتبطة بعوامل عدة . ومن جهة اخرى ، فان المعلومات المتوافرة لدينا عن نظام التزام السلع الذي كان ساريا قبيل معاهدة ١٨٣٨ ، في القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر ، ضئيلة جدا ولا تسمح لنا بالتأكيد بان الغاءه ، بعد ١٨٣٨ ، قد اساء للانتاج المحلي .

اما الفرضيات الاخرى عن نظام « التذكرة » والجمارك الداخلية الاخرى ، فهي كالفرضية التي ناقشناها ، ضعيفة وغير مبنية على اسس علمية . وكثيرا ما يستعمل المؤرخون ارقام القناصل الاوروبيين دون مناقشتها . واذا اخذنا على سبيل المثال الارقام التي تظهر قيمة السلع المستوردة من بريطانيا الى الامبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر ، فهي تظهر وبشكل واضح زيادة نسبية سنوية في قيمة السلع . لكننا سرعان ما نلاحظ ان هذه الارقام لا تأخذ بعين الاعتبار معدل التضخم السنوي في بريطانيا (حوالي ١٫٤٪ في القرن التاسع عشر) في قيمة السلع . اي باختصار ، ان الارتفاع في قيمة السلع عن السنين السابقة لا يعني بالضرورة زيادة في الكمية .

ومن ناحية ثانية ، فان تقارير القناصل وتقارير الرحالة الاجانب حول الحرف

المحلية متضاربة فيما بينها . فبينما تدعي بعض التقارير ان عدد الانوال لنسج الاقمشة في حلب مثلا ، قبيل الاتفاقية ، يزيد على الاربعين الفا ، تتحدث تقارير اخرى عن عشرة آلاف نول فقط . والاهم من ذلك ، أن هذه التقارير وغيرها لا تميز في اغلب الاحيان بين « الصناعة » الاستهلاكية و « الصناعة » البيتية ، فهذه الاخيرة معدة لاكتفاء الاسرة الذاتي ولحاجاتها اليومية الضرورية .

اقتصاد بلاد الشام في القرن التاسع عشر

يرسم عبد الكريم رافق وبطرس لبكي صورة حية عن عملية « دمج » اقتصاد ذي بنية « تقليدية » بالسوق الراسمالية العالمية . واخذا في مقاليهما ، مثالا على ذلك اقتصاد مدينة دمشق وجبل لبنان في فترات مختلفة من القرن التاسع عشر .

يبدأ عبد الكريم رافق بالاشارة في مقاله « **اثر اوروبا على الاقتصاد التقليدي : دمشق بين ١٨٤٠ و ١٨٧٠** » الى دور حلب الاقتصادي المتميز منذ الفتح العثماني عام ١٥١٦ . فمن العوامل التي ساهمت في انفتاح حلب التجاري ، الى جانب تواجد التجار والقناصل الاجانب فيها باستمرار منذ القرن السادس عشر ، موقعها الجغرافي بين الاناضول والولايات العربية . فاصبحت حلب « مدينة ترانزيت » في المنطقة . ولم تستطع دمشق ، طيلة ثلاثة قرون ، اخذ هذا الدور منها على الرغم من مرور قافلة الحج السنوية فيها .

بدات هذه الصورة تتبدل تدريجيا منذ بداية القرن التاسع عشر ، وساهمت عدة عوامل في هذا التبدل ، كالهزة الارضية التي ضربت حلب عام ١٨٢٢ ، وضعف دورها كمدينة ترانزيت بعد ان فقدت السلع المستوردة من الاناضول اهميتها السابقة . ولعل السبب الاهم في بروز دمشق « كبديل » لحلب قربها من شواطيء المتوسط ، فمع توسع التجارة الراسمالية الاوروبية ، منذ بداية القرن التاسع عشر ، اصبحت وسائل النقل البحرية التي تعتمد البخار الاكثر استعمالا لانها الاسرع والاقل كلفة . فتعاظم دور المدن البحرية ، كبيروت مثلا ، التي اصبح مرفأها صلة الوصل بين اوروبا وبلاد الشام ، واصبحت بذلك ، حسب تعبير احد القناصل الاوروبيين « المرفأ الحي لدمشق » .

بدأ التجار والقناصل الاوروبيون يتوافدون الى دمشق منذ حكم محمد علي في سورية (١٨٣١ ــ ١٨٤٠) ، فوصل اليها اول قنصل بريطاني عام ١٨٣٣ ، واسست

اول قنصلية فرنسية عام ١٨٣٩ ، وتلتها قنصليات اخرى منها قنصليات بروسيا ، والولايات المتحدة الاميركية ، والنمسا واليونان .

يحلل عبد الكريم رافق ، مستندا الى رسائل القناصل الفرنسيين وارشيف المحاكم الشرعية بدمشق ، الفترة الممتدة بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٧٠ ، اي منذ الانسحاب المصري من سورية وعودة الحكم العثماني اليها ، وحتى فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ . وتعرف هذه الفترة الزمنية بعهد التنظيمات السياسية والادارية والاقتصادية ، ولقد شجع اتفاق ١٨٣٨ التجاري بين الامبراطورية وبريطانيا وفرنسا، الذي الغى الامتيازات التجارية والاحتكار في شراء السلع وتسويقها ، التواجد الاوروبي التجاري في بلاد الشام .

الا ان الاثار السلبية للانفتاح التجاري على الغرب بدأت تظهر منذ الانسحاب المصري من بلاد الشام سنة ١٨٤٠ . ففي الثلاثينات ، كان يوجد في دمشق ، وفق تقرير جون بورينغ الشهير ، حوالي (٤٠٠٠) نول لصناعة ما بين (٨٣٢ — ١٠٤٠) الف قطعة من الالاجا والقطني ، وهي قطع قماش ذات اقلام مصنوعة من القطن والحرير . وعام ١٨٥٠ ، تدنى عدد الانوال الى (٦٥٣) نولا لصناعة القطني و (١٠١٣) لصناعة الالاجا . ثم عاد وارتفع العدد الى ٢٨٠٠ نول سنة ١٨٥٦ ، وفقدت دمشق نصف صناعتها بعد حوادث تموز ١٨٦٠ .

ويبدو انه ، نظرا للصعوبات التي واجهتها الصناعة الحرفية المحلية ، والزراعة الريفية ، بعد الانسحاب المصري ، انشأت الدولة مجالس تضم اعيان دمشق ، هي اشبه بالمحاكم المختصة وتنظر في الخلافات الناجمة عن سوء استعمال الالتزام ،وبقيت الامور الاخرى من اختصاص المحاكم الشرعية التقليدية . ففي سجل « مجلس شورى الشام العالي » لعام ١٨٤٥ ، شكوى من قبل عبد القادر خطاب ، الذي التزم لعدة اعوام متتالية مقاطعة « الدمغة » (وهي ضريبة على الاقمشة المحلية قبل بيعها في السوق) ومقاطعة « دق القطني والالاجا » . وتشير الشكوى الى خسارته السنوية بسبب المنافسة الناجمة عن اغراق السوق المحلية بالبضائع الافرنجية . كما انشات الدولة ، سنة ١٨٥٠ ، محكمة تجارية من اربعة عشر عضوا ، يعين نصفهم من قبل السلطات العثمانية ، والنصف الاخر من قبل القناصل الاوروبيين ، مما يدل على اهمية التجار الاوروبيين في بلاد الشام في منتصف القرن التاسع عشر .

ويدرس بطرس لبكي في مقاله « **نسج الحرير في صنجق جبل لبنان : تجربة نمو صناعية غير مستقلة (١٨١٠)** » تطور زراعة وصناعة الحرير في جبل لبنان منذ

بداية القرن التاسع عشر حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى ، فكانت صناعة الحرير وتسويقه الى الخارج تشكلان ، في الفترة الزمنية التي يحللها بطرس لبكي ، الركن الاساسي لاقتصاد جبل لبنان . وهي صناعة معدة ، بالدرجة الاولى ، للتصدير الخارجي (اوروبا ، مصر ، بلاد الشام) . لذلك فانها تشكل نموذجاً لصناعة ، في تاريخ اقتصاد الامبراطورية العثمانية ، مرتبطة ارتباطا تاماً بالاسواق الخارجية ، فاستهلاك جبل لبنان للحرير لم يكن يتعدى ، بين العامين ١٨٤٠ و ١٨٤٥ ، (١٥ر١١٪) من مجموع صادرات الحرير . اما الصادرات للخارج فكانت كالاتي : فرنسا ٥ر١٩٪ ، مصر ٢ر٥١٪ ، سورية ٤٥ر١٨٪ . ويكمن التحول الاساسي في صناعة حرير جبل لبنان ، خلال القرن التاسع عشر ، في احتكار فرنسا تدريجيا زراعة وصناعة خيوط الحرير وتسويقه الى مصانع ليون . فارتفعت الصادرات الى فرنسا من ٥ر١٩٪ بين عامي ١٨٤٠ و ١٨٤٥ ، الى ٣ر٩٣٪ عامي ١٩١١ – ١٩١٢ ، وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى ، انهارت زراعة وصناعة الحرير انهيارا تاما ، فانقطاع العلاقات بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا حرم هذه الصناعة من مركز ارتباطها الخارجي الاول ، اي فرنسا .

ونهي عرضنا بمقال غبريال باير **« المالك ، الفلاح ، والحكومة في الولايات العربية للامبراطورية العثمانية في القرنين التاسع عشر وبداية القرن العشرين »** لارتباطه بالمقالات الاخرى التي عرضناها باقتضاب شديد في الصفحات السابقة .

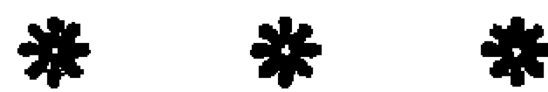
يناقش باير ثلاثة تحولات رئيسية في ملكية الاراضي الريفية ، خلال القرن التاسع عشر ، في الولايات العربية للامبراطورية العثمانية ، وهي : الغاء نظام الالتزام وظهور الملكية الخاصة في الاراضي الزراعية الريفية ، وانحلال المجتمع القروي ، وظهور الملكيات الخاصة الكبيرة .

الغى محمد علي نظام الالتزام في مصر في القرن التاسع عشر ، واصبحت جميع الاراضي المزروعة ملكية خاصة ، كما ان جميع الاراضي الاميرية ، اي التي كانت ملكا للدولة ، قد اصبحت تدريجيا بيد الملاكين . اما في بلاد الشام ، فقد بقي نظام الالتزام سائدا حتى الحرب العالمية الاولى رغم قرار الالغاء الرسمي ضمن خط شريف كلخانة سنة ١٨٣٩ . ويعود ذلك الى قوة الاعيان المحلين في القرى والمدن . فبقيت بذلك نسبة الملكية الخاصة ، طيلة القرن التاسع عشر ، ضئيلة بالمقارنة مع نسبة الاراضي الاميرية .

يشكل « الغرب » ، كقوة اقتصادية توسعية ، القاسم المشترك للمقالات التي اخترناها من الكتاب . فالتوسع الاقتصادي الاوروبي سبب انهيار الحرف المحلية واضعف انتاج الزراعة الريفية ، وساهم في انحلال المجتمع القروي . كما أن التنظيمات السياسية التي اعتمدتها الامبراطورية العثمانية ، بدءا بخط كلخانة سنة ١٨٣٩ ، كانت من وحي الحياة السياسية في الغرب : مساواة جميع الرعايا امام الدولة ومؤسساتها ، الغاء نظام الالتزام ، وتشجيع الملكية الخاصة (بعد قانون الاصلاح الزراعي سنة ١٨٥٨) . وهكذا يبدو الغرب بمؤسساته السياسية والاقتصادية القوة التي غيرت بنى مجتمعات مختلفة عنه ، بقيت طيلة قرون تقاوم التغيير الى أن « دمجها » الغرب بزمنه « الافقي » والموحد . وما يؤخذ على معظم المقالات هو عدم تشديدها على دراسة البنى « التقليدية » لمجتمعات « ما قبل الراسمالية » مما يفسر القناعة المخطئة بنظرنا بان هذه البنى قد « زالت » . فهل « زالت » فعلا تلك البنى التقليدية ؟

زهير غزال

مرشح للدكتوراه — ج. باريس — السوربون .



فقد مشروع كتابة تاريخ العرب ، في الشهور الاخيرة من العام الماضي ، ثلاثة ابناء بررة وزملاء اعزاء من رجال الفكر والثقافة والتاريخ ، بوفاة الدكتور اسعد عربي درقاوي ، استاذ الفلسفة في جامعة دمشق ووزير التعليم العالي (٢٠ تشرين الثاني) ، والكاتب المفكر جلال فاروق الشريف (٣ كانون الاول) . وكان قد بلغنا قبل ذلك نبأ وفاة الدكتور محمود الغول استاذ تاريخ العرب القديم في جامعة اليرموك .

رافق اسعد عربي درقاوي وجلال فاروق الشريف مشروع كتابة تاريخ العرب في خطواته التأسيسية الاولى ، عندما كان فكرة ، وشاركا في المحاورات والمناقشات الطويلة . وكان لكل منهما حضوره الفكري المتميز لما يتحلى به من ثقافة شاملة وعلم غزير وفكر متوقد .

كان اسعد عربي درقاوي ، بسعة اطلاعه على التيارات الفكرية والفلسفية ، وتحريه المتاني للحقيقة ، واعتزازه بالعروبة وتراثها ، صاحب الراي السديد والحجة القوية . اما جلال فاروق الشريف ، الذي شغلته منذ فجر شبابه قضايا الفكر المعاصر وموقع الفكر العربي ، ودور الامة العربية في الحضارة الانسانية ، فقد رافق مشروع كتابة تاريخ العرب في جميع مراحله ، وتولى ادارة تحرير هذه المجلة .

وشارك الدكتور محمود الغول في الندوات الاولى التي نظمتها لجنة كتابة تاريخ العرب في دمشق ، فكان ، بما عرف به من علم ومن اخلاص للتاريخ العربي وايمان بالعمل المشترك ، مثال الاستاذ الباحث الاصيل .

ان لجنة كتابة تاريخ العرب ، وهيئة الاشراف على مجلة دراسات تاريخية ، تعربان عن الحزن العميق والأسى البالغ لفقد الاساتذة الاعلام الراحلين ، اسبغ الله عليهم فيض رضوانه .


Bibliotheca Alexandrina
0536049
